الاشراف الفني : زهـــير الحـمو

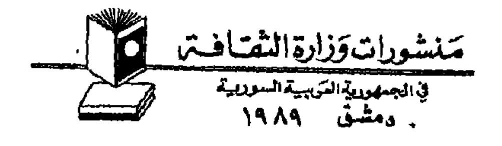
القديم والجديد

قضايا النهضة العربية

١

القديم والجديد

إعداد وتقديم :
محمد كامل الخطيب



القديم والجديد / اعداد وتقديم محمد كامل الخطيب .ـ
ط١ .ـ دمشق : وزارة الثقافة ، ١٩٨٩ .ـ ٥٣٦ ص ؛ ٢٤ سم
.ـ (قضايا النهضة العربية ؛ ١) .

١ـ ٩ر٨١٠ خ ط ي ق ٢ـ العنوان ٣ـ الخطيب
٤ـ السلسلة
مكتبة الأسد

الايداع القانوني : ع ــ ١٨٦ /١١ /٩ /١٩٨٩

من عصر النهضة

الـــى

نهضـــة العصـــر

- ١ -

يبدو الوطن العربي عموما والفكر العربي الراهن خصوصا وكانهما يعيشان نوعا من عصور « عودة الملكية » ، اي العودة الى الماضي ، فيما والافكارا وموضوعات ، فالكتب القديمة والتقليدية هي الاغـزر طبعـا ، والحركات السلفية والدينية ، فكريـا وسياسيا ، هـي الاكثر ظهـورا وضجيجا وتحركا ، والناس يعيشون مشاعر الحنين الى الماضي والفخر به اكثر مما تعيش فيهم مشاعر الامل بالمستقبل ، بل ربما يبدو المستقبـل بالنسبة للكثيرين مظلما قياسا الى ماض وضاء او الى واقع شاحب ، بينما ، والى امس قريب جدا ، كانت المشاعر والظواهر مختلفة تماما ، فمنذ منتصف القرن التاسع عشر يجري الحديث عن النهضة المامولة ، والى زمن ما بين الحربين الاخيرتين كانت النهضة العربية تضيء الامـال وتحلم بالتغيير والمستقبل ؛ تيارات وبرامج محددة ، وخصوصا في مصر وسوريا ، فثمة ، آنذاك ، حركة تنوير شاملة تنهض وترافق التغيير الذي كان يحصل في اساسيات واسس المجتمع العربي ، وثمة انجازات معروفة وما اسماء الطهطاوي والافغاني وسلامة موسى وطه حسين وسـاطع الحصري وسليم خياطة ، وامثالهم ومجايليهم ، الا رموز لهذه المرحلـة النهضويـة التي نحاول تقديمها في مشـروعنا التاريخي ـ التوثيقي : « قضـايا النهضة العربية » .

خلال عصر النهضة العربية جرت خلخلة الاسس التقليدية للمجتمع والفكر القديمين ، وفي الوقت نفسه كانت الافكار الجديدة تتقدم ، فخلال هذا العصر الجديد حقا ، جرى ــ مثلا ــ تحديد مفهوم جديد للامة ، وبدل مفهوم الامة الاسلامية المرتبط آنذاك بوجود السلطنة العثمانية ، جرى ، وبعد انهيار هذه السلطنة ، تحديد رابطة جديدة لبلاد الشام ومصر والعراق ، والمغرب العربي فيما بعد ، هو مفهوم الامة العربية ، وبعبارة اخرى كان هذا التبديل يعني الانتقال من التحديد الديني للامة وللشعب الى التحديد القومي ، اي الزمني ــ المدني لهذه الامة ولهذا الشعب ، وخلال تقديم هذا التحديد الجديد ، وعلى ارضيته ، نبتت مفهومات جديدة في ترتيب العلاقات الاجتماعية وتجديدمؤسسات المجتمع فدخلت المدرسة المدنية منافسة ، ومن ثم طاردة للكتّاب والمسجد في التعليم ، وجاء الاستاذ ذو النظارات منافسا للامام والشيخ ولابس الجبة وجاءت القبعة مكان الطربوش والعمامة ، مثلما جاءت الاحزاب السياسية مكان الملل ، وجاءت الطبقات مكان الملة واحدة العقيدة والمصلحة ، وجاء مفهوم الديمقراطية ــ نظريا ــ بديلا لمفهوم الاستبداد الشرقي ، ٠٠٠٠ والى آخر ما جاء من تجديدات اجتماعية ، وفي الوقت الذي جرت فيه هذه التجديدات في اسس وهياكل المجتمع ، كانت التجديدات تجري في الحقل الثقافي ايضا ، فجاءت الفنون والاجناس الادبية الجديدة ، جاءت الرواية والمسرح والقصة القصيرة والفنون التشكيلية ، وحركة تجديد الشعر ، وخلال كل ذلك كانت اللغة العربية تنهض وتجدد نفسها لتتنفس هواء الجديد ، هواء العصر ، فتتغير دلالاتها ، وتزداد وتغتني مفرداتها ، ويتغير تركيب وبناء جملتها ، وبعبارة تلخيصية ، بدا كل شيء وكأنه يتغير ،ونحو الامام ، بل ونحو الافضل ، وهذا سر النبرة الرسولية لدى ممثلي هذه المرحلة ، فقد كانت المهمة واضحة لدى مفكري وادباء هذه المرحلة الا وهي : النهضة ٠

لكن ، ومنذ اواسط السبعينات ، بدا وكان هنالك عملية التفاف بل وتراجع عن كل ما جد واستجد في عصر النهضة ومرحلتها ، فمفهومات القومية هوجمت وجرت محاولات لاعادة تحديد الامة والشعب على اساس

الدين والعقيدة ، فتفجرت الحروب والمذابح الطائفية من جديد ، وهوجمت مفاهيم الحزبية والتعدد الحزبي والطبقات الاجتماعية ، بل والديمقراطية عموما ، على انها مفاهيم غربية واستعمارية ، ثم برزت الى الواجهة انظمة اشبه بانظمة المماليك وملوك الطوائف ، واعيد دمج الديني بالزمني واعلن الحكام ايمانهم ، بل ان بعضهم عاد الى قطع يد السارق ، في محاولة لتملق مشاعر موجات التدين والعودة الى الافكار والتنظيمات الماضية واصطياد المثل الاعلى وحلول مشكلات الحاضر في الماضي وليس في الراهن والمستقبل ، وحتى الفنون الحديثة من رواية ومسرح ونحت جرى الهجوم عليها ، وبعبارة مختصرة ، بدا وكان كل انجازات عصر النهضة العربية ، الفكرية والاجتماعية والادبية ، تقف على شفا هاوية ، بل ان بعض ممثلي الفكر النهضوي ، وقعوا في الهاوية وشكلوا تيارات ماضوية حديثة ، أو سلفية جديدة ، وحتى التيارات الجذرية في فكر النهضة العربية ، كالماركسية لم يجد بعض ممثليها مانعا من العودة الى الماضي للبحث فيه عن مشروعية واصول افكارهم وتقدميتهم التي لم يستطيعوا ان يروا في الراهن والمستقبل تاسيسا لها ، فنقبوا عن هذا الاساس في ارضية الماضي وبين كتبه .

لكن كل هذه العودة الى الماضي ، وكل هذا الالتفاف على عصر النهضة بالتسلل الى ما قبله ، لم يفعل شيئا حقيقيا سوى تعميق الازمة بكل مظاهرها وابعادها ، ففي خلال موجة التراجع الى ما قبل عصر النهضة دخلت البلدان العربية في اشد درجات ازماتها خطورة ، مجتمعات وحكومات واحزابا وشعوبا ، بل ومن خلال محاولات اعادة تحديد الهوية على اساس ديني اسلامي ، مقابل للغرب المسيحي ، براسماليته واشتراكيته ، على ما يقولون ، جرى اوثق ارتباط بالسوق الامبريالية حتى صار الدولار عملة وطنية لمختلف الانظمة العربية ، ومن خلال اعادة تاسيس التقدميين العرب لفكرهم على اساس افكار ما قبل النهضة العربية ، جرى اكبر تراجع بل وتفتت لهذا الفكر واحزابه بقسميه القومي والماركسي فتراجع من تراجع الى الماضي ، واعلن من بقي في مواقعه نفي « الازمة » وبعضهم رفع الرايات السوداء ، واخرون البيضاء ، بينما

بقي الكثيرون ساهمين غائمين يلوكون في غبطتهم احلامهم الوردية ، ويجترون خطاباتهم الحماسية وكانهم اغوات اقطاعيون افلسوا لكن كبرياءهم لا يسمح لهم باعلان افلاسهم ، فهل ثمة ما يبكي ويضحك ـ معا ـ اكثر من هذا ، وهل من ثمة مفارقة اكثر من هذه تستطيع ان تقول لنا ولمن يريد ان يسمع : ان الحل ليس هنا ؟!

- ٢ -

طرح عصر النهضة العربية قضية الاستقلال عن الغرب ، كاستعمار مع الاخذ من علومه وحضارته وتقنياته وافكاره ، وبعبارة ثانية طرح الانطلاق من اللحظة الراهنة في تطور الحضارة العالمية ، ولم يطرح العودة الى ما قبلها ، وبعبارة محددة طرح هذا العصر في منطوقه وتياراته الدافعة الحاضر والمستقبل ، الحاضر العالمي طريقا لتغير الراهن العربي والراهن العالمي طريقا لبناء المستقبل العربي كذلك ، وبمراجعة تجارب الشعوب التي عانت مشكلة مثل مشكلتنا ونجحت في حلها نجد ان هذه الشعوب قد فعلت الشيء نفسه ، فهذا ما فعلته يابان عصر الميجي في القرن التاسع عشر ، وهذا ما فعله بطرس الاكبر في روسيا ، وهذا ما تابعه وعمقه وحققه لينين والماركسيون الروس في القرن العشرين ، بل وهذا ما حاوله محمد علي في القرن التاسع عشر .

اما عندنا فان هذا الطرح ، اي الانطلاق من التاريخ البشري في لحظته المعاصرة ، يتعرض الآن للتراجع عنه والالتفاف عليه عبر العودة الى ما قبل اللحظة التاريخية المعاصرة ، اذ تجري العودة الى المرحلة ما قبل الراسمالية ، ناهيك عن الاشتراكية ، تجري الدعوة للعودة الى افكار وتنظيمات ومثل وقيم بل ولغة العصور الوسطى ، فلماذا ، وكيف حدث ما حدث ؟.

ليس بامكاننا تقديم جواب عن اسباب ما حدث ، اي عن اسباب هذا التراجع ، سواء في افكار الطليعة العربية المعاصرة ، او في افكار المجتمع برايه العام واحزابه ومؤسساته ، فهذا يقتضي دراسة مختلف

جوانب الحياة العربية المعاصرة ، بل ويقتضي جهود اكثر من فرد ، لكننا نطرح هنا هذا التساؤل :

هل انتهى عصر النهضة العربية حقا ؟ وهل اصبح هذا العصر جثة ميتة كما يعامله السلفيون ، بل وبعض التقدميين العرب عندما يتسلل جمعهم ويلتف الى ما قبل هذا العصر ، او عندما يبحثون عن اسس افكارهم وتقدميتهم او اصوليتهم في ثورة الزنج وآراء ابن رشد والقرامطة وخلافة عصر الراشدين او عمر بن العزيز، بل وفي الفرق الباطنية والصوفية لدى بعضهم ؟! ام ان اسهامات واشكالات وقضايا عصر النهضة ، افكار وقضايا الطهطاوي وخير الدين والافغاني ومحمد عبده وفرح انطون وطه حسين وساطع الحصري وسليم خياطة ما تزال راهنة ، بل ومقاتلة حقيقية للسلفية وافكار العصور الوسطى ، ما تزال راهنة لانها تكونت في مناخ شبيه بالمناخ الذي نعيشه الآن ، تكونت في مناخ مناقشة ومناقضة الافكار السلفية التي استعادت المبادرة وعادت تطفى اليوم ، فهل نستطيع مثلا ان نفهم افكار سلامة وطه حسين واحمد امين وساطع الحصري حقا الا بمعارضتها مع افكار مصطفى صادق الرافعي وشكيب ارسلان ورشيد رضا وشيوخ الازهر ؟ هل نستطيع ان نفهم تكون الفكرة القومية الا بمعارضتها بافكار الجامعة الاسلامية ؟! هل نستطيع ان نفهم تجديد الشعر الا بمعارضته بنمط الشعر الذي كان ينظم في القرن التاسع عشر وما يزال ينظم على شاكلته حتى الآن ، وهل نستطيع ان نفهم اهمية الرواية والمسرح الا بمعارضتهما ومقابلتهما مع الاجناس الادبية السائدة آنذاك ؟!

بهذا المعنى فقضايا عصر النهضة ما تزال قضايانا ، من تحديد مفهوم الامة ، الى تنظيم مؤسسات المجتمع ، الى الاجناس الادبية ، وشخصيات عصر النهضة ما تزال حية بيننا ، من ابي الهدى الصيادي والرافعي ، الى سلامة موسى والعقاد ومحمود احمد السيد الى علي عبد الرازق وسليم خياطة والصراع الذي جرى آنذاك ما يزال يجري الآن .

ربما هكذا توضع الامور في نصابها ، وتناقش القضايا بشكلها

المباشر ، الصريح والراهن ، اي دون العودة الى الفنة الماضي وارضيته وسمائه ، فوضع النقاش على ارضية السلفيين الحاضرة يعني الاستسلام مقدما لتاسيساتهم ، ذلك ان الصراع مع السلفيين ليس على الماضي ، كما يريد هؤلاء ان يصوروا الصراع ، بل هو في الزمن الراهن الذي يهرب منه هؤلاء السلفيون ، والتقدميون السلفيون الجدد ، انه صراع على المستقبل الذي لا يمكن ان يبنى الا بالنظر الى الامام .

ومن هنا ربما كان الاجدى هو الانطلاق من عصر النهضة العربية ، اي من مشكلات وقضايا هذا العصر ، فهي مشكلات وقضايا الراهن والحاضر والمستقبل ، ففي حوارنا عن عصر النهضة وعلى ارضيته نجد التاسيس لنهضة العصر ، نهضة العرب التي ما تزال حلما ، حلما يتوقد ويصبح اكثر إلحاحا كلما تامل المرء هذا الخراب العربي الشامل ، هذا المستنقع العربي الآسن الذي يهدد بإغراقنا وقتلنا جميعا في وحوله وغازاته السامة ، بينما نحن نتذكر الماضي مغتبطين ونعلي صوتنا باغانيه كلما ازددنا تسمما وتخبطا وغرقا ، فهلا نظرنا في بحثنا عن شجرة النجاة الى الامام والى الاعلى ، وليس الى الوراء حيث لا شيء الا هذا المستنقع ، هلا فكرنا كيف نخرج من هذا المستنقع ؟!

هل نستطيع الانطلاق من عصر النهضة العربية الى نهضة هـذا العصر ، وهل يستطيع الاحياء دفن الموتى حقا ، ام ان ماساة دفن الموتى للاحياء وللآمال والاحلام ، والبشر وكما يحدث الآن في الوطن العربي، سوف تستمر ؟!

- ٣ -

سنحاول فيما يلي تتبعا وثائقيـا وزمنيا لمشكلات وقضايا عصر النهضة العربية ونحددهـا بدءا من أواسط القرن التاسع عشر ، ثم تقديم هذه العملية الاجتماعية التاريخية الجدالية والفكرية ، والتي عبرهـا تكون الفكر العربي الحديث ، ووسيلتنا في ذلك اعـادة ترتيب وتركيب هذه الموضوعات والقضايا ، اي اعادة تركيبها زمنيا ، وبالالام

اصحابها ، منذ تولدت اولى الافكار ، الى ان صارت هذه القضايا افكارا ومفهومات وتنظيمات تفعل في المجتمع العربي المعاصر ، وتدل بتاريخ تكوينها ومضمونها على شكل وترتيب هذا المجتمع ـ الواقع الذي نعيش فيه ، تدل على شكل حياته وتحدد قضاياه ومشكلاته مثلما تحدد صورته ومكانته في عصر التاريخ الانساني الواحد والشامل .

في سبيل ذلك قمنا بتتبع هـذه الموضوعات في المجـلات والمصادر والمؤلفات العربية الاساسية المتاحة ، واعدنا تفكيك عصر النهضة العربية الى قضاياه الاجتماعية والفكرية والادبية الاساسية بادئين بقضية القديـم والجديد ، ثم تتبعنا كل قضية من بدايات بزوغها وحتى استوائها تقريبا عند مرحلة الخمسينات أواسط القرن العشرين ، مختارين ما بدا لنا ذا اهمية تاريخية في الحوار بين الآراء ، سواء اختلفنا ام اتفقنا مع صاحبه ، وهكذا امتدت رحلتنا حوالي القرن ، وهي المدة التي جرى خلالها تكوين المجتمع العربي الجديد بابعاده السياسية والفكرية والاقتصادية، وقد أصبح معلوماً للقارىء أن هذه المرحلة الزمنية باتت تسمى بعصر النهضة .

محمد كامل الخطيب
دمشـــق ١٩٨٨



القديم والجديد

- ١ -

١ ـ ربما تكون قضية القديم والجديد هي القضية الاساس في الفكر والادب ، بل والمجتمع العربي المعاصر ، فمن هذه القضية تفرعت تقريبا كل القضايا الادبية والاجتماعيـة والفكرية كقضايا الروايـة والمسرح والديمقراطية وقضية المراة وتجديد اللغة ، والتحديث ، وغيرها من باقي القضايا الفكرية والادبية والاجتماعية .

بدات مناقشة قضية القديم والجديد في الثقافة والفكر والمجتمع العربي بعد ان كان المجتمع العربي قد بلغ مرحلة قارب فيها مرحلـة الانفصال عن الدولة العثمانية التي كانت تجمع شعوبها تحت رابطـة الدين الاسلامي ، وهنا كان طبيعيا ان يبحث هذا المجتمع عن رابطة اجتماعية ـ مدنية ـ فكرية جديدة تشد اجزاءه ، بعضها الى بعض ، بعد انحلال الدولة العثمانية وروابطها ، وكان طبيعيا في الوقت نفسه ان يبحث هذا المجتمع عن روابط وافكار او اساليب ادبية جديدة مختلفة عن الافكار والاساليب ، بل والاجناس الادبية القديمة .

لكن الامور لا تجري بهذه السهولة ، فالقديم مالوف ومحبوب وله المدافعون عنه ، مثلما الجديد مرغوب ومطلوب ، والمجتمع يحتوي في قواه وطبقاته وافكاره واساليبه من وما يدعو الى القديم ويحبب به ، مثلما بدات تتكون فيه قوى احست بالحاجة الى الجديد ، حتى ان بعضهم رأى امام الانحلال والتخلف العام الذي تعيشه مجتمعاتنا العربية بالنسبة الى البلاد الاوربية ان « لا قيام لامرنا الا بالاخذ من المدنية الاوربيـة »

فاوروبا كانت المثال والنموذج ، كانت تمثل الجديد بالنسبة لقوى التجديد .

اذا كانت اوروبا مثالا للجديد ومقياسا له ، فقد كان طبيعيا ان يدعو طه حسين الى منهج ديكارت بديلا لمناهج الازهر في الدراسة الادبية وكان طبيعيا ان يدعو ساطع الحصري الى القومية كرابطة مدنية اجتماعية جديدة للشعوب العربية بديلا لرابطة الدين التي انحلت بانحلال الدولة العثمانية ، مثلما كان طبيعيا ان يدعو مفكرون آخرون للديمقراطية الحديثة بديلا للاستبداد الشرقي التقليدي والمزمن ، وان يدعو قاسم امين لتحرير المراة بديلا لوضعيتها المعروفة في المجتمع التقليدي ، وان يدعو الشيخ علي عبد الرازق الى فصل الدين عن الدولة ، وكأنه يعلن ان انفصال العرب عن السلطة العثمانية لا يعني انفصالهم عن دينهم فالدولة امر زمني متبدل والدين امر آخر ، كما يرى الشيخ علي عبد الرازق في كتابه (الاسلام واصول الحكم ١٩٢٥) .

هذه النقاشات والحوارات بل والدعاوى القضائية احيانا ، كانت فروع ، او تجليات المعركة الاساس ، معركة القديم والجديد ، معركة تجديد الفكر والادب والمجتمع العربي .

٢ ــ يعود مصطلح القديم والجديد الى اوائل هذا القرن ، ويكاد يكون تطويرا للمصطلح الذي استعمل منذ القرن التاسع عشر وهو الاصلاح والنهضة ، فمع الحملة الفرنسية على مصر والشام ومن ثم زيارة رفاعة الطهطاوي وبعثته الى فرنسا ، ومع بداية السيرة الطويلة المعروفة بسيرة « الرجل المريض » أي سيرة انحلال الدولة العثمانية ، تحت ضغط الراسمالية الاوربية الصاعدة من جهة ، وضغط التحلل الداخلي للمجتمعات العثمانية من جهة ثانية ، منذ ذلك الوقت بدا التفكير في اصلاح الاحوال ، هذا التفكير بدأ في الوطن العربي مع جيل الطهطاوي ، وخير الدين التونسي واستمر طوال القرن التاسع عشر ، ثم تطور هذا المصطلح الى مصطلح النهضة في النصف الثاني من هذا القرن (*) .

(*) سنقدم قضية « الاصلاح والنهضة » في الحلقة الثانية من هذه السلسلة .

اما في بداية القرن العشرين ، وعندما اتضح ان الرابطة العثمانية قد انحلت ، وان لا امل في اصلاح السلطة او نهضتها ، وان الاقاليم العربية منفصلة عنها لا محالة ، فقد اتخذت القضية وجهة اخرى ، وجهة عنيفة حادة فيها كل عنف والم الموت والولادة ، عنف موت السلطنة والافكار العثمانية القديمة ، وعنف ولادة الافكار والمؤسسات والاجناس والاساليب واللغة الجديدة ، انه عنف البعث من خلال الرماد ، وربما كان ذلك هو السبب الكامن وراء الحدة والعنف اللذين سنلاحظهما في معركة الجديد والقديم لدى التقليديين ، وهو ما اضر في حقيقة الامر بقضية الديـن كتساؤل انساني امام الغاز الوجـود ، اولا ، وبقضية الجديد ثانيا ، وثالثا بقضية تجديد المجتمع العربي ككل ، ذلك ان طريقة التقليديين في تقديم ما هو جديد على انه الحاد ، وما هو تقليدي وقديم على انه من اصول الدين ، ان لم يكن هو الدين ، ادت في كثير من الاحوال الـى قتل الجديد والمتقدم ،واذا كان التقليديون ، بهذه الطريقة ، يربحون المعركة عبر مداعبة المشاعر السائدة والدعوة للحفاظ على الهوية التاريخية والثقافية والعقائدية ، فان المجتمع العربي هو الخاسر الحقيقي ، وهذا ما تدلنا عليه نتيجة معركة الجديد والقديم ، هذه المعركة التي بدأت اوائل هذا القرن ، ولكن من يدري من هو المنتصر الاخير ، على الرغم مما يبدو الان من انتصار التقليديين ، فللتاريخ دهاؤه ومكره ، دهاؤه ومكره اللذان هما جزء من منطقه وسيرورته ، كما هو معروف ، ولكن لنقرأ هذه المعركة ، معركة القديم والجديد ، فهي الاساس واللاحم لكل المشكلات الفكرية والادبية والاجتماعية التي طرحها ويطرحها المجتمع والثقافة العربيين في هذا العصر .

— ٢ —

١ — قام المعد بمسح تقريبي للمقالات في المجلات والكتب والمصادر العربية التي تناولت موضوع القديم والجديد في كليته ، اي دون الدخول في التفاصيل والفروع ، كالجديد والقديم في الرواية ، او المسرح ، او الشعر ، وهذه الفكرة ، او تلك ، فهـذه فروع وقضايا مستقلة ، اما

الفترة الزمنية التي جرى البحث فيها فتمتد من اوائل هذا القرن ، وحتى اواسط الخمسينات ، اذ ان الموضوع بعد ذلك اتخذ تسمية ومنحى آخر ، ولهذا آثرنا الوقوف عند فترة الخمسينات في الحلقات كلها .

٢ ـ بعد ذلك اختار المعد ما بدا له ذا اهمية فكرية وتاريخية ، او ذا دلالة في تكوين المشكلة وبلورتها أو عرضها ومناقشتها ، من خلال الجدال الذي دار بين المفكرين والكتاب العرب حول الموضوع ، ثم رتبت المقالات والفصول ترتيبا تاريخيا ، وبغض النظر عن القطر او المجلة او الكاتب . فاذا كانت الثقافة تشكل في كل دائرة ثقافية ، سلسلة متكاملة الحلقات فان السلسلة الثقافية العربية تشكل ، قديما وحديثا ، سلسلة متكاملة ، سلسلة تمتد من المغرب الى العراق ، مرورا بمصر وسوريا ولبنان وغيرها ، مثلما تمتد من الشعر الى الديمقراطية ، الى الرواية ، الى قضية المرأة ، وهكذا مرورا بالمسرح والوحدة واللغة والاشتراكية ، وفي الوقت نفسه ، فان تاريخ ومشكلات حلقات هذه السلسلة الثقافية تبقى واحدة ومتشابكة بالنسبة للثقافة والمجتمع العربيين في مختلف اقطارها ، واذا كنا لا نستطيع الحديث عن وحدة في السياسة والاقتصاد العربي المعاصر (الا بمعنى جوهره التابع) فاننا بالمقابل نستطيع الحديث باطمئنان عن وحدة السلسلة الثقافية العربية ماضيا وحاضرا ، فكما تنقل المتنبي بين سوريا ومصر والعراق ، فان فرق المسرح العربي تنقلت بين كل الاقطار العربية ، مثلما قرانا ونقرا مجلات الرسالة والهلال والمنار والطليعة والثقافة الوطنية والاداب والطريق التي انتشرت في مختلف اقطار البلاد العربية ، متخطية الحدود السياسية والاقتصادية والجغرافية المصطنعة .

٣ ـ رتبنا المحتويات ترتيبا تاريخيا في ثلاثة اقسام :

١ ـ مقدمات مسالة القديم والجديد .

٢ ـ مشكلة كتاب « في الشعر الجاهلي » كمثال للمعارك الفكرية التي دارت حول كتاب محدد ، فثمة معارك فكرية دارت حول كتب تجديدية اخرى : « تحرير المراة » لقاسم امين « والاسلام واصول الحكم » لعلي عبد الرازق .

٣ ـ نقاشات وحوارات حول القديم والجديد .

وكما هو ظاهر ، فقد افردنا قسما خاصا لمسالة كتاب « في الشعر الجاهلي » نظرا لاهميتها ولكونها المعركة الاكثر دلالة ، مثلما هي المعركة التي استقطبت الجميع من مفكرين ودولة ومؤسسات ، فهذه المعركة كانت الكاشف لكل التيارات والمواقف ، مثلما كانت المعركة التي ترتبت على اساسها نتائج مباشرة وغير مباشرة ، فهذه المعركة والطريقة التي ادير بها نقاشها ،وجهت ، وما تزال توجه ، الثقافة والفكر العربيين في نقاشهما حول تجديد المجتمع والثقافة العربية ، وهذه المعركة كانت وراء ربط التقليديين للدين بالقديم ، والجديد بالالحاد ، مثلما كانت السبب في توجه مثقفي الثلاثينات التقدميين الى دراسة التراث العربي في مختلف جوانبه ، ومن جهات نظر مختلفة (احمد امين ، بندلي الجوزي طه حسين ، محمد حسين هيكل ، تحقيقات كامل عياد وجميل صليبا لحي بن يقظان والمنقذ من الضلال ... الخ) والخلاصة كانت معركة تاريخية كاشفة ان لم نقل فاصلة ، كما ونرى من خلال هذه المعركة مسالة دخول الجامعة كمؤسسة تعليمية حديثة الى الجهاز الثقافي العربي . وفيما يلي مراحل ومقالات القديم والجديد كما سلسلناها :

المرحلة الاولى

	المقالة	الكاتب	السنة
١	ـ الشعراء المحافظون والشعراء المصريون	نجيب شاهين	١٩٠٢
٢	ـ الشعراء المحافظون	اسعد داغر	١٩٠٢
٣	ـ القديم والحديث	محمد كرد علي	١٩٠٩
٤	ـ الافكار القديمة والحديثة	محمد تيمور	١٩١٧
٥	ـ مقدمة الديوان	العقاد والمازني	١٩٢١
٦	ـ تقليد القدماء	ابراهيم المازني	١٩٢٤
٧	ـ الرافعي : المذهب القديم والمذهب الجديد	سلامة موسى	١٩٢٤
٨	ـ دفاع عن المذهب القديم	مصطفى الرافعي	١٩٢٤
٩	ـ الخصومة بين القديم والجديد	طه حسين	١٩٢٤

١٠ ــ الجملة القرآنيــة	شكيب ارسلان	١٩٢٤
١١ ــ القديم والحديث	محمد حسين هيكل	١٩٢٥

المرحلة الثانية

١ ــ مقدمة كتاب في الشعر الجاهلي	طه حسين	١٩٢٦
٢ ــ مقدمة كتاب « نقد كتاب في الشعر الجاهلـي »	عبد الرحمن قراعه (تقديــم) محمد الخضر حسين (المؤلف)	١٩٢٦
٣ ــ منهج الدكتور طه حسين	محمد عرفة	١٩٢٦
٤ ــ نقد كتاب الشعر الجاهلي«مقدمة»	محمد فريد وجدي	١٩٢٦
٥ ــ الالحاد في الجامعة المصرية	المنــار	١٩٢٦
٦ ــ مقدمة وخاتمة تحت راية القرآن ١ ــ ٢	مصطفى صادق الرافعـي	١٩٢٦
٧ ــ الدعوة الى الالحاد ــ كتــاب في الشعر الجاهلي ١ ــ ٢	المنــار	١٩٢٦
٨ ــ ديكارت	طه حسين	١٩٢٦
٩ ــ في الشعر الجاهلي	ابراهيم المازني	١٩٢٧
١٠ ــ قرار النيابة العامة	عن المنار	٩٢٧
١١ ــ مقدمة كتاب النقد التحليلي	محمد احمد الغمراوي	١٩٢٩
١٢ ــ تقريظ كتاب النقد التحليلي	المنــار	١٩٢٩
١٣ ــ حماة القرون الوسطى	سامي الكيالي	٩٣٢

المرحلة الثالثة

١ ــ الطربوش ام القبعة	مصطفى الرافعـي ومحمود عزمي	١٩٢٧
٢ ــ فاتحة القول	سامي الكيالي	١٩٢٧

٣ ــ الحديث	المنار	١٩٢٧
٤ ــ النهضة الجبارة	محمد علي ثروت	١٩٢٧
٥ ــ القديم والجديد	ابراهيم المازني	١٩٢٧
٦ ــ مجلة الرابطة الشرقية ١ ــ ٢	المنار	١٩٢٨
٧ ــ نحن وصاحب المنار	الرابطة الشرقية	١٩٢٨
٨ ــ قطيعة الماضي	سلامة موسى	١٩٢٨
٨م ــ قطيعة الماضي	ساطع الحصري	٠٠٠٠
٩ ــ الحاد ام اصلاح	محمد حسين هيكل	١٩٢٨
١٠ ــ تجديد	مجلة الجديد	١٩٢٨
١١ ــ كلمات في التجديد	محمود المنجوري	١٩٢٨
١٢ ــ التجديد	داوود بركات	١٩٢٨
١٣ ــ التجديد قديم	عباس محمود العقاد	١٩٢٨
١٤ ــ بين القديم والحديث	عبد الله الطيباوي	١٩٢٨
١٥ ــ الادب : قديمه وجديده	ب . النيال	١٩٢٩
١٦ ــ مرامي التجديد	سامي الكيالي	١٩٢٩
١٧ ــ المحافظون والمجددون	نقولا حداد	١٩٣٠
١٨ ــ الادب الجديد	اديب الصفدي	١٩٣٠
١٩ ــ بين الادب الجديد والقديم	خليل تقي الدين	١٩٣٠
٢٠ ــ مذهب الادب المصري	اديب	١٩٣٠
٢١ ــ اتجاهات التجديد	سامي الكيالي	١٩٣٢
٢٢ ــ تقديم	محمد حسين هيكل	١٩٣٣
٢٣ ــ الابداع والاتباع	جميل صليبا	١٩٣٣
٢٤ ــ التجديد في الدين	امين الخولي	١٩٣٣
٢٥ ــ حول التجديد	احمد حسن الزيات	١٩٣٣
٢٦ ــ التجديد في الادب (٣)	احمد امين	١٩٣٣
٢٧ ــ التجديد في الادب	عبد الوهاب عزام	١٩٣٣
٢٨ ــ التجديد في الادب	محمود الشرقاوي	١٩٣٣

٢٩ ـ تجديد التقليد	محمد حصار	١٩٣٣
٣٠ ـ هذه المعركة المزمنة بين الادبيين	كرم ملحم كرم	١٩٣٤
٣١ ـ التطور والتقليد	فخري ابو السعود	١٩٣٥
٣٢ ـ آراء في الماضي والحاضر	ميشيل عفلق	١٩٣٥
٣٣ ـ الميول الرجعية عند بعض ادباء العرب	يوسف متى	١٩٣٦
٣٤ ـ المتطمون والشعب	ابراهيم المصري	١٩٣٦
٣٥ ـ قطيعة الماضي	محمد امين حسونة	١٩٣٨
٣٦ ـ القديم والجديد	محمد احمد الغمراوي	١٩٣٨
٣٧ ـ بين القديم والجديد	عبد الوهاب الامين	١٩٣٨
٣٨ ـ الدين والاخلاق بين الجديد والقديم	قارىء	١٩٣٩
٣٩ ـ رد على نقد	محمد احمد الغمراوي	١٩٣٩
٤٠ ـ رد على رد	قارىء	١٩٣٩
٤١ ـ بين جيلين	محمد عبد الواحد خلاف	١٩٣٩
٤٢ ـ رجعية قديمة ورجعية جديدة	وصفي البني	١٩٤١
٤٣ ـ موقف العرب من الثقافة القديمة والثقافة الحديثة	عبد المعين ملوحي	١٩٤٣
٤٤ ـ كمقدمة	مارون عبود	١٩٤٨
٤٥ ـ الجديد والقديم	عبد الرزاق السنهوري	١٩٤٩
٤٦ ـ محاكمة الجيل الجديد	عباس محمود العقاد فتحي رضوان	١٩٤٩
٤٧ ـ القديم والجديد	ساطع الحصري	١٩٥١

ـ خاتمة وشهادتان :

١ ـ التجديد والتجدد والمجددون	رشيد رضا	١٩٣١
٢ ـ حديث	طه حسين	....

المرحلة الاولى

الشعراء المحافظون والشعراء العصريون

نجيب شاهين ١٨٦٥ – ١٩٢٧

يظهر ان الشعراء آخر من يفكر في خلع القديم الخلق والتزيي بالجديد ذي الطلاوة .. فمن كل زمرة الشعراء والمتشاعرين الذين ينظمون الشعر او يدعون النظم لا تكاد ترى واحدا في المئة يحاول مجاراة العصر ونبذ القديم واقتباس الجديد وتقليد الشعراء العصريين من الامم الاخرى . والسبب في ذلك اقتصار شعرائنا على درس الشعر العربي وعدم الاحتفال بدرس الشعر الاجنبي اما لانهم يجهلون اللغات الاجنبية او لانهم يزدرون الشعر الاجنبي ويحسبون ان الاهات الشعر لا توحي به الا اليهم وان ما ينظمه الشعراء الاجانب نفاية وسفسفة حتى كانه المقصود بقول ابي الطيب حيث قال :

ان بعضاً من القريض هذاءُ ليس شيئاً وبعضهُ احكامُ
منهُ ما تجلبُ البراعةُ والفضلُ ومنهُ ما يجلبُ البرســامُ

ومن الغريب ان مزية نظم الشعر العربي الجيد واتقان اللغات الاجنبية لا يلتقيان في شخص واحد او قلما يلتقيان فكانهما ضرتان او ضدان لا يجمعان او كان الاهات الشعر لا توحي به الا الى الذين لا يعرفون لغة اجنبية غيرة منها على شرف اللغة العربية . ومن خرج عن ذلك فشاذ لا يبني عليه حكم كالشاعر احمد بك شوقي فانه شاعر عربي وعارف لغة اجنبية وديوانه شاهد له بمقدرته على تقليد الشعراء الغربيين وخصوصا ما نظمه على السنة الحيوانات حاذيا في ذلك حذو لا فونتين وغيره وقد

اغتنمت فرصة تدريسي في المدرسة الكلية ببيروت السنة الماضية فكنت اعلم التلامذة القصائد المذكورة غيبا على كره بعضهم لها جهلا ولو عد الشعراء المحافظون نظم صاحبها لها وتعليمي اياها مروقا من مبادىء حزبهم كما سمعته من افواه بعضهم .

نشرتم لي في المقطم بعض قصيدة في مقالة من سلسلة مقالات بعنوان « هنا وهناك » . وقد اقترحت على السادة الشعراء اكمالها فجاءني كتاب من شاعر مجيد صديق قال فيه انه آخذ في تلبية طلبي ولكنه رأى ان يوجه خاطري الى مصراع في قصيدتي وينتقد علي المعنى المتضمن فيه . اما البيت فهو :

ونفور وخفة والتفات كظباء يمرحن في بستان

وملخص الانتقاد اني لو جعلت الظباء تمرح في واد او كثيب او منعرج او منعطف او على هضبة او اكمة لكان ذلك اوجه لاننا لم نعتد رؤية الظباء تمرح في البساتين والحدائق اذ هي حيوانات برية وحشية لا اليفة انسية . فما ينتقده صديقي عليَّ هو عين ما اردت توجيه الانظار اليه والبحث فيه للتحذير منه .

يقول صاحبي اننا لم نعتد رؤية الظباء تمرح في البساتين والحدائق بل في الاودية ومنعطفاتها والكثبان ومتمرجاتها . فاسأله كم ظبياً رأى في زمانه اما انا فلم ار في زماني ظبّياً في واد او على هضبة او اكمة ولن اؤمل ذلك لانه لا يتسنى الا لصياد في بلاد ترودها الظباء وتكثر فيها الغزلان . على اني رأيتها تنفر وتتلفت وتمرح في بستان فنظمت ما نظمت في ما رأيت اما هو فسمع بنفورها وتلفتها ومرحها مما نظم هذا الشاعر وذاك وعليه ينظم ما ينظم في ما يسمع . وما راءٍ كمن سمع .

والبستان الذي رأيت الظباء تتلفت وتنفر فيه بستان الحيوانات في الجيزة بمصر . ولو ذهب صاحبي الى هناك لصدق خبره الخبر ولوافقني على مصراعي بيتي . ولكنه يفضل بقاء القديم على قدمه ويحسب أن الالهام

لم يهبط الا على الشعراء الاقدمين وان ما ينظمه ابناؤهم هذاء في هذاء جاريا مجرى انصار الفلسفة القديمة فلسفة ارسطو واتباعه فانهم كانوا يسلمون بمبادئها وقواعدها تسليم الاعمى بحجة ان ارسطو ذهب اليها وهو معصوم من الغلط لا بناء على المشاهدة والاختبار والامتحان اركان الفلسفة الجديدة التي قلبت للاولى ظهر المجن ووضعت اساسا ثابتا مكينا للعلوم والفنون الحديثة .

ومما يجمل ذكره في هذا الصدد اني كنت اكلم عالما فاضلا ببعض الامور العلمية والادبية فورد ذكر الشعر والشعراء عرضا فجعلنا نقابل الشعر العربي بالشعر الافرنجي ونبين الفرق بينهما فقال ان السر ولترسكوت الشاعر الانكليزي المشهور كان اذا اراد وصف جدول ماء مثلا قصده ليراه بعينيه ثم رسمه على قطعة ورق بما على ضفتيه من الحصى والاحجار والاشجار كانه مصور لا شاعر . ثم شرع في وصفه شعراً حتى اذا قرأ احد ذلك الوصف امكنه تصور الجدول في مخيلته تصورا واضحا كانه يرى صورته الحقيقية امامه . اما شعراؤنا فقضوا ايامهم في مدح فلان وذم فلان واذا خطر لاحدهم ان يصف منظراً طبيعياً او حادثة ما وصف كما سمع من هذا وذاك وقلما يحكم وصفه ويدقق في التفصيل .

فوافقته على ما قال وقلت اني لا اكاد اتذكر شاعرا من شعراء العرب دقق التدقيق الواجب في وصف حادثة شاهدها غير المتنبي في وصف الاسد وما جرى بينه وبين بدر بن عمار في قصيدته التي مطلعها .

في الخدان عزم الخليطُ رحيلا ... مطرٌ تزيد بهِ الخدود محولا

حيث يقول :

امعفر الليث «الشديد» بسوطه ... لمن ادخرت الصارم المصقولا

الى آخر ما هناك من الوصف الدقيق الذي لا يقراه احد الا ارتسمت هيئة الاسد واضحة في ذهنه فاستطاع رسم صورته على الورق ولو لم يكن قد رآه في زمانه .

ومما يوآخذ شعراؤنا به ان يذكروا في قصائدهم اسماء اماكن في بلاد العرب لم يروها بل لم يروا احد ارآها . ولو اقتصر الامر على ذلك لهان ولكنهم يجهلون مواقعها وطبيعة ارضها واقليمها وسائر ما يتعلق بها وربما لم يكن الجغرافيون وعلماء تخطيط البلدان ومساحوها ومشاهير الافاقين والسياح والمكتشفين اكثر علما منهم بها وبحقيقة مواقعها وانما اكثر شعراء العرب ذكرها لانها قسم من بلدانهم فان كانت جبلا فكم استجاروا واعتصموا به او سهلا فكم حدوا عيسهم فيه أو عين ماء فكم وردوها وأرووا ظماهم بمائها او مطمئنا من الارض فكم اناخوا ركائبهم فيه للمبيت أو دوحة فكم تفيا ظلها للمقيل او طللا دراسا فكم مرحوا فيه وطربوا أيام كان ربعاً زاهياً . فما لشعرائنا يطيلون الوقوف على الاطلال وما لهم ولذكر العقيق والابلق ودارمية ووجرة وكاظمة والعذيب وبارق والمنحني ووادي الغضا وهم لا يعرفون منها الا اسماءها . قد كان كثيرون من شعراء الاسلام يكثرون ذكر بعضها في قصائدهم ويبالغون في مدحها لعلاقتها بصاحب الرسالة الاسلامية . فان كثيراً منها لم يكن يستحق المدح في حد نفسه كعين وجرة فانها عين سخينة الماء قليلة النز لا تنقع غلة ولا تشفي علة مرت للوحش في سبسب من الارض لا يسكنه انس ولا ياوي اليه جن . ولا الوم الشاعر العربي اذا مدحها واعجب بها ما شاء فكم اروى بها الظما هو وقومه بعد اجتياز المفاوز والسباسب الجافة من حولها . ومهما كان الماء اجاجا آسناً وجده اذ ذاك عذبا زلالاً . فمدحه للماء من قبيل الاقرار بالمعروف وعرفان الجميل .

هذا وبدلا من ان نلجا الى الرصافة والجسر في قول الشاعر « عيون المهى بين الرصافة والجسر » عند قصد التغزل والتشبب لماذا لا نقول « عيون المهى بين الجزيرة والكبري » في وصف المناظر في تلوح لعين الناظر بين كبري قصر النيل والجزيرة المشهورة في يوم سرحت ظباؤه وصفت سماؤه واعتل نسيمه وراق اديمه . الا يكون الوصف اذ ذاك اكثر مطابقة

هذا بعض ما جال في الخاطر عن الشعر والشاعر وقد استأذنت صديقي في نشر انتقادي على صفحات المقتطف الاغر فأذن ووعد بالرد ، ولي كلمة بعد على الكتابة والكاتب ارجئها الى فرصة اخرى ...

نجيب شــاهين

المصـــدر : مجلة المقتطف ، المجلد ٢٧ ــ ١٩٠٢ ، ج ١ .

الشعراء المحافظون

اسعد داغر

وفي النفس اشياءٌ لوقع اقلّها	تكاد جلاميدُ الصفا تتصدّعُ
علمنا فقلنا ما علمنا كما ترى	ولكن علينا الفعل صعبٌ ممتّعٌ
وما دام هذا الشانُ ياصاحِ شاننا	فلا القولُ ينجدينا ولا العلمُ ينفعُ

أبى صديقي الكاتب المدقق نجيب افنـدي شاهين الا ان يجتلبني بلطف اسلوبه وحسن تناوله الى خوض مبحثٍ ان امنت الغرقَ في تياره لم أسلم من البَلَل .. وان احجمت عن الاجابة قضى عليّ شرع الادب باللوم والعذل . فسأجيب وفاء بالوعد وانا اقول مكرهٌ اخوك لا بطل ..

من الاقوال المأثورة « الحقيقة أن تقال لا أن تعلم » لان الناس في الشرق والغرب يعلمون حقائق كثيرة لكنهم لا يقولونها لمساسها بالشرائع الدينية او القوانين السياسية او القواعد الاجتماعية او غيرها من الاسباب التي لا محل لذكرها هنا .. فتودع غيابات القلوب واعماق الصدور . ولا يؤذن لها أن ينفتح بها الفم وينطلق اللسان . الا متى زالت هذه المحاذير وانقطع خوف الانسان من الانسان .

ولكننا نحن الشرقيين مصابون والامر لله بخطب آخر اجل من هذا واعظم اذ لدينا فوق الحقائق التي نعلمها ولا نستطيع ان نقولها حقائقُ اخرى كثيرة علمناها وقلناها اذ لم يكن في قولها ما يخالف مبدأ او يناقض معتقداً لكننا لسوء الحظ وقفنا عند حد العلم والقول ولم نقرنهما بشيء من العمل . اذا الحقيقة عندنا ان تعمل لا ان تعلم وتقال . لان اكثر ما

جاء في مقالة حضرة النجيب من الحقائق التي علمناها وكثيرا ما قلناها وإما فعلها أو العمل بموجبها فالى الآن لم نجمع عليه . فهو مصيب كل الاصابة في حكمه على شعرائنا بأنهم محافظون على القديم لا يفكرون في خلعه ولعله أوجس خوف المناقضة أو الاعتراض فلم يصرح في حكمه كما أراد وكما هو الواقع . اما انا فأقول بكل صراحة ان كل الشعراء أسواء في التزام التحدي والاقتداء والفرق بين أفرادهم الذين تسامح مريدوهم في تسميتهم بالشعراء العصريين أو الاحرار في اصطلاح صديقي النجيب — وبين بقية الشعراء هو نسبي لا يحسب عند التحقيق فرقا .

وكانه بإلماعه الى اللغات الاجنبية يريد أن إتقان واحدة منها يعين الشاعر العربي على نزع التقليد واتيان الجديد وليس من ينكر عليه أن التضلع من احدى اللغات الغربية يزيد بضاعة الشاعر ويوسع دائرة تصوراته لكنه قلما يجدي نفعاً في تحصيل القصد . ومتى كانت العلة باطنية لا يفيدها استعمال المراهم على ظاهر الجلد . ومن السهل جداً أن نقترح على الشعراء أو نكلفهم خلع القديم البالي والتزيي بالجديد الطلي الانيق ولكننا لا ندري اي جراح دفينة في صدورهم ننكأ بمثل هذا الاقتراح . ولم يكن صديقي النجيب بأول من أثار الحزازات ونقض الكلوم اذ قد سبقه كثيرون الى ذلك ولم يجاوره في الانتقاد بلسان الرفق واللطف بل اشرعوا على الشعراء أسنة اللكز والوخز وأطلقوا نحوهم اعنة الهمز والغمز حتى جعلوهم لرياح التهكم مهزاً ولسكاكين الازدراء محزاً .

وهذه شعراء العصر تحسبها	اوفى ثواب لها في حاضر الزمن
فقل لمن لام مرزوءاً بسيئة	يعدها منة من اعظم المنن
« يقضي على المرء في ايام محنته	حتى يرى حسناً ما ليس بالحسن »

فقد علمنا أن شعرنا ليس كما ينبغي ان يكون وقلنا هذا للشعراء وهم مثلنا يريدون أن يجاروا شعراء الغرب وحاولوا ذلك مرارا عديدة فما استطاعوا الذلك سبيلا ولم يجدهم اتقان اللغات الاجنبية فتيلا بل زادتهم معرفتهم بها نغصة وتحسراً لانهم رأوا في الشعر الاجنبي اشياء كثيرة

استحسنوها وودوا من صميم قلوبهم نقلها الى الشعر العربي فلم يقدروا. ولماذا ؟ لان اللغة لا تطاوعهم على ذلك .. هذه هي الحقيقة ولا ينكرها الا المكابر او من كان ليس بشاعر . وتفصيل ذلك ان الشاعر الاوربي عندما يخلو بنفسه للنظم في اي موضوع أراد يستكد قريحته ويشحذ غرار تصوراته لاستنباط المعنى ورسم صورته في ذهنه ومتى توافق الى ذلك وتهيأ له التصور المراد والتخيل المطلوب عمد الى خزانة ذاكرته وفتحها فرأى ما شاء من مترادفات لغته واساليب تعابيرها المنطبقة على قواعد الصرف والنحو والمعاني والبيان والمفهومة حتى عند عامة امته واطفالها والمقبولة عند خاصتها وعلمائها وكلها معدة وصالحة لتمثيل كل صورة ذهنية والتعبير عن كل معنى خيالي .

اما الشاعر العربي المنكود الجد السي الطالع فقد يكون اسيل من الشاعر الافرنجي قريحة وامضى ذهنا واقوى تصوراً . فماذا يبقى عليه بعد التصور والتخيل . يبقى عليه كل شيء لانه اذا كان ممن رزقوا بعض الالمام باحدى اللغات الاجنبية واراد مجاراة شعراء الافرنج في النظم وفتح خزانة ذاكرته لا يرى فيها سوى الالفاظ العامية واذا استعان بما في محفوظه من الكلمات الفصيحة لا يرى بينها لفظة تعبر عما يريد وصفه بالتدقيق كالشاعر الافرنجي وان رأى لها بعد الجهد الفاظاً تفي بالمعنى المراد كانت غويصة غامضة يعسر فهمها على الخاصة فضلا عن العامة . والاقتراح على شعراء هذه الايام ان يجاروا الافرنج ليس فقط في التدقيق في الوصف والتعبير عن حقيقة العواطف حتى تجيء القصيدة اشبه بالصورة بل في التزام البسط والجلاء حتى لا يقل الشعر عن النثر في سهولة الفهم ووضوح المعنى بحيث يفهمه اولادنا كما يفهم اولاد الافرنج اشعارهم . ويا ما اقل عقل من يعلل نفسه بمثل هذا المحال .

وعندما يرى شاعرنا ان الكلام العامي لا يصح ان يتخذه قالبا لسبك المعنى الذي اراده والكلام الفصيح لا يفي به او يفي ولكن لا يفهمه احد الا هو والقاموس الذي اخذه منه يمحو من ذهنه صورة المعنى التي رسمها على وجه التدقيق والاحاطة ويعرض على مخيلته الصور البسيطة التي

رسمها هو قبلا او كثيرون غيره من شعراء العرب لمثل هذا الموضوع فيختار منها واحدة سهلة المأخذ قريبة المنال ويلبسها الالفاظ المعدة لها في ذاكرته ويزينها بالاستعارات المألوفة والتشابيه المعروفة ويرسلها كما جاءت لا كما اراد .

هذه علة محافظة شعرائنا على القديم . وهي فاشية بين كتاب النثر ايضا فمصابهم ومصاب الشعراء فيها واحد . والا فأي كاتب عربي يجسر على القول انه ظافر من الكلام الفصيح الواضح بما يقدره على مجاراة كتبة الافرنج في وصف كل ما جال في خاطره وتصور في ذهنه من الخواطر والافكار . بل اي كاتب منصف من كتابنا لا يعترف بانه يعرض له كل يوم عقبات تحول دون ادراكه الغرض وتضطره رغم انفه ان يترك جوهر المعنى ويقنع بالعرض .

اذاً من يهمه اصلاح شأن الشعر العربي فليتفضل بازالة هذا المانع من طريق ارباب الشعر والنثر وله خالص الحمد وجزيل الشكر . والا فذرهم يا صاح يهيمون في اللوى والبان . ويعيدون على قلب الصب الولهان . ذكرى مسارح الآرام ومنازل الغزلان . ودعهم يستعذبون وادي النقا والعذيب . ويحنون الى المنحنى والحصيب . فما يرون بعد ماء وجرة ماء ولا يؤثرون على ارواح نعمان هواء .

بقي ان الصديق النجيب اراد بكلمة الظباء في قوله « كظباء يمرحن في بستان » الحسان او الظباء الانسيات بدليل قوله بعد ذلك « على اني رايتها تنفر وتتلفت وتمرح في بستان » . وقد انكرت عليه كلمة بستان وارتأيت ابدالها بالبان ونحوه لغاية حصر كلمة الظباء في معناها الحقيقي وعدم مجازها الى الحسان حتى لا يكون المشبه والمشبه به واحدا ويقال هكذا « كظباء يمرحن بين البان » فالمقام يقضي ان يكون معنى الظباء الغزلان ليصح التشبيه ولكن ذكر البستان يصرف الظباء عن الغزلان الى الحسان . والله اعلم .

اسعد داغر

المصدر : مجلة المقتطف ، مجلد ٢٧ (١٩٠٢) ع ٢ .

القديم والحديث

محمد كرد علي ١٨٧٦ — ١٩٥٣

لم يات على هذه الامة دور مثل هذا اشتد فيه النزاع بين القديم والحديث ، وانهزم القديم بضعف القائمين به وقوة انصار الحديث . عنينا بذلك ارباب التقليد ممن يرون السعادة في الاكتفاء بما تعلموه من آبائهم ، وورثوه عن أجدادهم من العلوم والآداب ، ويعدون ما عداها ضربا يجب البعد عنه ومحاربته بكل وسيلة ، كما عنينا ارباب التجديد الذين يزعمون ان الاكتفاء بعلوم اهل الحضارة الحديثة وحدها كافية في رفع شاننا .

نشات للأمة ناشئة بعد ان كثر احتكاكنا باوربا في أواسط القرن الماضي عادت القديم معاداة خرجت فيها عن طور التعقل ، وذلك نكاية بما راته من دعاة ذاك القديم ، واكثرهم مثال الجمود والبلاهة ، ونموذج الفساد وسوء التربية ، فقامت تزهد فيهم وفيما يدعون اليه ، تحمل عليهم حملاتها ، وتتحامل عليهم بتمحلاتها ، وكذلك كان شان انصار القديم مع دعاة الحديث ، يرمونهم بكل كبيرة ، ويسلبونهم كل فضيلة ، ويطعنون بعلومهم إلا قليلا ، ويعدون النافع منها مما لا يضر ولا ينفع .

لا خلاف في أن ملكة الدين والآداب ضعفت في البلاد الاسلامية لضعف حكوماتها ، والعامل الرئيسي في كل البلاد في السياسة ، اذا ضعفت يتبعها كل شيء ، فجهل الحكام والملوك منذ نحو الف سنة هو الذي رفع شان المنافقين من العلماء الرسميين ، فصار العلم الديني يتعلمه المرء لا لينال السعادتين ، ويكون عضوا مهما في جسم المدينة الفاضلة ،

بل ليخدم به اغراض امراء السوء ، ويستولي على عقول العامة ، وتقبل يداه ويكرم بالباطل ، وهذا ما حدا حجة الاسلام الغزالي واضرابه في عصره وبعده أن ينحوا على فقهاء السوء إنحاءهم على امراء السوء لأنهم يتعلمون علوم الفقه والفتيا ليتقربوا بها فقط من السلاطين ، ويجعلوا من الدين سلاحا يقاتلون به من يناصبهم في شهواتهم واهوائهم . ولقد فضل الغزالي في الاحياء وتهافت الفلاسفة من يتعلمون الطب على الفقهاء وقال : ان من يقولون ان علوم الدنيا تنافي الدين يجنى على الدين .

شغلت الامة زمنا بنفسها فضعفت ملكاتها وكانت الحروب الصليبية وغارات التاتار من العوامل المنهكة لقواها ، ثم قام ملوك الطوائف وفرقوا الشمل بعد اجتماعه ، الى ان جاءت الدولة العثمانية وهي تاتارية لا تقيم للمدنية وزنا ، ولا تعرفه لعلوم العمران لفظا ولا معنى ، قوتها بجندها ، وعلمها في إرهاف حدها ، وعظمتها ببطشها ، ومجدها باكتساح البلاد ، واخضاع النفوس لسطوتهم ، فحاول محمد الفاتح احد ملوكها أن يجعل من القسطنطينية دار علم ، كما هي دار ملك ، مجاراة لدولة الجراكسة في مصر والشام ، واعظم لذلك الاعطيات والهبات ، وأنشأ المدارس وحبس الأوقاف ، ولكن ذلك لم يدم إلا بدوامه ، حتى اذا مضى لسبيله عادت الحكومة الى زهدها في العلوم ، وقد صارت رسمية على عهد المفتي ابي السعود الذي سعى لجعل العلم وراثيا ، وصار ابن العالم يرث اباه ووظائفه ورواتبه ، وأن كان أجهل من قاضي جبل . وعالم هذه حاله هو الجناية الكبرى على الدين والدنيا ، والبلاء العميم على البـلاد .

ومع أن الفرس والترك سواء في العجمة ، فالفرس اقدر من الترك على تلقف اللغة العربية منذ القديم . والعربية لغة الدين لا يبرز في علومه من لم يتعلمها ، ولا يفهم الكتاب والسنة من لم يحكم بيانها . وما تراه من حال علماء فارس اليوم واتقانهم العربية وارتقاء علومهم الشرعية ، وانحطاط العربية في بلاد الترك وضعف ملكة العلوم الدينية فيها ، لا يرجع الا الى ان ميل أبناء فارس الى إحكام العربية قديم

فيهم ، وان الترك بامرائهم المتبربرين جمدوا على فروع قليلة من الفقه والكلام وزهدوا فيما عداها فجنوا على البلاد جناية كبرى .

ولما ارادت الدولة أن تنهض وتتشبه بأوربا واخذت على عهد سليم الثالث تتعلم فنون الحرب والبحر والسياسة وما ينبغي لها من الطبيعة والرياضة والاجتماع اخذ روح التفلسف تسري الى الاستانة ومنها سرت الى الولايات ومصر ، فلم يعبأ انصار القديم بما رأوه أولا ، واحتقروا ذلك السيل الجارف الآتي عليهم من اوربا ، وارتأى بعضهم ان خير ما يقابل به المتزندقون ان يكفروا او يحرموا ويضربوا ، أو يحبسوا او يهددوا بالقتل أو يقتلوا ، ولم يعد لذلك من العدد اللازمة لبث دعوتهم ، وحفظ ملكة الدين في القلوب ، لتسير مع علوم الدنيا كتفا الى كتف ، وجاءت ادوار اصبح الوزراء وولاة الامر إلا قليلا من الطائفة التي نزعت ربقة القديم ، فلم يبق عليها الا اسمه بل كان بعض المتطرفين في انحلالهم يدعون سرا وجهرا الى عدم التأدب بآداب الدين ، محتجين بما هو ماثل للعيان من فساد القائمين عليه ، وانحطاط المنتسبين اليه .

وها قد اصبحنا بعد هذا النزاع بين علوم الدين والدنيا والامة شطرين شطر هو الى البلاهة والغباوة ، وشطر الى الحمق والنفرة ، وبعبارة اخرى نسينا القديم ولم نتعلم الجديد . ومن الغريب ان معظم المستنيرين بقبس العلوم الأوربية منا لا يرجعون الى آداب دينهم ، ويميلون في الظاهر والباطن الى ن يكون الدين فقط جامعة تجمع الأمة على مثال الجامعات السياسية والجنسية ، واذا سألتهم عن الحلال والحرام وعما شرعته الأديان صعروا اليك خدودهم وقالوا لك إن الامة تعيش بحديثها دون قديمها ، وان ذلك القديم ان لم يضرنا الأخذ به فهو لا ينفعنا ، والعاقل لا يقبل الا على ما ينفعه ويعلي قدره .

تلك هي شنشنة انصار الحديث او الملاحدة والزنادقة الطبيعيين كما يطلق عليهم المتدينون ، وهذه حالة هؤلاء مع أولئك ، وستكون الغلبة لأنصار الحديث اذا لم يقم خصومهم بلم شعثهم على صورة معقولة مقبولة ،

وبين هذين ألفريقين فريق ثالث اختار التوسط فلم ير طرح القديم كله ، ولا الاخذ بالحديث بجملته ، بل آثر أن يأخذ النافع من كل شيء ويضم شتاته ، وهذا الفريق المعتدل على قلته لا يقاومه العقلاء من أهل الفريقين الآخرين مقاومة فعلية ، وعامتهما غير راضين عنهم بالطبع ، لأن كثر الناس يحبون أن تكون معهم أو عليهم ولا وسط بين ذلك .

ولقد كتب الينا أحد علماء المشرقيات في برلين وهو ممن طافوا بلاد الشرق وسكنوا فيه زمنا ، وانقطعوا لدرس أحواله الاجتماعية وعلومه الأرثية ، كتابا بالعربية يصف فيه المقتبس وما يجب للمسلمين أن يقوموا به لقيام أمرهم بعد ذاك السبات الطويل قال فيه :

أما الرسائل التي هي لبها (المجلة) فرأيتها تدور ابدا على حث الناس على درس العلوم المدنية التي تركت في العالم الشرقي منذ نحو خمسمائة سنة واقتباس الآثار الافرنجية الحديثة فيها واحياء الآداب العربية ، وهذا مطابق بحسب اختباري للطريقة الصحيحة لسعادة الأمم إذ لا فائدة من تقليد الأجانب وحده ، ولا فائدة من التناغي فقط بالآثار الشعبية (الوطنية) وحده ، بل الخير كل الخير في الأخذ من هنا وهناك ، وتعميم الدرس والبحث مع اضرام تلك الشعلة العظيمة التي هي ذات نور ، وذات حرارة ، وذات إنبات ، واعني بها المبدأ الشعبي ، ولنا أن نسميه ألشعوبية على شرط أن نجرده من الرائحة غير المقبولة .

اجتهد الاسلام والنصرانية ان ينشآ جمعية تقوم بالدين وحده ليكون أهل الشهادة بذلك الدين ظاهرين على الدين كله الا انهما فشلا . ولقد تنبأ بعض المسلمين بأن الجامعة الاسلامية التي ستكون في أواخر هذه السنة لن تأتي بما يرجوه اكثرهم من تقوية عروة الدين بل ستقوي الاحزاب الشعبية وربما يتسع الخرق بين الجماعات من جهة المذهب الديني . أما أنا فأقول إن تقوية روابط المسلمين مع من حولهم من غير المسلمين المبنية على وحدة التربية والاخلاق والعادات وعلى وحدة اللسان لا تخلو حقيقة من تقوية الدين نفسه ، لأن هذا الاجتماع من

شانه ان يدعو الى نمو عامة التقوى فيزيد من له ميل الى الحياة الدينية اعتقادا وعملا ، كما يزيد من له ميل الى غير الدين قوة فيما اختاره وعلى هذا فمن مصلحة كل دين أن يكـون نصف منتحليه مجتهدين مخلصين ، أكثر من أن يكون الجميع فاترين غير مكترثين بشيء اهم .

هذا ما كتب لنا به العالم الغربي الشرقي منذ اشهر نشرناه ليطلع عليه انصار القديم والحديث فيعلم الجامدون على مسطور القديم ان لا قيام لأمرنا بغير الأخذ من مدنية اوربا ، ويدرك انصار الحديث بأن هذه المدنية الجديدة التي بهرتهم بزخارفها وسفاسفها لا تنفعهم وتنفع بني قومهم الا اذا رافقها ما يجملها من علوم الاسلاف وآدابهم ، والامة التي تنزع ربقة قديمها جملة واحدة وتنتقل الى طور آخر دفعة ، قد ينعكس عليها الامر ويلتوى عليها القصد ، ولم تنجح اليابان الا لكونها اقتبست المدنية الغربية ومزجتها باجزاء مدنيتها وهذا سر قول العالم المشار اليه « لا فائدة من تقليد الاجانب وحده ولا فائدة من التنافي فقط بالآثار الشعبية » اي ما ورثناه عن اجدادنا من التشبث باهداب الوطنية ، وذكر القديم والحرص عليه .

ولنا في الغرب دولتان كبريان هما مثال في اقتباس الجديد والحرص على القديم . فقد شهدنا المانيا الى اليوم تجري في مدارسها وكلياتهـا على آداب النصرانية المنقحة فلا تسند التدريس فيها الا لرجل عرفت ترجمته وحياته مخافة ان يفسد عليها تربية ابنائها فتكون مدنية دينية اما فرنسا فناهضت الدين منذ زهاء مئة سنة وزادت مناهضتها له في السنين الاخيرة حتى نزعت لفظ الجلالة من المعاهد العامة واخذت تضيق الخناق على اهل التدين من حملة العلم والاقلام حتى صار المتدين سرا يتجاهر بالانحلال جهرا لا يامن على معاشه ورزقه وسموا هذا حريـة ولكن الله يحصي على الامم ذنوبها كما لا يغفل عن الافراد ، وها قد اخذت المدنية الافرنسية التي بهرت العيون في الزمن الماضي ترجع القهقرى وعلماء الاخلاق فيها يبكون دما على انبتات شملهم وتراجع عمرانهم ، حتى روى بعض الاحصائيين أن عدد الفرنسيس سينزل في أواخر القرن

العشرين الى ثلاثة ملايين لان المواليد اخذت تنقص عن الوفيات . اما في المانيا فبفضل التربية الدينية والحرص على الاخلاق قبل الحرص على تلقين العلوم فان النفوس تتزايد سنة عن سنة بحيث خيف من تكاثر نسلهم على البلاد المجاورة لهم مع ما هم عليه من المدنية الصحيحة والعلم بالصناعات والفنون ولا غرو فان من خلق الالماني ان يترك من القديم كل ما لا ينفع منه اما الفرنسوي فيجرف منه النافع مع الضار ، وشتان بين الخلقين والمدينتين وها هي النتيجة قد ظهرت للعيان مذ الآن .

وبعد فان كل عاقل عرف تاريخ هذه الامة يرى الخير كل الخير في احتفاظها بقديمها وضم كل ما ينفع من هذا الجديد على أن تكون للدين والعلم حريتهما فتكون المعتقدات بمأمن من طعن الطاعنين بها كما تجري المدنية على الشوط الذي يراه واذا راى بعضهم في بعض المعتقدات ما لا ينطبق على روح الحضارة والعلوم العصرية فالاولى أن يطبقوا العقل على النقل كما هو راي كبار علماء الاسلام منذ القديم . واذا عجزت عقولهم عن ذلك فالاجدر بهم أن يأخذوا بعض القضايا بالتسليم ، ويتركوا العالم حراً يسير وحده دون ان يعوقه عائق ، وما نخال كل عاقل الا ويعتقد ان صحيح النقل لا يخالف صريح العقل والله اعلم .

محمد كرد علي

المصدر : المقتبس ، المجلد الرابع ص ٣٠ ، دمشق ١٩٠٩ ، ثم اعيد نشر المقال في كتاب : القديم والحديث ، المقالة الاولى ، محمد كرد علي ، المطبعة الرحمانية بمصر ، الطبعة الاولى ١٩٢٥ .

الافكار القديمة والحديثة

محمد تيمور ١٩٢١ — ١٩٨٢

كتبنا نقد حافظ منذ أعوام ، ولم يكن الباعث لنا عليه ، كما حسب بما تحويه بطونها ويستشهد في كتاباته بجليل حكمها فهو في نظر الناس عالم فاضل مطبوع على البيان متفنن في ضروب الخطاب . إن تكلم كان بسيط اللسان رحيب المجال وإن كتب كان مليح الفصول رائق الفِقَر . ان اتيته برأي يخالف رأيه أوغرت صدره واقتدحت غضبه فرماك بالجهل والتعدي على العلماء السالفين الذين لا تلحق آثارهم ولا يشق غبارهم . وإن جئته برأي جديد لم يسمع به احد من قبل قال عنه انه غامض مبهم تخامره فيه الشكوك وتتجاذبه الظنون . هذا هو شأن كثير من علمائنا الاجلاء الذين نشأوا في جو القديم فعز عليهم ان يطرق آذانهم الجديد . يظنون ان آباءنا وأجدادنا عاشوا في عصر كان العلم فيه زاهراً فحرام علينا نحن أبناءهم ان ننقض رأياً اتفقوا عليه وأن نجادلهم في قضية اثبتوا صحتها في كتبهم فليلق كل منا سلاحه امام أدلتهم وبراهينهم مهما كان وثيق الحجة شديد اللداد .

وفلان يحترم آراء السالفين ويجل أعمالهم وسعيهم في تحقيق كل ما وقع تحت عيونهم ولكنه يود أن يكون له بعض ما كان لهم من الحرية البحث والتنقيب حتى يجيء الرأي الصائب ويموت الرأي الواهن مهما تسايرت أهواء الناس على صحته . كل له الحرية في البحث وليس من العار أن يأتي الانسان بفكرة شغف لها غرار رأيه واثبت له غيره انها غير صحيحة وانما العار كل العار ان يستقصي الانسان في البحث عن رأي

جديد ثم يضن به على قومه او يضرب عنه صفحاً لأنه جديد لم يتفق على صحته احد من السالفين .

لم يزل العلم في جو الطفولة بالرغم مما اتى به علماء الماضي والحاضر والحقيقة التي اتفقنا عليها ما زالت تحيط بها الشكوك والظنون فإن تمسكنا بالقديم كنا كمن يريد أن يوقف تيار العلم او كمن يتنحى عن العمل لسواه فيسبقه الى التحقيق والبحث قوم آخرون ويرجع هو وقومه القهقرى امام أقدام الآخرين وانه لعار علينا في القرن العشرين أن لا نفيق من رقدتنا الطويلة بعد أن رأينا ما ضحاه الغربيون في سبيل احياء العلوم وتحقيق كل غامض فيها .

لا نزاع في ان الفكرة الجديدة جميلة وإن كانت غير صائبة . انت بلا شك تستقبح الجديد لأنك تفاجأ به على غرة قبل ان تأخذ له عدتك وتسحب له ذيلك ولكنك في حل من أن تتصحفه وتستوضحه وتقلب فيه خواطرك حتى تغرق في البحث فتقف على مكان الضعف والقوة فيه وتكون حينئذ حراً في قبوله أو رفضه .

واي خطر يداهم الأمة إن هي فوجئت بآراء جديدة ؟

لا مشاحة في أن كل رأي صائب يبقى رغم انف كل مستهجن لـه وان كل رأي فاسد يضمحل ويموت وينسى مهما كان معززاً ومهما تمادى صاحبه في ضلاله وغـلا في جهالته . لا تخف إن عاش الرأي الواهن حقبة من الدهر لأنه يعيش وهو مهدد الى ان يتغلب عليه الرأي الصائب وما الدنيا إلا ميدان عراك يتصارع فيها أصحاب الحقيقـة ومحبذو الجهالة والله نصير الحق فلا يلبث كل ذي صواب أن يفوز ولا يلبث كل ذي خطأ ان يلوي عنانه ويقصر عن باطله فتظهر الحقيقة ناصعة للناظرين .

١٠ أغسطس سنة ١٩١٧ .

المصدر : مؤلفات محمد تيمور ، مطبعة الاعتماد ١٩٢٢ ، ص ١٧١ — ١٧٣ .

مقدمة

عباس محمود العقاد (١٨٨٩ — ١٩٦٥)

ابراهيم المازني ١٨٨٩ — ١٩٤٨

بسم الله نبتدىء (وبعد) كان للسكوت عن الخوض في أحاديث الادب داع فقد زال ذلك الداعي اليوم وقد تجددت دواع للكتابة في اصوله وفنونه اخصها الامل في تقدمه ، لالتفات الاذهان الى شتى الموضوعات ومتنوع المباحث والحذر عليه من الانتكاس ، لاجتراء الادعياء والفضوليين عليه ، وتسلل الاقلام المغموزة والمآب المتهمة الى حظيرته . وكتابنا هذا مقصود به مجاراة ذلك الأمل ، وتوقي تلك العلل . وهو كتاب يتم في عشرة اجزاء .موضوعه الادب عامة ووجهته الابانة عن المذهب الجديد في الشعر والنقد والكتابة . وقد سمع الناس كثيرا عن هذا المذهب في بضع السنوات الاخيرة ورأوا بعض آثاره وتهيات الاذهان الفتية المتهذبة لفهمه والتسليم بالعيوب التي تؤخذ على شعراء الجيل الماضي كتابه ومن سبقهم من المقلدين . فنحن بهذا الكتاب في اجزائه العشرة وبما يليه من الكتب نتمم عملا مبدءوا ونرجوا أن نكون فيه موفقين الى الافادة ، مسددين الى الغاية . واوجز ما نصف به عملنا — ان افلحنا فيه — انه اقامة حد بين عهدين لم يبق ما يسوغ اتصالهما والاختلاط بينهما ، واقرب ما نميز به مذهبنا انه مذهب انساني مصري عربي . انساني لانه من ناحية يترجم عن طبع الانسان خالصاً من تقليد الصناعة ، ولانه من ناحية اخرى ثمرة لقاح القرائح الانسانية عامة ، ومظهر الوجدان المشترك بين النفوس قاطبة . ومصري لان دعاته مصريون تؤثر فيهم الحياة المصرية ، وعربي لان لغته العربية ، فهو بهذه المثابة أتم نهضة ادبية ظهرت في لغة العرب منذ وجدت ، اذ لم يكن

ادبنا الموروث في اعم مظاهره الا عربيا بحتا يدير بصره الى عصر الجاهلية .

وقد مضى التاريخ بسرعة لا تتبدل ، وقضى ان تحطم كل عقيدة اصناما عبدت قبلها ، وربما كان نقد ما ليس صحيحا اوجب وايسر من وضع قسطاس الصحيح ، وتعريفه في جميع حالاته ، فلهذا اخترنا ان نقدم تحطيم الاصنام الباقية على تفصيل المبادىء الحديثة ، ووقفنا الاجزاء الاولى على هذا الغرض ، وسنردفها بنماذج للادب الراجح من كل لغة ، وقواعد تكون كالمسبار وكالميزان لاقدارها . فان أصبنا الهدف والا فلا اسف . وحسبنا بهذه المقدمة الوجيزة بيانا .

المصدر : الديوان : كتاب في الادب والنقد الجزء الاول لمؤلفيه عباس محمود العقاد وابراهيم عبد القادر المازني الطبعة الثانية ١٩٢١ مكتبة السعادة .

تقليد القدماء

كتبنا نقد حافظ منذ اعوام ، ولم يكن الباعث لنا عليه ، كما حسب بعض البله والحمقى ، ضغينة نحملها للرجل او عداوة بيننا وبينه . وكيف يكون شيء من ذلك ولا علم لنا به ولا صداقة ولا صحبة(١) ولا نحن نرتزق من الكتابة والشعر ، او نزاحمه على الشهرة ، لان ما بيننا من تباين المذهب واختلاف المنزع لا يدع مجالا لذلك ، ولكني لسوء الحظ احد من يمثلون المذهب الجديد الذي يدعو الى الاقلاع عن التقليد والتنكيب عن احتذاء الاولين فيما طال عليه القدم ولم يعد يصلح لنا او نصلح له . اقول لسوء الحظ ، لانه لو كان الناس كلهم يرون رأينا في ضرورة ذلك ، وفي وجوب الرجوع عن خطأ التقليد لربحنا من الوقت ما نخسره اليوم في الدعوة الى مذهبنا ومحاولة رد جمهور الناس عن عادة اذا مضوا عليها افقدتهم فضيلة الصدق ومزية النظر ، وهما عماد الأدب وقوام الشعر والكتابة .

ولو كان الناس اعتادوا النقد والفوا الصراحة في القول وتوخي الصدق في العبارة عن الرأي ، لما كانت بي حاجة الى هذه المقدمة او ضرورة الى تبرئة نفسي ودفع ما يرمونني به ، ولكنت انشر النقد على ثقة من حب القراء بي وبخلوص نيتي وبراءة سريرتي مما تصفه الاوهام ويصوره الجهل . ولكنا لسوء الحظ مضطرون ان نثبت حسن القصد

(١) نقدنا شعر حافظ في سنة ١٩١٣ ثم جمعنا متفرقه وطبعناه في سنة ١٩١٤ — ١٩١٥ وجعلنا هذا المقال مقدمة له ، ولم يكن بيننا يومئذ وبين حافظ اية صلة . وقد ابتنا هذا المقال لدلالته على حال الادب . يومئذ . اما النقد فقد اسقطناه من جملة ما كتبنا غير اسفين على اسقاطه فقد كان مما اغرت به حماقة الشباب .

في كل ما ننقد كأن المرء لا يمكن أن يفعل شيئا الا ودافعه الضغائن والاحقاد . ومن سوء حظ الناقد في مصر انه يكتب لقوم لا يستطيع أن يركن الى انصافهم اويعول على صحة رأيهم . وليسامحني القراء في ذلك ، فقد رأيت عجبا ايام كنت انشر هذا النقد ذلك اني كنت اذا قلت ان حافظا اخطأ في هذا المعنى أو ذاك قال بعضهم « لم يخطيء حافظ وانما تابع العرب وقد ورد في شعرهم أشباه ذلك » كأن كل ما قال العرب لا ينبغي أن يأتيه الباطل ولا يجوز الا ان يكون صحيحا مبرءا من كل عيب . الى غير ذلك مما يغري المرء باليأس ، ويحمله على القنوط من صلاح هذه العقول .

واذا فرضنا ان العرب اصابوا في كل ما قالوا ، افترى ذلك يستدعي ان نقصد قصدهم ونحذي مثالهم في كل شيء ونحن لا نحيا حياتهم ؟ السنا الوارثين لغتهم ، وللوارث حقّ التصرّف فيما يرث ؟ هل تقليدك العرب وجريك على اسلوبهم يشفعان لك في خطأ نحوي او منطقي ؟ كلا اذن فكيف يشفع لك في غير ذلك مما لا يصح في العقول ولا يتفق مع الحق ؟ وكيف نتحاكم الى العقل في الاولى ولا نستقضيه في الثانية ؟

لا ننكر ما لدراسة الادب القديم من النفع والعائدة ، وما للخبرة ببراعات العظماء ، قديمهم وحديثهم ، من الفائدة والاثر الجليل في تربية الروح ، ولكنه لا يخفي عنا ان ذلك ربما كان مدعاة لفناء الشخصية والذهول عن الغاية التي يسعى اليها الادب ، والغرض الذي يعالجه الشاعر ، والاصل في الكتابة بوجه عام .

على انه مهما يكن فضل القدماء ومزيتهم فليس ثم مساغ للشك في انك لا تستطيع ان تبلغ مبلغهم من طريق الحكاية والتقليد . فان الفقير لا يغني بالاقتراض من الموسرين . ولست اقصد الى نبذ الكتاب والشعراء الاولين جملة ، وعدم الاحتفال بهم ، فان هذا سخف وجهل ، ولكني اقول انه ينبغي ان يدرس المرء في كتاباتهم الاصول الادبية العامة التي لا ينبغي لكاتب ان يحيد عنها أو يغفلها بحال من الاحوال .

كالصدق والاخلاص في العبارة عن الراي او الاحساس ــ وهذا وحده كفيل بالقضاء على فكرة التقليد ،

(وبعد) فانه لا يسع من ورد شرعة الادب ، وعلم انه يحتاج الى مواهب وملكات غير الكد والدؤوب والاحتيال في حكاية السلفه والضرب على قالبهم والاقتباس بهم فيما سلكوه من مناهجهم ، ومن تبسيط في شعر الاولين ، لا ليسرق منه ما يبتني به بيوتا كبيوت العنكبوت ، ولكن ليستضيء بنوره ويستعين به على استجلاء غوامض الطبيعة واسرارها ومعانيها ، وليهتدي بنجوم العبقرية في ظلمة الحياة وحلوكة العيش ، وليتعب بنظره شعاعها المتغلغل الى ما لم يتمثل في خاطر ولم يحلم به حالم ــ اقول ، لا يسع من هذا شانه وتلك حاله الا أن ينظر الى حال الادب العصري نظرة في طيها الاسف والخيبة والياس . وكانما شاءت الاقدار ان يذيب احدنا نفسه ، ويعصر قلبه ، وينسج آماله ومخاوفه التي هي آمال الانسانية ومخاوفها ، ويستوري من رفات آلامه شهابا يضيء للناس وهو يحترق ، ثم لا يجد من الناس أخا حنانا يوازره ويعينه على الكشف عن نفسه وإزاحة حجب الغموض عن احساسات خياله التي ربما التبست على القارىء لفرط حدتها او غابت في مطاوي اللفظ واستسرت في مثاني الكلام .

اليس احدنا بمعذور ان هو صرخ وبه من سائح الياس خاطر : « يا ضيعة العمر . اقص على الناس حديث النفس ، وابثهم وجد القلب ونجوى الفؤاد ، فيقولون ما اجود لفظه او اسخفه ، كأني الى اللفظ قصدت !! وانصب قبل عيونهم مرآة للحياة تريهم ، لو تاملوها نفوسهم بادية في صقالها فلا ينظرون الا الى زخرفها وإلى اطارها ، وهل هو مفضض ام مذهب ،وهل هو مستملح في الذوق ، ام مستجهن ؟؟ وافضي اليهم بما يعني احدهم التماسه من حقائق الحياة فيقولون لو قلت كذا بدل كذا لاعيا الناس مكان ندك . ما لهم لا يعيبون البحر باعوجاج شطآنه وكثرة صخوره ؟؟ يا ضيعة العمر !! » .

سيقولون ما فضل مذهبكم الجديد على مذهبنا القديم ؟ وماذا فيه من المزية والحسن حتى تدعونا اليه ؟ وبأي معنى رائع جئتم ؟ وماذا ابتكرتم من المعاني الشريفة والاغراض النبيهة ؟ فنقول ، قد لا يكون في شعرنا شيء من هذه المعاني الشريفة والاغراض النبيهة التي تطلبونها وتبحثون فيه عنها ، ولا تألون (انتم) جهداً في الغوص عليها وفتح اغلاقها ، والتكلف لها . وقد لا تكون احسننا صوغ القريض ورياضة القوافي ، ولكن خيبتنا لا يصح أن تكون دليلا على فساد مذهبنا وعقمه ، اذا صح اننا خبنا فيما تكلفناه ، وهو ما لانظنه ، بل هي دليل على تخلف الطبع ، لا اكثر — وعلى فرض ذلك كله فان لنا فضل الصدق وعليكم عار الكذب ودنيئة الافتراء على نفوسكم وعلى الناس جميعا . وحسبنا ذلك فخرا لنا وخزيا لكـم .

ليس اقطع في الدلالة على انكم لا تفهمون الشعر ، ولا تعرفون غاياته واغراضه ، من قولكم ان فلانا ليس في شعره معان رائعة شريفة ، لان الشاعر المطبوع لا يعنت ذهنه ولا يكد خاطره في التنقيب على معنى فهذا تكلف لا ضرورة له ، او ليس يكفيكم ان يكون على الشعر طابـع ناظمه وميسمه ، وفيه روحه واحساساته وخواطره ومظاهر نفسه سواء اكانت جليلة دقيقة ، شريفة ام وضيعة ؟؟ وهل الشعر الا صور للحياة ؟ وهل « كل » مظاهر الحياة والعيش جليلة شريفة رفيعة حتى لا يتوخى الشـاعر في شعره الا كل جليل من المعاني ورفيع مـن الاغراض ؟ وكيف يكون معنى شريف وآخر غير شريف ؟ اليس شرف المعنى وجلالته في صدقه ؟ فكل معنى صادق شريف جليل .

إلا إن مزية المعاني وحسنها ليسا فيما زعمتم من الشرف ، فان هذا سخف كما اظهرنا فيما مر ، ولكن في صحة الصلة او الحقيقة التي اراد الشاعر أن يجلوها عليك في البيت مفرداً أو في القصيدة جملة ، وقد يتاح له الإعراب عن هذه الحقيقة أو الصلة في بيت أو بيتين ، وقد لا يتأتى له ذلك إلا في قصيدة طويلة ، وهذا يستوجب أن ينظر القارىء في القصيدة جملة لا بيتاً بيتاً ، كما هي العادة ، فان ما في الابيات من المعاني ، إذا

تدبرتها واحداً واحداً ، ليس إلا ذريعة للكشف عن الغرض الذي إليه قصد الشاعر ، وشرحاً له وتبيناً .

وانتم فما فضل هذا الشعر السياسي الغث الذي تاتوننا به الحين بعد الحين . واي مزية له ؟ وهـل تؤمنون به ؟ وهل إذا خلوتـم الى شياطينكم تحمدون من انفسكم أن صرتم أصداء تردد ما تكتبه صحف الاخبار ؟ وهل كل فخركم انكم تمدحون هـذا وترثون ذاك ؟ وانتـم لا تفرحون بحياة الواحد إلا لما له ، ولا تألمون لموت الآخر إلا لانقطـاع نواله ؟ ما اضيع حياتكم !! .

ليس ادل على سوء حال الادب عندنا من هذا الشك الذي يتجاذب النفوس في أولى المسائل واكبرها . ولقد كتب نقاد العرب في الشعر ، على قدر ما وصل إليه علمهم وفهمهم ، ولكنهم لم يجيئوا بشيء يصلح أن يتخذ دليلا على إدراكهم لحقيقته . ولسنا ننكر أن كتـاب الغرب متخالفون في ذلك ، ولكن تخالفهم دليل على نفاذ بصائرهم وبعد مطارح اذهانهم ودقة تنقيبهم ، وشدة رغبتهم في الوصول الى حقيقة يانس بها العقل ويرتاح اليها الفكر ، كما أن إجماع كتاب العرب وتوافقهم دليل على تقصيرهم وتفريطهم وانهم كانوا يقلد بعضهم بعضاً إن لم يكن دليلا على ما هو أشين من ذلك واعيب .

غير ان هذا القلق والشك المستحوذين على النفوس لعهدنا هذا هما الكفيلان بأن يفسحا رقعة الأمل ويطيلا عنان الرجاء ، لأن القلق دليل الحياة ، والشك آية الفطنة وما يدرينا لعلنا في غد نجني من رياض هذا القلق ازاهر السكينة والطمأنينة .

● ابراهيم عبد القادر المازني

حصاد الهشيم ، ص ١٨٠ ــ ١٨٥ ، دار الشعب ــ ١٩٦٩ .

● صدرت الطبعة الاولى للكتاب عام ١٩٢٤ .

مصطفى صادق الرافعي

المذهب القديـــم والمذهب الجديد

سلامة موسى ١٨٨٧ ــ ١٩٥٨

في مصر وسوريا طبقة من الادباء لها عيون في خلف رؤوسها فــاذا نظرت لم تر سوى الماضي ثم هي مــع ذلك لا ترى كل الماضي وهي لــو استطاعت ان تفعل ذلك لكانت لها من ذلك بصيرة بالحاضر والمستقبل . اجــل . لو كانت هذه الطبقة تنظر الى الماضي خــلال تلسكوب العلوم الحديثة لاستطاعت أن تقرأ لغة الطبيعة وتدرك ان روح العالم هي روح نشوء وتطور .

تقول هذه الطبقة ان الاديب لا مندوحة له اذا أراد أن يكون اديبــاً حقيقياً ان يقلد العرب ويحتذي كتابهم في اساليبهم ومراميهم . ومن هذه الطبقة بل في رأسها نضع الاستاذ مصطفى صادق الرافعي والاستاذ الامير شكيب ارسلان .

ومن المستطاع ان يحلل الانسان هذه « الوطنية الادبية » وان يردها الى اصولها في ذلك العقل الباطن الذي يخلط بين الدين والقومية والادب العربي ، فالخروج من المالوف في الادب العربي يوهم افراد هذه الطبقة بالخروج على الدين والقومية العربية .

قال الامير شكيب ارسلان في مقال يرد على اديب من القائلين بمماشاة العصر الحديث : « فانني لا اعلم مذاهب جديدة الا في العلم والفن . واما في الادب واللغة فلا اعرف الا مذهباً واحداً هو مذهب العرب ...

وهو الذي يجتهد كل كاتب في العربية أن يحتذي مثاله ويقرب منه .ما استطاع لانه هو المثل الاعلى والغاية القصوى . واذا اراد الكاتب المصري ان يجول في المواضيع الحديثة والمعاني المستجدة استنفد منته في الباس هذه المعاني الجديدة حلل الاساليب العربية القديمة التي هي اصل اللغة والطراز المنسوج على منواله » .

هذا ما يقوله احد زعماء هذا المذهب القديم فانظر الآن الى ما يقوله احد زعماء المذهب الجديد في امة جديدة هو الدكتور فرنك كرين الاميركي . قال : « كثيراً ما يقال بأن السلامة في التعلق بافكار آبائنا . كلا . فان السلامة في عكس ذلك . لان تلك الطريق تقودنا الى الهلاك الاكيد . فانه اذا كان آباؤنا قد تعلقوا بآراء اسلافهم . وهكذا فعل اسلاف هؤلاء . لبقي الشعب القوقازي الآن في سفح جبال هملايا يرعى الاغنام ... فان ما يحتاج اليه العالم هو ما يحتاج اليه النبات او الحيوان اي قوة الحياة .... وهذه القوة انما تصدر عن الايمان .... الايمان بالانسانية . والشك المهلك انما هو الشك بالانسانية » .

فمن يقابل بين هذين القولين او المذهبين : مذهب الامير شكيب ارسلان والاستاذ الرافعي ومذهب الدكتور كرين يرى تناقضاً بيناً وفرقاً عظيماً هو في الواقع فرق بين التقدم والركود او الحياة والموت .

الفن والصنعة

ينقسم الادب الحديث الى جملة فنون كلها ترمي الى غاية واحدة ذات مظهرين هي البحث عن الحقيقة اي عن الجمال . والادب يختلف في طريقة التعبير عن هذه الغاية تبعاً لاختلاف الفنون . فهنالك فن الشعر وفن الرسم وفن البناء وفن الموسيقى وفن الدرامة وما الى ذلك .

ولكل فن صنعة . فالشعر مثلا هو الفن والنظم هو الصنعة . ومن الادباء من يجيد فهم الفن ولا يجيد الصنعة كالمعمار الراقي يستطيع وضع ترسيم البناء ولكنه لا يفهم كيفية خلط الملاط وانواعه . وقد

كان رسكين اديباً انجليزيا يجيد نقد فني الرسم والبناء بحيث يستمع الى نصائحه رجال هذين الفنين ومع ذلك لم يكن يستطيع الرسم . وفي انجلترا الآن اديب كبير يدعى وليم ارتشر ليس يفضله أحد في فهم فن الدرامة ومع ذلك لم يستطع وضع درامة لانه لا يفهم الصنعة وان كان يفهم الفن .

ومن ادباء انجلترا الان بل في أولهم برنارد شو . فقد كتب في كل فن من فنون الادب ومع ذلك تشعر من عبارته انه سيء الصنعه .

نفهم من ذلك ان الصنعة دون الفن . وان الفن هو الجوهر وهي العرض . فما اريد الآن ان اثبته ان عناية العرب كانت تتجه في الاكثر الاغلب الى الصنعة دون الفن . وقد بلغ الحال في عهد الانحطاط ان تغلبت الصنعة على الشعر والنثر . فصار الاول نظما والثاني سجعا .

ونحن الآن بقوة ما ورثناه عن العرب كثيراً ما نعنى بالصنعة ونهمل الفن فنتعلق بالقشور ونترك اللب . واكثرنا عناية بذلك هم اهل القديم امثال الرافعي وارسلان .

العلم والادب

وما دامت غاية الادب هي الحقيقة فلا يجب ان يكون هناك تصادم بينه وبين العلم . لان غاية هذا ايضا هي الحقيقة . والاديب الاوربي الآن ليس له من قاعدة يرتكز عليها سوى العلم . فلاذا قرات قصص زولا الفرنسي تبينت من تحليله انه عالم . واذا قرات قصص دستوتفسكي الروسي دهشت لصدق نظره وسعة اطلاعه في العلوم . وكذا الحال في شو وولز الانجليزيين .

واكثرنا اهمالا للعلم في مصر الآن هم أهل المذهب القديم لان العلوم تتعارض ومعتقدات العرب . فهم لذلك يرفضونها . وتكون النتيجة انهم يدرسون أحوال الدولة العباسية او الدولة الاموية او بدعة القرامطة

ولا يبحثون عن بدعة الاشتراكية الراهنة أو علة الفقر في مصر أو سوريا . اذ ان الماضي يستغرق نظرهم فليس لهم من الوقت او الرغبة ما يدفعهم الى درس الحاضر او المستقبل .

مصطفى صادق الرافعي

بعد هذه المقدمة التي اضطررت اليها اضطرارا اقول ان مصطفى صادق الرافعي اديب مصري الجنسية سوري الدم والاصل . وهو (١) يدافع عن المذهب القديم ويقول بافضلية الاساليب العربية القديمة على أساليبنا الراهنة . و (٢) هو ايضاً يجيد الصنعة ايما اجادة ولكنه لا يعنى بالفن . فاذا كتب اتسقت عباراته وانتظمت الفاظه فاتى بالعجب ولكن الحقيقة (أي الجمال) لا تشغله في نظمه أو نثره . و (٣) ثم هو لا يكاد يؤمن بالعلم بل لا تجد له أثراً في جميع كتاباته . والقطعة التي انتخبناها منه تشهد بذلك فانه يعتقد ان الفقر ضربة لازب قد حكم به الله ولا مرد لحكمه . كأنه لم يسمع عن الاشتراكية في حياته .

« ولد الرافعي في قرية من ضواحي القاهرة تسمى بهتيم في منتصف سنة ١٢٩٨ هـ . وتأدب في ريعان طفولته بحفظ القرآن الكريم فاتقنه حفظاً وتجويداً باحكام القراءة وهو في العاشرة من سنه . ثم دخل في المدرسة الابتدائية وكان والده لا يفتأ يقرأ له كتباً من النحو والفقه . فتميز في المدرسة بالعربية وكان هذا مبدأ ميله الى الشعر حتى عزم مرة في أول عهده ان يضع كتاباً في النحو ويجعل شواهده كلها من نظمه . ولما انتهى من الدراسة الابتدائية اقتصر عليها لشدة غرامه بالشعر وأخذ يتصفح كتب الادب » .

وكان الاديب المأسوف عليه فرح انطون أول من نبه أذهان القراء الى شعره فالرافعي في الحقيقة من مستكشفاته وان كان نبوغه في الصنعة كان سيظهر حتماً في الوسط الادبي المصري الذي ينزع نحو الاعجاب بالصنعة .

نشره

قال الرافعي في كتاب المساكين في كلامه عن الفقر :

« فالناس مخطئون في ما اعتبروا به معنى الفقر اذ حصروه من جهاته الارضية وقد ترامت . وضيقوا من حدوده السماوية وقد تراحبت . وانما هو طبقة معنوية فوق الارض . وانما هو اسلوب خاص في نظام الكون . ولا سبيل الى التنقيح والتحرير في اساليب الله تصرفها عن معانيها او نتكذب في تأويلها أو نرد عليها ما ليس منها . وانما الشأن كله أن نحسن الفهم عن اوضاع القدرة الالهية بمقدار ما تستبين فيها من الحكمة . فان في ذلك صلاح انفسنا . وما جعل الله سبيل المصلحة والمفسدة الا من افهامنا . حتى ان الادمغة لتعد من اكبر العلل في امراض التاريخ الانساني . وربما كانت العلة الكبرى في طائفة من الطوائف صورة اثرية لاكبر راس فيها . فان نحن اسانا الفهم أو ذهبنا به المذاهب او افسدنا من تأويل حكمة الله أو غيرنا او بدلنا فذلك واقع بنا لا يعدونا. وما يستولي على السكون من جهلنا اضطراب . ولا تلحق به آفة في وضع من اوضاعه . وان الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس انفسهم يظلمون .

« وما دام في هذه الدنيا شيء من المادة أو المعاني يحتاج اليه أو يتوهم احد انه محتاج اليه ففي الدنيا الفقر » .

« وما دام للناس رغبة يتنافسون فيها او يرفعون من شأنها بالمنافسة فثم الحسد . وما دام في الغيب ايام وآمال وفي الدنيا فقر وحسد فهناك الطمع » .

« وما دام لهؤلاء الناس من اشيائهم ما تحملهم اخلاقهم على الضن به او يكون سبيله من الطبيعة ان يضن به . وفيهم الفقر والحسد والطمع فثم خبء السوء والرذيلة الماحقة وثم البخل . وان البخل وحده لفي حاجة الى نبي يصلحه » .

« وهذه اخلاق اعرقت فيها الانسانية ولا بد منها ومن فروعها حتى يظل الناس ناساً لا ملائكة ولا شياطين . فان من عجيب حكمة الله انه لا صلاح للعالم الا بالفساد الذي فيه » .

شعره

يمتاز شعر الرافعي بقوة الصنعة وحسن النظم ولكن خياله مع ذلك عربي تقليدي تعرف ذلك من تشبيهه صفحة البدر بصفحة الامرد وضوء الفجر برونق الصارم . وهذا الى خلوه من مثل اعلى يتوخاه . ونقول بعبارة اخرى انه يجيد الصنعة اكثر مما يجيد الفن .

قال يصف ذهاب الاصيل واقبال الليل :

ثوب السماء مطرز بالعسجد ... وكانها لبست قميص زبرجد
والشمس عاصبة الجبين مريضة ... تصفر في منديلها المتورد
حسدت نظيرتها فاسقمها الاسى ... ان السقام علامة في الحسد
ورات غبار الليل ينفض فوقها ... في الافق فانطبعت كعين الارمد
ومضى النهار يشق في اثوابه ... حزنا واقبل في رواء اسود
فتهللت غرر النجو كانما ... كانت لضاحية السماء بمرصد
وكانها عقد تناثر دره ... من جيد غانية ولم تتعمد
والافق بين مفضض ومذهب ... كالجيد بين معطل ومقلد
وكان صفحة بدره اذ اشرقت ... مصقولة الخدين صفحة امرد
وكان ضوء الفجر رونق صارم ... نضبت صحيفته ولما تغمد

سلامة موسى

المصدر : الهلال السنة ٣٢ – ج ٤ – يناير ١٩٢٤ .

دفـــاع

عن المذهب القديم في الادب

بقلم السيد مصطفى صادق الرافعي ١٨٨١ — ١٩٣٧

في الادب العربي ، كما في غيره من مظاهر الحياة الاجتماعية في العالم العربي ، نزاع بين اهل المذهب القديم واهل المذهب الجديد . وقد اشتد الخلاف بين الفريقين في المدة الاخيرة وقام كل منهما يدلي بحججه وادلته . ويذكر القراء اننا نشرنا في الجزء الماضي من الهلال مقالا للاديب سلامة موسى عن السيد مصطفى صادق الرافعي في سلسلة « الصور الموجزة لادباء مصر » بدأه بالكلام على المذهبين وانتقد اهل المذهب القديم ووضع الرافعي في رأسهم واخذ عليهم محافظتهم على الاساليب العتيقة. ولما كان هذا البحث من اخطر المباحث في هذا العصر واعظمها شأنا لنا ونحن في دور انتقال فانه يسرنا ان ننشر هذا الدفاع عن المذهب القديم لاعتقادنا ان واجبنا الصحفي يحتم علينا ان ننصف كل فريق وان نتيح له بيان مذهبه .

[المحرر]

زعم الاستاذ المفكر سلامه موسى فيما كتب عن هذا الضعيف أن ما نقول به من احتذاء العرب في اساليبهم والارتياض بكلامهم والحرص على لغتهم وان يكون الكاتب في هذه اللغة حسن البيان رشيق المعرض رائع الخلابة يتثبت في الفاظه وينظر في اعطاف كلامه ويفتن في أساليبه — كل هذا وما اليه « مذهب قديم » « ووطنية ادبية » ترجع العلة فيها

الى ذلك العقل الباطن الذي يخلط بين الدين والقومية والادب العربي .
ثمَّ قال « وان اهل المذهب القديم يهملون العلـم لان العلوم تتعارض ومعتقدات العرب » . وظاهر انه يعني بالعرب المسلمين لا غيرهم فان الجاهلية اصبحت من اكاذيب التاريخ وبليت معتقداتها بلى أدخلها في قبور اهلها .

فالمذهب القديم إذن هو ان تكون اللغة لا تزال لغة العرب في اصولها وفروعها وان تكون هذه الاسفار القديمة التي تحويها لا تزال حية تنزل من كل زمن منزلة امة من العرب الفصحاء وأن يكون الدين العربي لايزال هو هو كانما نزل به الوحي امس ؛ لا يفتننا فيه علم ولا رأي ؛ وان يأتي الحرص على اللغة من جهة الحرص على الدين اذ لا يزال منهما شيء قائم كالاساس والبناء لا منفعة فيهما معا الا بقيامهما معا .

ولكن ما هو المذهب الجديد ؟ اناخذ بالمقابلة فنقول اذا كان الابيض هو القديم فالاسود هو الجديد ؛ واذا كانت الفصاحة واذا كان الحرص على ميراث التاريخ واذا كان القانون الطبيعي الفضيلة الاجتماعية واذا كنا نولد بجلود كجلود آبائنا ؛ فالركاكة واهمال القومية التاريخية والتحلل من قيود الواجبات والانسلاخ من الجلدة لانها ليست اوربية .... كل ذلك قديم فكل هذا جديد ؟ أم هناك حقيقة ثابتة محدودة خفيت على عظمها وخطرها في هذه اللغة خفاء امريكا في المحيط ...... حتى بعث الله لها في ايامنا هذه من يرميها ببصره فكشفها وسماها وكان منها المذهب الجديد وكانت هي اياه ؟

لو تامل اصحابنا تاريخ هذه اللغة وآدابها لراوا في كل عصر من عصورها شيئا كان يمكن ان يسمى مذهبا جديدا ولكنا لم نجد احدا سماه كذلك ولا نبه على انه شيء بنفسه الا في هذه الايام الاخيرة ثم لم نجده الا من هؤلاء الذين غلبت عليهم صناعة الترجمة ورجعوا من العربية الى طبع ضعيف فورد عليهم من الصناعة ما لا تقوم به ادابهم وسال بهم السيل فلم يكن بدٌّ من ان تدخل اللغات الاعجمية الضيم على عربيتهم

وصار اكثرهم بلغتيه كالميزان ثقلت كفة منه فرجحت وخفت الاخرى فظهرت فارغة ...... ولو هو وضع في هذه وزن ما في تلك لانقلب الامر ولو ساوى بينهما لكانتا على سواء فلا واف ولا ناقص .

العلة في الحقيقة لا ترجع الى مذهب قديم او جديد بل الى الضعف في لغة والقوة في اخرى وان صاحب المذهب الجديد ...... اخذ بالحزم في واحدة وبالتضييع في الثانية واكثر من الاقبال على شيء دون الآخر فتعلق به وامضى امره عليه وحسنت نيته فيه واستمكنت فصارت الى نوع من العصبية للادب الاجنبي واهله . فلما ضربت هذه العصبية واستحكمت وجهت الذوق في الادب واساليبه الى تفسير معين بحكم المذهب والهوى وجعلت الفهم من وراء الذوق . وانت تعلم ان الذوق الادبي في شيء انما هو فهمه وان الحكم على شيء انما هو اثر الذوق فيه وان النقد انما هو الذوق والفهم جميعا . من ههنا جاء ذلك الخطأ الذي يحسبونه صوابا على انك واجد في القوم من لا تتهم فهمه ولكنك لا تبرىء انصافه ومن لا تتهم فيه هذا ولا ذاك ولكنه مع ذلك يجيء فهمه خطأ لانه لا يريد ان يجيء الا هكذا .... لمكان العصبية من نفسه لرأي على رأي او شخص على شخص مما لا يكون الشأن فيه الا للحس الباطن .

وقد قال علماء الادب انه لما اتسعت ممالك العرب وكثرت الحواضر ونزعت البوادي الى القرى وفشا التأدب والظرف اختار الناس من الكلام الينه واسهله وعمدوا الى كل شيء ذي اسماء كثيرة فاختاروا احسنها سمعا والطفها من القلب موقعا والى ما للعرب فيه لغات فاقتصروا على اسلسها واشرفها كما رأيتهم يختصرون « الطويل » فانهم وجدوا للعرب فيه نحوا من ستين لفظة اكثر بشع شنع .. فنبذوا جميع ذلك وتركوه واكتفوا بالطويل لخفته على اللسان . وقع هذا ومثله في عصر بعد عصر وما رأينا احدا سماه مذهبا جديدا او زعمه ، والقرآن نفسه مذهب جديد بكل معاني هذه الكلمة وما قال فيه احد هذا القول .
وقد نقل عبد الحميد الكاتب اشياء من الاساليب الفارسية فادخلها في كتابته وترجم العلماء عن اللغات المختلفة اكثر مما يترجم كتاب هذه

الايام ومنهم من كان يرجع في التصحيح وتحرير الالفاظ الى رجال اهدفوهم لذلك . وظهرت الافكار المتباينة وتعددت الاساليب في الكتابة وافتنّ المتاخرون من القرن الرابع الى التاسع في فنون من الجد والهزل وفي نكت بديعية لم يعرفها العرب الى ان اختلط لسانهم ؛ وفي كل ذلك لم يقل أحد ان لي مذهبا جديدا من مذهب قديم لانهم كانوا أبصر باللغة واقدر على تصريفها واعلم بحكمة الوضع فيها واحرص على وجوه الفائدة منها والانتفاع بها ثم كانت اسباب اللغة ميسّرة لهم ينشأ الناشيء منهم على حفظ ورواية ويتلقى عن اشياخ ثقات قد أخلصوا نيتهم للعلم وناصحوا عن انفسهم فيه وكانما عُصرت ارواحهم من الفنون عصرا وكان في الواحد منهم روح مكتبة .

فلما تعطل الزمن واصبح الادب صحفيا .... وآلت العربية وآدابها الى بضعة في اوراق مدرسية وانزوى ذلك العلم المستطيل واصبحت المكاتب له كالقبور المملوءة بالتوابيت .... وفشت العصبية بيننا للاجنبي ؛ رجع الامر على مقدار ذلك في صغر الشان وضعف المنزلة واحتاج اهل هذا القليل من العربية الى ان يعتبروه كلاّ بنفسه لا جزءا من كله فكان لذلك مذهبا وكان مذهبا جديدا ....

واذا انت لم تجد في كل علماء المتقدمين من يستطيع ان يقول انه صاحب مذهب جديد في الادب واللغة او يرى لنفسه رأيا فيها الا انه يعمل لحفظها ونمائها ورونقها والا انه يرقق ما استطاع ويتصرف بما اطاق ؛ فانك واجد في اهل سنة ١٩٢٣ .... من يقول في هذه اللغة بعينها : « لك مذهبك ولي مذهبي ، ولك لغتك ولي لغتي ..... » فمتى كنت يا فتى صاحب اللغة وواضعها ومنزل اصولها ومخرج فروعها وضابط قواعدها ومطلق شواذها . ومن سلّم لك بهذا حتى يسلم لك حق التصرف (كما يتصرف المالك في ملكه) وحتى يكون لك من هذا حق الايجاد ومن الايجاد ما تسميه انت مذهبك ولغتك ؟ لاهون عليك ان تولد ولادة جديدة فيكون لك عمر جديد تبتديء فيه الادب على حقه من فوة التحصيل وتستانف دراسة اللغة بما يجعلك شيئا فيها — من

أن تلد مذهبا جديدا او تبتدع لغة تسميها لغتك فانك عمر واحد في عصر واحد بين ملايين من الاعمار في عصور متطاولة وان ما تحدثه على خطأ لا يبقى على انه صواب ولا يبقى أبدا الا كما تبقى العلة على انها علة فلا يقاس عليها امر الصحيح ولا يحكم بها فيمن لم يعتل .

ان ارادوا (بالمذهب الجديد) العلم والتحقيق وتمحيص الرأي والابداع في المعنى على أن تبقى اللغة قائمة على اصولها وعلى ان يكون التفنن (طرائق) كما قيل في ابتداع القاضي الفاضل الذي سموه الطريقة الفاضلية ؛ لا مذاهب يراد بها اثبات ومحو ؛ فاننا لا ندفع شيئا من هذا ولا ننازع فيه بل هو رأينا بل هو راي الحياة بل هو قانون الطبيعة . ولكنا مع ذلك نزيد عليه أن الاصل في كل ذلك سلامة اللغة وسلامة القومية فلا ننظر في آراء الامم إلا على اننا شرقيون ولا ننقل من لغات الافرنج الا على اننا اهل لغة لها خصائصها ولا تصرفنا مدنيتهم عن انفسنا ولا نأتي بسيوفهم لرقابنا وبنزعاتهم لقلوبنا « وكوكاكايينهم لانوفنا ... » بل نؤثر الفضيلة على الرأي وان كان رأس المجنون « نيتشه » ونرغب في المصلحة الجافية الخشنة على المفسدة اللينة الناعمة وان كانت نعومة الانوثة البلريسية .

وانظر كم بين من يسلم لفلان وغيره من علماء اوربا لانهم من علماء اوربا وبين من لا يسلم الا عن اقتناع وعلى بينة من المصلحة وبعد ان تبلغ الحجة مبلغها . فهذا كاتبنا الفاضل (سلامة موسى) ينزع الى الاشتراكية ويدين بها ويراها مائدة الخالق التي مدت في ارضه للناس جميعا . وينعي علينا اننا نتجاهلها كأننا لم نلم بها على اننا نراها تلك المائدة بعينها غير اننا نزيد عليه انها ممدودة للناس جميعا ليتدافع عنها الناس جميعا فلا يصل اليها احد ... ونفضل على كل هذه المائدة الخيالية بما حفلت به من لذائذها وألوانها تلك اللقيمات التي يفرضها نظام الزكاة في الاسلام فرضا لا يتم الاسلام لاحد الا به ، وعلى هذا فاعتبر ولا يفوتن صاحبنا ان كثرة الآراء في هذا العصر وكثرة العقول المفكرة

والاستقلال الفكري التام .. بلا قيد ولا شرط ثم الرغبة في ان يكون لكل عقل اثر في الاجتماع ولكل اثر دليل عليه ولكل دليل اتباع ، كل ذلك سينتهي الى ان تكون علة الاجتماع الانساني لابرء منها الا بالقيود الالهية التي تسمى الاديان وها نحن اولاء نرى في اوربا وامريكا ان من الغفلة ما هو مذهب ومن الرقاعة مذهب ومن تسفل الشهوات مذهب ومن الجنون مذهب ومن كل شذوذ مذهب ومن غير المذهب مذهب ايضا ..

تلك واحدة والثانية انهم ان ارادوا « بالمذهب الجديد » ان يكتب الكاتب في العربية منصرفا الى المعنى والغرض تاركا اللغة وشأنها متعسفا فيها آخذا ما يتفق كما يتفق وما يجري على قلمه كما يجري معتبرا ذلك ذلك اعتبار من يرى ان مخه بلا غلاف من عظام رأسه وان عظام رأسه كعظام رجليه وان اصابع قدميه كاهداب عينيه وان مطلق التركيب هو مطلق النظام وان اللغة اداة ولا باس بالاداة ما اتفق منها ولا باس ان يمزج الجراح مزعاً في جلد العليل بأسنانه او باظافره او بنصل الفاس .. ما دامت معقمة وما دام ذلك فعل المبضع بعينه لا يزيد المبضع عليه الا الدقة .. ان ارادوا بهذا وأشباهه المذهب الادبي الجديد قلنا لا ثم لا ثلاث مرات .

فاما الاولى فان خيرا من ترك الجاهل في جهله ان يزجر عن جهله . واذا كان مذهب الضعف ان لا يحمل عليه الا بقدره وفي طاقته فهل يجعل ذلك اصلا للقوة ، والضعف ان هو الا استثناء منها ، وقاعدة الاستثناء ان يفيد بنصه ولا يتوسع فيه ؟

ثم ايما خير لآدابنا وعلومنا وكتبنا ؟ ان نحرص على الاصل الصحيح القوي الذي في ايدينا ونحتمل فيه ضعف الضعفاء ونصبر على مدافعتهم عن افساده حتى ينشأ جيل اقوى من جيل وتخرج أمة خيرا من امة فتجد الاصل سليما فتبني عليه وتزيد فيه . ام ندع الصلاح للفساد ونتراخى في القوة حتى تحول ضعفا فاذا جاء من بعدنا وجد الاصل فاسدا فزاده فسادا ويعود « مذهبنا الجديد » بعد حين من الدهر مذهبا قديما

فيستحدث منه جديد على نمط آخر ثم يتقادم هذا ايضا على السنة نفسها وهلم الى أن تصير هذه العربية في بعض أزمانها لعنة على كل ازمانها فتنسخ جملة واحدة ويصبح الكلام المانوس الذي نراه اليوم سهلا لينا وهو الجافي الجلف الغليظ الذي لا يترجمه الا عالم بصير بما كان يسمى من قبل فعلا واسما وحرفا . والا فليقل لنا أصحاب المذهب الجديد ما هو حد التجديد عندهم ولم يقصرونه على حد معين بل كيف يقصرونه وفي الناس من هو اضعف من ضعيفهم فوجب ان يكون لـــه جديد من جديدهم على مقدار ضعفه ما دام شكل القياس واحدا او القضية فيه واحدة .

واما الثانية فان هذه العربية لغة دين قـــائم على اصل خـــالد هو القرآن الكريم وقد اجمع الاولون والآخرون على اعجازه بفصاحته الا من لا حفل به من زنديق يتجاهل او جاهل يتزندق . فاذا كان المعجز في لغة من اللغات باجماع علمائها وادبائها هو من قديمها فهل يكون الجديد فيها كمالا ام نقصا ؟

ثم ان فصاحة القرآن يجب ان تبقى مفهومة ولا يدنو الفهم منها الا بالمران والمزاولة ودرس الاساليب الفصحى والاحتذاء عليها واحكام اللغة والبصر بدقائقها وفنون بلاغتها والحرص على سلامة الذوق فيها . وكل هذا مما يجعل الترخص في هذه اللغة واساليبها ضربا من الفساد والجهل فلا تزال اللغة كلها مذهبا قديما وانما يكون المذهب الجديد فيها رجلا الى حين .... ثم يدخل مذهبه معه الى القبر . وما عسى يصنع كاتب وعشرة ومائة والف في لغة ينبض على كتابها المعجز اربعمائة مليون قلب ؟ وكم من اسلوب ركيك او ضعيف او عامي ظهر في هذه اللغة منذ دونوا وكتبوا وكم من فكر فاسد او زائغ او مدخول وكم من كتاب كان يصلح أن يسمى بلغة اليوم مذهبا جديدا . فاين كل ذلك واين اثره في اللغة واساليبها بعد ثلاثة عشر قرنا ، لقد ابتلعته ثلاث عشرة موجـــة فانحدر الى اعماق الموت الطامي .

على اني رأيت لاصحاب « المذهب الجديد » اصلا في تاريخ الادب العربي كانت جذوره ممن انتحلوا الاسلام وهم يدينون بغيره وممن كانوا يدينون به وتزندقوا فيه حتى قال الجاحظ في بعض رسائله يعني هؤلاء وأولئك : « فكل سخنة عين رأيناها في احداثنا واغبيائنا — (تأمل) — فمن قبلهم كان اولها » . ورحم الله ابا عثمان ان التاريخ ليعيد نفسه اليوم « بسخنة جديدة » ..

واما الثالثة فان الخاصية في فصاحة هذه اللغة ليست في الفاظها ولكن في تركيب الفاظها كما ان الهزة والطرب ليست في النغمات ولكن في وجوه تاليفها وهذا هو الفن كل الفن في الاسلوب لانه يرجع الى الذوق الموسيقي في حروف هذه اللغة واجراس حروفها . واشهد ما رأيت كاتبا واحدا من اهل المذهب الجديد يحسن شيئا من هذا الامر ولو هو احسنه لا تكشف له من احسانه ما لا يبقي عنده شكا في ابطال هذا المذهب وتوهينه . ولذا تراهم يمتلئون للمذهب الجديد بالفن والمنطق والفكر وبكل شيء الا الفصاحـة . واذا فصحوا جـاءوا بالكلام الفج الثقيـل والمجازات المستوخمة والاستعارات الباردة والتشبيهات المجنونة والعبارات الطويلة المضطربة التي تقع من النفس كما تقع الكرة المنفوخة من الارض لا تزال تنبو عن موضع الى موضع حتى تهمد .

ولا نريد ان نطيل في هذا الوجه فقد استوفينا اكثر الكلام عليه في الجزء الثاني من « تاريخ آداب العرب » وانما نقول ان الكلام الوحشي الغريب ينقسم الى قسمين : ما كان خشناً مستغربا لا يعلمه الا باحث مطلع ، وما كان مانوسا واقعا في غير موقعه كما نرى في اساليب بعض كتاب هذه الايام التي تنفجر بما لا يطاق على رقتها وتهب عليك هبوب النسيم ولكنه بين موضع وموضع لا بد ان يكنس الارض ...

فالقسم الاول نافر بنفسه فهو وحشي على حالة واحدة تختلف والثاني نافر بموضعه فهو وحشي يعلو ويسفل على مقدار اضطرابه . ثم هي وحشية المذهب الجديد اختص بها ولا يكادون ينتبهون اليها .

هذه كلمة لم نعرض في اجمالها للتفاصيل وانما حدرناه حدراً وبعد فاذا اردت تشبيها لمخاصمة المذهب الجديد والقديم وما يتوهمه هـذا الجديد وما ينتهي اليه امره قلنا لك التمس رجلا يرى ظل راسه على الحائط فيضربه براسه الذي على عنقه .. ولكن اعلم انا واياك الا نحذره ونمتعه فقد جنينا عليه وان لم نمسه باذى .

محمد صادق الرافعي

المصدر : مجلة الهلال السنة /٣٢/ الجزء /٥/ فبراير ١٩٢٤

الخصومة

بين القديم والجديد في الادب

بقلم الدكتور طه حسين   ١٨٨٩ — ١٩٧٣

لقد اخذ النزاع يشتد بين انصار المذهب القديم وانصار المذهب الجديد في الادب . ففي الهلال الماضي نشرنا للسيد مصطفى صادق الرافعي دفاعا عن المذهب القديم بمناسبة ما كتبه عنه الاستاذ سلامة موسى في سلسلة « الصور الموجزة لادباء مصر » . وعلى اثر مطالعة مقال الرافعي في الهلال كتب الدكتور طه حسين مقالا نفيسا في « السياسة » ضمنه رايه في هذا النزاع وقد راينا ان نثبته هنا لنفاسته قال الدكتور طه حسين بعد مقدمة وجيزة :

الحق ان ميدان هذه الخصومة اوسع من مجلة « الهلال » وان ابطال هذه الخصومة اكثر من الاستاذين سلامة موسى ومصطفى الرافعي واذا كان الانسراف في استقصاء التاريخ والا نذهب بالقارىء الى ما بعد به العهد فقد يكون لنا ان نذكر القارىء بان مصدر هذه الخصومة في هذه الايام الاخيرة انما هي صحيفة الادب في « السياسة » ، ففي الصيف الماضي اشتدت الخصومة بين الاستاذ الرافعي وطائفة من الكتاب المصريين حول رسالة له بعث بها الى « السياسة » تحت عنوان « اسلوب في العتب » وذهب فيها مذهب المتكلفين من بعض الكتاب القدماء فانكر عليه بعض الكتاب المصريين جمال هذا الاسلوب ، وكانت حول هذا الانكار خصومة طويلة انتهت الى الشتم والتنابذ . ثم لم تكد تنتهي السنة الماضية حتى نشرت « السياسة » لكاتب اديب من كتاب فلسطين هو الاستاذ

خليل السكاكيني رسالة حول الاسلوب القديم والاسلوب الجديد وحول الايجاز والاطناب تناول فيها بالنقد كاتبا اديبا من كتاب سورية هو الامير شكيب ارسلان ، فرد عليه الامير ردا طويلا واشتدت المناقشة بين الكاتبين حتى انتهت الى شيء من العنف ليس بقليل ثم عرض الاستاذ سلامة موسى للاستاذ الرافعي في مجلة « الهلال » فعده مع الامير شكيب ارسلان من زعماء المذهب القديم واشار الى الكاتب الاديب خليل السكاكيني على انه من انصار المذهب الحديث .

هذا هو التاريخ القريب لهذه الخصومة بين القديم والجديد في الادب ، ويخطىء من ظن ان هذه الخصومة ستنتهي غداً او بعد غد ، ويخطىء من سأل نفسه عن قيمة هذه الخصومة وعن آثارها الحسنة او السيئة ، فستستمر هذه الخصومة في الادب العربي كما استمرت في الآداب الاخرى وكما استمرت في الادب العربي القديم نفسه ، وستنتج نتائجها التي انتجتها في كل زمان وكل مكان فينتصر جديد على قديم ثم يصبح هذا الجديد قديماً وتكون الخصومة حوله وحول جديد آخر ينتصر متى آن له الانتصار ، وستظل الحال كذلك ما دام للغة العربية والادب العربي حظ من حياة .



هذه الخصومة اذن مشروعه ، سواء اكانت نافعة ام لم تكن ، فليس الادب العربي بدعاً من الآداب وليس الادب العربي العصري بدعاً من الآداب العربية المختلفة . فليختصم الاستاذان سلامه موسى ومصطفى صادق الرافعي ، وليختصم الاديبان خليل السكاكيني وشكيب ارسلان ، ولكنا نظن ان من حقنا نحن القراء على هؤلاء المختصمين ان نسألهم : فيم يختصمون ، وان نطلب اليهم في رفق ولين ان يتفضلوا فيحددوا لنا موضوع الخصومة حتى نتبعهم فيها على بصيرة من امرها ومن امرنا . فقد يظهر لنا الى الآن ان هؤلاء المختصمين يختلفون في اشياء لم يستطيعوا بعد ان يحددوها ، وآية ذلك انك تقرأ مقال الاستاذ الرافعي فتجده يسأل ما

« المذهب الجديد » وما « المذهب القديم » ، ويحاول أن يتبين هذين المذهبين وما بينهما من فروق . ولو كانت الخصومة بينه وبين صاحبه واضحة الموضوع بينة الحدود لما كلف نفسه هذا التساؤل ولما احتاج الى ان يكتب كل هذا الفصل الطويل . وقل مثل هذا في الخصومة بين الاديبين السكاكيني وشكيب ارسلان ، فهما يختلفان في الايجاز والاطناب والمساواة ، يرى احدهما ان الاطناب خصلة من خصال اللغة العربية قد عمد اليها اكبر الكتاب وارفعهم قدراً منذ كان النثر العربي الى الآن ، فمن الحق ان نتبع طريقهم في ذلك . ويرى الآخر ان الاطناب خصلة من خصال اللغة العربية ولكن له مقامه فلا ينبغي أن يعمد اليه الكاتب ولا سيما في هذا العصر الا بمقدار والاحين تدعو اليه الحاجة الادبية . ويدور المختصمون جميعاً حول الذوق دون ان يحددوا هذا الذوق . اليس من حقنا ان نسألهم عن حد هذا الذوق ما هو وما حده وما الذي يريدون منه ؟ ولا تقل ان الاستاذ الرافعي قد اجاب على هذا السؤال ، فنحن نعترف بان جوابه ادق من ان نفهمه واشد غموضاً من ان نظهر عليه . وانظر الى ما يقوله في الذوق : « وانت تعلم ان الذوق الادبي في شيء انما هو فهمه وان الحكم على شيء انما هو اثر الذوق فيه وان النقد انما هو الذوق والفهم جميعاً . . . » نعترف باننا لا نفهم هذا الكلام ، بل نعترف باننا نعتقد ان هذا الكلام ليس من شانه ان يفهم . فاذا كان الذوق الادبي في شيء انما هو فهمه واذا كان الحكم على شيء انما هو اثر الذوق فيه فكيف نستطيع ان نفهم ان النقد انما هو الفهم والذوق جميعاً ، ذلك ان الجملة الاولى صريحة في ان الذوق هو الفهم واذن فالذوق والفهم لفظان يدلان على معنى واحد ، واذن فليسا شيئين وانما هما شيء واحد هو الفهم ، واذن فالحكم اثر من آثار الفهم . والنقد هو الفهم ، واذن فالنقد والفهم والحكم والذوق كل أولئك شيء واحد تدل عليه الفاظ مختلفة . . . نعترف كما قلنا باننا لم نفهم هذه الجملة ولم نذقها ، واذن فنحن لا نستطيع ان ننقدها ولا نحكم فيها لان الذوق هو الفهم ، والفهم هو الحكم ، والنقد هو الذوق والفهم معاً وتستطيع ان تدور في ذلك ما شاء الله ان تدور . . . فما زال الاستاذ الرافعي مطالباً بان يوضح لنا نظريته هذه في الذوق ونحسبه يحتاج في توضيحها الى

عناء كثير ، ذلك انه يخيل الينا ان الذوق شيء والفهم شيءآخر وان من الاسراف ان نقول ان الذوق هو الفهم ، فقد نفهم اشياء كثيرة دون ان نذوقها ، وآية ذلك انا نفهم كثيراً من كلام الاستاذ الرافعي دون ان نذوقه او نعجب به . وربما كان لنا ان نذهب الى اكثر من هذا فنزعم اننا قد نذوق اشياء كثيرة دون أن نفهمها . واثبات ذلك ليس بالشيء العسير ، فما نظن أن الذين يذوقون الموسيقى ويطربون لها يفهمونها جميعاً ، بل نعتقد ان الكثرة المطلقة من الذين يسمعون للموسيقى فيطربون ويتأثرون وينتهي بهم ذلك الى شيء يشبه الذهول لا تفهم الموسيقى كما يفهمها الموسيقيون الاخصائيون . فانت ترى ان الذوق والفهم شيئان مختلفان قد يجتمعان حينما تفهم قصيد من الشعر أو فصلا من النثر وتعجب بهما وحينما تفهم قطعة من الموسيقى وتطرب لها ، ولكنهما قد يفترقان حينما تقرأ فصلا من فصول الكتاب المتكلفين او قصيدة من نظم الشعراء المتكلفين فتفهم النظم وتفهم النثر ولكنك تكرههما وتسخط عليهما السخط الشديد ، وحينما تسمع قطعة من الموسيقى فتعجب وتطرب دون أن تفهم ما اراد الموسيقي .



وللاستاذ الرافعي في فصله هذا آراء كهذا الرأي محتاجة الى شيء من المناقشة ، ومنها ما كان يحتاج الى شيء من التواضع قبل ان ينشر ويعلن الى الناس . انظر اليه مثلا يزعم ان المذهب الجديد في الادب ليس في حقيقة الامر الا نتيجة لضعف في اللغة والادب العربي وقوة في اللغة والادب والاجنبي ... وان الذين يزعمون انهم من انصار المذهب الجديد انما هم قوم ضيعوا حظهم من لغة العرب وآدابهم واخذوا بنصيب موفور من لغات الفرنج وآدابهم ، فكانت قوتهم في هذه اللغات والآداب وضعفهم في اللغة العربية وآدابها مصدر تورطهم في فنون سخيفة من القول ، وكان اعتزازهم بالمذهب الجديد وانكارهم للمذهب القديم ضرباً من الاعتذار لانفسهم ولوناً من الوان الغرور بانفسهم أيضاً ؟... نعتقد ان الاستاذ الرافعي مسرف في هذا الحكم ولعل مصدر اسرافه في هذا الحكم ، أن

صحت نظريته السابقة ، انه اخطا فهم ما يكتب انصار المذهب الجديد ؛ وهو انما خطا الفهم لانه اخطا الذوق او هو انما اخطا الذوق لانه اخطا الفهم ، وتستطيع ان تدور مع الاستاذ الرافعي حول الذوق الذي هو الفهم او حول الذوق الذي ليس هو الفهم والفهم الذي ليس هو الفهم حتى تتعبا فتسقطا معاً وقد بلغ منكما الكلل والاعياء ، ولكن الاستاذ الرافعي معذور على كل حال فما كان له ان يحكم فيحسن الحكم دون أن يفهم ويذوق وهو يخطئه الفهم والذوق احياناً فتخطئه الاصابة في الحكم . ونظن ان للاستاذ الرافعي حظا من الانصاف وانـه يرى معنا أن بعض انصار المذهب الجديد أو الذين يسمون انصار المذهب الجديد قد أخذو من اللغة العربية وآدابها بحظ لا باس به وان قوتهم في اللغة الاجنبيـة وآدابها لم تحملهم على ان يضيعوا حظهم من اللغة العربية وآدابها ، فهم يستطيعون ان يفهم الجاحظ كما يستطيعون ان يفهموا « فولتير » . واذن فانتصار هؤلاء لمذهب جديد ليس ضعفاً وليس اعتذاراً لانفسهم وليس تعصباً للادب الاجنبي الذي تفوقوا فيه . وما نظن ان الاستاذ ينكر على خصمه سلامه موسى انه يفهم الادب العربي كما يفهم الادب الانكليزي، ويستطيع ان يحكم فيهما عن فهم هو الذوق او ذوق هو الفهم او فهم ليس ذوقا او ذوق ليس فهماً . ... وما نظن ان الاستاذ ينكر علينا نحن انـا نستطيع ان نفهم الادب العربي وان نفهم الادب الفرنسي وان نحكم فيهما احياناً عن ذوق وفهم ، او عن فهم دون ذوق ، او عن ذوق دون فهم ... ثم هب سلامة موسى وغيره من خصوم الاستاذ الرافعي وانصار المذهب الجديد ضعافا في اللغة العربية وآدابها ، اقوياء في اللغات الاجنبية وآدابها فهنالك قوم ينصرون المذهب الجديد وليس لهم من اللغات الاجنبية وآدابها حظ ، وحظهم من اللغة العربية وآدابها موفور تدل عليه آثارهم ومـا ينشرون، فما راي الاستاذ في هؤلاء ؟ وما اصل مذهبهم الجديد وهـم يجهلون اللغة الاجنبية ولا يتعصبون لها ؟ ثم ما لنا نذهب بالاستاذ بعيداً عن الموضوع الذي اتقنه وبرع فيه . فلسنا نشك في ان الاستاذ أتقن الادب العربي واحسن روايته وفهمه وتقليده واسرف في هذا التقليد وهو يناقض نفسـه بعض المناقضة فيصرح بأن العرب عرفوا القديم والجديد فكان

القرآن الكريم جديدا وكانت الآداب العباسية جديدة من بعض وجوهها وتجددت الآداب العربية غير مرة ، يصرح بهذا ولكنه في الوقت نفسه يزعم ان احداً من العرب وادبائهم لم يذكر مذهباً جديداً ولا قديماً ، واذن فقد تجددت الاداب العربية غير مرة دون ان يشعر العرب بهذا التجدد او شعر العرب بهذا التجدد دون ان يذكروه .

والحق ان الاداب تجددت غير مرة وان العرب شعروا بهذا التجدد وانهم ذكروه واختصموا فيه كما يختصم فيه الاستاذ الرافعي واصحابه الآن ، وقد كتبنا في « السياسة » فصولا طوالا في العام الماضي فصلنا فيها بعض ما كان من الخصومة بين انصار القديم وانصار الجديد أيام بني العباس . واذا كان العرب لم يصطنعوا لفظة « المذهب الجديد » و « المذهب القديم » فليس ذلك دليلا على انهم لم يعرفوا القديم والجديد ولم يذكروهما ولم يختصموا حولها . وما معنى لفظ « البديع » ؟ وهل كان البديع جديداً ام هل كان قديماً ؟ وهل اختصم الناس حول البديع ام هل قبلوه دو ن مناقشة ولا جدال ؟ وهل امتاز بالبديع من الكتاب والشعراء قوم غلوا فيه فرضي عنهم قوم وانكرهم آخرون ، ام هل قبله الناس جميعا واخذوا منه بحظوظ متساوية ؟ واذا كان الاستاذ لا ينكر ان العرب اختصموا حول القديم والجديد في الشعر وفي النثر فهل يستطيع ان يعلل لنا هذا الاختصام ؟ فليس من شك في ان انصار الجديد من العباسيين مثلا لم يكونوا ضعافا في اللغة العربية وآدابها ولم يعتذروا لانفسهم عن هذا الضعف بتعلقهم بالجديد وغلوهم فيه . اكان ابو نواس ضعيفاً في اللغة العربية وآدابها ؟ اكان ابو تمام ضعيفاً في اللغة العربية وآدابها ؟ اكان المتنبي ضعيفاً في اللغة العربية وآدابها ؟ ومع ذلك فقد جدد ابو نواس وانتصر للجديد ، وقد جدد ابو تمام وانتصر للجديد ، وقد جدد المتنبي وانتصر للجديد ، وقد اختصم الناس حول هؤلاء الشعراء وتجديدهم فانتصر لهم قوم وسخط عليهم قوم آخرون ونستطيع أن نؤكد للاستاذ الرافعي أن الادباء الفرنسيين الذين كانوا يختصمون حول القديم والجديد كانوا يفهمون اللاتينية واليونانية وآدابهما كما يفهمون الفرنسية وآدابها وكان منهم مع ذلك من يؤثر اللاتينية واليونانية ومنهم

من يؤثر الفرنسية وكان منهم من يؤثر مذهب القدماء ومنهم من يؤثر مذهب المحدثين ، فليس المذهب الجديد قائماً على جهل او ضعف او تعصب وانما هو قائم على شيء آخر غير هذا كله . قائم على الفهم قبل كل شيء . قائم على ان الذين ينصرون هذا المذهب الجديد يحسون مالا يحسه انصار المذهب القديم ويرون ما لا يراه انصار المذهب القديم ويشعرون بانهم يحيون فيريدون ان ياخذوا بحظهم في الحياة ، يريدون ان يفهموا الناس وان يفهمهم الناس ، يعيشون مع الجيل الذي هم فيه دون ان يقطعوا الصلة بينهم وبين الاجيال الماضية .



ورأي آخر للاستاذ الرافعي يحسن ان نناقشه ولو قليلا . فهو يرى ان من الخير لانصار المذهب الجديد ان يولدوا من جديد وان يتعلموا الادب العربي من جديد لياخذوا منه بالحظ الموفور فيسلكوا فيه سبيل القدماء ذلك خير لهم من ان ينتحلوا مذاهبهم الجديد ولغتهم الجديدة فيدخلوا في اللغة والادب ما ليس من حقهم ان يدخلوه ، ذلك لان اللغة موروثة وهي ملك للايين من الاعمار ولطائفة طويلة من العصور فيجب ان نقبلها كما ورثناها دون ان ندخل فيها شيئا من عند انفسنا . ونحن نعترف باننا نخالف الاستاذ كل المخالفة في هذا الراي ونسمح لانفسنا بان نراه عقيما ونسمح لانفسنا بان نزعم ان لنا في هذه اللغة التي نتكلمها ونتخذها اداة للفهم والافهام حظا يجعلها ملكا لنا ويجعل من الحق علينا ان نضيف اليها ونزيد فيها كلما دعت الى ذلك الحاجة او قضت ضرورة الفهم والافهام او كلما دعا اليه الظرف الفني . لا يقيدنا في ذلك الا قواعد اللغة العامة التي تفسد اللغة اذا تجاوزناها . فليس لاحد ان يمنعك او يمنعني ان نضيف الى اللغة لفظا جديدا او ندخل فيها اسلوبا جديدا ما دام هذا اللفظ او هذا الاسلوب ليس من شانهما ان يفسدا اصلا من اصول اللغة او يخرجا بها عن طريقها المالوفة ، ولولا هذا وان اللغة ملك لابنائها يضيفون اليها ويدخلون فيها لما نمت اللغة ولما عاشت ولما استطاعت ان تفي بحاجات اهلها التي تتجدد وتتنوع بتجدد الازمنة وتبدل الظروف . والكتاب

والشعراء في كل عصر وفي كل مكان يضيفون الى لغاتهم ويدخلون فيها ويجددونها فمنهم من يسعده الحظ فتروج الفاظه واساليبه ويقبلها الناس ويتهالكون عليها حتى تشيع وتصبح جزءا من اللغة المألوفة ، ومنهم من يخطئه هذا الحظ فلا يحفل الناس بما ادخل ولا بما أضاف .

* * *

ومما يحسن أن ينبه اليه الاستاذ الرافعي في رفق ولين أيضا انه يسرف في سوء الظن باوربا وامريكا وفي سوء الحكم عليهما ، ولعل مصدر ذلك انه لا يقرا لغة اوربا وامريكا ولا يفهمها ولا يذوقها فهو يخطىء في الحكم على اوربا وامريكا . وهو مسرف حين يظن « أن في اوربا وامريكا من الغفلة مذهبا ومن الرقاعة مذهبا ومن تسفل الشهوات مذهبا ومن الجنون مذهبا ومن كل شذوذ مذهبا من غير المذاهب مذاهبا ... » هو مسرف في ذلك فليست أوربا وامريكا من السوء بحيث يظن ولو قد بلغنا من السوء هذا الحد لما كان لهما التفوق على غيرهما من بلاد الله . ثم ان اختلاف المذاهب وتنوعها في اوربا وامريكا ليس شيئا جديدا وانما هو شيء عرفه الانسان منذ تحضر ومنذ فكر ، ويسوءنا ان نقول ان الانسان قد عرف الديانات منذ تحضر ومنذ فكر أيضا فما استطاعت الديانات ان تقضي على اختلاف المذاهب ولا استطاع اختلاف المذاهب ان يقضي على الديانات وانما الانسان انسان فيه الخير وفيه الشر ، فيه الايمان وفيه الالحاد ، فيه الفضيلة وفيه الرذيلة ، فيه الاباحة التي لا حد لها وفيه التحرج الشديد . والاستاذ الرافعي كغيره من انصار المذهب القديم مشفق كل الاشفاق على القرآن الكريم وعلى الاسلام أن يصيبهما من المذهب الجديد شر أو ينالهما ضيم . ونظن من السخف والاطالة التي لا تجدي ان نهون على الاستاذ ونهدىء من روعه فليس ما يدعو الى هذا الاشفاق ونظن اننا ونحن من انصار المذهب الجديد المتشددين في نصره نستطيع ان نفهم القرآن الكريم ونذوقه كما يفهمه

الاستاذ واصحابه ويذوقونه . ذلك ان مذهبنا الجديد لا يقتل اللغة ولا يصرف الناس عنها ولا يغير من اصولها وقواعدها وانما يريد ان تكون اللغة حية نامية . ومن ذكر الحياة والنمو فقد ذكر التطور ومن ذكر التطور وآمن به فهو من انصار المذهب الجديد سواء ارضي ذلك أم انكره .

طه حسين

المصدر : مجلة الهلال . المجلد /٣٢/ و/٦/ مارس / ١٩٢٤ .

الجملة القرآنية

شكيب ارسلان ١٨٦٩ – ١٩٤٦

حضرة الاستاذ العبقري ، نابغة الادب ، وحجة العرب ، السيد مصطفى صادق الرافعي ، نفع الله به .

اراك قد استغربت قول احدى الجرائد العربية الصادرة في امريكا انك لو تركت « الجملة القرآنية » والحديث الشريف لكنت الآن المرجع الذي لا ينازع ، ولبذ مذهبك في البلاغة المذاهب كلها من قديم وحديث .

ويحق لك ولغيرك وايم الله ان يستغربوا هذا التمني الدال على مرض روحي عند بعض الناس لانه قد يجوز ان انسانا لا يعتقد بتنزيل القرآن ولكن لا يوجد عربي سليم الذوق لا يعتقد ببلاغة القرآن وحديث الرسول (ص) ولعمري ان الامر لكما قال ذلك الذي ساله سائل : هل يقال « فأذاقها الله لباس الجوع » فأجابه : ويحك ، هبك تتهم محمداً انه لم يكن نبياً أتتهمه انه لم يكن عربياً .

ولكنك لم تلبث ان فهمت مغزى هذه النزعة الغربية ، وعبرت عما ظهر في تلك الجملة الموجزة من المرامي والمقاصد البعيدة ، فقلت وانت سيد القائلين « فظهر لي في نور هذه الكلمة ما لم اكن اراه من قبل حتى لكانها (المكروسكوب) وما يجهر به من بعض الجراثيم مما يكون خفياً فيستعلن ودقيقاً فيستعظم وما يكون وكانه لا شيء ومع ذلك لا تعرف العلل الكبرى الا به » .

نعم ان وراء الاكمة ما وراءها وان هناك دسائس خفية تظهر بعض اطرافها في هذه الجملة . ولكن دعني اقول لك انه ليس مرادهم العدول الى الى الركاكة ولا مناصبة القرآن العداوة لمجرد كونه فصيحاً . وليس الامر من قبيل ما ذكره احمد فارس في (الفارياق) من ان بعض خدمة الدين ممن كان يتكلم عنهم يتبركون بالركيك من القول ويستوحشون من العربي الجزل البليغ . ولا هو من نمط ما وراه في (كشف المخبأ عن فنون اوربا) من انه كان يعرب التوراة وهو في انكلترة فكان يقف على الترجمة العربية قسيس انكليزي شدا شيئاً من العربية فكان كلما رأى لاحمد فارس جملة شم منها رائحة الفصاحة مسخها واستبدل بها جملة ركيكة . فكان الشدياق يعجب من أمره وقد نقل عنه من هذا النسق جملا يستغرب لها الانسان من الضحك اذ يرى كيف كان ذلك القسيس يتعمد قلب العالي بالساقط والجيد بالرذل تعمداً ويتهافت على الركيك تهافت الذباب على الحلواء ويصرح بانه انما يتوخى بذلك ابعاد الكلام عن شبه القرآن .

كلا يا أيها الاخ ، ان هذه الفئة لا تمج الفصاحة من حيث هي ، ولا تدين بالركاكة التي كان يذين بها قسوس أحمد فارس فيسخر بهم ما يسخر ، ولا تحارب اللغة العربية نفسها ، ولكنها تحارب منها القرآن .

ان هذه الفئة تحارب القرآن والحديث وجميع الآثار الاسلامية وتريد ان تتبدل بها كلام الجاهلية وكلام فصحاء العرب حتى من المخضرمين والمولدين وكل كلام لا يكون عليه مسحة دينية . وهذه الفئة قد تعددت غاياتها في هذا المنزع ولكن قد اتفقت في الوسائل . فمنها من لا يجهل بلاغة القرآن وجزالته وكونه من العربية بمنزلة القطب من الرحى ، ولكنه يدس الدسائس من طرف خفي لاقصائه عن دائرة الادب العربي وتزهيد الناشئة فيه بحجة كونه قديماً وان كل قديم هو بال . حتى اذا اتم لهم ما يبتغون من غض مكانة القرآن في صدور الناس يكونون قد طعنوا الاسلام طعنة سياسية في احشائه . . . على حين هم يزعمون ان الموضوع موضوع ادبي لغوي لا مدخل للسياسة فيه فيزلقون بهذه الدعوى المدحاض كثيرين ممن لو تفطنوا لما وراء هذه الدعاية البارزة في زي لغوي ادبي من المآرب

السياسية الخبيثة لكانوا منها على حذر بل لانقلبوا عليها وصاروا قرآنيين. ولكن مع الاسف نقول ان الحوادث الاخيرة لاسيما ما جرى قبيل الحرب الكبرى الى ما بعدها قد اثبتت انه مازالت هناك فئة تلعب بفئة وتسوقها الى حيث تريد فلا تستفيق هذه من سكرتها الا وقد قضي الامر الذي فيه تستفتيان .... وهذه الدسيسة التي ظهر لكم مكنونها من جملة واحدة ان هي الا حلقة لغوية من سلسلة دسائس مقصود منها الاسلام لا القرآن من حيث كونه قرآناً ولا الفصاحة من حيث كونها فصاحة .

ولقد اشرتم الى ذلك من مقالكم الجليل فقلتم « لا أعرف من السبب في ضعف الاساليب الكتابية والنزول باللغة دون منزلتها الا واحدا من ثلاثة : فاما مستعمرون يهدمون الامة في لغتها وآدابها لتتحول عن أساس تاريخها الذي هي امة به ولن تكون امة الا به ، واما النشأة في الادب على مثل نهج الترجمة في الجملة الانجيلية والانطباع عليها وتعويج اللسان بها، واما الجهل من حيث هو الجهل او من حيث هو الضعف » .

فانا اقول ان الوجوه الثلاثة متوفرة في السبب ، ولكن الوجه الاول هو اقواها . واصحاب هذا الوجه منهم من يريدون هدم الامة في لغتها وآدابها خدمة لمباديء الاستعمار الاوروبي ، ومنهم من يشير باستعمال اللغة العامية بحجة انها اقرب الى الافهام ، ولكن منهم من لا يحاول هدم الامة في لغتها وآدابها لا حباً باللغة والآداب ولكن علماً باستحالة تنصل العرب من لغتهم وآدابهم . ولذلك ترى هؤلاء دعاة الى اللغة والآداب على شرط أن لا تكون ثمة قرآن ولا حديث وأن تكون الصبغة لا دينية ؛ وحجتهم في ذلك حب التجدد وكون القرآن والحديث وكلمات السلف كلها من القديم الذي لا يتلاءم مع الروح العصرية في شيء . وآخرون حجتهم في ذلك النزعة القومية التي بزعمهم تناقض النزعة الدينية ، واصحاب النزعة القومية هؤلاء يقولون انها من باب التجدد وان روح القومية هي السائدة في هذا العصر . فالدين والمعاصرة نقيضان لا يجتمعان . فأما اذا سألهم سائل قائلا : انكم انتم من دعاة التجدد من قراء الآداب الاوروبية لا تنكرون ان كتاب اوربا اليوم من فرنسيس والمان وانكليز وطليان واسبانيول وروس الخ الخ انما آدابهم كلها ماخوذة من اللغات القديمة كاليونانية واللاتينية

وان آيات التوراة والانجيل تدور على السنتهم واقلامهم جارية فيها مجرى الامثال لا يكاد يخلو من خطاب ولا كتاب ، حتى أن المنفضين منهم من العقيدة يتكلمون بلغة الانجيل والتوراة وهذا كلمنسو الذي لا يوجد حرب على الدين أشد منه كان يجاوب بعض من اعترض عليه من أجل بعض نقاط في معاهدة فرساي قائلا : ادخلوا في فرح المعاهدة تجدوها كما تريدون . ومعلوم ان جملة « دخل في الفرح » هي آية انجيلية ادخل في فرح سيدك وهذا شيء لا يمكن ان يحصى الا اذا احصيت رمال يبرين . وانما نريد ان نثبت به كون التجدد والمعاصرة لم يمنعا بقاء لغات اوربا وآدابها على صبغتها القديمة ومآخذها من التوراة والانجيل ومن شعراء يونان وخطباء رومة وان ادباء اوربا في هذا العصر يستهجنون اختراع انشاء جديد واسلوب غير مالوف ويحسبونه مخالفا للذوق ويتمثلون بمعان غابرة لم يبق لها اثر . انظر هل بقي اثر للقوس والنشاب في اوربا وهل يوجد اعرق في القدمة من القوس والنشاب والى هذا اليوم يقولون il fait gleche de tout bois وترجمتها : يأخذ نشابا من كل خشب . ومرادهم بها انه يستعين باي قوة حصلت في يده . افتراهم وقد ارادوا مراعاة الاحوال العصرية يقولون : يعمل بندقية من كل حديد . أو : يصنع قنبلة من كل ديناميت . كلا لا يقولون ذلك ولا يرون الخلط بين العلوم والآداب ولا يجدون التجدد في الفنون والصناعات داعيا الى تغيير اسلوب الكتابة بحجة ان هذه التعابير كانت يوم لم يكن تلغراف ولا تليفون ولا أشعة رونتجن . افرايت كاتبا اوروبيا يقول : حلقت بمنطاد الفكر في سماء الموضوع ، كلا ولا ما اشبه ذلك . ولا ينكر انه قد جدت في أوربا فرائد وجمل لم تكن مالوفة في الاعصر السابقة كما جدت ايضا اصطلاحات في كل عصر من اعصر اللغة العربية فليس جميع ما اصطلح عليه الناس في ايام العباسيين كان معروفا في صدر الاسلام او في الجاهلية ، ولكن كل ما يتجدد هنا او هناك لابد من ان يرجع الى نصاب اللغة وينزل على حكمها ولن تترك اللغة فوضى لا في شرق ولا في غرب . طالما ترنحت الاعطاف عند ذكر الكاتب الفرنسي العظيم اناتول فرانس الذي توفي منذ بضعة اشهر ، وكان هذا الكاتب هو الصدر المقدم في الانشاء عند قومه لا يرون احدا في

منزلته بعد رنان وكان مما تميز به النزوع الى المذاهب الاجتماعيةالجديدة والغلو في كره العقائد الدينية والعادات القديمة والنفور من النصرانية بأجمعها حتى لقد صفة كثيرون مع الشيوعيين . وبالرغم من هذا فقد اتفق جميع من ترجموه لدن وفاته حتى من أدباء الفئة الاشتراكية والشيوعية على انه كان في إنشائه اصوليا استلاذيا مقلدا يحذو حذو راسين الشاعر الذي عاش قبل هذا العهد بمائتي سنة وانه حافظ على الطريقة الكتابية الاصولية المسماة عندهم « كلاسيك » اي الطريقة المدرسية وقيل للكاتب المشهور موريس بارس ــ وكان من انصار الديانة والكثلكة ــ افلا ترى مبادىء أناتول فرانس وغلوه في الاشتراكية الخ ، فاجابهم : قولو فيه من هذه الجهة ما شئتم الا انه حفظ اللغة . وهي جملة شهيرة يحفظها الجميع عن بارس .

نعم يقدر العربي ان لا يكون صحيح العقيدة ولا مسلما ، ويكون نصاب اللغة عنده القرآن والحديث وكلام السلف ، لانها هي الطبقة العليا التي تصح أن تكون مثالا . ولكن ليس هذا مراد هذه الفئة التي تريد حربا وتوري بغيرها تبغي نقض قواعد القرآن ــ التي هي السد الامنع الحائل دون الاستعمار والثقافة الافرنجية بفروعها ــ وتاتي ذلك من طريق نبذ القديم والبالي والاخذ بالجديد والحالي ، ولا يوجد مع الاسف كثيرون ممن ينتبهون لهذه السفسطة ويعلمون مرمى هذه الدعاية به ان كثيرا من ناشئتنا ومن عامتنا هم من فخ الى فخ . . . ومن حملة هذه الاشراك ان القرآن حائل دون القومية العربية لا يفسح لها مجالا فتراهم ينصبون له العداوة وامراض العقول كثيرة كامراض الابدان ولكن امراض القلوب هي التي لا حيلة فيها . . . هذا وا بعضا من ادعياء الجديد ــ لا دعاة الجديد ــ لا يحاربون القرآن ولا الشرع عن بحث وتدقيق ومقايسة ومقابلة يتبعون المعقول قديما كان او جديدا ويرتادون المفيد معرقا كان او محدثا كلا ، بل هم اختاروا مذهبهم من قبل فرجحوا كل جديد كيفما كان وبدون محاكمة ، وذلك ليقال انهم رقاة عصريون ، اما نظرية أخذ الاحسن من كل شيء واختيار الاوفق من اي جهة جاء فهذه ليسوا منها بسبيل ، وانما يؤثرون الشيء اذا علموا ان بعض الافرنجة اخذت به .

ولما وافقت هذه الفئة في تركيا على منع المسكرات لم يكن السبب في هذه الموافقة ضرر المسكرات او النهي الشرعي بل حرموا الخمور لمجرد كون امريكـا حرمتهـا !

وخذ لك هذا المثال :

كنا في مجلس المبعوثين في الاستانة وكان زملائنا زهراب افنـدي الارمني الشهير ولم يكن علمه وذكاؤه باقل من شهرته وكان يصعب على مبعوث مهما كان قوي العارضة قاطع الحجة ان يخاصم زهراب لاسيما في التشريع . فاتفق أن بعض مبعوثي الترك من المولعين بالجديد ــ لمجرد ادعاء الرقي العصري ــ اختلفوا مع زهراب في سن مادة قانونية ، فعقدوا لها مجلسا خاصة وانبرى لزهراب اثنان من هؤلاء العصريين يجادلانه ويحاولان ان يحملاه على رايهما فبعد حوار طويل تغلب زهراب عليهما والزمهما الحجة ولم يبق امامهما الا السكوت . الا ان زهراب اخطأ في شيء وهو عدم معرفته عقلية هذه الفئة فبعد ان اخرسهما في الجدال عاد فقال لهما : وهذاايضا وفق احكام شريعتكم (الاسلامية) التي تقـول كذا وكذا . حدثنا الفلكي الرياضي فطين افندي مدير مرصد الاستانة : انه لما قال لهما زهراب هذا القول عادا فنبرا بغتة قائلين : اذا كان الامر كذلك فلا نقبل هذا الراي . ومن بعد تلك الفلتة لم يعد زهراب قادرا ان يقنعهما بوجهمن الوجوه فليس صواب الشيء وعدمه هو الحاكم عند هذه الفئة بل هو مصدر الشيء بدون نظر الى اي اعتبار آخر فان علموا كونه آتيا من طريق الدين اوملائما لحكم وارد في الشرع استمروا مذاقه قبل ان يذوقوه ، وليس هذا منحصرا في الترك وفي الفئة التورانية منهم بل عندنا نحن من هذا النخل فسيل في مصر والشام وغيرهما .

وياليتك ترى هذه الفرقة على شيء من التحقق بالجديد فيما يلزم فيه الاخذ بالجديد من علم نافع او فن مفيد او صناعة دارة . فان العلم لا يجب ان يكون فيه قديم وجديد بل هو اصل يتفرع منه فروع كل يوم يتحتم على الانسان ان يتبعها كلها ناظرا الى حقيقتها وصدق تجربتهـا وفائدتها للاجتماع .

كلا يا سيدي قلما رايت من هذه الفرقة الا الادعاء الفارغ والنزوع الى الثورة على ما يسمونه بالقديم وهم ينسون ان هناك مبادىء ثابتة وبديهيات ليس فيها قديم وجديد وان الاثنين والاثنين اربعة من مائة الف سنة فلا تقدر ان نعمل على ذلك ثورة وان المقولات العشر مما لا تتناوله الثورة وان الثورة انما هي واجبة على الجهل والوهم لا على الحق والعلم . وان العلم لا يكون قديما وان الادب لابد ان يراعى فيه ذوق الامة وتاريخها وعاداتها وعرفها وإنه ليس بتجربة كيماوية .

هذا يا اخي هو المرمى الصحيح ممن اخذ عليك « الجملة القرآنية » فاما الفئام الاخرى ممن عجز عن الفصيح فابغضه ممن يستانس بالركيك لانه هو الشيء الوحيد الذي يقدر عليه فهذه خطبها يسير وقلعتها اوهى من أن يحمل مثل قلمك عليها .

لوزان : ٨ فبراير سنة ١٩٢٥

شكيب ارسلان

المصدر : الزهراء ــ الجزء ٨ ــ المجلد ١ ، ١٥ شعبان ١٣٤٣ ــ ص ٤٨١ ــ ٤٨٨ .

الأدب واللغة
القديم والحديث

محمد حسين هيكل

١٨٨٨ – ١٩٥٦

٢

ثارت مسألة القديم والحديث مرة اخرى . وتلك مسألة اذا ثارت لم يكن يسيرا ان تهدأ . فهي عند بعض الكتاب صيحة حرب لا تلبث ان ترتفع حتى يهرع من يسمون انفسهم انصار القديم الى صفه القديم ينصرونه ، ومن يسمون انفسهم انصار الحديث الى صف الحديث يعززونه . واذا انتظم الكتاب صفوفا للنضال عن كتابتهم فويل للمحابر والاقلام وويل للأوراق والصحف . اما القراء فلهم البشرى . ان لهم من ميدان هذه المعركة خير منظر تتراشق فيه الحجج مطمئنة تارة محتدمة طورا وتتجاوب الادلة مستقيمة حينا ملتوية احيانا . وما بالك بقوم يدفعون عن وجودهم ويذودون عن كيانهم . أوليست الكتابة حياة الكاتب . فدفاعه عنها دفاع عن الحياة . واذا كان المزارعون من اهل الريف ينشب احدهم اظافره في عنق جاره حتى ليقضي عليه ان حاول ليصد الماء عن مزرعته فان للكتاب بديلا من اقلامهم عن الاظافر يذودون بها عن حياض حياتهم كما يذود المزارع عن حوض حياته .

ومن العجب في امر معركة القديم والحديث التي تنشب هذه السنين ما بين آن وآخر في مصر انها تنشب بين اقوام يعلنون جميعا انهم على اللغة العربية وقواعدها حراص ، في حين أن قوما آخرين لهم بين كتاب

العربية اسم ومقام ولهم فيها تواليف ورسائل وغرضهم الظاهر في كتاباتهم العدول بالعربية عن اصولها وقواعدها وإساليبها والفاظها ، يقون بعيدين عن المعركة ينتظرون ما ينجلي عنه غبارها ، آملين أن يكون لهم من ورائها مغنم . وهل رأيت الريحاني أو جبران خليل جبران أو من شايعهم يعيرون اعتراض انصار القديم أو انصار الحديث عناية او التفاتا . أم هم كانما يقولون في سخرهم المطمئن وازدرائهم للمتنازعين: اولئك أقوام تعلقوا بالقشور دون اللباب . فليظلوا في معاركهم حول الألفاظ والتراكيب فلن يكون لهم من ورائها الا التناحر . يومئذ يكون لجديدنا نحن ، هذا الجديد الممتلىء حياة وقوة ، هذا الجديد الثائر على أمة العرب العتيقة المتهدمة ، هذا الجديد الطامح الى حياة الغرب وعلمه وأدبه ، بل الطامح للفظه ان اتيح له بلوغه ، يومئذ يكون لجديدنا نحن الفوز على حين يبقى هؤلاء في معاركهم التي تنشب لغير غاية ، وتنتهي الى غير نتيجة . وينجلي غبارها عن غير فكرة جديدة ، أو أمل في التقدم نحو فكرة جديدة.

هذا من العجب حقا . فانصار القديم هم الأساتذة : صادق عنبر ومصطفى صادق الرافعي والشيخ علام ومن نحا في أسلوبهم نحوهم . وانصار الحديث هم الدكتور عزمي والدكتور صبري واخوانهم . فان تسل ما قديم أولئك وما حديث هؤلاء ترى المقالات تواجه المقالات والرسائل تنقض الرسائل . لكنك ترى هذه المقالات والرسائل جميعا مكتوبة بأسلوب عربي مبين . لم يصفع أحدها قواعد النحو والصرف بما تصفعها به رسائل الريحاني وجبران . ولم تكره الالفاظ خلالها حتى لتراك في حيرة قبل أن تصل الى ما يريده أصحابها منها . ففيم اذن هذه المعارك يحتدم فيها الجدال وترتفع فيها جلبة الألفاظ وضجيجها حتى لتشبه فرقعة البارود وقعقعة السنان ؟

ما القديم وما الحديث ؟ مسالة يجب حلها لمعرفة حدود الخلاف بين الفريقين . فهل القديم في اللغة والأدب ما يرجع عهده الى عصور الجاهلية الاولى . أم هو ما اجتمع أيام حضارة العرب الى حين بدأ

التدهور في ادبهم بعد أن تدهورت سيادتهم واستعجمت حضارتهم .
ما نظن احداً ممن يسمون انفسهم انصار القديم يريدُ قصر اللغة والادب في عصرنا الحاضر على ما كانا عليه في الجاهلية الاولى . فهل يقول لنا احدهم بعد هذا اي لغة واي ادب عربي يفضل ؟ ما نخالهم ينكرون ن لغة امرىء القيس وأدبه ليست لغة أبي النواس وأدبه . وانك لتقرأ المعلقات وما عاصرها فترى فيها شيئاً غير الذي تراه في شعر العباسيين او في شعر الاندلسيين . وانك لتقرأ نثر الهمذاني فتراه غير نثر الجاحظ وغير نثر ابن المقفع وغير نثر ابي الفرج صاحب الأغاني . ثم انت اذا عدلت عن الشعر والأدب الى الفلسفة والتاريخ رأيت في رسائل الفارابي وفي كتب ابن خلكان وابن خلدون صوراً من النثر متباينة . فمن أي الصور في النثر والشعر يرضى انصار القديم ؟ واي هذه الصور في نظرهم هي المثل الأعلى للغة وللأدب ؟ وهل يرى احدهم أن يقف في ادبه وكتابته عند ما اشتملت عليه ؟

كذلك ما نظن احدا ممن يسمون انفسهم انصار الحديث ينكر على هذا الميراث العربي في اللغة والادب مجده وعظمته . بل ما نظن احدا منهم ينظر الى ثورة التجديد التي يحمل لواءها جبران خليل جبران واصحابه بعين مطمئنة . ومهما يعجب احدهم بما تنتجه مدرسة الثورة هذه من بعض الثمرات ، ومهما يجد في مثل كتاب الاجنحة المتكسرة من فيض الخيال الشعري ، فكل واحد منهم جد حريص على بقاء الصلة بين الحاضر والماضي وثيقة متينة . ذلك بانهم يعلمون أن كل حاضر لا يتصل بالماضي وشيك الزوال .

فيم الخلاف اذا ؟ الخلاف في راي انصار القديم أن هؤلاء «المحدثين» قد انصرفوا عن العرب وأدبهم الى الغرب وادبه . وانهم لذلك جهلوا من أساليب العرب افصحها لفظا وأبلغها عبارة واكتفوا بالقليل الذي درسوا في مكاتبهم وحاولوا اكراه هذا القليل على احتمال ما امتلأت به رؤوسهم من العلوم الحديثة فنزل بهم ما عرفوا من اللغة واساليب الادب الى الاضطراب والركاكة . والخلاف في راي انصار الحديث أن

هؤلاء « الأقدمين » حبسوا أنفسهم في غيابات الماضي ووقفوا من الألفاظ ومعانيها والعبارات وتراكيبها موقف العرب ، جاهلين أو ناسين أن اللغة مظهر من مظاهر الحياة ، وانها لذلك يجب أن تحتمل أداء كل ما يريده الأحياء من صور ومعان على الوجه الذي يريدون اداءه به . فوقف بهم ذلك عن مجاراة الحضارة الحاضرة ، وعجزوا عن أداء ما تريده الحياة من صور هذه الحضارة ومعانيها .

ولئن صدق هذا التصوير فالخلاف ليس بين القديم والحديث ، والقديم والحديث لا يمكن أن يكون بينهما خلاف ، وان كان أبدا بينهما اختلاف . بل الخلاف بين أدب اللفظ وادب الفكر . فالذين يسمون انفسهم انصار القديم يريدون البقاء في دائرة حضارة العرب يستعيرون تصورهم للأشياء وتصويرهم اياها بالالفاظ ، ويعملون على اكراه الحضارة الحالية في قوالب الحضارة العربية . والذين يسمون انفسهم انصار الحديث يحاولون الفرار من بيت الحضارة القديمة ويعملون على ان يخلقوا لما انشاته الحضارة الحديثة قوالب جديدة من اللفظ قد لاتتفق وما يرضاه فقه اللغة العربية وسرها .

مثل هذا الخلاف يرجع الى قيام طائفتين اختلف تهذيب كل منهما واختلفت ثقافتهما عن الاخرى ، فتعذر عليهما التعاون الواجب لخلق روح قومية للثقافة والادب . ولن يزال هذا الخلاف ما بقى الاختلاف بين الطائفتين في التهذيب والثقافة وما بقيت الامة في علمها وادبها كلا على سواها وعالة على غيرها . فيظل « الاقدمون » بين جدران قصور الماضي المجيد بحضارته وادبه معجبين بمخلفاته ، ناسجين ثمرات أفهامهم وخيالاتهم على منواله ، قانعين بالنظر الى الحاضر وأعماله وآماله من نوافذ هذه القصور ، فرحين بما قد يجدونه فيه من مشابهات لما عندهم ، مؤمنين بأن ما لديهم خير وأبقى ، وبأن ما يرون من سناء ولألاء ليس الا خلبا من برق وسرابا من آل . فاذا حسن ظنهم بالحاضر قالوا انما هو فروع هذا الجذع الذي جمعنا حوله وأوجب علينا أن نزيده قوة وصلابة .

ويظل « المحدثون » في فضاء الحاضر الحر الدائم ماخوذين بما ابدع الغرب فيه من ثراء وغنى في الحكمة والعلم والشعر ، ممتلئة نفوسهم بمحبته واجلاله ، متمثلة كل ما فيه من بهاء لا يبلى ، وجدة لا يهرمها شتاء حتى يعقبه ربيع اكثر بهاء وجدة . فاذا ادأروا رؤوسهم الى قصور «الاقدمين» التي منها درجوا حاولوا ان يتصل ما بين كنوزها وهذه الحضارة الجديدة فان تيسرت الصلة الصحيحة فذاك . وان لم تتيسر فلا ضير ان تكون صلة اقل صحة مادامت ترضى منهم هوى النفوس وتكفي عندهم لبوسا للمعاني الجديدة والصور المستحدثة .

والحق ان اللغة العربية على ما خلفتها حضارة العرب كثيرا ما تستعصي على صور هذه الحضارة الحديثة . وليس عليها في ذلك ذنب ، وليس في طبيعتها دون الوصول اليه عجز . ذلك بان اللغة اداة ان لم يدم صقلها علاها الصدأ ، ثم كان فيها تناقل عن السير المطمئن الى حيث يحتاج اليها الذهن الفياض بمعان وصور جديدة . ولقد يبلغ من صدئها ان يقبرها . وهذه الهيروغيفية واليونانية القديمة واللاتينية والاشورية وما اليها من لغات ، حملت اسمى صور الحضارة الانسانية القديمة ثم اهملت فصارت قبورا لهاته الصور ، ينبش العلماء اليوم لاستخراج ما تحتويه من كنوز ودفائن تضيف الى سلطان الحاضر وعظمته سلطانا وعظمة . ولا ريب في ان اللغة العربية تنطوي من الكنوز على ما لو اطلعت عليه جميعا لوقفت امام جلاله وبهائه مبهورا مقدسا . وذلك سر سحرها الاقدمين واخذها اياهم عن انفسهم . لكن اللغة العربية كائن حي لا تزال ولن تزال . وكل كائن حي لا يستطيع القيام دون الاشتراك مع سائر الكائنات التي تتصل به اشتراك تعاون وتنافس . وقد هدمت منشآت الحضارة الحديثة ما بين الدول من حدود وما كان يحيط بثمرات الفكر من قيود . فاصبح العلم كله كتلة واحدة ذات حضارة واحدة . واصبحت عقول السكسون والجرمان واللاتين والعرب والهندوس والصين تتجلوب ثمراتها وتتنافس آثارها وتتجاذب في نضال وتضامن . واندفعت الامم العربية واللغة العربية ، حتما مقضيا ، تغامر في المضمار وتعد كاهلها لاحتمال حضارة الانسانية كلها بكل ما فيها من علم وفن وأدب . ولا مفر لها من أن يبلغ

اصفو صقالها ما يجعلها في حملها حضارة العالم تعدل كل لغة من لغاته . فلاذا أتاح القدر لاهلها ان كان لهم على الحضارة الغلب يوما كانت بين اللغات جميعا زينة وسحرا وبهرا .

ولعل هذه المعارك القلمية التي تنشب بين « الاقدمين » و «المحدثين» احدى الخطى في سبيل هذه الغاية . « فالاقدمون » يريدون ان يمسكوا « بالمحدثين » لكي لا يندفعوا الى ما يندفع اليه الريحاني وجبران خليل جبران .. و « المحدثون » يحاولون ان يخرجوا « الاقدمين » من غيابات الماضي الى نور الحاضر وحراكته .

وذلك نضال غايته الكمينة حرص الطائفتين على التضامن والتعاون في الحياة القوميةلتؤدي كل ما اوجبته عليها الحياة لخير الانسانية جميعا .

لكن هذه المعارك لا تزيد على انها خطوة ضيقة . ودون تلك الغاية السامية تعوزه خطى العمالقة وجهود الفحول . هؤلاء العمالقة الفحول هم النوابغ يقف الواحد منهم من قومه موقف الهادي تتعلق به الانظار وتنفتح لعبارته الافئدة والقلوب . يعتصر ذهنه الفرد لب الحضارة جميعا وينفثها من روحه القوى في احاديث وقصص او في قصائد منظومة او في كتب علم وفن ، فيتلقاها عنه قومه وقد لبست الفاظه ثيابا من المعاني يجب أن تقرها معاجم اللغة راضية او كارهة . ولهذا النابغة يخضع « الاقدمون » و « المحدثون » جميعا . ليكن في عبارته ما فيها على قواعد اللغة من خروج وشذوذ ؛ هي لغة الحضارة وروح العصر ؛ هي الجواب الكافي لحاجة في النفوس تتطلع لسدها ؛ هي الاداء الصحيح لما يجول بخاطر الانسانية من المعاني . والانسانية ميراث متجدد يسفر كل صباح عن حظ منه جديد . فاللغة التي تؤدي حاجة الانسانية وما يجول بخاطرها لا يمكن الا ان تكون الثمرة الناضجة لهذا الميراث والجماع الكامل لكل ما كدسه الوجود من علم ووهم ومن حس وتصور .

متى يتاح للغة العربية امثال هؤلاء النوابغ الذين ينشئون الادب

القومي ويفرغون في قوالبه المصقولة حضارة الانسانية بكل ما تنطوي عليه ؟ في ذلك سؤال جوابه للزمن . لكن اهل هذه اللغة بحاجة الى مجهودات صالحة يقوم بها المئات والالوف من ابنائها في مثابرة وجد لاجتناء ثمرات مجهودات الامم الاخرى وبثها في جو البلاد العربية . سيجد هؤلاء المئات والالوف من مجهودهم مشقة وعناء ، وسيقع بعضهم اعياء ويفر آخرون يأسا . لكن الحضارة شجرة من الاشجار الضخمة العظيمة الجذع التي لا تسرع الى الظهور والنمو ولكنها تسير في سبيله مقاومة كل صعب متغلبة على كل عقبة ، وتبدو اول ظهورها ضئيلة لا يطمئن من لا يعرفها الى انها بالغة ما يبلغه امثالها من ضخامة وعظمة ، ولذلك يصد عنها ولا يعنى بتعهدها . وهذا هو شأن الكثيرين من اهل الشرق اليوم . اولئك يريدون العاجلة فيهيمون باقتطاف زهر النبات الضعيفة سوقه السريع انقضاء اجله . وهم يكتفون بتفيء ظلال جذوع سقطت اوراقها وجفت اغصانها . اما ذوو العلم فلا يثنيهم عن تعهدها عجز ولا طمع . فاذا هي اورقت كان من ثمرها قطاف النابغة الهادى .

يوم يقيم النوابغ الأدب القومي ، بعد ان ينشر المجاهدون العلم والثقافة القومية ، تنتقل المعركة من ميدان القديم والحديث الى التنافس حول الكمال والقرب منه والابتعاد عنه ، ويومئذ يتشعب الكمال الى ما يريد النوابغ من صور ، ويومئذ يسلس قياد اللغة ويسرع تيارها الفياض الى حيث يحتاج اليه الذهن . ثم يكون التعاون الصادق بين ثمرات الفكر . وتكون هذه الثمرات لذاتها هي الغاية ان اصبحت اللغة منهلا عذبا كثير الزحام . ويومئذ ترى هؤلاء المقتتلين من « الاقدمين » و « المحدثين » قد انصرفوا عن نضالهم الحاضر الى ما هو خير وابقى ، ونرى اللغة اتصل ماضيها بحاضرها دائمة الاهبة لتمثل ما تخلقه الحضارة من كل حديث .

لكن انصراف المقتتلين اليوم لن يحسم المعركة . وكيف تحسم في الحياة معركة والحياة تمور في نضالها الدائم الاتجاه نحو ما ترجوه الانسانية من كمال . انما يكون صلح الطائفتين المتنازعتين اليوم مشارا

القيام طوائف جديدة تقف في وجههما جميعا . ألم تر في نضال الفن كيف قام الآخذون عن الفلمنك فانشأوا اليوم شتى المذاهب ووقفوا ينصرونها في وجه المدرسة اللاتينية العريقة الاصل والحسب ؟ أو لم تر الى من قد يسميهم الاستاذ عزمي المكعبين Les cubis tes اذن فسيقوم عند بلوغها من صفو الصقال غايته اولئك « المكعبون » ومن اليهم من الثائرين . وسيكون اثر هؤلاء في اللغة اثر السموم تدخل الى الجسم القوي فتزيده قوة وتؤاتيه من المناعة ما يقيه ويحفظه .

* * *

لا نطلب اليوم اذن الى « الاقدمين » و « المحدثين » أن يكفوا عن النضال مادام نضالهم خطوة في سبيل الكمال . انما الذي نرجوه ونطلبه أن يتضامن المئات والالوف من اهل اللغة العربية لتتمثل لغتهم حضارة الانسانية وليحتمل كاهلها كل ثمرات الذهن الانساني ونصيب من الثقافة القومية فقد آذنت الساعة لقيام النوابغ الذين ينفثون في الشرق العربي روح حياة وقوة ويخلعون على اللغة ثوب البهاء الذين يجدر بها أن تكسوه في هذه المدينة الحاضرة لتكون به جديرة بأبناء هذا الشرق مهد الحضارات الانسانية واكبرها مجدا وعظمة .

محمد حسين هيكل

المصــدر : في اوقات الفــراغ . الطبعــة الثانيــة ١٩٦٨ د. محمد حسين هيكل . مكتبة النهضة المصرية .

نشرت المقالة للمرة الاولى في جريدة السياسة بتاريخ ٢٣ ابريل ١٩٢٥ .

المرحلــة الثانيــة

في الشعر الجاهلي

طـه حسـين ١٨٨٩ ـ ١٩٧٣

الكتـاب الأول

١

تمهيـد :

هذا نحو من البحث عن تاريخ الشعر العربي جديد ، لم يألفه الناس عندنا من قبل . واكاد اثق بأن فريقا منهم سيلقونه ساخطين عليه ، وبأن فريقا آخر سيزورون عنه ازورارا . ولكني على سخط أولئك وازورار هؤلاء اريد أن أذيع هذا البحث ، أو بعبارة اصح اريد أن اقيده، فقد اذعته قبل اليوم حين تحدثت به الى طلابي في الجامعة . وليس سرا ما تتحدث به الى أكثر من مائتين .

ولقد اقتنعت بنتائج هذا البحث اقتناعا ما أعرف اني شعرت بمثله في تلك المواقف المختلفة التي وقفتها من تاريخ الادب العربي . وهـذا الاقتناع القوي هو الذي يحملني على تقييد هذا البحث ونشره في هذه الفصول ، غير حافل بسخط الساخط ولا مكترث بازورار المزوَر . وأنا مطمئن الى انهذا البحث وان أسخط قوما وشق على آخرين، فسيرضى هذه الطائفة القليلة من المستنيرين الذين هم في حقيقة الامر عدة المستقبل وقوام النهضة الحديثة وذخر الأدب الجديد .

والقد تناول الناس منذ حين مسألة القديم والجديد ، واشتد فيها اللجاج بينهم ، وخيـل الى بعضهم انه يسـتطيع ان يقضي فيها بين المختصمين . ولكني اعتقد أن المختصمين انفسهم لم يتناولوا المسألة من جميع اطرافها ، فهم لم يكادوا يتجاوزون فنون الأدب التي يتعاطاها

الناس من نثر وشعر ، والاساليب التي تصطنع في هذه الفنون والمعاني، والالفاظ التي يعمد اليها الكاتب او الشاعر حين يريد ان يتحدث الى الناس بعواطف نفسه او نتائج عقله . ولكن للمسالة وجها آخر لايتناول الفن الكتابي أو الشعري ، وانما يتناول البحث العلمي عن الأدب وتاريخ فنونــه .

نحن بين اثنين : إما ان نقبل في الأدب وتاريخه ما قال القدماء ، لا نتناول ذلك من النقد الا بهذا المقدار اليسير الذي لا يخلو منه كل بحث والذي يتيح لنا ان نقول : اخطأ الاصمعي او اصاب ، ووفق ابو عبيدة او لم يوفق ، واهتدى الكسائي او ضل الطريق ؛ وإما ان نضع علم بالمتقدمين كله موضع البحث . لقد انسيت ، فلست أريد أن اقول البحث وإنما اريد ان اقول الشك . أريد الا نقبل شيئا مما قال القدماء في الادب وتاريخــه الا بعد بحث وتثبت ان لم ينتهيــا الى اليقين فقــد ينتهيان الى الرجحان .

والفرق بين هذين المذهبين في البحث عظيم ، فهو الفرق بين الايمان الذي يبعث على الاطمئنان والرضا ، والشك الذي يبعث على القلق والاضطراب وينتهي في كثير من الأحيان الى الانكار والجحود .

المذهب الاول يدع كل شيء حيث تركه القدمــاء لا ينالــه بتغيير ولا تبديل ولا يمسه في جملته وتفصيله الا مسا رفيقا . امــا المذهب الثاني فيقلب العلم القديم رأسا على عقب . وأخشى إن لم يمح اكثره أن يمحو منه شيئا كثيرا .

ولندع هذا النحو من الكلام العام ولنوضح ما نريد أن نقوله بشيء من الأمثلــة :

بين يدينا مسالة الشعر الجاهلي نريد أن ندرسها وننتهي فيها الى الحق . فاما انصار القديم فالطريق امامهم واضحة معبدة ، والامــر عليهم سهل يسير . اليس قد أجمع القدماء من علماء الامصار في العراق

والشام وفارس ومصر والاندلس على أن طائفة كثيرة من الشعراء قد عاشت قبل الاسلام وقالت كثيرا من الشعر ؟ أليس قد اجمع هؤلاء العلماء انفسهم على ان لهؤلاء الشعراء اسماء معروفة محفوظة مضبوطة يتناقلها الناس ولا يكادون يختلفون فيها ؟ اليس قد اجمع هؤلاء العلماء على ان لهؤلاء الشعراء مقدارا من القصائد والمقطوعات حفظه عنهم رواتهم وتناقله عنهم الناس ، حتى جاء عصر التدوين فدون في الكتب وبقي منه ما شاء الله ان يبقى الى أيامنا ؟ واذا كان العلماء قد اجمعوا على هذا كله فرووا لنا اسماء الشعراء وضبطوها ونقلوا الينا آثار الشعراء وفسروها ، فلم يبق الا ان نأخذ عنهم ما قالوا راضين به مطمئنين اليه . فاذا لم يكن لاحدنا بد من ان يبحث وينقد ويحقق فهو يستطيع هذا دون ان يجاوز مذهب انصار القديم . فالعلماء قد اختلفوا في الرواية بعض الاختلاف وتفاوتوا في الضبط بعض التفاوت . فلنوازن بينهم ولنرجح رواية على رواية ولنؤثر ضبطا على ضبط ، ولنقل : أصاب البصريون واخطأ الكوفيون ، أو وفق المبرد ولم يوفق ثعلب . لنذهب في الادب وفنونه مذهب الفقهاء في الفقه بعد أن أغلق باب الاجتهاد : هذا مذهب انصار القديم ، وهو المذهب الذائع في مصر ، وهو المذهب الرسمي أيضا ، مضت عليه مدارس الحكومة وكتبها ومناهجها على ما بينها من تفاوت واختلاف .

ولا ينبغي أن تخدعك هذه الالفاظ المستحدثة في الأدب ، ولا هذا النحو من التأليف الذي يقسم التاريخ الأدبي الى عصور ، ويحاول أن يدخل فيه شيئا من الترتيب والتنظيم ؛ فذلك كله عناية بالقشور والأشكال لا يمس اللباب ولا الموضوع . فما زال العرب ينقسمون الى بائدة وباقية ، والى عاربة ومستعربة . وما زال اولئك من جرهم ، وهؤلاء من ولد إسماعيل . وما زال امرؤ القيس صاحب « قفا نبك ... » وطرفة صاحب « لخولة أطلال ... » وعمرو بن كلثوم صاحب « ألا هبي ... » ، وما زال كلام العرب في جاهليتها واسلامها ينقسم الى شعر ونثر . والنثر ينقسم الى مرسل ومسجوع ، الى آخر هذا

الكلام الكثير الذي يفرغه انصار القديم فيما يضعون من كتب وما يلقون على التلاميذ والطلاب من دروس .

هم لم يغيّروا في الادب شيئا . وما كان لهم ان يغيروا فيه شيئا وقد اخلدوا انفسهم بالاطمئنان الى ما قال القدماء واغلقوا على انفسهم في الادب باب الاجتهاد كما اغلقه الفقهاء في الفقه والمتكلمون في الكلام .

واما انصار الجديد ، فالطريق امامهم معوجّة ملتوية ، تقوم فيها عقاب لا تكاد تحصى . وهم لا يكادون يمضون الا في اناة وريث هما الى البطء اقرب منهما الى السرعة . ذلك انهم لا ياخذون انفسهم بإيمان ولا اطمئنان ، او هم لم يرزقوا هذا الايمان والاطمئنان . فقد خلق الله لهم عقولا تجد من الشك لذة وفي القلق والاضطراب رضا . وهم لا يريدون ان يخطوا في تاريخ الادب خطوة حتى يتبينوا موضعها . وسواء عليهم وافقوا القدماء وانصار القديم ام كان بينهم وبينهم اشدّ الخلاف .

هم لا يطمئنون الى ما قال القدماء ، وانما يلقونه بالتحفظ والشك. ولعل اشدّ ما يملكهم الشك حين يجدون من القدماء ثقة واطمئنانا . هم يريدون أن يدرسوا مسالة الشعر الجاهلي فيتجاهلون إجماع القدماء على ما اجمعوا عليه ، ويتساءلون : اهناك شعر جاهلي ؟ فإن كان هناك شعر جاهلي فما السبيل الى معرفته ؟ وما هو ؟ وما مقداره ؟ وبم يمتاز من غيره ؟ ويمضون في طائفة من الاسئلة يحتاج حلها الى روية واناة والى جهود الجماعات العلمية لا الى جهود الافراد . هم لا يعرفون أن العرب ينقسمون الى باقية وبائدة ، وعاربة ومستعربة ، ولا أن اولئك من جرهم ، وهؤلاء من ولد إسماعيل ، ولا أن امرؤ القيس وطرفة وابن كلثوم قالوا هذه المطولات ؛ ولكنهم يعرفون أن القدماء كانوا يرون ذلك . ويريدون أن يتبينوا اكان القدماء مصيبين أم مخطئين ؟

والنتائج اللازمة لهذا المذهب الذي يذهبه المجدّدون عظيمة جليلة

الخطر ، فهي الى الثورة الادبية اقرب منها الى أي شيء آخر .، وحسبك أنهم يشكون فيما كان الناس يرونه يقينا ، وقد يجحدون ما أجمع الناس على انه حق لا شك فيه .

وليس حظ هذا المذهب منتهيا عند هـذا الحد ، بل هو يجـاوزه الى حدود اخرى ابعد منه مدى وأعظم اثرا . فهم قد ينتهون الى تغيير التاريخ أو ما اتفق الناس على انه تاريخ . وهم قد ينتهون الى الشك في أشياء لم يكن يباح الشـك فيها . وهم بين اثنتين : إما أن يجحدوا انفسهم ويجحدوا العلم وحقوقه فيريحوا ويستريحوا ؛ وإما أن يعرفوا لأنفسـهم حقها ويؤدّوا للعلم واجبه ، فيتعرضوا لماينبغي أن يتعرض له العلماء من الأذى ويحتملوا ما ينبغي أن يحتمله العلماء من سخط الساخطين .

وليس حظ هذا المذهب منتهياً عند هذا الحدّ ، بل هو يجاوزه للأذى . وربما كان الحق اني احب الحياة الهادئة المطمئنة وأريد أن اتذوق لذات العيش في دعة ورضا. ولكني مع ذلك احب ان افكر ، واحب أن ابحث ، واحب أن أعلن الى الناس ما انتهي اليه بعد البحث والتفكير ؛ ولا اكره ان آخذ نصيبي من رضا الناس عني أو سخطهم عليّ حين أعلن اليهم ما يحبون أو ما يكرهون . واذن فلأعتمد على الله ، ولأحدثك بما احب أن احدثك به في صراحة وأمانة وصدق ، ولأجتنب في هذا الحديث هذه الطرق التي يسلكها المهرة من الكتاب ليدخلوا على الناس ما لم يالفوا في رفق وأناة وشيء من الاحتياط كثير .

وأول شيء افجؤك به في هذا الحديث هو اني شككت في قيمـة الشعر الجاهلي والححت في الشك ، او قل الح على الشك ، فأخذت ابحث وافكر واقرأ واتدبر ، حتى انتهى بي هذا كله الى شيء إلا يكن يقينا فهو قريب من اليقين . ذلك ان الكثرة المطلقة مما نسميه شعرا جاهليا ليست من الجاهلية في شيء ، وانما هي منتحلة مختلفة بعـد ظهور الاسلام ، فهي اسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم

اكثر مما تمثل حياة الجاهلين . واكاد لا اشك في أن ما بقي من الشعر الجاهلي الصحيح قليل جدا لا يمثل شيئا ولا يدل على شيء ، ولا ينبغي الاعتماد عليه في استخراج الصورة الادبية الصحيحة لهذا العصر الجاهلي . وأنا اقدّر النتائج الخطرة لهذه النظرية ، ولكني مع ذلك لا اتردد في اثباتها واذاعتها ، ولا اضعف عن ان اعلن اليك والى غيرك من القراء أن ما تقرؤه على انه شعر امرىء القيس أو طرفة او ابن كلثوم او عنترة ليس من هؤلاء الناس في شيء ؛ وانما هو انتحال الرواة أو اختلاق الاعراب او صنعة النحاة أو تكلف القصاص او اختراع المفسرين والمحدثين والمتكلمين .

وانا أزعم مع هذا كله أن العصر الجاهلي القريب من الاسلام لم يضع ، وأنا نستطيع ان نتصوره تصورا واضحا قويا صحيحا . ولكن بشرط ألا نعتمد على الشعر ، بل على القرآن من ناحية ، والتاريخ والاساطير من ناحية اخرى .

وستسالني كيف انتهى بي البحث الى هذه النظرية الخطرة ؟ ولست أكره أن أجيبك على هذا السؤال ؛ بل انا لا أكتب ما اكتب الا لاجيبك عليه . ولأجل ان اجيبك عليه اجابة مقنعة يجب أن اتحدث اليك في طائفة مختلفة من المسائل . وسترى أن هذه الطائفة المختلفة من المسائل تنتهي كلها الى نتيجة واحدة هي هذه النظرية التي ذكرتها منذ حين . يجب أن احدثك عن الحياة السياسية الداخلية للأمة العربية بعد ظهور الاسلام وبوقوف حركة الفتح ، وما بين هذه الحياة وبين الشعر من صلة . ويجب أن احدثك عن حال أولئك الناس الذين غلبوا على امرهم بعد الفتح في بلاد الفرس وفي الشام والجزيرة والعراق ومصر ، وما بين هذه الحال وبين لغة العرب وآدابهم من صلة . ويجب أن احدثك عن نشأة العلوم الدينية واللغوية وما بينها وبين اللغة والأدب من صلة . ثم يجب أن أحدثك عن اليهود في بلاد العرب قبل الاسلام وبعده ، ومابين اليهود هؤلاء وبين الأدب العربي من صلة . ويجب أن أحدثك بعد هذا عن المسيحية وما كان لها من الانتشار في بلاد العرب

قبل الاسلام وما احدثت من تأثير في حياة العرب العقلية والاجتماعية والاقتصادية والأدبية ، وما بين هذا كله وبين الأدب العربي والشعر العربي من صلة . ثم يجب أن أحدثك عن مؤثرات سياسية خارجية عملت فيحياة العرب قبل الاسلام وكان لها اثر قوي جدا في الشعر العربي الجاهلي وفي الشعر العربي الذي انتحل واضيف الى الجاهليين . وهذه المباحث التي اشرت اليها ستنتهي كلها الى تلك النظرية التي قدمتها : وهي أن الكثرة المطلقة مما نسميه الشعر الجاهلي ليست من الشعر الجاهلي في شيء .

ولكني مع ذلك لن اقف عند هذه المباحث ؛ لأني لم أقف عندها فيما بيني وبين نفسي بل جاوزتها . واريد أن اجاوزها معك الى نحو آخر من البحث اظنه اقوى دلالة وانهض حجة من المباحث الماضية كلها ، ذلك هو البحث الفني واللغوي . فسينتهي بنا هذا البحث الى أن هذا الشعر الذي ينسب الى امرىء القيس أو الى الأعشى أو الى غيرهما من الشعراء الجاهليين لا يمكن من الوجهة اللغوية والفنية أن يكون لهؤلاء الشعراء ، ولا ان يكون قد قيل واذيع قبل أن يظهر القرآن . نعم . وسينتهي بنا هذا البحث الى نتيجة غريبة ، وهي انه لا ينبغي أن يستشهد بهذا الشعر على تفسير القرآن وتأويل الحديث ، وانما ينبغي أن يستشهد بالقرآن والحديث على تفسير هذا الشعر وتأويله ، أريد أن أقول إن هذه الاشعار لا تثبت شيئا ولا تدل على شيء ، ولا ينبغي ان تتخذ وسيلة الى ما اتخذت اليه من علم بالقرآن والحديث . فهي إنما تكلفت واخترعت اختراعا ليستشهد بها العلماء على ما كانوا يريدون ان يستشهدوا عليه .

فإذا انتهينا من هذه الطرق كليا الى غاية واحدة هي هذه النظرية التي قدمتها ، فسنجتهد في أن نبحث عما يمكن أن يكون شعرا جاهليا حقا . وانا اعترف منذ الآن بأن هذا البحث عسير كل العسر ، وبأني اشك شكا شديدا في انه قد ينتهي بنا الى نتيجة مرضية ، ومع ذلك فسنحاوله .

٢

منهج البحث

احب ان اكون واضحا جليا وان اقول للناس ما اريد ان اقول دون أن اضطرهم الى أن يتأولوا ويتمحلوا ويذهبوا مذاهب مختلفة في النقد والتفسير والكشف عن الأغراض التي أرمي اليها . أريد أن اريح الناس من هذا اللون من ألوان التعب ، وأن أريح نفسي من الرد والدفع والمناقشة فيما لا يحتاج الى مناقشة . اريد أن اقول إني سأسلك في هذا النحو من البحث مسلك المحدثين من اصحاب العلم والفلسفة فيما يتناولون من العلم والفلسفة . أريد أن اصطنع في الأدب هذا المنهج الفلسفي الذي استحدثه (ديكارت) للبحث عن حقائق الأشياء في أول هذا العصر الحديث . والناس جميعا يعلمون أن القاعدة الأساسية لهذا المنهج هي أن يتجرد الباحث من كل شيء كان يعلمه من قبل ، وأن يستقبل موضوع بحثه خالي الذهن مما قيل فيه خلوا تاما . والناس جميعا يعلمون أن هذا المنهج الذي سخط عليه انصار القديم في الدين والفلسفة يوم ظهر ، قد كان من أخصب المناهج وأقومها وأحسنها أثرا ، وأنه قد جدد العلم والفلسفة تجديدا ، وأنه قد غير مذاهب الأدباء في أدبهم والفنانين في فنونهم ، وأنه هو الطابع الذي يمتاز به هذا العصر الحديث .

فلنصطنع هذا المنهج حين نريد أن نتناول أدبنا العربي القديم وتاريخه بالبحث والاستقصاء . ولنستقبل هذا الادب وتاريخه وقد برأنا أنفسنا من كل ما قيل فيهما من قبل وخلصنا من كل هذه الاغلال الكثيرة الثقيلة التي تأخذ أيدينا وأرجلنا ورءوسنا فتحول بيننا وبين الحركة الجسمية الحرة ، وتحول بيننا وبين الحركة العقلية الحرة أيضا .

نعم ! يجب حين نستقبل البحث عن الادب العربي وتاريخه أن ننسى قوميتنا وكل مشخصاتها ، وأن ننسى ديننا وكل ما يتصل به ، وأن ننسى

ما يضاد هذه القومية وما يضاد هذا الدين ، يجب الا نتقيد بشيء ولا نذعن بشيء إلا مناهج البحث العلمي الصحيح ذلك انا إذا لم ننس قوميتنا وديننا وما يتصل بهما فسنضطر الى المحاباة وإرضاء العواطف ، وسنغل عقولنا بما يلائم هذه القومية وهذا الدين . وهل فعل القدماء غير هذا ؟ وهل افسد علم القدماء شيء غير هذا ؟ كان القدماء عربا يتعصبون للعرب ، او كانوا عجما يتعصبون على العرب ؛ فلم يبرأ علمهم من الفساد ؛ لأن المتعصبين للعرب غلوا في تمجيدهم وإكبارهم فاسرفوا على انفسهم وعلى العلم ؛ ولأن المتعصبين على العرب غلوا في تحقيرهم وإصغارهم فاسرفوا على انفسهم وعلى العلم ايضا .

كان القدماء مسلمين مخلصين في حب الإسلام ، فاخضعوا كل شيء لهذا الإسلام وحبهم إياه ، ولم يعرضوا لبحث علمي ولا لفصل من فصول الادب أو لون من الوان الفن إلا من حيث إنه يؤيد الإسلام ويعزه ويعلي كلمته . فما لاءم مذهبهم هذا اخذوه ، وما نافره انصرفوا عنه انصرافا . او كان القدماء غير مسلمين : يهودا او نصارى أو مجوسا أو ملحدين أو مسلمين في قلوبهم مرض وفي نفوسهم زيغ ، فتاثروا في حياتهم العلمية بمثل ما تاثر به المسلمون الصادقون : تعصبوا على الإسلام ونحوا في بحثهم العلمي نحو الغض منه والتصغير من شانه ، فظلموا انفسهم وظلموا الإسلام وافسدوا العلم وجنوا على الاجيال المقبلة . ولو ان القدماء استطاعوا ان يفرقوا بين عقولهم وقلوبهم وأن يتناولوا العلم على نحو ما يتناوله المحدثون لا يتاثرون في ذلك بقومية ولا عصبية ولا دين ولا ما يتصل بهذا كله من الاهواء ، لتركوا لنا ادبا غير الادب الذي نجده بين ايدينا ، ولاراحونا من هذا العناء الذي نتكلفه الآن . ولكن هذه طبيعة الانسان لا سبيل الى التخلص منها . وانت تستطيع ان تقول هذا الذي نقوله في كل شيء . فلو أن الفلاسفة ذهبوا في الفلسفة مذهب (ديكارت)

منـذ العصور الاولى ، لما احتاج (ديكارت) الى ان يستحدث منهجـه الجديد . ولو ان المؤرخين ذهبوا في كتابة التاريخ منذ العصور الاولى مذهب (سينيوبوس لما احتاج (سينيوبوس) الى أن يستحدث منهجه في التاريخ . وبعبارة ادنى الى الإيجاز : لو أن الإنسان خلق كاملا لما احتاج الى ان يطمع في الكمال .

فلندع لوم القدماء على ما تأثروا به في حياتهم العلمية مما أفسد عليهم العلم . لنجتهد في ألا نتأثر كما تأثروا وفي الا نفسد العلم كما افسدوه . لنجتهد في أن ندرس الادب العربي غير حافلين بتمجيد العرب أو الغض منهم ، ولا مكترثين بنصر الإسلام أو النعي عليه ، ولا معنيين بالملاءمة بينه وبين نتائج البحث العلمي والادبي ، ولا وجلين حين ينتهي بنا هذا البحث الى ما تأباه القومية أو تنفر منه الأهواء السياسية او تكرهه العاطفة الدينية . فإن نحن حررنا انفسنا الى هذا الحد فليس من شك في أننا سنصل ببحثنا العلمي الى نتائج لم يصل الى مثلها القدماء . وليس من شك في أننا سنلتقي أصدقاء سواء اتفقنا في الراي او اختلفنا فيه . فما كان اختلاف الرأي في العلم سببا من اسباب البغض ؛ إنما الأهواء والعواطف هي التي تنتهي بالناس الى ما يفسد عليهم الحياة من البغض والعداء .

فانت ترى أن منهج (ديكارت) هذا ليس خصبا في العلم والفلسفة والادب فحسب ، وانما هو خصب في الاخلاق والحياة الاجتماعية ايضا . وانت ترى أن الاخذ بهذا المنهج ليس حتما على الذين يدرسون العلم ويكتبون فيه وحدهم ، بل هو حتم على الذين يقرءون أيضا . وأنت ترى إني غير مسرف حين اطلب منذ الآن الى الذين لا يستطيعون أن يبرءوا من القديم ويخلصوا من اغلال العواطف والاهواء حين يقرءون العلم او يكتبون فيه إلا يقرءوا هذه الفصول . فلن تفيدهم قراءتها الا أن يكونوا احرارا حقا .

٣

مـرآة الحياة الجاهلية يجب ان تلتمس في القـرآن لا في الشعر الجاهلي

على اني احب ان يطمئن الذين يكلفون بالادب العربي القديم ويشفقون عليه ويجدون شيئا من اللذة في ان يعتقدوا ان هناك شعرا جاهليا يمثل حياة جاهلية انقضى عصرها بظهور الإسلام ، فلن يمحو هذا الكتاب ما يعتقدون ، ولن يقطع السبيل بينهم وبين هذه الحياة الجاهلية يدرسونها ويجدون في درسها ما يبتغون من لذة علمية وفنية . بل انا اذهب الى ابعد من هذا ، فازعم اني سأستكشف لهم طريقا جديدة واضحة قصيرة سهلة يصلون منها الى هذه الحياة الجاهلية ، او بعبارة اصح : يصلون منها الى حياة جاهلية لم يعرفوها ، الى حياة جاهلية قيمة مشرقة ممتعة مخالفة كل المخالفة لهذه الحياة التي يجدونها في البطولات وغيرها ممن ينسب الى الشعراء الجاهليين . ذلك اني لا انكر الحياة الجاهلية وانما انكر ان يمثلها هذا الشعر الذي يسمونه الشعر الجاهلي . فاذا اردت ان ادرس الحياة الجاهلية فلست اسلك لها طريق امرىء القيس والنابغة والاعشى وزهير ، لاني لا اثق بما ينسب اليهم ، وإنما اسلك اليها طريقا اخرى ، وا درسها في نص لا سبيل الى الشك في صحته ، ادرسها في القرآن . فالقرآن اصدق مرآة للعصر الجاهلي . ونص القرآن ثابت لا سبيل الى الشك فيه . ادرسها في القرآن ، وادرسها في شعر هؤلاء الشعراء الذين عاصروا النبي وجادلوه ، وفي شعر الشعراء الآخرين الذين جاءوا بعده ولم تكن نفوسهم قد طابت عن الآراء والحياة التي الفها آباؤهم قبل ظهور الإسلام . بل ادرسها في الشعر الاموي نفسه . فلست اعرف امة من الامم القديمة استمسكت بمذهب المحافظة في الادب ولم تجدد فيه إلا بمقدار كالامة العربية . فحياة العرب الجاهليين ظاهرة في شعر الفرزدق وجرير وذى الرمة والاخطل والراعي اكثر من ظهورها في هذا الشعر الذي ينسب الى طرفة وعنترة والشماخ وبشر بن ابي خازم .

قلت : ان القرآن اصدق مرآة للحياة الجاهلية . وهـذه القضية غريبة حين تسمعها ؛ ولكنها بدهية حين تفكر فيها قليلا . فليس من اليسير أن نفهم ان الناس قد اعجبوا بالقـرآن حين تليت عليهم آياتـه إلا أن تكون بينهم وبينه صلة هي هذه الصلة التي توجد بين الأثر الفني البديع وبين الذين يعجبون به حين يسمعونه او ينظرون اليه . وليس من اليسير ان نفهم أن العرب قد قاوموا القرآن وناهضوه وجادلوا النبى فيه إلا أن يكونوا قد فهموه ووقفوا على أسراره ودقائقه . وليس من اليسير بل ليس من الممكن أن نصدق ان القرآن كان جديدا كله على العرب . فلو كان كذلك لما فهموه ولا وعوه ، ولا آمن به بعضهم ولا ناهضه وجادل فيه بعضهم الآخر . إنما كان القرآن جديدا في أسلوبه ، جديدا فيما يدعو إليه ، جديدا فيما شرع للناس من دين وقانون ، ولكنه كان كتابا عربيا ؛ لغته هي اللغة العربية الادبية التي كان يصطنعها الناس في عصره ، أي في العصر الجاهلي . وفي القرآن رد على الوثنيين فيما كانوا يعتقدون من الوثنية . وفيه رد على اليهود ، وفيه رد على النصارى ، وفيه رد على الصابئة والمجوس . وهو لا يرد على يهود فلسطين ، ولا على نصارى الروم . ومجوس الفرس . وصابئة الجزيرة وحدهم ، وإنما يرد على فرق من العرب كانت تمثلهم في البلاد العربية نفسها . ولولا ذلك لما كانت له قيمة ولا خطر . ولما حفل به احد من اولئك الذين عارضوه وأيدوه ، وضحوا فى سبيل تأييده ومعارضته بالاموال والحياة .

افترى احدا يحفل بى لو ابي اخذت اهاجم البوذية او غيرها من هذه الديانات التي لا يدينها احد في مصر ؟ ولكنني اغيظ النصارى حين اهاجم النصرانية ، واهيج اليهود حين اهاجم اليهودية ، واحفظ المسلمين حين اهاجم الإسلام . وانا لا اكاد اعرض لواحد من هذه الاديان حتى اجـد مقاومة الافراد ثم الجماعات ، ثم مقاومة الدولة نفسها تمثلها النيابـة والقضاء . ذلك لأني اهاجم ديانات ممثلة في مصر يؤمن بها المصريون وتحميها الدولة المصرية . وكذلك كانت الحال حين ظهر الإسلام : هاجم الوثنية فعارضه الوثنيون . وهاجم اليهود فعارضه اليهود ، وهاجـم النصارى فعارضه النصارى . ولم تكن هذه المعارضة هينة ولا لينة ،

وإنما كانت تقدر بمقدار ما كان لاهلها من قوة ومنعة وبأس في الحياة الاجتماعية والسياسية . فأما وثنية قريش فقد اخرجت النبي من مكة ونصبت له الحرب واضطرت أصحابه الى الهجرة . وأما يهودية اليهود فقد البت عليه وجاهدته جهادا عقليا وجدليا ، ثم انتهت الى الحرب والقتال ، وأما نصرانية النصارى فلم تكن معارضتها للإسلام إبان حياة النبي قوية قوة المعارضة الوثنيه واليهودية . لماذا ؟ لأن البيئة التي ظهر فيها النبي لم تكن بيئة نصرانية ، إنما كانت وثنية في مكة ، يهودية في المدينة . ولو ظهر النبي في الحيرة او نجران للقى من نصارى هاتين المدينتين مثل ما لقي من مشركي مكة ويهود المدينة .

وفي الحق ان الاسلام لم يكد يظهر على مشركي الحجاز ويهوده حتى استحال الجهاد بينه وبين النصارى من جدال ونضال بالحجة الى اصطدام مسلح ، ادرك النبي أوله وانتهى به الخلفاء الى اقصى حدوده .

فانت ترى ان القرآن حين يتحدث عن الوثنين واليهود والنصارى وغيرهم من اصحاب النحل والديانات إنما يتحدث عن العرب وعن نحل وديانات ألفها العرب . فهو يبطل منها ما يبطل ، ويؤيد منها ما يؤيد . وهو يلقى في ذلك من المعارضة والتأييد بمقدار ما لهذه للنحل والديانات من السلطان على نفوس الناس . وإذن فما ابعد الفرق بين نتيجة البحث عن الحياة الجاهلية في هذا الشعر الذي يضاف الى الجاهليين والبحث عنها في القرآن .

فاما هذا الشعر الذي يضاف الى الجاهليين فيظهر لنا حياة غامضة جافة بريئة او كالبريئة من الشعور الديني القوي والعاطفة الدينية المتسلطة على النفس والمسيطرة على الحياة العملية ، والا فاين تجد شيئا من هذا في شعر امرىء القيس او طرفة او عنترة اوليس عجيبا أن يعجز الشعر الجاهلي كله عن تصوير الحياة الدينية ! .

وأما القرآن فيمثل لنا شيئا آخر ، يمثل لنا حياة دينية قوية تدعو

أهلها الى أن يجادلوا عنها ما وسعهم الجدال . فاذا رأوا انه قد اصبح قليل الغناء لجأوا الى الكيد ، ثم الى الاضطهاد ، ثم الى اعلان الحرب التي لا تبقي ولا تذر .

افتظن ان قريشا كانت تكيد لأبنائها وتضطهدهم وتذيقهم الوان العذاب ثم تخرجهم من ديارهم ثم تنصب لهم الحرب وتضحي في سبيلها بثروتها وقوتها وحياتها لو لم يكن لها من الدين الا ما يمثله هذا الشعر الذ يضاف الى الجاهلين ؟ كلا ! كانت قريش متدينة قوية الايمان بدينها . ولهذا الدين وللايمان بهذا الدين جاهدت ما جاهدت وضحت ما ضحت . وقل مثل ذلك في اليهود ، وقل مثله في غير أولئك وهؤلاء من العرب الذين جاهدوا النبي عن دينهم .

فالقرآن اذن اصدق تمثيلا للحياة الدينية عند العرب من هذا الشعر الذي يسمونه الجاهلي . ولكن القرآن لا يمثل الحياة الدينية وحدها ، وانما يمثل شيئاً آخر غيرها لا نجده في هذا الشعر الجاهلي ، يمثل حياة عقلية قوية ، يمثل قدرة على الجدال والخصام أنفق القرآن في جهادها حظا عظيما . أليس القرآن قد وصف اولئك الذين يجادلون النبي بقوة الجدال والقدرة على الخصام والشدة في المحاورة ! وفيم كانوا يجادلون ويخاصمون ويحاورون ؟ في الدين وفيما يتصل بالدين من هذه المسائل المعضلة التي ينفق الفلاسفة فيها حياتهم دون أن يوفقوا الى حلها : في البعث ، في الخلق ، في امكان الاتصال بين الله والناس ، في المعجزة وما الى ذلك .

افتظن قوما يجادلون في هذه الاشياء جدالا يصفه القرآن بالقوة ويشهد لاصحابه بالمهارة ، افتظن هؤلاء القوم من الجهل والغباوة والغلظة والخشونة بحيث يمثلهم لنا هذا الشعر الذي يضاف الى الجاهلين ! كلا ! لم يكونوا جهالا ولا أغبياء ولا غلاظا ولا اصحاب حياة خشنة جافية ، وانما كانوا اصحاب علم وذكاء واصحاب عواطف رقيقة وعيش فيه لين ونعمة .

وهنا يجب ان نحتاط ، فلم يكن العرب كلهم كذلك ، ولايمثلهم القرآن كلهم كذلك ؛ وانما كانوا كغيرهم من الامم القديمة وكثير من الامم الحديثة منقسمين الى طبقتين : طبقة المستنيرين الذين يمتازون بالثرة والجاه والذكاء والعلم ؛ وطبقة العامة الذين لا يكاد يكون لهم من هذا كله حظ .

القرآن شاهد بهذا . اليس يحدثنا عن أولئك المستضعفين الذين كفروا طاعة لسادتهم ونعمائهم لا جهادا في الراي ولا اقتناعا بالحق ، والذين سيقولون يوم يسألون : (ربّنا إنا اطعنا سادتنا وكبراءنا فاضلونا السبيلا) . بلى ! والقرآن يحدثنا عن جفوة الاعراب وغلظتهم وامعانهم في الكفر والنفاق وقلة حظهم من العاطفة الراقيقة التي تحمل على الايمان والتدين . اليس هو الذي يقول : (الاعراب اشد كفراً ونفاقاً واجدر الا يعلموا حدود ما انزل الله) . اليس قد شرع للنبي ان يتالف قلوب الاعراب بالمال ! بلى . فالقرآن اذن يمثل الامةالعربية على انها كانت كغيرها من الامم القديمة ، فيها الممتازون المستنيرون الذين كان النبي يجادلهم ويجاهدهم ، وفيها العامة الذين لم يكن لهم حظ من استنارة او امتياز والذين كانوا موضوع النزاع بين النبي وخصومه والذين كان يتالفهم النبي بالمال احيانا .

والقرآن لا يمثل الامة العربية متدينة مستنيرة فحسب ، بل هو يعطينا منها صورة اخرى يدهش لها الذين تعودوا أن يعتمدوا على هذا الشعر الجاهلي في درس الحياة العربية قبل الاسلام ؛ فهم يعتقدون ان العرب كانوا قبل الاسلام امة معتزلة تعيش في صحرائها لا تعرف العالم الخارجي ولا يعرفها العالم الخارجي ، وهم يبنون على هذا قضايا ونظريات ، فهم يقولون ان الشعر الجاهلي لم يتاثر بهذه المؤثرات الخارجية التي اثرت في الشعر الاسلامي : لم يتاثر بحضارة الفرس والروم . وانى له ذلك ! لقد كان يقال في صحراء لا صلة بينها وبين الامم المتحضرة . كلا ! القرآن يحدثنا بشيء غير هذا ، القرآن يحدثنا بأن العرب كانوا على اتصال بمن حولهم من الامم بل كانوا على اتصال قوى قسمهم احزابا وفرقهم شيعا . اليس القرآن يحدثنا عن الروم وما كان بينهم وبين الفرس

من حرب انقسمت فيها العرب الى حزبين مختلفين : حزب يشايع أولئك وحزب يناصر هؤلاء ! اليس في القرآن سورة تسمى سورة الروم وتبتدىء بهذه الآيات : (الم غلبت الروم في أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين لله الامر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء) .

لم يكن العرب اذن كما يظن اصحاب هذا الشعر الجاهلي معتزلين ؛ فانت ترى ان القرآن يصف عنايتهم بسياسة الفرس والروم . وهو يصف اتصالهم الاقتصادي بغيرهم من الامم في السورة المعروفة (لإيلاف قريش إيلا فهم رحلة الشتاء والصيف ......) وكانت احدى هاتين الرحلتين الى الشام حيث الروم ، والاخرى الى اليمن حيث الحبشة او الفرس .

وسيرة النبي تحدثنا ان العرب تجاوزوا بوغاز باب المندب الى بلاد الحبشة . الم يهاجر المهاجرون الاولون الى هذه البلاد ! وهذه السيرة نفسها تحدثنا بانهم تجاوزوا الحيرة الى بلاد الفرس ، وبانهم تجاوزوا الشام وفلسطين الى مصر . فلم يكونوا اذن معتزلين ، ولم يكونوا أذن بنجوة من تاثير الفرس والروم والحبش والهند وغيرهم من الامم المجاورة لهم . لم يكونوا على غير دين ولم يكونوا جهالا ولا غلاظا ولم يكونوا في عزلة سياسية او اقتصادية بالقياس الى الامم الاخرى ، كذلك يمثلهم القرآن .

واذا كانوا اصحاب علم ودين ، واصحاب ثروة وقوة وبأس ، واصحاب سياسة متصلة بالسياسة العامة متاثرة بها مؤثرة فيها ، فما اخلقهم ان يكونوا امة متحضرة راقية لا امة جاهلة همجية . وكيف يستطيع رجل عاقل أن يصدق أن القرآن قد ظهر في امة جاهلة همجية !

ارأيت ان التماس الحياة العربية الجاهلية في القرآن انفع وأجدى من التماسها في هذا الشعر العقيم الذي يسمونه الشعر الجاهلي !ارأيت ان هذا النحو من البحث يغير كل التغيير ما تعودنا أن نعرف من أمر الجاهليين .

٤

الشـــعر الجاهلي واللغــة

على أن هناك شيئا آخر يحظر علينا التسليم بصحة الكثرة المطلقة من هذا الشعر الجاهلي ، ولعله أبلغ في اثبات ما نذهب اليه . فهذا الشعر الذي رأينا أنه لا يمثل الحياة الدينية والعقلية للعرب الجاهليين بعيد كل البعد عن أن يمثل اللغة العربية في العصر الذي يزعم الرواة أنه قيل فيه . والأمر هنا يحتاج الى شيء من الروية والأناة . فنحن اذا ذكرنا اللغة العربية نريد بها معناها الدقيق المحدود الذي نجده في المعاجم حين نبحث فيها عن لفظ اللغة ما معناه ، نريد بها الألفاظ من حيث هي الفاظ تدل على معانيها ، تستعمل حقيقة مرة ومجازا مرة أخرى ، وتتطور تطورا ملائما لمقتضيات الحياة التي يحياها أصحاب هذه اللغة .

نقول ان هذا الشعر الجاهلي لا يمثل اللغة الجاهلية . ولنجتهد في تعرف اللغة الجاهلية هذه ما هي ، أو ماذا كانت في العصر الذي يزعم الرواة أن شعرهم الجاهلي هذا قد قيل فيه . أما الرأي الذي اتفق عليه الرواة او كادوا يتفقون عليه فهو أن العرب ينقسمون الى قسمين : قحطانية منازلهم الأولى في اليمن ، وعدنانية منازلهم الأولى في الحجاز .

وهم متفقون على ان القحطانية عرب منذ خلقهم الله فطروا على العربية فهم العاربة ، وعلى أن العدنانية قد اكتسبوا العربية اكتسابا ؛ كانوا يتكلمون لغة أخرى هي العبرانية أو الكلدانية ، ثم تعلموا لغة العرب العاربة فمحت لغتهم الأولى من صدورهم وثبتت فيها هذه اللغة الثانية المستعارة . وهم متفقون على أن هذه العدنانية المستعربة إنما يتصل نسبها باسماعيل بن ابراهيم . وهم يروون حديثا يتخذونه أساسا لكل هذه النظرية ، خلاصته أن أول من تكلم بالعربية ونسي لغة ابيه اسماعيل ابن ابراهيم .

على هذا كله يتفق الرواة ، ولكنهم يتفقون على شيء آخر ايضا

اثبته البحث الحديث ، وهو ان هناك خلافا قويا بين لغة حمير (وهي العرب العاربة) واللغة عدنان (وهي العرب المستعربة) . وقد روي عن ابي عمرو بن العلاء انه كان يقول : ما لسان حمير بلساننا ولا لغتهم بلغتنـا .

وفي الحق أن البحث الحديث قد اثبت خلافا جوهريا بين اللغة التي كـان يصطنعها الناس في جنوب البلاد العربيـة ، واللغة التي كانوا يصطنعونها في شمال هذه البلاد . ولدينا الآن نقوش ونصوص تمكننا من إثبات هذا الخلاف في اللفظ وفي قواعد النحو والتصريف أيضا . واذن فلا بد من حل هذه المسألة .

اذا كان ابناء اسماعيل قد تعلموا العربية من اولئك العرب الذين نسميهم العاربة فكيف بَعُد ما بين اللغة التي كان يصطنعها العرب العاربة واللغة التي كان يصطنعها العرب المستعربة ، حتى استطاع ابو عمرو ابن العلاء أن يقول إنهما لغتان متمايزتان ، واستطاع العلماء المحدثون أن يثبتوا هذا التمايز بالأدلة التي لا تقبل شكا ولا جدالا ! والامر لا يقف عند هذا الحد ، فواضح جدا لكل من له إلمام بالبحث التاريخي عامة وبدرس الأساطير والأقاصيص خاصة ان هذه النظرية متكلفة مصطنعة في عصور متأخرة دعت اليها حاجة دينية او اقتصادية او سياسية .

للتوراة أن تحدثنا عن ابراهيم واسماعيل ، وللقرآن أن يحدثنـا عنهما أيضا ، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لاثبات وجودهما التاريخي ، فضلا عن اثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة اسماعيل بن ابراهيم الى مكة ونشأة العرب المستعربة فيها . ونحن مضطرون الى ان نرى في هذه القصة نوعا من الحيلة في اثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة ، وبين الاسلام واليهودية والقرآن والتوراة من جهة اخرى . واقدم عصر يمكن أن تكون قد نشأت فيه هذه الفكرة انما هو هذا العصر الذي اخذ اليهود يستوطنون فيه شمال البلاد العربية ويبثون فيه المستعمرات . فنحن نعلم أن حروبا عنيفة

شبت بين هؤلاء اليهود المستعمرين وبين العرب الذين كانوا يقيمون في هذه البلاد، وانتهت بشيء من المسالمة والملاينة ونوع من المحالفة والمهادنة. فليس يبعد ان يكون هذا الصلح الذي استقر بين المغيرين واصحاب البلاد منشأ هذه القصة التي تجعل العرب واليهود ابناء أعمام ، لاسيما وقد رأى اولئك وهؤلاء أن بين الفريقين شيئاً من التشابه غير قليل ؛ فأولئك وهؤلاء ساميون .

ولكن الشيء الذي لا شك فيه هو أن ظهور الاسلام وما كان من الخصومة العنيفة بينه وبـين وثنية العرب من غير أهل الكتاب ، قد اقتضى ان ثبت الصلة الوثيقة المتينة بين الدين الجديد وبين الديانتين القديمتين : ديانة النصارى واليهود .

فأما الصلة الدينية فثابتة واضحة ، فبين القرآن والتوراة والأناجيل اشتراك في الموضوع والصورة والغرض ، كلها ترمي الى التوحيد ، وتعتمد على اساس واحد هو هذا الذي تشترك فيه الديانات السماوية السامية . ولكن هذه الصلة الدينية معنوية عقلية يحسن أن تؤيدها صلة اخرى مادية ملموسة او كالملموسة بين العرب وأهل الكتاب . فما الذي يمنع أن تستغل هذه القصة قصة القرابة المادية بين العرب العدنانية واليهـود ؟

وقد كانت قريش مستعدة كل الاستعداد لقبول مثل هذه الاسطورة في القرن السابع للمسيح . فقد كانت في أول هذا القرن قد انتهت الى حظ من النهضة السياسية والاقتصادية ضمن لها السيادة في مكة وما حولها وبسط سلطانها المعنـوي على جزء غير قليل من البلاد العربية الوثنية . وكان مصدر هذه النهضة وهذا السلطان امرين : التجارة من جهة ، والدين من جهة أخرى .

فأما التجارة فنحن نعلم ان قريشا كانت تصطنعها في الشام ومصر وبلاد الفرس واليمن وبلاد الحبشة .

وأما الدين فهذه الكعبة التي كانت تجتمع حولها قريش ويحج اليها العرب المشركون في كل عام ، والتي اخذت تبسط على نفوس هؤلاء العرب المشركين نوعا من السلطان قويا ، والتي اخذ هؤلاء العرب المشركون يجعلون منها رمزا لدين قوي كأنه كان يريد ان يقفه في سبيل انتشار اليهودية من ناحية والمسيحية من ناحية اخرى . فنحن نلمح في الاساطير ان شيئا من المنافسة الدينية كان قائما بين مكة ونجران . ونحن نلمح في الاساطير أيضا أن هذه المنافسة الدينية بين مكة وبين الكنيسة التي انشأها الحبشة في صنعاء هي التي دعت الى حرب الفيل التي ذكرت في القرآن .

فقريش إذن كانت في هذا العصر ناهضة نهضة مادية تجارية ، ونهضة دينية وثنية . وهي بحكم هاتين النهضتين كانت تحاول أن توجد في البلاد العربية وحدة سياسية وثنية مستقلة تقاوم تدخل الروم والفرس والحبشة ودياناتهم في البلاد العربية .

واذا كان هذا حقا ــ ونحن نعتقد انه حق ــ فمن المعقول جدا أن تبحث هذه المدنية الجديدة لنفسها عن اصل تاريخي قديم يتصل بالأصول التاريخية الماجدة التي تتحدث عنها الأساطير . واذن فليس ما يمنع قريشا من ان تقبل هذه الاسطورة التي تفيد أن الكعبة من تأسيس اسماعيل وابراهيم ، كما قبلت روما قبل ذلك ولأسباب مشابهة اسطورة أخرى صنعها لها اليونان تثبت أن روما متصلة بإينياس ابن بريام صاحب طروادة .

أمر هذه القصة إذن واضح . فهي حديثة العهد ظهرت قبيل الاسلام ، واستغلها الاسلام لسبب ديني ، وقبلتها مكة لسبب ديني وسياسي أيضا . واذن فيستطيع التاريخ الادبي واللغوي الا يحفل بها عندما يريد أن يتعرف أصل اللغة العربية الفصحى . وإذن فنستطيع أن نقول ان الصلة بين اللغة العربية الفصحى التي كانت تتكلمها العدنانية واللغة التي كانت تتكلمها القحطانية في اليمن انما هي كالصلة بين اللغة

العربية واي لغة اخرى من اللغات السامية المعروفة ، وان قصة « العاربة » و« المستعربة » وتعلم اسماعيل العربية من جرهم ، كل ذلك حديث اساطير لا خطر له ولا غناء فيه .

والنتيجة لهذا البحث كله تردنا الى الموضوع الذي ابتدأنا به منذ حين ، وهو أن هذا الشعر الذي يسمونه الجاهلي لا يمثل اللغة الجاهلية ولا يمكن أن يكون صحيحا . ذلك لاننا نجد بين هؤلاء الشعراء الذين يضيفون اليهم شيئا كثيرا من الشعر الجاهلي قوما ينتسبون الى عرب اليمن الى هذه القحطانية العاربة التي كانت تتكلم غير لغة القرآن ، والتي كان يقول عنها ابو عمرو بن العلاء : إن لغتها مخالفة للغة العرب ، والتي اثبت البحث الحديث ان لها لغة اخرى غير اللغة العربية .

ولكننا حين نقرأ الشعر الذي يضاف الى شعراء هذه القحطانية في الجاهلية لا نجد فرقا قليلا ولا كثيرا بينه وبين شعر العدنانية . نستغفر الله ! بل نحن لا نجد فرقا بين لغة هذا الشعر ولغة القرآن . فكيف يمكن فهم ذلك او تاويله ؟ امر ذلك يسير ، وهو أن هذا الشعر الذي يضاف الى القحطانية قبل الاسلام ليس من القحطانية في شيء ، لم يقله شعراؤها وانما حمل عليهم بعد الاسلام لأسباب مختلفة سنبينها حين نعرض لهذه الأسباب التي دعت الى انتحال الشعر الجاهلي في الاسلام .

● طه حسين

المصدر : في الشعر الجاهلي ص ١ — ٣٠ ، طه حسين ، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٣٤٤ هـ — ١٩٢٦ م الطبعة الاولى .

نقض كتاب في الشعر الجاهلي

راي

حضرة صاحب الفضيلة مفتي الديار المصرية في هذا الكتاب

عبد الرحمن قراعــة ١٨٦٢ ــ ١٩٣٩

اطلع على هذا الكتاب « نقض كتاب في الشعر الجاهلي » حضرة صاحب الفضيلة العلامة النحرير ، والقدوة الشهير ، مولانا الاستاذ المحقق الشيخ عبد الرحمن قراعة مفتي الديار المصرية فتفضل قلمه البليغ ــ ايده الله ــ بكتابة ما ياتي :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على سيدنا محمــد رسول الرحمة ، وناشر لواء الحكمة وقائد الخلق الى الحق ، وعلى آله وصحبه ومن ثبتهم الله على الهداية بقوله الثابت الى يوم الدين ، فلا يضرهم من ضل ما داموا من اهل العزم والبصيرة واليقين .

وبعد فان الباطل ما برح يحارب الحقيقة الاسلامية بسيوفه المفلولة وشبهاته الضئيلة ، ثم يرجع خائباً بغير جدوى . وقد عاد اليوم الى جولة يدفعه اليها نفر من المتاثرين بكتب الداعين الى معاداة دين سيد المرسلين ، سقطوا على ما فيها من تضليل فالتقطوا منه ما راق لهم ، وظلوا يعرضونه على انظار قرائنا واسماع الطلاب من ابنائنا ، زاعمين انه بضاعة جديدة هي ثمرات قرائحهم ونتائج افكارهم ، محاولين بذلك

تقويض بنـاء قامت فضائله الشـأمخـة على أسـاس متين من الحقائق الراسخة . فاستاء من عملهم هذا أهل العلم الصحيح والأدب الصريح . ومن هذه الكتب رسالة عنوانها (في الشعر الجاهلي) عرف صاحبها بالتعصب لكل ما فيه كيد للاسلام وحط من جلاله وفضائل عظمائه وآله . وقد احتوت هذه الرسالة على مزاعم وأباطيل يجمعها كلها وصف واحد هو الاستخفاف بالحقائق والتعصب لعقيدة خاصة افتتن مؤلف الرسالة بها . فانبرى له حضرة العالم المحقق والفهامة المدقق (السيد محمد الخضر حسين التونسي من علماء الجامع الأزهر بمصر وجامع الزيتونة بتونس) فحلل هذه الرسالة تحليلا علميا نزيها ، رد فيه ما انتحله الى اهله ، وعاد به الى أصله ، ودحض الأباطيل بالأدلة الواضحة ، ونبه الى مغامز الكتاب المردود عليه ، ودل على المرامي التي يرمي اليها ، وأبان عن مواطن ضعفه ومكامن سخفه . ولعمري إنه قد خدم بهذا العمل الجليل العلم المتين والأدب الرفيع خدمة تحول بها شر الكتاب المردود عليه الى خير . جزاه الله عن الدين والعلم والحق افضل ما يجزي به عباده الصالحين المخلصين . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

عبد الرحمن قراعه



بسم الله الرحمن الرحيم

محمد الخضر حسين ١٨٧٦ ـ ١٩٥٨

تمهيــــد :

نهضت الأمم الشرقية فيما سلف نهضة اجتماعية ابتدأت بطلوع كواكب الاسلام ، واستوثقت حين سارت هدايته سيرها الحثيث وفتحت عيون هذه الأمم في طريقة الحياة المثلى .

سادت هذه النهضة وكان لها الاثر الاعلى في الافكار والهمم والآداب ، ومن فروعها نهضة ادبية لغوية جعلت تأخذ مظاهرها العلمية لعهد بني امية ، واستوت على ساقها في أيام بني العباس .

امسك بيدك كتب التاريخ والادب ملتمسا الحقيقة بذكاء موزون وقلب سليم ، فلا احسبك تصدر عنها الا بنفس مطمئنة لاجلال أولئك الذين درسوا ادب اللغة وخاضوا في فنونه فامتعوا البحث ، وكانوا القدوة الحسنة في حسن التصرف وحكمة البيان .

تمتع الشرق بنهضتيه الاجتماعية والادبية حقبا ، ثم وقف التعليم عند غاية واخذ شأنا غير الشأن الذي تسمو به المدارك وتنمو به نتائج العقول ، فاذا غفوة تدب الى جفون هذه الامم ولم تكد تستفيق منها الا ويد اجنبية تقبض على زمامها .

هبّ بعض أولي الحكمة منا يقلبون وجوههم في العلل التي مست امم الشرق فقعدت بهم سنين عددا ، وبعثوا اقلامهم من مراقدها تصف هذه العلل وتنذر الناس موتة اليأس والجبن والخمول ، وتلقي عليهم دروسا في اسباب الحياة ووسائل الخلاص .

التفت الشرق الى ما كان في يده من حكمة ، والى ما شاد من مجد ، والى من شب في مهده من اعاظم الرجال . اخذ ينظر الى ماضيه ليميز أبناؤه بين ما هو تراث آبائهم وبين ما يقتبسونه من الغرب ، وليشعروا بما كان لهم من مجد شامخ فتأخذهم العزة الى ان يضموا الى التالد طريفا ، وليذكروا انهم ذرية اولئك السراة فلا يرضوا ان يكونوا للمستبدين عبيدا .

أنشأ اولو الاحلام الراجحة من الزعماء والكتاب يأخذون بما يظهر من جديد صالح ولا ينكثون أيديهم من قديم نافع ، فاستطاعوا بهذه الحكمة والروية أن يسلكوا قلوب الامة في وحدة ، ويخطوا بها الى حياة العلم والحرية والاستقلال .

نظر الى هذه النهضة الزاكية من لا يرغبون في تقدم هذه الأمم الى خلاصها ولو خطوة ، وعرفوا ان بأيدي هذه الأمم كتابا فيه نظم اجتماعية وآيات تأخذ في شرط ايمانهم به الا يلينوا لسلطة شأنها أن تسوسهم على غير اصوله ، فما كان من هؤلاء القوم الذين يستحلون إرهاق الأمم الا أن يبتغوا الوسيلة الى فتنة القلوب وصرفها عن أحترام ذلك الكتاب ، والغاية تقويض بناء هذه الوحدة السائرة بنا الى حياة سامية وعز لا يبلى .

فسقت طائفة عن ادب الاسلام ، وأرهفت اقلامها لتعمل على هذه الخطة الخاذلة ، غير مبالية بسخط الامة ولا متحرجة مما سينطق به التاريخ من وضع يدها في يد خفية لا شأن لها الا نصب المكايد لأمة كان لها العزم النافذ والكلمة العليا .

تلهج هذه الطائفة باسم حرية الفكر وهي لا تقصد الا هذا الفن الذي اكبت عليه صباحها ومساءها وهو النيل من هداية الاسلام والغض من رجال جاهدوا في سبيله بحجة وعزم واقدام . ويكفي شاهدا على رياء هؤلاء الرهط انهم يقيمون مآتم يندبون فيها حرية الفكر ، ثم

ينصرفون ويقولون فيما يكتبون : للحكومة أن ترهق الشعب وترغمه على ما تراه أمرا لائقا . ولو سبق ظنك الى أن مؤلف كتاب في الشعر الجاهلي هو عينهم الناظرة وسهمهم الذي يرمون به في مقاتل أمتهم الغافلة ، لخليت بينك وبين هذا الظن اذ ليس لي على هذه الظنون الغالبة من سبيل .

فالقلم الذي يناقش كتاب « في الشعر الجاهلي » انما يطأ موطئا يغيظ طائفة احتفلت بهذا الكتاب وحسبته الطعنة القاضية على الاسلام وفضل العرب « ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا » .

محمد الخضر حسين

المصـــدر : نقض كتاب « في الشعر الجاهلي » . تقديم مفتي الديار المصرية « عبـد الرحمن قراعة » . مقدمة المؤلف : محمد الخضر الحسين . عنيت بنشره المطبعة السلفية ومكتبتها ــ القاهرة ١٣٤٥ هـ (١٩٢٦ ــ ١٩٢٧ م) .

(منهج الدكتور طه حسين العلمي في البحث)

للأستاذ الشهير صاحب الامضاء

محمد عرفة ١٨٩٠ - ١٩٧٣

اظن أن الصحف لا تأبي عليّ نشر هذا النقد للشعر الجاهلي للدكتور طه حسين وأن ليس لأحد سبيل عليها اذا نشرته لأنه لا يتعلق بدينه ولا باثبات كفره بما كتبه في الشعر الجاهلي ولا باثبات أنه طعن في الدين الاسلامي الذي تقام شعائره في مصر فيكون مستحقا للعقوبة المنصوص عليها في القانون المصري . وانما هو مناقشة هادئة علمية محضة في المنهج الذي اصطنعه الدكتور في البحث في الشعر الجاهلي يتبين منها أهذا المنهج الذي سلكه في البحث علمي منطقي يرضى عنه العلم أم هو منهج خاطيء لا يحترمه العلم ويحتقره المنطق ويرى انه من المغالطات .

إننا سنحاول ذلك وستكون النتيجة كما سيراها القاريء أن منهج الدكتور في البحث من ضلالات العقول ومغالطات الوهم ، وانه ليس يسلك هذا المنهج الا الذين لم يمارسوا صناعة المنطق ولم يمروا على صناعة البرهان ، وكانوا سطحيين في بحوثهم لم يتعمقوا الى الغور ، ولم يبعدوا المرمى ، وغرضنا من ذلك أمور ثلاثة :

(أولها) ان تسقط دعوى الدكتور طه حسين بأن ما سلكه في البحث منهج علمي حديث وأنه بذلك يحشر نفسه في زمرة العلماء حشراً في عداد (؟) المخترعين والمبتكرين والمستكشفين وليس يعلم إلا الله ما ينال هؤلاء العلماء من الأذى في مضاجعهم بانتساب الدكتور اليهم وحشره نفسه قسراً في زمرتهم .

(ثانيها) ان احمي شباب مصر من عدوى ذلك المنهج ومن ان يتاثروا الدكتور في طرائقه الفكرية . فان مستوى البحث في مصر لما ينضج بعد ، وذيوع امثال طرائق الدكتور مما يكون ضغثا على إبالة .

(ثالثها) أن يعلم الذين يدينون بالاسلام في مصر ان دينهم لم يصادمه علم ولا عقل كما يدعي الدكتور ويفتري ، وحاشا الاسلام أن يصادمه علم او عقل ، وانه اذا كان ثمّ ما يصادمه فليس العلم والعقل وإنما هو الجهل المخزي والباطل الشائن والعقل الفجّ الذي لم يستكمل بعد شرائط الانتاج ـ سيسوء ذلك الاكتور طه حسين ولا يرضيه ، ولكنني لست اتوخى رضاه ولا اتحرز من مساءته وانما اتوخى رضى الحق واتجنب مساءة الصواب . فاما من عداهما فلا علي ان يكونوا غاضبين وليس يدخل في غرضي ان يقتنع الدكتور طه حسين فانه ليس ممن يرجى منهم اقتناع فانه ليس طالب حق وانما هو طالب رواج . وليس ممن يعنيهم الصواب وانما ممن يعنيهم الربح ، فهو كالتاجر همه ان تروج بضاعته لا ان تنقد فيعلم جيدها من رديئها ، وكما ان التاجر اذا بصرته عيب بضاعته ناكرك وجاحدك ، كذلك الدكتور اذا المسته عيب ما يقول بيده جحد واستكبر ، لان ذلك يقف دون رواجه وربحه ـ واياهما يريد (1) .

ان الذي افسد على الدكتور امره اعتقاده ان امته امية فهو يلقي اليها مباحثه على عواهنها لا يعني بتمحيصها ونفي الزائف عنها ، عالما بانه ليس عندها من ملكة النقد ما يبين عيبه ويظهر شينه ، وقد مد له في هذا الاعتقاد انه يرى المعجبين برأيه والمقرظين لعلمه (أ) مهما كان فيه من الباطل والخطا .

الا فليعلم الدكتور بعد انه ليس ينشر بحوثه في امة وحشية متبدية كقبائل الزنوج وانما هو ينشرها في أمة متحضرة متمدينة ضربت في العلم

---

(1) المنار : هذا الحصر خطا بين فان مطلب الرجل الاول صرف الناس من الدين وحملهم على الالحاد والزندقة وغرضه الاول من هذه الشهرة بالفلسفة والتزلف للافرنج وانما رواج الكتاب وربحه فغرض ثالث ان صح ان يكون على حقارته غرضا .

بسهم واخذت منه حظا ، وان بني قومه فيهم من ينقدون الآراء ويعلمون حقها من باطلها ، ويعلمون المغالطات مهما بولغ في تزيينها ، وانهم لم تستعص عليهم نحل الفلاسفة ومعتقداتهم في الالهيات والاخلاق والسياسة والاجتماع فنقدوها ، وعلموا زائفها من خالصها ، فكيف تستعصي عليهم آراء سطحية تتعلق بتاريخ او شعر ؟ وانهم ان كانوا قليلا ففي استطاعة هؤلاء القليل ان يبينوا لجمهرة الامة عثرات الراي وكبوات الافهام .

جاء شقيق عارضا رمحه ان بني عمك فيهم رماح

نفى الدكتور طه حسين في الفصل الذي عنوانه (الشعر الجاهلي واللغة) وجود ابراهيم واسماعيل وبناءهما الكعبة وهجرتهما الى مكة وتعلم اسماعيل العربية من العرب العاربة الذين هم من قحطان وان كان قد ورد ذكرهما في التوراة والقرآن .. نفى ذلك الدكتور وليس له اختيار في هذا النفي لانه مضطر امام الدليل القطعي ، والدليل الذي اضطره الى ذلك هو انه ثبت ان لغة قحطان اي لغة جنوب جزيرة العرب تخالف اللغة التي يتكلم بها اهل الحجاز فنسبتها الى اللغة العربية كالنسبة بين اللغة العربية وبين اي لغة سامية ، فاذا كانت هذه القصة صحيحة وكان اسماعيل وبنوه قد تعلموا العربية من القحطانية ، فكيف بعد ما بين اللغة العربية العدنانية واللغة القحطانية ؟

نحن اذن بين امرين اما ان نقبل هذه القصة ونرفض ذلك الدليل القطعي او العكس ، ولا مندوحة تجوز رفض الدليل القطعي فلا بد من رفض هذه القصة وانكارها والاذعان للدليل القطعي : ننكرها بجملتها فلم يوجد ابراهيم واسماعيل فضلا عن بنائهما الكعبة وهجرتهما الى مكة وتعلم اسماعيل العربية من القحطانية ، ونحن مضطرون الى ذلك وان حدثنا القرآن والتوراة عنهما فان ورود هذين الاسمين فيهما لا يكفي لوجودهما التاريخي .

هذا دليل الدكتور وسنبدأ في مناقشته قبل الدخول في تفصيلات المناقشة ــ نذكر مقدمة ينبغي ان تعلم وهي ان القرآن لم يعرض لحديث

تعلم اسماعيل العربية من قحطان وانما الذي عرض له وجودهما وهجرتهما وبناؤهما الكعبة ، وانما الذي عرض لتعلم اسماعيل العربية من القحطانية هم مؤرخو اللغة . وبعد فسنسلم للدكتور جدلا كل ما قاله عن البعد بين القحطانية والعدنانية بعدا يجعلهما لغتين مستقلتين ومن انه لو تعلم اسماعيل من القحطانية لكانت اللغتان متفقتين أو متقاربتين .

ولكننا نقول له ان دليلك لا ينفي الا ان اسماعيل تعلم اللغة العربية من القحطانيين فاما وجودهما وهجرتهما الى مكة وبناؤهما الكعبة وهي الامور التي عرض لها القرآن فلا ينفيها ولا يتعرض لها ، فمما يتفق مع دليلك ان يكون ابراهيم واسماعيل قد وجدا وهاجرا الى مكة وبنيا الكعبة وتعلم اسماعيل وابناؤه العربية من غير القحطانيين من العرب الذين خلقهم الله ان يتكلموا العربية الحجازية التي بقيت الى مجيء الاسلام ، فالدليل القطعي لا ينفي الا شيئا واحدا وهو تعلم اسماعيل وبنيه العربية من القحطانية ، فمن الواجب ان يقتصر به على ذلك ولا يعدي الى القصة جميعها فينفيها اذ لا منافاة بينه وبين بقيتها . ومثل الدكتور في ذلك مثل من يسمع مؤرخين احدهما اللورد كتشنر كان عميد الدولة البريطانية في مصر والآخر يقول انه كان عميدها في مصر سنة ١٩٢٠ فيقول : ان التاريخ يفيد ان اللورد كتشنر غرق في زمن الحرب العظمى التي انتهت قبل هذا التاريخ فما قاله المؤرخان كذب ولم يكن اللورد كتشنر عميدا لانكلترا في مصر وقتا ما . كذب المؤرخين واكذب القصة جميعها ولو اتبع المنطق لنفى كونه عميدا في زمن سنة ١٩٢٠ ولم يعد النفي الى كونه عميدا ولم يكذب القرآن فيما قاله وهو لم يعرض لما نفاه الدليل وانما عرض لغيره .

فيادكتور دليلك اقصر من دعواك : انت تدعي نفي وجود ابراهيم واسماعيل وهجرتهما الى مكة وبناءهما الكعبة وتعلم اسماعيل العربية من القحطانية ، ودليلك انما ينفي الاخير وهو تعلم اسماعيل العربية من القحطانية ، فأما ما عدا ذلك فلا ، ويسمي علماء المناظرة ذلك بمنع التقريب والتقريب الدليل على وجه يستلزم المطلوب ، ويقولون في مثل ذلك

ان التقريب غير مسلم أي انك سقطت الدليل على وجه لا يستلزم المطلوب فمثلك مثل من ادعى ان هذا الشبح انسان ويستدل على هذه الدعوى بانه متحرك بالارادة وكل متحرك بالارادة حيوان ، نعم الدليل مسلم ولكنه لا يستلزم المطلوب وهو انه انسان .

فالمنطق يامرنا اذا نفي الدليل شيئا ان نقصره على ذلك الشيء ولا نعدّيه الى ما عداه ، وقد رايت في مثال اللورد كتشنر كيف نخطيء اذا عدينا النفي الى غير ما قام عليه الدليل — ولو اردنا ان نصوغ دليلك في قالب منطقي لكان هكذا : لو كانت الحجازية اصلها القحطانية لما بعد ما بينهما هذا البعد لكنهما متباعدتان ، اذن فليست الحجازية اصلها القحطانية ، هذه النتيجة فقط ولكنك تزيد فيها ما يأتي : لم يوجد ابراهيم واسماعيل ولم يبنيا الكعبة ولم يهاجرا الى مكة . وهذا هوس ليس منطقيا ويظهر ان الدكتور طه علم ان دليله لا ينتج عن تكذيب القرآن فيما ذكره فلم يرتب التكذيب على الدليل ولم يقل (واذن) التي يستعملها دائما في كلامه وقال فواضح جدا لكل من له المام البحث التاريخي عامة ويدرس الاساطير والقصص خاصة ان هذه النظرية متكلفة مصطنعة في عصور متاخرة دعت اليها حاجة دينية ، او اقتصادية ، او سياسية . وهو بين شرين لا مفر منهما اما ان يكون اجترا على تكذيب القرآن في وجود ابراهيم واسماعيل بدون دليل وليس بيده الا قوله فواضح جدا — وحينئذ تكون دعوى لا دليل عليها ، والدعاوى إن لم تقم عليها بينة لم يعبأ بها واما أن يكون قد كذب القرآن بذلك الدليل ، وقد علمنا انه اقصر من دعواه ولا ينتج تكذيب القرآن .

هذا وقد راى القراء اننا لم نناقش الدكتور على قاعدة ان القرآن نص يقيني وهو حجة على على كل ما خالفه ، وانما ناقشناه على قاعدة انه نص تاريخي كنص اي مؤرخ من البشر تنزلا منا ، وبينا له ان دعواه لم تتم لان الدليل العقلي الذي استعمله لا ينهض فلم تلزمه بنصوص الدين لئلا يقال ان ذلك لا يلزمه الا المتدين وانما الزمناه بالادلة العقلية المشتركة للانسانية كلها من تدين ومن لم يتدين ولايظن ظان أن ادلة

الدكتور الحديثة تقف عند هذا الحد من العبث والبطلان ، بل ان لها لونا آخر من الوان العبث والبطلان وهو ما سنبينه .

يزعم الدكتور طه ان قصة ابراهيم واسماعيل موضوعة وضعها اليهود لغرض وهو انهم كانوا يريدون ان يثبتوا القرابة بينهم وبين العرب ليعيشوا معهم عيشة راضية وقبلتها مكة لغرض سياسي وديني لانهم كانوا يريدون ان ينصل نسبهم باصل من تلك الاصول الماجدة ، وقبلها الاسلام لغرض ديني وهو انه يريد ان يثبت صلة بينه وبين اليهودية .

هكذا زعم الدكتور وليس معه نص تاريخي يفيد ذلك وليس بيده الا ان ذلك يمكن ان يكون قد كان ، واذا تصور على هذه الحال كان منسجما ونحن نقول له يا دكتور ان التاريخ لا يثبت بمثل ذلك وليس كل ما يمكن ان يكون قد كان يجب ان يكون قد كان ، ولا يثبت الامر بان هذه العلة يجوز ان تكون له . وان مثلك في ذلك مثل مؤرخ ياتي بعد مائتي سنة يقول : يزعم المؤرخون ان امريكا اشتركت مع فرنسا في حرب المانيا في الميدان الغربي ، وهذا باطل فاين امريكا من فرنسا ان بينهما المحيط الاطلانطيقي على سعته . القصة مكذوبة وقد اخترعها بعض الامريكان ليقرب الشعبين الامريكي والفرنسي بعضهما من بعض ، ان هذه القصة تفيد انهما حاربا معا جنبا لجنب عدوا مشتركا فهي تدعو الى تآلف الشعبين فقد وضعت لذلك ، وان الذي يدعو الى ان توضع علوم الاوائل كلها موضع الشك ولا يثبت الا ما قام العلم على اثباته لا يسوغ له ان يطلب منا الاقتناع بمثل هذه الظنون والاوهام وليس عنده من الحجة الا ان ذلك يمكن ان يكون قد كان ، فيجب ان يكون قد كان اللهم الا اذا كان يدعو الى رفض تقليد الماضين الى تقليده هو ، وان قارئي كتابه يحتاجون الى مقدار عظيم من البلاهة والغمارة حتى يقتنعوا بامثال تلك الحجيج التي هي كما قال الاول .

حجج تهافت كالزجاج تخالها حقا وكل كاسر مكسور

اذا اراد الدكتور ان يقنع الامة بكتابه فعليه اولا ان يبدا بالغاء مقولها

وعكس منطقها السليم ، واحالة تلك العقول عن فطرتها ، حتى يكون على غرار عقله . ثم يلقي اليها بعد امثال تلك الاوهام وحينئذ تقنع بها وتصدق ويتم له ما يريد ولكن : دون ذلك وينفق (١) .

الا لايقولن الدكتور بعد اليوم : المنهج العلمي الحديث ولا البرهان العلمي ، ولا يتمسحن باعتاب العلماء ، فقد اطلعنا القراء على قيمة نهجه الحديث ومنطقه الجديد فعلموا ان ذلك ليس منطق العقلاء وانما هو منطق البله والاغمار والمرورين .

وبعد فكتاب الشعر الجاهلي ان كان الفه مؤلفه كتابا في المغالطات ، وامثلة على القياس الذي لم يستكمل شروط الانتاج ، والاضرب العقيمة والحجة الخداج ، فهو كتاب جيد في بابه واف بالغرض الذي قصد اليه . وان كان الفه مؤلفه كتابا في تاريخ الشعر والادب فليس من ذلك في قليل ولا كثير .

ولو ان في بلدنا مجمعا علميا منظما لحكمته بيني وبين الدكتور ولرضيت حكمه فيما رميت به دعاوى الدكتور من انها دعاوى يقيم عليها ادلة اقصر منها تارة ، ويدعيها بدون برهان تارة ، ويثبت الشيء بانه ممكن تارة اخرى ، ولكان من وراء ذلك التحكيم الخير ، فانه اذا حكم علي تواريت خجلا وارحت الناس من سماع هذا النقد وامثاله ، واذا حكم على الدكتور حمى شباب الامة من التورط في آرائه وحماها ايضا من عدوى ذلك المنهج الخاطىء في البحث — اما والبلد ليس فيها مثل المجمع فادعو المشتغلين بالمنطق ان يبدوا آراءهم فيما بيني وبين الدكتور من خلاف ، انهم ان فعلوا ذلك خدموا العلم والحقيقة ومن اولى من هؤلاء بخدمة العلم المظلوم والحقيقة المهيضة .

محمد عرفة
استاذ بمعهد الاسكندرية

---

(١) تتمة المثل وينفق الحمار — والامثال لا تغير وما كل قارىء يعرف المثل فتغنيه النقط عن ذكر الحمار المراد بنفاقه نفاق كتاب الدكتور .

(المنار) قد بينت في مقالي الذي نشرته في الجزء الماضي طريقة الدكتور طه حسين في البحث والاستدلال في قواعد بسط الاستاذ الشيخ الشيخ محمد عرفة غراب الكلام على اثنتين منها وهما الدعوى بدون دليل والاستدلال بما لا يدل على المطلوب ، وهو ضرب من المغالطة الواضحة وقد كبر من شأنها بتمنيه عرضها على مجمع علمي لو وجد او بعرضها على المشتغلين بعلم المنطق ليعلم ايهما الخاطيء في البحث ، وحسبنا من علم الجمهور – اهل المنطق الفني ومن دونهم من اهل المنطق الفطري – بسفسطة الدكتور ومغالطاته انه لم يدافع عنه احد من الملاحدة ولا اعضاء جمعيته وحزبهم ولا قرضوه ولا اثنوا عليه كما فعل بعضهم بالدفاع عن علي عبد الرازق اذ كان احذق منه في المغالطة والسفسطة .

نعم ان بعض التلاميذ والعوام قد يغترون بخلابته فالواجب بيان ضلاله واضلاله في مسائل الكتاب لا في الاستدلال عليها فقط .

المصدر : مجلة المنار ج ١٠ مجلد ٢٧ يناير ١٩٢٧ .

ملاحظة : الملاحظات والمقالات الموقعة باسم المنار هي بقلم صاحب « المنار » الشيخ محمد رشيد رضا (١٨٦٥ – ١٩٣٥) م. خ. .

نقد كتاب الشعر الجاهلي

محمد فريد وجدي ١٨٧٨ — ١٩٥٤

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسوله محمد خاتم النبيين ، وعلى اخوانه المرسلين ، وآله وصحبه وتابعيهم الى يوم الدين .

مقدمة الكتاب

اما بعد فقد قرات في الجرائد منذ شهور ، تقاريظ لكتاب وضعه الاستاذ الدكتور طه حسين ، اسماه (في الشعر الجاهلي) ، فقلت في نفسي مدرس الآداب العربية ، في الجامعة المصرية أراد أن لا يقصر ثمرة جهوده العقلية على تلاميذه ، فنشرها ليستفيد منها الكافة ، فحبذا لو احتذى مثاله جميع المدرسين . ولكني لم ألبث ان قرأت فصولا ضافية الذيول لبعض شيوخ الادب في المدارس المصرية ، يشنون فيها على هذا الكتاب حربا طاحنة ، تذهب باليابس والاخضر ، باعتبار انه قد استطرد الى ذكر مسائل اتبع فيها غير سبيل المؤمنين ، بل جحد بعض ما نص عليه الكتاب المبين . لم تمض غير أيام حتى قرأت في الجرائد ان علماء الجامع الازهر قد اجتمعوا وقرروا ان في كتاب الدكتور طه حسين كفرا صريحا ، وطالبوا الحكومة بمصادرته ، ومنع مؤلفه عن التدريس ، كيلا يفتن نابتة الامة بما يبثه فيها من الاضاليل . وبينما الناس ينتظرون جواب الحكومة اذا بالدكتور يعلن انه لم يقصد الطعن في الدين ، وانه يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر الخ الخ .

هذه الحلقات المتصلة من الحوادث التي اثارها هذا الكتاب حفزتني الى الاطلاع عليه . فرايت فيه اخطاء اجتماعية وبسيكولوجية وفلسفية لا يصح السكوت عليها ، والفيت الدكتور لاضطراره الى تصيد الاسباب التي حملت ذوي النفوس المريضة على اختلاق الشعر ونسبته الى الجاهليين ، قد عول على كتب المحاضرات ، وهي قرارة الاكاذيب، ومستنقع المفتريات من كل نوع . فجاء كتابه بما حمل من اوزار المفترين ، وبما غلا هو فيه من تقصي اغراءات المتناظرين ، وتسويلات المتنافسين ، من القادة الاعلين ، طامسا معالم اكبر ثورة اجتماعية حدثت في العالم ، الا وهي ظهور الديانة الاسلامية ، وما استتبع انتشارها من سقوط دول وقيام دول ، وفناء لغات وشعوب في لغات وشعوب ، وتبدل مبادىء واصول بمبادىء واصول ، وطروء عهد جديد على الانسانية انتقلت به درجات كثيرة في معارج العلم والفلسفة والاخلاق والعمران .

لا ندعي هنا ان الدكتور طه حسين قصد الى تشويه جمال هذه الثورة الكبرى في كتابه ، ولكنه بغلوه في تحري اسباب الاختلاق ، على الجاهليين التقط من كتب المحاضرات جميع ما فيها مما يتعلق بالاختلاق ، وبالعوامل التي حملت عليه ، وبالمطامع التي دفعت اليه ، ولم يسر على ذلك ما يقضي به عليه مذهب ديكارت من النقد والتمحيص ، بل وثق به ثقة مطلقة حملته على اصدار الاحكام جزافا في تركيب المسلمين الاولين ، وتاليف مجتمعهم ، مما لا يتفق واثر هذه الثورة التي قاموا بها في عالم الاجتماع والعلم والمدنية ، ولا يتلاءم وما اعترف به عنها خصومها ومناظروها قديما وحديثا .

فبينما علماء الغرب لا يتمالكون انفسهم من الدهش من قوة هذه الحركة الاجتماعية التي انبعثت من بلاد العرب فجاة فرجت العالم كله رجات اذهلته عن كل شيء الا عنها ، ولا يزال دويها يرن في آفاقه ، يصعب علينا ان نرى واحدا منا يضع كتابا بالغرض قليل الخطر ، هو اثبات ان الشعر الجاهلي مختلق ، يكون اثره على قارئه ان يحتقر هذه الثوره الكبرى ، ويستخف برجالها الذين اخذوا حظا من تمثيلها ، والاضطلاع باعبائها ، وقد اتت العالم ببركات لا يزال يعترف لها بها الى اليوم .

فاذا كان الانجليزي يفخر بأن آباءه كانوا اول من فكر في وضع حد لحكم الفرد ،واذاكان الفرنسي يفخر بأن اسلافه اول من فكر في تعيين حقوق الانسان الطبيعية ، فهلا يفخر المسلمون بان اوائلهم كانوا بايعاز من دينهم او من اعلن الناس كافة بأن الانسانية قد بلغت سن الرشد ، وانها اصبحت لا يصح ان تخضع لطوائف تنتحل لنفسها حق الوصاية عليها ، وان السلطان للجماعة لا للفرد ، وان المعول على العقل لا على الموروثات ،وان الايمان بالدليل لا بالتقليد ، وان التمايز بالمزايا لا بالجنسية ولا بالقوميه ، وانالحكم بالشورى لا بالاستبداد ، وان الدين هو الفطرة التي فطر الله النفوس عليها ، لا الرسوم ولا الاشكال التي يزينها الوهم ويولدها الخيال ،وان اصل كل الاديان واحد ، وما فرق الناس شيعا واحزابا إلا قادتهم بما صوروه لهم من الاباطيل والاضاليل الخ الخ ، قلت فهلا يفخر المسلمون بهذه العراقة في الاصول العالية مع الفاخرين . ويتحققون ان لهم اكبر اثر في ترقية الانسانية مع العاملين ؟

اني ما كدت اتم قراءة كتاب الدكتور طه حسين حتى وجدتني مدفوعا لوضع نقد عليه استهدف به غرضين : (اولهما) مناقشته في المسائل التي تتعلق بتكوين الامة الاسلامية ، ولا يتفق حكمه فيها والمقررات التاريخية ، ولا الاصول الاجتماعية ، واری الاغضاء عنها ضارا كل الضرر بنابتة هذا الجيل ، وهم في هذا الدور من الانتقال السريع .

(وثانيهما) مقابلة اول ثمرات الجامعة المصرية بما تستحقه ، من العناية ، وهذه العناية لا تعنى في عالم العلم غير النقد والتمحيص .

فالله ارجو أن يجعل عملي هذا خالصا من شوائب المراءاة والمماراة وان ينفع به الناس انه الموفق للهداية ، المعين على بلوغ الكفاية .

● **محمد فريد وجدي**

المصدر : نقد كتاب الشعر الجاهلي . مقدمة الكتاب تاليف محمد فريد وجدي ، مطبعة دائرة معارف القرن العشرين . القاهرة الطبعة الاولى ١٩٢٦

الالحاد في الجامعة المصرية

الدكتور طه حسين المتخرج من الجامعة المصرية والمدرس بها القى محاضرات فيها وجمعها في كتاب سماه « الشعر الجاهلي » وقد طعن فيه على الاسلام والقرآن ، فاهاج الرأي العام ، وتناول كتابه الادباء والكتاب، بالرد والتفنيد وقد كلف فضيلة شيخ الازهر ورئيس المعاهد الدينية لجنة من علماء الازهر بالنظر في الكتاب ووضع تقرير عنه فقامت بذلك ورفعت لفضيلته التقرير الآتي :

وهذا نصه كما جاء في مقطم يوم الاحد ٢٦ شوال سنة ١٣٤٤ .

كتاب الشعر الجاهلي

راي لجنة العلماء فيه

حضرة صاحب الفضيلة مولانا الاستاذ الاكبر شيخ الجامع الازهر .

السلام عليكم ورحمة الله .

وبعد فقد اجتمعت اللجنة المؤلفة بأمر فضيلتكم من الموقعين عليه لفحص كتاب طه حسين المسمى « في الشعر الجاهلي » بمناسبة ما قيل عنه من تكذيب القرآن الكريم واطلعت على الكتاب وهذا ما ترفعه الى فضيلتكم عنه بعد فحصه واستقراء ما فيه .

يقع الكتاب في ١٨٣ صفحة وموضوعه انكار الشعر الجاهلي وانه منتحل بعد الاسلام لاسباب زعمها — وقال انه بنى بحثه على التجرد من كل شيء حتى من دينه وقوميته عملا بمذهب (ديكارت) الفرنسي . والكتاب كله مملوء بروح الالحاد والزندقة ، وفيه مغامز عديدة ضد الدين مبثوثة فيه ، لا يجوز بحال أن تلقى الى تلامذة لم يكن عندهم من المعلومات الدينية ما يتقون به هذا التضليل المفسد لعقائدهم ، والموجب للخلف ، والشقاق في الامة ، واثارة فتنة عنيفة دينية ضد دين الدولة ودين الامة .

وترى اللجنة أنه اذا لم تكافح هذه الروح الالحادية في التعليم ، ويقتلع هذا الشر من أصله ، وتطهر دور التعليم من (اللا دينية) التي يعمل بعض الافراد على نشرها بتدبير وأحكام تحت ستار حرية الرأي اختل النظام وفشت الفوضى واضطرب حبل الامن لان الدين هو أساس الطمأنينة والنظام .

الكتاب وضع في ظاهره لانكار الشعر الجاهلي ، ولكن المتأمل قليلا يجده دعامة من دعائم الكفر ، ومعولا لهدم الاديان ، وكأنه ما وضع الا ليأتي عليها من اصولها وبخاصة الدين الاسلامي ، فانه تذرع بهذا البحث الى انكار اصل كبير من أصول اللغة العربية من الشعر والنثر قبل الاسلام مما يرجع اليه في فهم القرآن والحديث . هذا ما يرمي اليه الكتاب في جملته . ولنذكر نبذاً منه بعضها كفر صريح ، وبعضها يرمي الى الالحاد والزندقة فتقول :

قال في صفحة ٢٦ ما نصه (للتوراة أن تحدثنا عن ابراهيم واسماعيل وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضاً ، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لاثبات وجودهما التاريخي فضلا عن إثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة اسماعيل ابن ابراهيم الى مكة) .

انكر المؤلف بهذا هجرة(١) سيدنا ابراهيم مع ولده اسماعيل عليهما

(١) عبارة المخذول نص في انكار ابراهيم واسماعيل انفسهما فضلا عن هجرتهما فلماذا يذكر التقرير انكاره لهجرتهما فقط ويسكت عن انكاره لوجودهما . هذا وانكار ابراهيم واسماعيل مصادمة صريحة للكتب السماوية والشرائع الالهية وللتواتر والتاريخ .
« المنار »

السلام وقال : ان ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لاثبات وجودهما التاريخي وهو تكذيب صريح لقول الله تعالى في سورة ابراهيم حكاية عنه عليه الصلاة والسلام (وإذ قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبني وبني أن نعبد الاصنام ، رب انهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فانه مني ، ومن عصاني فانك غفور رحيم * ربنا اني اسكنت من ذريتي بواد غير ذي ذرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل افئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون) وقال في الصفحة نفسها (ونحن مضطرون الى ان نرى في هذه القصة — يريد قصة الهجرة — نوعاً من الحيلة لاثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة ، وبين الاسلام واليهودية والقرآن والتوراة من جهة اخرى) .

وهو في هذا النص يصرح بان القرآن اختلق هذه الصلة بين اسماعيل والعرب ليحتال على جلب اليهود وتاليفهم ، ولينسب العرب الى أصل ماجد زورا وبهتانا لاسباب سياسية او دينية ، وهذا من منتهى الفجور والفحش ، والطعن على القرآن الكريم في اثباته ابوة ابراهيم للعرب في قوله تعالى (وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم ابراهيم : الآية)

وقال في صفحة ٢٧ (وقد كانت قريش مستعدة كل الاستعداد لقبول مثل هذه الاسطورة — الهجرة المذكورة — في القرن السابع للمسيح الى أن قال في صفحة ٢٨ اذاً فليس ما يمنع قريشاً من أن تقبل هذه الاسطورة التي تفيد أن الكعبة من تأسيس اسماعيل وابراهيم كما قبلت روما قبل ذلك ، ولأسباب مشابهة اسطورة اخرى صنعتها اليونان تثبت أن روما متصلة بإينياس بن بريام صاحب طرواده ، امر هذه القصة إذاً واضح فهي حديثة العهد قبل الاسلام ، واستغلها الاسلام لسبب ديني ، وقبلتها مكة لسبب ديني ، وسياسي ايضاً . واذاً فيستطيع التاريخ الادبي واللغوي الا يحفل بها عندما يريد ان يتعرف اصل اللغة العربية الفصحى) وهو تكذيب صريح لقول الله تعالى (وإذ بوانا لابراهيم مكان البيت الا تشرك بي شيئاً وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود ، واذن في الناس

بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من فج عميق) وقوله تعالى (واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى ، وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود) الى غير ذلك من الآيات التي في هذا الموضوع وهو فوق تكذيبه للقرآن يقول أن فيه تدليساً واحتيالا لاسباب سياسية ودينية من اجلها اختلق هذه الاخبار — بهذا وامثاله يقرر المؤلف ان القرآن لا يوثق باخباره ولا بما فيه من التاريخ .

وكم يترك هذا الكفر الفاحش في عقول الطلبة من أثر سيء ؟ وهدم لعقائدهم ودينهم ، وماذا بقي : القرآن من ثقة وحرمة في نفوسهم بعد هذا التكذيب .

وقال في صفحة ٣٣ (وهناك شيء بعيد الاثر لو أن لدينا أو لدى غيرنا من الوقت ما يمكننا من استقصائه أو تفصيل القول فيه ، وهو أن القرآن الذي تلي بلغة واحدة ، ولهجة واحدة هي لغة قريش ولهجتها ، لم يكد يتناوله القراء من القبائل المختلفة حتى كثرت قراءاته ، وتعددت اللهجات فيه ، وتباينت تبايناً كثيرا الى ان قال : انما نشير الى اختلاف آخر في القراءات يقبله العقل ويسيغه النقل ، وتقتضيه ضرورة اختلاف اللهجات بين قبائل العرب التي لم تستطع أن تغير حناجرها ، والسنتها ، وشفاهها لتقرا القرآن كما كان يتلوه النبي وعشيرته من قريش فقرأته كما كانت تتكلم الى آخر ما قال .

وهذا تصريح منه بأن القراءات لم تكن منقولة كلها عن النبي صلى الله عليه وسلم ، بل هي من اختلاف لهجات القبائل ، فالسبع المتواترة ليست عنده واردة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ومعلوم في اصول الدين ان السبع متواترة ، وان طريقها الوحي فمنكرها كافر .

وعدا ما سردناه توجد صحائف عديدة فيها مغامز مؤلمة منها ماقاله في صفحة ٨١ (وشاعت في العرب اثناء ظهور الاسلام وبعده فكرة أن الاسلام يجدد دين ابراهيم) وفي الصفحة التي قبلها (أما المسلمون فقد

ارادوا أن يثبتوا للاسلام اولية في بلاد العرب كانت قبل أن يبعث النبي ، وأن خلاصة الدين الاسلامي وصفوته هي خلاصة الدين الحق الذي اوحاه الله الى الانبياء من قبل) وهو في هذا يكذب قوله تعالى (ثم أوحينا اليك ان اتبع ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين) وقوله تعالى (ان اولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا) الى غير ذلك من الآيات الكثيرة في هذا الموضوع ، ومنها غير ذلك كثير مما هو مبثوث في الكتاب .

ولا ريب في ان هذا هو عين ما كان يطعن به المشركون على القرآن في مبدأ أمره قال تعالى في سورة الفرقان (وقال الذين كفروا ان هذا الا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلما وزورا وقالوا اساطير الاولين اكتتبها فهي تملي عليه بكرة واصيلا) .

فاللجنة ترفع الى فضيلتكم ما وصلت اليه على سرعة من الوقت مما سطره المؤلف من الكفر الصريح ، وتترك ما ينطوي في ثناياه من الالحاد والزندقة مما لا يخفى على الناظر .

نرفعه مطالبين فضيلتكم والحكومة بوضع حد لهذه الفوضى الالحادية خصوصا التي تنبث في التعليم لهدم الدين بمعول الزندقة كل يوم فما نفرغ من حادثة الا ونستقبل حوادث لا تدع المؤمن مطمئنا على دينه .

نطالب فضيلتكم والحكومة بذلك حرصا على ابناء الدولة أن يتفشى هذا الداء فيهم وهم رجال المستقبل ، وسيكون بيدهم الحل والعقد في مهام الامور .

ونحن لا نفهم كيف تصرف أموال المسلمين واوقافهم على تعليم نتيجته هذا الالحاد الذي يبثه هذا الداعي ويتقاضى عليه مرتبا ضخما من هذه الاموال .

وهل بهذه الطريقة وعلى هذا النحو تخدم وزارة المعارف ابناء الامة ورجال الغد وتبني صرح التعليم والتربية ؟

نسأل الله ان يوفقكم لما فيه المصلحة والسلام .
٢٦ شوال سنة ١٣٤٤

الامضاءات

محمود الديناري . عبد المعطي الشرشمي . محمد عبد السلام القباني
عبد ربه مفتاح . عبد الحكم عطا . محمد هلالي الابياري . عبد الرحمن
المحلاوي . محمد علي سلامة .

المصدر : مجلة المنار جـ ٢ المجلد ٢٧ ،١٣ مايو ١٩٢٦ .

تحت راية القرآن:

المعركة بين الجديد والقديم

مصطفى صادق الرافعي

تنبيـــه

نلفت القراء الى اننا في هـــذا الكتاب انما نعمل على اسقاط فكرة خطرة ، واذا هي قامت اليوم بفلان الذي نعرفه فقد تكون غدا فيمن لا نعرفه ، ونحن نرد على هذا وعلى هذا برد سواء ، لا جهلنا من نجهله يلطفه منه ، ولا معرفتنا من نعرفه تبالغ فيه .

والفكرة لا تسمى بأسماء الناس ، وقد تكون لألف سنة خلت ثم تعود بعد ألف سنة تأتي ، فما توصف من بعد الا كما وُصفت من قبل ما دام موقعها في النفس لم يتغير ، ولا نظنه سيأتي يوم يذكر فيه إبليس فيقال : رضي الله عنه .

ونحن مستيقنون أن ليس في جدال من نجادلهم عائدة على انفسهم ، إذ هم لا يضلون الا بعلم وعلى بينة ، فمن ثم نزعنا في أسلوب الكتاب الى مَنْحَى بياني نديره على سياسة من الكلام بعينها ، فان كان فيه من الشدة أو العنف أو القول المؤلم او التهكم ، فما ذلك اردنا ، ولكنا كالذي يصف الرجل الضال ليمنع المهتدي أن يضل ، فما به زجر الأول بل عظة الثاني ، ولهذا في مناحي البيان أسلوب ولذلك أسلوب غيره ؛ الا وان اقبح من القبح ما جعله يسمى قبحا ، وان احسن من الحسن ما جعله حسنا ، ولكل معنى باعتباره موضع ، ولكل موضع في خطته وصف ولكل وصف في غرضه تعبير ، ولكل تعبير أسلوبه وطريقته ؛ فهذا ما ننبه اليه .

ولو كان أصحابنا غير مَن هم في الأثر والمنزلة لكان أسلوبنا غير ما هو في النمط والعبارة ، والسلام .

الرافعي

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على رسله وانبيائه .

اللهم هيىء لنا الخير ، واعزم لنا على الرشد ، وآتنا من لدنك رحمة ، واكتب لنا السلامة في الراي ، وجنّبنا فتنة الشيطان ان يقوى بها فنضعف ، او نضعفه لها فيقوى ، ولا تدعنا من كوكب هداية منك في كل ظلمة شك منا ، واعصمنا أن تكون آراؤنا في الحق البين مكان الليل من نهاره ، او تنزل ظنوننا من اليقين النيّر منزلة الدخان من ناره، نسالك بوجهك ونتوسل اليك بحمدك وندعوك بافئدة عرفتك حين كذّب غيرها فاقرت ، وآمنت بك فزُلزل غيرها واستقرت .

واما بعد ؛ فاني قد نظرت فاذا كل ما كنت أريد أن أقوله في هذه الكلمة قد كتبته في هذه المقالات ، فهي لا تدع مسألة ولا تترك شبهة ولا تزال تأخذ بيد القارىء فتضعها على غلطات اصحابنا المجددين ، بل المبددين ، واحدة بعد واحدة ، وشيئا بعد شيء ، فهو منا في برهان لائح من حيث بدا الى حيث ينتهي ، كالنجم : لا يزال بعين منه أين مشى وكيف تلفت .

وما رأيت فئة يأكل الدليل الواحد ادلتها جميعا كهؤلاء المجددين في العربية ، فهم عند انفسهم كالجمرة المتوقدة : لا يشبعها حطب الدنيا ولكن غرفة من الماء تأكل الجمرة ؛ وهم مخذولون بقوة الله ، اذ ليس فيهم رجل فصيح بليغ يكون لهم كالتعبير من الطبيعة عن هذا المذهب ، حتى يثبت مذهبهم فلا يُدفع ويقوم فلا ينقص ، ولن يأتي لهم هذا الرجل ، فلو انه اتفق لهم لكان اشد أعدائهم ، ولأغلظ فيهم النكاية ، فما يزال ينقصهم ابدا ، ولن يتموا به ابدا ؛ وذلك من عجيب تقدير الله في العربية ، لمكان القرآن منها ، حتى لا يدخل في طمع احد ولا تناله يد متناول ، فهو محفوظ بالقدر كما ترى ، والله غالب على أمره ولكن اكثر الناس لا يعلمون .

وإن طائفة من الذباب لو أصابت لها حاميا مدافعا من النسور فجاءت تطن بأجنحتها لتلوذ به وتنضوي اليه ، ثم قصف النسر قصفة بجناحيه لأهلكها أو بعثرها وشردها ، وهو كان في وهمها ملاذا وكان عندها حمى فذلك مثل القوم وما يحتاجون اليه من الرجل البليغ اذا التمسوه فأصابوه !

* * *

اما انه ليس يقوم العقل ما يسمى عقلا ، ولكن ما يسمى غرضا وحاجة ورغبة واضطرارا ؛ فأهواء امرىء من الناس جاعلة له عقلا غير عقل من لم تدعه نفسه الى مثل هذه الأهواء ، وإن كان امرهما واحدا بعد ومن ههنا اختلافه مع هؤلاء المجددين ، فان لهم اغراضا لا مناص أن تجعل لهم عقولا بحسبها وعلى مقاديرها في المصلحة والمفسدة ، وهم صور من ضمائرهم ، فليس في الملحد يكون ضمير مؤمن ، ولا في الفاجر ضمير تقي ، ولا في المستهتر ضمير ورع ؛ ومن ثم وجب أن تتحذرهم الأمة وأن تفرهم في ذلك الحيز من تخيلاتهم وأوهامهم ، فهم من الأمة اذا غلبت هي عليهم ، وليسوا منها اذا غلبوا عليها ، ما مثلهم الا كالرمل والحصى : تكون في مجرى الماء العذب فتكون شيئا من طبيعته وتحدث فيه لونا من الحسن والرونق ، واذا هي خيال من شعر النهر ، حتى اذا خرجت مع الماء وانساغت في حلق من يجرعه كانت بلاء وأذى وانقلبت للماء سبة ورمي بها ورميت به !.

وهم يريدون بآرائهم الأمة ومصالحهم ومراشدها ، ويقولون في ذلك بما يسعه طغيانهم على القول واتساعهم في الكلام واقتدارهم على الثرثرة، حتى اذا فتشت وحققت لم تجد في أقوالهم الا ذواتهم وأغراضهم وأهواءهم يريدون أن يبتلوا بها الناس في دينهم وأخلاقهم ولغتهم ، كالمسلول يصافحك ليبلغك تحيته وسلامه فلا يبلغك الا مرضه وأسباب موته !.

ولقد كان من أشدهم عراما وشراسة وحمقا هذا الدكتور « طه حسين » استاذ الآداب العربية في الجامعة المصرية ؛ فكانت دروسه الأولى « في الشعر الجاهلي » كفرا بالله وسخرية بالناس ، فكذب الأديان وسفه التواريخ وكثر غلطه وجهله ، فلم تكن في الطبيعة قوة تعينه على حمل كل ذلك والقيام به الا المكابرة واللجاجة ؛ فمن يهذي في دروسه ، لا هو يثبت الحقيقة الخيالية ولا يترك الحقيقة الثابتة ، وأراد أن يسلب اهل العلم ما يعلمونه كما يسلبك اللص ما تملك بالجرأة لا بالحق . وبالحيلة لا بالاقناع ، ومن غفلة لا عن بيّنة . وما يضحكني الا ان ارى هذا الاستاذ واثنين أو ثلاثة من أشباهه يريدون أن يكونوا ثورة في الأدب العربي ، ونسوا أنهم انما يريدون ذلك لا انهم خلقوا لذلك ، فكان « طه » في الجامعة كالممثل : انما وسيلته أن يتصنع ويجترىء ويزوّر ، فلما نزعنا عنه ثوب الرواية .. نزعنا في الثوب الحادثة والرواية والممثل جميعا ، ورجع طه حسين وهو طه حسين . وأين هو أو مثله من وسائل القدرة ، وما وسائلها الا القلم الذي لا يُجارى ، والفكر الذي لا ينقض ، والخيال الذي لا يلحق ، والقوة المستحصدة ، والطبع المستجيب ، والكلام الذي تراه حيا ساميا فتحسبه ينبع من موضع يد الله في النفس الانسانية ؟

على أن استاذ الجامعة انما يقلد الهدّامين من جبابرة العقول في أوربا ، وانه منهم ولكن كما تكون هذه الكرة الجغرافية المدرسية التي تصور عليها القارات الخمس — من كرة الأرض التي تحمل القارات الخمس ..... ولأيسر عليه أن يملك أوربا او أمريكا من أن يملك عقلا كتلك العقول التي يحاول مثل عملها في غير هندستها ولا حكمتها ولا سموها ولا معانيها ؛ وظنك انت قد غرست في جناح غراب ريشة من الطاووس لتكون زرعا ينبت الريش من مثله فينقلب الغراب من ذلك يوما يزدهي ويتخايل ويَبرق ويرف بألوانه وتحاسينه ، فانه لينقلب طاووسا قبل أن تعد طه حسين عبقريا فيلسوفا ....! فالرجل متخلف الذهن تستعجم عليه الأساليب الدقيقة ومعانيها وأكبر ما معه انه يتحذلق ويتداهى ويتشبه بالمفكرين ولكن في ثوب الرواية ... !

هو وأمثاله المجددون يسمون كتابا وعلماء وأدباء ؛ اذ كان لا بد لهم من نعت وسمة في طبقات الأمة ، غير أنهم على التحقيق غلطات انسانية تخرجها الأقدار في شكل علمي أو ادبي ليعارض بها صوابا كاد يهمله الناس ، فيخشى الناس أن يتحيّف الخطأ صوابهم أو يذهب به ، فيستمسكون بحبله ويشدون عليه ، ويعود ذلك الصواب بعد ظهور الخطأ الذي يقابله ووقوفه بإزائه موقف العدو من العدو ، كأنما ظهر دليله لا نقيضه ، فيعرف الناس وجه الحاجة اليه ، ومكان الغناء فيه ، وضرورة المنفعة به ، وكان وشيكا أن يضيع ، فكأنهم استنقذوه ، وكل ذلك مما يكبره ويرفعه ويبين عنه احسن إبانة وأوضحها ، وكل ذلك مما يغرى به الحرص على سنة طبيعية قاهرة لا تدافع ؛ وما زالت هذه من عجائب حكمة الله فيما يحوط به هذا الدين الاسلامي وكتابه العربي الخالد ، فكلما وهن عصر من عصوره رماه الله بزنديق فاذا الناس أشد ما كانوا طيرة وأبلغ ما كانوا دفعا ومحاماة ، واذا الدين اقوى ما كان فيهم واثبت ، واذا الزنديق كأنما سيق اليهم من جهنم ليقول لهم : هلم اليها ! فيقول ميسم النار عليه : اياكم واياها !

فالمجددون الملحدون هم جزء من الخطأ يخرج من عمله جزء من الصواب ، وما أشبههم بالمواد السامة يداف قليلها في الدواء لتكون قوته من قوتها ، فاذا مازجته عادت فيه غير ما كانت وهي في نفسها لا تزال كما هي .

وما نريد أن نزيد « طه » على ما قلنا فيه مما ستقرؤه في هذا الكتاب ، ولكنا نرجو أن يهديه الله فيكون من أمته ويعود اليها ، فانه الا يكن بها لا يكن بغيرها ، وانها الا تكن به تكن بغيره .

وقد كان أمره وأمر اصحابه كما يكون من الوباء يمر بالدنيا مرة فيصيب منها ولكنه يترك في أيدي أطبائها المصل الواقي منه أبد الدهر ؛ ولقد تركوا لنا هذا الكتاب ؛ فالله نسأل ان يجعله خالصا لوجهه الكريم ، نافعا بهذه النية ، مثوبا بهذا النفع ؛ وله الحمد في الأولى والآخرة .

مصطفى صادق الرافعي

المصدر : تحت راية القرآن ، المعركة بين القديم والجديد . الطبعة الاولى . المكتبة الاهلية بمصر ١٩٢٦ ، المقدمة .

الجامعة في مجلس النواب

ثم كان يوم الاحد الثاني عشر من شهر سبتمبر سنة ١٩٢٦ ، فعُرضت ميزانية الجامعة في مجلس النواب ، فإذا غضبُ الله وإذا مَقْتُ الأمة كما ترى فيما ننقله عن « جريدة الاهرام » الغراء بحروفه محصلا من مضبطة المجلس :

قال الأستاذ « صبري أبو علم » بعد أن أتى على تاريخ الجامعة وبدئها وإلحاقها بوزارة المعارف وأنها بعد ذلك لم تكن الا قانوناً ومكانا واعلانا من اعلانات السياسة :

.... إن كل الظواهر تدل على انها اخرجت المشروع بدون أن تستكمل بحث الوسائل الفنية والادارية التي يتم بها المشروع ، ودليلي على ذلك انه عند البدء في إنشاء القسم العلمي كانت محاضرات الكيمياء لم يبدأ في تدريسها الا في أوائل نوفمبر بسبب اشتغال استاذ الكيمياء في وظيفة سكرتير عام الجامعة ، اما دروس الكيمياء العملية فلم تبدأ الا في ٣ يناير لعدم اعداد المعامل اللازمة لها ، وكذلك تدريس علم الجيولوجيا لم يبدأ الا في اوائل فبراير ، وسبب ذلك أن أستاذ ذلك العلم كان عميد الكلية وقد استغرقت ظروف تنظيم كلية العلوم وتكوينها كل أوقاته وجهوده ولم يكن هنالك بناء خاص للمعامل كما أن الأدوات العلمية اللازمة لم ترد الا قبل الامتحان ببضعة أسابيع ، من ذلك سيتضح انه كان سر خفي يدفع القائمين بالأمر الى اعلان افتتاح الجامعة من غير تهيئة الوسائل اللازمة لها من حيث استعداد الطلبة وأهليتهم لتلقي الدروس ؛ ومن حيث اختيار الأساتذة وفهمهم لاحوال الطلبة الذين سيتابعونهم في تلقي الدروس منهم ؛ مع أنّ القانون الصادر بتكوين الجامعة تكوينا جديدا صدر بتاريخ ١١ مارس سنة ١٩٢٥ على أن يعمل به من يوم نشره .

اذكر أننا عند بحثنا في تصرفات وزير المعارف السابق سمعنا من سعادته ان معظم الاصلاحات التي اشار بإدخالها على مناهج التعليم كان الغرض منها تغذية الجامعة المصرية بطلبة يمكنهم ان يتابعوا دروسها. ومعنى هذا انه اذا كانت الفكرة من هذه الاصلاحات اعداد طبقة من الطلاب تكون قادرة على تلقي علوم الجامعة ، فكان من الواجب ان يتاخر انشاء هذه الاقسام حتى يتسنى للطلاب الالتحاق بالجامعة ، ولذا لا افهم السر في إنشائها بمثل هذه السرعة ، وفي محاولة الهروب من رقابة البرلمان ، في الوقت الذي تعيش فيه الجامعة على الاموال العامة .

ظهرت الجامعة وعليها طابع الاستعجال ، فمن سرعة في تقرير إنشائها ، الى اندفاع في تكوينها وفي تعيين المدرسين اللازمين لها .

انشئت بقرار من مجلس الوزراء ، وهذا غير كاف من الوجهة العلمية ، فلا اظن ان جامعة تنشأ بين يوم وليلة اذ أن الجامعات نتيجة تطور مستمر للعلوم والمعارف ؛ انها تنمو وتتطور او تتكون وتتشرب بالنظام الاجتماعي والسياسي والاقتصادي .....

ثم افاض الخطيب فيما وقع من الخلط والخبط في الجامعة وتوظيف رجالها .

جلسة يوم الاثنين

[١٣ سبتمبر سنة ١٩٢٦]

خطبة الاستاذ عبد الخالق عطية

حضرات النواب :

نصف مليون جنيه ! نصف مليون جنيه ! اجل نصف مليون جنيه احتملته خزانة البلاد ثمناً لقصر الزعفران ومصروفات الجامعة المصرية التي لم تنشأ على صورتها الحاضرة الا منذ سنة ١٩٢٥ دون ان تقول

البلاد كلمتها في هذا الشأن ، والآن يطلب منكم أن تصادقوا على ثلاثمائة الف جنيه اخرى لتكون مصروفات لهذه الجامعة في السنة الحالية . مبالغ ضخمة وأرقام جسيمة يضج وربا طول ما يضج من ثقلها صغار الممولين ودافعو الضرائب من هذه البلاد .

اقول ذلك ولا اراني مبالغا ، ولكني أود ايضاً الا تستروحوا من كلامي رائحة الكراهة للعلم أو للصد عن ورود مناهله ومعاهده ، فإني اعتقد أن كل مال وإن عز يهون في جانب الغاية العظمى والغرض الأسمى الذي من اجله انشيء ، وينشأ مثل هذا المعهد ، ولكني اعود وأقول إن الشرط كل الشرط لذلك ان نبتدىء في اعمالنا من حيث يجب الابتداء ، والقيد كل القيد ان تكون الأنظمة التي وضعت والأساليب التي روعيت من شانها ان تؤدي الى هذه الغاية وتحقق ذلك الغرض . عند ذلك يستحب الانفاق ، بل يجب السخاء .

يا حضرات النواب : بالأمس تكلم حضرة الزميل الاستاذ صبري ابو علم عن الغرض من انشاء الجامعة والغاية منها ، ولكنه كان في بيانه مجملا ، فقد مر على ذلك مر النسيم ، واني ارجو واستميحكم عذرا في ان اراني مضطرا اليوم لإبداء شيء من التفصيل في هذا الموضوع ، حتى تكون المقدمات مرتبطة مع النتائج التي اقترحنا ارتباطا واضحا منسجما ، وهذه النتائج هي ذات العلاقة والرابطة فيما يتعلق بالمال المطلوب منا التصديق عليه اليوم .

ان الجامعة ، في اي بلد من بلاد العالم ، خاضعة دائما ككل كائن لنوامس العمران ، تبتدىء جنينا « اي فكرة » ، ثم تخرج طفلا ، ومن هنا يبتدىء دور الانشاء ثم تترعرع فتصير صبيا بعناية اصحابها ، ثم تنمو فتصبح شابا ، ثم كهلا ؛ ثم شيخاً يجمع اختبارات القرون وتجاريبها ؛ وحينئذ تكون جديرة بالبذل حرية بالإسعاد .

ايهـا السـادة :

كلنا نعرف أن ما ينفق على الطفل اقل مما ينفق على الصبي ، وما يقتضيه حال الصبي اقل مما يقتضيه حال الشاب ، وهكذا الحال بالنسبة للكهل والشيخ ، خصوصاً في مثل المسالة التي نحن في صددها .

اذا فهمنا ذلك ووعيناه فماذا ينبغي ان اقول وما ينتظر ان ارمي اليه ؟ دخلت الجامعة في دور جديد فاصبحت أميرية منذ مارس سنة ١٩٢٥ وأصبحت تعتمد في حياتها الجديدة على الأموال المشتركة ، اي على المال العام ، وهو مال الأمة ، فيحق لحضراتكم بما لكم من الولاية على هذا المال ويقضي عليكم واجب التحري والذمة — أن تعرفوا اذا طلب منكم ان تصرفوا : لماذا تصرفون وكم تصرفون ؟ الواجب ان نشجع عندما يجب التشجيع ، وننتقد عندما يجب الانتقاد ، بحيث لا نترك مسالة تمر علينا دون تشجيعها او انتقادها على حسب ما تقضي بـه المصلحـة .

لقد كنت اريد ايها السادة ان الذين ادخلوا الجامعة في الدور الجديد يفطنون الى ان الطبيعة تأبى الطفرة . كنت أرجو ذلك ، ولكن بكل اسف اقرر أن السياسة التي تملكتها شهوة التغيير والتبديل ، والتي ركب أكتافها شيطان العجلة فكانت تسعى الى المظاهر لا الى الحقائق ، والى الاشكال لا الى الموضوعات ، وهكذا أبرزت لنا وللبلاد جامعة في ثياب العمالقة ، بينما هي لا تزال قزما من الاقزام ، وارادت أن تقوم تلك الجامعة على ارجلها كأنها خلق سوي بينما هي طفلة في المهد ؛ ولو كان الامر وقف عند هذا الحد لهان ، ولكن الذي لا يهون اننا احتملنا مبالغ ضخمة في سبيل الأشكال لا في سبيل الموضوعات ، واننا مستهدفون — اذا لم نبادر الى علاج حاسم — لمصروفات لا بد أن تتضخم تضخماً كبـيراً ......

ثم فاض الاستاذ في الكلام على ادارة الجامعة ومدرسيها واسرافها وتخبطها ببيان مستفيض ، ثم قال :

مسألة طه حسين

هذا فيما يختص بامر التعليم :

بقيت هناك نقطة اخرى لا بد من التنبيه اليها :

حدث يا حضرات الاعضاء حادث بالجامعة المصرية ، وقام من ناحيتها صوت افقدهـا عطف الكثيرين ، قـد ادى الى فتنة او كاد ، والاشد والانكى أن البلاد لم ينلها حظ ولم تنلها مصلحة ظاهرة او خفية من اثارة ذلك الموضوع الذي تعرض له صاحب ذلك الصوت حتى كان يقال ولو من طريق التساهل : إن الحسنات تكافات مع السيئات . واظن ان حضراتكم بعد هذا البيان قد فطنتم الى ما اريد وتبينتم ان الصوت المعني بقولي هذا هو كتاب « الشعر الجاهلي » ذلك الذي تضمن طعناً ذريعاً على الموسوية الكريمة والعيسوية الرحيمة ، وعلى الاسلام دين الدولة المصرية بنص الدستور .

أيها السادة : ان العقائد كانت وما زالت في الشرق وفي الغرب ايضاً عواطف حساسة متوثبة متيقظة متاججة ولو ظهرت خامدة ؛ فالرجـل العاقل يجب عليه ان يبتعد عن كل ما يهيجها ، والرجل العالم حقاً الذي يفهم البيئة التي يعيش فيها والوسط الذي يكتنفه ، يجد من علمه متسعاً لا نهاية له لمعالجة الاصلاح والعيوب الكثيرة دون ان يجد نفسه مضطرا في وقت ما الى أن يلج هذا الباب الذي قد يترتب على ولوجه الكثير من الحوادث الجسام والأمور العظام .

يا حضرات النواب ، ارجو ان لا يتأول علينا متأول او يتقول علينا متقول أو يمتن علينا ممتن بانه اشد منا غيرة على حرية العلم والتعليم واعظم منا رغبة في تأييد حرية الراي والتفكير . انه لا توجد في العالم حريات مطلقة ، ولو كان الامر كذلك لنهشت اعراض بحكم حرية الراي ، ولو كان الامر كذلك لقام في البلاد من يهاجم نظام الحكم اعتمادا على حرية الراي ، ولو كان الامر كذلك لقام في البلاد من يبث مبادىء الفوضوية أو

البلشفية استنادا الى حرية الرأي ، ولكن الحرية ـ يا حضرات الاعضاء ـ محددة وتنتهي عندما تبتدىء بالتصادم مع مقتضيات النظام والقانون . انت حر في كل ما تريد ، ولكن حاذر أن تقع تحت سلطة القانون .

إن التعليم حر بنص الدستور ، وليس منا من يعارض في ذلك ؛ ولكن الدستور قال ايضاً : ان التعليم حر الا اذا اخل بالنظام العام ، اذا كان منافياً للأدب . والإخلال هنا معناه ان يترتب على تقرير الرأي حدوث فتنة أو احتمال حدوثها ، وعند ذلك يقف القانون حدا حائلا ، لان المصالح العامة مقدمة على الشهوة ؛ فعلى الذين يفهمون حرية الراي كما حددها القانون ، وعلى الذين يعقلون حرية التعليم كما يعنيها القانون ، ان يفهموا اننا اذا تعرضنا لهذه المسألة فإنما نريد أن نكون دائماً في دائرة القانون .

ايها السادة : ان تصرفه هذا الشخص كان ايضا مخالفا للذوق ، فانه مدرس بالجامعة المصرية ، وهي معهد اميري يعيش من اموال الحكومة الممثلة للامة ، فهو يتقاضى مرتبه من هذه الهيئة التي دينها الاسلام ، فلم يكن من المفهوم ولا من المعقول ولا من حسن الذوق ان يقوم هذا الشخص فيبصق في وجه الحكومة التي يتقاضى مرتبه من اموالها بالطعن على دين رعيتها من اقلية او اكثرية . اننا اذ نسلم اولادنا للحكومة ليتعلموا في دورها نفعل ذلك معتمدين على ان بيننا وبينها تعاقدا ضمنيا على ان الديانات محترمة لا اقول تعاقدا ضمنيا فقط ، بل صريحا ، لان الحكومة تعني بتعليم الدين في مدارسها وتضعه في مناهجها ، واذا كان الامر كذلك فعلى الذين يريدون أن يحرقوا بخور الالحاد أن يحرقوه في قلوبهم ، لإنهم احرار في عقائدهم ، او ان يحرقوه في منازلهم ، لانهم احرار في بيئاتهم الخاصة ، اما ان يطلقوه في اجواء دور العلم ومنابر الجامعة فهذا لا يمكن ان نفهمه باي حال من الاحوال « تصفيق حاد » واغرب ما في هذا التصرف ان صح ما بلغني من إدارة الجامعة اشترت من مؤلف هذا الكتاب كتابه ! اشترته يا حضرات النواب من اموال الامة الموتورة بهذا العمل ! فان كان هذا الكتاب سيدرس في الجامعة فتلك ثالثة الاثافي ، وليس لنا على

هذا الامر تعليق ، اما اذا كان الغرض من شراء الكتاب اتقاء ضرر انتشاره فهذا ايضا تصرف غير معقول ، لان مال الامة لا يجوز ان يدفع اجرا ومكافاة على اساءة للامة ، ولان هذا التصرف في حد ذاته من المكافاة وهذه المكافاة قد حلت حيث كانت تجب الاساءة وحيث كانت تجب المجازة ، هذا كله ان صح ما سمعته من ان ادارة الجامعة قد اشترت هذا الكتاب .

وزير المعارف : اما فيما يختص بمسالة كتاب « في الشعر الجاهلي » فقد قلت لحضراتكم في الجلسة الماضية اننا نطمع في ان تكون الجامعة معهدا طلقا للبحث العلمي الصحيح ، وليس معنى هذا اننا نرضى أن تكون كراسي الاساتذة منابر تلقى فيها المطاعن في اي دين من الاديان قصد النيل من كرامته او التهجم على حرمته ، وانما واجب الاساتذة ان يتحاشوا ذلك في كتاباتهم ومحاضراتهم ، وحادثة كتاب « في الشعر الجاهلي » حصلت كما تعلمون في عهد الوزارة السابقة ، فلما توليت الوزارة اردت ان اقف على حقيقة الامر ، فسالت سعادة مدير الجامعة عن الاجراءات التي اتخذها ازاء هذه الحادثة ، فاجاب بان الجامعة منعت انتشار الكتاب بشراء جميع النسخ من المكاتب وحصرتها في مخازنها ، كما اتخذت الاجراءات اللازمة لمنع طبع نسخ اخرى منه ، وقد اكد لي سعادته ان ما يؤخذ عليه المؤلف لم يلقه على طلبته في الجامعة كما ظن ، وان المؤلف صرح على صفحات الجرائد بانه مسلم ولم يقصد الطعن في دين من الاديان او المس بكرامته « ضجة » .

هذا ما اكده لي مدير الجامعة ، اما فيما يختص بالمبلغ الذي دفع ثمنا للكتاب فاني اصرح باني لو كنت مسؤولا لما رضيت بهذا التصرف واني موافق على استرداده اذا كان لا يوجد مانع قانوني يحول دون ذلك

اما فيما يختص بالاجراءات الاخرى فلا يخفى على حضراتكم ان المؤلف مسافر الى اوربا من شهر يونيو عقب تاليف الوزارة مباشرة ولم يعد بعد ، فلا يمكن ان اتخذ من الآن اجراءات في غيابه ، وعلى كل حال فاني اعد ببحث المسالة . . .

فرفعت الجلسة .

ثم اعيدت .

الرئيس [1] ترفع الجلسة للاستراحة . فرفعت الجلسة ثم اعيدت .

(۱) هو رجل الامة العظيم ونابغة الشرق كله ونادرة الفلك صاحب الدولة سعد باشا زغلول.

خطبة الاستاذ القاياتي

الشيخ القاياتي : سادتي النواب ، كان بودي ان تمر بنا ميزانيـة الجامعة فنتقبلها هاتفين مصفقين ، لانها ميزانية امنية طالما تمنيناها ، وغاية كثيرا ما رجوناها ، لاننا نعتقد ان وجود جامعة مصرية انما هو طريق الى الفلاح المرجو ، والى الحرية المطلوبة ، والى الاستقلال الحقيقي المنشود ، ولكن الله تعالى أراد — او أن غير الله ممن يجرءون على ما لا يجوز لهم ان يجرءوا عليه ارادوا — ان تمر علينا هذه الميزانية ونحن نئن من الالم ، ونتضجر من الحزن ، ونبكي من المصيبة التي كنا نرجو ان تكون نعمة كبرى .

انا لا اريد ان اتكلم عن الجامعة باعتبار ادارتها ، ولا باعتبار مـا يدرس فيها ، ولا باعتبار كفاية مدرسيها وموظفيها بعد الذي ادلى به حضرات الاعضاء المحترمين من البيانات في هذا الشان ، ولكن الذي اريد الكلام فيه من غير إطالة هو موضوع كتاب « في الشعر الجاهلي » الذي الفه الدكتور طه حسين وهو ابن الجامعة البكر الذي كانت تنفـق عليه من مال الامة وما كان يظن ابدا ان يقابل هذا الاحسان بالعقوق الى درجة ان يضربها بضرب دين الاسلام دين الاغلبية .

ذكر حضرة النائب الاستاذ عبد الخالق عطية ملاحظات كثيرة عن هذا الكتاب وعن وقعه على الامة ، وتاثيره في قارئيه وسامعيه ، حتى لقد قال بحق : « انه اثار فتنة او كاد » . والحق ان يقال انه ما كان من المظنون ان يوجد بين المسلمين في مصر من يجرؤ على الدين الى هذا الحد الذي بلغه الشيخ طـه حسين .

قبائح متعددة : ما بين تكذيب لصحيح التاريخ وتكذيب لنصوص القرآن ، ونسبة التحايل الى الله والى النبي محمد والى موسى عليه السلام .

وقبل ان اتعرض لسرد ما جاء في هذا الكتاب او سرد شيء منه ، اريد ان اظهر لكم شدة اندهاشي مما نقله معالي وزير المعارف عن حضرة مدير الجامعة ، من ان هذا الكتاب لم يلق على الطلبة ، يعني ان الدكتور طه حسين لم يلق على طلبته ما جاء في هذا الكتاب . اندهشنا من هذا القول لان المؤلف نفسه صرح في مقدمة كتابه انه القاه على الطلبة ، ولست ادري كيف يمكن ان يكون حقا ما قيل من انه لم يلقه على طلبته بعد ان يقرر هو بنفسه بانه القاه عليهم .

اصوات : ماذا قال ؟

الشيخ القاياتي : قال في مقدمة الكتاب : « هذا نحو من البحث في تاريخ الشعر العربي لم يألفه الناس عندنا من قبل ، واكاد اثق بان فريقا منهم سيلقونه ساخطين عليه ، وبأن فريقا آخر سيزورون عنه ازورارا ، ولكني على سخط أولئك وازورار هؤلاء ، اريد ان اذيع هذا البحث ، او بعبارة اصح ، اريد ان اقيده ، فقد اذعته قبل اليوم حين تحدثت به الى طلابي في الجامعة ، وليس سرا ما تتحدث به الى اكثر من مائتي شخص » .

هذا قول المؤلف في مقدمة الكتاب ، ولست افهم كيف يقال بعد ذلك إنه لم يلق هذا الكتاب على طلبة الجامعة ، وأن يترتب على ذلك ما رتبته الجامعة من منع استاذ ان يرد عليه في الجامعة بعد أن سمحت له بذلك ، بعلة ان الكتاب لم يلق على الطلبه حتى يرد عليه في نفس الجامعة .

لقد جاء هذا في هذا الكتاب تكذيب صريح للقرآن، ونسبة صريحة للنبي عليه الصلاة والسلام بانه متحايل وكذب صريح على التاريخ ؛ لا يجوز ابدا أن نهمل ولا ان نترك صاحبه دون تدقيق معه في البحث ويكون حسابنا معه عسيرا . إنني اعرف انه من الكرم والمروءة ان يعفو الإنسان عمن اساء إليه : ولكن من الظلم والتهجم على المصلحة ان يعفو الإنسان عمن اساء الى غيره ، او عمن طعن في وطنه او دينه « تصفيق » .

إن الدولة اعلنت في دستورها انها دولة إسلامية ، وإن دولة إسلامية لا تحافظ على دينها من أن يمس ولا على كرامتها أن تجرح لهى دولة أعوذ بالله ان تكون مصر من امثالها !

لقد بلغت الدرجة بالدكتور طه حسين ان يذكر في كتابه ان حادثة إبراهيم واسماعيل ــ التي نص الكتاب العزيز عليها ــ حادثة لا يعول عليها التاريخ ولا يمكن التسليم بها ، وإنما هي حادثة ارجعها المسلمون لسبب مخصوص هو سبب سياسي أكثر منه دينيـا .

وقد جاء في كتابه بالصفحة ٢٦ ما يأتي :

« للتوراة ان تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل ؛ وللقرآن ان يحدثنا عنهما ايضاً ، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي » .

معنى هذا ان دعوى الله ان شيئا حصل لا ينهض دليلا على ان هذا الشيء حصل ؛ والله يعلم ان هذا يساوي في قوله إن الله كذاب فيما قال !

ثم جاء الصفحة المذكورة :

« ... فضلا عن إثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة إسماعيل بن إبراهيم الى مكة ونشاة العرب المستعربة فيها . ونحن مضطرون الى أن نرى في هذه القصة نوعا من الحيلة في إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة ، والقرآن والتوراة من جهة أخرى ؛ واقدم عصر يمكن أن تكون قد نشأت فيه هذه الفكرة إنما هو هذا العصر الذي اخذ اليهود يستوطنون فيه شمال البلاد العربية ويبثون فيه المستعمرات ، فنحن نعلم أن حروباً عنيفة شبت بين هؤلاء اليهود المستعمرين وبين العرب الذين كانوا يقيمون في هذه البلاد وانتهت بشيء من المسالمة والملاينة ونوع من المحالفة والمهادنة ؛ فليس ببعيد أن يكون هذا الصلح الذي استقر عليه الراي بين المغيرين

واصحاب البلاد منشأ هذه القصة التي تجعل العرب واليهود ابناء أعمام ، لا سيما وقد رأى أولئك وهؤلاء أن بين الفريقين شيئاً من التشابه غير قليل ، فأولئك وهؤلاء ساميون » .

وقد جاء بالصحيفة ٢٧ ما يأتي :

« وقد كانت قريش مستعدة كل الاستعداد لقبول مثل هذه الاسطورة في القرن السابع للمسيح » .

كلمة « الاسطورة » يا حضرات الزمـلاء لا تقـال إلا للخرافات او الترهات ، فالقول بان هذه القصة التي وردت في كتاب الله العزيز خرافة ، يعنى أن الله يخرف ونحن نؤمن بتخريفه « مقاطعة » .

انا والله لا اريد التشنيع ، ولكنني اريد ان اذكر حقيقة ، اريد ان اقول لاقو م لا يرون رأينا ويدعون أن البحث امر واجب وحر وانه لا يجوز لنا أن نقيد حرية الناس في آرائهم — أقول لهم إننا لا نقيد حريتهم في عقائدهم ، ولكننا نقيد آراء تلقن أولادنا وتشاع على أفراد الأمة ما بين متعلم وغير متعلم ، ولا بد أن يكون ذلك داعية الضلال والفسوق ، فإذا لم اطل بينكم الليلة في سرد النصوص الواردة في هذا الكتاب وذكر العبارات الشنيعة التي لا تدل إلا على زندقة ، فلأنني لا اريد إدخال الحزن علي قلوبكم ، ولأني لا أود أن ارى دموعكم تسيل جزعا على دينكـم وشرف دولتكـم .

إننا لا نتكلم في هذا إلا بباعث المحافظة على الدين ، وليس ذلك بالأمر الذي يهم المسلم دون غيره ، فإن كرامة الأديان على السواء يجب أن تكون محفوظة .

إنني لا اسمح ولا اقبل ان يطعن احد في دين المسيح عليه السـلام ولا اقبل ان يطعن في دين موسى عليه السلام ، بالنسبة التي لا يرضى بها

احد ان يطعن على دين محمد عليه السلام ؛ فإن حرمات الاديان يجب ان تكون موفورة .

إنني لا اخشى ان يقال إننا نتكلم متعصبين تعصبا دينيا ، لانه إذا كان التعصب الديني هو المحافظة على كرامة الاديان جميعاً فإنني أول المتعصبين .

كنت اود بعد ان قرأت لكم كلمات المؤلف ان اقرأ لكم كلمات الله فيما كذبه المؤلف ، ولكني لا أظن انكم في حاجة الى ذلك .

نريد ان نثبت في تاريخ عملنا اننا لا نقبل ابداً أن يتهور متهور على الدين تهوراً يحط كرامته وكرامة الدولة ، فإن الطعن في دين الدولة طعن في الدولة ، هو طعن في كل فرد من افرادها . لا نرضى أن يسجل علينا التاريخ انه قد فتح بيننا هذا الباب ، ونشر بيننا هذا الكتاب ، وقامت عليه الضجة التي قامت ، ثم يمر علينا كما يمر السحاب دون ان ينل المسيء جزاء إساءته ؛ لا اريد ان يقال : طعن في الدين وشهّر به ومر الامر على مجلس النواب وخرج الطاعن نظيفاً شريفاً بدون جزاء !

إن الرحمة واجبة ، ولكن ليس في الدين ؛ وقد اوجب الدين ان يرجم بعض من يرتكب الجرم ؛ فما بالكم فيمن يدعى ان الله كاذب ، وان النبي كاذب وان المؤمنين جاهلون لا يفرقون بين الحق والباطل ؟

ولا يجوز ان يكتفى مطلقا بان المؤلف صرح في الصحف انه مسلم ؛ وإني الفت نظركم الى ان الدكتور المؤلف لم تسمح له نفسه — مع ان الموقف كان شديداً والإلحاح عليه كثيرا — ان يكتب كلمة يشرح بها ما قال وأن يؤوله بمعنى يفهم منه خلاف ما فهمناه .

إذا كان قد ارتد بكتابه ثم رجع الى الإسلام بعد ذلك فهو مسلم ، ولكن التوبة لا تغفر الذنب ولا تعفي من العقوبة ؛ وقد كنت اريد ان اقترح اقتراحا خاصاً ولكني اطلعت على اقتراح لحضرة عبد الحميد البنان بك ووافقته عليه .

الرئيس : تلا اقتراح حضرة عبد الحميد البنان بك ونصه :

« اقترح على المجلس الموقر تكليف الحكومة :

اولا ـ مصادرة وإعدام كتاب طه حسين المسمى « في الشعر الجاهلي » بمناسبة ما جاء فيه من تكذيب القرآن الكريم ، واتخاذ ما يلزم لاسترداد المبلغ المدفوع إليه من الجامعة ثمنا لهذا الكتاب .

ثانيا ـ تكليف النيابة العمومية رفع الدعوى العمومية على طه حسين مؤلف هذا الكتاب لطعنه على الدين الإسلامي دين الدولة .

ثالثا ـ إلغاء وظيفته من الجامعة وذلك بتقرير عدم الموافقة على الاعتماد المخصص لها » .

ثم تلى اقتراح حضرة محمود لطيف بك وهذا نصه :

« اقترح بعد البيانات التي سمعها المجلس الموقر عن كتاب « في الشعر الجاهلي » أن يقرر المجلس رغبته الى الوزارة في معاقبة مؤلف هذا الكتاب الذي أهان في مؤلفه الشرائع السماوية والأنبياء ، وأهان فيه دين الدولة الرسمي ، وأن تتخذ الوزارة ما يحفظ المعاهد العلمية من أن تكون مقاما لمثل هذا التهجم ، مع اتخاذ اللازم لاعدام النسخ الموجودة من هذا الكتاب » .

الرئيس : هل يريد مقدم الاقتراح الاول أن يؤخذ الرأي على اقتراحه فقرة فقرة ؟

عبد الحميد البنان افندي : نعم .

محمود وهبة القاضي بك : اذكر ان الشيخ طه حسين كتب في الجرائد انه مؤمن بالله ونبيه وكتبه ورسله واليوم الآخر « ضجة » .

معنى هذا اني ممتنع عن الكلام ما دمتم غير راغبين فيه .

بيان رئيس الحكومة(*)

رئيس مجلس الوزراء : أريد أن أقول كلمة في هذا الموضوع ، فقد ذكر معالي وزير المعارف العمومية أن هذا الكتاب طبع ونشر في عهد الوزارة السابقة ؛ وحين تشكلت هذه الوزارة وجدت برئاسة مجلس الوزراء خطابا من حضرة صاحب الفضيلة شيخ الجامع الازهر يطلب فيه من الحكومة أن تتخذ اجراءات خاصة في موضوع هذا الكتاب ، واذكر منها رفع الدعوى الجنائية على المؤلف ؛ فطلبت من وزير المعارف بحث هذا الموضوع ، فبحثه وكتب لي خطابا بين فيه نتيجة بحثه باشتراك مدير الجامعة وما راى اتخاذه من التدابير اللازمة لمنع تكرار وقوع مثل هذا العمل في المستقبل . وقد وافقته على ما ارتآه وكتبت لفضيلة شيخ الازهر بما قرره وزير المعارف ووافقته عليه ، من حبس الكتاب ، أي منع انتشاره ، وبأن المؤلف قد اعتذر بما بينه معالي وزير المعارف ، واخبرت فضيلته ايضا بما اعتزمته الحكومة من اتخاذ التدابير لمنع تكرار وقوع مثل هذا العمل من اي استاذ بالجامعة ؛ فموافقتي على ما قرره وزير المعارف يعتبر عملا حكوميا صدر من رئيس وزارة مسؤول عنه . واني افهم ان يظهر المجلس استياءه من الكتاب ، او ان يترك لوزير المعارف الحرية في اتخاذ اجراءات علاوة على ما اتخذ من قبل ، اما ان يقرر المجلس قرارا يخالف ما اتخذته الوزارة من الاجراءات ، او ان يلزمها بالقيام بعمل معين زيادة على ما عملته وبما وعد به وزير المعارف ، فيكون هذا انتقادا لاجراءاتها في هذا الموضوع ويعرضها للمسؤولية الوزارية .

الرئيس : لم افهم القصد من هذا القول ، فهل تريد الا يتخذ المجلس قرارا ؟

رئيس مجلس الوزراء : الاقتراح المعروض الآن يعتبر في نظري انتقادا للوزارة ويعرضها لمسالة الثقة .

(*) قلت : هو المرحوم عدلي يكن باشا .

الرئيس : تريد اذن طرح مسئلة الثقة بالوزارة .

رئيس مجلس الوزراء : نعم .

الرئيس : حضرة صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء يرى انه اذا قرر المجلس قرارا يخالف ما اتخذه من الاجراءات فان ذلك يدعو الى طرح الثقة بالوزارة .

رئيس مجلس الوزراء : قلت انه اذا قرر المجلس قرارا ما يخالف الاجراءات التي اتخذت وما وعد به وزير المعارف العمومية ، فان ذلك يدل على عدم ثقة المجلس بالوزارة .

وزير المعارف : قلت ان مؤلف هذا الكتاب غير موجود بمصر ، ووعدت انه عند حضوره ابحث المسألة واسأله فيها . وبعد ذلك يتخذ ما يتراءى من الاجراءات ونعرض كل ذلك على المجلس .

الرئيس : ولكن المجلس ينظر الآن في الغاء وظيفة .

رئيس مجلس الوزراء : لا شك ان من حق المجلس الغاء اية وظيفة شاء وهذا لا اعارض فيه مطلقا .

انت اذن تعارض في احالة المؤلف على النيابة ؟

رئيس مجلس الوزراء : اعتبر ان في تكليفنا بذلك عدم ارتياح لما قمنا به من الاجراءات ، وهذا يدعوني . . .

الرئيس : يعني ان الوزارة لا تود تكليف النيابة بالتحقيق ؟

وزير المعارف العمومية : لا تعارض الوزارة في ذلك بعد سؤاله ؛ واذا تبين لها ان هناك جريمة ؟

الرئيس : يعني أن الوزارة تعد بتكليف النيابة بالتحقيق اذا اتضح لها بعد سؤال المؤلف أن هناك جريمة ؟

رئيس مجلس الوزراء : قلت اننا اتخذنا ما يجب اتخاذه من الاجراءات .

الرئيس : ولكن للمجلس الحق في ابداء رغبات .

رئيس مجلس الوزراء : اذا كان الغرض ابداء رغبة فهذا شيء آخر ؛ اما تكليف الحكومة امرا فلا يعد ابداء رغبة من المجلس .

الرئيس : يجوز للمجلس ان يكلف الحكومة باشياء بما له عليها من حق الرقابة الداخلة في اختصاصه ؛ فهل تابى الحكومة ذلك ؟ فاذا كنتم تعدوننا بقبول ذلك فهذا حسن ، والا فان ذلك يكون اساسا لمبدإ جديد يلزم بحثه .

رئيس مجلس الوزراء : هذه المسالة من اختصاص السلطة التنفيذية ، وللمجلس الحق في ابداء رغبات بخصوصها ، فتبحث الحكومة هذه الرغبات لترى اذا كان من الممكن تنفيذها ام لا ، فاذا تأكد للحكومة ان هناك جريمة امكن معاقبته .

الرئيس : هل حضراتكم موافقون على الرغبات التي تليت عليكم ؛ اعني المصادرة وتكليف النيابة العمومية برفع الدعوى والغاء الوظيفة .

محمود لطيف بك : ان الاقتراح الذي قدمته برغبة يوفق بين راي المجلس والوزارة .

الرئيس : هناك اقتراح برغبة ، فاما ان ترفضوه او تقبلوه .

فكري اباظة بك : ان في نصوص هذه الرغبة متناقضات ، مثلا : انه غير ممكن مصادرة الكتاب الا بحكم .

الرئيس : قيل ان ادارة الجامعة اشترت هذا الكتاب وحبسته لتمنع بذلك تداوله ؛ فهل يكتفي حضرة مقدم الاقتراح بذلك ام يريد اعدامه ؟ .

عبد الحميد البنان افندي : اريد اعدامه .

الرئيس : هل تمانع وزارة المعارف في اعدام هذا الكتاب ؟

وزير المعارف : ان وزارة المعارف لا تمانع في ذلك .

الرئيس : بقيت النقطة الثانية ، وهي تكليف النيابة العمومية باقامة الدعوى ضد المؤلف ؛ فهل ترى الحكومة ــ اذا وافق المجلس على ابداء هذه الرغبة ــ في ذلك اعتداء على اختصاصها ؟

عبد الخالق عطية افندي : ارى ان المسألة تتعلق بالصيغة اكثر منها بالموضوع ، لانه ربما يتبادر الى الذهن ان المقصود بلفظة « تكليف » الزام النيابة برفع الدعوى العمومية ، فلذلك اقترح ان تستبدل بكلمة « تبليغ » كلمة « تكليف » .

الرئيس : اذا استبدلت كلمة « تكليف » المذكورة بالاقتراح بكلمة « تبليغ » فهل لدى الحكومة ما يمنعها من تنفيذ هذه الرغبة اذا وافق المجلس على ابدائها ؟

رئيس مجلس الوزراء : لقد تصرفت الحكومة في هذا الموضوع بما راته مناسبا ؛ فتكليف المجلس اياها بأن تقوم بأكثر مما فعلت يفيد أن ما اتخذته من الاجراءات لم يكن كافيا ؛ وارى لهذا انه يجب عليّ أن أعارض في ذلك !

الرئيس : لا يمكننا ان نقبل هذا مطلقا ، لان للمجلس اختصاصات وحقوقا ؛ فله ان يبدي رغبات ، ويطلب طلبات ، فاذا لم تستطع الحكومة تنفيذها وجب عليها أن تبين له اسباب ذلك ؛ اما اذا رأت الحكومة انه ليس للمجلس مبدئيا ان يكلفها او يدعوها الى العمل ، فاننا لا نقبل ذلك ولا يمكنني ان ارأس هذا المجلس اذا لم يكن ذلك من اختصاصه « تصفيق حاد » .

لقد ابدى المجلس فيما مضى رغبات اهم من هذه بكثير ، فلم تعترض على تنفيذها ، وبصفتي رئيس مجلس النواب لا يمكنني ان اقبل ما تقوله الحكومة ، من انه ليس من اختصاص المجلس أن يبدي رغبة كهذه ، خصوصا وانها ترمي الى اعطاء القضاء ما هو من حقوق القضاء !

رئيس مجلس الوزراء : لا تقول الحكومة انه ليس من اختصاص المجلس ابداء رغبات ، ولكنها تقول انها تصرفت في الموضوع ، فاذا وافق المجلس على هذه الرغبة فكانه يقول ان ما قامت به الحكومة لم يكن كافيا .

الرئيس : اذا كانت موافقة المجلس على ابداء هذه الرغبة تفيد ان تصرف الحكومة في هذه المسألة لم يكن كافيا فان له هذا الحق .

رئيس مجلس الوزراء : للمجلس الحق الا ان هذا يعتبر اعتراضا على تصرف الحكومة .

الرئيس : انه اعتراض بلا شك ، ولكن اذا رأى المجلس أن هذا الاعتراض في محله فما رأي الحكومة في ذلك ؟

فكري اباظة بك :

حضرات الزملاء المحترمين ! اشار حضرة صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء الى تصرفات الحكومة في هذا الموضوع اجمالا ، ولكننا لم نطلع على تفاصيل هذه الاجراءات ، فمع تمسكنا بما لنا من حق ابداء رغبات ، يهمنا أن نطلع على تفاصيل ما قامت به من التصرفات حتى يمكننا أن نحكم عليها ، ولكن بما ان الفرصة لا تسمح لنا ولا تمكنا من ان نحكم فيها اذا كانت هذه التصرفات كافية ام لا ، فلذلك اقترح تأجيل النظر في هذا الموضوع حتى نطلع على التفاصيل التي اشرت اليها .

الرئيس : ان الحكومة لم تبين لنا هذه التفاصيل ، ولكنها تقول ان مطالبة المجلس اياها بالقيام بغير ما قامت به يعتبر اعتراضا على تصرفاتها، حقيقة ان طلب المجلس يعتبر اعتراضا ولكنه في محله !

فكري اباظة بك : يمكنها استيفاء الموضوع في فترة التأجيل .

الرئيس : ان الموضوع مستوفى .

وزير الحقانية : يظهر لي ان المسألة تكاد تكون من اختصاص وزير الحقانيـة .

يريد المجلس الموقر ان يبدي رغبة بتقديم مؤلف كتاب « الشعر الجاهلي » الى المحاكمة .

وتقول الحكومة انها تصرفت في هذه المسألة بطريقة مخصوصة قبل ان تثار في المجلس ويقول معالي وزير المعارف ان هذه المسألة محل نظر الوزارة وانها ستتخذ فيها ما تراه من الاجراءات ؛ فهل هناك فارق بين رغبة المجلس وما وعد به معالي وزير المعارف ؟ لا اظن ان هناك فارقا للمجلس ان يبدي رغبة بتبليغ النيابة العمومية لاقامة الدعوى ضد الكتاب ، ولمعالي وزير المعارف أن ينظر في هذه الرغبة ويتصرف فيها بما رآه ، واظن ان هذا أليق بكرامة المجلس ، لانه وهو الهيئة التشريعية اذا أمر برفع الدعوى العمومية وجاء الحكم فيها مخالفا لرأيه فيكون معنى هذا ان رأي المجلس لم يكن في محله ، اما اذا تركت المسألة للحكومة ورأت ان تقيم الدعوى العمومية ثم صدر الحكم ببراءة المؤلف فلا يؤاخذ المجلس بشيء وتتحمل الوزارة وحدها مسؤولية تصرفها .

الرئيس : يجوز ان يكون تبليغ النيابة من ضمن الاجراءات التي تتخذها الوزارة في هذه المسألة ، وتبليغ النيابة هذا لا علاقة له بالحكم في الدعوى .

وزير الحقانية : الذي فهمته ان الاقتراح يومىء الى تكليف النيابة برفع الدعوى العمومية .

الرئيس : ستستبدل كلمة « تبليغ » بكلمة « تكليف » ، واظن ان تبليغ النيابة عن جريمة ارتكبت حق واجب على كل فرد .

وزير الحقانية : لا نزاع في ذلك .

عبد الحميد البنان افندي : اوافق على أن تستبدل بكلمة « تبليغ » كلمة « تكليف » .

وزير الحقانية : يمكنني أن اقول ان سبب عدم تبليغ النيابة ربما كان مبنيا على ان كتاب « الشعر الجاهلي » مكروه من الاصل ، وكان من الواجب احتقاره وعدم اذاعته بين الجمهور ؛ ولما كان التبليغ يقتضي نشر الكتاب في الجرائد واذاعته بين افراد الامة ، رات الوزارة أن لا تبلغ النيابة ؛ استهانة بما احتواه الكتاب وتحقيرا لشانه !

فاذا راى المجلس مع ذلك ضرورة لتبليغ النيابة فلا مانع من أن يبدي هذه الرغبة ، على أن تكون من ضمن الاجراءات التي تتخذها الحكومة .

الرئيس : تقدم اقتراح برغبة ؟

عبد الحميد البنان افندي : لا مانع عندي من ان تكون هذه الرغبة ضمن ما تتخذه الوزارة من الاجراءات .

الرئيس : هل يعد معالي وزير المعارف بذلك ؛ لان هناك جريمة ارتكبت ويريد المجلس التبليغ عنها ؟

وزير الحقانية : اننا نقدر رغبات المجلس حق قدرها ، ولم يبدِ المجلس اي رغبة الا نفذتها الحكومة ؛ فلماذا يطلب من معالي وزير المعارف أن يعد من الآن ؟

الرئيس : ما الداعي لهذه المعارضة الشديدة ؟ المسألة في غاية البساطة ، وهي : هل توافق الحكومة على تنفيذ هذه الرغبة ام لا ؟

عبد الحميد البنان افندي : اعدل اقتراحي بان يضع معالي وزير المعارف هذه المسألة موضع البحث حتى اذا راى . . .

وزير المعارف : اوافق على هذا التعديل .

الرئيس : لقد تم الاقتراح ومن حق المجلس ان يصدر قرارا بخصوصه ؛ فهل يوافق معالي وزير المعارف على تبليغه النيابة ؟

وزير المعارف : اني موافق على تعديل حضرة عبد الحميد البنان افندي .

الرئيس : التعديل هو ان يقوم معالي وزير المعارف بتبليغ النيابة ؛ فهل تعد بذلك ؟

الدكتور احمد ماهر : ارجو ان ترفع الجلسة للاستراحة .

الرئيس : ترفع الجلسة للاستراحة عشر دقائق .

كلمة جريدة الاهرام الغراء

الوزارة تعرض مسالة الثقة

رشدي باشا وعدلي باشا في بيت الامة ليلا

تفاصيل المسالة ــ تسويتها

عرضت امس واول من امس على مجلس النواب ميزانية الجامعة ومن اسبوعين مضيا انتشرت في الجو اشاعات مختلفة عن الجامعة ، فان روح التذمر والاستياء التي بدت بين النواب من تصرفات وزير المعارف السابق في شؤون وزارة المعارف تناولت تصرفاته في أمر الجامعة أيضا وهي تصرفات اجتمعت الكلمة على انها خرقت القانون في كثير من المسائل الهامة ، بل قامت على اساس من الفوضى التي لم تراع فيه للقانون حرمة ..

ومنذ ذلك الحين راجت اشاعات شتى ، فقيل أن هناك فكرة ترمى الى الغاء قانون الجامعة وترك كل مدرسة عالية او كلية قائمة مستقلة ، مع ابقاء كليتي الآداب والعلوم كل كلية منهما على حدة الى ان يتيسر انشاء جامعة بالمعنى الصحيح على اساس متين منظم ، راجت غير ذلك من الاشاعات ، ورأينا مدير الجامعة الاستاذ احمد لطفي السيد بك يتردد على بيت الامة عدة مرات قابل فيها دولة الرئيس الجليل سعد باشا زغلول للدفاع عن الجامعة او عن مصير الجامعة .

ومن المسائل التي ثارت حولها الاشاعات ايضا مسألة كتاب « الشعر الجاهلي » الذي اخرجه الدكتور طه حسين الاستاذ بالجامعة واستنكر العلماء وغير العلماء بعض ما احتواه من العبارات الماسة بالدين ، فان كثيرين من النواب يستنكرون بقاء الدكتور طه استاذا بالجامعة بعد ان اجتمعت كلمة العلماء على خروجه على الدين . وكان صاحب الفضيلة النائب المحترم الشيخ مصطفى القاياتي قد اعلن عزمه على استجواب رئيس الوزارة في هذا الشأن . ثم بذلت مساع حثيثة لحمله على العدول عن الاستجواب ، ثم ابدل الاستجواب بسؤال نشرناه منذ ايام على ان يكون الرد عليه كتابة .

ولم يرد رئيس الوزراء على السؤال واشيع ان كثيرين من النواب سيعرضون مسألة الدكتور طه حسين على المجلس اثناء بحث الميزانيـة وقيل ان بعضهم سيطلب الغاء وظيفته ، فبذل اصدقاء الدكتور طـه حسين مساعي حثيثة للوصول الى اقناع الذين ينوون المطالبة بالغـاء الوظيفة بالعدول عـن ذلك ، على ان يكتفى في المجلس باستنكار عمل الاستاذ طـه .

وحدث امس ان ثارت المناقشة في مجلس النواب في شـان كتاب « الشعر الجاهلي » ومؤلفه ، والقيت الخطب مما يراه القراء بنصـه في محضر جلسة المجلس المنشورة في غير هذا المكان .

وقدم النائب المحترم عبد الحميد البنان افندي نائب الجمالية اقتراحا من ثلاثة اقســـام :

١ ـ ابادة كتاب الشعر الجاهلي .

٢ ـ احالة الدكتور طه حسين الى النيابة .

٣ ـ الغاء وظيفته .

وقد سلم معالي وزير المعارف بالقسم الاول من الاقتراح ، وتكلم دولة عدلي باشا رئيس الوزراء عن القســـم الثاني ، وجرت بينــه وبين دولة الرئيس الجليل مناقشة اشترك فيها وزير المعارف والحقانية ، انتهت بأن ذكر عدلي باشا ان قرار المجلس بإحالة المؤلف الى النيابة يكون بمثابة اعتراض على تصرفات الحكومة وذكر مسألة الثقة بالوزارة !

وكان الامر قد أبلغ الى دولة باشا (*) فترك مجلس الشيوخ مسرعا الى مجلس النواب .

وكان جو المجلس مملوءا كهرباء ، فاقترح النائب المحترم الدكتور احمد ماهر رفع الجلسة عشر دقائق للاستراحة ، ولما رفعت ذهب الرئيس الجليل الى مكتبه بمجلس النواب وتبعه اليه عدلي باشا ورشدي باشا وبقيا معه عشر دقائق .

وكان دولة الرئيس الجليل سعد باشـــا متعباً فاستقل سيارته الى داره .

واتفق بعض النواب على تأجيل الجلسة الى غد ، لان الساعة كانت قد أوشكت على العاشرة تقريباً ، وليكون هناك متسع من الوقت لتسوية المســألة .

واعيد الجلسة في الساعة العاشرة وثلث برئاسة حضرة صاحب

(*) قلت : كان رحمه الله وقتئذ رئيسا لمجلس الشيوخ .

السعادة مصطفى النحاس باشا ، فطلب أعضاء كثيرون التأجيل لتأخر الوقت ، فأجلت .

وعلى اثر ذلك ذهب حضرة صاحب المعالي فتح الله بركات باشا الى رشدي باشا الى بيت الامة ، كما قصد إليه صاحبا المعالي فتح الله بركات باشا ومحمد محمود باشا ، وتكلم عدلي باشا في ظروف الحادث ، وذكر انه قام على سوء تفاهم ، فإنه لم يقصد تحدي المجلس في سلطته . وظل عدلي باشا ورشدي باشا في بيت الامة الى ما قبل منتصف الليل بثلثي ساعة . وبعد انصرافهما سألنا بعض الوزراء عن النتيجة فقالوا لنا « إن الحادث سوّى وانتهى وأصبح كأنه لم يكن » .

وعلى اثر ذلك ذهب حضرة صاحب المعالي فتح الله بركات باشا الى النادي السعدي ، حيث كان بعض اصحاب المعالي الوزراء وبقى هناك نحو نصف ساعة مع كثيرين من أعضاء مجلسي النواب والشيوخ يتسامرون .

ولا شك انه كان مما يؤسف له كثيراً ان ينتهي الدور البرلماني الحاضر بخلاف يقوم حول مسألة كمسألة أمس بعد ان سار مجلس النواب والوزارة في مختلف شؤن الدولة الخطيرة بتمام الاتفاق والوئام ، وان تثير الحكومة مسألة الثقة بسبب كتاب سلمت — إذ اقرت مصادرته وقبلت إبادته — بضرر ما فيه ، كتاب نعرف أن الاغلبية العظمى من الامة — وفي مقدمتهم العلماء والمتعلمون — لا ترضى عنه ولا عن مؤلفه .

جلسة يوم الثلاثاء

الرئيس : ننتقل الى استئناف النظر في ميزانية الجامعة .

عبد الحميد البنان افندي : قدمت اليوم بلاغا الى النيابة العمومية للتحقيق مع الدكتور طه حسين فيما كتبه طعنا على الدين الاسلامي ؛ وبناء على ذلك لم يبق محل للقسم الثاني من اقتراحي الذي قدمته امس في هذه المسألة ؛ وبما ان مصادرة الكتاب لا يمكن ان تكون الا بحكم ، وهذا تابع بطبيعة الحال للقضية المطلوب تحقيقها ، فانه لم يبق محل للقسم الاول

ايضا في اقتراحي ؛ واما فيما يختص بالقسم الثالث فاني اكتفي بتصريح دولة رئيس الوزراء ومعالي وزير المعارف بالنظر في هذه المسألة وبحثها بما تستحقه من العناية .

وبناء على كل هذا قد سحبت اقتراحي .

الرئيس : وهو كذلك .

نقول : وتسلمت النيابة الدكتور طه حسين ، وتم طبع هذا الكتاب وهو معلق بعد في ميزانها اما الى واما الى .....(*)

(*) قلت : واتمت النيابة التحقيق وحفظت القضية ، وكان كتاب الحفظ وما تضمنه من اسباب ، بابا من ابواب الادب في معارضة كتاب الدكتور طه حسين بك لم يزن يذكره قراؤه .

المصدر : تحت راية القرآن ، المعركة بين القديم والجديد ، الطبعة الاولى : المكتبة الاهلية بمصر ١٩٢٦ ، الفصل الاخير من الكتاب .

الدعوة الى الالحاد بالتشكيك في الدين

كتاب (في الشعر الجاهلي)

ظهر بمصر في اواخر السنة الماضية كتاب بهذا الاسم من وضع الدكتور طه حسين مدرس الآداب في (الجامعة المصرية) واحد اركان جمعية دعاية الالحاد بمصر ، بنى بحثه فيه على منهج للبحث في الآداب وغيرها غريب هو أن يبنى على الشك في كل ما روي عن المتقدمين او تكذيبه وأن اجمعوا عليه ، وعلى التجرد من الدين والجنسية والوطنية ، وجميع الروابط القومية والملية . وهو بناء على هذه القاعدة يطعن فيما ثبت بنص القرآن المجيد وفي جميع ما صح عند علماء الملة الاسلامية من الروايات الدينية والتاريخية والادبية ، دع ما ليس له اسانيد تصل الى درجة الصحة كتواريخ سائر الامم ومروياتها . حتى انه تجرأ على التصريح بتكذيب القرآن المجيد فيما أثبته من بناء ابراهيم واسماعيل لبيت الله الحرام بمكة المكرمة ، وشكك في آيات أخرى وفي أحاديث وروايات كثيرة من صدقه فيها من تلاميذ الجامعة او غيرهم من الدهماء ينبذ الدين وراء ظهره ويمشي عاريا مجردا من الوازع النفسي الذي ينهى عن الفواحش والمنكرات ، فيستحل جميع ما قدر عليه من اموال الناس وأعراضهم اذا عنت له وامن العقاب عليها في الدنيا . وحينئذ يكون كالدكتور طه حسين في فلسفته واحكامه التي كان منها عد افسق الفساق في التاريخ كابي نواس من كبار المصلحين ، ونشر اخبار فسقه في صحيفة السياسة وفيه من ترغيب الناس فيها .

ان قاعدة الدكتور طه حسين التي جرى عليها في كتابه هذا وفي غيره هي أن الفلسفة العليا التي يتوقف عليها وصول الانسان الى العلم الصحيح

في الآداب والتاريخ وغير ذلك هي ان يكذب الله ورسله وافضل البشر بعد الرسل كالخلفاء الراشدين وائمة العلم والدين ، او يشكك في أقوالهم على الاقل ، ويأخذ بالقبول والتسليم مافيه طعن في الاسلام ، وفي سلفه الصالح وكبار أئمته وان لم يقله الا بعض فساق المسلمين ومن لا ثقة بصدقه منهم ومن غيرهم ، ثم ماذا ؟

ثم يستبدل بها نظريات بل ضلالات اخترعتها مخيلات ملاحدة الافرنج وكذا دعاة النصرانية الذين تعلموا وربوا على الطعن في الاسلام وجعل مدار معيشتهم من جمعياتهم الدينية على تشكيك المسلمين بدينهم ان لم يقدروا على تحويلهم عنه وجعلهم اعداء له . ويزين ذلك بخلابة اللفظ وشقشقة اللسان والقلم ، وسفسطة الجدل ، ولماذا ؟

لاجل ان تنحل روابطهم الملية ، وتزول عقيدتهم الدينية ، وتفسد ملكاتهم الادبية ، فيقبلوا بارتياح ان يكونوا تابعين لدول الاستعمار الاجنبية ، فان لم تكن هذه اللام لام العلة والغاية ، فلابد أن تكون لام الصيرورة والعاقبة .

إن موضوعات هذا الكتاب هي من دروس للدكتور طه الادبية التي يلقيها على تلاميذ الجامعة المصرية لاجل أن ينسلخوا من الاسلام الذي صار قديما رثا باليا في نظره !! ويصيروا امة جديد لا يدينون بدين ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ؛ ولا يأبون الخنوع لكل حاكم وان كان أجنبيا .

وكذلك فعل صديقه واحد اركان جمعيته الشيخ علي عبد الرازق في كتابه « الاسلام واصول الحكم » فارضيا بذلك دول الاستعمار ودعاة النصرانية فاثنيا على هذا اجل الثناء كما اثنيا على ذاك . وكانا عندهم محل الرجاء .

ظهر هذا الكتاب وانا في مكة المكرمة فرايت في الجرائد خبره وقيام رجال العلم والدين بالرد عليه والطعن فيه ومطالبة الحكومة بمصادرته

ومنع قراءته ورأيت فيه ان الحكومة (عاقبته) بشراء نسخ جميع الكتاب منه دفعة واحدة بدلا من ان يبيعها هو في عدة سنين — وحفظها لدى وزارة المعارف — ولا ندري لماذا ؟

ولما رجعت الى مصر لم يتح لي الحصول على نسخة منه وانما اطلعت امس على نسخة منه استعرتها ساعة واحدة او اقل من ساعة فتصفحت فيها اهم صحائفه .

ورأيت قبل هذا في الجرائد اضطرابا في مجلس النواب اذ طلب بعض اعضائه عقاب هذا المعتدي على دين الحكومة الرسمي وهو من عمالها واخراجه من المدرسة الجامعة حرصا على عقائد طلبتها وآدابهم ، وكان هذا الاضطراب يؤول الى استقالة الوزارة العدلية لان صاحب الدولة رئيسها ووزير الداخلية فيها رأى انه لا حق لمجلس النواب في مطالبتها بما طالبها فطفق يرد على بعض النواب ، وانبرى صاحب الدولة الرئيس الجليل سعد باشا زغلول رئيس المجلس لمناقشته والدفاع عن حقوق المجلس حتى اعتقد الحاضرون من الجلسة لا تنتهي الا باستقالة الوزارة ، ولما كان اتفاق هذه الوزارة مع المجلس هو قطب الرحى لاتحاد الامة المصرية بعد طول الشقاق اقترح بعض الاعضاء تأجيل الفصل في هذه المسالة الى الجلسة التالية لتلك الجلسة ، وذهب في تلك الليلة كل من صاحبي الدولة رئيس الوزارة ورئيس مجلس الشيوخ حسين رشدي باشا الى بيت الامة فسمرا مع دولة سعد باشا سمرا طويلا انتهى بالاتفاق على قبول ما صرحت به الحكومة في مسالة الدكتور طه حسين وهو انها تعمل ما يجب عليها وان يطلب بعض النواب من النيابة العامة اقامة الدعوى على الدكتور طه حسين — وهكذا كان .

طلب بعض النواب محاكمة الدكتور طه حسين فطلبته النيابة العامة للتحقيق معه ، وعين جماعة من كبار علماء الجامع الازهر لمناقشته ومناقشة وكلائه في القضية ، وقد ظهر من ضعف هؤلاء العلماء في المناقشة ما كان مدعاة الامتعاض والاسى من أهل الدين والتقوى ، وقال بعض الملاحدة

ان علماء الازهر ارادوا ان يثبتوا كفر الدكتور طه حسين فاثبت هو كفرهم !!

ليست هذه القضية قضية فرد اسمه طه حسين يشك ويشكك في الدين فقط — بل هي اعظم من ذلك — ولا هي قضية استاذ في مدرسة الجامعة المصرية اعطي حقا رسميا في افساد عقائد الطلبة في المدرسة الجامعة الرسمية وتجريدهم من دينهم — وان هذا لعظيم جدا جدا جدا — ولكن وراءه ماهو أعظم منه وهو الذي يفقهه أهل الفقه في مصر وفي أوربة وسائر العالم وبه كانت القضية اعظم واكبر شأنا من قضية فرد اشتهر بعدم التدين وبالصد عن الدين ، واعظم وأكبر شأنا من كونها قضية أستاذ في الجامعة المصرية اعطى حقا رسميا من الحكومة يبث رأيه على زيغه — اي بأفساد عقائد الطلبة .

بماذا كانت هذه القضية اعظم من هذا الامر الذي اعترفنا بانه عظيم جدا جدا جدا ؟

يذكر قراء المنار اننا كتبنا في احدى المقالات التي استنكرنا فيهاجريمة كتاب الشيخ علي عبد الرازق ان احد اذكياء الاسرائيليين في مصر صرح في محفل ادبي بان قضيته هي قضية التنازع بين مدرسة الجامعة الازهرية الدينية ومدرسة الجامعة المصرية اللا دينية ، او التنازع بين الدين والالحاد في البلاد المصرية ، ولعلهم يذكرون أيضا ان الشيخ علي عبد الرازق هدد خصومه في بعض المقالات التي نشرها في جريدة السياسة وأنذرهم الخيبة والفشل في مقاومته ومحاكمة الازهر له ، ثم ظهر أن وزير الحقانية ورئيس الحزب الحر الدستور يعارض في محاكمة هيئة كبار علماء الازهر له بحسب قانون الازهر ، ولما اصر رئيس الوزارة في ذلك الوقت (يحيى ابراهيم باشا) على وجوب محاكمته وعضده أكثر اعضائها استقال وزير الحقانية هو وسائر الوزراء الذين من حزبه الحر الدستوري كما هو مشهور ولم ينسه الجمهور .

وهذا الدكتور طه حسين قد جعل كتابه الجديد هدية الى صاحب الدولة عبد الخالق باشا ثروت وزير الخارجية في الوزارة الحاضرة واحد الاركان المؤسسين للحزب الحر الدستوري وصدره باسمه ، وفهم الكثيرون ان رئيس الوزارة صاحب الدولة عدلي باشا قد ناضل مجلس النواب واشتدت الملاحة بينه وبين صاحب الدولة سعد باشا رئيس المجلس لاجله حتى كاد يسمح بترك الوزارة في هذه السبيل .

ومما يعلمه الجمهور مع هذا ان جريدة السياسة التي هي لسان الحزب الرسمي هي اللسان غير الرسمي لهؤلاء الذين يطعنون في الاسلام ويحاولون هدم دعائمه الدينية واللغوية والادبية كالشيخ علي عبد الرازق والدكتور طه حسين وغيرهما ، وهنالك جريدة اخرى اسبوعية تمت الى هذا الحزب بسبب ، وهي تهزأ بالدين ورجاله في كل عدد ولو بغير سبب.

ومما يعلمون مع هذا ان الملاحدة والزنادقة قد كثروا في مصر ، وانهم صاروا يجاهرون بالدعوة الى الالحاد ، والى تقليد زعماء الترك في المروق منه والتفصي من جميع مقوماته ، والانسلاخ من جميع مشخصاته ، وتقليد ملاحدة الفرنج وابلحيهم دون أهل الدين منهم الذين يبذلون الملايين في تأييد دينهم ونشر دعوته في العالم ، ومن هؤلاء الملاحدة أصحاب المناصب العالية والذاتية .

فمن فكر في هذه المقدمات كلها يعلم ان قضية الدكتور طه حسين هي قضية التنازع بين دين الاسلام والجهر بالالحاد الصريح كما كانت قضيه الشيخ علي عبد الرازق كذلك — وقد صرح بهذا فيهما بعض كتاب الجرائد الاوربية في مصر وفي أوربة نفسها ، فلذا برىء الدكتور طه حسين منها تعد تبرئته في عرف الشرق والغرب انتصارا للكفر على الايمان ، وللالحاد على الاسلام ، وثارا للملاحدة من المسلمين ، وشبهة في حزب الاحرار الدستوريين ، تجرىء سائر الملاحدة على الطعن في الدين وانه لم يبق بين اتباع الحكومة المرية خطوات الحكومة التركية الحاضرة الا قليل .... ولا أقول اكثر من هذا ولا حاجة الى قول يعرفه جماهير المفكرين من شرقيين وغربيين ، لا بين المصريين وحدهم .

ولن يمكنني مع هذا ان اقول ان الحزب الحر الدستوري في جملته مغبون ومظلوم في جعل جريدة السياسة لسان حاله في كل ما تنشره خارجا عن الخطة السياسية الوطنية للحزب كالحملة على الدين ورجاله ودعوتها الى تجديد الامة المصرية بثقافة جديدة تحل روابط الثقافة الاسلامية وتحل محلها ، فاننا نعرف من اعضائه المسلمين الصادقين الصائمين ، بل ربما كان في اعضائه من يكره كثيرا مما نشرته في سبيل سياسة الحزب ايضا . او قول ايضا ان ما اشرت اليه من سبب نضال صاحب الدولة عدلي باشا لمجلس النواب هو المعقول دون ما قيل وما انتشر من كون المراد به الدفاع عن طه حسين وكتابه . واقول ثالثا ان صاحب الدولة ثروت باشا لا يعقل ان يكون قد استشير في تصدير كتاب (في الشعر الجاهلي) باسمه ، او انه رضي بذلك على علم بما في الكتاب .

ثم اقول رابعاً إن النيابة العامة اذا قررت عدم محاكمة طه حسين ، وان القضاء اذا براه بعد محاكمته من عقاب الطعن في الدين والتكذيب القرآن وكذا التوراة ، فلا يكون هذا ولا ذاك برهاناً منطقياً ولا قانونياً على تعمد نصر القضاء الكفر على الايمان ، والالحاد على الاسلام ، لان كلا من رجال النيابة والقضاء المشتركين في هذه القضية قد ينظرون ويحكمون بمقتضى الالفاظ التي يقولها الخصوم في مجالس التحقيق والمحاكمة ؛ وقد يغفلون عن كون كلام طه حسين ووكلائه مخالفاً لكل ما فهمه رجال الدين وجماهير المسلمين والغربيين في كتاب الدكتور طه حسين ، وعن كون فهم هؤلاء الجماهير يجب أن يكون له قيمة بل اكبر قيمة في ادانته فان العبرة أو العمدة في اثبات طعنه في الدين واهانته له بما يفهمه جماهير الناس منه ، لا بما يمكن أن يقال في تأويل الكلام والجدال فيه ، وقد فهم العرب والافرنج جميعاً ان الكتاب طعن صريح في القرآن والنبي وسلفه المسلمين الصالحين وائمتهم ، ونكتفي بنشر برقية واحدة مما جاء من اوربة في ذلك :

راي اوربة في قضية الدكتور طه حسين :

لندن في أول نوفمبر — لمراسل الاهرام الخاص — نشرت جريدة « الدايلي تلغراف » اليوم مقالا رئيسياً جاء فيه ما يأتي :

« ليس في العالم دين لا يوجد بين معتنقيه عدد من الهراطقة . فالدكتور طه حسين رجل جسور فلا بد ان ينال جزاءه بالاضطهاد . فمن ينتقد القرآن فهو كافر لأن القرآن منزل بحروفه . وهذا يعني أن الوحي لا يقتصر على ما يقوله القرآن ، بل يشمل ايضاً معنى ذلك القول كما فسره المفسرون القدماء . ثم إن المسلم المتمسك بدينه يود أن يذهب الى أبعد من الايمان بوحي القرآن ويريد من الكتاب أن يكون الحجة الفاصلة في الادب العربي وينكر على كل انسان انه يستطيع الاتيان بمثل لغته العالية . فمن الصعب على العقل الغربي ان يقبل هذا . على أن المؤمنين انفسهم قد يجدون مثل هذه الصعوبة ، فقد سأل اثنان من الصحابة النبي مرة كيف يقرأ آية قرأها كل منهما قراءة مناقضة للاخرى فأجاب ان القرآن انزل عليه بسبع قراءات . ويظهر ان النبي لم يكن هو نفسه يكتب القرآن ، بل انزل عليه بواسطة جبريل ، ثم توقفت هذه البلاغات المكتوبة المرسلة من السماء وجعل النبي يتكلم بصوت الوحي والصحابة يكتبون ما يقول وقد نبه مرة الى احدى الآيات قائلا انها وحي من الشيطان فنسخت .

« ليس في العالم عقيدة يسهل الدفاع عنها اذا شاء الناقدون البارعون تفنيدها امام جمهور يميل الى النقد . ومع ذلك فاذا لم يكن الوحي هو القوة التي جعلت للقرآن ذلك السلطان فما هي تلك القوة ؟ لقد أوجد القرآن احد الاديان العظمى التي يعتنقها الجنس البشري وهو منذ الف سنة من اعظم القوى الموجودة في العالم » ا هـ .

(المنار) اقتصرنا على هذه البرقية لأن صاحب الجريدة الانكليزية زاد على وصف طه حسين بالهرطقة (يعني محاربة الدين) أن أيده في هرطقته بأمور نشير الى تخطئتها بالايجاز ، واشهد للقرآن شهادة معقولة نصفع بها وجوه الملاحدة ودعاتها الذين يحاولون سلب هذه القوة من المسلمين والذين لا يفقهون سر اعجاز القرآن ، فنقول :

(١) إن الكاتب الانكليزي علل كفر من ينتقد القرآن بانه منزل

بحروفه واستنبط من هذا أن تفسير القدماء للقرآن يدخل في معنى الوحي .. ومراده أن من ينتقد تفسير المتقدمين كان كافرا كالذي ينتقد عبارة القرآن المنزلة . يشير الى أن طه حسين قد يضطهد بمخالفته لتفسير قدماء العلماء ! وكأنه يلقنه بذلك نوعاً من اساليب الدفاع .

وجوابه أن هذا خطأ كبير فانه لم يقل أحد من علماء المسلمين وأئمتهم إن تفسير أحد من القدماء له حكم نص القرآن نفسه ، وكثيراً ما نرى متأخري المفسرين يخالفون بعض المتقدمين في تفاسيرهم حتى مفسري الصحابة منهم .. نعم ان اجماع أهل الصدر الاول من الصحابة والتابعين على تفسير آية معتبر من أدلة الشرع الواجب اتباعها ، ولكن مخالفه لا يعد كافراً الا اذا كان أمرا معلوما من الدين بالضرورة وكان المخالف غير حديث عهد الاسلام — أو كان قد علم به وكذبه أو جحده . فالمدار في التكفير على اعتقاد المخالف أن هذا من قطعيات الدين المنصوصة في القرآن ومخالفته أو جحوده مع ذلك .

(٢) قال : ان المتمسك بدينه يود أن يذهب الى أبعد من الايمان بوحي القرآن الخ وجوابه أن كل من قرأ القرآن أو سمعه من أهل المعرفة الصحيحة باللغة العربية والذوق السليم في آدابها من المسلمين وغير المسلمين كانوا — وما زالوا — يؤمنون بما ذكر الكاتب الانكليزي من خصائص المسلم المتمسك بدينه وهو أن القرآن « هو الحجة الفاصلة في الادب العربي ، وأنه لم يستطع ولن يستطيع أحد الاتيان بمثل لغته العالية » . ولا نسلم للكاتب قوله إن العقل الغربي يصعب عليه أن يقبل هذا فضلا عن قوله ان المؤمنين انفسهم قد يجدون هذه الصعوبة . وذلك أن العقل الغربي السليم لا يمكن أن يحكم في أمر لا يعرفه وهو ليس محالا لذاته .

من المنصوص في القرآن والمعروف بالتواتر الاجماعي من تاريخ الاسلام أن النبي (ص) قد تحدى عرب قريش وهم أفصح العرب لغة ثم تحدى سائر الخلق بالاتيان بمثل القرآن أو بسورة من مثله ، وجعل هذا آيته

الكبرى على كونه وحياً من الله وصرح بأنهم لن يستطيعوا ذلك فقال حاكياً عن الله تعالى (ولن تفعلوا) فلو قدر احد من الكافرين به وكان اكثرهم كافرين أن يأتوا بسورة من مثله لأتوا بها لابطال دعوته والاستراحة من تمادي القبائل بمقاتلته ، ولكن ظهر عجزهم وعجز جميع الخلق عن الاتيان بسورة من مثله في بلاغته وهم عن الاتيان بمثله في هدايته اعجز ، فهذا النوع من اعجازه قد اعترف به الكاتب الانكليزي وغيره من الغربيين . ولكنه امترى في اعجازه ببلاغته لانه لا يعرف لغته فهذا العجز حجة للمسلمين الذين يعرفون البلاغة العربية والذين يجهلونها من الاعاجم وعوام العرب على اعجاز القرآن وصدق وعد الله عز وجل ، وهي حجة واقعية قطعية لا يمكن المراء والجدل فيها ، ولا مجال هنا للزيادة على هذا وقد بسطناه في مواضع من التفسير وغير التفسير .

(٣) زعمه أن اثنين من الصحابة (رض) سألا النبي (ص) مرة « كيف يقرأ آية قرأها كل منهما قراءة مناقضة للاخرى فأجاب ان القرآن نزل عليه بسبع قراءات » .

هذا النقل او الزعم باطل ، وله اصل حرفه أو لم يفهمه الناقل ، كداب خصوم الاسلام فيما ينقلون عنه . ونحن نذكر اصله الصحيح ، ليعلم من يريد العلم الحق كيف يكون الاختلاف والتحريف .

اقول أولا إن قراءة القرآن بالسبعة الأحرف وردت في حديث مستقل غير حديث اختلاف بعض الصحابة في القراءة فقد روى أحمد والبخاري ومسلم من حديث ابن عباس (رض) أن رسول الله (ص) قال « اقراني جبريل على حرف فلم ازل استزيده ويزيد لي حتى انتهى الى سبعة احرف » وفي بعض الروايات أن النبي (ص) قال له « هون على أمتي — و : ان أمتي لا تطيق ذلك » كما في صحيح مسلم من حديث أبي بن كعب، وهذه علة منصوصة في سبب تعدد القراءات تنافي أن تكون لتصحيح ما اختلف فيه بعض الصحابة .

ثم اقول ان الاختلاف وقع بين عمر بن الخطاب وحكيم بن هشام

(رضي الله عنهما) في بعض آيات سورة الفرقان كما في الصحيحين وكل منهما ادعى أن النبي (ص) اقراه كما قرأ فجلببه عمر بردائه واخذه الى النبي (ص) وقص عليه ما سمعه منه مخالفاً لما اقرأه (ص) فصدق كلا منهما بانه هو الذي اقرأه كما قرأ وقال « ان هذا القرآن انزل على سبعة احرف فاقرأوا ما تيسر منه » ووقع مثل ذلك لغيرهما . ولم يذكر احد من الرواة ما اختلف فيه عمر وهشام ، فمن أين اخذ هذا الانكليزي قوله ان قراءة كل منهما كانت مناقضة للاخرى ؟ هذا اذا كان قد عبر بما يدل على المناقضة المعروفة في اللغة العربية أو اصطلاح علماء المناظرة عندنا . فاما اذا كان تعبيره بمعنى المخالفة التي تصدق باللفظية بحيث لا ينقض معنى كل قراءة معنى الاخرى فيكون كلامه صحيحا . وفي الفرقان الفاظ كثيرة اختلف القراء في قراءتها منها المتواتر الذي يعد قرآناً ، ومنها غيره وهو لا يعد قرآناً ، فالاول كقراءة (ويجعل لك قصوراً) بضم لام يجعل وبجزمها ، وقراءة ضيقا من قوله تعالى (واذا القوا منها مكانا ضيقا) بتخفيف الياء وبتشديدها ، وأمثال ذلك مما لا يتناقض معناه .

(٤) قوله : ويظهر أن النبي لم يكن هو نفسه يكتب القرآن » الخ وهذا لا يحتاج الى استنباط منه او استظهار فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم امياً — وأميته من دلائل نبوته — لا يكتب شيئاً وانما كان يكتب له اصحابه كل ما يوحى به اليه ويحفظونه ويقرءونه كما يقرأه صلى الله عليه وسلم في الصلوات الخمس وفي خارجها كل يوم . والذين اختلفوا من الصحابة في بعض الالفاظ من سورتي الفرقان والنحل سمعه بعضهم من بعض في الصلاة .

(٥) قوله عن النبي صلّى الله عليه وسلم « انه نبه مرة الى احدى الآيات قائلا انها وحي من الشيطان فنسخت » غير صحيح ، وهذه هي المسألة المعروفة بمسألة الغرانيق وقد كتب شيخنا الاستاذ الامام مقالا مسهبا في تحقيق الحق فيها يراجعه من شاء في المجلد الرابع من المنار او في ملحقات تفسير الفاتحة المطبوع مراراً .

(٦) قوله « ليس في العالم عقيدة يسهل الدفاع عنها » الخ هذا نفي مطلق لايجزم به عقل منطقي ، فالدفاع عن وجود الله ووحدانيته وحكمته من اسهل الامور وقد جزم بها اكثر البشر من جميع الملل والنحل والمنكرون لها على قلتهم لم يسمعوا براهينها من اهل العلم الصحيح ، ومن سمع ذلك وماري فيه فشانه كشان السوفسطائية الذين انكروا الحسيات وماروا فيها فلا يعتد بانكارهم اذ مقتضاه انه لا يثبت في العالم شيء ، وهذا جهل ما وراءه جهل .

واما شهادة الكاتب الانكليزي التى حمله استقلال عقله على التصريح بها فهي أن سلطان القرآن الروحي الذي حدث به ذلك الانقلاب العظيم في البشر وأوجد احد الاديان العظمى فيهم وهو منذ الف سنة ونيف « من اعظم القوى الموجودة في العالم » — اذا لم يكن هذا السلطان وهذه القوة قوة الوحي الالهي وسلطانه فاي شيء هما ؟ وهذا بمعنى ما قلناه وكتبناه مرارا وهو ان اعجاز القرآن بهدايته ، اعظم من اعجازه ببلاغته : وقد صرح بمعناه غير هذا الكاتب من حكماء الغرب .

إننا نكتفي في هذه المقالة بل العجالة بتنبيه الاذهان لخطر هذا الكتاب وامثاله من مكتوبات الدكتور طه حسين واخوانه دعاة الالحاد وأوليائهم وندع الرد على قضايا كتابه في الشعر الجاهلي او الادب الجهلي الى الذين وجدوا من فراغ الوقت ما شغلوه بالرد على قضاياه الباطلة وشبهاته العاطلة . ووجه الخطر انه دعوة الى الكفر والالحاد وتحقير الدين والصد عنه ولا سيما في نابتة المدارس العليا وغيرهم ونحن ما زلنا نذكر الامة بخطر هؤلاء وضررهم منذ بلغنا انهم الفوا جمعية للتعاون على افساد الدين في مصر ، وكان أول من بلغنا هذا الخبر بعد وقوفه عليه المرحوم الشيخ محمد مهدي احد أساتذة البلاغة والدين في دار العلوم ثم في مدرسة القضاء الشرعي التي صار وكيلا لها . ثم بلغنا في العام الماضي أن لهم أو لبعضهم صلة خفية بجمعية يهودية في مصر الجديدة تساعدهم على سعيهم هذا . والله اعلم .

ولا شك عندنا في ان هذا الافساد هو افعل اسباب ما يتفاقم خطبه

في بلادنا هذه من تهتك النساء والشبان واستباحة الاعراض وانحلال روابط البيوت وذهاب الصحة والثروة ، وكذا الاستعداد لقبول تعاليم البلشفية وغيرها من بدع الافرنج التي لا تقوى بنية دولتنا ولا بنية أمتنا الاجتماعية والعلمية بدون الدين على ما تقوى عليه من احتمالها بني دول اوربة وشعوبها بعلومها ونظمها وقوتها العسكرية .

(فان قيل) ان الدكتور طه حسين قد صرح حين اتهم بهذه التهمة بانه يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله (قلنا) ان مثل هذا التصريح المجمل المبهم في مقام دفع التهمة لا يسلب منا لغتنا ولا عقولنا فتغير فهمنا لكتابه وغيره من مكتوباته ومقالاته .

أهكذا يكتب المؤمنون ؟ يضعون كلام الله المنزل موضع الشك بل ينظمونه في سلك الاساطير الخرافية ثم ينقضونه بنظريات مخترعة لبعض اعداء الاسلام ؟ الايمان بكتب الله هو التصديق اليقيني بكل ما انزله الله تعالى فيها مع الاذعان النفسي والعملي له ، فكيف يصدر عن صاحب هذا الايمان ما ذكرناه وما لم نذكر من تشكيك في القرآن فتكذيب مقرون بالهزؤ ؟ فترجيح لمطاعن اعدائه فيه على نصوصه .

الايمان بالرسول (ص) هو تصديقه اليقيني القطعي في كل ما جاء به عن الله تعالى مع الاذعان النفسي والعملي لذلك وهو يقتضي تعظيمه وتوقيره وتعزيزه أي نصره وتفخيمه . وتقديم حكمه على كل حكم ، واننا نرى له في هذا الكتاب ما نرى من التكذيب والهزؤ ، ونراه اذا ذكر النبي الذي يدعي ملتــه فانما يذكره كما يذكره الكافرون به بلا تعظيم ولا صـــلاة ولا سلام عليه ؟

قد كان يمكن لطه حسين أن يذكر شبهات أعداء الاسلام على بناء ابراهيم واسماعيل لبيت الله تعالى (مثلا) بطريق الحكاية عنهم ، وكان من مقتضى الايمان ان يقفي عليها بالرد ، أو يجري فيها على قاعدته (التشكيك) على الاقل ، او يقول هـــذه نظريات مردودة عندنا معشر

المسلمين – او عند المسلمين – اذا لم يشأ أن يعد نفسه منهم – بنص القرآن الصريح الذي وصف في بعض سوره بانه (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد) ولكنني لم أر فيما قرأت من الكتاب جملة تدل على ان كاتبه مسلم او يدين بدين ، وساعود ان شاء الله تعالى الى النظر فيه ، فان وجدت شيئاً من ذلك اثبته له .

وصفوة القول فيه انه لو لم يكن قاصداً متعمداً متوخياً تجريد تلاميذه من دينهم ووطنيتهم ، لادخر هذه الفلسفة لنفسه دونهم ، وأن شاء ربى عليها اولاده الذين سماهم بأسماء الافرنج دون اسماء المسلمين ، عداوة لهذه اللغة وهذا الدين .

المصدر : مجلة المنار جـ٨ م٢٧ نوفمبر ١٩٢٦

ملاحظـة : محرر المنـار هو الشيخ رشيد رضا .

كتاب في الشعر الجاهلي

دعاية الى الالحاد والزندقة

وطعن في الاسلام

تمهيـد :

اتيح لي النظر ثانية في هذا الكتاب وقرأت الكثير من كتبه وفصوله في فرص متفرقة ــ فحكمت بقراءتها حكما تفصيليا لا شك فيه بمثل ما أجملته في مقالتي الاولى ، بعد تلك النظرة العجلى ، حكمت بأن الدكتور طه حسين ما ألف هذا الكتاب لتحقيق ما يمكن الوصول اليه من الشعر الجاهلي يقينا او ظنا أو شكا ، بل ألفه لاجل الطعن في الاسلام ، والصد عن سبيل الايمان، والدعوة الى الزندقة والالحاد ، هذا هو المقصد ، والشعر الجاهلي والادب العربي وسيلة اليه .

وقد كنت أردت أن أقرأه كله واحصي ما فيه من المطاعن وابـين بطلانها ، ثم رأيت أن خلس الفراغ من أيام الجمع لا تمكنني من ذلك الا في عدة أشهر ، فرجعت الى رأيي الاول وهو ترك الرد التفصيلي للذين صنفوا والذين لا يزالون يصنفون كتبا خاصة في ذلك يعني كل منهم برد نوع من اباطيل الكتاب وصاحبه أو برد عدة أنواع منها كما فعل (مصطفى صادق أفندي الرافعي) و (محمد فريد أفندي وجدي) ، فان هذا قد بـين أغلاطه وجهله من الوجهة العلمية والتاريخية : دون ضلالته الدينية ، وكأنه رآه مفيدا من هذه الوجهة بهدمه للاسلام المعروف عند اكثر المسلمين لعله يكون وسيلة وتمهيدا للاسلام الصحيح ، اسلام القرآن الكريم اذ كان كتب مقالات في جريدة الاخبار ارتأى فيها ان المسلمين لا يمكن ان يكونوا

مسلمين كما يجد الا اذا تركوا الاسلام المعروف عندهم وارتدوا عنه معتقدين بطلانه ، ثم دعوا الى الاسلام الآخر . وقد حفظت هذه المقالات عندي لابين ما فيها من خطأ وصواب عند سنوح الفرصة .

وانني ابدأ الآن ببيان خطة الدكتور في دعايته الالحادية وما مهد لها به في كتابه الجديد (في الشعر الجاهلي) من الدعاوى والقواعد الخادعة مع تفنيدها وبيان ما فيها من التعارض والتناقض ، ثم اقفي على ذلك ببيان أهم مطاعنه في الدين الالهي وفيما ختمه الله وأكمله به ببعثه خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم .

الفصل الأول

المقاصد والاصول والمقدمات التي جرى عليها الدكتور طه حسين

في طعنه في الاسلام ودعوته الى الالحاد

(١) ان الدكتور طه حسين قد اخذ على عاتقه ان يحارب دين الاسلام والامة الاسلامية بالطعن فيهما وصرف الناس عنهما الى الزندقة والاباحة . ذلك شأنه في مصنفاته من (ذكرى أبي العلاء) الى (في الشعر الجاهلي) وفي مقالاته التي نشرها في جريدة السياسة تحت عنوان (حديث الاربعاء) الى مقاله الاخير (العلم والدين) وهي خطة قد ابتدعها بعض اليهود في أوربة لافساد دين النصرانية على أهله ، ويقال ان لبعض اعضاء جمعية الالحاد والزندقة هنا صلة ببعض الجمعيات اليهودية .

(٥) (*) أن من أساليب الدكتور طه حسين المعروفة في كل ما كتبه انه يخترع مسائل يجعلها من قبيل القضايا المسلمة بما يزينها به من خلابة القول ، ثم يستدل بها ، أو يورد عليها بعض الشبهات ويرد عليها دفاعا عنها ، وهذا كثير في كتابه هذا وسنذكر أمثلته عند بيان بطلانه .

(*) هكذا يتسلسل الترقيم في المجلة م. خ. •

(٦) أن من اساليبه انه يشكك في المسائل الثابتة بضروب من خلابة المغالطة او السفسطة ، ويزين هذا التشكيك لقارىء كلامه ويحاول حمله على قبوله بدعوى أن الشك في كل شيء هو الطريق اللاحب الموصل للعلم الحق والفلسفة الصحيحة والتجديد ، فيجب على طالب الحقيقة ان يقبله ولو على سبيل الفرض بأن يفرض أن ما يؤمن به ايمانا يقينيا هو باطل لا حقيقة له ، لاجل أن يكون سالكا للمنهج الذي زعم ان الذي نهجه وأشرعه للناس هو الفيلسوف (ديكارت) للبحث عن حقائق الاشياء ، وهو تجرد الباحث من كل شيء كان يعلمه من قبل (ص ١١) أو ليلذذ عقله بالشك والقلق والاضطراب (ص ٥) أو ليتمتع بلذة قبول كل جديد ونبذ كل قديم ولا سيما اذا كان اسلاميا . فيكون من المجددين الذين يكونون أشد شكا في القديم أو « أشد ما يملكهم الشك حين يجدون من القدماء ثقة واطمئنانا » (ص ٥) يعني أن جل لذتهم وغبطتهم في هدم ما بناه المتقدمون .

(٢) انه قد بين في التمهيد من كتابه هذا المذهب الذي يجري عليه هو واخوانه المجددون للالحاد والاباحة وزينه بقوله (ص ٢) « أريد أن لا تقبل شيئا مما قال القدماء في الادب وتاريخه الا بعد بحث وتثبت أن لم ينتهيا الى اليقين فقد ينتهيان الى الرجحان » .

(٣) انه ذكر الفرق بين هذا المذهب ومذهب القدماء بزعمه فقال : « والفرق بين المذهبين في البحث عظيم فهو الفرق بين الايمان الذي يبعث على الاطمئنان والرضاء ، والشك الذي يبعث على القلق والاضطراب ، وينتهي في كثير من الاحيان الى الانكار والجحود » اهـ

ثم وصف هؤلاء المجددين وثمرة مذهبهم بقوله (ص ٦) « والنتائج اللازمة لهذا المذهب الذي يذهبه المجددون عظيمة جليلة الخطر ، فهي الى الثورة الادبية اقرب منها الى شيء آخر . وحسبك انهم يشكون فيما كان الناس يرونه يقينيا ، وقد يجحدون ما اجمع الناس على انه حق لا شك فيه » اهـ

ثم وصفهم بما هو ابعد في الصراحة مدى من ذلك وهو قوله « وهم قد ينتهون الى الشك في اشياء لم يكن يباح الشك فيها » .

(٤) انه فصل اجمال هذا المذهب بما اوجبه على هذه الطائفة بقوله « نعم . يجب حين نستقبل البحث عن الادب العربي وتاريخه أن ننسى قوميتنا وكل مشخصاتها ، وأن ننسى ديننا وكل من يتصل بـه ، وأن ننسى كل ما يضاد هذه القومية وما يضاد هذا الدين . يجب أن لا نتقيد بشيء ولا نذعن لشيء الا مناهج البحث العلمي الصحيح ، ذلك اننا اذا لم ننس قوميتنا وديننا وما يتصل بهما فسنضطر الى المحاباة وارضـاء العواطف ، وسنغل عقولنا بما يخالف هذه القومية وهذا الدين ، وهل فعل القدماء غير هذا ؟ وهل افسد علم القدماء غير هذا ؟ » اه بحروفه .

(٧) من مناهج الدكتور طه حسين في مباحثـه العلمية والادبيـة ، ومقاصده الالحادية الاباحية ، انه يعمد الى شيء من الباطل كالخرافـات او الروايات التي لا تصح فيقرن به شيئا من الحق المشابه له ليوهم المطلع على كلامه ان حكمهما واحد . ثم انه يجعل الباطل هو الحق الذي لا مرية فيه ولا مراء ، اذا كان مشككا في الاسلام او مزريا به وصادا عنه ، كمـا جمع بين خرافات الجاهلية في الجن وتلقينهم الشعر للشعراء ، وبين ما ثبت في الكتاب والسنة من وجود الجن وايمان بعضهم وكفر بعض — ليوهم المسلمين أن هذا من ذاك ، كل منهما خرافات .

(٨) من منطق الدكتور طه حسين في البحث والاستدلال انه يجعل بعض جزئيات الاخبار التي توافق هواه قواعد كلية ، وحججا علمية ، لا يتسرب اليها شيء من الشك الذي فرضه في كل كلام قديم حتى الكـلام القديم الازلي وهو كلام الله تعالى — وان لم ترو بسند صحيح، ولم تمحص بنقد ولم تثبت بدليل ، كزعمه أن سعد بن عبادة قد قتله المسلمون قتلا لما زعم من ذنوبه وادعوا ان الجن قتلته ، وسياتي بيان ما فيه من الكذب المتعمد ، فكيف اذا كانت تلك الجزئيات ماخوذة بالتسليم ، ومن هذا انه جعل وقائع الاحوال في العصبية القومية بين العرب اصلا يحمل عليه ما

ليس منه حتى ادخل في عمومه المهاجرين والانصار الذين ألف الله بين قلوبهم بالاسلام فاصبحوا بنعمته اخوانا كما يشهد لهم القرآن والتاريخ الصحيح الثابت بالتواتر .

(٩) من منهج الدكتور طه أنه يأخذ كلام بعض أعداء الاسلام في الطعن فيه بالقبول ، ولا يجري فيه على قاعدته في رد كلام المتهم بعداوة أو عصبية ـ ولا بقاعدة (باكون) التي ادعى انه لا يحيد عنها في مباحثه ، فقد رأيناه ينتحل بعض كلام دعاة النصرانية الذين جعلت جمعياتهم الدينية رزقهم ومادة معيشتهم وتكريمهم الطعن في الاسلام ودعوة أهله الى تركه ، من حيث يطعن في روايات ائمة المحدثين الذين يتقربون الى الله تعالى بتمحيص الروايات مهما يكن موضوعها حتى أن بعضهم صحح بعض ما بعد طعنا في الاسلام أو يغري بالطعن فيه . وحكموا بالضعف تارة وبالوضع اخرى على احاديث لا يختلف عاقلان في صحة معناها وتأييدها للاسلام .

(١٠) من سنن الدكتور طه ودأبه أنه يخترع للقضايا والمسائل الصحيحة والمخترعة المفتراة منه عللا باطلة يفتجرها افتجارا للطعن في الاسلام كما علل ما زعمه من اختراعهم للشعر الجاهلي بأنهم كانوا محتاجين الى ذلك لتأييد لغة القرآن وكما علل به انتساب العرب العدنانيين الى اسماعيل بن ابراهيم وما علل به تسمية الاسلام بملة ابراهيم الخ الخ .

الفصل الثاني

(١) تفنيد زعمه انه هو واعوانه طلاب علم يقيني في الشعر الجاهلي :

زعم الدكتور طه حسين او يوهم تلاميذه وقراء كتابه أن الغاية الثمينة النفيسة الغالية التي ينسى هو واخوانه المجددون للالحاد والزندقة قوميتهم ودينهم وما يتصل به من كتاب ربهم وسنة رسوله لاجل الوصول اليها هي تحقيق الحق في الشعر الجاهلي ـ ونحوه من الادب

العربي وتاريخه — فان لم ينتهوا بعد تكذيب كل قديم فيه والبحث الجديد الى اليقين فحسبهم الانتهاء الى الرجحان (ص ٢ و ٣) .

ثم قال ان اول شيء يفجأ به القارىء انه بالحاحه في الشك والحاح الشك عليه اخذ يبحث ويفكر ويتدبر حتى انتهى به ذلك كله « الى شيء الا يكن يقينا فهو قريب من اليقين . ذلك ان الكثرة المطلقة مما نسميه شعرا جاهليا ليست من الجاهلية في شيء ، وانما هي منتحلة مختلقة بعد ظهور الاسلام » ثم صرح بأن المسلمين هم الذين اختلقوا هذا الشعر واخترعوه ، وقد اشرك المفسرين والمحدثين والمتكلمين في هذا الاختلاق والاختراع لانه يريد ان يعتقد تلاميذه ان جميع علماء المسلمين كانوا كذابين افاكين حتى ائمة الدين منهم .

لكنه نقض كل ما كان بناه في هذا الفصل وهو الاول التمهيدي وهدمه في آخره بعد ، بعد ان أطال فيما أراد ان يجعله قاعدةمسلمة في سبب ما قذف به علماء المسلمين من الاختلاق فقال (ص ١٠) .

« فاذا انتهينا من هذه الطرق كلها الى غاية واحدة هي هذه النظرية التي قدمتها فسنجتهد في ان نبحث عما يمكن ان يكون شعرا جاهليا حقا . وانا اعترف منذ الآن بأن هذا البحث عسير كل العسر ، وباني اشك شكا شديدا في انه قد ينتهي بنا الى نتيجة مرضية ، ومع ذلك فسنحاوله » اهـ .

نقصارى فلسفة الدكتور واخوانه دعاة الالحاد انهم يدعون تلاميذ الجامعة المصرية وغيرهم من قراء العربية ان يتجردوا من دينهم وهدايته التي هي مناط سعادة الدنيا والآخرة حسب اصول الايمان ، وان يتجردوا من جنسيتهم ووطنيتهم التي بها يعتزون ويتناصرون ويحافظون على شرف الاستقلال والحرية القومية واباء ذل العبودية — وان يلقوا انفسهم بعد هذا التجرد في تيار من بحر الحيرة والاضطراب في اثبات الشعر الجاهلي يدفعهم شك ويتلقاهم ريب ، ولا ينتهون الى نتيجة مرضية — (اولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) والشك باليقين ، والحيرة والاضطراب بالسكينة والطمانينة (فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين) .

اما والله ان هذا مذهب باطل ، لا يرضاه لنفسه فاضل ، وتجارة لا يختار بضاعتها المزجاة عاقل ، وان هؤلاء المجددين للالحاد والاباحة لا يقصدون هذا الشك ، ولا يتلذذون به وانما يتوخون التشكيك لغيرهم لينتظموا في سلك ملاحدة اوربة الذين نسب اليهم صد اهلها عن النصرانية ، ان لم يكونوا كلهم مستأجرين لذلك من المستعمرين الطامعين ، او من الباشفيين وامثال البلشفيين .

(٢) تصريحه بانهم دعاة كفر وجحود للدين :

وصف الدكتور طه حسين هذا الشك في آخر الصفحة الثانية بانه سينتهي في كثير من الاحيان الى الانكار والجحود ، وقال في وصف اهله مجددي الالحاد (في ص ٦) « وقد يجحدون ما أجمع الناس على انه حق لا شك فيه » أ هـ .

وهذا تصريح منه بانهم يتعمدون الكفر والالحاد والدعوة اليه حتى فيما يعلمون انه حق — وهذا معنى الجحود نفي ما في القلب اثباته ، واثبات ما في القلب نفيه . قال عز وجل (وجحدوا بها واستقينها انفسهم) اقول : ومنه ايضاقوله تعالى خطابا للنبي صلى الله عليه وسلم (فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) والدكتور طه يعرف هذا المعنى ، ويقصد به جحد القرآن وتكذيبه حتى فيما يعلم هو واوليلؤه انه حق ، وليس عند المسلمين اجماع على حق لا شك فيه الا على كتاب الله الذي سبحانه في وصفه (ذلك الكتاب لا ريب فيه) ورسالة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وما تواتر من سننه . فهو يقصد جحود القرآن وما فيه والرسالة والسنن حتى المتواترة — وقد اكد اولادته لهذا المعنى بقوله « وهم قد ينتهون الى الشك في اشياء لم يكن يباح الشك فيها » . واما الشعر الجاهلي وغير الجاهلي فاقواه رواية مظنون ، وماعداه فمشكوك فيه او مردود . فليس فيه شيء اجمعوا على انه لا شك فيه ، ولا انهلايباح الشك فيه .

(٣) بطلان ما علل به ترك الدين والقومية وما يتصل بهما :

جعل الدكتور طه الاصل والقاعدة للبحث عن الادب العربي وتاريخه وجوب نسيان الدين وكل ما يتصل به ، اي من علم وهو الكتاب والسنة ومن عمل وهو العبادات والفضائل والآداب الاسلامية ، وكذلك القومية ومشخصاتها — وعلل ذلك بان عدم تركهما يضطر الباحث الى المحاباة وارضاء العواطف وغل العقل بما يلائم القومية والدين ، وان هذا هو الذي افسد على المتقدمين علمهم دون غيره (ص ١٢) .

نقول في تفنيد هذا الزعم الذي اراد ان يجعله من القضايا المسلمة :

(اولا) ان مسالة الشعر الجاهلي من المسائل النقلية التي لا يمكن اليقين فيها إلا بالنقل المتواتر ، فاذا كان هذا لم يحصل فيما مضى فلن يحصل الآن ولا في المستقبل لان موضوعه الزمن الماضي ، واذ كان اليقين فيه متعذرا بقي الظن ، وما دونه من شك ووهم وطريقة علماء الاسلام المتقدمين في ترجيح بعض الروايات على بعض فيه وفي كل منقول ان ينظر في حال الرواة من حيث الصدق والامانة وجودة الحفظ واضدادها ، وعدم معارضة الرواي غير الثقة للثقات — والثقة لمن فوقه في العدالة — ومما يشترطونه في عدالة الراوي الا يكون متعصبا لرأي او مذهب وداعية له . وان لا يروي عمن علم انه لم يلقه ، وان يكون السند الصحيح متصلا بالعدول ، خاليا من العلل والشذوذ .

هذا ما يرونه من جهة التثبت من الرواة — واما مروياتهم فيشترط فيها ان تكون ممكنة في نفسها فاذا كانت مشتملة على ما يقوم الدليل على امتناعه لم يعتدوا بها الخ ، وبهذه الشروط ردوا كثيرا من روايات الاحاديث واخبار التواريخ ، ورموا كثيرا من الرواة بالضعف والوهم والكذب وتعمد الوضع .

واجدر الناس بالتثبيت والصدق في ذلك ودقة النقد علماء الدين من المحدثين وغيرهم لانهم يدينون الله بتحري الصدق ويؤمنون ايمانا

قطعيا بأن الله يعاقبهم في الآخرة على الكذب واتباع الهوى . فالايمان هو الذي جعل عملهم أصح العلم ، ورواياتهم اجدر روايات الامم واحقها بالتمحيص ، وقبول الصحيح منها ورد الضعيف . وقد اعترف لهم بهذه المزية المنصفون من علماء اوربة .

فاذا كان هؤلاء قد قصروا في نقد ما روي من الشعر الجاهلي بمثل دقتهم في نقد رواية الحديث فما على الدكتور طه ان صدق في زعمه انه يقصد الوصول في رواية الشعر الجاهلي الى شيء قريب من اليقين الا ان يتبع خطتهم ويسير على منهاجهم ، ومنه أن يدين الله بالتزام الصدق والامانة ، والاجتناب الكذب والخيانة ، اهتداء بقوله تعالى (انما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون) ـ الآيـة ـ وبقول رسوله (ص) في حديث الصحيحين وغيرهما « آية المنافق ثلاث : اذا حدث كذب ، واذا وعد اخلف ، واذا ائتمن خان » فهذا النهج الاسلامي اصح واسلم واقرب الى الامكان من قاعدة باكون كما فهمها الدكتور طه ، وهي ان ينسى الانسان جنسه ودينه وما يتصل بذلك لاجل البحث عن امر لا مطمع في الوصول الى الحق اليقين فيه ، ولا يعقل ان نقول ذلك العالم الرياضي مثل هذا في تحقيق مسائل نقلية عن الامم الخالية .

(ثانيا) أن نسيان الجنس ومشخصاته ان كان ممكنا فان نسيان الدين ليس بممكن ، فكيف يأمر به ويوجبه على الناس ـ ورب الناس لم يكلفهم ما ليس في طاقتهم كما قال تعالى (لا يكلف الله نفسا الا وسعها) نعم انه يعني بنسيانه تركه وهو لازمه وقد استعمل فيه حتى في القرآن فهو يدعو الى ترك الدين قطعا ، وانما السبيل الى تركه الارتياب فيه ، فهو لذلك يشكك فيه .

(ثالثا) ان الدكتور طه يعلم أن الدين مبني على الايمان ، والايمان هو التصديق اليقيني المقترن بالاذعان ، ويعلم انه ليس من الممكن تركه بمجرد امر آمر لانه هو الحاكم على العقل والوجدان ، وانما غرضه بهذا اقناع تلاميذه المقلدين ، الذين لم يصلوا في الدين الى علم اليقين ، ان

الايمان والعلم بالحقائق ضدان لا يجتمعان ، ليصدهم بهذا عن الايمان والاسلام ، ويوهمهم انهم بهذا دون سواه يمكن ان يكونوا فلاسفة مجددين واحرارا اباحيين .

(رابعا) نقلت الصحف ان الدكتور طه لما شعر بامكان مؤاخذاته على افساد عقائد طلبة الجامعة المصرية والطعن في دين الامة والدولة ، كتب كتابا الى رئيسه مدير الجامعة المصرية قال فيه انه يؤمن بالله وملائكته وكتبه واليوم الآخر ـ ورغب اليه ان ينشر هذا الكتاب فنشره دفاعا عنه فان كان مؤمنا كما كتب فكل ما في القرآن وكل ما اجمع عليه المسلمون من سنة رسول الله (ص) المتواترة قطعي عنده لا يحتمل الشك ، لان الشك ينافي الايمان بالضرورة العقلية ، وبنص قوله تعالى (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا) وامثاله من كتاب الله تعالى فكيف يتفق هذا مع قاعدته « وجوب الشك في الدين وكل ما يتصل به » الا ان دعواه الايمان ، وتصريحه بالشك في القرآن ضدان لا يجتمعان ، بل نقيضان لا يدخلان في حكم الامكان .

(خامسا) هب ان المؤمن يمكنه أن يشك ، ولكن كيف يعقل من طالب اليقين في الشعر الجاهلي ــ وهو لا سبيل اليه كما صرح به ــ ان يوجب على نفسه ترك اليقين في ايمانه وما يتصل به لطلب ما اعترف بانه يشك شكا شديدا في انه قد ينتهي به نتيجة مرضية منه ؟ ان الصادق في طلب اليقين يطلبه في كل شيء يمكن الوصول اليه فيه ، فما له يرغب عن اليقين في الدين بعد حصوله ؟ ثم يرغب في طلبه في الشعر الجاهلي مع عدم امكانه ، او مع الشك في الوصول الى ما يقرب منه فيه ؟

(سادسا) هب ان في الامكان الانتهاء في معرفة الشعر الجاهلي الى اليقين وهو ما يرجوه الدكتور ــ وحق له الا يرجوه لانه محال وانما يرجى الممكن ــ فهل من المعقول ان نتوسل لهذا اليقين القليل الجدوى ، بترك يقين الايمان الذي يثمر السعادة في الدنيا والعقبى ؟ اليس هذا من الخرق وافن الرأي ، واستبدال الذي هو ادنى بالذي هو خير ؟

(سابعا) هب ان اليقنين متساويان في انفسهما ، وفي ثمرتهما وفائدتهما ، فكيف يتصور تعارضهما في الحصول والثبوت ، وموقف تحصيل المفقود منها على بذل الموجود ، والمعقول المعروف في المنطق ان اليقيني لا ينافي اليقيني ، فلا بد اذن ان يكونا او يكون احدهما غير يقيني ، ومن المعروف من طباع البشر ان النقد خير من النسيئة المساوية له — فكيف اذا كان النقد هو الافضل والانفع ؟

(ثامنا) نذكر الدكتور طه واعضاء حزبه ، وجمعيته الذين يدعون الاسلام والايمان — ومنهم من لا يدعي ذلك — بعرض قاعدتهم : « وجوب نسيان الدين وما يتصل به » على قوله تعالى « قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً (*) قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى » والمراد بالعمى هنا عمى البصيرة لا البصر ، فهل يقول الدكتور طه ان هذه الذكرى لا تتناوله لانه اعمى البصيرة والبصر معا فاذا حشر لا يمكنه ان يقول : وقد كنت بصيرا ؟

كل هذه حجج ناهضة ودلائل بينة على ان الغرض من هذا الكتاب افساد دين طلبة الجامعة ، وكل مستعد للكفر والالحاد من العامة ، لا تحصيل ما يقرب من اليقين في الشعر الجاهلي والادب العربي ، فانه قد صرح بانه يشك شكا شديدا في الوصول الى نتيجة مرضية منه ، وكلها تثبت سوء نيته في الطعن في الاسلام ، واضلاله فيما زعمه من طلب تحقيق مسألة الشعر الجاهلي .

(كتاب الشهاب الراصد)

بعد كتابة ما تقدم وجمعه وقبل طبعه اهدى الينا الاستاذ محمد لطفي جمعه المحامي الشهير كتابه (الشهاب الراصد) وهو بحث تحليلي انتقادي ورد علمي تاريخي على كتاب (في الشعر الجاهلي) وهو كتاب حافل ممتع ابطل به ما ادعاه الدكتور طه حسين من اتباع الفيلسوف ديكارت ، وهدم به ما بناه من قواعد الجهل لاثبات الحق في الشعر الجاهلي كما زعم ، وسنعود الى تقريظه بعد ان نطالع جل فصوله ، وصفحاته تزيد على الثلاثمائة بقطع المنار ، وثمن النسخة منه ١٥ قرشا مصريا تضاف اليها اجرة البريد ويطلب من مكتبة المنار بمصر .

المصدر : مجلة المنار ج ٩ م ٢٧ ديسمبر ١٩٢٦ .

طـه حسـين

ديكـارت

شيخان من انصار القديم قرآ كتاب « الشعر الجاهلي » الذي اذعته منذ أسابيع . وكانا قد سمعا به قبل ان يظهر ، وكانا قد أزمعا الرد عليه بعد ظهوره . فلما ظهر الكتاب قرآه كله أو بعضه ، فاعترضهما فيه اسم ديكارت ومنهجه الفلسفي . والله يصرف الكون كما يريد ، ويجري الاقدار فيه كما يحب ، وقد اراد الله ان يظهر اسم ديكارت وفلسفته منذ ثلاثه قرون وان يطبع العصر الحديث كله بطابع ديكارت ، وان يتغلغل تأثير ديكارت كاسم ارستطاليس عنوانا لطور من اطوار الحياة الانسانية العامه التي تلزم الاجيال مهما تختلف بها الازمنة والامكنة . اراد الله هذا كله ، واراد معه شيئا آخر هو ان يظل ديكارت مجهولا عند طائفة من شيوخ الادب في مصر ، لا يعرفون اسمه ولا مذهبه ، ولا يدركون كيف يؤكل ، وان دروا كيف تؤكل الكتف ، ولا يعرفون كيف يشرب ، وان عرفوا كيف تشرب القهوة والشاي ، وكيف يشرب الخروب والعرقسوس . واذا اراد الله أمرا فلا مرد له . وليس لنا ان نذعن للقضاء ونصبر لجهل شيوخ الادب العربي اسم ديكارت و فلسفة ديكارت في العصر الذي يحرص الانسان فيه على أن يعلم كلما استطاع ان يعلم .

ومن غريب الامر ان شيوخ الادب يرون ويكتبون كما كان يرى الادباء القدماء ويكتبون : ان الاديب « هو من يأخذ من كل شيء بطرف » كذلك قال شيخ الادب في دار العلوم ، وانما اريد لاستاذ الشيخ علام ، قال ذلك في « السياسة » منذ اسبوعين ، ولم يكن في ذلك مجددا ، وانما كان يحكي القدماء ويرددهم . وقد كان المبرد حريصا كل الحرص على ان يأخذ الاديب من كل شيء بطرف ، وظهر ذلك في كتاب الكامل ظهورا واضحا حتى انك

لترى فيه بابا قال المبرد في عنوانه : « باب نذكر فيه من كل شيء شيئا » . وكتب الادب العربي القديمة كلها قائمة على هذا النحو من تصور الادب والاديب. والاستاذ الشيخ علام واصحابه يرون راي القدماء ، ويكتبون ان الاديب يجب ان يلم من كل شيء بطرف ، بل يجهلون ديكارت وفلسفته وأثره البعيد في حياة العقل والشعور كما قلنا .

وهم يجهلون ناسا آخرين غير ديكارت ، واشياء اخرى غير فلسفة ديكارت ، ولكنهم مع ذلك يرون أنهم ادباء ، وانهم قد الموا من كل شيء بطرف . ومعذرتهم في هذا قائمة : فديكارت ليس شيئا وفلسفته ليست شيئا ، والحق عليهم ان يلموا من كل « شيء » بطرف . فأما ما ليس « شيئا » فلا ينبغي ان يلموا به بقليل ولا كثير . فاذا اردت ان تعرف لم لا يكون ديكارت شيئا من الاشياء ، ففي جواب ذلك قولان : احدهما ان الشيء الذي ينبغي ان يلم الادباء بطرف منه هو الشيء الرسمي الذى اشتمل عليه برنامج التعليم الرسمي في وزارة المعارف . فعلى الاديب ان يلم بعلوم العربية وان يلم بالرياضيات والطبيعيات . وليس في البرنامج الرسمي لوزارة المعارف ذكر ديكارت ولا فلسفة ديكارت . واذن فهما ليسا في الورقة الصفراء . . . واذن فليس الاديب مكلفا ان يلم منهما بطرف لانهما ليسا شيئا .

هذا أحد القولين . وهناك قول آخر وهو ان الشيء الذي ينبغي ان يلم الاديب منه بطرف هو الشرقي القديم ... استغفر الله العظيم واتوب اليه ، بل هو العربي القديم . مصر الفراعنة ليست شيئا ، ومصر اليونان والرومان ليست شيئا . وليس الاديب مكلفا ان يلم منها بطرف ، واقسم ما يعرف ؛ الاستاذ الشيخ علام واصحابه لها طعما . . استغفر الله العظيم واتوب أليه ، بل الشيء هو العربي القديم الذي لا يتجاوز بلاد العرب والشام والعراق في العصور العربية الاولى والاندلس في بعض عصورها الاسلامية . فأما مصر الفاطميين والمماليك ، فأما افريقيا الشمالية فليست شيئا وللادباء ان يجهلوها ، وهم يجهلونها باذن الله . واذن فأوروبا ليست شيئا . واذن فديكارت ليس شيئا وفلسفته ليست شيئا . وجهل اوروبا

وديكارت وفلسفته ليس من الامور التي تعاب على الاديب . ورحم الله شيخا من شيوخنا في الازهر اراد ان يرفع في يوم من الايام ظلامة الى المحافظة فلم يستطع ان يكتب ما كان يريد ، فاستعان بأحد « ابناء المدارس » معتذرا او مفاخرا بانه لا يحسن مثل هذا السخف الجديد . فلشيوخ الادب ان يعتذروا او ان يفاخروا بانهم يجهلون ديكارت وفلسفته لانهما ليسا شيئا ، وخير من ذلك واجدى ان ينكب الاديب على فقرة من فقرات الحريري ، او مقامة من مقامات البديع ، او بيت من شعر امرىء القيس .

ولكن حظ الاديب سيء ابدا ، وانت لم تنس بعد حرفة الادب التي قتلت ابن المعتز ، ونتفت لحية الحريري ، وحالت بين لفظ الادب وبين الورود في القرآن ، فالادب لذيذ ولكنه شؤم على اهله . ومن شؤم الادب على الادباء ان كتابا ظهر في هذه الايام يقال له « الشعر الجاهلي » ويجب على الادباء ان ينقدوه وينقضوه ويهدموه ويهدموا كاتبه ، ويتقربوا بهذا النقد والنقض والهدم الى الله او .. إلى الشيطان ، وقد اقسموا ليفعلن . وقد بدأوا يفعلون فما هي الا ان اعترضهم هذا الشجى وهو اسم ديكارت وفلسفة ديكارت .

والحق ان نقول ان موقفهم بازاء هذا الاسم والفلسفة كان بديعا لا يخلو من فكاهة وظرف . فاما احد هذين الشيخين اللذين ذكرتهما في اول هذا الفصل واللذين اهدي اليهما هذا البحث فقد كتب في تواضع يشبه الكبرياء انه لا يعرف ديكارت ولا مذهبه ، وانه يظن او يرجح ان مذهب ديكارت قريب من المذاهب الاسلامية ، وان صاحب « الشعر الجاهلي » قد حرف هذا المذهب لحاجة في نفسه او كما قال الشيخ ، واما الآخر فعزيز عليه ان يتكبر او يتواضع على هذا النحو . وهو قد تعود ان يستغل الرافعي واليازجي والسكندري وابن مكرم دون ان يذكرهم او يشير اليهم ، فلم لا يستغل في امر ديكارت حيا او ميتا يشبه هؤلاء ؟ وقد بحث بين الاموات فلم يجد وبحث بين الاحياء فلم يجد من كتب عن ديكارت او اشار اليه ، وهو لا يعرف لغة ديكارت ولا لغة اجنبية اخرى . واذن

فليلجأ الى احد الذين يعرفون لغة من هذه اللغات ليقص عليه امر ديكارت، ويلخص له فلسفته ، حتى اذا استقام له ذلك في صفحات او اسطر تكلم عن ديكارت و فلسفته كلام العالم المحقق واثبت لصاحب «الشعر الجاهلي» انه لا يفهم ديكارت ولا يحسن تخريج مذهبه الفلسفي . وكان قد تفوق على زميله الذي يكتب في « الاهرام » فعرف من امر ديكارت وفلسفته ما لم يعرف هذا الشيخ المسكين .

وانا احد الذين يعرفون لغة اجنبية واحد الذين يحسنون لغة ديكارت؛ واحد الذين قرأوا ما كتب عن ديكارت . وانا اريد ان اهدي الى الشيخين بحثا عن حياة ديكارت وفلسفته ليتما به ادبهما ويستعينا به على هدم كتاب الشعر الجاهلي ، والتهام صاحب هذا الكتاب التهاما . وانا مخلص فيما اكتب ، فانا احب ان يلتهمني الشيخان لاني اعرف ان حلقيهما ان استطاعا ازدرادي فستعجز معدتاهما عن هضمي .

أنا اهـدي الى الشيخين بحثي عن حيـاة ديكارت ، ولكني اهديه اليهما على ان يقرآه ويفقهاه فقها « حسنا » لا يشبه فقههما « للشعر الجاهلي » ولا للسـان العرب ولا لما كتب الرافعي أو املي السكندري . وأنا اهدي هذا البحث الى الذين يعرفون ديكارت من المتفرنجة والمتعلمين على اختلافهم ذلك اني اعلم من امر ديكارت مالا يعلم الناس في مصر . فقد كنت اريد ان أضع فيه كتابا واضطرني ذلك الى كثير من البحث والتحقيق والى الوان من الاستقصاء والاستقراء . ولكني لا آسف على ما لقيت من عناء ، فقد وصلت الى نتائج غريبة قيمة لو اعلنتها في فرنسا لاندكت لها السوربون ولاضطربت لها الكوليج دي فرانس ولاعلن لهـا المجمع العلمي الفرنسي افلاسه . . . لا تضحك ولا تعجب فلست احدثك الا بالحق الذي لا شك فيه ولا غبار عليه . ويكفي ان تعلم اني استكشفت طائفة من الكتب المخطوطة التي كتبت في النصف الثاني للقرن السابع عشر بعد ان مات ديكارت بسنين قليلة ، والتي كانت محفوظة في مكتبة الملك الخاصة ، حتى اذا كانت الثورة الفرنسية ، وتبدد مافي القصر ضاعت هذه الكتب ولم يستطع ان يظفر بها الذين انشأوا المكتبة الاهلية في باريس

بعد الثورة واخذت اسرة من الاسر الشريفة تتوارث هذه الكتب ، حتى انتهت الى صديق لي فرنسي ، كان يدرس معي ، وهو يقيم في ريف بورجونيا ، فدعاني في بعض فصول الصيف ان اقضي عنده اياما ففعلت ، واظهرني على مكتبه آبائه ، فاذا فيها هذه الكتب المخطوطة ، فدرسناها معا ، ولم نستوف درسنا بعد ، وسنقدمه الى السوربون يوم نستوفيه ، وسننشر هذه الكتب على الناس ، وسنودع اصولها المخطوطة المكتبةالاهلية بباريس ، وسيعلم الناس يومئذ انهم لم يؤتوا من العلم عن ديكارت الا قليلا ، وستعلم الحكومة الفرنسية يومئذ ان هذه الطبعة الرسمية التي نشرتها في اثنى عشر مجلدا ضخما لا تشتمل الا على ما كان يكتبه ديكارت ليلهو ويعبث ويلهي الناس عن فلسفته الصحيحة .

فديكارت كأرسططاليس يذهب في الفلسفة مذهبين مختلفين احدهما يعلنه الى الناس ، فانهم يستطيعون ان يفهموه وان يسيغوه ؛ والآخر يحتفظ به لنفسه ، وللاصفياء من تلاميذه ولا يذيعه في الجماهير لانـه اعسر وادسم من ان تحتمله عقولهم . وقد ظفرت الحكومة الفرنسيةبالقسم الاول من آثار ديكارت ، فعهدت الى عالمين من اكبر علماء فرنسا بتحقيقه ونشره ففعلا ، ووقع هذا القسم في اثنى عشر مجلدا ضخما كما قلت لك . ولكن من يقرا هذه الطبعة الرسمية او هذه المطبوعة الرسمية — على راى وحيد — ويقارن بينها وبين ما سننشره قريبا سيرى ان ديكارت كـان غريبا حقا . فقد كان يأتلف من شخصين يختلفان فيما بينهما كل الاختلاف : احدهما فيلسوف معتدل معقول يكتب بالفرنسية حينا ، وباللاتينية حينا آخر ، ويتناول فيما يكتب كل ما تناوله الفلاسفة من قبله ، ويذهب فيما يكتب مذهب التجديد ، فيخيل اليك انه سيؤسس فلسفة جديدة تهدم ما اقامه ارسططاليس وتلاميذه ، ذلك لانه يتخذ لفلسفته هذه قاعدة لم يألفها الناس ، هي نسيان القديم والبراءة منه كله ، وافتراض انه لم يكن ، حتى اذا قرات هذه الفلسفة وتعمقت فيها لم تجد جديدا ، ولا شيئا يشبه الجديد ، وانما هو كلام ككلام الفلاسفة فيه كثير من الحدود والقضايا والاقيسة ، ومع ذلك فقد فتن الناس بهذا الشخص واعتبروه ابا الفلسفة الحديثة ، ومؤسس العلم الجديد . ولكن الشخص الثاني هو الـذي

لفتنا وبهرنا ، لما فيه من غرابة كنا ننتظر كل شيء الا اياها . ذلك أن ديكارت لم يكن مسيحيا ولا فيلسوفا ولا من أصحاب التجديد ولا من انصار هذه الحقائق الثابتة التي الفها الناس ، وانما كان مسلما ديانا متصوفا مفرقا في التصوف شطاحا مسرفا في الشطح . انتهى به هذا كله الى شيء لا استطيع ان اسميه الا « اظهار الكرامات » . ولعل احسن طريق لشرح هذه الناحية الخفية من حياة ديكارت ان الخص لك في شيء من الايجاز بعض ما كتبه ديكارت عن نفسه ، وما وجدناه في الكتب (المخطوطة) التي حدثتك عنها آنفا .

ولد ديكارت في القرن السادس عشر ، للمسيح ، وكانت اسرته فقيرة ، شديدة المحافظة على العادات القديمة والسنن الموروثة ، فلما شب ارسلته اسرته الى مدرسة اليسوعيين ، فتعلم فيها على نحو ما كان اليسوعيون يعلمون . اتقن اللاهوت وفلسفة العصور الوسطى واللغتين اللاتينية واليونانية . ولكنه كان ذكيا حاد الذهن مستعدا للنقد والشك ، فاضطربت نفسه اضطرابا شديدا حين احس تناقضا بين قواعد اللاهوت وفلسفة ارسطاليس . ولكنه لم يظهر من هذا الشك شيئا لانه كان محافظا كابويه واساتذته اليسوعيين . على انه لم يكد يدع المدرسة حتى سئم الحياة التي وجهه اليها ابواه ، وهي حياة الحرب ، فانصرف الى السياحة ولقي في هولاندا رجلا شيخا من اليهود يقال له دروكلكسيس بن كراباك . قال ديكارت : كان لهذا الشيخ تأثير غريب في نفسي ، لا ادري اكان مصدره ذكاءه وفطنته أم غرابة شكله ، واختلاف أطواره العجيبة . كان قصيرا ضخما عريض ما بين الكتفين ، صغير العينين غائرهما ؛ ولكن عينيه كانتا شديدتي التوقد كأنهما شعلتان تضطربان ، عريض الاذنين ، دقيق الانف ، غليظ الشفتين ، مرسل اللحية ؛ فأما صوته فلا أعرف اني سمعت صوتا يشبهه . اما في حديثه العادي فكان غليظا متهدجا أشبه شيء بالرعد ، فاذا ناقش او ناظر في العلم كان نحيف الصوت حاده خلاب الحديث . ولا أعرف اني رأيت عالما يحيط بمثل ما كان يحيط به هذا الرجل مما كتب الأولون والآخرون ، كان يهودي الجنس والمولد ، ولكنه لم يكن يهودي الدين .

واحسب انه قد ورث شيئا من آبائه الذين خالطوا المسلمين مخالطة شديدة في اسبانيا . كان غنيا ولكنه شديد الزهد فيما كان يملك من ثروة ، الا انه كان يحب الاستمتاع بالطيب من لذات الحياة ؛ وكان يعجبني في بيته شيئان : مائدته ومكتبته ، تحدثت اليه في الفلسفة وفي اللاهوت فسمع مني ، وتحدث الي ، وما هي الا ان فتنت به وشغف بي ، واصبحت لا استطيع عن لقائه صبرا . وقد كان في حديثه الي ماهرا لبقا يلقي الي اغرب الآراء ، وكأنه يحدثني عن الجو والمطر ، حتى اذا آنس مني اطمئنانا اليه ، وثقة بكل ما يقول ، كشف لي عن دخيلة نفسه ، فاذا هو لا يؤمن بالمسيحية ولا اليهودية ، ولا يحب الالحاد ولا الملحدين ، وانما اتخذ لنفسه دينا كنت اسمع به ، ولا أعرف من حقيقته شيئا . فلما رغبت اليه في ان يظهرني على دقائق هذا الدين اطال الصمت ، ثم قال في هدوء : ما أحب أن أظهر لك هذا الدين ؛ وانما احب ان يظهر لك الدين نفسه فاتبعني ، ثم مضى بي الى مكتبته واستخرج سفرا ضخما دفعه الي ، وقال اقرأ هذا ، فاذا فرغت منه فلنتحدث ، ثم تركني ومضى . ونظرت في الكتاب فاذا هو باللاتينية واذا هو ترجمة لكتاب كتبه احد المسلمين في القرن العاشر للمسيح يقال له الطواسين ويقال لصاحبه الحلاج(١) ولم أكد امضي في هذا الكتاب حتى احسست كأن بيني وبين الحقائق سترا صفيقا ؛ وكان هذا الستر اخذ يرتفع شيئا فشيئا ويظهر لي من ورائه عالم بديع غريب غلاب ، واخذت نفسي تمتلىء شوقا الى هذا العالم وهياما به . انفقت في قراءة هذا الكتاب اياما ثلاثة ، فلما فرغت منها انكرت نفسي وانكرت ما حولي من الأشياء ومن حولي من الناس . ولقيني دروكلكسيس فلم يظهر عجبا ولا انكارا ...

واذا كنت لا ازال حيا الى الآن ، واذا كنت قد استطعت ان انشر

(١) الفت الاستاذ لويس ماسينيون الى هذه الترجمة اللاتينية لكتاب الطواسين فانا اعلم انه يعني بهذا الكتاب وصاحبه وانه قدم الى السوربون فيهما رسالة كان لها خطر عظيم .

في الناس كتبا اعجبتهم ، واكتب لنفسي كتبا قراوها ، واذا كان صوتي قد وصـل الى أقصى أطراف الأرض ، وتنافس الملوك في عشرتي والاستئثار بي ، فانا مدين بهذا كله لدرو كلكسيس بن كرابالك . ذلك اني خرجت من قراءة ذلك الكتاب مفتونا ، اريد ان اعلن الى الناس ايماني بهذا الدين الجديد ، واناضل عنه بما أملك من قوة ، ولكنه حال بيني وبين ذلك ، وكان يقول لي في هدوء : احذر ان يصيبك ما أصاب الحلاج فلا تنتفع بحياتك ، ولا تنفع الناس ، والحياة أعلى وأنفس من أن تبذل في غير نفع ، فاكتم ما انت فـيه وانفق حياتك في التسبيح والتقديس ، وانفع الناس ما استطعت الى نفعهم سبيلا .

من ذلك الوقت آثرت العزلة ، وعشت هذه المعيشـة التي كان الناس يعجبون من أمرها .

وفي الحق ان حياة ديكارت كانت غريبة ، فقد كان ينفقها في موقد له لا يخرج منه الا مضطرا ، وكان يقسم وقته اربعة اقسام : احدهـا لما يحتاج اليه جسمه من العناية المادية ، وكان يقتصد في هذه العناية اقتصادا شديدا ، لا يأخذ من الأكل والشرب والنوم الا بما يمسك عليه الحياة ؛ والثاني ينفقه في الكتابة والتاليف فيما ينفع الناس في هذه الحياة العاجلة ، والثالث في التفكير الفلسفي الاشراقي ، والرابع في التسبيح والتقديس اذ اخذتني غفوة ، فرأيت فيما يرى النائـم كأن بن كرابالك . وكان لترديده إياها تاثير عظيم في حياته العملية والعقلية .
قال ديكارت :

« بينا انا في موقدي ذات يوم أردد ما تعودت ترديده من صيغ التسبيح والتقديس اذ اخذتني غفوة ، فرأيت فيما يرى النائم كأن سقف البيت قد انشق منه حجما وأعرض منه جناحا ، وكان هذا الطائر الهدهد ، ولكنه اكبر منه حجما وأعرض منه جناحا ، وكان هذا الطائر قد وقف قبالة الموقد محدقا فيّ منصتا لما اقول ، وكانه قد انكر صمتي ونومي فقال في لغة لاتينية تبينتها في وضوح وجلاء : عجبا لهذا الصامت

النائم والفلك يدور ، وشيخه في خطر ، فاستيقظت لهذا الصوت في شيء من الانزعاج ، ونظرت فلم ار شيئا ، ولكني اشفقت على درو كلكسيس واردت أن أراه فسعيت اليه من فوري ولم اكد اسال عنه حتى حدثت انه مريض ، وان الطبيب يخشى عليه . فادخلت عليه ، فاذا هو في سريره شاحب ضعيف يتردد نفسه قويا في صدر فارغ ، فجثوت عنه سريره ، واخذت ادعوه في رفق ، وكانه كان نائما فانتبه وقال : هانتذا قد اقبلت ، لقد ارسلت ادعوك وكنت اخشى ان افارق هذه الحياة قبل ان اراك ، فهل جاءك رسولي ؟ قلت من رسولك ؟ قال : بريبيش ، قلت ان هذا اسم لم اسمعه من قبل ، قال : ولكنك رأيت مسماه منذ حين ، هو طائر يشبه الهدهد ويتكلم لاتينية سيسرون، فاحفظ اسمه فسينفعك ، وادعه كلما احتجت الى شيء شاق ومره بما شئت فستجد منه طاعة واخلاصا ونصحا ، واعلم انه موكل بزعماء المتصوفة منذ كانوا ، يخدمهم ويقضي حاجاتهم ، لا يجد في ذلك مشقة ولا عسرا ، وهو فوق العلة ، وفوق الموت حتى تنقرض طائفة المتصوفة ويموت بعد آخرهم بقليل . خدم متصوفة الهند قبل المسيح بآلاف السنين ، واشرف على بناء الاهرام ، واملى ما كتب فيها من طلاسم ، واعان فيثاغورس ، ورافق افلاطون في سياحته ، ولزم الحلاج وابن الفارض ومحيي الدين بن العربي ، وسيلزمك منذ غد ، وسيعينك على سياحات لا بد من أن تسيحها في الأرض ، فانت مضطر الى زيارة البيئات الصوفية في بغداد والقاهرة وتلمسان وفارس ، على أني مؤد اليك امانة يتناقلها زعماء الصوفية ويتوارثونها وهي لهم نافعة فخذها فانت زعيم الصوفية بعدي .

ثم أخرج من تحت وسادته علبة صغيرة من الذهب اشبه شيء بعلب النشوق التي يصطنعها الشيوخ في مصر وقال : احتفظ بها ولا تفتحها الا حين يطلب ذلك اليك صديقنا بريبيش ، واحفظ عني هاتين الصيغتين تستقبل باولاهما النهار وباخراهما المساء ما حييت . ثم همس بالصيغتين في اذني على انهما سر لا يباح الا لزعيم . وما هي بعد ذلك الا ان اضطرب جسمه اضطرابا شديدا ثم هدأ وقد فارقته الحياة ،

واذا بريبيش قد ظهر في الغرفة ، وقال في هدوء : « انصرف فقد مضى صاحبك ، ودع هذا الجسم لأهله فليس لك به شأن فخرجت » .

وهنا يصف ديكارت حزنه على صاحبه في عبارات مؤثرة حقا ، ولكن صحف « السياسة » محدودة ، فلأدع حزن ديكارت ولأتم ما انا فيه من ذكر حياته الغريبة .

اصبح ديكارت بعد انصرافه من عند صاحبه ، فاستقبل النهار بالصيغة التي اداها اليه دروز كلكسيس . وما كاد يستقر في موقده حتى جاء بريبيش فقال : ما انت وهذا الموقد ، وما انت والكتابة والتفكير ؟ هلم الى سياحتك . قال ديكارت لبريبيش : ولكني لم أعدد لهذه السياحة شيئا ، فدعني ادبر امري . قال بريبيش : ومتى دبر الصوفية لانفسهم امرا ! قم فانطلق معي . ومضى في الجو قريبا من الأرض يسايره فيلسوفنا حتى خرجا من المدينة ، واذا جرة ضخمة من الفخار قد نقشت عليها نقوش وتصاوير لم ير مثلها ديكارت . قال بريبيش : امتط هذه الجرة وردد صيغة المساء مرات . ففعل ، واذا الجرة تصعد به في الجو حتى اشفق على نفسه ، ولكن الجرة ماضية ، ماضية في الجو لا تلوي على شيء ، والطائر مواز لها يمضي في رفق ويتلو في اعجاب خطبة من خطب سيسرون التي القاها في مجلس الشيوخ الروماني يعنف بها كاتيلينا . وهو يحلل هذه الخطبة ويظهر للفيلسوف ما فيها من آيات البلاغة . ومضيا على هذا النحو ، واذا بريبيش يقول لصاحبه: انظر الى الأرض ، فينظر فلا يرى الا امواجا تلتطم وتصطخب ، فيسأل صاحبه اين نحن ؟ فيجيبه نحن نعبر البحر الى الاسكندرية ، وانتصف النهار ، وأحس فيلسوفنا الجوع والظمأ ، فيسأل الطائر : من لنا بطعام وشراب ؟ قال بريبيش : والعلبة التي اهداها اليك امس دروز كلكسيس اين هي ؟ هي معي . اذن فأخرجها وافتحها . فيخرج العلبة ويفتحها فلا يروعه الا فتاة ظريفة قد خرجت منها مبتسمة محيية مصفقة ، واذا فتيان وفتيات قد أقبلوا اليها من الجو مسرعين ، واذا هي تأمرهم بلغة لا يفهمها ديكارت فيسأل صاحبه ما هذه اللغة ؟ فيجيبه : هي

اللغة السريانية التي لا بد لك من ان تتعلمها بعد حين . وما هي الا لحظات حتى وقفت الجرة في الجو لا تتقدم ولا تتاخر ، ونصبت امامها في الجو مائدة فخمة صفت عليها الصحاف والاكواب من الذهب والفضة، وقدمت عليها الوان من الطعام لا عهد لديكارت بلذتها وحسن مذاقها في الفم وموقعها في المعدة ، فاكل الفيلسوف وشرب ، ومن حوله الطير تصدح بانغام لذيذة حلوة ، حتى اذا تم له من ذلك ما اشتهى رفعت المائدة ، واستخفى كل شيء ، واقبلت الفتاة السريانية مبتسمة قائلة في ظرف وخفة : والآن فادخلني علبتي ، فيفتح لها الفيلسوف العلبة فتستخفي فيها ، وتستانف الجرة سيرها في الجو . ويأخذ بريبيش في قراءة لخطبة التاج التي القاها ديموستين على الاتينيين محللا مستنبطا اسرار البلاغة اليونانية . فاذا ساله ديكارت عن حبه اللاتينية واليونانية قال : انا موكل بالادب احبه وانفق فيه حياتي ، ولست اوثر ادبا على ادب ، وانما احيط بالآداب كلها ، وانت تعلم ان الاديب يجب ان يلم من كل شيء بطرف ، قال ذلك ادباء العرب وسيقوله في آخر الزمان منهم رجل يقال له الشيخ علام . واذا كنت قد تلوت عليك خطبة سيسرون وخطبة ديموستين ، فذلك لانك تعرف اللغة اللاتينية واليونانية . وساتلو عليك غدا قصيدة عربية وضعها رجل يقال له خلف الاحمر ، ونسبها الى شاعر يقال له النابغة الذبياني ، وهي قصيدة جيدة لا يشك سامعها في انها قديمة ، وقد استشهد النحاة بشيء كثير منها على قواعد النحو العربي . قال ديكارت : واي فائدة في تلاوة هذه القصيدة او غيرها من الشعر العربي ، وانا اجهل لغة الحلاج ، ولا استطيع ان اقرا هذا الكتاب القيم كتاب الطواسين الا في هذه الترجمة اللاتينية التي نشرت في القرن الثالث عشر والتي ارجح انها لا تخلو من خطا . قال بريبيش : ستعرف اللغة العربية وتتقنها اذا امسيت ، فليس يباح لك ان تدخل بلدا دون ان تعرف لغة اهله ، واذا كنت ستزور اطراف الارض كلها فستعرف لغات الناس جميعا ، قال ديكارت : ومن لي بذلك ؟ قال بريبيش : انا لك به ، انظر الى هذه العلبة الصغيرة ، انها تحتوي اللغات جميعا ، فيها اقراص تشبه اقراص النعناع كل واحد منها يمثل لغة من اللغات، فاذا اشرفنا على البلاد العربية فسادفع اليك قرص اللغة العربية

تزدرده فاذا انت أقـدر الناس على ان تنشد وتفهم وتنقـد ما ينسب الى امرىء القيس من شعر ، وما يضاف الى تأبط شرا من سخف ، وما يحكى عن قس بن ساعده من وعظ وارشاد ، واذا انت من اقدر الناس على مناقشة سيبويه والخليل والمبرد فيما تركوا من قواعد النحو والعروض والقافية والصرف ، فانتظر . وانتظر ديكارت حتى اذا مالت الشمس الى الغروب نظر فاذا من تحته مدينة يموج الناس فيها موجا . قال لصاحبه ما هذه المدينة ؟ قال : هي مدينة طنطا يحتفل الناس فيها بمولد السيد أحمد البدوي . فازدرد هذا القرص ، ففعل . وقال بريبيش كلمات هوت لها الجرة الى الأرض ، ونظر ديكارت فاذا هو واقف على قدميه . قال له بريبيش ضع هذه القلنسوة على رأسك لتستخفي عن أعين الناس ففعل ، ومضى مع صاحبه يزور المولد ويجلس في كـل خيمة لحظة ثم دخلا المسـجد واختلطا بالشـيوخ والطلاب والزائرين والذاكرين .

وعلى هذا النحو الذي يفصله ديكارت تفصيلا ممتعا قضى صاحبنا سنتين كاملتين مطوفا في اقطار الشرق الاسلامي كله متقنا لغاتها وعاداتها، ذاكرا مع الذاكرين ، متيما مع المتيمين ، دائرا مع الدائرين ، يلتهم النار حينا ويبتلع الزجاج آخر ، وينتطق بالحيات والافاعي ، ويمشي على الماء ويطير في السماء ويزور الجن في الارض السابعة ، والملائكة في السماء الرابعة ، حتى اذا قضى من هذا كله وطرا وعلم من اسرار الكون ما يضمره الشرق وحده ، عاد الى هولاندا فمكث في موقده اشهرا يكتب ويفكر ويقدس ويأتيه بريبيش كل مساء فيقضي عنده ساعة ثم ينصرف. حتى جاءه ذات يوم فقال : احسب انك قد احببت الراحة وكرهت مشقة السفر ، ومع ذلك فلا بد لك من رحلة اخرى ليست أقل مشقة ولا نفعا من رحلتك الاولى فقم على اسم الله . فقال ديكارت : الا ننتظر اشراق النهار ؟ قال : كلا ، وما انت والنهار والليل ؟ الجـرة تنتظر وعلبتك كفيلة بحاجات السفر وعلبتي كفيلة بتعلم اللغـات ، وسأتلو عليك في هذه الرحلة آيات المانية وروسية لم تظهر بعد ، لأن أصحابها لم يخلقوا ولكنهم سيخلقون وسيحدثون هذه الآيات فيعجب بها الناس،

سأتلو عليك ما سيحدثه جوت وهنري هين وتلستوي وغيرهم من اعلام الشعر والنثر والفلسفة في القرن الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين ، ثم سأتلو عليك كتابا يكتبه بعد سنين يهودي يتاثر بمذهبك اسمه سبينوزا سيكتب في الاخلاق والفلسفة متاثرا بهذا الكلام الفارغ الذي تكتبه للناس في أوقات الفراغ . وسيظن انه وصل الى الحق وسيلقى من الناس اكبارا واحتقارا . وقد استصحبت كتابا شرقيا عربيا سيظهر في الربع الأول من القرن العشرين في مدينة القاهرة وهو كلام فارغ ككلامك هذا الذي تنشره على الناس ، واسمه يدل على انه فارغ وهو كتاب « في أوقات الفراغ » الذي سينشره على الناس كاتب ظريف مفكر يجد حينا ويعبث احيانا ، أديب ولكنه يحب السياسة ويرشح نفسه للانتخاب في مجلس النواب ، واسمه محمد حسين هيكل . فانت ترى ان رحلتنا ستكون قيمة سهلة ، ولا سيما حين اتلو عليك كتابا باللغة العربية سيضعه مصري في القرن التاسع عشر يقال له محمد عبده ويترجمه في القرن العشرين عالمان يقال لاحدهما مصطفى عبد الرازق وللآخر برنار ميشيل ، وسترى ان هذا الشيخ المصري المسلم متاثر تاثرا تاما بفلسفتك هذه الفارغة التي تفسد بها عقول الناس ، وتنشىء لهم بها علما جديدا ، سيمكنهم من استعباد البخار والكهرباء والماء والهواء والصعود الى السماء . قم بنا .

فقاما وامتطى فيلسوفنا جرته ومضيا نحو الشمال ، واستمرا في رحلتهما اياما وليالي متنقلين من أدب الى ادب ، ومن فن الى فن حتى استقبلهما في صباح يوم مشرق جبل شاهق لا يصل الطرف الى قمته ، قال ديكارت : اين نحن ؟ قال بريبيش نحن في اقصى الارض من ناحيتها الشمالية ، وهذا الجبل الذي تراه هو سورها الذي ياخذها من جميع أطرافها . قال ديكارت مصفقا : هذا جبل قاف . قال بريبيش نعم هو جبل قاف . قال ديكارت ليس وراءه الا الماء الذي لا حد له طولا ولا عمقا ، والذي لا يحيا فيه شيء ، قال بريبيش اخطات فسترى ان في هذا الماء حياة واحياء . قال ديكارت : ماذا تقول ؟ سنقتحم هذا الجبل ؟ قال بريبيش : وما جئت بك الا لنقتحمه . ان من ورائه قوما ينتظرونك لتنشر

فيهم الدعوة الى الحق ، وتخرجهم من الظلمات الى النور ، دع هذه الجرة فهي لا تغني عنك شيئا . قال ديكارت . وكيف نصعد في هذا الجبـــل ؟ قال بريبيش : اترى الى هذا السحاب المتراكم ، ستهبط منه سحابة تحملنا الى حيث نريد . وهبطت سحابة فاذا شيء اشبه بعربة من الذهب الخالص ، فيه وسائد من الحرير والاستبرق ، واكواب ملىء بعضها من الشاي وبعضها من القهوة ، وبعضها من اللبن ، وعلبة نشوق وسجائــر مختلفة منها الطويل والقصير ، والضخم والنحيف ، ولكنها كلها عطرة ارجة يتضوع منها نشر يشبه العنبر ، وفيها شيشة وجوزة ، وفيها نرد وشطرنج ودومينو وما الى ذلك من أدوات اللعــب . جلس الفيلسوف ومعه بريبيش واخذ في تدخين الشيشة لانه كان قد جرب ذلك في دمشق فاحبه . اما بريبيش فاخذ يدخن الجوزة لانه كان كثير الاختلاف الى حي من أحياء القاهرة في باب الشعرية ، وهناك تعلم هذا النحو من التدخين . وصعدت بهما السحابة في السماء حتى انتهت بهما الى قمة الجبل ، فهم ديكارت بالخروج فامسكه بريبيش قائلا : لا تخرج حتى تشرب قدحــا من اللبن وكاسا من القهوة وحتى تتنشق ، فكل هذه الاشياء من ثمرات الارض التي نتركها ، ولا بد من ان نذوقها الآن لنضمن لانفسنا العودة الى هذه الارض احياء او امواتا ، فان نحن لم نفعل فسيقوم جبل قاف حائلا بيننا وبين الارض آخر الدهر . شربا ودخنا وخرجا . فاذا طائر عظيم لا يستطيع الطرف ان يحيط به قد حلق كانه ينتظر امرا ، قال ديكارت ماذا ارى ؟ قال : هذا الطائر الذي تراه هو بلاجوست ، وهــو السفينة التي يتخذها الاحياء فيما وراء جبل قاف لمواصلاتهم فامتط هذا الطائر فساكون معك ، وسترى انه يقطع في لحظات ما تقطعه سفنكم في أيام . واستقر على جناح الطائر وما هي الا لحظات قصار حتى هوى بهما الى جزيرة عظيمة فيها غابات كثيفة ومروج خضر ، ولكن اهلها قصار لايتجاوز ارتفاع احدهم شبرا ، عراض لا يتجاوز عرض احدهم مترا وهم يضحكون أبدا ، ولهم فيما بينهم حديث كقصف الرعد وهم يدخنون ولكن بآذانهم يدخل الدخان في احدى الاذنين فيخرج من الاخرى ، وليس لكل واحد منهم الا عين واحدة قد استقرت في وسط جبهته ، ولكنها ضخمة متوقدة يتطاير منها شرر مخيف . قال ديكارت : ولكني لا افهم شيئا مما يقولون،

قال بريبيش : هذا قرصهم فازدروه تفهم لغتهم . واخذ ديكارت يسمع لغتهم ويفهمها ، فقال لصاحبه : الست ترى معي ان هذه اللغة تشبه اللغة البلغارية شبها شديدا ، قال بريبيش : هي اصل اللغة البلغارية وهؤلاء الناس هم آباء البلغار ، كانت فيهم ثورة منذ آلاف السنين انتصرت فيها الديمقراطية على الاشراف فأجلتهم عن بلادهم ، فعبروا جبل قاف ، وهنا في ارضكم اثر فيهم الجو ، فأخذ من عرضهم وزاد في طولهم ، فاستقامت لهم هيئات وقامات كهيئات الناس وقاماتهم ، ومضوا في طريقهم حتى انتهوا الى الأرض التي تسمى الآن بلغاريا . فاحتلوها واستعمروها . وهم الذين تحدثوا الى فقهاء المسلمين عن أرض تشرق فيها الشمس ستة اشهر فليس فيها ليل ، وتغيب عنها ستة اشهر فليس فيها نهار ، وقد وضع فقهاء المسلمين احكاما فقهية لاهل هذه البلاد تمس اوقات الصلاة بنوع خاص وقد جئت لتنشر الاسلام في هذه الارض ، فعلم الناس كيف يؤقتون الصلاة حين تشرق الشمس وحين تغيب ، وامض بنا فإن « قاطرينا » تنتظرك في قصرها . قال ديكارت : من قاطرينا ؟ قال بريبيش : هي ملكة هذه الجزيرة حدثتها عنك وانبأتها بنبئك ، فهي تنتظرك وقد زارها من قبلك درو كلكيس وزارها الحلاج وزارها فيثاغورس قال ديكارت : هي اذن خالدة لا تموت قال بريبيش : ان الخلود لم يكتب لاحد ، كل شيء هالك الا وجه الله ، ولكن ملوك هذه البلاد كتب لهم طول الاعمار ، فأعمارهم لا تعد بالسنين ولا بالقرون وانما تعد بالآلاف . وقد ولدت قاطرينا سنة ٣٥٠٥ قبل المسيح وملوك هذه البلاد اذا بلغوا من العمر ثلاثة آلاف سنة جاءهم النبأ بالعام الذي سيموتون فيه . وقاطرينا تعلم انها ستموت سنة ١٩١٧ حين يقرب الالمان من مدينة باريس في الحرب العالمية الكبرى التي ستكون في ذلك الزمان وهي مشوقة الى ان تراك لتأخذ عنك العلم والحق والدين ، وتنفق ما بقي لها من الدهر في عبادة وتقرب الى الله تاركة أمر الملك لولي العهد الذي يبلغ من العمر الآن الفي سنة ، واسمه ساباتيه بن ارابيشا . ومضيا حتى انتهيا الى القصر ، فاذا فخامة وضخامة وترف لا عهد لفيلسوفنا بها ، واذا الملكة القصيرة العريضة تنظره مبتسمة ، واذا هو لم يكد يجلس اليها حتى اخذت تتحدث اليه وتسأله ، واتصل مجلسهما ساعات فتنت فيها الملكة بفلسفة

ديكارت فتنة لا حد لها ، ولم تأذن له بالانصراف ليستريح الا كارهة ، واخذ فيلسوفنا يتردد على الملكة يعلمها ويفقهها في الدين والتصوف ، وهي به مشغوفة ، ولكن جو هذه الجزيرة لا يلائم طبيعة اهل هذه الأرض فقد اخذ ديكارت يلاحظ ان قامته تقصر وتعرض ، وشكا ذلك الى بريبيش فقال له : ألم انبئك ان اهل البلاد حين هاجروا الى ارضكم ضاقوا وطالوا حتى أصبحوا امثالكم ؟ فأهل أرضكم اذا جاءوا الى هذه البلاد قصروا وعرضوا حتى صبحوا كغيرهم من سكانها ، ولكن السن كانت تقدمت بديكارت فلم يستطع ان يقاوم امتداد جسمه من ناحية وانكماشه من ناحية اخرى فتوفي عام ١٦٥٠ .

وقد وصف بريبيش في كتاب ارسله الى الحكومة الفرنسية مع جثة ديكارت مقدار ما اصاب الملكة من جزع وحزن لفقد هذا الفيلسوف قبل ان تنتشر مذاهبه القيمة في رعيتها . قال بريبيش في آخر كتابه : والرأي عندي الا يسافر الزعماء الذين سيخلفون ديكارت الى ما وراء جبل قاف الا في منتصف الالف الثالث بعد المسيح ، ففي ذلك الوقت قد يتشابه ويتقارب ما دون الجبل وما وراءه بحيث يصبح طول الناس جميعاً اربعة اشبار وعرضهم اربعة أمتار ، وفي ذلك اليوم قد يكون فن الطيران قد تقدم ويستطيع الناس ان يقتحموا جبل قاف ، ويعبروا بحر كاف ، ويصلوا الى جزيرة نون في سهولة ويسر . قال بريبيش على انني الموكل بهؤلاء الزعماء فلا أسمح لأحد منهم بزيارة قاطرينا او ابنها حاجاتيه بن ارابيشا الا حين يئين الأوان لهذه الزيارات .

□ □ □

هذا ما احببت ان اهديه الى الشيخين الجليلين من حياة ديكارت ، وانا اعتمد على ذكائهما في فهم فلسفته من هذا الفصل فالرجل نوعان من الفلسفة : احدهما سخيف ضعيف هو الذي اعتمدت عليه في كتاب الشعر الجاهلي ، لأني لست من اهل التصوف ولا القادرين على الشطح والنطح ، والآخر قيم ممتع خصب لذيذ يلتمس في كتب الحلاج

ومحيي الدين بن العربي ، وفي كتاب الديربي وشمس المعارف الكبرى وفي رسالة صغيرة توجد في مكتبة الاستاذ الجليل احمد زكي باشا بقسم المخطوطات يقال لها « دومة في نومة » .

□ □ □

اما بعد فإني اقسم لصاحب المعالي وزير المعارف ، ولوكيلها وسكرتيرها العام ، واعضاء مكتبها الفني ، ولناظر دار العلوم واساتذتها وطلابها لو سئل تلميذ اوروبي عن ديكارت في امتحان الشهادة الثانوية وجهله كما يجهله اساتذة هذه المدرسة العالية لحيل بينه وبين الشهادة التي يطلبها ، واذن فانا اقترح عليهم احد امرين ؟ إما ان يكلفوا أحد العلماء بإلقاء محاضرات في تاريخ الفلسفة للأساتذة وللشيوخ منهم بنوع خاص ليستطيعوا ان يكونوا ادباء وان يلموا « من كل شيء بطرف » واما ان يأخذوا هذا الفصل الذي اكتبه ملخصا فينشروه ويأخذوا الاساتذة والطلاب بقراءته وفهمه فليس ينبغي ان يكون في مدارسنا العالية استاذ او طالب يجهل اسم ديكارت او فلسفته او اثره في هذا العصر الحديث .

● طه حسين

المصدر : من بعيد ، ص ٢٠٩ ـ ٢٢٥ ، المؤلفات الكاملة ، المجلد الثاني عشر .
يقول طه حسين في مقدمته لكتاب « من بعيد » ، وهو في غالبية فصوله رد على معركة « الشعر الجاهلي » ان فصوله كتبت في الفترة بين عامي ١٩٢٦ ـ ١٩٣٠ ، بينما صدرت الطبعة الاولى لهذا الكتاب عام ١٩٣٥ ، اما مقالة « ديكارت » فقد كتبت عقب صدور الردود العنيفة على كتاب « في الشعر الجاهلي » ونشرت في جريدة السياسة عام ١٩٢٦ .

في الشعر الجاهلي

إبراهيم عبد القادر المازني

تاليف الدكتور طـه حسين

استاذ الاداب العربية بكلية الاداب بالجامعة المصرية

من أشق مباحث الادب العربي ، ذلك العهد الذي يسمونه « بالجاهلية » وان كان ما أثره الرواة عنه وقالوا انه انحدر الينا منه ، لا يختلف عن جني غيره من العصور الاسلامية في شيء . فالروح واحدة ، والنظرة الى الحياة متفقة . والوجهة متحدة ، والكلام مستقيم على اوزان وقواف غير مضطربة بين هذه العصور ، وأسلوب التفكير نهج غير متعدد ، حتى العبارة نفسها لا يكاد يعتورها تغير جوهري . فما هو هذا العصر الجاهلي اذن ؟ انه عصر يعرفه الفقهاء ومن يبغون ان يقيموا حداً بين الاسلام وما قبله ، أما مؤرخ الأدب فمعذرة اذا أنكر ان له سمة يتميز بها وينفرد فالجاهلية التي انتهى الينا ما روى من أخبارها وأيامها هي جاهلية دينية واجتماعية اذا شئت ، ولكنها من حيث الادب شيء آخر مختلف جداً لا يسع الأديب الا أن يقف حيالها مترددا شاكا بل رافضا كما فعل الاستاذ الدكتور طه حسين في كتابه « في الشعر الجاهلي » .

ولكل ادب آنفته الساذجة وجداته المتعثرة كما لكل شيء آخر في هذه الحياة — يصدق هذا على الجماعات صدقه على الآحاد ، وعلى العلوم والآداب وسائر ما ينشأ في دنيانا هذه . ولكن الأدب العربي ليس له أول يعرف ولا نشأة توصف اذ أقدم ما وقع الينا منه — على قول الرواة — بشحم كلاه .. ان صح هذا الخبر ، ونعني بذلك

أن هذا القديم مستو بالغ اشده ، وان الاطوار الاولى التي لا بد ان يكون الادب قد تقلب فيها ومر بها ، كغيره من آداب الشعوب الاخرى ، حتى تناهى شبابه على النحو المأثور ، نقول ان هذه الاطوار مفقودة ضائعة لا سبيل الى العلم بها والوقوف عليها الا تخيلا والا بالطبع في التخيل على غرار ما حدث للآداب الاخرى التي وقفنا على اصولها ونشاتها ، والا بان نرسم لانفسنا خط التطور طبقا للسنن الطبيعية « فالشعر الجاهلي » وصف غير صادق لان جاهلية الادب مطوية مع الازمان التي غبرت ، وليس من المعقول ، ولا من المقبول ، أن يكون هذا الشعر المأثور أو ما قالته العرب لأنه شعر ناضج متساوق الاغراض مطرد النظام ، فيه فن وصناعة ، ثم هو بعد ذلك تعبير فيه خلط بين الادب والدين .

وليس ثم ما يمنع ان يكون هناك شعر قيل قبل الاسلام ، بل الذي يرفضه العقل هو الا يكون الشعر قد قيل قبله ، ولكن هل ما يعزى من الشعر الى من عاشوا في العصر الجاهلي صحيح النسب غير ملزق بهم ؟ وهل اذا سالت هذا الشعر عن نسبه ينتمي اليهم ويعتزى بهم أم ينطق تكوينه ومنحاه واسلوبه بانه دعى دخيل ؟! هذان هما السؤالان اللذان يلقيهما كل اديب على نفسه . وقد تناولهما الدكتور طه حسين في كتابه « في الشعر الجاهلي » وطرح السؤالين جميعا وكان جوابه الرفض !

ولم يأخذني الدكتور طه على غرة بهـذا الكتاب فما اعرفني قرأت شيئا من اخبار هذه الجاهلية أو شعرها او خطبها الا نازعني في امره شك ضعيف أو قوي ، والا حكت في صدري منه أشياء كثيرة او قليلة . واشهد أن الدكتور كان بارعا في بسط رأيه وفي ابراز الشبهات التي تحوم حول هذا وتضعف الثقة بنسبته الى الجاهليين ، وفي تاكيدهـا أيضا . ومن واجب كل متادب ان يطلع على هذه الرسالة التي جاءت – على خلاف عادة الدكتور – خالية من كثير من حشوه المالوف ونحسب ان لا خلاف في ضرورة هذا البحث مهما تكن النتيجة التي يخرج بهـا المرء ، وأن من الحماقة ان نسترسل في الاستنامة الى ما جاء في الكتب

القديمة وان كان كل شيء يدعو الى الريب ويغري بالنقد ، وان نوصد بايدينا في وجوهنا ابواب التفكير مخافة ان يظن بنا العقوق والتمرد على ما خلف لنا السلف ، او مدفوعين الى ذلك بحكم النزعة الانسانية الى التسليم ، فما زال التصديق اسهل من البحث ، والاقرار أيسر من النقد ، والجمع اهون من الوزن وأمتع والذ ايضا . وما من احد نزع الى لنقـد الا اضطر ان ينبذ بعض ما يقـع اليه وفي هـذا الاطراح خسارة متوهمة .

والنقد مهمة قاسية ، وما أكثر ما تكون بغيضة الى القراء ، ولكنا لا نعرف احدا احرى بالعطف واحق بان تلين له الافئدة من الناقـد ، فهو لا يجد — كالكيميائي — كل شـيء حاضرا مهيأ في معلمه ، وليس امامه شيء من تلك الملاحظات المنظمة المدونة التي تغني عن الشهود وتقوم مقام المعاينة ، بل عليه أن يفحص كل ما تقع عليه يده ليستجلي غوامضه ويمحص حقائقه ، ان كان ثم حقائق يمكن استخلاصها ، وان يخطو بحذر ويتوخى الاحتياط اذ كان العقل الانساني نزاعا الى التساهل ميالا الى تناول ما يتطلب الدقة . بغير احتفال او تدبير . وما رأيت احدا ينكر فائدة النقد ومزيته وضرورته . ولكن الاقرار بذلك اسهل من المعاناة . وحسبك ان تفكر في القرون العديدة التي مضت وعصور المدنية التي انقضت قبل أن يظهر « فن » النقد في العالم ، حتى في عصرنا هذا لايامن المرء على الطالب أن يقع في الاخطاء القديمة . لان النقد يحيد بالمرء عن اتجاه الذهن في العادة . وقد تعلم أن الميل اللدني هو التصديق والترديد حتى حين يختلف ما يتلقاه بالتصديق عما انتهى هو اليه من الآراء والملاحظات .

السنا في حياتنا اليومية نتقبل بلا تمييز أو تمحيص ما يتادى الينا من الاشاعات والانباء التي لا نعرف لها مذيعا ولا ندري ما مصدرها ؟ وقد نشذ احيانا عن ذلك ونجنح الى الشك والتنقيب عن اصل الخبر وقيمته ونحاول امتحانه ولكن هذا لا يكون منا الا بدافع من سبب خاص ، اما اذا كان ما يتصل بنا غير مستحيل في ذاته ولا بعيد التصديق

ولم يبلغنا ماينقصه او ينفيه فانا نزدرده ونفرح به وقد نضيف اليه ونزيد عليـــه !

وقد لا يجهل القارىء أن المرء حين يلقي نفسه في الماء تكون حركاته الطبيعية الاولى من شانها ان تؤدي الى الغرق . وأن السباحـة معناها اعتياد المرء الامتناع عن هذه الحركات اللدنية والقيام بغيرها ، وكذلك النقد ليس بالعادة الطبيعية وانما هو شيء يكتسب .

وقد تخالف الدكتور طه اذا عز عليك التخلي عما درجت عليه ، أو توافقه على كثير أو قليل مما يذهب اليه اذا آثرت التعويل على العقل والمنطق ، ولكنك لا تستطيع على الحالين الا أن تقدر جهده والا أن تقر بقيمة هذا البحث الطريف . وما من ريب في أن الاكثرين يشق عليهم أن ينفضوا أيديهم مما عاشوا مطمئنين اليـه ، غير أن الشعر الجاهلي لا يصيبه شيء ، فهو باق كما هو ، لم يحرقه الدكتور ولا سواه من خلق الله وكل ما يجد أن نسبته تتغير أو تصحح . وما أحق ذلك بأن يكون رواية ممتعة . وانها لكذلك في كتاب الدكتور .

وهنا موضع التحرز : فلسنا نقول ان بحث الدكتور طه قاطع في اثبات ما ذهب اليه وما نشايعه عليه من الرفض ، ولكنا نقول ان حجته اقوى من حجة القدماء . وأن رسالته ليست أكثر من باب فتحه لطالب الادب الجاهلي اذا أراد أن يصل الى نتيجة يسكن اليها العقل ، وانها لم تخل من المآخذ ولم تبرأ من السقطات وأن أولها خير من آخرها ، وصدورها أمتن من عجزها ذلك انه لم يوفق في التطبيق ولم يأت بشيء له قيمة ، ولو زهيدة ، حين أراد أن يتناول الشعر الجاهلي بالتفلية بعد أن مهد لذلك ببحث أسباب الانتحال ودواعيه .

ولا بأس من امثلة تجلو للقارىء ما نريد .

يقول الدكتور في رسالته أن « امرىء القيس ...... » يمني وشعره قرشي اللغة لا فرق بينه وبين القرآن في لفظه واعرابه وما يتصل بذلك

من قواعد الكلام ، ونحن نعلم ... أن لغة اليمن مخالفة كل المخالفة للغة الحجاز ، فكيف نظم الشاعر اليمني شعره في لغة أهل الحجاز ؟ بل في لغة قريش خاصة ؟ سيقولون نشأ امرؤ القيس في قبائل عدنان وكان أبوه ملكا على بني أسد وكانت أمه من بني تغلب وكان مهلهل خاله ، فليس غريبا أن يصطنع لغة عدنان ويعدل عن لغة اليمن ولكنا نجهل هذا كله ولا نستطيع أن نثبته الا من طريق هذا الشعر الذي ينسب الى امرىء القيس ونحن نشك في هذا الشعر ونصفه بانه منتحل .

والآن فنحن ندور : « نثبت لغة امرىء القيس الذي نشك فيه ! » الى أن يقول « واعجب من ذلك انك لا تجد مطلقا في شعر امرىء القيس لفظا أو أسلوبا أو نحوا من انحاء القول يدل على انه يمني فمهما يكن امرىء القيس قد تأثر بلغة عدنان فكيف نستطيع أن نتصور أن لغته الاولى قد محيت من نفسه محوا تاما ولم يظهر لها أثر ما في شعره ؟ نظن ان انصار القديم سيجدون كثيرا من المشقة والعناء ليحلوا هذه المشكلة » .

فامرؤ القيس يمني ، والشعر المعزو الى امرىء القيس عدناني اللغة قرشيها . وهذا حسن ولكن أحسن منه أن الدكتور حين تناول الابيات المنسوبة الى امرىء القيس رفض بعضها وقبل البعض الآخر — وان كانت كلها عدنانية قرشية !! رفض مثلا هذين البيتين :

وليل كموج البحر أرخى سدوله … عليَّ بأنواع الهموم ليبتلي

فقلت له لما تمطى بصلبه … وأردف أعجازا وناء بكلكل

وقبل هذا البيت الذي يتلوهما :

الا أيها الليل الطويل الا انجلي … بصبح وما الاصباح منك بامثل

فلماذا ؟ أهو يمني اللغة دونهما ؟ أفيه شيء يخالف لغة عدنان وقريش التي نزل بها القرآن من حيث اللفظ أو الاعراب وما يتصل بذلك من قواعد الكلام ؟ أم وقعت المعجزة وبلغ من تأثر الشاعر بلغة عدنان أن محيت لغته اليمنية من نفسه محواً تاماً في هذا البيت فقط ؟

وقد وقع الدكتور في مثل هذا الخطأ عينه لما تناول شعر عبيد وعلقمة وعمرو بن قميئة ومهلهل وبن حلزة وطرفة بن العبد الخ الخ وإن اختلفت القبائل .

وهو مع جنوحه الى رفض القصص المنحولة يتقبل قصة الفرزدق وإن كانت اشبه بالمنحول منها بأن تكون حقيقية ونعني بها زعمهم انه خرج في يوم مطير الى ضاحية البصرة وانتهى الى غدير فيه نساء . فقال ما اشبه هذا اليوم بيوم دارة جلجل ثم انصرف فصاح النساء به : « يا صاحب البغلة » وعز من عليه الا ما حدثهن بحديث دارة جلجل قالوا فقص عليهن قصة امرىء القيس وانشدهن قوله :

الا رب يوم لك منهن صالح ولا سيما يوم بدارة جلجل

ومن سقاطه انه يذكر « ابتذال » اللفظ ، ويعني انه مأنوس غير حوشي ، ويتكلم على المتانة والجزالة ويريد بهما حشو الكلام بالغريب الذي يحتاج المرء في فهمه الى مراجعة معاجم اللغة . وهو ما لا يغتفر لرجل تذوق الادب بله من يدرسه في الجامعة ، ومن ذلك قوله عن قصيدة جلة في رثاء كليب انها شعر « لا ندري أيستطيع شاعر او شاعرة في هذا العصر الحديث أن ياتي بأشد منه « سهولة ولينا وابتذالا ؟ » والابيات التي يشير اليها هي :

جل عندي فعل جساس فيا حسرتي عما انجلى او ينجلي
فعل جساس على وجدي به قاصم ظهري ومدن اجلي
يا قتيلا قوض الدهر به سقف بيتي جميعا من عل
هدم البيت الذي استحدثته وانثنى في هدم بيتي الاول
خصني قتل كليب بلظى من ورائي ولظى مستقبلي
ليس من يبكي ليومية كمن انما يبكي ليوم ينجلي

وهي ابيات ليس فيها ابتذال بالمعنى المفهوم . ومن نظرياته ان لغة الكلام عند العرب قبل الاسلام كانت وعرة حوشية !! انظر قوله « فان

قصيدة هذه من رقة اللفظ وسهولته ما يجعل فهمها يسيرا على أقل الناس حظا من العلم باللغة العربية في هذا العصر الذي نحن فيه ، وما هكذا كانت تتحدث العرب في منتصف القرن السادس للمسيح وقبل ظهور الاسلام بما يقرب من نصف قرن » فمن ادراك يا دكتور ؟! ويا لها من صورة معكوسة للغة في ذهن الدكتور !!

وقد اطلنا جدا والصحيفة لا تتسع للافاضة . ولذلك نختم كلامنا بأن الباب الثالث من الكتاب اشبه بتخبط الطلبة منه بابحاث الاساتذة فليته استغنى عنه . وان الدكتور ليحسن جدا الى نفسه اذا تحاشى الخروج من النقد العام الذي يسهل مع التحصيل ، الى النقد الطبيعي او الدراسات الفردية .

● ابراهيم عبد القادر المازني

المصدر : قبض الريح . ص ١٧٦ — ١٨٣ الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٠ . صدرت الطبعة الاولى للكتاب عام ١٩٢٧

قرار النيابة العامة

قضية الدكتور طه حسين

وصلت الينا نسخة من هذا القرار فاذا هو يؤيد ما كتبه الكاتبون من علماء الشرع ومن علماء القوانين ومن سائر طبقات العارفين من اثبات جهل طه حسين فيما كتبه وطعنه في الدين الاسلامي وتكذيبه للقرآن وتقليده في ذلك لبعض دعاة النصرانية ، واننا ننقل منه ما سبقتنا الى تلخيصه جريدة الاخبار الغراء للثقة بها قالت :

اصدر حضرة صاحب العزة محمد بك نور رئيس نيابة مصر قرارا مسهبا عن البلاغات التي قدمت ضد الدكتور طه حسين لتاليفه كتابا اسماه الشعر الجاهلي ويقع هذا القرار في ست عشرة صفحة من القطع الكبير وقد تناول في مقدمته الاشارة الى أسماء الاشخاص المبلغين وهم الشيخ خليل حسنين الطالب بالقسم العالي بالازهر وفضيلة شيخ الجامع الازهر وحضرة عبد الحميد افندي البنان عضو مجلس النواب .

ثم اتى القرار على التهمة التي وجهها المبلغون الى الدكتور وهي انه طعن في الدين الاسلامي في مواضع اربعة من كتابه .

(الأول) أن المؤلف اهان الدين الاسلامي بتكذيب القرآن في اخباره عن ابراهيم واسماعيل .

(الثاني) ما تعرض له المؤلف في شان القراءات السبع المجمع عليها .

(الثالث ينسبون للمؤلف انه طعن في كتابه على النبي صلى الله عليه وسلم) طعنا فاحشا من حيث نسبه .

(الرابعة) انكر المؤلف ان للاسلام اولية في بلاد العرب وانه دين ابراهيم .

عن الامر الاول

تناول القرار الكلام عن الامر الاول باستفاضة واسعة وذكر أقوال الدكتور طه في الشعر الجاهلي ولغة العرب وعاب طريقة المؤلف في الاستدلال والاستنتاج ثم انتقل الى تعرضه لابراهيم واسماعيل فقال :

ان الذي نريد أن نشير اليه انما هو الخطأ الذي اعتاد أن يرتكبه المؤلف في ابحاثه حيث يبدأ بافتراض يتخيله ، ثم ينتهي بأن يرتب عليه قواعد كأنها حقائق ثابتة كما فعل في أمر الاختلافات بين لغة حمير وبين لغة عدنان ، ثم في مسالة ابراهيم واسماعيل وهجرتهما الى مكة وبناء الكعبة إذ بدأ فيها باظهار الشك ثم انتهى باليقين(١) بدأ بقوله « للتوراة أن تحدثنا عن ابراهيم واسماعيل وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضا ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لاثبات وجودهما التاريخي فضلا عن اثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة اسماعيل بن ابراهيم الى مكة ونشأة العرب المستعربة فيها » الى هنا أظهر الشك لعدم قيام الدليل التاريخي في نظره كما تتطلبه الطرق الحديثة ، ثم انتهى بأن قرر في كثير من الصراحة قوله « أمر هذه القصة اذن واضح فهي حديثة العهد ظهرت قبيل الاسلام واستغلها الاسلام لسبب ديني » الخ فما هو الدليل الذي انتقل به من الشك الى اليقين .

هل دليله هو قوله « نحن مضطرون الى ان نرى في هذه القصة نوعا من الحيلة في اثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة ، وبين الاسلام واليهودية والقرآن والتوراة من جهة أخرى . وإن اقدم عصر يمكن ان تكون قد نشأت فيه هذه الفكرة إنما هو هذا العصر الذي أخذ اليهود يستوطنون فيه شمال البلاد العربية ويبثون فيه المستعمرات »

---

(١) اي بالجزم .

الخ وان ظهور الاسلام وما كان من الخصومة العتيقة بينه وبين وثنية العرب من غير اهل الكتاب قد اقتضى ان تثبت الصلة بين الدين الجديد وبين ديانتي النصارى واليهود ، وانه مع ثبوت الصلة الدينية يحسن ان تؤيدها صلة مادية الخ .

اذا كان الاستاذ المؤلف يرى ان ظهور الاسلام قد اقتضى ان تثبت الصلة بينه وبين ديانة اليهود والنصارى ، وان القرابة المادية الملفقة بين العرب واليهود لازمة لاثبات الصلة بين الاسلام وبين اليهودية فاستغلها لهذا الغرض فهل له ان يبين السبب في عدم اهتمامه أيضا بمثل هذه الحيلة لتوثيق الصلة بين الاسلام وبين النصرانية — وهل عدم اهتمامه هذا معناه عجزه أو استهانته بأمر النصرانية ؟ وهل من يريد توثيق الصلة مع اليهود باي ثمن حتى باستغلال التلفيق هو الذي يقول عنهم في القرآن (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا) .

ان الاستاذ ليعجز حقا عن تقديم هذا البيان اذ ان كل ما ذكره في هذه المسالة انما هو خيال في خيال ، وكل ما استند عليه من الأدلة هو : (١) فليس يبعد أن يكون (٢) فما الذي يمنع (٣) ونحن نعتقد (٤) واذن فليس يمنع قريشا من ان تقبل هذه الاسطورة (٥) واذن فنستطيع ان نقول :

فالاستاذ المؤلف في بحثه اذا راى انكار شيء يقول لا دليل عليه من الأدلة التي تطلبها الطرق الحديثة للبحث حسب الخطة التي رسمها في منهج البحث ، واذا رأى تقرير أمر لا يدلل عليه بغير الادلة التي أحصيناها له وكفى بقوله حجة !

سئل الأستاذ في التحقيق عن أصل هذه المسالة (اي تلفيق القصة) وهل هي من استنتاجه او نقلها فقال : هذا فرض فرضته انا دون ان اطلع عليه في كتاب آخر ، وقد اخبرت بعد أن ظهر الكتاب ان شيئا مثل هذا الفرض يوجد في بعض كتب المبشرين ولكن لم افكر فيه حتى

بعد ظهور كتابي . على انه سواء كان هذا الفرض من تخيله كما يقول او من نقله عن ذلك المبشر الذي يستتر تحت اسم هاشم العربي فانه كلام لا يستند الى دليل ولا قيمة له . على اننا نلاحظ ان ذلك المبشر مع ما هو ظاهر من مقاله من غرض الطعن على الاسلام كان في عبارته اظرف من مؤلف كتاب الشعر الجاهلي لانه لم يتعرض للشك في وجود ابراهيم واسماعيل بالذات ، وانما اكتفي بأن انكر ان اسماعيل ابو العرب وقال : إن حقيقة الامر في قصة اسماعيل انها دسيسة لفقها قدماء اليهود للعرب تزلفا اليهم الخ .

كما نلاحظ ايضا ان ذلك المبشر قد يكون له عذره في سلوك هذا السبيل لأن وظيفة التبشير لدينه غرضه الذي يتكلم فيه ، ولكن ما عذر الاستاذ المؤلف في طرق هذا الباب وما هي الضرورة التي الجأته الى ان يرى في هذه القصة نوعا من الحيلة الخ .

وان كان المتسامح يرى له بعض العذر في التشكك الذي اظهره اولا اعتمادا على عدم وجود الدليل التاريخي كما يقول فما الذي دعاه الى ان يقول في النهاية بعبارة تفيد الجزم : « امر هذه القصة اذن واضح فهي حديثة العهد ظهرت قبيل الاسلام واستغلها الاسلام لسبب ديني الخ » مع اعترافه في التحقيق بأن المسألة فرض افترضه .

يقول الاستاذ : « انه ان صح افتراضه فان القصة كانت شائعة بين العرب قبل الاسلام فلما جاء الاسلام استغلها وليس ما يمنع ان يتخذها الله في القران وسيلة لاقامة الحجة على خصوم المسلمين كما اتخذ من غيرهـا من القصص التي كانت معروفة وسيلة الى الاحتجاج او الى الهداية » وهاشم العربي يقول في مثل هذا : ولما ظهر محمد راى المصلحة في اقرارها فاقرها وقال للعرب انه انما يدعو الى ملة جدهم هذا الذي يعظمونه من غير ان يعرفوه . فسبحان من اوجد هذا التوافق بين الخواطر (!!)

ان الاستاذ المؤلف اخطا فيما كتب واخطا ايضا في تفسير ما كتب

وهو في هذه النقطة قد تعرض بغير شك لنصوص القرآن ولتفسير نصوص القرآن وليس في وسعه الهرب بادعائه البحث العلمي منفصلا عن الدين فليفسر لنا اذن قوله تعالى في سورة النساء (انا اوحينا اليك كما اوحينا الى نوح والنبين من بعده واوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وعيسى وايوب ويونس وهارون وسليمان).

وقوله في سورة مريم (اذكر في الكتاب ابراهيم انه كان صديقا نبيا . واذكر في الكتاب اسماعيل انه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا) وفي سورة آل عمران (قل آمنا بالله وما انزل على ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون) .

وغير ذلك من الآيات القرآنية الكثيرة التي ورد فيها ذكر ابراهيم واسماعيل لا على سبيل الامثال كما يدعي حضرته . وهل عقل الاستاذ يسلم بأن الله سبحانه وتعالى يذكر في كتابه أن ابراهيم وأن اسماعيل رسول نبي مع ان القصة ملفقة ؟ وماذا يقول حضرته في موسى وعيسى وقد ذكرهما الله سبحانه وتعالى في الآية الاخيرة مع ابراهيم واسماعيل وقال في حقهم جميعا (لا نفرق بين احد منهم) ؟

الحق أن المؤلف في هذه المسألة يتخبط تخبط الطائش ، ويكاد يعترف بخطئه لان جوابه يشعر بهذا عندما سألنا في التحقيق عن السبب الذي دعاه اخيرا لان يقرر بطريقة تفيد الجزم بان القصة حديثة العهد قبل الاسلام فقال ص ٣٨ من محضر التحقيق : هذه العبارة اذا كانت تفيد الجزم فهي انما تفيده ان صح الفرض الذي قامت عليه وربما كان فيها شيء من الغلو ولكنني اعتقد ان العلماء جميعا عندما يفترضون فروضا علمية يبيحون لانفسهم مثل هذا النحو من التعبير فالواقع انهم مقتنعون فيما بينهم وبين انفسهم بأن فروضهم راجحة .

والذي نراه نحن ان موقف الاستاذ المؤلف هذا لا يختلف عن مواقف

الاستاذ هوار حين يتكلم عن شعر امية بن أبي الصلت وقد وصف المؤلف نفسه هذا المؤلف في ص ٨٢ و ٨٣ من كتابه بقوله :

« ومع اني من اشد الناس اعجابا بالاستاذ هوار وبطائفه من اصحابه المستشرقين وبما ينتهون اليه في كثير من الاحيان من النتائج العلمية القيمة في تاريخ الادب العربي وبالمناهج التي يتخذونها للبحث فاني لا استطيع أن أقرا مثل هذا الفصل دون أن اعجب كيف يتورط العلماء احيانا في مواقف لا صلة بينها وبين العلم » .

حقا ان الاستاذ المؤلف قد تورط في هذا الموقف الذي لا صلة بينه وبين العلم لغير ضرورة يقتضيها بحثه ولا فائدة يرجوها ، لان النتيجة التي وصل اليها من بحثه وهي قوله : « ان الصلة بين اللغة العدنانية وبين اللغة القحطانية كالصلة بين اللغة العربية وأي لغة أخرى من اللغات السامية المعروفة ، وان قصة العاربة والمستعربة وتعلم اسماعيل العربية من جرهم كل ذلك حديث اساطير لا خطر له ولا غناء فيــه » ما كانت تستدعي التشكك في صحة اخبار القرآن عن ابراهيم واسماعيل وبنائهما الكعبة ثم الحكم بعدم صحة القصة وباستغلال الاسلام لها لسبب ديني ونحن لا نفهم كيف اباح المؤلف لنفسه أن يخلط بين الدين وبين العلم وهو القائل بان الدين يجب أن يكون بمعزل عن هذا النوع من البحث الذي هو بطبيعته قابل للتغيير والنقض والشك والانكار (ص ٢٢ من محضـر التحقيق) واننا حين نفصل بين العلم والدين نضع الكتب السماوية موضع التقديس ، ونعصمها من انكار المنكرين وطعن الطاعنين (ص ٢٤ من محضر التحقيق) ولا ندري لم يفعل غير ما يقول في هذا الموضوع ؟ لقد سئل في التحقيق عن هذا فقال : ان الداعي اني اناقش طائفة مـــن العلماء والادباء والقدماء والمحدثين وكلهم يقررون ان العرب المستعربة قد اخذوا لغتهم عن العرب العاربة بواسطة ابيهم اسماعيل بعد ان هاجر وهم جميعا يستدلون على آرائهم بنصوص من القرآن ومن الحديث فليس لي بد من أن اقول لهم ان هذه النصوص لا تلزمني من الوجهة العلمية .

اما الثابت في نصوص القرآن فقصة الهجرة وقصة بناء الكعبة وليس

في القرآن نصوص يستدل بها على تقسيم العرب الى عاربة ومستعربة ولا على ان اسماعيل ابو العرب العدنانين ولا على تعلم اسماعيل العربية من جرهم . ونص الآية التي تثبت الهجرة (ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون) لا يفيد غير اسكان ذرية ابراهيم في وادي مكة أي ان اسماعيل هوجر به صغيراً (كنص الحديث) الى هذا الوادي فنشأ فيه بين اهله وهم من العرب وتعلم هو وابناؤه لغة من نشأوا بينهم وهي العربية لان اللغة لا تولد مع الانسان وانما تكتسب اكتسابا ، وقد اندمجوا في العرب فصاروا منهم ، وهذا الاندماج لا يترتب عليه أن يكون جميع العرب العدنانيين من ذريته اذ الحكم بهذا يقتضي ان لا يكون مع اسماعيل احد منهم حتى لا يوجد غير ذريته وهو ما لم يقل به احد ويا ليت الاستاذ المؤلف حذا حذو ذلك المبشر هاشم العربي في هذه المسألة حيث قال « ولا اسماعيل نفسه باب للعرب المستعربة ولا تملك أحد من بنيه على أمة من الامم وانما قصارى امرهم انهم دخلوا وهم عدد قليل في قبائل العرب العديدة المجاورة لمنازلهم فاختلطوا بها وما كانوا الا كحصاة في فلاة ») تراجع صحيفة ٣٥٦ من كتاب مقالة في الاسلام) — ولو ان المؤلف نقل هذا لنجا من التورط في هذا الموضوع . واما مسألة بناء الكعبة فلم نفهم الحكمة في نفيها واعتبارها اسطورة الاساطير اللهم الا اذا كان مرده ازالة كل اثر لابراهيم واسماعيل ولكن ما مصلحة المؤلف في هذا ؟ الله اعلم بمراده (١) .

عن الامر الثاني

تناول القرار الامر الثاني الخاص بالقراآت وبعد تحليله قال « ونحن نرى ان ما ذكره المؤلف في هذه المسألة هو بحث علمي لا تعارض بينه وبين الدين ولا اعتراض لنا عليه » .

---

(١) المنار : الذي فهمه الناس من كلامه ان مراده الطعن في الاسلام وصد الناس عنه .

عن الامر الثالث

تناول القرار مسألة نسب النبي صلى الله عليه وسلم وبعد ان حللها قال « ونحن لا نرى اعتراضا على بحثه على النحو من حيث هو وانما كل ما نلاحظه عليه انه تكلم فيما يختص باسرة النبي صلى الله عليه وسلم ونسبه في قريش بعبارةخالية من كل احترام بل بشكل تهكمي غير لائق ولا يوجد في بحثه ما يدعوه لايراد العبارة على هذا النحو » .

الامــر الرابــع

تناول القرار الامر الرابع وبعد تحليله قال « ونحن لا نرى اعتراضا على ان يكون مراده بما كتب في هذه المسألة هو ما ذكره ولكننا نرى انه كان سيء التعبيرجدا في بعض عباراته كقوله : ولم يكن احد قد احتكر ملة ابراهيم ولا زعم لنفسه الانفراد بتاويلها . لقد اخذ المسلمون يردون دين الاسلام في خلاصته الى دين ابراهيم هذا الذي هو اقدم وانقى من دين اليهود والنصارى . وكقوله : وشاعت في العرب اثنـاء ظهور الاسلام وبعده فكرة ان الاسلام يجدد دين ابراهيم في عصر من العصور .. لان في ايراد عباراته على هذا النحو ما يشعر بانه يقصد شيئا آخر بجانب هذا المراد خصوصا اذا قربنا بين هذه العبارات ، وبين ما سبق له ان ذكره بشأن تشككه في وجود ابراهيم وما يتعلق به » .

عــن القانــون

نصت المادة (١٢) من الأمر الملكي رقم (٤٢) لسنة ١٩٢٣ بوضع نظام دستوري للدولة المصرية على ان حرية الاعتقاد مطلقة .

ونصت المادة (١٤) منه على ان حرية الراي مكفولة ولكل انسان الاعراب عن فكره بالقول او بالكتابة أو بالتصوير أو بغير ذلك في حدود القانون .

ونصت المادة ٤٩ منه على ان الاسلام دين الدولة فلكل إنسان إذاً حرية

الاعتقاد بغير قيد ولا شرط وحرية الرأي في حدود القانون فله ان يعرب عن اعتقاده و فكره بالقول او الكتابة بشرط ان لا يتجاوز حدود القانون .

وقد نصت المادة ١٣٩ من قانون العقوبات الاهلي على عقاب كل تعد يقع باحدى طرق العلانية المنصوص في المادتين ١٤٨ ، ١٥٠ على احد الاديان التي تؤدي شعائرها علنا . وجريمة التعدي على الاديان المعاقب عليهـا بمقتضى المادة المذكورة تتكون بتوفر اربعة اركان .

١ ــ التعدي .

٢ ــ وقوع التعدي باحد الطرق العلينة المبينة في المادتين ١٤٨ ، ١٥٠ عقوبات .

٣ ــ وقوع التعدي على احد الاديان التي تؤدي شعائرها علنا .

٤ ــ القصد الجنائي .

عـن الركـن الأول

لم يذكر القانون بشان هذا الركن في المادة إلا لفظ (تعد) وهذا لفظ عام يمكن فهم المراد منه بالرجوع الى نص المادة باللغة الفرنسية وقد عبر القانون فيه عن التعدي outage والقانون قد استعمل لفظ outage هذا في المواد ١٥٥ و ١٦٠ عقوبات أيضا ولما ذكر معناها في النص العربي للمواد المذكورة عبر في المادة (١٥٥) بقوله (كل من انتهك حرمة) وفي المادتين ١٥٩ ، ١٦٠ باهانة فيتضح من هذا ــ أن مراده بالتعدي في المادة ١٣٩ هو كل مساس بكرامة الدين او انتهاك حرمته او الحط من قدرة او الازدراء به لان الاهانة تشمل كل هذه المعاني بلا شك .

وحيث إنه بالرجوع الى الوقائع التي ذكرها الدكتور طه حسين والتي تكلمنا عنها تفصيلا وتطبيقها على القانون يتضح ان كلامه الذي بحثناه تحت عنوان (الامر الاول) فيه تعد على الدين الاسلامي لانه انتهك حرمة هذا

الدين بأن نسب الى الاسلام انه استغل قصة ملفقة هي قصـــة هجره اسماعيل بن ابراهيم الى مكة وبناء ابراهيم واسماعيل للكعبة . واعتبار هذه القصة اسطورة وانها من تلفيق اليهود ، وانها حديثة العهد ظهرت قبل الاسلام الى آخر ما ذكرناه تفصيلا عند الكلام على الوقائع وهو بكلامه هذا يرمي الدين الاسلامي بانه مضلل في امور هي عقائد ثابتة ، وواردة في القرآن باعتبار انها حقائق لامرية فيها كما أن كلامه الذي بحثناه تحت عنوان (الامر الرابع) قد اورده على صورة تشعر بانه يريد به اتمام فكرته بشأن نسب النبي صلى الله عليه وسلم فهو إن لم يكن فيه طعن ظاهر إلا انه اورده بعبارة تهكمية تشف عن الحط من قدره ــ واما ما ذكره بشـــأن القرآن مما تكلمنا عنه في الامر الثاني فانه بحث بريء من الوجهة العلمية والدينية ايضا ولا شيء فيه يستوجب المؤاخذة لا من الوجهة الادبيـــة ولا من الوجهة القانونية .

عـن الركـن الثـاني

لا نزاع في هذا الركن ايضا لان التعدي وقع على الدين الاسلامي الذي إذ انه اورد في كتاب الشعر الجاهلي الذي طبع ونشر وبيع في المحلات العمومية والمؤلف معترف بهذا .

عـن الركـن الثـالث

لا نزاع في هذا الركن ايضا لان التعدي وقع على الدين الاسلامي الذي تؤدى شعائره علنا وهو الدين الرسمي للدولة .

عـن الركـن الرابـع

هذا الركن هو الركن الادبي الذي يجب ان يتوفر في كل جريمة فيجب إذاً لمعاقبة المؤلف ان يقدم الدليل على توفر القصد الجنائي لديه ، وبعبارة اوضح يجب ان يثبت انه إنما اراد بما كتب أن يتعدى على الدين الاسلامي فاذا لم يثبت هذا الركن فلا عقاب .

انكر المؤلف في التحقيقات انه يريد الطعن على الدين الاسلامي ، وقال إنه ذكر ما ذكر في سبيل البحث العلمي وخدمة العلم لا غير ـ غير مقيد بشيء ، وقد اشار في كتابه تفصيلا الى الطريق الذي رسمه للبحث ، ولا بد لنا هنا ان نشير الى ما قرره المؤلف في التحقيق من أنه كمسلم لا يرتاب في وجود ابراهيم واسماعيل وما يتصل بهما مما جاء في القرآن ولكنه كعالم مضطر الى ان يذعن لمناهج البحث فلا يسلم بالوجود العلمي التاريخي لابراهيم واسماعيل فهو يجرد من نفسه شخصيتين وقد وجدنا المؤلف قد شرح نظريته هذه شرحا مستفيضا في مقال نشره بجريدة السياسة الاسبوعية بالعدد نمرة ١٩ الصادر في ١٧ يوليه سنة ١٩٢٦ ص ٥ تحت عنوان (العلم والدين) وقد ذكر فيه بالنص « فكل امري منا يستطيع ان فكر قليلا أن يجد في نفسه شخصيتين ممتازين إحداهما عاقلة تبحث وتنقد وتحلل وتغير اليوم ما ذهبت اليه أمس ، وتهدم اليوم ما بنته امس. والاخرى شاعرة تلذ وتألم وتفرح وتحزن وترضى وتغضب وترغب وترهب في غير نقد ولا بحث ولا تحليل ، كلتا الشخصيتين متصلة بمزاجنا وتكويننا لا نستطيع أن نخلص من إحداهما فما الذي يمنع أن تكون الشخصية الاولى عالمة باحثة ناقدة ، وان تكون الشخصية الثانية مؤمنة مطمئنة طامحة الى المثل الاعلى .

ولسنا نعترض على هذه النظرية باكثر مما اعترض به هو على نفسه في مقاله حيث ذكر بعد ذلك : « ستقول وكيف يمكن ان تجمع المتناقضين ؟ ولست أحاول جوابا لهذا السؤال وإنما أحولك على نفسك الخ ولا شك في أن عدم محاولة الاجابة على هذا الاعتراض انما هو عجزه عن الجواب . والمفهوم انه قد أورد هذا الاعتراض لانه يتوقعه حتى لا يوجه اليه .

الحقيقة انه لا يمكن الجمع بين النقيضين في شخص واحد وفي وقت واحد بل لا بد من أن تتخلى حدى الحالتين للاخلاى وقد اشار المؤلف نفسه الى هذا في نفس المقال في سياق كلامه على الخلاف بين العلم والدين حيث قال بشأنهما : «ليسا متفقين ولا سبيل الى أن يتفقا الا أن ينزل أحدهما لصاحبه عن شخصيته كلها » .

اما توريع الاختصاص الذي اجراه الدكتور بجعله العلم من اختصاص القوة العاقلة والدين من اختصاص القوة الشاعرة فلسنا ندركه ، والذي نفهمه أن العقل هو الاحساس في العلم وفي الدين معا ، واذا ما وجدنا العلم والدين يتنازعان فسبب ذلك انه ليس لدنيا القدر الكافي من كل منهما — اننا نقرر هذا بناء على على ما نعرفه في انفسنا اما الدكتور فقد تكون لديه القدرة على ما يقول وليس ذلك على الله بعسير .

نحن في موضع البحث عن حقيقة نية المؤلف فسواء لدينا صحت نظرية تجريد الشخصيتين عالمة ومندينة او لم تصح فاننا على الفرضين نرى أنه كتب ما كتب من اعتقاد تام ولما قرأنا ما كتبه بامعان وجدناه منساقا في كتابته بعامل قوي متسلط على نفسه ، وقد بينا حين بحثنا الواقع كيف قاده بحثه الى ما كتب وهو وان كان قد اخطأ فيما كتب الا أن الخطأ المصحوب باعتقاد الصواب شيء وتعمد الخطأ المصحوب بنية التعدي شيء آخر .

وحيث انه مع ملاحظة ان اغلب ما كتبه المؤلف مما يمس موضوع الشكوى وهو ما قصرنا بحثنا عليه وانما هو تخيلات وافتراضات واستنتاجات لا تستند الى دليل علمي صحيح فانه كان يجب عليه أن يكون حريصا في جرأته على ما أقدم عليه مما يمس الدين الاسلامي الذي هو دينه ودين الدولة التي هو من رجالها المسئولين عن نوع من العمل فيها وان يلاحظ مركزه الخاص في الوسط الذي يعمل فيه — صحيح إنه كتب ما كتب عن اعتقاده بأن بحثه العلمي يقتضيه ولكنه مع هذا كان مقدراً لمركزه تماما وهذا الشعور ظاهر من عبارات كثيرة في كتابه منها قوله : واكاد اثق بان فريقا منهم سيلقونه ساخطين عليه ، وبأن فريقا آخر سيزورون عنه ازواراً ، ولكني على سخط اولئك وازورار هؤلاء اريد أن أذيع هذا البحث .

ان للمؤلف فضلا لا ينكر في سلوكه طريقا جديدا للبحث حذا فيه حذو العلماء من الغربيين ولكنه لشدة تأثر نفسه مما اخذ عنهم قد تورط في

بحثه حتى تخيل حقا ما ليس بحق ، او ما لا يزال في حاجة الى اثبات انه حق — انه قد سلك طريقا مظلمة فكان يجب عليه ان يسير على مهل وان يحتاط في سيره حتى لا يصل ولكنه اقدم بغير احتياط فكانت النتيجة غير محمودة .

وحيث إنه مما تقدم يتضح أن غرض المؤلف لم يكن مجرد الطعن والتعدي على الدين بل ان العبارات الماسة بالدين التي اوردها في بعض المواضع من كتابه انما قد اوردها في سبيل البحث العلمي مع اعتقاده ان بحثه يقتضيها .

« وحيث إنه من ذلك يكون القصد الجنائي غير متوفر

« فلذلك » تحفظ الاوراق اداريا .

القاهرة في ٣ مارس سنة ١٩٢٧ **رئيس نيابة مصر**

(المنار) قد اثبت رئيس النيابة ان الدكتور طه حسين طعن في الدين الاسلامي وكذب القرآن بما سبقه اليه بعض دعاة النصرانية فكان هذا في طعنه أقرب منه الى الادب — واثبت ان مطاعنه التي شكا منها المسلمون وطلب بعض رجال الدين ورجال النيابة البرلمانية محاكمته عليها لم تستند الى دليل علمي صحيح وانما هي تخيلات وافتراضات باطلة وهو قد اثبت بما ذكره إرتداده عن الاسلام ، وانه كان مقدرا نتيجة عمله وسوء تأثيره في المسلمين كما صرح به بغير مبالاة — ثم ان الرئيس مع هذا قد ارتأى أن الدكتور طه يعتقد ان ما كتبه حق وانه يقتضيه البحث العلمي ولم يقصد به مجرد الطعن والتعدي — وانه لهذا لم يجد وجها قانونيا لمحاكمته فأمر بحفظ الاوراق الخاصة بقضيته اداريا .

وقد رأينا الناس متعجبين من هذه النتيجة ومخالفين لرئيس النيابة في استنتاجه ، على اعجابهم بدقة فهمه وحسن تفنيده لتلك المطاعن .. وقد سبق لي أن بينت في المنار ما فهمته من غرض الدكتور طه حسين وهو تشكيك طلبة الجامعة المصرية وسائر من يقرأ كتابه في الدين الاسلامي

بل افساد اعتقادهم وتجرئتهم على الكفر ، لانه ليس من الغباوة والبلادة بحيث يعتقد ان تلك « التخيلات والافتراضات » ادلة علمية على حقيقة طعنه فهو لا يعتقد ان ما كتبه حق الا من حيث انه لا يؤمن بأن كتاب الله هو الحق الذي « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » .

ثم اقول اذا كان من يطعن في دين الدولة والامة طعنا صريحا لا يستند الى دليل ولكنه هو يعتقده — يباح له ذلك قانونا ولا يحاكم ولا يعاقب فكيف يعقل ان يكون الطعن في الدين ممنوعا ومن الضروري انه لا يطعن فيه الا من يعتقد بطلانه من ملحد أو متدين بدين آخر ؟ ألا إن هذا القرار يجرأ كل كافر بالاسلام على الطعن فيه ، وهل يطعن فيه الا كافر به ؟

هذا وان الدكتور طه قد استقال من التعليم في الجامعة عقب صدور هذا القرار لما فيه من الاهانة له واثبات جهله فبادر مدير الجامعة احمد لطفي بك السيد الى تلافي الامر وحمل وزير المعارف على ان لا يقبل استقالته ففعل ، فعلم بهذا من لم يكن يعلم رأي كل من مدير الجامعة ووزير المعارف في الدكتور طه حسين وقد طبع كتابه ثانية بعد حذف ما انكر المسلمون منه وهو باق في الجامعة فمن شاء فليرض ومن شاء فليغضب (ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) .

المصدر : مجلة المنار جـ ٥ مجلد ٢٨ يونيو ١٩٢٧

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

محمد احمد الغمراوي

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، المبعوثين بالحق ، والمخبرين بالصدق عن الله .

وبعد فهذا نقد لكتاب ظهر من قبل باسم ، ثم ظهر بعد باسم ، وحوى في الحالين باسم العلم كثيرا مما يجهله العلم .

ظهر كتاب « في الشعر الجاهلي » منذ أكثر من عامين فسخطه الناس سواء العامة منهم والخاصة ، لا لانه حوى حقائق ينكرونها ولكن لانه حوى دعاوى خالفت ما يعرفون من اساسيات الدين واللغة والتاريخ . وكان فيما استلفتني من ذلك دفاع صاحب الكتاب عن كتابه باسم العلم ، وادعاؤه أن ذلك الذي سخطه الناس انما هو نتيجة بحث اخذ فيه بمناهج البحث العلمي الصحيح . وهي دعوى لم تكن لتستحق التمحيص لولا أن الرأي العلمي في بلدنا هذا لم يتكون أو ليس له صوت مسموع . فلو كان في مصر رأي علمي مسموع الصوت ما أمكن أن يلقى ذلك الكتاب الفج دروسا على طلبة حديثي العهد بالدور الثانوي لا يستطيعون تمحيصا لرأي يلقيه عليهم أستاذهم كأحدث ما يتفق مع النهج العلمي الحديث .

عندئذ صحت العزيمة على تناول صلب ذلك الكتاب بنقد يكشف عن طريقته أعلمية هي أم غير علمية ، ويقرن بعض اجزاء الكتاب الى بعض ليتبين أمتوافقة هي فيما بينها ام متخالفة ، فان الطريقة العلمية يعرفها المشتغلون بالعلم وهم بيننا غير قليل ، وتوافق اجزاء الكتاب

الواحد ضروري ان كان ذلك الكتاب قد صدر عن تفكير صحيح . واقل فوائد هذا النوع من النقد انه اذا احسن القيام به يسد ابواب المرء على اهل المراء والشك ، ويخيرهم بين ان يذعنوا للحق او ان يصيروا مثلا وسخرية في العقلاء .

وكان من اثر ذلك العزم أن ظهرت سلسلة كلمات في جريدة « البلاغ »(١) تنقد كتاب « في الشعر الجاهلي » من الناحية العلمية ، احقاقاً للحق وانصافا للعلم والدين . وهي كلمات كدنا ننزل على رأي بعض اولي الفضل فنجمعها اذ ذاك كتابا ، لولا أن ذلك لم يكن من قصدنا حين كتبناها ، وان الكتاب الذي كتبت في نقده كان قد صودر ورفع من الاسواق ، فلم نسترح اذ ذاك الى نشر النقد كتابا وقد طوى المنقود .

لكن المنقود عاد فانبعث بعد أن غير من زيه وان لم يغير من حقيقته فلم نجد بدأ من أن نعيد ذلك النقد ونجعله بعد التعديل المناسب نواة لنقد اوسع يتناسب مع التضخم في الكتاب المنقود . فكتاب « في الادب الجاهلي » هو مثل كتاب « في الشعر الجاهلي » بروحه وغايته وطريقته ، لم ينتفع فيه صاحبه بنقد الناقدين على تعدد نقدهم وصوابه واني لا اعرف في عهدنا هذا كتاباً لقي من عناية النقاد على تنوعهم ما لقي ذلك الكتاب . وهم لم يعنوا به لانه جاء بقيم يستدعي اكبارهم ، اذ كل ما كتب الكاتبون فيه كان تخطئة له في صميمه ودلالة على عيوبه ، وانما عنوا به لانه تعرض بالهدم للثابت مما يكبر الناس من دين ولغة وتاريخ . فهي عناية كانت اشبه بعناية الطب اذا هب لمكافحة مرض تتهدد جرثومته الناس .

وفي رأينا ان إعراض صاحب ذلك الكتاب عن الانتفاع بذلك النقد

---

(١) في النصف الثاني من سنة ١٩٢٦ .

الكثير الصائب ادل على الروح الذي يحركه والغرض الذي يحـركه والغرض الذي يسعى اليه من كل ما نمق وما ينمق من زخرف يزعـم به التجرد من الهوى والجري على سنن العلم والحديث ، وان اخراجه كتاب « في الادب الجاهلي » وفيه ما فيه من اغلاط « الشعر الجاهلي » لدليل قصور عن ادراك الحق ، أو عناد يخرج صاحبه من دائرة طلاب الحـق .

أما نوع تلك الاغلاط ، وبعد ما بين الكتاب وبين العلم وسننه في النظر والبحث ، فهذا ما نرجو أن يتبينه القارىء من هذا النقد التحليلي لذلك الكتـاب .



المقـدمـة

صاحب الكتاب والتجديد في الادب

ولصاحب الكتاب نداء يلجأ اليه كلما اراد تزيين رأيه وتشويه رأي مخالفيه للناس هو نداء التجديد . فهو المجدد ومخالفه غير مجدد ، وهو نصير الجديد ومخالفه نصير القديم . وكلمة التجديد هنا ، ككلمتي القديم والحديث ، من الكلمات المبهمة التي يحتاج معناها الى تحديد . ثم هي هنا من الكلمات المنقولة عن مدلول مادي الى مدلول معنوي . والخطر الذي يصحب مثل هذا النقل هو ان ينتقل مع الكلمة جوها الذي كان يصحبها في استعمالها الاول فيصير معها في استعمالها الثاني ، فان لامثال تلك الكلمات أجواء تنتقل معها في تداولها ، كما للكواكب أجواء تنتقل معها في سبحها وتنقلها . فاذا علقت الكلمة ذات الجو بمدلول جديد علق به ما كان يحيط بها في استعمالها الاول من استحسان او استقباح ، وسرى ذلك الى النفوس خفية فتستحسن أو تستقبح من غير أن تدري لذلك سـببا .

فالناس يستحسنون في الماديات الجديد ويفضلونه على القديـم .

فاللبس الجديد مثلا والمسكن الجديد خير عندهم من مثله من القديم . وهم ياخذون في ذلك بتجاريبهم فهم فيه على صواب . لكن اذا نقل ناقل القدم والجدة الى المعنويات فبدأ يكلم الناس عن الادب القديم والادب والجديد ، والمدينة القديمة والمدنية الجديدة ، والحياة القديمة والحياة الجديدة . كان الناس منه على خطر وبدأوا يستقبحون ويستحسنون من غير أن يكونوا غالباً على صواب في الاستقباح أو الاستحسان : يستحسنون المدنية الجديدة ولعلها شر من المدينة القديمة ، ويستقبحون الادب القديم ولعله خير من الادب الجديد . وهم لا يفعلون ذلك لانهم يرون مدنية خيراً من مدينة وادباً شراً من أدب ، ولكن لأن الجدة فيما الفوا من المحسوسات مقرونة عندهم بالتفضيل فيجرون المعنويات مجرى الماديات عفواً من غير قصد ، ويفاضلون بين الجديد والقديم في الأدب كما يفاضلون بين الجديد والقديم في اللباس ، ويقعون طبعا في نفس الخطا الذي يقع فيه طالب المنطق حين يستعمل في قياس واحد لفظاً واحداً مشتركاً بين معنيين مختلفين . والناس معذرون اذا فعلوا هذا ، اذ ليس منتظراً من جمهورهم أن يكونوا مناطقة مدققين أو أن يحذروا سوء استغلال قانون الربط أو القرآن النفسي (Association Law) . انما الذي تقع عليه تبعة ذلك الخطأ الخفي البالغ هو ذلك الذي يستغل امثال تلك الالفاظ من غير حق وينقلها عما ينطبق جوها عليه الى ما لا ينطق جوها عليه . واذا كان هذا الاستغلال منتظراً او على الاقل لا يمكن منعه في الدعايات الحزبية ، حيث تراعى المصلحة ولا تراعى الحقيقة ، فان الابحاث العلمية والادبية يجب أن تبرأ منه اذ يجب أن يكون للحقيقة فيها المكان الاول .

وكتاب الادب الجاهلي يستغل هذا النوع من الالفاظ الى حد كبير ، فهو لا يسأم الكلام عن القديم والجديد والادب القديم والادب الجديد ، وانصار القديم وانصار الجديد ، وصاحبه دائما يريد بانصار القديم مخالفيه وبانصار الجديد انصاره ، فهل هناك فيما يدعو اليه في أدب اللغة

شيء جديد يستحق ان تفترق الكلمة فيه فيكون انصاره هم المجددين ، ويكون اضداده هم الجامدين ؟

هذا سؤال يحتاج جوابه الى النظر في طريقة صاحب الكتاب في الادب، وفيما جاء به من مذهب في فهم الادب وتاريخه ومن راي في اصلاحهما ، ثم فيما ساق في كتابه من بحث . ونظن انك سترى اذا عرضنا عليك هذا كله ان امر صاحب الكتاب ومن معه أهون كثيراً مما يصوورن ، وانهم في صميمهم مقلدون لا مجددون ، وكثيرا ما يسيئون التقليد .

● **محمد احمد الغمراوي**

المصدر : النقد التحليلي لكتاب في الادب الجاهلي المقدمة + ص ٣١ ـ ٣٢ . تاليف : محمد احمد الغمراوي منشورات دار الحكمة . بيروت ١٩٧٠

ظهرت الطبعة الاولى للكتاب عام ١٩٢٩ عن المكتبة السلفية ـ القاهرة .

تقريظ المطبوعات الحديثة

النقد التحليلي لكتاب « في الادب الجاهلي »

مؤلفه الاستاذ الفاضل محمد احمد الغمراوي خريج مدرسة المعلمين العليا بمصر ثم جامعة لندن في انكلترا ، وله مقدمة حافلة بقلم امير البيان الامير شكيب ارسلان طبع في المطبعة السلفية بمصر سنة ١٣٤٧ هـ ١٩٢٩م وصفحاته بفهرسه دون مقدمته ٢٢٥ و٣ وثمن النسخة ١٥ قرشا .

اما كتاب (في الادب الجاهلي) الذي وضع هذا الكتاب لنقده بالاسلوب الذي يسمى بالتحليلي فهو كتاب الدكتور طه حسين الذي كان استاذ أدب اللغة في كلية الآداب من الجامعة المصرية ، واخرج منها في هذه الاثناء ثم عزل من وزارة المعارف . وكان سماه « في الشعر الجاهلي » لخص فيه دروساً في آداب اللغة العربية القاها على تلامذه في الجامعة كان أهم مقصد له فيها نفث سموم الالحاد في أرواحهم بالتشكيك في عقائد الاسلام بل صرح فيه بتكذيب القرآن العظيم ، فضج المسلمون في غير الجامعة ضجيجا شديدا بالانكار عليه ، وكتبوا مقالات كثيرة والفوا كتبا ورسائل في نقض مطاعنه وغيرها من جهالته ، فكان يطير بذلك سرورا لانه سبب لطيران شهرته وعلو مكانته عندمنافقي المسلمين اعداء الاسلام من الافرنج وغيرهم ولاسيما الملاحدة ودعاة النصرانية منهم ، وهما الفريقان اللذان قد أيد دعايتهما وكان ماكتبه في الصد عن الاسلام أضر من كل ما كتبوه . ولكن آل ذلك الى مطالبة النيابة العامة مقاضاته الى محكمة العقوبات واصدار رئيسها عقب التحقيق قرارا في شأن كتابه شديد الوطأة عليه ، وابلغ من كل ما كتب من الطعن

فيه ، الا أنه لم يثبت عنده أنه سيء النية في طعنه ، بحيث يحكم القانون بعقابه ، ولكن جاء في صيغة القرار ما يدل على سوء النية . وقد أمرت الحكومة بمصادرة الكتاب وجمع ما بقي من نسخه ومنع نشرها فنفذ ذلـك .

ذلك بأن مجلس النواب المصري كان قد ثار عليه يومئذ ثورة شؤمى وارتأى وجوب عقابه ومنعه من التدريس وكان رئيسه الزعيم الاكبر سعد باشا زغلول يرى ذلك ولكن تصدى لمظاهرة الدكتور والدفاع عنه زعماء الحزب الدستوري الذي ينتمي اليه ، فلما اشتد سعد باشا عليه بلغ من انتصار عدلي باشا له أن بلغ سعد باشا انه يستقيل من الوزارة اذا عوقب طه حسين ــ وكان عدلي رئيس الوزارة الائتلافية بعد الصلح بينه وبين سعد باشا ــ فاضطر سعد باشا الى الاغماض والاغضاء ــ فكان هذا أغرب ضعف رأيناه من سعد باشا ، وأغرب قوة وشدة عزيمة عرفناها من عدلي باشا .. ولماذا ؟ لاجل ابقاء طه حسين في الجامعة المصرية ينفث سموم الالحاد والزندقة فيها .

بيد أن الدكتور طه حسين اضطر في اثناء هذه المحنة أن يصرح بقول ينجو به من عقاب الحكم عليه بتعمد الطعن على القرآن ومعاداة الاسلام فصرح في كتاب كتبه الى رئيس الجامعة يقول فيه انه مسلم يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولكن مثل هذا الاقرار لا يكفي في اثبات رجوعــه عما كان قاله وفعله منافيا للاسلام فان أهل الكتاب يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله اجمالا وهو لم يأخذ طعنه في القرآن الا عنهم ، وانما كان يجب أن يقر بانه يؤمن بأن القرآن كلام الله تعالى المنزل على محمد رسول الله وخاتم النبيين وان كل ما فيه حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وان ما قاله منافيا أو معارضا لذلك فهو خطأ .

ثم انه اضطر بعد هذا الى أن يحذف اصرح ما قيل انه تكذيب القرآن ومناف للاسلام والايمان من كتاب (في الشعر الجاهلي) ويزيد فيه بعض المباحث ويعيد طبعه مسميا اياه (في الادب الجاهلي) وهذا الكتاب الثاني

هو الذي الف الاستاذ الغمراوي كتابه في نقده ، واثبات ما فيه من الجهل ومنافاة الاسلام والتشكيك فيه ؛ ولكن طه حسين لا يبالي نقدا ولا نقضا . ولا يرد على ناقد ولا ناقض ، لانه ان فعل هذا يظهر جهله للمغرورين بعلمه من تلاميذه وغيرهم ، وربما كان اكثرهم لا يقرءون كلام الذين يردون عليه، وما هو بالذي يتحرى الحق وما ينفع الناس فيرجع عما يظهر له خطؤه فيه .

اما مقدمة الامير شكيب للكتاب فلو لم يكتب في النقض الاجمالي لكتابي الدكتور طه حسين او كتابه ذي الثوبين او الاسمين — لما احتيج الى غيرها. واما كتاب الاستاذ الغمراوي نفسه فهو لم يغادر صغيرة ولا كبيرة فيه الا احصاها ، وحكم عليها حكما تحليليا عادلا ، ولعمر الحق ان طه حسين وكتبه الخلابة الافسادية لا يستحقان كل هذه العناية واتما عني العلماء والادباء بالرد عليه لما رأوا من عناية بعض الوزراء والكبراء به وبما يكتبه وبدفاعهم عنه ، ولهذا زاد الامير شكيب على الاستاذ الغمراوي القاء ذنبه على وزارة المعارف ووضع ذنبها على برلمان البلاد وذنب البرلمان على الامة المصريـــة .

ان دعاية الالحاد التي ينفث سمومها طه حسين في ارواح طلبة الجامعة وقد دون اصولها في كتابه هذا مبنية على قاعدة التجديد تجديد الادب — وان سادته فيها كتب دعاة النصرانية وكتب بعض المستشرقين ولاسيما اعداء الاسلام منهم كالدكتور مرجيلوث الانكليزي المشهور — وان اسلوبه فيها — هو ذم كل قديم في الاسلام وكتبه وآدابه وائمتها والتشكيك في كل حق وحسن منها بعبارات التهكم والاستهزاء ، واما حجته فيها فهي انها مقتضى النقد التحليلي الذي يزعمون أنه من وضع الافرنج وما هو من وضع الافرنج بل كان معروفا عند سلفنا علماء العرب وأدبائهم ؛ فمنـــه ما تراه في مقدمة حكيمنا ابن خلدون من نقده لكتب التاريخ ومنه ما كتبه كثير من العلماء والادباء في نقضهم للشعر ولبعض كتب العلم كنقض شيخ الاسلام ابن تيمية لكتاب أساس التقديس للامام الرازي ونقض علم المنطق .

واذا قرأت كتاب النقد التحليلي للاستاذ الغمراوي فانه يثبت لك أن

الدكتور طه حسين لا يملك من هذا النقد الا خلابة اللفظ ، فيما سداه الدعوى ولحمته الجهل ، وحسبك اعتماده فيه على الشك ، وانما الشك دون الظن ، والظن دون العلم ، وقد بينا هذا في المنار من قبل .

وفي كتاب الغمراوي من الحجج القيمة على جهلة مالا يمكن رده . وفيه من الفوائد العلمية والقول الحق في المسائل المبحوث فيها وفيما حولها مالا يستغني عنه طلاب الادب فنحث القراء على مطالعته والاستفادة منه .

المصـــدر : مجلة المنار جـ ٤ مجلد ٣٢ ابريل ١٩٣٢ .

حماة القرون الوسطى

سامي الكيالي ١٨٩٨ – ١٩٧٢

.... لقد قضي الامر ، واسدل الستار على الفصل الاخير من رواية « حماة القرون الوسطى » التي انتهت بفصل الدكتور طه ليس من الجامعة فحسب بل من مركزه في الوزارة ايضا !... وليهنأ حماة الدين الآن فكأنما كان الدين الحنيف على شفا جرف هار منذ كان الدكتور في بيئته العلمية ، وان فصله عن هذه البيئة قد سند الدين من الانحدار في الهاوية وأعاد له جلاله وللاسلام قدسيته !

هذا هو هيكل الرواية التي قام بتمثيلها جماعة يسيطرون على مقادير امة يربو عدد نفوسها على الخمسة عشر مليونا . ومصر اليوم تتبوأ زعامة الشرق في ميدان التجديد الادبي وتناضل عن كرامة العقل وصون حرية الفكر من كل عبث ، ومع ذلك ، ولاسباب واهية لا يسندها منطق يضيق صدر وزير المعارف في حكومة صدقي باشا – الرجل الدبلوماسي المرن كما يقولون – من عميد كلية الآداب الدكتور طه لثباته على الحق وعناده في صون استقلال الجامعة من العبث ومن ان يكون هذا المعهد العلمي الخطير العوبة بيد الاهواء السياسية تحركه كما تشاء !.. نعم ! لهذه الاسباب الواهية التي تذرع بها الوزير يزعزعون أقوى لبنة في بناء « الجامعة المصرية » ويقصون عنها اكبر زعيم حر عرفته الآداب العربية في طور بعثها الجديد . ويحاولون ان يبرروا خطيئاتهم وان يستروا اغلاطهم وان يكسبوا عطف الراي العام الذي لفظهم بمجاجة وقرف فماذا يعملون ؟.. لا شيء امامهم سوى اثارة الشعور الديني واعادة تمثيل هذه الاسطورة السمجة – وعهدنا بالاساطير ان تكون رائعة الصور – تحت قبة البرلمان الصدقي .

ويهيج هائج كالثور ويندب حظ الدين ويشفق على الاسلام من الارتطام بضبخرات الملحدين — وكانما الاسلام غشاء رقيق تكفى اقل همسة أن تمزق هذا الغشاء ! — وبعد مناورات مفضوحة ينقلب البرلمان الى حلقة من حلقات الذكر ينفخ في اوارها ابليس قد لبس كسوة مشايخ العلماء وما هي فترة حتى ينتهي أولياء الله الصالحون — وما اكثرهم في هذا الزمن — من غزوتهم الكبرى وقد كللت رؤوسهم باكاليل الغار لتثبيتهم الاسلام بعد أن كانت اسسه على هلوية من الفناء — كما يزعمون ..!!

* * *

لقد دلنا التاريخ على ان كثيرا من الهيئات الحاكمة حينما تفلس في سياستها العرجاء تلجأ الى اوهى الاسس وتقع في امر الاغلاط . . . ولسنا نريد في كلمتنا هذه أن نعرض الى سياسة صدقي باشا في الحكم فليس هذا من شأننا نحن ... والكن هذا الحادث يدلنا بكل صراحة على ان هذا الرجل لم يكن ذلك الداهية الفذ الذي كنا نعتبره ، الى حين غير بعيد ،من كبار الموهوبين بين رجالات الشرق العربي . لان هذه الاغلاط في فصل اكبر موهوب عرفته الآداب العربية في تاريخها الحديث يرجع عارها الى صدقي باشا مباشرة قبل ان يرجع الى غيره ممن بيدهم مثل هذه الامور.

ان الدكتور طه حسين ، هو المع شخصية في تاريخ ادبنا الحديث . هذا حق لا يستطيع ان يمارى فيه احد . فهو الذي خلق الحركة الادبية الجديدة ، وهو الذي نفخ روح التجديد في قلوب الشباب ، وهو الذي رسم اوضح السبل في طريق رواد الادب . بل تستطيع ان نقول — ونحن نتحمل تبعة هذا القول مفاخرين — انه اول اديب عربي أسس مدرسة أدبية جديدة للبحث والاستقراء مما نشره من آراء طريفة وبحوث ناضجة وكتب خالدة . وان كثيرا من الشباب وقراء الادب في الشرق العربي مدينون بثقافتهم الادبية لآرائه المختمرة وبحوثه القيمة التي فتح بها فتحا جديدا في تاريخ الادب العربي .. وهذا الذي دعا الادباء في كل قطر عربي ان يهتموا بحادث الدكتور طه الذي لا يمسه شخصيا كما نعتقد بل يمس الجامعة

في صميمها ذلك لان الدكتور طه هو الاديب الوحيد الذي اضطلع بهذا العبء الخطير واخذ على عاتقه تجديد دراسة الادب العربي بنفس الطرق التي جددت بها اداب الامم الحية .

واذا كان الدكتور طه لم يبلغ رسالته العليا كما يريد بسبب هـذه الصدمات التي تواجهه بين حين وآخر فيكفيه فخرا انه فتح الطريق بجراة قوية وضم حول فكرته اقوى شخصيات الادب الذين ينهجون نهجة في البحث والاستقراء ، وكتاب « فجر الاسلام » وغيره وغيره مما تلده المطابع المصرية لبعض اساتذة الجامعة ولكثير من شباب التجديد في مصر والشرق العربي — ان هذه البحوث تطمئننا تماما على ان مدرسة الدكتور طه قـد بدأت تثمر اطيب الثمرات الناضجة ، وان جموع الرجعيين الذين اصبح يمثلهم حلمي عيسي باشا ومحاولاتهم باقصاء الدكتور طه عن حرم الجامعة التي ننظر اليها كموئل علمي لبعث حضارة العرب — ان هذه المحاولات الخاسرة التي وفقوا اليها الآن لن يتاح لها ان تجثم طويلا في اقدس موئل علمي ، وانها لا بد زائلة مع الايام القريبة ، وان يافوخ الوزارة الصدقية سيتحطم حيث يقوم على انقاضها منجد العلم ممثلا في شخصية الدكتور طه المحبوبة .

* * *

عندما اعلن « غاليله » في العام ١٦١٠ م ان منظاره استطاع ان يكشف للعين عن أقمار السيار « جوبتر » — اي المشتري — اتهمه اعداؤه من من طغمة رجال الكنيسة في العصور الوسطى ، وهم في التفكير كبعض المعممين في هذا العصر الذين تعلو ادمغتهم المحجوبة عن النور عمائم كالبرج ثقيلة الوطء — لقد اتهموه بالتجديف والكفر بالله . وعاضدهم كثير من المبشرين الذين استندوا في حملتهم الى نصوص الكتاب المقدس كما هاجمه اللاهوتيون ورؤساء محكمة التفتيش ومجمع الكرادلة ، ولم يقف الامـر عند مهاجمته وتاليب العوام عليه بل اضطهدته الكنيسة وعذبته وسجنته طيلة ايام حياته بعد ان اعلنت « محكمة التفتيش » قرارها بنقض نظريته — وتضيق حقول هذه المجلة عن سرد ملخص قصته — ومع ذلك فقد ظن

اعداؤه اتهم بهذه المثالب النكراء قد استطاعوا ان يخفتوا صوت « غاليليه » وان يقضوا على تعليمه قضاء لا يجعل لها اي ارتباط بعالم المعرفة الانسانية.

وفي العام ١٩٢٦ وفي وضح القرن العشرين يحاول الدكتور طه تجديد الادب العربي ويعمل على تجديده بنفس الطرق التي جددت بها آداب الامم الحية ، ويعلن صراحة انه من الواجب « حين نستقبل البحث عن الادب العربي وتاريخه ان ننسى عواطفنا القومية وكل مشخصاتها ، وان ننسى عواطفنا الدينية وكل ما يتصل بها ، وان ننسى ما يضاد هذه العواطف القومية والدينية ، اي ان الواجب يقضي علينا الا نتقيد بشيء ولا نذعن لشيء إلا مناهج البحث العلمي الصحيح . ذلك انا اذا لم ننس هذه العواطف وما يتصل بها فنضطر الى المحاباة وارضاء العواطف وسنغل عقولنا بما يلائمها » وبعد ان يعرض الى طريقة القدماء في البحث يقول : « ولنجتهد في الا نتأثر كما تأثروا وفي الا نفسد العلم كما افسدوه . ولنجتهد ان ندرس الادب العربي غير حافلين بتمجيد العرب او الغض منهم ، ولا معنيين بالملاءمة بينه وبين نتائج البحث العلمي والادبي ، ولا وجلين حين ينتهي بنا هذا البحث الى ما تأباه القومية او تنفر منه الاهواء السياسية او تكرهه العاطفة الدينية » ثم تحدث الدكتور طه بصراحته المعهودة : « اذا نحن حررنا انفسنا الى هذا الحد فليس من شك في اننا سنصل ببحثنا العلمي الى نتائج لم يصل الى مثلها القدماء .. » ولا يكاد يخضع الدكتور طه بحوثه الادبية الى مثل هذه النظريات ويفسح المجال للعقل ان يبحث ويفكر للوصول الى نتائج خطيرة في الادب العربي حتى يتنلوله خصومه الموتورون بشتائم مقذعة ليست في شيء من أدب العلماء ولا تمت باية صلة الى آداب المناظرة النزيهة . وهذه النظرية التي بسطها الدكتور طه تعد جديدة في الادب العربي ، والنفوس الآسنة عدوة كل جديد . اذن فلا بد . في نظرهم ، ان تحمل هذه النظرية عداء للدين !.. ويحاول غير واحد من ادعياء الادب ومن دجاجلة الدين ان يكيدوا للدكتور طه فيوفقون بعض التوفيق وتثور العامة وانصاف المتعلمين ضده ثم لا يلبث ان يتمزق غشاء هذه الاسطورة وان تهدأ العاصفة مما لا يجهله اي قارىء عربي .

وتصطدم وزارة صدقي باشا . في هذه الايام الاخيرة مع الدكتور طه الذي لم يقرها على تصرفاتها في كثير من الامور ، ويحتفظ الاحتفاظ الكامل بعقيدته السياسية وبكرامة العلماء فتحنق حنقا شديدا ويغلي صدرها بالحقد ونحاول ان تكيد له فتعصب عينيها وتبحث عن مخرج لها من هذا المأزق فلا تجد غير اثارة قضية كفر طه حسين فتثيرها ولكن كمن يثير عاصفة في فنجان ! وينتهي الامر بفصله ويوعز الى فضيلة شيخ الجامع الازهر أن يقوم بتمثيل دور قسيس من قسوس محاكم التفتيش فيفضي بحديث كله سخف وهراء ثم يطلب الى رئيس الدولة بعد ان يشكره على صنيعه ان يجمع كتب طه حسين وان يبيدها حرقا كأنما نحن لسنا في صميم القرن العشرين بل في عمايات القرون الوسطى !

ان حماية الاسلام — كما رد الدكتور طه في حديثه على شيخ الازهر — لا تكون بفصل طه حسين من الحكومة لانهم لن يمنعوه في فعله من أن يتكلم وان يكتب وان يكون له تلاميذ وان يلتقي بتلامذه القدماء انما تكون حماية الاسلام بتحويل نظم الحكم كلها : تكون بتحريم الربا واغلاق المصارف ومنع الحكومة ان تستفيد من اموالها في البنك الاهلي وغيره من البنوك ومنعها ان تبيح الخمر وتجبي عليها الضرائب واغلاق دور الفسق والفسوق الى آخر ما يتضاد وروح الدين الحنيف والشريعة السمحاء .

في الحق ، ان وزارة صدقي باشا لا تبحث عن عقيدة الدكتور طه وايمانه الديني بل انها تبحث عن نفسيته وايمانه السياسي . وقد عجمت عود هذه النفسية غير مرة فرأتها صلبة في الحق لا تميل مع الاهواء .. وآلمها ان يكون الدكتور طه غير مطواع وان يكون صاحب كرامة وأنفة وضمير حي فاقترفت جنايتها كان ممثلو رواية « حماة القرون الوسطى » غير لبقين ولا موفقين في تمثيل ادوارهم الباردة فوا أسفاه .

سامي الكيالي

الحديث س ٦ ع ٥ ايار ١٩٣٢ .

المرحلة الثالثة

الطربوش ام القبعــة ؟

رايــان لكاتبين قديرين

مصطفى صادق الرافعي

دكتور محمد عزمي ١٨٨٩ ــ ١٩٥٤

ان الجدال بين انصار الطربوش وانصار القبعة هو في الحقيقة جدال بين عقليتين تتنازعان اقطار الشرق العربي الان ولكل فريق ادلة وحجج جديرة بالنظر والتامل . وقد راينا ان نطلب الى كاتبين من اقدر كتابنا ان يبين كل منهما رأيه في هذا الشان فالسيد مصطفى صادق الرافعي يدافع عن الطربوش والدكتور محمود عزمي يناضل عن القبعة .

لمــاذا استمسك بالطربوش ؟

بقلم مصطفى صادق الرافعي

لا تسأل ما الطربوش ولكن من لابسه ولا ما القبعة ولكن من حاملها ، فان القبعة والطربوش كلاهما كسائر العروض التجارية لا قيمة لكائــن ما كان منها الا أن يمضي منفعة ويرجع مالا ويخرج في صورة عمل لينقلب في صورة اجر كأن هذه الارض بما عليها قضية مالية عند منقطع كــل استدلال من أدلتها برهان عن الفضــة أو الذهب .



(*) سال الحاج مصطفى الترنسفالي ، في انه يوجد افراد في بلاد الترنسفال تلبس البرانيط لقضاء مصالحهم وعوائد الفوائد عليهم ، هل يجوز ذلك ؟

الجواب : اما لبس البرنيطة ، اذا لم يقصد به فاعله الخروج من الاسلام والدخول في دين غيره ، فلا يعد مكفرا ، واذا كان اللبس لحاجة ، من حجب شمس او دفع مكروه أو تيسير مصلحة لم يكره ذلك ، لزوال معنى التشبه .

« فتوى للشيخ محمد عبده عام ١٩٠٣ » م.خ.

ونحن نبتاع ما شئنا منذ أصبح العالم كله سوقا واحدة لا تنفك عروضها من سفر وتقلب ، فان صاحب الحاجة ادرى بسداد حاجته وابصر كيف يتولاها ، فحذائي إنما مثلا تجد فيه متانة الحربية الالمانية وثيابي تكاد تستعمر جسمي لانها من انجلترا ... ولكني عند الطربوش والقبعة اجد حنا تقف اليه ذاتيتي الفردية فلا أرى ثمة موضع انفراد ولكن موضع مشاكلة ، ولا اعرف صفة منفعة لي بل صفة حقيقة مني .

* * *

ويعترضني من هناك المعنى الذي يصير به النوع الى الجنس والواحد الى الجماعة واجدني من الامة في مثل المنزلة التي يقرأ فيها العدد المجموع فلا يطلق عليه ما كان يسمى به وهو أرقام مفردة ويكون العدد مثلا من خمسة واربعة وستة فيقرأ مجموعها ستمائة وخمسة واربعين ، وانه لهو ذلك لولا منزلة الضم والاتصال وتكوين الجملة التي هي اصل في حساب الاجناس .

* * *

فالقبعة على راس المصري منفردا بها دون قومه بائنا من جملتهم ، انما هي مظهر من مظاهر التحلل الاجتماعي والارتكاس في منطق الجملة المصرية ونفي لهذا الرقم من عبارة مجموعة . بل هي في الرجال مشتقة من المصدر ، نفس المصدر الذي يخرج منه التهتك في النساء وكلاهما منوع من المخالفة وكلاهما ضد من صفة اجتماعية تقوم بها افضلية شرقية عامة وان كان فيما وراء ذلك ضرب من القول في توجيه القبعة ومذهب من الراي في الاحتجاج لها .

غير أن المذاهب الفلسفية لا يعجزها أن تقيم لك البرهان جدلا محضا على أن حياة المراة الفاضلة ان هو الا رذيلة في الفن ... وأن هو الا مرض وضعف وكيت وكيت ، ثم تنتهي به الفلسفة الى ان تجعله من البلاهة والغفلة . وما الغفلة والبلاهة الا أن تريد فلسفة من فلسفات الدنيا ان تقحم في كتاب الصلاة مثلا فصلا في ... في ... في الدعارة .



لا يهولنك ما أقرر لك من أن القبعة على رأس المصري في مصر تهتك اخلاقي او تهتك سياسي أو تهتك ديني أو من هذه كلها معا ، فانك لتعلم أن الذين لبسوها لم يلبسوها الا منذ قريب ، بعد ان تهتكت الاخلاق الشرقية الكريمة وتحللت أكثر عقدها وقاربت الحرية المصرية بين النقائض حتى كادت تختلط الحدود اللغوية ، فحرية المنفعة مثلا تجعل الصادق والكاذب بمعنى واحد فلا يقال الا أنه وجد منفعته فصدق ووجد منفعته فكذب ، وما فرق بين اللفظين وجعل لكل منهما حدا محدودا الا جهل القدماء وفضيلة القدماء ودين القدماء وهذه الثلاثة : الجهل والفضيلة والدين هي ايضا في المعجم اللغوي الفلسفي الجديد... مترادفات لمعنى واحد ومتى أزيلت الحدود بين المعاني كان طبيعيا أن يلتبس شيء بشيء وأن يحل معنى في موضع معنى وأصبح الباطل باطلا بسبب ، وحقا بسبب آخر . ولم يعد يحكم الناس الا مجموعة من الاخلاق المتنافرة تجعل كل حقيقة في الارض شبهة مزورة عند من لا تكون من أهوائه ونزعاته ، واحتاج الناس بالضرورة الى قوة تفصل بينهم فصلا مسلحا ... فيكسبون القانون بمدنيتهم قوة همجية تضطره أن يعد للوحشية الانسانية وتدفع هذه الوحشية أن ترصد له وتترشح بجرائمها لاعتراضه . وما القبعة على رأس الشرقي الا حد طمس حدا وفكرة هزمت فكرة ورذيلة قالت لفضيلة . انا جئت فاذهبي .

ما هو الاكبر من شيئين لا حد بينهما للصغر وما أصغر شيئين لا حد بينهما للكبر ؟

* * *

انها الفوضى كما ترى ما دام الحد لا موضع له في التمييز ولا مقر له في العرف ولا فصل به في العادة ومن هنا كان الدين عند قوم أكبر كلمات الانسانية في كل لغاتها وأملاها بالمعنى وكان عند آخرين أصغرها وأفرغها من المعنى وما كبر عند اولئك الا من انه يسع الاجتماع الانساني وهو محدود بغاياته العليا ، ولا صغر عند هؤلاء الا بأن الاجتماع لا يسعه فلا حد له كانه معنى متوهم لا وجود له الا في حروف كلمته .



فجماعة القبعة لا يرون لانفسهم حدا يحدونها به من اخلاقنا أو ديننا او شرقيتنا وقد مرقوا من كل ذلك ولا أعرف أحدا منهم الا علمته موضع قطع او تمزيق في هذا النسيج الشرقي الثمين . وانت ترى منهم من اوفى على الخمسين من عمره ومنهم من جاوزها ومنهم دون ذلك على حين تاريخ القبعة فيهم لا يرجع الى ابعد من مدة القماط للطفل الرضيع في حول او حولين .

افليس لنا ان نسالهم اين كانوا من قبل وكيف ضاق بهم الطربوش بعد هذه السن ؟



ولكن الطربوش لم يضيق وانما ضاقت العقول او ضاقت الاخلاق وهذه الامة منكوبة بالتقليد والمقلدين فهلا زيا مخترعا او اصلاحا في زي معروف ، فاذا كانوا عاجزين عنهما فهلا عقلوا سخافة هذا التقليد وشؤم هذه المتابعة ؟

يقولون ان الطربوش يوناني ونقول انه يوناني معرب فهو في الفاظ الحياة كالفاظ مثله في اللغة وقد اصبح رمزا من رموزنا ففيه من ذلك قوة السر الخفي الذي يلهمنا ما اودعه التاريخ من قوميتنا ومعاني اسلافنا او فيه سر القوة الخفية التي تجمعنا حول المعاني الاعتبارية برمز تتمثل فيــه تمثل الوطن في الراية . وهو عندنا كالاصطلاح في الحفلة الرسمية على ثوب رسمي لا بد منه لكل من يحضرها ليتسق به نظامها شئت ام ابيت . وقد تقول ان في الشرق ضروبا اخرى غــير الطربوش كالعمائم والقلانس فنقول لك ان الاصطلاح واقع عليها كذلك وهذا الاصطلاح عينه هــو الذي ينفي القبعة ويلحق لابسـها بالفئة الاجنبيــة .

انا اعرف ان منا قوما يرى احدهم في ظن نفسه انه قانون من قوانين التطور فهو فيما يلابسه لا ينظر الى انه واحد من الناس بل واحد من

النواميس ... وكانها حادثة لها مادتها الفعالة فيريد ان يكون على ما تقتضيه تلك المادة الوهمية القائمة بنفسه ... ومن هنا الثقل والدعوى الفارغة وما هو اكبر من الثقل وفراغ الدعوى فانه لحق أن يكون بعض الناس أنبياء ولكن اقبح ما في الباطل ان يظن كل انسان نفسه نبيا .

أنا استمسك بالطربوش لاني أريد الدقة في التعبير الذي تعبر به نفسي حين تعلن عن نسبتي وقوميتي فالطربوش وما في حكمه مما وقع الاصطلاح عليه انما هو تدقيق في التعبير بالفكر واخراج لهذا الفكر في اصدق ما يدل عليه واصرح ما يؤديه . ثم اني مستيقن ان الافكار الشرقية او الاسلامية تحت القبعة هي غيرها تحت الطربوش لان تغيير الرمز يتغير به ما كان يلهمه وهذا لا يكابر فيه احد فقد عاد الامر الى صبغة نفسية كما ترى .

وانت تعلم أن النفوس تضع من أحلامها في كل ما تلابسه حتى تصبغ كل جامد من المادة بأثر من آثارها كأن الانسان لا يكون انسانا الا بتحويله كل ما حوله في ألوان انسانية . والمدنية هي التي تزيد في هذه الاحلام وتنوع منها أنواعها ولولا ذلك ما كان للرؤوس غطاء الا ما غطاها الله به من هذا الشعر الكثيف المسترسل يضرب الى المنكبين ويرد على الصدغين والعنق ويتم تمامه باللحية كثة مرسلة . وذلك افضل الاغطية وأوفاها بالحاجة وأردها على الجسم بالصحة والعافيـة لولا النفس وأحلامها .

فنحن من الطربوش أو القبعة بازاء مظهر فيه أحلام النفس كما فيه المنفعة لا بد من الاعتبارين جميعا . وما نظن احلام النفس الشرقية كأحلام النفس الغربية الا اذا أزيح الحد الذي يفصل بينهما .

وها هنا أمر لا بد من التنبيه اليه وذلك أن الاوربيين لا يتخذون من القبعات الا اغطية للطريق فهم ينزعونها في مجالسهم وبيوتهم وأماكن عملهم ومن ثم كان بناؤها عندهم على أحكام الطرق وأرواح الشارع وهندسة الثلج والضباب والرطوبة ، وبلادهم تعمى الشمس فيها أكثر السنة

ولا تبصر اذا ابصرت الا في أشعة كليلة . فمن سخافة التقليد بل من الغفلة ان ننزع نحن الى ما اتخذوه وننشأ على الوقاية من شمس اوضنا بهذه الوقاية المحكمة في حين أنه ان لم نجعل بيننا وبين الشمس ونورها وحرها ملاءمة فنبرز لها ونعتادها من الصغر ونلقاها بوجوهنا — هيأنا ذلك لضرباتها عند أيسر الاسباب ووهنت فينا قوة الاحتمال ولم نعد نصلح لهذا الجو بعد ، ولعله لا تمر بضعة أجيال حتى تظهر جنايتنا على اعقابنا في لعنة تعد ضربة من ضربات الطبيعة .

واعلم أن ما يزينونه للشرقي من فضائل القبعة أن هو الا منطق شهوات في جملته ولقد تسمع الجائع الصائم يتكلم عن الطعام فترى كلاما في معانيه معان أخرى لا يعدها غير الجائع الا حماقة ساعتها .

ولم أعرض في هذه الكلمة للجانب الديني ففيه كلام آخر يجعل اللعنة لعنتين ... وفي واحدة لما يذهب بالقبعة .

لماذا لبست القبعة ؟
بقلم الدكتور محمود عزمي

■ تفضل « الهلال » فسألني ان افضي لقرائه بسبب لبسي القبعة . فعدت ، من جانبي الى نفسي أسائلها تاريخ هذا السبب وتطوراته ، فإن له عندي تاريخا وتطورات .

* * *

وقد رجع بي التفكير في هذا الصدد الى أيام الصبا ، أيام كنت بالمدرسة الثانوية ، وأيام ظهرت كتب « قاسم امين » عن المرأة والحجاب . فقد اثر في ذيوع بعض ما تضمنته الكتب من آراء ، ثم قراءتي هذه الكتب بالذات ، اثرا عجيبا جعلني امقت الحجاب مقتا شديدا يرجع الى اعتبار خاص هو اعتباره من أصل غير مصري وهو اعتبار دخوله الى العادات المصرية عن طريق تحكم بعض الفاتحين الاجانب وتملق بعض الوطنيين بالتقليد المرذول .



وكنت في تلك الايام منتظم الذهاب الى القرية أمضي فيها فترة العطلة المدرسية كلها فكنت أرى مظاهر السفور الطبيعي عند القرويات أثناء عملهن وأثناء راحتهن ، وكنت أقارن بينه وبين ما هو متجل منه داخل دار الآثار ، فكان حنقي على أولئك الاجانب من الفاتحين « الاسلاميين » يزيد ، وكان تنطع بعض المفسرين لآيات القرآن يضيف الى ذلك الحنق ما يثبت أركانه ويدعم قواعده .



وكانت تقوم حملة على « التبرج » ، وكانت تقوم دعوة الى النهوض بالمشروعات الاقتصادية ولا سيما ما اتصل منها بصناعة الملبوسات ، فكان هذا كله يجر الى التفكير في الزي وما يجب أن يكون منه « حشمة ووقارا » وما يجب أن يكون منه « مصريا في مادته وصناعته » .



وانتج ذلك كله التفكير في الزي وموافقته للمظاهر القومية والاحوال الجوية ، وتعدى التفكير دائرة زي السيدات الى دائرة زي الرجال ، ووضح ميل البعض بهذا الشأن الاخير الى تقرير أن « الطربوش » ليس لباسا قوميا وليس لباسا صحيا ، وذهبوا الى حد الاعراب عن ضرورة العودة الى ما كان يحمله « المصريون القدماء » على رؤوسهم من «عمارة» يتدلى منها على العنق ما يتدلى ليمنع عنه الشمس وما لها عليه من سوء .

وكنت أنا من هؤلاء المعربين ، أنقم على الفرس ومن كانوا واسطة نقل « حجابهم » الينا وعلى البيزنطيين ومن كانوا واسطة نقل « طربوشهم » الينا ، وكنت في ذلك أحس أني مدفوع بعامل من « الوطنية » قوي .



ثم حــدث ان ذهبت الى اوربـا ادرس بباريس فتجلت لي آيات « السفور » بما جعلني انظر اليه على انه وسيلة اصلاح اجتماعي كبرى، وتجلت لي آيات البشرية بما جعلني افقه « الوطنية » على انها احساس غور يجب ان يتعهده المرء في عمقه لا في اتساع سطحه .. وهكذا اخذت انظر الى حضارة القوم والى حضارة العالم نظرة اخاء وتضامن لا نظرة عداء وتنافس ؛ ودعم من هذا النظر ان نظرية « التضامن » هي التي كانت تجري بها البحوث الفقهية والاجتماعية في ذلك الأوان نستمع اليها كل يوم في الدروس وفي المحاضرات ونقرؤها في البحوث والمجلات .



واذن فقد دعتنا « البيئة المكتنفة » الى تقرير العلائق بيننا وبـين الحضارة الغالبة ، وكان طبيعيا ان يكون الزي ـ وقد خرجنا من مصر في وقت ماجت فيه الاراء باعتباراته ـ هو اول مـا نفكر فيه مـن تلك العلائق . فوجدنا اننا نأخذ عن حضارة اليوم الشائعة كل مظاهرزيها الا ذلك الذي دخل الينا عن طريق الفتح العثماني وصار رمزاً للقوة القاهرة والسلطان المستبد .

لكن هذه المشاعر قد وقفت عند حد الاحساس بها والتفكير فيهـا والتمدح بفضائل تنفيذها والهيام بهذا التنفيذ ، ولا سيما كلما جاء الصيف واحس المقيم هنا منا هناك بخفة قيمة الفصل على رأسه او احس المقيم منا هنا بشدة « كبس » الطربوش على يافوخه .

على اننا لم نقو على تحقيق هذا الذي كانت النفوس تصبو اليه اللهم الا واحـدا لبس القبعة في مصر اياما ثم عـاد الى الطربوش تحت تاثير ما كان الناس يقابلونه به من التهكم حينا ومن الرمي بالزندقة والمروق والالحاد والكفر احيانا .



ثم جاءت الحرب الكبرى واصيبت مصر منها باعلان الحمايةالبريطانية

عليها فوجدنا طائفة من اخواننا الشرقيين يستبدلون القبعة بالطربوش هروبا من « العثمانية » وتقربا من الدولة الحامية أو فرارا من عدوان الجنود الاستراليين . فكان من هذا أن ازداد تمسك المصريين بالطربوش يطلنون به دائما استعدادهم الى تحمل أكبر انواع الاذى في سبيل عدم رضاهم عن الحماية التي فرضت عليهم فرضا .

وتكشفت النهضة التي كانت كامنة ، وتفجرت العواطف التي كانت مضغوطة ، فزاد تكشفها وتفجرها ذلك الاستمساك بما يحسبه الناس مظهرا للشرقية ورمزا للمصرية ورسخت أقدام الطربوش من جديد فوق الرؤوس جميعا .



وفازت النهضة بأوالى ثمار جهادها ، وفازت مصر بنعمة الدستور والحياة النيابية ، وسمعت آذان المصريين جميعا مبادىء الحرية يرن صداها في صلب الدستور يقرها في نصابها ابدا ويكفلها تامة ويطلقها من اغلالها اطلاقا ، كما وصلت مصر في علاقاتها مع الانجليز الى نوع من التفاهم يرجو الطرفان ان يستكملاه بعد حين .



فعادت الى العقول طرائق تفكيرها المعتدل اعتدالا يزيد قوة ما اعلنت كفالته في الدستور من مبادىء حرية واطلاق . واخذ المفكرون يعودون الى ذاكرة الحضارة الغالبة في هذا العصر — ولكل عصر حضارة غالبة تخضع لها الحضارات الاخرى خضوعا حتميا — وضرورة الاخذ عنها مبادرة الى الرقي واسراعا في الخطى نحو التقدم ، وكانت فكرة الزي هي الشاغلة حيزا كبيرا من تفكير القوم ، وادوار الانتقال تعني دائما بالمظاهر العرضية توطئة بالبواطن الجوهرية ، فعادت حركة الكلام في القبعة والطربوش لكن عادت في جو اصلح من ذلك الجو الاول الذي عدل صاحبنا فيه عن لبس القبعة تحت ضغط التهمة بالالحاد والخروج على التقاليد .

ذلك ان السيدات المصريات خطون في طريق التحرر من «الحجاب» خطوات واسعات فسفر منهن كثيرات محترمات كل الاحترام ، وذلك ان النهضة التركية التي قوضت دعائم « الخلافة » وما كان يحيط بها من مظاهر العسف والاذلال والجمود والاستبداد القت بالطربوش الى حضيض الغياهب وزينت الرؤوس بالقبعات تزيينا دون ان يقول فقيه اسلامي عاقل ان الاتراك خرجوا بهذا على الدين او اصبحوا من اجله ملاحدة كافرين ، وذلك ان الدستور المصري قد اطلق حرية الاعتقاد وكفل الجهر به واباح الالحاد لمن يشاء .

* * *

وقامت في بلاد الشرق المتكلمة باللغة العربية نهضات وثابة الى الاستقلال والانطلاق من القيود وكثر خلالها اللجاج بين ان يعود القوم الى المدنية العربية وان ياخذوا من المدنية العصرية ، وحاول البعض ان يوفق بين الرأيين ورأى البعض ان هذا التوفيق محال لانقطاع الصلة ــ بفصل محن التاريخ ــ بين حاضر هذه الشعوب الشرقية وماضي الامة العربية او الامم الاسلامية ، بتعبير اصح ، وانه لا محيص من الاختيار بين المدنيتين .

ولست ادري على التحقيق ما هو الراي الغالب لكني ادري انني انا من الذين ينادون بملء فيهم بضرورة الاخذ من المدنية العصرية وهي الحضارة الغالبة وبان الخير كل الخير في شخوص الكتلة الشرقية المتكلمة لغة عربية الى شواطىء البحر المتوسط الشمالية الغربية ، وبان كل نظرة الى رمال التيه والبادية انما تكون حرصا على الاعقاب في ميدان الجهاد الذي يسير فيه العالم سيرا هائل السرعة الى الامام .

وسط هذه التيارات المتقابلة اقبل صيف سنة ١٩٢٥ ، وكان علي ان امضيه في القاهــرة . وعندي بعض الاصلاحــات الاجتماعيــة لا تجدي فيها المناقشة ولا يفيد الجدل ، بل تجدي القدوة ويفيد العمل من اجل هذا اعتزمت ان انفذ ما انا مقتنع به من راي في صدد المدنية

المصريـة وفي صدد القبعة لكن « الاخطاء الوراثية » المتراكمة كان لهـا في عزيمتي بعض الاثر . فجعلتني اجد من « حسن الفطن » الا افاجيء اخواني واصدقائي بما ساضع على راسي في مصر من عمارة جديدة ، وان انذرهم قبل الموعد بايام حتى لا ينقضوا علي بالسؤال والاستفسار واذن فقد حددت لنفسي اليوم الاول من شهر يوليه سنة ١٩٢٥ لالبس فيه القبعة واخذت منذ العشرين من شهر يونيه اعلن كل من اقابله من الاخوان والاصدقاء اني مغير لباس الرأس من أول الشهر التالي .

وجاء اول الشهر وقصدت في حزم وهرولة الى بائع القبعات بميدان « سوارس » ولاحظت ان سرعة الخطى قد اخذت تقل عندما اقتربت من الحانوت ، ولاحظت ان السير قد وقف بي عند باب الحانوت ، ولاحظت اني اخذت انظر الى القبعات المعروضة خلال الزجاج ، ولاحظت اني استانفت سيري في شارع قصر النيل دون أن اشتري القبعة ودون ان ادخل حانوت القبعات ، ولاحظت اني اخذت اتهم نفسـي في صوت غير خافت باني « جبان » وبأن « الاخطاء الوراثية » لا تزال تجد مني منفذا ، ومنيت نفسي بالعودة الى الحانوت بعد الظهر لكني لم اعد اليه عامـا كامـلا ...

* * *

ومضى الصيف ومضى الخريف ومضى الشتاء ومضى الربيع واقبل الصيف من جديد ، صيف سنة ١٩٢٦ ، والمناقشة حول « الطربوش والقبعة » يتسع نطاقها حتى وصل الى « الرابطة الشرقية » التي ارادت ان تندرع « بفتوى » يصدرهـا الاطباء فتقدمت الى جمعيتهم باسئلة واستيضاحات انتهت الجمعية الى الاجابة عنها باجتماعها العام الـذي عقدته صباح يوم الجمعة الموافق للثاني من شهر يوليه لسنة ١٩٢٦ .

وقالت « هيئة كبار الاطباء » في فتواها ان الطربوش لباس رأس غير صحي وان للباس الصحي شروطا عددتها واذا بها متوفرة في القبعة وغير متوفرة الا فيها .

واعلن القرار او اعلنت الفتوى مساء فكانت هي القاضية على « اخطائي الوراثية » من هذه الناحية اذ قصدت صباح اليوم التالي السبت الثالث من شهر يوليه لسنة ١٩٢٦ الى بائع القبعات نفسه واشتريت قبعة الصيف وخلعت على الحوذي ما كان على راسي قبل هذا من طربوش .

ومنذ ذلك اليوم البس القبعة متناوبا انواعها المتمشية مع كل فصل من فصول السنة .

✶ ✶ ✶

تلك هي ظروف لبسي القبعة وتلك هي تطورات الاعتبارات التي دفعت الى لبسها ، انتهت آخر الامر بأن كانت اعتبارات صحة واعتبارات شخوص الى الشمال الغربي للاخذ بالحضارة العصرية الغالبة بدل افتقاد العمر في ندب الماضي الذي ليس من سنة الكون ان يعود .

وقد قابل اثنان من اصدقائي لبسي القبعة بتعليقين ارى مناسبا ان تختم بهما هذه الكلمة .

ذهبت الى « القدس » في اليوم التالي للبسي القبعة لاول مرة في مصر واستوقفت صديقا من اصدقائي هناك هو « فحل من فحول الادباء والمفكرين العرب » — ولم يكن يعرفني بها ، فلما عرفني قال على فوره : « الآن اخذ الشرقيون يفكرون برؤسهم ! » .

وغداة عودتي من فلسطين تلك المرة خرجت الى محطة القاهرة اودع صديقا « عالما فاضلا واديبا مجيدا ظريفا » وهو مسافر الى اوربا ، فضمن اولى « مذكرات سفره » الى جريدة السياسة اشار الى قبعتي وقال على لسان صديق يحدثه :

« اما العمامة العربية فقد دخلت مصر على يد الفتح الاسلامي فاتصلت بالروح الديني من اول يوم ، واما الطربوش التركي فهبط الينا من رؤوس المتسلطين لباسا رسميا الجنود والموظفين فهو رمز التسلط والحكم ، وهذه القبعة تنتشر في الوسط الاخذ بالمذاهب الحديثة فهي تمثل لونا خاصا ، وليس النزاع بين العمامة والطربوش والقبعة ولكنه تنازع بين صور مختلفة من التفكير والذوق يريد كل منها ان يتسود » .

المصدر : الهلال : الجزء الاول . المجلد ٣٦ عام ١٩٢٧ .

الحديـــث

فاتحـة القــول

لا نتكلم في فاتحة عملنا عن الاثر المنتج الذي تتركه المجلات في نفوس الافراد والجماعات التي كثيرا ما تتأثر بفكرة واحدة قد تكون وليدة لعصارة ما تجود به ادمغة المفكرين من رجالات الادب ورسل العلم ؛ ولن نبحث عن عناية الامم — المتمتعة — بحظ وافر من الثقافة والرقى — بالصحف والمجلات التي تضم بين حقولهـا شتى المباحث ومختلف الموضوعـات والدراسات التي تنير طرق الامة في جهادها العلمي وتروي ظماءها وشهوات عقلها في الادب والفن — لن نتكلم عن هذا ؛ فقد اصبحت هذه المقدمات اشبه بالمدارس السيارة يتلو القارىء بين اعمدتها احدث الدروس العلمية من البديهات التي لا تحتاج الى توضيح ،؛ واصبحت المجلات الراقيـة في كل ظاهرة من ظواهر الاجتماع ، وفي كل ما ينتجه العباقرة من علم وفن وادب . واذا كان لا بد من توضيح نتقدم به عن غرضنا من انشاء « مجلة الحديث » وعن الخطة التي ارتسمناها لها والمنهج الذي سنسير عليه — اذا كان لا بد من هذا التوضيح الذي اعتاد القراء الكرام انتظاره في بدء كل عمل فنحن مضطرون الى تدوين هذه الكلمة التي يلمس القارىء من عضون سطورها خطتنا وغرضنا .

لا نكران ان الشرق اليوم في غليان شديد وقد تنبه من غفلته ودبت في شرايين ابنائه حمى النهوض لمجاراة الامم الغنية في ثروتها الفكرية ؛ واصبحوا ، بل اصبحت الامم الشرقية — في كل قطر ومصر — ترنو الى الحياة الجديدة بعين يقظة وقلب مملوء بالآمال . وان هذا الغليان ، بل هذا الانقلاب الفكري الذي دهم الشرق منذ منتصف القرن التاسع عشر ،

والذي هو ثمرة الايام ووليد صرخات المخلصين من رجالات الشرق الذين ما فتئوا ينظرون نظرة المتالم الى ما نحن عليه وما قطعته الامم الراقية من الخطوات الواسعة في ميدان الثقافة — هذا الانقلاب الذي هز الشرق هزاً عنيفاً والذي نشعر بنتائجه قد تغلغلت مبادئه في نفس كل فرد اخذ بقسط وافر من التعليم والتهذيب فانتفض يعمل مع العاملين لخلق بيئات علمية تحارب الجمود والجهل وكل فئة تقف دون الرقي والخروج على العادات البالية . واذا كان هذا الانقلاب هو نتاج ما مر بهذا الشرق من ويلات ، ووليد احتكاكنا بالغرب وما اخذناه عنه من عادات ونظم تجرفنا بقوة الى مستقر لا نعلم مداه ، وتسير بنا الى حياة جديدة لا نعلم نتائجها وما تحمله من طياتها الجون من امال معسولة او آلام مريرة ؟ ! اذا كان الامر كذلك ، وكان كثير من اخواننا الشرقيين قد اندفعوا وراء التجديد بدون ان يتبينوا النتائج أو ينظروا نظرة بعيدة الى المصير الذي سنصير اليه ليوفقوا بين ما توارثناه من عادات قد يكون في تناسيها ومحوها فناء شخصيتنا وقوميتنا وبين ما سناخذه من عادات ونظم لا نعلم اتلائم طباعنا وما فطرنا عليه أم لا تلائمه ؟ واذا كان الاتراك قد اندفعوا اندفاعاً كلياً وراء النظم الغربية ياخذونها على علاتها بدون ان يقتبسوا ما يلائم عقلية جماعاتهم ؛ وكانت مصر — منارة الشرق — تسير نحو الاصلاح والتجديد بروح قوية مليئة بالحكمة والرزانة ، غير مندفعة اندفاع الاتراك ، وكانت ايران والافغان وسائر البلاد الشرقية تنظر الى النهضتين التركية والمصرية نظرة المتفائل تارة والمتشائم تارة أخرى ؛ وبالتالي اذا كان التجديد يلعب دوره بحكم الزمن — اردنا أم لم نرد — فما أحوج سورية الكبرى وما احوج شبابها المستنير وقادة الفكر فيها — ما احوجهم أن يدخلوا الميدان بقلب ثابت وبنفس قوية ليدلوا برأيهم الواضح غير الملتوي في هذا الانقلاب الفكري الذي يهز الشرق من اقصاه الى اقصاه ؟ ما احوج سورية ان تماشي النهضات العلمية وان يهب شبابها المفكر الى محاربة الامية ، وتحطيم القيود التي تغل الادمغة عن التفكير ، والى تاسيس المدارس في المدن والقرى والدساكر ، والى ارسال البعثات العلمية الى ديار الغرب واختيار الاذكياء النابهين من بنيها لاتمام دراستهم في الجامعات الراقية !! .

ان سورية الكبرى في حاجة الى كل هذا ، والى خلق بيئات علمية تنير أمام الامة طرق الحياة والتجديد الذي يغمر الشرق بطابعه القوي . والتجديد — كما يعلم كل اديب مثقف — لا يتناول الادب فقط . كلا ! بل يتناول العلوم والفنون ، والعادات والتقاليد وكل ضروب الحياة ؛ وقد تعدى كل ذلك الى هز النظم القديمة من جذورها وخلق نظم جديدة هي وليدة ميول الامة الخاضعة لناموس التطور والرقي .

والامة السورية اليوم ، تشاهد عن كثب ما يمثل على مسرح العالم الشرقي من التطورات ، ويرى شبابها المفكر هذا النضال القوي القائم بين القديم والحديث، ويعلمون ان للقديم انصارا وللحديث انصارا ، وان كل فريق يعمل على تأييد مذهبه وتسفيه مذهب خصمه بدون هوادة ولا لين بل بعنف يدفع الى خصام غير محمود . تشاهد الامة السورية كل ذلك وهي واقفة بين الاحجام والاقدام ، لا تدري اتحافظ على قديمها ام تنكره لتقيم على انقاضه حياة جديدة ؟!.. هي تفكر بهذا .. وقد تفكر طويلا ... وقد ينتهي بها هذا التفكير الى صمت مريع لا ندري أوله من آخره .. لذلك فقد وجب على الشباب المستنير ان يخرجوا من صمتهم وان يتناولوا هذه الابحاث بالدرس والتحليل لنصل الى نتيجة مرجوة وحياة مضمونة العواقب .

واذا ما نظرنا نظرة الى انصار القديم وانصار الحديث ، نرى كلا الفريقين — يسير بين الافراط والتفريط ، وهي خطة قد يكون ضررها اكثر من نفعها ، وسيئاتها اعم من حسناتها ، لذلك « فمجلة الحديث » التي فكرنا باصدارها منذ عامين لنخوض غمار هذه الحرب المضطرمة — ستنهج نهجاً وسطاً نوفق كل ما تكتبه بين انصار المذهبين ، بحيث لا تحبذ الهدم على علاته بدون ان نفكر بالبناء ، فان ظاهرنا انصار الحديث ووقفنا
الهدم على علاته بدون ان نفكر بالبناء ، فان ظاهرنا انصار الحديث ووقفنا
خطط الاصلاح قبل ان نرفع المعول لتكون النتائج مضمونة الى حد ما .

ونحن على اعتقاد أكيد بأن « دور الهدم » الذي تجتازه الامم في فجر

نهضتها لا ينتج الفائدة المرجوة — مع ما يجر وراءه من التضحيات الخطيرة — ما لم ترسم خطط البناء والتشييد ؛ ويدرك القارىء الكريم من هذا التلميح اننا لا نريد ان ننكر ماضينا وما فيه من صفحات مجيدة وسطور ذهبية لامعة جديرة بالعناية والدرس والتحليل . نعم ، لا نريد ان ننكر هذا الماضي الخالد بذكرياته الرائعة — وذكرياته : هي كل ما بقي لنا من تراث الاجداد . ولكننا نتسائل : ايمنعنا هذا الحرص على الماضي ان نكون جامدين الى حد ان لا نفهم هذا التراث على صورته الحقيقية ؟ ! كلا ! اننا سنعمل ما استطعنا على تفهم ماضينا بصورته الحقيقية بدون تزوير يخدع الانظار او تزوير يخلب الالباب . وسناخذ من « الجديد » كل ما يعيننا على فهم انفسنا وفهم ماضينا معاً . وفي فهم الماضي والحاضر كما يجب توطيد لكرامتنا وصون للحضارة العربية التي كادت تنطمس وراء سجوف الاوهام والاساطير التي يسدلها بعض ادعياء العلم والمتطفلين على التاريخ الذين يحكون اصوات غيرهم بدون ان يرافقوا « بالحقيقة » و « بالواقع » وهما رجلا التاريخ — ان صح هذا التعبير — .

★ ★ ★

وراء هذه الفكرة نصدر « مجلة الحديث » التي ستكون صحيفة الشباب المفكر في كل قطر شرقي بنطق ابناؤه بالضاد ، ومرآة ينعكس على صفحاتها ما يجول بخواطر انصار الجديد من الاراء الحديثة في كل فن ومطلب : في الادب والتاريخ والاجتماع ، وفي العلم والفن والاقتصاد وفيما يعلي شأن المرأة التي لا تزال في دور الامية ، مستمدين المعونة من اعلام الادب ورجالات الفكر الذين اظهروا ميلهم الى تعضيد مشروعنا ونصر الفكرة التي نسير وراءها والتي اجملناها في هذه الكلمات والله من وراء القصد .

سامي الكيالي

الحديث . السنة الاولى (١٩٢٧ / العدد الاول ، كانون الثاني) افتتاحية العدد الاول من المجلة (الحديث) .

التقريظ وانتقاد المطبوعات

(الحديث) مجلة « تبحث في الآداب والتاريخ والعلوم الاجتماعية » انشاها في حلب كل من سامي افندي الكيالي وهو محررها ومديرها المسئول وادمون افندي رباط . قيمة الاشتراك فيها ٧٥ قرشا وانه ليسرنا أن تكثر المجلات العلمية والادبية في امتنا ولكن يسوءنا أن يكون بعض هذه المجلات اضر على الامة من بعض الجرائد السياسية التي تخدم الاجانب الضراة باستعبادها واستعمار بلادها ، وتمهد لهم السبيل لذلك . فان جمهور الامة يسهل عليه أن يدرك خيانة هؤلاء فان ثوب الوطنية المزور الذي يلبسونه نهنهٌ يشف عما وراءه ، واما إفساد المجلات والجرائد لتكوينها بتقطيع الروابط التي توحد جمعها وتجمع كلمتها من دين ولغة وأدب وتشريع وهو ما نعبر عنه بمقوماتها ، ومن عادات وأزياء وهو ما نعبر عنه بمشخصاتها ، فلا يدرك كنهه ويحيط بمفاسده إلا أفراد قليلون ، ذلك بأن أولئك المفسدين يدعون انهم يخدمون العلوم والآداب ويرقونها لتنهض بها الامة الى مستوى الامم العزيزة الراقية ، ويقل من يدرك انهم يخربون بيوتها بايديها وأيدي أعدائها من حيث يعجزون عن بناء بيوت اخرى لها تكون خيراً مما هدموا .

ذلك مثل بعض محرري جريدة السياسة ومجلة الهلال بمصر كسلامة موسى وطه حسين ومحمود عزمي ... المنتحلين لانفسهم صفة تجديد الثقافة ، واننا نرى مجلة الحديث السورية معجبة بهؤلاء منوهة بآرائهم مثنية عليهم ، فان كان محررها العريق في هذه الامة العربية ، الاصيل في بيوتات هذه الملة الاسلامية ، غير مقلد لهؤلاء الواغلين عليهما ، الادعياء فيهما ، الذين لا ينزع بهم عِرق غيرة عليهما ، ولا موافق لهم في كل راي من

آرائهم ، ولا مائل مع كل ريح من اهوائهم ، ـ وهو ما نعتقده في نفي الكلية لاالكل المنطقيين ـ فلماذا لا يفتأ ينوه بهم ، بما يغري قراء مجلته باتباع خطتهم ، وهي ما يسمونه الثقافة الجديدة التي يحكمونها في كل ما اشرنا اليها من مقومات الامة ومشخصاتها ، وبذلك كانوا دعاة هدم وإفساد فيها ؟

الثقافة في اللغة مصدر ثقف الرجل (كضخم) اي صار ثقفا وثقيفا ـ ويقال ثقف (كتعب) ايضا ـ أي صار ثقفا اي حاذقا خفيفا ، وهذا الحذق والخفة اللذين يدعو اليهما هؤلاء الملاحدة مفسدة ظاهرة للامة الاسلامية وشعوبها ولا سيما العربية ذات التشريع العادل والتاريخ المجيد ، غايتهما تقليد ملاحدة الافرنج وفساقهم فيما يشكو منه جميع عقلائهم وحكمائهم ، وهو فيهم عرض من اعراض الترف والثروة والسيادة الجاهلة كشعوبنا ، فكيف وهو الذي افسد شعوب المدنيات القديمة ذات الباس والقوة ، ولا يشك حكماء اوربة اليوم بانه سيفسد مدنيتهم في زمن لم يعد بعيدا حتى أن بعضهم يعد عمر الدول الكبرى بعشرات السنين ، ولدينا عنهم نقول كثيرة في ذلك قد نشرنا بعضها .

هذا وان هؤلاء الدعاة للثقافة الجديدة التي تشمل في استعمالها ثمرة العلوم والفنون والآداب والاديان ليس لانفسهم حظ منها الا بعض مدلولها اللغوي وهو الخفة الشبيهة بخفة الصبيان فهم عاقون لامتهم هادمون لهدايتها وتشريعها وآدابها بل ساعون لابتلاع الافرنج لها ، ومنهم المستخدمون لذلك ، وهم يوهمون الناس في هذه الايام انهم مبدعو هذه الدعوة في بلادهم وليس كذلك بل ابتدعها في مصر الخديو اسماعيل اغترارا بزينتها وشهواتها فهو اول من اراد أن يجعل مصر اوربية وله في ذلك كلمة مشهورة . فكان اول ثمرة منها جناها فقد ملكه ، واما جده محمد علي فانما اخذ من اوربة اسباب الثروة من صناعة وزراعة واسباب القوة ، وهو الواجب على كل شعب شرقي يملك امر نفسه دون تقليد القردة في الازياء والزينة والعادات وحرية الفسق والفجور والكفر التي يدعو اليها منتحلو الثقافة الجديدة ، وانا لنرجو من مجلتنا السورية الجديدة التي لا يملك هو ولا غيره من اهل وطنه شيئا من امر تعليم الشعب ولا تربيته

ولا ادارته ولا سياسته أن يحرر أولا تحديد الثقافة والتجديد الذي يحييه ويجعله شعباً حراً قويا ! فانا لنضن يا بن الكيالي الكريم أن يكون مقلدا لسلامة موسى ومحمود عزمي وطه حسين الذين لا وطن لهم ولا ملة ولا امـــة عليهن .

المصدر : مجلة المنار ج ٩ مجلد ٢٨ نوفمبر ١٩٢٧ .

النهضة الجبارة

القديم والحديث

[صديقنا الاستاذ محمد علي ثروت من شباب مصر المجددين ، وهو اديب ثائر على التعاليم القاسية القديمة ، يلمس القارىء ذلك من ثنايا سطور مقاله الذي ننشره معجبين بادبه الغض وبروحه الكبيرة وبنزعته الحرة وهذا المقال مقدمة لسلسلة ابحاث مطولة سيخص الاستاذ بها مجلة « الحديث » التي تفخر بنشر مثل هذه الابحاث الطريفة التي تنير للشباب المفكر طريق التجديد] .

المحرر

الآن ، وفي تلك الساعة الهادئة من الليل المتشح بردائه المهيب ، الليل الاخرس والصامت كالقبر ، اجلس الى مكتبي لاكتب الى صديق نفسي الاديب « سامي افندي الكيالي » محييا اياه ، ومكبرا فيه ذلك النشاط الكامن في صميم نفسه ، والذي دفعه الى الحنق على العتيق الخائر ، وحمل الفأس والمعول ، ليهدم ما شاده المحافظون الاغبياء من صروح براقة جوفاء .

ذلك هو « الحديث » ينبثق من افق الثقافة الحقة كالفجر ، فطوبى لاولئك الذين يشهدون النور فيتقدمون الى السير في سناه ، والويل لاولئك الذين يتعامون عنه ، مفضلين الخبط في الظلمات القاتمة ، والسير في الطرقات المعوجة الوعرة ، المحفوفة بالاشواك !

يعتقد المخرفون من انصار القديم ان المحافظة على جزالة الالفاظ في كتاباتهم ، والسير على ذلك النهج الذي سلكه ادباء العرب الاقدمين امر واجب . برغم ذلك التطور الاجتماعي الذي وصلت حالة العالم اليه في القرن العشرين . ويكرهون اوربا لاعتقادهم ان حضارة اهلها قد نفثت في حياة الشرقيين الجميلة التي ترتع في بحبوحة الطهر ، والتي تظللها اجنحة الملائكة العلوية البريئة من شوائب الاثم — روح فسق وخلاعة وكفر ! ولكنهم قد اساءوا الفهم ، وتعصبوا للقديم تعصبا أعمى . فاخذوا يهرفون بما لا يعرفون !!!

لم تكن تلك النهضة الادبية ، التي طلعت في الشرق شمسها في اواخر القرن الماضي الا نفحة هبت على عقليات شعراء الشرق وكتابه من حدائق الآداب الغربية فدبت في اذهانهم كما تدب العافية في اعضاء مريض تألم طويلا ثم ابل بعد سقم منهك ! واذا كتبت عن الشرق فانما اكتب عن البلاد التي تتكلم وتكتب باللغة العربية ، تلك البلاد التي تلبدت سماء اذهان اهلها طويلا بسحب متراكمة من الجهل والغباوة والبلادة الذهنية ، ثم اشرقت عليها بعد ذلك شمس الثقافة الاوروبية فبددت تلك السحب وعادت السماء صافية كالبلور .

انا لا اكره القديم اطلاقا ، ولا استطيع قط ان احول نظري عن كواكب الادب العربي وشموسه الساطعة ، ولان ان اسأم شعر « ابي الطيب المتنبي » و « ابن الرومي » او انبذ آيات « ابي العلاء » الخالدة أو ادب « الهمداني » و « الحريري » — ذلك الادب البديع ، الطريف ، الرائع وانه لجحود وكفران ان نعتبر ما كتبته اقلام اولئك الفحول من القديم ، البالي ، الفاسد ، ولكني انكر من يحملون القلم في يومنا الحاضر تقليد اولئك الماضين من السلف الصالح مع وجود بينونة كبرى بين البيئة والظروف التي احاطت بهم قديماً ، وتحيط بنا الآن .

الادب العربي كنز يجب علينا ان نحتفظ به ليكون لنا مرجعا يهذب الفاظنا . ويقوم اعوجاج السنتنا . ولكننا يجب أن نفكر برؤوسنا فحسب ، ولا نفكر برؤوس الاقدمين .

أنا لست متشائماً ، ولكنني اجاهر بفقرنا المدفع الى الادب والادباء .
واذا انا شكوت ذلك الفقر فلأني اعتقد اعتقادا راسخا في ذهني باننا حتى الساعة لم نحرك ساكنا نحو السير في الطريق الذي يؤدي بآدابنا الى الغاية التي نرجوها لها ، لندرك كل ما في الحياة من مسرة ويؤس ، ونور وظلمة ، ونشاط وخمول . على حين ان فينا قوى دفينة ومواهب كامنة لو اننا عملنا على اظهارها لتجلت كعروس النور .

اين منا الذين يقدمون لنا افكارهم في ثوب جديد ملائم لروح العصر فيساعدنا على ان نرتفع فوق اقذار الحياة وشناعتها الى جمال البقاء وكماله ؟

اين منا من ينهضون بعزم الفتوة فيخلعون ذلك الرداء الخلق . فلا يتوكأ على الحياة ، والحياة تتوكأ على الادب واسع كالحياة ، عميق كأسرارها ينعكس فيها وتنعكس فيه ؟؟

أين هنا من ينهضون بعزم الفتوة فيخلعون ذلك الرداء الخلق . فلا يكتبون الرسائل الطويلة الباعثة على السآمة والضجر في مواضيع قديمة مبتذلة ، ويرتدون الرداء الذي يصلح للعصر الحاضر فيجدون في الادب القصصي مجالا واسعا لتصوير الحياة بريشة القلم ، والتاثير في العقول والقلوب بما يكتبون من اقاصيص كلها عظات وعبر ، وكلها ادب وحكمة ؟

أمامنا الامثلة العليا من الادب الاوربي القديم والحديث فلنقرأها لنستمد منها نور الحكمة .

فلنقرأ « افلاطون » و « سوفوكليس » ولنقرأ « شكسبير » ولنقرأ « جيته » و « نتيشه » ثم ولنقرأ أدباء فرنسا وعلى الاخص أولئك الذين ظهروا تحت سمائها ، بل وفي العالم اجمع في القرن التاسع عشر ، ظهور الشهاب الساطع في بهيم الليل . مثل « جان بيير بيرانجيه » و « لامارتين » و « ديلافين » و « وفيني » و « هوغو » و « موسيه » و « لابراد » و « كوبيه » و « لوي دي فونتان » و « فرنسواه اندرييه » « وشاتوبريان » وغيرهم من الاعلام الخالدين بقوة عقولهم في تاريخ الآداب العالمية .

ولنقرأ « الاغاني » و « اللزوميات » وغيرهما من مراجع ذخور الادب العربي وكنوزه العديدة . ثم نكتب بعد ذلك ، ونكتب بدماء قلوبنا ، لتكون كتاباتنا صورة دقيقة من الواقع .

اننا اذا فعلنا ذلك استطعنا ان نرفع آدابنا من المستنقعات القذرة ، فعلينا ان نسعى من الآن لهدم انقديم الفاسد لنشيد على خرائبه وانقاضه صرحا من الادب جديدا متينا ، يسمو حتى يطاول ابراج السماء ، ويرتفع حتى يناطح الجوزاء .

محمد علي ثروت

بكلوريوس في الآداب من امريكا

الحديث : السنة الاولى (١٩٢٧) العدد الثاني شباط .

القديم والجديد

من الاوهام الشائعة ان الناس مولعون بكل جديد ، ومن الامور التي يشكوها من يتنكبون الطرق المعبدة ان الناس لا يبادرون الى متابعتهم حيثما يذهبون . فاي القولين اصدق ؟ وبايهما ناخذ ؟

لقد اشرنا من قبل الى ان سبيل الطبيعة ان تصل الى غايتها من اهون سبيل ، اي انها تتوخى اسهل السبل واقلها واعظمها اقتصادا ، ولا بأس من ان نعود الى ذلك بشيء من البيان يجلو غامضه ، ويحل مشكله . ولنضرب مثلين احدهما من الانسان وثانيهما من غيره ولنبدأ بثانيهما فانه اخف وايسر ايضاحا . تسقط الامطار على الجبال او سواها فينحدر الماء ويحتفر لنفسه مسيلا . فهل علم أحد ان هذا الماء الجاري آثر ، منذ سال على وجه الارض ان يخترق الصخور او يعلوها وزهد في اللين الدمث الذي لا يشق عليه ان ينساب فيه ! كلا ؟ ما علمنا على الماء من حماقة كهذه ! فهو اذا صادفته ارض صخرية لم يتلبث عندها ريثما يحفر فيها مجراه بل راح يترقرق فوقها . واذا اعترضته وعور ذاهبة في الجو لم يتجشم ان يعلوها ويطم فوقها اذا وجد مجازا له عن يمينها او شمالها . ودع هذا وتأمل الانسان وسل نفسك ما السر في ان المرء يصعب عليه ان يغير ما كون لنفسه من العادات ؟ أليس لانها لا تتقاضاه من الجهد ما تكلفه مخالفتها ؟ مثال ذلك ان تكون قد الفت ان تسلك طريقا معينا بين بيتك وبين المكان الذي تزاول فيه عملك اليومي . فانت كلما ذرت الشمس تكرر ما عملته في الصباح الماضي وتزايل بيتك وتقودك رجلاك وانت لا تشعر الى هذا الطريق المعين وتدبان بثقلك لا يكلفك تنبها خاصا او تفكيرا وانك حين تمشي فيه وتمر بما تمر به كل يوم لا يلفتك فيه شيء . شانك في ذلك من

بعض الوجوه كشمالك حين تأكل : تمتد يدك الى اللقمة فتتناولها ثم ترتفع الى فمك ومنه تهوى الى جوفك . وليس ليدك عين ترى بها مكان فمك من وجهك، ولسنا نعلم ان يد المرء تخطيء وترتفع الى الانف . فقد اعتادت ان تحسن تقدير المسافة وأصبح الجهد اللازم لذلك يبذل بطريقة آلية وكذلك رجلاك تحملانك في الطريق المألوف وتذهبان بك في منعطفاته دون ان تفكر انت في شيء ولكنك حين تسلك طريقا آخر غير الذي ألفته تلقى نفسك تستعمل عينيك وتجيلهما فيما هو امامك وعن يمينك وشمالك ، وقد تفكر في طوله أو قصر بالقياس الى طريقك المعتاد ، وفيما هو قائم على جانبيه من المساكن او الاشجار وغير ذلك ، وقد يعقد ذهنك مقارنات ومقايسات كثيرة ويجرك هذا الى مواضيع شتى قد تشغلك النهار أو بعضه أو اكثر من ذلك وهذا كله جهد لا تبذل شيئا منه حين تأخذ في طريقك المألوف . وكذلك الحال حين تتناول طعامك بغير اليد التي ألفت ان تتناوله بها .

ولم تكن الحياة نفسها تعجز عن ان تخلق الناس في ايامنا هذه كما خلقت اولهم واسبقهم في الوجود ، اعني من طينة الارض التي صيغ منها المخلوق الاول — كائنا ما كان هذا المخلوق — ولست اعني بطينة الارض وحلها ، وانما اعني المواد الطبيعية الاولية . كما هو ظاهر بالبداهة . ولكن الحياة لا تفعل ذلك الآن وقد كفت من زمان طويل لا يعرف حسابه الا الله سبحانه وتعالى ، عن اخراج المخلوقات على هذا النحو العتيق وصرنا تخرج الى الدنيا بطريقة التوالد اذ كان خلق الانسان بالتوالد أسهل من اعادة كل ادوار التطور الماضية كلما اريد خلق انسان ولان التوالد يتيح المرور بمختزل هذه الادوار وبسرعة فلا حاجة لتكلف المرور بها على نحو مطابق للاصل . واذ كان هذا الكلام يحتاج الى تفسير فليعلم القارىء — إذا كان ممن يجهل ذلك — ان المرء يعيد على صورة مصغرة مختزلة ما مرت به الانسانية من ادوار النشوء ، وللقارىء ان يصدق هذا أو لا يصدقه ، فان كانت الاولى فله منا الشكر الجزيل على الثقة بنا والاطمئنان الينا ، وان كانت الثانية فلا ضير عليه أو علينا ولن يمنع انكاره ان الامر

كما نقول والحال على ما نصف ووقتنا وصدرنا اضيق من ان نتجشم اثبات ذلك له على حين يستطيع هو ان يريحنا بأن يقراه في اكثر من كتاب واحد .

والآن فلننتقل الى شيء آخر ، وليحضر القارىء الى ذهنه تلك الآلة الموسيقية التي يسمونها القانون . وهي آلة ذات أوتار كثيرة يحتاج الضارب عليها ان يعيد اصلاح اوتارها كلما اراد ان ينتقل الى « نغمة » مغايرة للنغمة الاولى ومن باب غير بابها . ولكنه لا يحتاج الى اعداد اوتاره وتهيئتها من جديد اذا كان الانتقال يسيطا وفي موضع واحد او مواضع قليلة من الصوت الذي يوقعه ولم يكن عاما شاملا . ونحسب هذا معروفا مفهوما. وما منا الا من رأى ذلك وشهده بعينيه فصاحب القانون لا يغير شد الاوتار ولا يكف عن التوقيع عليها ليعالجها من جديد اذا كان الخروج عما هيأ له أو أوتاره جزئيا غير تام . وهو حين يحدث هذا الخروج الجزئي عما استعد له بآلته لا يتعبه هذا الخروج ولا يصدمع ولا يكلفه او يكلف الاوتار فوق طاقته وطاقتها فيستمر العزف او التوقيع كأن لم يحدث انتقال ما .

كذلك الناس حين يجيئهم واحد منهم بما هو اشبه بقديمهم الذي ساروا عليه والفوه ، لا يحسون انجديدا طرأ أو انهم يحتاجون ان يصلحوا نفوسهم ويهيئوها تهيئة خاصة لتلقى هذا الطارىء واستقباله . ولا يشعرون بدافع الى المقاومة اتقاء لما يكلفهم اطراح ما اعتادوه من الجهد . ومن الامثلة كتابات المنفلوطي رحمه الله . وهذه لم يكن فيها جديد بل كلها مما شبوا وشابوا عليه . وكل ما في الامر انه جعل لكلامه طلاء او لونا لا يحيله عن اصله ولا يخرجه عن تياره . وشبيه بذلك ان تستحدث الوانا جديدة في الملابس دونأن تغير الشهرة (المودة) في تفصيلها — فلا يصدم الناس منها شيء كبير ولا يحملهم على التردد في قبولها والاقبال عليها انها مخالفة لما يجري عليه العرف ولكن لنفرض ان حائكا سن لنا شهرة جديدة كل الجدة كأن يرتد بنا الى خمسين أو ستين سنة ليحيى طرازا كان شائعا يومئذ او كأن يستحدث اسلوبا تكون الازرار من الخلف لا من الامام او تكون

السترة او ما يسمونه « الجاكتة » اشبه بالشملة . فهل يقبل الناس على تلقف هذا الطراز ؟ كلا ! يتحرجون في أول الامر وينكرونه ويظلون يتهيبونه زمنا طويلا أو قصيرا على قدر بعده من مألوفهم ، حتى يتهيئوا لقبوله شيئا فشيئا ويقتنعوا بصلاحه وجماله على الايام ان كان له نصيب من الجمال او الصلاح . وهذا هو الذي يحدث حين يخرج كاتب أو شاعر على التقاليد والسنن وينهج سبيلا غير التي ألف الناس أن ينهجها الكتاب، أو حين ياتي عالم أو فيلسوف برأي يقلب ما نشأ الجمهور على اعتقاده . ولماذا في ظنك كان أهل أوربا في القرون الوسطى يستنكرون أن يذهب احد الى ان الارض دائرة او أنها ليست محور الوجود وقطب الكون أو ان الشمس لا تدور حولها بل هي التي تدور حول الشمس ؟؟ ماذا يعنيهم من كون الارض كرة أو سطحا أو هل تدور حول الشمس أم الشمس التي تدور حولها ؟ ماذا كربهم من ذلك في حياتهم أو افسدها عليهم حتى آذوا القائلين بما اعتقدوا خلافه ؟ لا شيء سوى أن الرأي الجديد كان خطوة في عكس الطريق الذي درجوا عليه كما درج آباؤهم وكان من شدة المغايرة وفرط المعارضة لمألوفهم بمثابة القول بأن الانف مجعول لمضغ الطعام والاذن للشم والعين للسمع . والناس انما يسهل عليهم الاخذ بالجديد اذا كان مقاربا لما اعتادوه وكان كأنه امتداد له ولم يكن مغايرا في جوهره لآرائهم أو أذواقهم .

وقد قلت حين سقت مثل الحائك « لنفرض أنه سن لنا شهرة جديدة كل الجدة كان يرتد بنا خمسين او ستين سنة ليحيي طرازا كان شائعا يومئذ »، واعني بذلك أن القديم الذي مضى زمنه وانقضى عهده يكون في حكم الجديد وله وقعه وصدمته حين يراد احياؤه ، لانه يكون جديداً في نظر من لم يألفوه ، واعتبار من لم يدركوا زمنه وعلى ان هذا فرض قائم على استحالة اذ كان احياء القديم يتطلب ان تتوفر الاحوال والمقتضيات والحالات النفسية والفكرية التي عفى عليها الزمن وطوى صفحتها .

وبعد فليس بصحيح ان الناس مولعون بكل جديد وانما الصحيح أنهم يقاومونه ويتهيئون له على الايام وان جديد اليوم اذا كان صالحا خليق ان

نشكر الله عليه . اذ حقيق بالدنيا ان تنقلب بيمارستانا ضخما لو أن الناس فيها كانوا يبادرون الى الاخذ بكل جديد واجابة كل مهيب فليس كل جديد صالحا والاتزان في الحياة الزم واجدى واكفل باطراد التقدم من طيش التعجـــل .

● **ابراهيم عبد القادر المازني**

المصـــدر : قبض الريح الـدار القوميـة ـ القاهرة ١٩٦٠. ص ـ ٦١ ـ ٦٦ .
صدر الكتاب للمرة الاولى عام ١٩٢٧ .

انبـــاء العالـــم الاسلامي

مجلـــة الرابطـــة الشرقية

(ودعاية التجديد الالحادية واللادينية ودعاته)

نشرت جمعية الرابطة الشرقية في ١٧ صفر من هذا العام (اعلانا) للمجلة التي قررت انشاءها نشرناه لها في الجزء الخامس من المنار الذي صدر في سلخ ربيع الاول ، واذ كان آخر كلمة في الاعلان ان لجنة المجلـة هي : « الرئيس السيد عبد الحميد البكري . مدير المجلة : احمد شفيق باشا . المشرف على التحرير : الاستاذ علي عبد الرازق » قفينا عليـه بقولنـا :

« نحمد الله ان آن اصدار هذه المجلة التي قررنا اصدارها من اول العهد بانشاء الجمعية (وفي الاصل المجلة وهو غلط بالطبع) ولكن نخشى أن يظهر فيها شيء من شذوذ المراقب الذي يسوء جميع المسلمين كدفاعه عن الترك ، وثنائه على خطة حكومتهم في نبذ الاسلام وراء ظهورهـم ، ومحاولة ازالة كل اثر له في شعبهم ، ولكن الرجاء في سماحة الرئيـس وسعادة الوكيل ان يحولا دون ذلك فالمراقب لابد له من مراقبة » .

نشرنا هذا التنبيه والتحذير راجين ان يكون حائلا دون ما نخشى ونحذر على مجلة جمعيتنا من تاييد الدعاية الالحادية الجديدة التي قد توجب علينا ان نؤذن مجلة جمعيتنا بالحرب ــ (كما حذرنا ملك الافغان ووزيره الاكبر من تقليد الترك الكماليين في حكومتهم اللادينية وانذرنـا الوزير سوء عاقبة هذا التقليد في بلادهم لئلا نضطر الى عدائهم ، ونحن

نحب ان نكون من انصارهم ، كما يجب علينا لكل شعب اسلامي ولاسيما قوم استاذنا الاكبر في السياسة الاسلامية والشرقية السيد جمال الدين الافغاني رحمه الله تعالى) ــ ويسوءنا ان وقع ماكنا نتوقع في مجلتنا وفي شعب استاذنا .

صدر العدد الاول من مجلة الرابطة الشرقية فاذا هي مجلة لادينية تؤيد ما يسميه ملاحدة هذا العصر بالتجديد اللا ديني وتحرير المرأة المسلمة ، وتدافع عن الترك والفرس والافغان ، فيما يجادلونه من تجديد يهدم الاسلام ، على احتراس قليل في التعبير هو اقرب الى الدفاع عن مصطفى كمال وامان الله خان منه الى الهجوم عليهما ، وينبىء عن الخشية عليهما من الفشل لا عن تمنيه لهما ــ واذا بنا نرى فيه مقالة للدكور طه حسين الذي اشتهر بالطعن في الاسلام وتكذيب القرآن (العظيم المجيد الكريم الحكيم) وخلاصة لبحثه الجهلي السخيف في ضمير الغائب واستعماله . اسم اشارة في القرآن الكريم ، ومقالة اخرى لاستاذه الدكتور منصور فهمي داعية التجديد من ناحية الفلسفة في باب خاص به عنوانه (صفحات شرقية) ومقالة للاستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق شقيق الاستاذ علي عبد الرازق رئيس تحرير المجلة ، فاذا كان هذان الاستاذان يساعدان المجلة في تحريرها لانهما عضوان في مجلس ادارتها ، فما بال الدكتور طه حسين ، وما الذي وضع اسمه في العدد الاول في مقالين اثنين على اشتهاره بين مسلمي مصر وغيرها بالطعن في الاسلام ؟

بعد صدور هذا العدد بأيام جاءني كتاب من بعض اهل العلم الاسلامي الداعين الى الاصلاح يقول فيه ما معناه : ان اهل الغيرة الاسلامية المحبين للمنار وصاحبه المحسنين للظن به ينتظرون أن ينشر في الجرائد اليومية انه خرج من جمعية الرابطة الشرقية وتبرأ منها بعد ان ظهرت خطتها اللادينية في مجلتها . ثم تكلم معي بعض اعضائها في وجوب تلافي هذا الامر وتداركه .

ثم ظهر العدد الثاني من المجلة فاذا هو اصرح من العدد الاول فيما

ذكر واذا بنا نرى من محررية الدكتور طه حسين الذي تعبر عنه المجلة بكلمة « صديقنا » واستاذه وسلامة موسى عدو الاديان كافه والاسلام خاصة ، وعدو الآداب والفضائل الروحية ، وعدو الروابط الشرقية من وطنية وجنسية لغوية ، وداعية الكفر والوقاحة والتهتك اللذين يعبر عنهما بالادب المكشوف ، ويرجحه على ضده من الصيانة والحياء الذي يسميه الادب المستور ، والدكتور هيكل بك رئيس تحرير جريدة السياسة داعية الثقافة اللادينية ، والاستاذ أحمد امين احد اركانها ، فمن ذا الذي جعل هذه المجلة ميداناً لسباق اشهر فرسان الثقافة الالحادية وجعلها لسان حالهم ومقالهم ؟

واذا بنا نرى من موضوعات هذا العدد مقالة وجيزة من المجلسة عنوانها (البرنيطة في بلاد الشرق) بداها الكاتب ولعله المشرف على تحريرها بقوله « من غريب المصادفات ان يتفق زعماء النهضة في بلاد الاسلام ، : تركيا وفارس وافغانستان ، على إلزام اممهم قهراً بلبس البرنيطة رغم العقيدة الفاشية في تلك الامم عن البرنيطة من انها شعار نصراني خاص لا يرضى به الا مسلم خارج عن دينه » الخ .

ثم قال في اواخرها « الحق اننا لا نزال عند رأينا في أمر البرنيطة من انها اهون شأناً من ان يختلف فيها اثنان ، او ينتطح فيها عنزان ، وخطأ الدعاة اليها والمعارضين لها في تعظيم امرها » .

تنويه مجلة الرابطة الشرقية بالحاد الكماليين :

وإذا بنا نرى من موضوعاته مقالة اخرى في تنظيم شأن النهضة التركية في المعارف وغيرها ولا سيما نشر التعليم العام بالحروف اللاتينية الناسخة للحروف العربية ، وزعم الكاتب ان هذا الانقلاب العلمي الاخير في تركيا ليس له نظير في تاريخ البشر لانه جعل المدن والقرى في جميع المملكة مدرسة كبرى « غرف فصولها الاندية والمقاهي والمساجد ... » ثم نوه بعظمة الغازي مصطفى كمال الذي هو الاستاذ الاكبر لهذه المدرسة العامة الشاملة لجميع أفراد الامة التركية !!!

أيظن الكاتب الذي جن في الدعاية الكمالية فعظم ما ليس بعظيم ، أن الناس كلهم مجانين يأخذون هذا التنويه الجنوني بالتسليم ، بعيشك أيها القارىء ألم يكن صاحب المنار فيما توقعه من مصطفى كمال ومن أمان الله خان ثم من الرابطة الشرقية غيداراً(١) وداعياً الى الرشد لمن لم يزدهم دعاؤه الا فراراً ؟ .

خداع طه حسين للأزهريين بترك الدنيا للملحدين :

واذا بنا نرى من موضوعاته مقالة للدكتور طه حسين حاول فيهـا اقناع الاستاذ الاكبر شيخ الجامع الازهر بأن يجعل التعليم فيه وفي سائر المعاهد الدينية موجها الى الدعوة والارشاد دون القضاء الشرعي والتعليم في المدارس وغير ذلك من اعمال الحكومة والمصالح الدنيوية اذ يجب عنده ترك جميع الاعمال القضائية والمدنية والتعليمية للمدارس الدنيوية تبعاً لمذهب التجديد القاضي بفصل أمر الدين عن امور الدنيا خلافا للاسلام .

ونرى من المناسب أن ننتقل على سبيل الاستطراد من سرد المباحث التي تسمى التجديدية ، وكتابها في مجلة الرابطة الشرقية ، الى ذكر شيء جديد في مقال الدكتور طه حسين ، وهو انه يذكر الله تعالى في هذه المقالة ويسـمي الاسلام دين الله والقرآن كلام الله ، فقد قال في آخـر هذه المقالة .

« الا ان سبيل الازهر الى الخير واضحة إن اراد أن يسعى الى الخير حقاً فليخرج لنا وعاظاً مرشدين خليقين بهذا اللقب ، وليخرج لنا دعاة الى دين الله وذادة عنه وحماة له ، وليدع الدنيا واعراضها للذين تعنيهم أعراض هذه الحياة الدنيا ، فقد صدق الله تعالى حين قال (واضرب لهم(٢) مثل الحياة الدنيـا كمـاء انزلناه من السماء فاختلط به

---

(١) الغيدار الذي يسيء الظن فيصيب .

(٢) غلط الدكتور في اول الآية فجعله (انما مثل الحياة) وصوابه ما ذكرنا .

نبات الارض فاصبح هشيماً تذروه الرياح) فليدع الازهر هذا الهشيم الذي تذروه الرياح ، وليدع الازهر هذا الزبد الذي يذهب جفاء » .

ونقول الظاهر ان هذا التصريح الجديد في هـذه المقالة يقصد به التاثير واقناع شيخ الازهر ورجال الاصلاح بهذه النصيحة الخادعـة وايهامهم انها مقتضى كلام الله تعالى ، وشيخ الازهر وعلماء الازهـر يعلمون أن الاسلام جمع لأهله بين مصالح الدنيا والآخرة ، وأن هـذا المثل الذي ذكرهم به الدكتور ليس معارضاً لقوله تعالى (هو الذي خلق لكم ما في الارض جميعاً) وقوله (قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة) وأمثال ذلك من الآيات ، التي ترشد المسلمين الى جميع علوم الكائنات ، والآيات التي وعدهم الله بها بأن يجعلهم خلفاء الارض ويمكن لهم فيها السلطان والمجد ، وانما ذلك مثل لتصغير متاع الحياة الدنيا بالنسبة الى سعادة الآخرى ، لئلا يشغلهم الغرض الادنى عن الغرض الاعلى ، وقد أرشدهم الى الجمع بينهما ، وعلمهم ان يـدعوه بقوله (ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة) ومن المعلوم من تاريخ الاسلام بالضرورة ، ومن تعاليمه بالنصوص المتفق عليهـا بين الائمة ، ان خلفاء المسلمين وقضاتهم وحكامهم يجب ان يكونوا من أعلم علمائهم المستقلين ، ومن اشدهم اقامة للعدل واعتصاما بعدالة الدين . وهم يحفظون من كلام سلفهم : الدنيا مزرعة الآخرة ، وقد بينا هذا بالتفصيل في مواضع من التفسير والمنار فلا محل لبسطه هنا .

وقد غالط الدكتور طه حسين الازهريين فيما ضربه لهم من الامثال الدنيوية كهذا المثل الديني إذ ذكر لهم المدارس الدينية لدعاة النصرانية، وهذا حجة عليه فان هذه المدارس تلقن طلابها جميع علوم الدنيا ، ودعاة النصرانية المتخرجون فيها منهم الاطباء واساتذة العلوم والفنون الرياضية والطبيعية وغيرها ، فلماذا يحاول اقناع متخرجي الازهر وسائر المعاهد الدينية ، بترك تعليم المدارس المدنية والقضائية وغير ذلك من مصالح الدنيا لكليات جامعته المصرية المدنية ، والرضى بأن تكون سيادة الدنيا

ومجدها وقفاً على الملحدين ، ولماذا تنشر له مجلة الرابطة الشرقية هذا الغش والخداع للمسلمين ؟ فيا ليت شعري هل يرى رئيس الجمعية ووكيلها ما يراه زميلهما المشرف على تحرير مجلتها من ان الاسلام دين روحاني محض لا حكومة ولا شريعة يجب على اهلها التزامها ، وهل يريان ما يرى صديقه طه حسين من جعل غاية التعليم الديني الوعظ والدعوة وحصر اعمال الحكومة المصرية الاسلامية في خريجي المدارس اللادينية ؟ الذي كنا نعرفه عنهما غير هذا .

ويلي مقال الدكتور طه حسين مقالا لاستاذه الدكتور منصور فهمي تابع لما كتبه في العدد الاول ، وغايته التنويه بتعظيم شان مصطفى كمال فيما تراءى له ولسائر دعاة التجديد اللاديني من نجاحه فيما يسمونه اصلاحا وان لم يصرح باسمه ولا باسم المقتدين به ملك الافغان وشاه ايران الذين يعبر عنهم « برجال الشرق الحاليين ومصلحيه » .

دعاية سلامة موسى الى الالحاد وهدم الاسلام :

واذا بنا نرى من موضوعاته دعاية سلامة موسى المسرف في الالحاد الى رايه في مقالة عنوانها (الشرق والغرب) وهي تتضمن تخطئة جمعية الرابطة الشرقية في سعيها للتعارف والتعاون بين شعوب الشرق من ادناها الى اقصاها اذ يقول « اننا نحن المصريين والسوريين والعراقيين نمت بجملة صلات من النسب الى اوربا ولا نمت باي صلة الى اليابان والصين ، فنحن من حيث السلالة البشرية ننتمي نحن والانكليز الى « أم واحدة » ونحن من حيث الدين يشترك كثير منا واوربة في المسيحية، والمسلمون هم اقرب الملل في العالم الى المسيحية » .

ويغرض سلامة موسى افندي من هذا البحث في مقالته اقناع قراء مجلة الرابطة الشرقية وتقريب بعض آخر من رايه المشهور عنه وهو وجوب اندغامنا في الامة الانكليزية ، ولو كان هذا المقام مقام المناقشة والمناظرة لاثبت له ان النصرانية الحاضرة نصرانية التثليث هي اقرب الى البوذية منها الى الاسلام ولكن دين المسيح دين التوحيد الخالص

هو عين دين محمد عليهما الصلاة والسلام الذي جاء في انجيل يوحنا منه قول عيسى في مناجاة ربه « ١٧ : ٣ وهذه هي الحياة الابدية أن يعرفوك انك أنت الاله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي ارسلته » .

ويدعو الاستاذ سلامة موسى في مقاله هذا الى هدم الاديان عامة والاسلام خاصة ، كما يدعو الى ما ذكر من السياسة القومية ، فقد زعم فيه ان اسخف ما سمعه عن الفرق بين الشرق والغرب ان الاول روحي والثاني مادي » وان مما يزيده عجبا واستغرابا لهذا القول الاستدلال عليه بنشوء الاديان في الشرق (قال) « مع أنهم لو تبصروا قليلا في القرآن والانجيل والتوراة لوجدوا أن جميع الانبياء في هذه الكتب الثلاثة كان همهم الاكبر هو الاصلاح الاقتصادي الذي هو هم اوربا الآن » ونقول هذا من الافك والبهتان ، الذي يفنده فيه جميع أهل هذه الاديان .

ثم إنه انتقل الى الدعوة الى تقليد اوربة بطفرة سريعة على رأي صديقه الاستاذ علي عبد الرازق رئيس تحرير مجلة الرابطة الشرقية ومدير سياستها الحقيقي وقال :

« مثال ذلك انه يجب علينا أن نساوي بين الرجل والمرأة ولكن اساس هذه المساواة هو الاقتصاد فلا معنى لان تعطى المرأة حق الانتخاب والتصويت والسفور والتعليم ولا يكون لها في الميراث سوى نصف الرجل بل يجب ان نفصل الدين عن الدولة ونجعل المرأة مساوية في المواريث للرجل بلا أدنى فرق .

« ثم يجب أن نجعل التعليم العام وسيلة لتخريج رجال متمدينين ومتمدينين فقط وربما كان اللباس الاوربي أي القبعة (يعني البرنيطة) والبنطلون مما يجلب عطف الامم الاوربية علينا ويجعلنا ننظر الى انفسنا نظرا غربيا فلو جعلناه الزاميا لجميع الافراد لكان فيه فائدة كبرى في الاسراع في اتخاذ الحضارة الغربية » .

. هذا آخر مقال هذا الداعية الى هدم الاديان ولا سيما الاسلام وهدم الوطنيات والاندغام في الاوروبيين بسرعة سيف مصطفى كمال وقوانينه ومحاكمه الاستقلالية التي تحكم على الممتنع من لبس البرنيطة تدينا بالقتل — فهنيئاً لجمعية الرابطة الشرقية بهذه المجلة وكتابها .

وقد كان دعا الى مثل ما دعا اليه في شأن المساواة بين المرأة والرجل في الميراث وغيره في محاضرة أو خطبة استفرغها في نادي جمعية الشبان المسيحيين ثم كتب الى هدى شعراوي هانم رئيسة جمعية النهضة النسوية بمصر يدعوها الى مطالبة الحكومة بتقرير هذه المساواة فردت عليه بأن ما تطلبه جمعيتها من الاصلاح لا يدخل فيه الخروج عن دين الاسلام وترك أحكام الشريعة بل هو في دائرة حدودها ورد عليه كثير من كتاب المسلمين مبينين عدل الاسلام وفضله على جميع الشرائع في الارث وغيره ، ولكن مجلة الرابطة تعيد له نشر هذه الدعاية .

وللدكتور منصور فهمي تعليق على هذا المقال بداه باجلال اخيه سلامة موسى والاشارة بما له من المنزلة الرفيعة في نفسه ثم داعبه مداعبة في بعض عباراته .

دعاية الاستاذ احمد امين الى التفرنج :

ويلي هـذا مقالين قالت المجلة انهما «يتصلان بالموضوع اتصالا شديداً » أحدهما عنوانه (وحدة العالم) وهو للاستاذ احمد امين من اركان الدعاية اللادينية جزم فيه بأن الشرق لا يمكن ان يكون له مدنية خاصة به وان العالم الشرقي كله سائر الى المدنية الغربية ولا يستطيع أن يتجه الى غير ذلك — وانه « يجب ان يكون عمل المصلحين محصورا في دفع هممهم الى الاخذ بأوفر حظ من المدنية الغربية وخير طريق لذلك تهيئة نفوس الامة لهذا الاقتباس » الخ .

راي هيكل بك في الحاجة الى دين جديد :

والمقال الثاني عنوانه (حضارة الشرق متى تبعث من جديد لتضيء

ظلام المدنية الغربية) وهو الدكتور محمد حسين هيكل بك مدير جريدة السياسة مبتدعة الثقافة اللادينية ولسان حال حزب التجديد اللاديني، ولكن مقاله هذا فيه من سعة العلم بحال اوربة والشرق ما ليس في شيء من تلك المقالات اذ نظر الى ما في اوربة من فساد الاخلاق والآداب وخطر المدنية المادية وعلم ما لم يعلم سائر أولئك الكتاب أو خبر بما لم يخبر به أحد منهم من حاجة اوربة نفسها الى اصلاح روحي لا يمكن أن يكون الا بهداية دينية ، وان الشرق هو الجدير بأن يكون مشرق هذه الهداية التي لا يرجى صلاح الغرب بدونها ، فهو يقدح زند هذا الرجاء فيه ؟

سبق للدكتور هيكل مقال في هذا الموضوع نشره في الهلال وتمنى فيه لو يبعث نبي جديد في مصر من اهلها يتحقق بما يأتي به من وحي الدين هذا الرجاء في اصلاح الغرب والشرق ، وفاته ان هذا النبي الذي قوي توجه العقول الى الحاجة اليه قد وجد وجاء بكل ما يرجى في هذا الامر ولكن الذين يدعون اتباعه قد شوهوا هدايته بما ابتدعوه فيها ، وانها لو ظهرت نقية من هذا البدع والخرافات بدعاية حكيمة معقولة لادت هذه الوظيفة المرجوة على اكمل وجه .

هذا النبي المطلوب لاصلاح فساد المدينة الغربية هو محمد رسول الله وخاتم النبين ، صلوات الله وسلامه وعليهم اجمعين ، كما بينا ذلك في مواضع من المنار في السنين الماضية وبينا أن اول من اهتدى الى حاجة اوربة الى هدايته في هذا العصر هو حكيم الشرق السيد جمال الدين الافغاني رحمه الله تعالى وانه كان كثيرا ما يقول : لا حجاب يحول بين أوروبة وبين دين القرآن الا نحن فانهم ينظرون الينا من خلال القرآن هكذا — ويرفع يديه مفرجاً بين اصابعهما — فيجدون وراءه أقواما غلب عليهم الجهل والكسل والتواكل والخرافات فيلقونه قائلين لو كان اصلاح لصلح به متبعوه ، فاذا اردنا ان نقنعهم بحقية الاسلام واصلاحه وجب أن نقنعهم قبل ذلك باننا لسنا مسلمين ويليه في ذلك الاستاذ الامام وقد نقلنا عنه مرارا انه قال في درسه العام في الازهر انني اعتقدت منذ عشرين سنة عقيدة تزداد رسوخا في نفسي سنة بعد اخرى بقدر ما ازداد علما

واختبارا لحالة العالم المدني وهو ان اوربة لا تجد لها منقذا من فوضى الافكار المادية وفساد الاخلاق الا بالاسلام الصحيح وانها ستنتهي الى الاهتداء به في يوم من الايام وربما صار المسلمون الجامدون يأخذون الاسلام عن علمائها (او قال ما هذا معناه وربما اكون ذكرته من قبل بلفظه او بما هو اقرب من هذا الى لفظه ولكن المعنى لم يتغير) واقول ان تجديد الثقافة والحضارة السليمة من الرذائل يظهران على اكمل وجوههما بتجديد الاسلام ويكون هؤلاء المجددون له مصداق قول النبي صلى الله عليه وسلم « ان الله تعالى يبعث لهذه الامة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها » رواه ابو داود والحاكم والبيهيقي في (المعرفة) من حديث ابي هريرة ووضع له السيوطي في الجامع الصغير علامة الصحيح ، وحينئذ نرى هؤلاء الدعاة الى التجديد الاعمى يؤمنون بآية التجديد المبصرة ويكونون من السابقين الى الاسلام الذين يجهلونه ويحتقرون اهلــه .

مختارات مجلة الرابطة الطاعنة في الاسلام :

ومما اختارته المجلة او مراقبها لهذا العدد الثاني من الاقتباس والترجمة في مقالة في (مسيلمة الكذاب) مخالفة في سداها ولحمتها لما عند المسلمين يسمي صاحبها مسيلمة نبيا كما يسمى محمد (ص) نبيا يعني ان كلا منهما كان نبيا لقومه ، ويسند الى الاخبار الاسلامية التعبير عنه بمسيلمة الكذاب كأنه او لانه مخالــف لهم في هــذا الوصف ، فما كان اغنى قراء هذه المجلة عن هذه المباحث في اوائــل اعدادهــا !!

ومنها ما ترجمه الاستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق من محاضرات لطلاب المدرسة الحرة في باريس في الاسلام من الطعن على هذا الدين القويم وهي خمس محاضرات جمعها كتاب اسمه (الاسلام والسياسة الحاضرة) ولم يرد الاستاذ على شيء مما فيها من الطعن في الاسلام والمسلمين ولا أشار الى شيء مما فيها من الخطأ ولكنه قال فيما بينه من غرضه بعــد

تلخيصها « وليس من غرضنا أن نناقش في رأي ولا أن ندل على خطأ أو تناقض ، وثم لمن أراد موضع للمناقشة وبيان التهافت ، انما نريد أن ننقل الى اهل الشرق تصور الغربيين لهم وحكمهم عليهم » .

اقول اننا في حاجة الى العلم بما يقول فينا اهل الغرب من خير وشر وحق وباطل لا من الطعن فقط ، وفي حاجة الى تمحيص اهل العلم والراي لما يكتب عنا والفصل بين الحق والباطل من اقوالهم . والاستاذ المترجم يعلم ان اكثر قراء مجلة الرابطة الشرقية من المسلمين ليس لهم من المعارف الاسلامية ما يقدرون به على المناقشة وبيان الخطأ والتناقض وأن الطعن في دينهم مما يضرهم قراءته ، ويا ليت شعري هل تقبل مجلة الرابطة الشرقية هذه المناقشات اذا كتبها اليها بعض المسلمين أم تعتذر عنها بانها مما تبرأت منه في بيان خطتها في العدد الاول .

هذا بعض ما انكرنا في هذا العدد الواحد من مجلة الرابطة الشرقية ورآه الناس واستنكروه ومثلنا وكان اشدهم استنكارا له المسلمون ولاسيما رجال الدين ورجال السياسة منهم . وقد كتب الي عالم سوري عصري كبير في فلسطين يقول ما خلاصته انه ظهر للعامي والخاصي ان مجلة الرابطة الشرقية مجلة الحادية أو لا دينية على مذهب زعنفة دعاة التجديد المعادين للاسلام ، وانه يجب عليك الخروج من جمعيتها حفظا لمقامك الديني الا ان تكون ساعيا لمنعها من الاستمرار على هذا الطريق ذي العوج .. وقال لي كاتب من اشهر الكتاب السياسيين يظهر ان مجلة الرابطة الشرقية مشايعة لجريدة السياسة ومجلة الهلال في نزعة التجديد اللاديني الخ .

على ان جريدة السياسة اعتدلت في خطتها بعض الاعتدال وقد نشر فيها عدة مقالات في استنكار خطة الكماليين في استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية ، وتنكر على ملك الافغان اتباعه لخطواتهم على انها تسميها اصلاحا وتخشى عليه من الفشل بعدم مراعاة ما عليه قومه من من عقائد وتقاليد قديمة .. ثم انها مع ذلك تنصر الاستاذ الاكبر الشيخ

محمد مصطفى المراغي شيخ الازهر فيما نهض به من أمر الاصلاح الاسلامي نصرا لم نر فيما قرأناه منه شائبة من دسيسة الدكتور طه حسين التي نشرها في مجلة الرابطة الشرقية ولا من شذوذ رئيس تحريرها الاستاذ علي عبد الرازق الذي بسطه في مجلة الهلال .

انني قد اضطررت الى هذا التطويل في نقد مجلة جمعية كنت من اوائل المؤسسين لها والواضعين لقانونها لانها تنكبت في مجلتها ذلك الطريق الذي سرنا عليه فيها ، وقد كنت أوجزت في النصيحة بما ذكرته في التعليق على اعلان المجلة ثم بما نصحت بلساني فلما لم ينفع النصح المختصر الخفي، اضطررت الى هذا الانكار الصريح الجلي ، والى نشره في المنار ، فعسى أن لا احتاج الى مثله بعد ، ولله الامر من قبل ومن بعد .

المصدر : مجلة المنار ج ٨ مجلد ٢٩ . ديسمبر ١٩٢٨ .

ملاحظة : محرر المنار هو الشيخ رشيد رضا .

الالحاد ودعاته في مجلة الرابطة الشرقية

والاستاذ احمد امين

راجعني تلميذ لي في عدي الاستاذ احمد امين من اركان دعاة الالحاد الذي سقط من قلمي في انتقادي على مجلة الرابطة قائلا انه لم يعرف عنه هذا وليس في مقاله في تلك المجلة شيء صريح فيه.، وذكرني بانه هو المتخرج في مدرسة القضاء الشرعي الذي كان قاضيا شرعيا ــ فاعترفت له آسفا بانني اخطات في عده من اركانهم لانه اشتبه علي بكاتب آخر كتب مقالات الحادية كثيرة في جريدة السياسة ولكنني لا اراني مخطئا في نظم مقالته التي نشرتها له تلك المجلة في سلك سائر مقالاتها التي تؤيد دعاية ما اعنيه بكلمة الالحاد ، على انني جعلت عنوانها (الدعوة الى التفرنج) ورايت من الواجب علي الآن أن أفسر في المنار ما أعنيه بكلمة الالحاد التي يشتمل عمومها على تلك المقالة فقد علمت ان بعض الناس يفهمونها مرادفة لكلمة الكفر والتعطيل ، والصواب انها اعم من ذلك لغة وشرعا كما بينته بالتفصيل في تفسير قوله تعالى (٧ : ١٨٠ ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون) اذ قلت في اوله ما نصه :

واما الالحاد فمعناه العام الميل والازورار عن الوسط حسا او معنى ، والاول هو الاصل فيه كأمثاله ــ وبعد ذكر الالفاظ والجمل المستعملة من من هذه المادة قلت : ولما كان « خيار الامور اوساطها » كان الانحراف عن الوسط مذموما ، ومنه اخذ التعبير عن الكفر والتعطيل والشك في الله تعالى بالالحاد ويسمى ذووه الملاحدة والملحدون . ثم نقلت ما قاله الراغب في مفردات القرآن تفسيرا لهذه المادة ومنه : الحد فلان : مال عن الحق ،

والحاد ضربان ، إلحاد الى الشرك بالله وإلحاد الى الشرك بالاسباب ، فالاول ينافي الايمان ويبطله ، والثاني يوهن عراه ولا يبطله الخ ثم بينت أن الالحاد في أسمائه تعالى سبعة أنواع (راجع ص ٤٤٠ — ٤٤٨ ج ٩ تفسير) .

فانا اعني بالالحاد في كل ما ارد به على الملاحدة المعنى العام له الـذي يشمل الكفر المخرج من الملة وغير المخرج منها وما ليس بكفر مما يضعف الايمان ويوهن روابط الاسلام اللغوية والاجتماعية كالثقافة اللادينية التي كانت تدعو اليها جريدة السياسة وغيرها وكثير مما يسميه جماعة الكتاب اللادينيين بالتجديد كازياء الرجال والنساء الافرنجية التي جعلها مصطفى كمال باشا ومريده امان الله خان من أركان الاصلاح لما يقصد بها من إنساء المسلمين جميع ماضيهم . ومن اركانها استبدال الحروف اللاتينيةبالعربية وغير ذلك من الميل عن الوسط الى افراط او تفريط في الشؤون الاسلامية . وليس منها تجديد الصناعات والفنون العسكرية والمالية والتجارية وامثال ذلك مما يزيد قوة الامة وثروتها بل هذا واجب شرعا .

ويرى القراء في عناوين مقالنا في الانكار على مجلة الرابطة ما يدل على هذا التقسيم للآراء الالحادية ولاسيما التفرقة بين دعاية سلامة موسى الى هدم الاسلام ودعاية احمد امين الى التفرنج . فثبت من كل ما تقدم اننا لا نعد كل ما ننتقده من التجديد المدني الحادا ، ولا كل الحاد وتفرنج كفرا يخرج به صاحبه من الملة .

هذا وان مقالة المنار في الانكار على مجلة الرابطة الشرقية قد كان لها وقع عظيم في نفوس المسلمين هنا وربما كان وقعها اعظم في سائر الاقطار الاسلامية التي لم يوجد فيها من حرية الالحاد مثل ماهو معهود في مصر .

نشرتها جريدة كوكب الشرق اليومية التي يقال انها الآن اوسع صحف القطر انتشارا ، ونشرتها صحيفة الفتح الاسبوعية . وقد جرى حديث بين احد محرري الكوكب وصاحب السعادة احمد شفيق باشا في موضـوع المقالة كانت فيه اجوبة سعادته للمحرر مشعرة برضاه عن تلك المقالات التي انتقدناها على المجلة الا مقالة سلامة افندي موسى فقد اعتذر عنها

بحرية النشر . . . فكان ذلك موجبا لمزيد استياء المسلمين كما بينته مجلة الفتح . وجرى بيننا وبين سعادته وسماحة الرئيس في المسالة مالا ينبغي لنا ان ننشره لانه من امانة المجالس ، ثم جرى حديث آخر في جلسة مجلس ادارة الرابطة الاخيرة . وقد علم من كل هذه الاحاديث ان هيئة تحرير مجلة الرابطة ستبين رأيها في انتقاد مجلة المنار لها بما يصح ان يبنى عليه راي مجلس الادارة فيها — وكذا الرأي الاسلامي العام الاولى . فعسى ان يوفق صاحبا السماحة والسعادة الرئيس والوكيل الى انتياش المجلة من الورطة التي نشبت فيها بشذوذ الاستاذ رئيس التحرير الذي لم يعرفا كنهه من قبل ، وان ما نعهده فيهما من الحنكة والحلم والروية جدير بأن ينتصر على ما عنده من الشرة والحدة والاصرار ، وقد بلغنا انه يستعد للانتقام منا بنقد التفسير وغير التفسير من الآثار والمطبوعات . وما نقده بالذي يخيفنا ونحن نعرض كل ما نكتبه للنقد وننشر ما يرسل الينا منه وان كان تجهيلا وتضليلا ، حتى لامنا خيار قراء المنار على اضاعة اوقاتنا واوقاتهم في ذلك ، وانما نحسب حسابا لما عسى ان يكون لاطلاق العنان له في مجلة الرابطة من تاثير سيء في جمعية الرابطة وتاثير اسوأ في جميع المسلمين ، وانا للجزء الثالث منها لمنتظرون .

المصدر : مجلة المنار ج ٩ مجلد ٢٩ . فبراير ١٩٢٨ .

نحن وصاحب المنار

بين الشيخ رشيد رضا صاحب المنار وبين المشرف على تحرير هذه المجلة خصومة قديمة العهد معروفة ، ولقد كان يحسن بهذه الخصومة ان تبقى بعيدة عن عمل لا شأن له بها ، وعن الناس لا يعنيهم من امرها كثير ولا قليل ، ولكن الشيخ رشيد يأبى الا ان تتغلب على اعصابه ومشاعره تلك الخصومة وتملأ عليه مشاغله واوقات حياته ، فهو لا يبرح متأثراً بها في جليل اعماله وصغيرها وفي خاصها وعامها ، كأنما صغرت نفس الشيخ رشيد وضاق صدره حرجاً بتلك الخصومة فهو لا يرى في الوجود غيرها ولا يشعر الا بها ، او كأنما كبرت في نفسه تلك الخصومة حتى ملأت عليه فجاج الارض وسدت في وجهه منافذها .

اما المشرف على تحرير هذه المجلة فقد عرف لهذه الخصومة حقها واراد ان يقف بها عند حدودها ، فلا يخلط بها ما ليس له بها صلة ، ولا يلقي اعباءها على اناس لا ينبغي ان ينالهم من عبئها شيء . واما الشيخ رشيد فانه لم يستطع ان يصون نفسه عن التورط في تلك الخصومة واثارتها في غير مواطنها ، ولم يستطع ان يتخلص في وقت من الاوقات من سلطان الحقد والضغينة عليه فاذا هو يستقبل خبر هذه المجلة بغمز المشرف على تحريرها فيه من قبل ان يظهر العدد الاول منها ، ومن قبل ان يعرف منهجها واسلوبها . لم يستطع الشيخ رشيد ان يحيي الاعلان عن مجلة الرابطة الشرقية ولا ان يستقبلها بكلمة صالحة غير ان يقول : « نحمد الله أن آن اصدار هذه المجلة التي قررنا اصدارها من اول العهد بانشاء الجمعية

ولكن نخشى ان يظهر فيها شيء من شذوذ المراقب الذي يسوء جميع المسلمين كدفاعه عن الترك وثنائه على خطة حكومتهم في نبذ الاسلام وراء ظهورهم ومحاولة ازالة كل اثر له في شعبهم ولكن الرجاء في سماحة الرئيس وسعادة الوكيل ان يحولا دون ذلك ، فالمراقب لابد له مراقبة » .

ظهر العدد الاول من المجلة فلم ينظر الشيخ رشيد اليه الا من وراء الدغل والسخيمة غطي على سمعه وبصره غشاوتهما ، ولم يشعر ازاءه الا بما ياكل قلبه من خصومة المشرف على التحرير ، فكتب ينتقد العدد الاول ، وما ينتقد في الحقيقة الا شخص المشرف على تحريره ، وما يقول عن العدد الاول من مجلة الرابطة الشرقية الا حديثا مكررا من حديث الذي رمى به المشرف على التحرير من قبل قال :

« صدر العدد الاول من مجلة الرابطة الشرقية فاذا هي مجلة تؤيد ما يسميه ملاحدة هذا العصر بالتجديد اللاديني وتحرير المراة المسلمةوتدافع عن الترك والفرس والافغان فيما يحاولونه من تجديد يهدم الاسلام على احتراس قليل من التعبير هو اقرب الى الدفاع عن مصطفى كما وامان الله خان منه الى الهجوم عليهما وينبيء عن الخشية عليهما من الفشل لا من تمنيه لهما ... » .

قرانا هذا الكلام فضحكنا وقلنا رجل لا يفتح عينه الا راى المشرف على تحرير هذه المجلة ، ولا يرهف اذنه الا سمع المشرف على تحرير هذه المجلة ، وهو لا يقدر ولا يفكر ولا يقرا الا راي المشرف على تحرير هذه المجلة واصحابه واصدقاءه ينوشون عقله وقلبه وحسه من قريب ومن بعيد ، ينغصون يومه ، ويؤرقون نومه ، ويطليون همه ، ويمدون غمه ، ويفسدون عليه كل شيء فهو كما قال الشاعر :

مازلت تحسب كل شيء بعدها

خيلا تكر عليكم ورجالا

والاشباح التي تخيف الشيخ رشيد كثيرة مختلفة الأنواع ، تأتيه من فوقه ومن تحته وعن ايمانه وعن شمائله . فمصطفى كمال يفزعه ، وامان الله خان يروعه ، وشاه الفرس يزعجه ، ودعوة التجديد تخرجه عن طوره ، وما اقل ما يستقر الشيخ في طور .. ولكن هذه الاشباح ملحة عليه تكاد تقض مضجعه ... الم تر اليه ينكر على العدد الاول من هذه المجلة انها لا تتمنى الفشل للفرس والترك والافغان ، كانما انشئت هذه المجلة لتتمنى الفشل للامم الشرقية الناهضة ، ولتقطع ما بينها من صلة يجب ان توثق ، وتدمر ما فيها من امل يجب ان يشيد ، وتثبط ما فيها من عزيمة يجب ان تقوى ، وتحارب على الاجمال ما فيها من نهضة حياة يجب ان تجتمع الجهود على نصرها وتأييدها وتوجيهها الى الخير وقصد السبيل .

والشيخ رشيد محرف الكلم عن مواضعه ، وكانما قد خلق الله نفسه معوجة كلسانه ، لا يمر بنفسه المبدأ الصحيح والمذهب القيم حتى يفسد ويلتوى ، كما لا تجري على لسانه الكلمة المستقيمة حتى تقبح وتشوه . وأوضح دليل على ذلك ان يحتكر فلسفة الاستاذ الامام ودعوته الى الخير والاصلاح فاذا هذه الدعوة المضيئة الحية الحرة قد مرت برأس الشيخ رشيد فظهرت في اثارة مظلمة ناشرة الظلمة ، ميتة باسطة لسلطان الموت ، جامدة مسرفة في الدعوة إلى الجمود ، واذا هو يتمنى الفشل للامم الاسلامية الناهضة . ولو عاش الاستاذ الامام وشيخه جمال الدين ، ولو قد رأيا مثل هذه النهضة في الامم الاسلامية لكانا بذلك اسعد الناس واشدهم غبطة . ولاطمأنا ورضيا واستقبلا جوار ربهما سعيدين بان جدهما لم يذهب سدى ، وبان جهدهما قد آتي ثمره يانعا طيبا ، واذا الشيخ رشيد أشد الناس اسرافا في تكفير المسلمين ، وتفسيق الصالحين ، والاحتكام على الله عز وجل في الثواب والعقاب .

ولو قد عاش الاستاذ الامام فرأى الشيخ رشيد يسيء الى كلمة الله هذه الاساءة لاسرع الى ما بينه وبينه من سبب فجذمه في غير

اناة ولا فتور . وكيف وقد كان رحمه الله اشد الناس بغضاً للتكفير والتاثيم ونفوراً من رمى الناس بالالحاد والخروج على الدين .

ضحكنا من الشيخ واعرضنا عنه وما أكثر ما نعرض عنه من لغو القول .

ولكن العدد الثاني من مجلة الرابطة الشرقية قد ظهر ، فلم يكد ينظر فيه حتى أخذته الصاعقة ، ودارت به الارض ، وخر عليه السقف من فوقه ولم لا ؟ اله تتمثل له هذه الاشباح التي تخفيه تفزعه وفيها الترك والفرس والافغان حية قوية الحياة ، ناهضة سريعة النهضة ، مجددة حريصة على التجديد ؟

اليس بعض هذا يكفي ليذهب بصواب الشيخ رشيد ! أوليس المشرف على تحرير هذه المجلة ينشر اخبار هذه الامم الحية الناهضة. فيفسر ويعلق ويتمنى الفوز ولا يتمنى الفشل . ومن حوله أصحابه واصدقاؤه يرون نهضة الامم الاسلامية فيدرسونها ويفسرونها ويحاول كل منهم ان يوجهها الى قصد السبيل ، اليس بعض ذلك كافيا ليكفر الشيخ رشيد نفسه ثم ليكفر الناس !!

وذلك ما فعل الشيخ رشيد أسرع الى هذه المطية المنكرة التي يوغل بها في الشر ويوضع بها الى الفتنة ، أسرع الى مطيته المنكرة وهي قلمه فرمى عالمين من علماء الاسلام هما صاحبا الفضيلة مصطفى عبد الرازق واحمد امين بالالحاد واللادينية . لماذا ؟ لان أولهما كما يقول الشيخ رشيد (شقيق المشرف على تحرير المجلة) ولان الثاني فيما يظهر صديق للمشرف على تحرير هذه المجلة . كان الاتصال بالمشرف على تحرير هذه المجلة بصلات الرحم او المعرفة قد اصبح مصدر اللادينية !.

ومن عجيب الامر ان ينكر هذا الشيخ على الاستاذ مصطفى عبد الرازق انه اظهر اهل الشرق على رأي جماعة من علماء الغرب فيهم في

امانة وصدق ، دون أن يظهر رأيه الخاص في هؤلاء الناس وما يرون ، كأن من الحق عليه الا ينقل رأيا حتى يبين حكمه عليه ورأيه فيه .

اما الاستاذ احمد امين فلم ينكر عليه الا اسمه وانه يرى من الخير للشرق ان يجد في الاخذ بأسباب المدينة الغربية .

ولكن وراء الاكمة ما وراءها . فنحن نعرف ماذا ينكر على هذين الاستاذين ، ينكر عليهما قبل كل شيء انهما من العلماء الذين يسمع الناس لهم في غير شك ولا ريبة ولا تظنن ، وان لهما من الوجاهة العلمية والدينية ما يتقطع دونه (نستغفر الله بل دون بعضه) نياط قلب الشيخ . وينكر على أولهما بنوع خاص انه كان أشد الناس اتصالا بالاستاذ الامام ، وانه ورث علم الاستاذ وفلسفته ودعوته الى النهضة ، وانه ظل في الدعوة الى طريقة الاستاذ ماضيا مخلصا مستقيما ، لم يفسد عليه الامر في ذلك ضعف ، ولا طمع ، ولا رغبة ، ولا رهبة ، ولا خور ، ولا تهالك على حطام هذه الدنيا يتلقطه من هنا ومن هناك ، يذل في سبيله نفسه . ويبيع في سبيله دينه وضميره ، وانه فوق هذا كله أعلم الناس برأي الاستاذ الامام في هذا الشيخ وأمثاله من الادعياء وأقدر الناس على أن يظهر هذا الرأي فتكسد يومئذ بضاعة ، وتخيب يومئذ آمال ، وتضمحل يومئذ عزائم .

ويصل الدعي الى الدكتور هيكل بك ، وللدكتور هيكل بك صحيفة سيارة ، ونفس الدعي جزعة خوارة ، وقد طالما جرحته السياسة بأنياب واضراس ، فهو لا يمس الدكتور هيكل الا مسا رفيقا . وأي شيء ينكر على هيكل ؟ ينكر عليه أن ينتظر أن يبعث من الشرق روح ديني يصلح الغرب في مستقبل الايام كما كان الامر في الماضي . ولم يذكر هيكل دينا جديدا وانما ذكر دينا قد يكون الاسلام . وهنا روى الشيخ رشيد عن السيد جمال الدين حديثا ان صح الزمه الحجة واقام عليه البرهان ، وان لم يصح (وما نخاله صحيحا) كان دليلا جديدا على ان الشيخ رشيد يكذب أيضا على السيد جمال الدين الافغاني .

زعم الشيخ رشيد أن السيد جمال الدين كان يقول :

« اذا اردنا ان نقنع الاوربيين بحقيقة الاسلام واصلاحه وجب أن نقنعهم قبل ذلك باننا لسنا مسلمين » أسمعت ؟ أوعيت ؟ كان السيد جمال الدين اذاً يكفر الامة كلها ويقر على نفسه بالكفر ! فان يكن هذا صحيحا فالذين يدعون الى التجديد انما يريدون أن يخرجوا الامة من هذا الكفر الذي أقر به عليها السيد جمال الدين وما يزال يتبعه في ذلك الشيخ رشيد ، هم يريدون أن يردوها الى الاسلام صحيحا سمحاً كما خرج من منجمه ونجم من معدنه ، ولكنا نعتقد ان السيد جمال الدين لم يقل هذه الكلمة المنكرة ، وقد كان أطهر نفسا وأذكى قلبا وأبصر بالصواب من أن يرمي أمة محمد صلى الله عليه وسلم بالكفر والاجتماع على الضلال ، انما هو نزغ الشيطان جعل الشيخ يتورط في الاثم ويورط معه فيه ائمة الدين والهداة الى الحق ، كذب على السيد جمال الدين كما كذب على الاستاذ الامام وكما يكذب على الله نفسه عز وجل حين يصل الى الدكتور طه حسين فينكر عليه انه يريد أن يختص علماء الدين بالوعظ والدعوة الى الله وان يتركوا الدنيا لاهل الدنيا ، فيزعم أن الله قد خلق الوظائف المدنية وغيرها من شؤون الدنيا لعلماء الدين ، ويستدل على ذلك بآيات كل ما تدل عليه أن الله أباح للناس أن ينتفعوا بكل ما خلق لهم . فمن انكر هذا ؟ وأي صلة بين هذا وبين انصراف علماء الدين عن الوظائف المدنية وشؤون الدنيا الى الوعظ والدعوة الى الله ؟ ولكن الشيخ رشيد لا يريد أن ينصرف علماء الدين عن الدنيا لانه يحسب نفسه عالم دين ولانه يريد أن يأخذ بحظه من الدنيا ، وهل يعيش الشيخ رشيد الا للدنيا ؟ وهل يطلب الشيخ رشيد حظه من الدنيا الا من طريق الدين ؟

وينكر الشيخ على المجلة أنها نشرت للاستاذ سلامة موسى مقالا عن الحضارة في الشرق والغرب دعا فيه صاحبه الى ايثار الحضارة الغربية ، ومس فيه نظام الميراث الاسلامي . وسوء نية الشيخ في هذا ظاهرة ، فالاستاذ سلامة موسى مُسيحي يعرف الناس جميعا منه ذلك ، متطرف

في نزعته الى التجديد وقد يعرف الناس منه ذلك ايضا ، وقد اخذت مجلتنا نفسها بأن تكون لسانا للشرقيين جميعا لا تفرق بين اديانهم واجناسهم ولا تنصر دينا على دين ، كما انها لا تنصر جنسا على جنس لانها مجلة إخاء لا مجلة تفريق . ومن حق الشرقيين جميعا عليها ان تنشر لهم آراءهم القيمة ومباحثهم ما لم يتجاوزوا فيها حد الادب والقانون . وهي حين نشرت مقال الاستاذ سلامة موسى لم تتجاوز ان قامت بواجبها الذي فرضته على نفسها كما انها لم تبح لنفسها أن تتجاوز الانصاف فعلقت على هذا المقال وبرئت من تبعته ووضعت الامر في نصابه . وكان الذي وضع هذا الامر في نصابه ودافع عن نظام الارث الاسلامي الدكتور منصور فهمي الذي يراه الشيخ من دعاة اللادينية .

ولكن الشيخ رشيد احرص على الاسراف في سوء النية من أن يعرف للمجلة وللدكتور منصور انصافهما واقرارهما الامر في موضعه .

وبعد فماذا يريد الشيخ رشيد الى هذه المجلة وأصحابها والذين يكتبون فيها ؟ فان كان يريد أن تكون نسخة من المنار وان يكون أصحابها وكتابها صورا من نفسه فالمجلة وأصحابها وكتابها اكرم على أنفسهم واحب للشرق والحق من أن يتورطوا في ذلك ، وهم انما يجدون ويكتبون ويبذلون ما يبذلون من جهد ليستنقذوا الشرق من اناس فيه لا يدعون الى خير ، ولا يريدون الا النفع ، ولا يبتغون من الدين والعلم الا أخس اعراض هذه الحياة . وان كان يريد من هذه المجلة وأصحابها وكتابها ان ينظروا الى هذه النهضة الشرقية نظرة من يقدرها ويريد أن يؤيدها ويوجهها الى قصد السبيل فذلك ما فعلوا وما سيفعلون . وخليق بالشيخ رشيد أن يتبعهم في ذلك ان استطاع .

هـذه سبيل المجلـة ستمضي فيها راشدة ان شـاء الله ولأنف الكاشح الرغم .

المصدر : مجلة الرابطة الشرقية ، القاهرة ــ العدد الثالث ــ السنة الاولى ، فبراير ١٩٢٩ .

قطيعة الماضي

سلامة موسى

اننا مع احترامنا الجراءة القوية التي امتاز بها الاديب المعروف الاستاذ سلامة موسى في بحوثه لا يسعنا الا ان نكون على خلاف معه في نظريته التي ترمي الى قطع كل صلة لنا بالماضي . لاننا نعتقد ان اندفاعنا نحو اقتباس ما في المدنية الحديثة من خيرات لا يمنعنا ان نستجلي غوامض الماضي ونعرف ما فيه من خير وشر ، والخطة التي نسير عليها في « الحديث » . تتلخص كما اوضحنا كثيرا فيما يلي :

١ ـ ان ندرس ماضينا درسا ناخذ منه كل عبرة تنير امامنا طريق السير.

٢ ـ ان ننعم بخيرات المدنية الحديثة بدون ان يكون ذلك وسيلة لمحو كياننا وقوميتنا . فمع احتفاظنا بهذا الرأي ننشر مقال الاستاذ على علاته .

في مصر بل في سوريا والعراق وسائر الاقطار العربية أيضا نجد طبقة صغيرة من الناس يتعلقون بالماضي . وليس تعلقهم عن رغبة في الدرس والبحث وانما هــو تعلق يقوم على الكرامة القومية بتمجيد السلف .

وعندنا من هؤلاء الممجدين السلف من يدفعهم احترامهم له الى استنقاص الحضارة الاوربية الراهنة حتى لينشأ في أذهانهم ما يمكنني ان اسميه « مركب التاريخ » أو « مركب السلف » فيتعلقون بكل ما هو شرقي ويكرهون العادات الغربية ويتكلمون عن اسيا كأنها وطنهم . وفي مصر من هؤلاء طائفة التفت برابطة اطلقوا عليها اسم « الرابطـة الشرقية » يدافعون فيها عن الشرق وعاداته وتاريخه .

ومثل هذه الجهود توهم الناس اننا شرقيون . والواقع عكس ذلك فاننا نحن والسوريون والعراقيون من حيث الدم سلالات آرية اي غربية لا تمت باية صلة الى الصينين او اليابانيين . وهؤلاء الصينين انفسهم عندما قام في اذهانهم ان ينهضوا ويجاروا اوربا في التقدم والرقي عمدوا الى ماضيهم فانكروه فتركوا الايمان بالالهة القديمة واصلحوا اللغة حتى جعلوها اشبه بالعامية الفاشية بين سواد الامة . اما اليابان فارتقاؤها لا يرجع الى مسبب آخر سوى تفرنجها اي تملصها من تاريخها وعاداتها . فهذه الامم الشرقية لم تتقدم بتعلقها بالسلف واحترامه بل بتركه والانضمام قلبا وقالبا الى اوربا واصطناع الحضارة الغربية .

ويجب ان نذكر ان هذا الماضي الذي يطلب منا تمجيده هو بالنسبة الينا بمثابة عهد الطفولة للشاب ، كله جهالات وسخافات ليس يصح الافتخار بها . اجل ، لقد كان اسلافنا يؤمنون بالرق ويرتكبون في سبيله اكبر الجرائم التي اوقعها انسان بانسان ، وكانوا يعيشون راضين بالحكومة الاتوقراطية يتسخرهم اي طاغية لقضاء اوطاره السافلة . ولم تكن قصور ملوكهم سوى مواخير تعج عجيجا بالنساء بينهم فحل عظيم هو الملك او الخليفة . وكانوا في حروبهم يشربون دماء اعدائهم ويفخرون بذلك . وكان هذا السلف يرضى في مصر وسوريا بان يحكمه ويستبد به مخانيث اوغاد يدعون المماليك ..

اني اذكر بمناسبة الدعوة الى احترام الماضي ما ذكره التاريخ من ان « كليو بطرة » كانت زوجة اخيها ومن ان ام عمرو بن العاص كانت زوجة لاربعة رجال في وقت واحد . واذكر ما كتبه الطبري عن يزيد ابن المهب ، فقد كان هذا القائد المشهور في جرجان فثار عنهم السيف « فاعطى الله عهدا لئن ظفر بهم ان لا يقلع عنهم ولا يرفع عنهم السيف حتى يطحن بدمائهم ويختبز من ذلك الطحين وياكل منه » قال الطبري : وبر بيمينه « فطحن واختبز واكل » فهل مثل هذا السلف جدير بالاحترام؟

كلا ، انما واجبنا الآ قطيعة الماضي واختطاط الخطط الجديدة للمستقبل فان روح هذا الماضي لا تأتلف وروحنا ، ويخشى ان اشبعت قلوب الناس بالماضي ان يتجهموا للمستقبل فيرون في المخترعات بدعاً مكروهة وينظرون للعالم المجد نظرة العداء الذي يولده الاختلاف في النظر ويعتادون معايرة الاشياء بمعايير عتيقة .

لقد كان الاوربيون في القرون الوسطى يحترمون السلف ويعاقبون التلاميذ اذا خالفوا رأيا من آراء « ارسطاطاليس » ويحرقون بالنار من يتجرأ على انكار شيء قال به الانجيل او التوارة . فكانوا لذلك يعيشون في ظلام وظلم يخيم عليهم الجهل ويسودهم الاستبداد وكانت مدارسهم تجري في تدريسها على الانماط المتبعة الآن في الازهر حيث لا يزال ارسطوطاليس حياً في « المنطق » وشروحه حواشيه وحيث « الكلام » موضوع من اهم موضوعات الدرس .

تم جاءت النهضة فقام كل من « ديكارت ، وبيكون » يقول بالشك في جميع ما قاله أو آمن به القدماء وشرع العلماء يدرسون الاشياء من جديد لا يصدقون شيئا لاتقره التجربة او الحواس حتى ساد العقل وشرعت اوربا تكتشف وتخترع وحتى طغى سبيلها على الشرق فاستعبدته وحق لها ان تستعبده ما دامت هي تنظر للمستقبل وتعد له عدته بينما هو لا يزال ينظر الى الماضي ويتقيد بتقاليده .

ونحن كذلك يجب ان ننهض بقطيعة السلف فلا نحترمه ولا نحتقره بل ننظر اليه بصفة كونه يمثل طورا من اطوار الانسانية قد عدوناه كما يعدو الشاب طور الطفولة . ثم نشرع بعد ذلك في اختطاط الخطط الجديدة في الاخلاق والاداب والعلوم . فاذا تكلمنا عن الزواج وجب الا نلتفت الى ما كان يفعله اسلافنا قبل الف عام ، واذا كتبنا في الادب وجب الا نذكر ما كان يرتأيه الجاحظ او الجرجاني . اما في العلوم فيجب ان نعرف اننا نحرث ارضا بكرا بالنسبة لبلادنا لم تشقها بعد سكة محراث .

هذه هي خطة الشباب الجديد الذي يؤثر ركوب الطيارات على ركوب الحمير الكراء ويؤثر المجازفة في سبيل الوقوف على حقائق هذه الدنيا مع التعرض للخطأ على الركود والدعة والاستنامة الى العقائد القديمة . ويؤثر اللحاق باوربا على الرضى بان ينزل مع الشرق المميت على قدم المساواة ، بل اقول يؤثر المعرفة المبنية على العلم على العقيدة المبنية على الايحاء .

واذا كان الشرق جديرا بالنهوض فلينهض وليبارك الله على نهضته وعندئذ نسير معا اما اذا كان يختار لنفسه خطة السلف فليبق في مكانة فلسنا نرضى نحن بالوقوف معه لان الوقوف في هذا العالم هو بمثابة التهيؤ للانقراض ونحن نريد ان نحيا فان في نفوسنا شهوة شريفة للتطور ونزعة قاهرة للسمو كلتاهما تدعونا الى ان نكون اقوياء مستنيرين مخترعين مكتشفين مثل أهل أوربا . وهذا لا يكون ابدا بكثرة التلفت الى الماضي والصبابة الدائمة الى الثقافة القديمة .

سلامة موسى

المصدر : مجلة الحديث : السنة الثانية ١٩٢٨ العدد الاول كانون الثاني .

قطيعة الماضي*

ساطع الحصري ١٨٨٠ ـ ١٩٦٨

يدعو سلامة موسى في مقاله هذا الى « قطيعة الماضي ، واختطاط الخطط الجديدة للمستقبل » .

١ ـ فيقول : « يجب ان نشرع في اختطاط الخطط الجديدة في الاخلاق والآداب والعلوم . فاذا تكلمنا عن الزواج وجب الا نلتفت الى ما كان يفعله اسلافنا قبل الف عام . واذا كتبنا في الادب وجب ان لا نذكر ما كان يرتأيه الجاحظ او الجرجاني . اما في العلوم فيجب ان نعرف اننا نحرث ارضا بكرا بالنسبة لبلادنا ، لم تشقها بعد سكة محراث » .

اننا نتفق مع الكاتب في هذه الملاحظات ، من جميع الوجوه لاننا نعتقد بوجوب التجديد في جميع مناحي الحياة ـ من ادبية وعلمية وصناعية وزراعية ودينية واجتماعية .. ونقول باننا في حاجة عظمى الى تحوير انظمة الحياة في بيوتنا ، والى تغيير اساليب التفكير المسيطرة على نفوسنا.

لكننا نفترق عن الكاتب ونخالفه في ميله الى جعل « فكرة التجدد » معادية « للفكرة القومية » ـ كما فعل في مقالات عديدة ـ وفي قوله ان ماضينا « كله سخافات وجهالات ، لا يصح الافتخار بها » كما صرح في مقاله الاخير .

(*) سلامة موسى ، في : مجلة الحديث ، العدد الممتاز .

اننا نعتقد بأن « السخافات والجهالات » الموجودة في ماضينا ليست اعظم ولا اكبر مما وجد في ماضي أمة من الامم الراقية التي نعرفها ، ولا نرانا في حاجة الى بيان مبلغ مباهاة تلك الامم بتاريخها ، أو الى ذكر قيمة آثارها الفنية المستخرجة والمستلهمة من اساطيرها .

فلا يفوتنا مثلا ان اشد انصار الديموقراطية والجمهورية في فرنسا لا يتاخرون ابدا عن تعظيم وتبجيل لويس الرابع عشر ، مع علمهم بانه كان من اكبر المستبدين . فلماذا لا نفتخر نحن ايضا بالمأمون وهرون الرشيد ، وان علمنا « ان كلا منهما كان حاكماً مستبداً » ؟

كان المؤرخ الشهير « ارنست لافيس » يقول بوجوب الاخذ بمبدأ « المشروعيات المتتالية » Légitimités Successives في مثل هذه الاحوال : ان لكل دور احكاما ، ولكل جيل خصائص ، فحكمنا على كل من ادوار التاريخ يجب ان يكون حكماً نسبياً ، بالنسبة الى الظروف المحيطة به وليس بالقياس الى درجة حضارتنا هذه ، كما ان حكمنا على رجل من رجال التاريخ يجب ان يعتبر باحكام زمانه وخصائص جيله ، فلا يقيس احواله على مقاييس الاجيال التي اتت من بعده .

فالذي يجب علينا في هذا البا ب، هو اذن تغيير اسلوب نظرنا الى التاريخ ، لا تحويل اذهاننا عنه .

علينا ان نستمد قوة من التاريخ ، ليس لتقليد اجدادنا وتحدي المسلك الذي سلكوه من قبلنا ، بل لتقوية وتشديد عزائمنا لبلوغ منزلة سامية من حضارة العصر الذي نعيش فيه ، كما بلغ اجدادنا من قبل تلك المنزلة السامية من حضارة القرون التي عاشوا فيها . .

٢ ــ ينتقد سلامة موسى جهود « الرابطة الشرقية » ويقول :

« مثل هذه الجهود توهم الناس بأننا شرقيون ، والواقع عكس ذلك ، فاننا نحن والسوريون والعراقيون من حيث الدم سلالات آرية غريبة لا تمت بأية صلة الى الصينيين او اليابانيين » .

نحن لسنا من الداعين الى الرابطة الشرقية ، ولا من القائلين بها . فاننا لا نعتقد الا بالرابطة القومية ــ التي تستند على اللغة والتاريخ ــ ولا ننظر الى كلمات « الشرق والشرقي والغرب والغربي » الا كاصطلاحات جغرافية ، ولكننا مع ذلك نستغرب « البرهنة » التي اختارها سلامة موسى ردا على فكرة الرابطة الشرقية . اذ اننا نجد فيها عدة مدعيات تناقض الحقائق العلمية كل المناقضة : لم يسبق لنا العلم بأن « علماء الاقوام » يعتبرون المصرين او السوريين او العراقيين من سلالات آرية كما اننا لا نفهم الداعي الى الخوض في مسألة الدم والسلالات في مثل هذه الابحاث . فهل كل الامم الغربية « آريه » ؟ وهل جميع الامم الشرقية « غير آلرية » ؟ كلا ! فان في اوربة عدة امم غير آرية : مثل الهنغار والفنلانديين ، والاستونيين ، كما ان في اسيا عددا غير قليل من الامم الآرية : كالفرس والافغان والهنود . فلو سلمنا ــ مع سلامة موسى ــ باننا من الامم الآرية ــ رغما عن مخالفة ذلك للحقيقة ــ فماذا يمكننا ان نستنتج من هذه القضية ؟

نقول هذا ، لا بقصد الدفاع عن فكرة الرابطة الشرقية ، بل بقصد اعطاء مثال بليغ على ما تنطوي عليه بعض المقالات من مخالفة الحقائق بالرغم من « مظهرها العلمي » الخداع .

٣ ــ يحاول سلامة موسى ان يبرهن على وجوب « قطيعة الماضي » بذكر الخطط التي سلكتها الامم الشرقية الناهضة ، ويقول :

« ان الصينيين عندما قام في اذهانهم ان ينهضوا ويجاروا اوروبة في التقدم والرقي عمدوا الى ماضيهم فانكروه ... »

« اما اليابان فارتقاؤها لا يرجع الى سبب آخر سوى تفرنجها ، اي تملصها من تاريخها وعاداتها » .

« فهذه الامم الشرقية لم تتقدم بتعلقها بالسلف واحترامه ، بل بتركه والانضمام قلبا وقالبا الى اووبا واصطناع الحضارة الغربية » .

لا شك في ان الامم تركت كثيرا من تقاليدها القديمة ، كما انها اقتبست جميع اساليب الحضارة الغربية وآلاتها . ولكنها هل « انكرت يا ترى تاريخها » حقيقة ؟ هل « تملصت منه » فعلا ؟ كلا ؟ فاننا نعلم أن اليابانيين تجددوا كل التجدد واقتبسوا الحضارة الغربية بمدى واسع ، من غير ان يتساهلوا في شيء من مقوماتهم القومية ، وبدون ان ينكروا شيئا من تاريخهم الوطني ، وبدون أن يقللوا احترامهم لاسلافهم العظام . حتى انهم اخذوا يحترمون اسلافهم اكثر من ذي قبل ، فانهم لم يبدأوا باقامة احتفالات سنوية بتتويج امبراطورهم الاول — الذي عاش على زعمهم ستة قرون قبل الميلاد — الا سنة ١٨٩٠ .

وقد قال « لودوفيك نودو » في كتابه عن « تطور اليابان الحديثة ما يأتي : « حادث غريب : ان اليابان ، على تقليدها اوروبة ، تحاول ان تعيد بناء ماضيها نفسه ، وان تختلق لنفسها تاريخا » (*) .

وقد قال « فلسيسيان شاللي » في احد الدروس التي القاها في « مدرسة الابحاث الاجتماعية العالية » عن اخلاق اليابان .

« ان تأورب اليابان لم يكن تأوربا عاما ولا تأوربا سطحيا ، بل هو تأروب محدود بحدود وضعت عن قصد وعلم : ان اليابانيين قبلوا تأثير اوروبة في بعض المناحي عن قصد وشعور ، رفضوه في بعض المناحي الاخرى كذلك عن قصد شعور ... » .

وقال ايضا « لم يتطور اليابانيون الا لكي يحافظوا على عاداتهم المحبوبة . لقد تأوربت اليابان ضد أوربة ، لكي تبقى اكثر يابانية من ذي قبل . »

فكيف يجوز لنا والحالة هذه ان نقول ، « ان ارتقاء اليابان يرجع الى تملصها من تاريخها وعاداتها » ؟!

---

* L. Nandeau, Le Ja on moderne, p. 184.

المصدر : ساطع الحصري احاديث في التربية والاجتماع — الاعمال الكاملة (٢) مركز دراسات الوحدة العربية — بيروت ١٩٨٤ ولم نستطع تحديد مكان وتاريخ نشر المقالة للمرة الاولى .

حياتنا العقلية

إلحاد ام إصلاح ـ حقيقة النزاع بين طائفتين

للدكتور هيكل بك رئيس تحرير السياسة

تفضل احد الصحفيين الفلسطينيين بزيارتي منذ أيام لمناسبة مروره بالقاهرة من غير أن تسبق بيني وبينه معرفة ، وكنت احسب بادىء الرأي أن الزيارة ستقتصر على تبادل التحية والسؤال عن احوال مصر وفلسطين والبلاد العربية . لكني تبينت من زيارة الزميل غاية أخرى سررت بها وبالنتيجة التي بلغناها منها . وكان أول ما عبر به حضرته عن غايته هذه أن سألني إن كنت لا أرى الخير لبلاد الشرق وللامم الاسلامية جميعا في عدم تعرض كاتب أو صحفي لشيء من عقائدها بنقد ، وفي عدم بث الدعوة للحضارة الغربية وما يتبع هذه الحضارة من ترف مذل ، وبالجملة في عدم ترويج فكرة الالحاد ؟

وقد سرني هذا التلخيص للفكرة ، وسرني أكثر من ذلك أن أراد صاحبها المناقشة فيها لا مجرد اتخاذ لفظ من الالفاظ أو عبارة من العبارات صيحة حرب أمام الجماهير . ويسرني الآن أن الخص لقراء الجديد ما دار بيني وبين فضيلة الشيخ من حديث انتهى الى قوله :

ـ إذن فالمسألة بينكم وبين الآخرين سوء تفاهم . ولو انكم تفاهمتم لما كان لخلاف موضع . واني اصدقك اني جئت الى هنا بفكرة غير الفكرة التي انتهيت الآن اليها .

يسرني أن الخص هذا الحديث لانه يصف الواقع في مصر وفي غير مصر من بلاد الشرق ، ويدل دلالة واضحة على أن سوء التفاهم الذي اشار اليه محدثي في ختام خطابه انما ينشأ أكثر الاحيان بسبب تضارب المصالح الخاصة . وكثيرا ما جنت هذه المصالح الخاصة على اخلاص الناس لعقائدهم وأفكارهم وعلى إيمانهم بهذه العقائد والافكار .

قلت لمحدثي جوابا على سؤاله الاول :

ـ الحقيقة ان ليس ثمة في هذه البلاد ولا في غيرها من البلاد العربية إلحاد ولا دعوة اليه . وانما الالحاد لفظ ابتدعه قوم ليحاربوا به أمام الجماهير كل من يتصدى للاصلاح . ويسير عليك ان تقدر ذلك اذا ذكرت المواقع التي يقال هذا اللفظ فيها . فقانون يراد سنه لاتقاء اضرار تعدد الزوجات ويراد به أن لا يكون التعدد إلا لضرورة يقرها القاضي فيقال هذا إلحاد . وقانون آخر يراد سنه لاتقاء أضرار الوقف الاهلي الذي أصبح عند الناس ذريعة للفرار من التوريث الشرعي كما اصبح عقبة اقتصادية في سبيل التطور الحديث فيقال هذا إلحاد . وبنك يراد انشاؤه ليودع الناس فيه أموالهم ويقبضوا عنها فائدة مقابل استغلال البنك إياها فيقال هذا ربا والسماح به أو الدعوة اليه إلحاد . هذا مع ان اذن القاضي في التعدد وفي الطلاق مما افتى بها علماء مسلمون من مئات سنين ماضية ، ومع ان الوقف الاهلي غير جائز في رأي أبي حنيفة ، ومع أن الاشتراك في فائدة الاستغلال غير الربا المقصود به ارهاق المدين بفائدة الدين فائدة لا يصل اليها من السعي الحلال . فهل يعتبر لفظ الالحاد الذي يقول به أصحابه في مثل هذه المواقف الا صيحة حرب يريدون بها اغراء الجماهير بخصومهم اغراء قبيحاً .

« وفيم الدعوة الى الالحاد ونحن في الشرق بحاجة الى اصلاح سريع لا محل معه للابحاث التجريدية التي يلجأ اليها الذين يقصرون حياتهم على التفكير في المادة وما وراء المادة ؟ فيم كل هذا وكل داع الى دعوة في بلد يحتاج الى الاصلاح انما يرجو من وراء دعوته أن تكون عاملا في التعجيل

بهذا الاصلاح ؟ نحن نعلم أن الامم لا تستطيع أن تعيش من غير دين . وفرنسا التي انتشرت فيها أفكار الانكار على مختلف صوره لا يبدو فيها الانكار قوي المظهر الا في بعض المدن . اما في الاقاليم فالفرنسيون أشد تعصباً للمسيحية من الانكليز ومن الالمان ومن الايطاليين . فمن اضاعة الوقت في أمم الشرق المحتاجة اليوم الى أوليات الحياة أن يضيع انسان وقته في الدعوة الى مذهب خاص لا يبدو له في الاصلاح الذي يطلبه اي اثر عاجل .

قال محدثي : صحيح أن الخلاف على قانون الاحوال الشخصية وقانون الوقف والمصارف وما اليها لا شأن له مطلقا بالعقيدة ولا علاقة له اذن بالايمان أو بالالحاد . بل أنا على رأيكم في أنها مسائل تركت الشريعة الاسلامية شؤون تنظيمها للقاضي . والمشرع انما يسن للقاضي كليات لتوضح له طريق تنظيم الجزئيات . ولكن الا ترون معي أن من بعض المسائل ما لا محل لاثارته حتى لا يتقول غيركم عليكم ما ليس بحق ما دامت هذه المسائل لا تمس شؤونا ذات خطر في تقدم الاصلاح أو في تأخره . وأضرب مسألة القبعة لذلك مثلا . فأما المسائل ذات الخطر فالمشايخ يوافقونكم في كثير منها كمسألة تعليم المرأة وما اليها . قلت :

« انا معك في أن المسائل غير ذات الخطر لا تستحق إثارة جدل عنيف حولها . ولذلك لم اتعرض لمسألة القُبعة التي اشرت اليها وان كان انصارها يعتقدون أن تغيير الزي يغير لون الحياة وطريقة النظر اليها . لكني يجب أن اذكر لك أن المشايخ لم يوافقونا في مسألة تعليم المرأة الا بعد أن رموا الداعين اليه بالالحاد واتهموهم بأقبح التهم . فقد وضع المرحوم المغفور له قاسم بك امين كتابه تحرير المرأة في سنة ١٨٩٩ . وانت اليوم اذا قرأت هذا الكتاب شعرت به رغم جِمال أسلوبه وتصويره كأنه بعض كتب القرون الوسطى . فقد انفق قاسم امين أكثر من ثلثه للتدليل على أن تعليم المرأة لا يخالف الدين ، وأن مزاولة المرأة شؤون الحياة لا يخالف الدين كذلك . وعلى هذا انتقل الى القسمين الاخيرين من كتابه عن تعليم المرأة وعن الحجاب . مع ذلك فقد رماه مشايخ ذلك

العصر بالالحاد والمروق والفسق ، وبلغ من ذلك انه ، برغم شغله منصب مستشار في الاستئناف ، حرم من الدخول الى عابدين ومن مقابلة الخديوي . فاذا كان رجال الدين اليوم يقرونا على تعليم المرأة فذلك بعد ان جرف التيار جمودهم القديم واصبحوا لا يستطيعون أن يواجهوا ابناءهم ولا بناتهم بجمودهم كما اصبحت مصالح بناتهم الخاصة معرضة للضرر اذا هم لم يعلموهن .

« فانت ترى ان كل فكرة جديدة تقابل من جانب رجال الدين برمي صاحبها بالالحاد حتى تستقر وتصبح من الافكار المتداولة فيقبلونها طائعين او كارهين . وانت ترى ان هذه الافكار الجديدة جميعا لا علاقة لها بالايمان ولا بالالحاد . فهي كلها افكار اجتماعية بحتة . وحرية الفكر التي دعونا والتي ندعو اليها هي الاخرى فكرة اجتماعية لا علاقة لها بالايمان ولا بالحاد ، لان المؤمن الذي لا يكون حر الفكر لا يكون في الحقيقة مؤمنا بل يكون عبد رق في تفكيره . لكن هذه الافكار التي سبقت ودخلت في الحياة العامة واقرها الناس جميعا واقرها رجال الدين بعدهم والافكار التي تقدم اليوم لتدخل في الحياة العامة انما هي أدوات الاصلاح الاجتماعي الذي لا بد منه لحياة أمة من الامم او شعب من الشعوب في هذا العصر الحاضر .

قال محدثي منتقلا من موضوع الى موضوع آخر متصل في ذهنه هو بالموضوع الاول :

ـ انت ترى انكم في مصر لا تستطيعون مقاومة الانكليز بالقوة واخراجهم عنوة من بلادكم ، كما لا نستطيع نحن اخراجهم من بلادنا عنوة وكما لم يستطع السوريون اخراج الفرنسيين عنوة . هذا مع ان انكلترا وغير انكلترا من الامم الغربية تحسب لابن السعود وجيوشه الحساب . أفلا ترى مع هذا أن الدعوة للحضارة الغربية معناها الدعوة للترف الذي جعلكم في مصر لا تستطيعون مقاومة القوة بالقوة وأن الدعوة للفضائل الاسلامية من التقشف والزهادة والانصراف عن الملذات هي التي تمكننا من دفع نير الغرب والعود الى مثل ما كان المسلمون فيه من عزة وقوة .

وهنا دللت محدثي على أن الموضوع الذي عرض له جديد لا علاقة له بالالحاد ولا بالتجديد والاصلاح وقلت :

ـ اما ان عزة الامم الاسلامية ومنعتها كانت في العصور السالفة اثرا من آثار الزهد والتقشف فذلك ما احسب التاريخ يتشكك فيه حين يذكر ما كانت عليه عصور معاوية ويزيد والرشيد والمأمون من ترف لا نسمع اليوم بمثله . على أن القول ببقاء الغرب متحكما في الشرق بسبب ترف الشرق فغير صحيح . لأن الامم الغربية يوم فتحت او احتلت الامم الشرقية كانت هذه الامم الشرقية بعيدة عن كل ترف وكانت الامم الغربية على العكس من ذلك هي المترفة المبتغية المنبثقة من وراء الفتح زيادة في الرفاهية والنعمة . إنما تغلب الغرب على الشرق بالعلم . وبالعلم يقاوم الشرق الغرب . ونحن مع الاسف ما نزال من علمنا بعيدين عن مسابقة الغرب وان كنت ارجو في النهضة الحاضرة بعثاً عظيما . نحن ما نزال بعيدين عن مسابقة الغرب سواء في علمنا الديني أو في علمنا المدني . وآية ذلك أن العالم لا يكون عالما إلا اذا اخلص لعلمه وارتاح للتضحية في سبيله ولم يتخذه مجرد اداة للرزق . فالعالم الديني الذي يستحق هذا الاسم هو الذي يقبل عن طواعية نفس وطمأنينة ضمير كل تضحية في سبيل الدعوة لايمانه دعوة خالصة لوجه الله والدين . فهل ترى في رجال الدين المسلمين اليوم من ذلك شيئا ؟ هل ترى منهم من يحتمل مشاق الاسفار للدعوة الى دين محمد كما يبشر المسيحيون بدينهم ؟ أم الواقع المحزن انهم لا إخلاص عندهم لهذا الدين ولا لما تعلموا منه الا بمقدار ما يدر عليهم من رزق ومايمكن لهم من حكم . هذه حقيقة مرة ولكنها يجب أن تقال . فاما العلم المدني فقد كان الى سنوات قليلة ماضية متأثرا باحداث السياسة ، وهذا هو اليوم يفتح ابوابه للمخلصين له المؤمنين بما في العلم من خير . فاذا نحن بلغنا من العلم ما بلغت أوربا وعرفنا كيف نتحكم في الطبيعة تحكمها فيها ولم نكن مجرد مقلدين لاهلها فلن تستطيع أوربا مجتمعة ان تتغلب على امة بل على ولاية من أمم الشرق وولاياته .

هنا قال الشيخ تلك العبارة :

ـ إذن فالمسألة بينكم وبين الآخرين سوء تفاهم . ولو انكم تفاهمتم لما كان للخلاف موضع .

ولست أدري إن كانت المسألة سوء تفاهم وكفى . لكن الذي أقطع به أنه لو اخلص الآخرون وفكروا في اصلاح بلادهم والبلاد المجاورة لهم ولو لم يدر عليهم الاصلاح من اخلافه الرزق ما لا يطمعون اليوم في غيره لأمكن التفاهم ولطهرت مصر وغير مصر من تهم كثيرة باطلة لا تزيد عن أنها صيحة حرب يعلنها الضعفاء على الاقوياء ليغروا الجماهير بهم لانهم أضعف من أن يقارعوهم الحجة بالحجة او يناقشوهم الدليل بالدليل .

محمد حسين هيكل

المصدر : الجديد ـ القاهرة ، العدد السادس (٦) ، ٤ ابريل ١٩٢٨

حياتنـا العقليـة

تجديـد

ميزة هذا العصر الذي نعيش فيه انه عصر اضطراب في الراي قد تناول حياتنا القومية من جميع اطرافها . تناولها من ناحيتها السياسية فقد كرهنا النظم السياسية القديمة وظهر كرهنا لها عنيفا منذ عشرين سنة ، واخذ هذا العنف يشتد شيئا فشيئا وتدفعه الى هذه الشدة ظروف داخلية واخرى خارجية حتى انتهى الى هذا الطور الذي نحن فيه طور الحياة النيابية البرلمانية وهو بعد لا يزال في طريقه مؤيدا لهذه الحياة النيابية في محو آثار الرجعية حريصا على استكمال السيادة القومية في الداخل والخارج . وتناولها من ناحيتها الاجتماعية الصرفة . فقد اخذنا منذ عشرين سنة ايضا ننصرف عن تقاليدنا الاجتماعية القديمة شيئا فشيئا وظهرت الدعوة الى حرية المراة والى تجديد منظم في حياة الاسرة وفي نظام الزواج والطلاق والتربية ومضينا في هذا متقدمين ، نبطىء حينا ونسرع حينا حتى انتهينا الى هذا الطور الذي نحن فيه والذي اصبحت حرية المراة فيه حقا يعترف به العقل والعرف وتاخذ القوانين في الاعتراف به قليلا قليلا ، والذي اخذنا فيه نجدد النظر في امر الزواج والطلاق ونحاول ان نضع القوانين التي تلائم هذا التجديد ، والذي اخذنا فيه ايضا نجدد النظر في امر الوقف وفي غيره من الامور الاقتصادية المختلفة . وتناولها من ناحيتها العلمية فقد اخذنا منذ عشرين سنة ايضا نكره نظام التعليم الذي وضعه لنا الانجليز ونجد في تغييره فحاولنا انشاء الجامعة ، وحاولنا نشر التعليم الاولى ، وحاولنا اصلاح فروع التعليم الاخرى ومضينا في هذا كله حتى انتهينا الى هذا الطور الذي نحن فيه والذي اصبحت فيه

الجامعة حقيقة واقعة ، وجعل التعليم الاولى الزاميا ، وتناول فروع التعليم الاخرى بالاصلاح القوي الحازم . وتناولها من ناحيتها الدينية ، فقد ظهر منذ اول هذا القرن سخطنا على طائفة من التقاليد الصقت بالدين وليست منه في شيء ، وارادت طائفة من المصلحين الدينيين ان تطهر الاسلام من هذه الآثام وتظهره كما انزله الله نقيا صافيا سمحا محببا الى النفوس.

ورات هذه الطائفة ان سبيلها الى هذا الاصلاح انما هي اصلاح التعليم الديني في الازهر ، فمضت في هذا الاصلاح ومضينا معها حتى انتهينا الى هذا الطور الذي نحن فيه والذي اعترفت فيه الحكومة والبرلمان بأن اصلاح الازهر ضرورة قومية ماسة لا سبيل الى التخلص منها ، ولابد من مواجهتها بالجد والحزم والاخلاص. وتناولها من ناحيتها الادبية،واللغوية، فقد احسسنا منذ عشرين سنة أو نحو ذلك ما اصاب اللغة العربية من جمود وقصور وجهدنا انفسنا في اتقاء هذا الجمود والقصور وكانت لنا في ذلك محاولات مختلفة حتى انتهينا الى هذا الطور الذي نحن فيه والذي اعترفت فيه الحكومة والبرلمان معا بأن الاصلاح اللغوي ضرورة ماسة لابد من مواجهتها ايضا بالجد والحزم والاخلاص ، واذا البرلمان يطلب انشاء مجمع لغوي واذا الحكومة تجد في انشاء هذا المجمع .

واذن فهذا العصر الذي نعيش فيه يمتاز كما قلنا باضطراب الرأي في حياتنا العامة من جميع فروعها . ولكن هذا الاضطراب قد اخذ يهدأ ويدنو الى الاطمئنان ان صح ان نسمي الايمان بالاصلاح والجد في سبيله هدوءا ودنوا الى الاطمئنان ، او هو قد اخذ يشتد ويمتدو يتغلغل في اعماق حياتنا العامة اذا كان الاصلاح الذي يبدأ فيه ولا يتم لونا من الوان الاشتداد والامتداد .

والحق ان هذا الاضطراب قد تطور الآن فكثر انصاره وجنوده وعظم امره ، وارادت الظروف ان تلقي اليهم مقاليد الحكم فاخذوا يجددون أو يحاولون التجديد . فهو على كل حال طور جديد لابد من الوقوف عنده ومواجهته بشيء من التفكير .

المصدر مجلة الجديد م ـ ١ ـ العدد الاول ـ ١٩٢٨ ـ الافتتاحية .

كلمـات في التجديد

« نحن نرزح تحت عبء من الماضي المرهق . فاما ان نتحرر لنستقبل حياة جديدة تقوم على متكأ من المدنية الحديثة من علم وحضارة ورفاهة ؛ واما ان نبقي حيث نحن في حياة مذبذبة مريضة لا هي من الماضي ولا من الحاضر في شيء . »

٢

تنقص زعماؤنا الشجاعة . لانهم لم يستطيعوا بعد ان يرفعوا معاولهم لهدم القديم البالي ولانهم لم يتمكنوا من ان يشدوا ايديهم بكل جديد من المدنية الحديثة التي بهرتهم وملأتهم اعجابا في حين انهم جبناء يرون مجدهم في اغراء العامة ، باحترام عاداتهم الموروثة وتقديس خرافاتهم وان كان فيها هلاك البلاد » .

٣

ليس ينقصنا غير هذه الشجاعة التي توجب علينا التمرد من الماضي الثقيل ؛ ان اوروبا تعيش في مدنية قائمة على العالم والثروة والرفاهة بينما نحن الشرقيون نغط في نومنا ونحلم بمجد شعرائنا وادب كتابنا وتصور اجدادنا . هم يهذبون في حياتهم كل يوم بينما نحن نمعن في السير الى الوراء كان من طبيعتنا ان نسير الى الخلف بينما بنى الانسان من الاوروبيين لا يسيرون الا الى الامام او كان في السير الى الامام صعوبة لا نطيقها ولا نستطيع لها احتمالا »

٤

لست استطيع ان افهم كيف نقبل من الغرب بعض علومه وكيف نثق في علاجه لامراض اجسامنا وكيف يحمل فريق منا على هذه المدنية التي انتجتها هذه العلوم . نحن اذن متعصبون . وكل متعصب جاهل احمق » .

٥

ليس لنا في المتعصبين من الشيوخ اي رجاء . فقد دل حرضهم على انهم اشد ضررا لاوطانهم من طيش الشباب .

كل املنا في زهرات العلم الحديث . وكل ما نرجوه ان تقوى ثورة الجديد فتقتلع القديم من جذوره وتلقيه بعيدا عنا حتى لا تعود هذه الجذور الى الانبات .

٦

نحن لا نطمئن على الشرق مادمت فيه من الرؤوس ما يدعو الى سلوك حياة القرون الماضية . وان الساعة التي تقبل فيها البيئة الشرقية مبادىء التجديد والتطور لهي ساعة الخلاص من قيود الذل والخضوع والعبودية.

٧

من اكبر المصائب على المرء ان يلغي عقله ليعيش بفكر غيره . فما اتعس هؤلاء المساكين الذين يعيشون في تفكير اجدادهم ويمنعهم حبهم لكل قديم من دراسة ما في القديم من فن وغنى ومواصلة التفكير لايجاد صلة بين الماضي والحاضر والمستقبل .

٨

« لست أدري الى متى نتغنى بشعرائنا ونبذل حياتنا في قراءةدواوينهم

وحفظ كلامهم ولما يظهر فينا بعد مخترع يغالب الهواء فيطير على جناحيه كما فعل اهل الغرب ولست ادري الى متى نحلم بالشعر بينما غيرنا يحلم بالعلم وبمخاطبة سكان النجوم » .

٩

وكما ندعو الى إعانة الادب بروح العلم الحديث كذلك نلح على الادباء للاشتراك معنا في « تفنين » الادب العربي ، فاني لا اعترف بهذا الادب الجاف المتقطع الاوصال الذي لا يستمد جماله من العناصر الفنية التي تحوط صاحبه . والادب الحي هو الذي يتلقى الحياة من الفنون جميعا: من الموسيقى من التصوير ومن الرقص ايضا . ولا تعجب اذا كنت اشير الى الرقص ؟ فما الرقص الى السير الا كالشعر الى النثر ؟ لهذا كان فنا وكان « للذوق » حكمه وتقديره فيه . فليكن فينا من يكتب الفصول في « تفنين الادب » وليكن فينا من يعالج البحث عن « الصلات التي تربط الادب بالفنون جميعا » وعن « الادب كفن » او عن الادب كعنصر من عناصر « الجامعة الفنية » وعن صلة الجمال بنفس الاديب ومن الفرق بين الادب الجاف والادب الفني .

محمود المنجوري

الحديث س ٢ ع ٢ شباط ١٩٢٨ .

حياتنـا العقليـة

داود بركات (١٨٦٧ ـ ١٩٣٣)

التجديد

للاستاذ الكبير داود بك بركات رئيس تحرير الاهرام

يسألني زميلي وحريفي صاحب « التجديد » رايي في ما اطلق عليه جماعة من المفكرين كلمة « التجديد » وأرادوا منه على ما وصل الى علمي ادخال الحضارة الحديثة على الحضارة القديمة . فاذا كان ذلك ما يراد بكلمة التجديد ، فانه في نظـري ويقيني فوق الرأي وفوق التساؤل . هل هو لازم أم غير لازم ؟ وهل هو نافع أم غير نافع ؟؟ لان هذا التجديد محتم بفعل الطبيعة ، والطبيعة لا تغالب . وكل مـا للأيدي العاملة من فعل فيه أنها تدفع تياره ولكنها لا تخلق ذلك التيار. وكما أن المجددين لا يخلقون غير موجود ولا يبرزونه الى حيز الوجود بل هم يمدونه فقط بقوة الدعاية وبقوة التشـذيب والتهذيب وقد يوجهونه الى بعض الناحية التي يريدون فان الجامدين عباد القديم لا يستطيعون مقاومة التيار ولا صده وان استطاعوا ايقافه حينا ما عن الانتشار في الجو الواسع كما يوقف الجدار الضوء او النور الفائض وكما يوقف السد الماء الدافق في النهر العميق أو النهل الفسـيح .

التجديد من ناموس الطبيعة ومن اسرار الدوام ومن اسباب الرقي والتقدم نحو الكمال . الا ترى العصفور يخلع ريشه القديم اذا ما اقبل الربيع ؟ الا ترى الشجر ينثر ورقه في الخريف ليكتسي حلة زاهية عند

دنو الربيع ويزهر ويثمر عند حلول الصيف ؟ الا ترى علماء الطبيعة يصفون لنا تكوين الارض بالملايين من السنين حتى صارت أرضنا التي نرى وكرتنا الجامدة الثابتة التي نسكن . الا ترى علماء الحيوان يؤكدون في كتابهم أن السمك الذي يسبح في البحار انقضت عليه ٦٥ مليون سنة حتى وصل الى هذا التكوين والخلق الذي نرى الآن . الا تسمعهم يقولون ويؤكدون أن الانسان على ما عرف نفسه في الحالة التي نرى صرف ٤٥ مليون سنة فتحول وتغير وتطور وتجدد سنة فسنة وعاما فعاما . الا ترى اجماع الباحثين على ان هذا التطور والتجدد امر لا يقبل الجدل اذ الجدل والبحث في حساب السنين وتعدادها ؟ اما سمعنا أصحاب المذهب الداروني يقولون بسنة الارتقاء في فصيلة الحيوان حتى يجدوا رابطة بين الحيوان والانسان فرد عليهم خصومهم بسنة الهبوط وسألوهم لماذا تقولون بارتقاء القرد أو الحلقة المفقودة بين القرد والانسان ولا تقولون بسنة الهبوط من الاعلى الى الادنى فردوا حجتهم بوجود سنة الرقي بفعل التجدد من الأدنى الى الأعلى .

اما قال علماء الاجتماع برقي العقول والافهام بفعل التجدد الدائم وإضافة كل مستحدث جديد حسن الى كل قديم حسن حتى ترقي العقول والافهام متطلعة من وراء هذا الصعود والرقي الى الكمال وان كان الكمال لله وحده ؟

اما قالوا ان الناس يعيشون بماضيهم ويهيئون الطريق لمستقبلهم بضم الصالح من الماضي الى الصالح من الحاضر حتى يصلوا الى الاصلح في المستقبل ؟؟

خذ بحث الاثريين في حضارة مصر فقط تجدهم يسألون عما اجتاح تلك المدينة المصرية الراقية مذ وقفت ثم بادت ولو أنها لم تقف ولم تبد لوصلت اليوم بعد تجددها المتواصل وتقدمها الى ذروة من الرقي لا يستطيع الانسان ان يتخيلها وان خالها .

اذهب الى دار الآثار المصرية والق نظرة على آثار العصر الحجري

ودقق بما يعرض لعينيك من آثار العصور الخالية متدرجا معها عصرا عصرا وقرنا فقرنا وجيلا فجيلا الى هذا العصر والجيل تجد التجدد الدائم وتجد الرقي المتوالي بواسطة هذا التجدد حتى يومنا الذي نحن فيه والذي نتطلع منه الى ما هو اعظم واتقن واصلح في المستقبل .

انظر الى هذا العالم المتمدن وابحث في أسباب تقدمه ورقيه من كل وجه يظهر لك ان مصدر ذلك هو التجدد ومصد التجدد ذلك التعاون العقلي بين أممه وشعوبه حتى يتم أحدهم الآخر وحتى يعاون فكر هذا فكـر ذاك .

ابحث في تطور الاديان كلها بل في تطور الاديان ذاتها تجد أن نظام الشعوب تحول من البساطة والسذاجة الى ما نرى في كل مذهب ودين .

فالتجديد في كل شيء امر لا مندوحة عنه لصيانة ذلك الشيء من الفناء ولترقيته من الصالح الى ما هو أصلح . اما الجمود فهو مغاير لسنة الوجود ذاته والطبيعة تأتي امرين اثنين : الفراغ والجمود . فالجامدون يقاومون الطبيعة فقط ومن غالب الطبيعة فقد حكم عليه بالانحدار ومن جاراها في ناموسها فقد فاز وانتصر .

المصدر : الجديد . القاهرة العدد السابع ـ ٧ ـ ١٨ ابريل ١٩٢٨ السنة الاولى .

التجديد قديم ـ فلماذا يعادونه الآن

للكاتب الكبير عباس محمود العقاد محرر البلاغ

التجديد قديم :

في هذا القول شيء من الغرابة والتناقض الظاهر ولكننا لم نتعمده ولم نعد به ابسط الحقائق المشاهدة فاختر اي فترة من الزمن تتفق لك في تاريخ اللغة العربية لا تجد فترة واحدة خلت من كلمات جديدة داخلتها من اللغات الاجنبية وكلمات قديمة تبدل معناها فوضعها المعاصرون في غير موضعها عند المتقدمين ، وليس في تجديد اليوم شيء ياخذه عليه الجامدون غير هذا الذي كان في كل عصر حتى عصر الجاهلية وعصر القرآن . فقد تكلم العرب في بداوتهم الاولى بالكلمات الرومية والفارسية والهندية ووردت هذه الكلمات في القرآن الكريم . وما زالت ترد في كتابة كل كاتب بليغ من بلغاء العربية المعدودين . فلماذا يعادون الجديد اليوم ولم نجد له مثل هذا العداء بين المتقدمين ؟ ولماذا يشتد جامدو هذا الزمان في انكار امر لم يشتد في انكاره السلف الذي يحتجون به ويرجعون اليه ؟

اوجز جواب عن هذا السؤال هو أن نجيب عنه بسؤال آخر وهو : ترى لو كانت الدولة الآن في العالم للأمم العربية اكان يفزع الجامدون في الجديد فزعهم هذا الاخرق العقيم ويبالغون في خطره على اللغة مبالغتهم التي ملكت عليهم اسباب التفكير الصحيح ؟ أكانوا يحسبون أن كل كلمة جديدة أو عبارة جديدة مودية باللغة وقاضية على فصاحتها وبلاغتها وآتية لها ببدعة لم يسبق السابقون اليها ؟ لا نظن ذلك ، فقد ادخل

العرب في لغتهم أيام قوتهم وغلبتهم مئات من اسماء الثياب والاثاث والعلوم والمخترعات غير خائفين على اللغة ولا وجلين من عواقب هذه التوسعة لانهم كانوا يأخذون تلك المفردات من امم اضعف منهم وأقل شأنا ، بل من أمم تدين لهم بالطاعة وتدخل في حوزة سلطانهم الكبير ، فلم يكن في ورود تلك الزيادة معنى الاغارة المخيفة والسطوة الخارجية وانما كانت كالجزية يأخذها السيد المعتز بنفسه الواثق بيومه وغده من عبده الذي يخدمه بلغته كما يخدمه بكل شيء عنده . ولولا ذلك لكان عرب الامس احق من جامدي اليوم بالغيرة على لغتهم من الطوارق الاجنبية ومدافعة المفردات والاساليب الغريبة التي تسربت اليها .

فاذا اغرب الجامدون اليوم في الفزع فانما هو فزع الاحساس بالضعف وقلة الثقة بالنفس ووسواس الخوف الذي يلبس للخائفين ملبس الغيرة والعصبية . وهذا في رأينا هو اقوى اسباب الاغراق في الجمود والثورة التي لا مثيل لها على الجديد . وهو فيما يخيل الينا كضعف الفار الذي يوقعه في اظفار الهرة ولولاه لجاز به العدو شقة الهلاك .

وهناك سببان آخران لاشتداد الجامدين في زماننا هذا على التجديد وقد رأيت أنه ليس بالبدع الجديد ، أول هذين السببين ان التجديد عندنا « حركة تنبهية » وليس بالعارض الذي يأتي من هنا وهناك ولا يتنبه اليه ، ومن عادة الحركات التنبهية انها تستدعي الانتباه اليها والعمل لمقاومتها لان فيها شيئا من معنى الاستفزاز والاقتحام . فاذا سألت ؟ ولم كان تجديدنا كذلك ولم يكن كتجديد السابقين . قلنا لعل السر في ذلك انه اثر اليقظة بعد السبات الطويل والوثبة بعد الجمود وهو أثر لم يعالجه العرب في عهد الدولة وعنفوان الظهور .

والسبب الثاني أن الجامدين في زماننا يجهلون فضائل الجديد الذين يحاربونه ولم يكن للجديد في الزمن الغابر فضل مجهول ، وهل تحسبنا مبالغين اذا قلنا انهم يجهلون « القديم » وهم يدفعون عنه ولا يحق

لهم ان يحملوا علمه في مواجهة انصار الجديد ؟ فان من هؤلاء الانصار لمن يعلم قديم العربية وآدابها فوق علمهم ويعجب بها وببلاغتها أشد من اعجابهم ، فهي عصبية الجهل اذن لا عصبية المعرفة البصيرة والموازنة المعقولة بين ما يدفعون عنه ويحنقون عليه ، ولو عرفوا الجديد أو لو عرفوا القديم لكان لهم فيها اقرب الى الصواب وادنى الى السماحة .

ان الجديد قديم لا جديد عليه في أساس دعوته غير احساس الضعف في الجامدين وحركة اليقظة في العصر الحديث وعصبية جاهلة في أدعياء القديم لا تستند الى غيرة صادقة ولا ادراك لما يخوضون فيه ، وماذا تصنع المقاومة باسم القديم في سنة ينتصر بها الزمن بقديمه وجديده ؟ ثم اين هي هذه المقاومة ؟ انها انكار محض وليس فيها عمل وانشاء ، ولن يفلح الانكار المحض في صد حركة تندفع وتسير .

عباس محمود العقاد

المصدر : الجديد . القاهرة ـ العدد السابع ١٨ ابريل ١٩٢٨ السنة الاولى .

بين القديم والحديث

عبد اللطيف الطيباوي

١

في الشرق اليوم نزعتان تتصارعان : نزعة القديم ونزعة الحديث ؛ سنة من سنن الكون ونتيجة لازمة لعامل النشوء والتطور ومظهر من مظاهر المحافظة والاعتداد بالنفس . نميل الى الجديد لما نحن مفطورون عليه من الاعجاب والاستغراب ونحافظ على القديم لاننا لا نود امتهان انفسنا والكفر بعاداتنا .

ويجتاز الشرق اليوم دورا خطيرا ويسلك طرقا لم يعهدها من ذي قبل . يسير مدفوعا مع تيار الحديث ويقف متهيبا امام جلال القديم . فأيهما الغالب يا ترى ؟

الغالب في شرع الطبيعة هو الاصلح والانسب .

اذن بات من واجبنا ان نكون حذرين متيقظين . فان نحن اندفعنا في تيار الجديد ونبذنا القديم وراءنا ظهريا جاء مع هذا الجديد ما لا يتلائم والروح الشرقية والمزاج الشرقي بل ما فيه تشويه لشخصيتنا التي نحافظ عليها ما حيينا . وان نحن استمسكنا بالقديم رزحنا تحت نير الجمود والتقهقر وتعذر علينا مجاراة الامم الحية .

فما العمل ؟

أمامنا مشاكل عديدة يتناولها موضوع القديم والحديث : كيف نؤسس قوميات متينة دعامتها السيادة الشعبية ؟

الى اي مدى نسمح لانفسنا باقتباس المدنية الاوروبية ؟ ما هي طرق الشروع في عملية الاصلاح والتجديد ؟

امامنا اكثر من هذه المشاكل .

فالمهمة الملقاة على عواتقنا شاقة ولو بدت بسيطة لاول وهلة . مهمتنا التوفيق بين القديم والحديث : لا نحب الغلو في المحافظة كما لا نرغب الافراط في التجدد .

نود ان ناخذ من المدنية الاوروبية ما يلائم مزاجنا والوسط التي نعيش فيه . وننبذ ما يتصادم والروح الشرقي من حيث العفة والايمان وكرم الاخلاق .

نود ان نهدم من القديم كل عائق لظهور الشخصيات والنبوغ .
نود ان نقضي على تباين الطبقات ونعوض منها بالديمقراطية والمساواة .

من القديم ميراثنا القومي
وفي الجديد ميراثنا الأممي
لنا من القديم ميراثنا الروحي الذي اخذه الغرب عنا
ولنا من القديم ميراثنا الأدبي العلمي الذي قدمناه للمدنية .
هذه قديمة عريقة في القدم ولكننا نموت دونها ولا نرتضي بها بديلاً !
ألسنا نحن الذين لقنـا العالم وحدانية الله ؟ ألسنا أصحاب مدنية وثقافة كسائر الأمم ؟

هذه قديمة عريقة في القدم ولكننا نموت دونها ولا نرتضي بها بديلا!

عفوا . . . فان هذا لا يعني اننا لا نود ادخال شيء جديد الى آدابنا مثلا . كلا ! فنحن في حاجة ماسة الى هذا الجديد ولا ضير في ذلك لان الادب كالعلم شركة اجتماعية اشترك في تحقيقها وحشدها كل الناس في كل عصر ومصر . وهي مال مشاع للجميع لا وطن ولا دين لها .

اجل . يجب ان نصطنع من الجديد ما يساعدنا على مجاراة الامم وننبذ من القديم كل ما يعوقنا عن الوصول الى هذا الهدف . نحن الآن مع التيار ولم نصل بعد الى الضالة المنشودة وهذا الدور هو أشد الأدوار واحرجها في حياة الشعوب والأمم لأنه يخشى عليها ان تفقد شخصيتها التي عرفها بها التاريخ .

ان التيار لقوي جارف ومن الخرق الوقوف في وجهه لصده . بل ليسير مع الجهة الصالحة لاننا سائرون رضينا أم كرهنا . والحكمة كل الحكمة في سلوك الجهة الموافقة .

ليس هذا بهيّن . وعلى الذين يقودوننا في هذا السبيل ان يحاذروا صوغنا في قالب غربي : فيجرفنا التيار ونكون من الضالين . ليس هذا بهيّن لاننا نحاذر ان نخرج عن شرقيتنا ونضيع شخصيتنا ولكننا لا نود ان نحافظ على ذلك الشخصية وهذه الشرقية كما سلمها لنا الآباء .

٢

ليس بيننا من ينكر اننا متأخرون عن الغرب ! ونحن لذلك نؤمن بالتمدن الغربي كنتيجة صالحة للعقل الانساني في جملته ، فحق علينا أن نقتبس منه أذن ما ينقصنا .

طال على الشرق الامد وهو شديد الاعتداد بالحكم الاوتوقراطي ! الم يحن دور السيادة الشعبية وحكومة الشعب . نحن في حاجة الى اقتباس النظم الدستورية البرلمانية . حمداً لله وشكراً : لقد نجحت هذه التجربة في اكثر من بلد من بلدان شرقنا الادنى .

طال على الشرق الأمد وحرية الفكر والاعتقاد فيه مغلولة وأزفت الساعة التي يجب فيها الخلاص . لقد حانت ساعة استقلال العلم والبحث العلمي عن جميع المؤثرات من دين وسياسة فالعلم لا دين له ولا وطن .

بل لِمَ لا نأخذ من الغرب روح التعاون والاستثمار والعمل المشترك .

اقول والاسف ملء جوانحي اننا لا نقتبس عن الغرب الا كل ما يبعدنا من شخصيتنا ويذهب بكرم اخلاقنا . وقليلة جدا هي المقتبسات التي نعول عليها في المستقبل كدعامة صالحة لبنيان قوميتنا .

نحن في حاجة الى اقتباس الصالح فلم نحجم عن ذلك ؟ اجبني ؟ ما عهدنا الشرقي جبانا رعديدا .

لقد اقتبس الغرب عنا وجاء دورنا لنقتبس عنه فما الدنيا الا « يوم لنا ويوم علينا » .

. .. ولكن من يقوم بهذه المهمة الشاقة !

الشباب — الشباب — :

نؤمن بعزيمة الشباب ونوقن باصلاح الشعوب عن طريق التهذيب .

فالمهمة اذن — مهمة التوفيق بين القديم والحديث — مهمة الشبيبة المهذبة في بلدان هذا الشرق ! في الشباب اليوم عوامل تنزع بهم عن القديم وتسوقهم الي الحديث ولكن بتهور . فعليهم وهم أهل الحصافة والرأي أن يكونوا جديرين بهذه الثقة ولا يغرهم من الجديد مظاهره .

لا اخشى ان اقول ان الشباب اليوم في معتقدهم ولغتهم ودمهم شرقيون . وفي أساليب حياتهم وتفكيرهم غربيون أو شبيهون .

فعملية التصفية والاختبار سائرة سيرا حثيثا . وهنا موطن الخطر .

هنا تختلط العقلية الشرقية بالعقلية الغربية وهنا تتصادم نزعات الشرق وميوله مع نزعات الغرب وميوله . واللبيب اللبيب من فاضل بين الاثنين واخذ من كل شيء احسنه .

على هذا الرجل وامثاله نعلق الآمال الكبار .

عبد اللطيف الطيباوي

الحديث السنة الثانية ١٩٢٨ ، العددان ٣ — ٤ .

الادب

« ب . النيال »

قديمه وجديده ـ وحظ العربية منهما

بقلم الكاتب التونسي صاحب التوقيع



باسم القديم والجديد تجري اليوم في بلاد الشرق الناهض معركة في الادب والاجتماع . فانصار القديم هم المحافظون على ما يمتاز به الشرق من علم وخلق وآداب فتراهم سريعي التشاءم في كل حركة تنزع بهم الى التطور والتجديد . فكانوا بذلك على عكس ما يفهمه المجددون من فلسفة الاجتماع . فالمجدد يرى ان العالم بما فيه قد تشبكلت اوضاعه بغير الشكل الذي يتغنى به المحافظون . وان اعتزال الامم القديمة عن مجاراة المدنية الحاضرة مما يعجل بانقراضها وانحلال كيانها المتداعي . فالمجدد لا يتشاءم من التطور كخصمه لان حضارة الغرب في نظره ارتكزت على دعائم لم يفقد بها الجنس خصائصه كما انها لم تقو على المؤثرات الموضعية ومفعول البيئات . فهي حضارة لا تخشى منها الامم على كيانها . بل فيها من الادب وتهذيب الخلق ما يعزز قوة الاحتفاظ بالوطنية ويزيد الناس علما بمعرفة الواجبات .

فمعركة القديم والجديد معركة عامة تدور رحاها على كل ما لا يتفق مع النظم السائدة بفعل التطور : ولكننا نشاهدها اليوم جلية حول موضوع الادب . وجدير بالادب ان يشتد فيه اللجاج وان يكون في مقدمة ما يتنازع عنها من ضروب الاصلاح لا تتاتى الا عن تطورات عقلية ونباهة حسية ويقظة

في شعور الامم . والادب البليغ لائط بالنفوس عالق باعماقه الخفية فروعته كافلة بدفعها الى الاشادة او الهدم . وبما اننا نشعر الآن بمؤثرات تدفعنا عن اكراه او اختيار للسير في طرق تنتهي بانقلاب عاجل او آجل نرى من الحكمة ان نأتي بملخص عن تاريخ حركة التجديد الادبي في فرنسا لنتمكن من التنظير بينها وبين الادب العربي بصورة مجملة . ونقد ما يجب انتقاده فقد آن اوان الاعتراف بالعيوب وجاءت ساعة التصريح بما هو كائن فالادعاء الكاذب ضرب من الجنون المزري وحماقة لا ترتضيها النفوس الابية .

الادب المدرسي ((كلاسيك)) :

كان مما شملته النهضة الحديثة في اوروبا وساق اليه نزوع اممها الى تكوين مميزات قومية : تثقيف اللسان الدارج وتأسيسه على بيان متين . فريضوا صيغه على تأدية مكنونات النفس وتصورات العقول حتى كونوا لانفسهم لغة عامة في دوائر قومية ذات ادب يماشيها وينفعل بكل ما تنفعل به من نظريات فلسفية وحقائق علمية ولكن في القرن السابع عشر عصر التبحر في الفلسفة النظرية ظهر على الادب طابع تلك الروح التي لاتؤمن الا بما هو صادر من العقل والى العقل مرجعه . فصار الادب رهين القيود العقليـة والضوابط الصناعية نحـو قرن ونصف . وواضعو هذه الطريقة المسماة بالطريقة المدرسية هم « كورنيل بوالو — راسين » فهؤلاء يرون « ان التخيل يجب أن يكون مقروناً بالتعقل وخير الشعر عندهم أصدقه ولا يريدون باجتناب المبالغة والغلو تصوير الحقائق تصويراً تاماً لان المعاني في نظرهم يجب أن يلاحظ الحسن فيها مقرونا بحسب اللفظ وجماله » . ومما يرونه واجباً وجود الموازنة بين جميع الحواس . وفي تمثيل الروايات يشترطون وحدة الزمان والمكان والعمل . فلا يتجاوز الحادث الممثل وقوعه عادة (٢٤) ساعة ليحصل التأثير على المشاهد كما لا يتعدد بطل الرواية ويتفرع مرماها . والمؤلفات في حكمهم يجب ان تصور الجميل البديع والجمال في مذهبهم يندر في ما تشمئز منه النفوس وينافي الادب ويميزون التأليف بتجافيه عن كل ما يستمد من الاراء الاجنبية . هذه خلاصة الطريقة المدرسية التي لم تلبث قرنا ونصفاً حتى ناهضها المذهب الابداعي .

المذهب الابداعي « رومانتيك » :

الذي ظهر في المانيا بعد ظهور شكسبير في انكلترا ودخل فرانسا بزعامة « شاتوبريان » قدوة « فيكتور هيكو » الذي قضى ببلاغته الجديدة الرائعة على الطريقة المدرسية .

فمن مميزات المذهب الابداعي اتباع اللهجات المألوفة وتوخي الاساليب المؤثرة على النفوس . والمثيرة للعواطف وتصوير العجائب للتشويق والزيادة في التأثير . واستمداد المواضيع الشعرية والنثرية من الوقائع المحلية الجارية بين عامة الشعب . فهم لا يهتمون بذوق الخواص ولم تكن عنايتهم منصرفة الا للاهتمام بالذوق العام . حتى لقد قيل عن « شيلر » زعيم هذا المذهب في المانيا انه شاعر النساء والاحداث .

فكما ان الاسلوب المدرسي كان اثراً من الفلسفة النظرية كان المذهب ظاهرة من ظواهر طموح الشعب في فرنسا الى الاستقلال بالحكم . فالذوق العام الذي استمد منه اشياع الطريقة الابداعية اصول مذهبهم في الادب أصبح هو الذوق المحكم باعراضه او اقباله على بضاعة الشعراء والكتاب .

المذهب الطبيعي :

وفي منتصف القرن التاسع عشر ظهر المذهب الواقعي الذي ناهض المدرسي والابداعي معا بنظرياته الجديدة التي منها الدفاع عن الحقيقة . فيقولون « ان روايات الابداعيين سواء كانت تاريخية أو موضوعة لا تفضل الفواجع المدرسية من حيث ابتعادها عن الطبيعة وما يذكرون عن ابطال العصور الوسطى وعن رجال زمن النهضة وعن الشرقيين ليس هو من الحقيقة في شيء » ونبذ أصحاب هذه الطريقة كل الاراء الابداعية ولم يقروا من بيانها الا اللغة فنبذوا « الدرام » والروايات التاريخية « وجعلوا موضوع كتاباتهم مقتطفاً من الحوادث الحديثة واقتصروا على

تمثيل مشاهداتهم فلا يثبتون الا الحقـائق ولا يصورون الا طبيعـة الحوادث كما هي فيصفون مشاهد الحياة وصفاً دقيقاً يسهبون في جزئياتها اسهابا يحمل مشاهديها على استطلاع الحالة والوقوف على حقيقتهما في فرانسا يأخذ كاتبهم بالوصف وتحليل الحوادث ومؤثرات الاشخاص كانه شاهد لا يعبأ بما يقولون . اما الكاتب في انكلترا فانـه يقص ما يطـرأ من السراء والضراء على ابطال الرواية متأثراً كانـه يقاسمهم احوالهم .

هذه خلاصـة في تاريخ الادب الفرنسـاوي راينا من الضروري اثباتها ليتسنى لنا الحكم على ما في العربيـة من قيـود ثقيلة على ناحيتيها اللفظية والمعنوية .

اننا اذا تتبعنا أدوار الادب العربي لا نرى لها انقلابات كالادب الغربي اذ ان الاخـير قد احاطت بـه ظروف وعوامـل شتى هذبت أساليبه واخضعته لناموس الارتقاء فالادب اليوناني الذي أعرض عنه العرب واستأثر بفنونه الغربيون كان يشمل القصة والاناشيد المسهبة اللذين هما خير ما اخذه الغربيون لادبهم عن الاغريقيين ومع ذلك فالامم الاوربية لم تعن بآدابها العناية التامة الا على اثر انقلابات علمية واجتماعية كبرى كان الادب العربي منها محروماً .

كان الادب العربي ادبا خاصا بالملوك ومن هم على موائد الملوك فهو فكاهة المنادم وبضاعة المستظرف في الاستجداء وصاحبه لا يتخطى تلك الاساليب المعينة في كتب البيان كالمديح والغزل والهجاء ولله در فتى الجبل في قوله :

ان البس الشعر قوم	مطـارف الابـداع
فليس بالقـوم الا	مداحـة او ناعـي
ما فيهـم من يسمى	بالشـاعر الاجتماعي

اجل — ان الادب العربي قد اخذ بعض الحظ من عناية النقاد عناية صيرته قريب الشبه بالاسلوب المدرسي الذي تقيد به الادب الغربي وزج في دائرة الحدود الضيقة والقيود المرهقة . ففي صدر الاسلام كان الاهتمام بالادب من بواعث العناية بعلوم الدين ثم توسعت البحوث في دائرة الادب عينه فوضع الخليل قواعد الشعر المتهم بزيادة اوزان منها لم تكن معروفة عند العرب وأسسوا لصناعتي الشعر والنثر قواعد اسمصى بها الافصاح الخالي من التكلف . فتمادى الكتاب والشعراء في انتقاء الغريب من اللفظ والاكثار من محسناته البديعية وضيقوا على انفسهم بالايجاز . فكان اكثرهم يومىء لما يختلج بصدره من المعاني ايماء كان الشرح والاسهاب في مذهبهم هجنة فقد سمع اعرابي قصيدة من شعر ابي تمام فقال : « ان في هذه القصيدة اشياء افهمها واشياء لا افهمها . فاما ان يكون قائلها اشعر من جميع الناس واما ان يكون جميع الناس اشعر منه » ومما يزيدنا علماً ان حبيب واضرابه كانو يتكلفون الشعر قول القائل « يا ابا تمام لم لا تقول من الشعر ما يفهم » فاجابه بما يدفع عن نفسه غائلة هذا الاعتراض : « وانت لم لا تفهم من الشعر ما يقال » !

وضيق اهل الصناعة كابي هلال العسكري على الشعراء فعابوا عليهم من جعل معنى البيت موقوفا على ذكر الموالي اليه . فهذا القيد مما يتعذر به الاسهاب وشرح المعاني النفسية وكشف ما هو مبهم في الضمائر بواسطة التعبير .

ووضعوا حتى لقصائد المديح اقساما لا مفر للمادح منها فاوجبوا عليه ان يأتي بالنسيب بعد ذكر المنازل والاطلال وحددوا له اساليب التخلص فقال ابن قتيبة بعد تفصيله ذلك في كتابه (الشعر والشعراء) : فالشاعر المجيد من سلك هذه الاساليب وعدل بين هذه الاقسام وليس لمتاخر الشعراء ان يخرج عن مذهب المتقدمين في هذه الاقسام) !.
وابن رشيق يقول بما هو اخطر من ذلك « وللشعر الفاظ معروفة وامثلة مالوفة لاينبغي للشاعر ان يعدوها ولا ان يستعمل غيرها » ! وهكذا افرط

النقاد حتى أحرجوا البلغاء احراجاً لا مزيد عليه . فعاب ابو الهلال العسكري قول الشاعر :

بطاحي لـه نسب مصفي   واخلاق لها عـرض وطول

لان استعمال الطول والعرض خارج طريقة القدماء في الغرض الذي عناه الشاعر ! وهكذا يتمادى في الارهاق حتى يقول « ومن الالفاظ ما يستعمل رباعية وخماسية دون ثلاثية . فينبغي أن لا يعدل عن جهة الاستعمال فيها ولا يغرك أن أصولها مستعملة فالخروج عن الطريقة المشهورة والنهج المسلوك رديء على كل حال » !

ومما اقعد الناس عن ابتكار المعاني وصرف هممهم للاشتغال بما سوى اللب قولهم (وليس الشأن في ايراد المعاني لأن المعاني يعرفها الاعجمي والعربي والقروي والبدوي . وانما هو في جودة اللفظ وصفائه وحسنه وبهائه ليس يطلب من المعاني الا ما يكون صوابا) فهذه الصورة المجملة النماذج القليلة من آراء أكابر النقاد الذين ظهروا بين القرن الثالث والخامس تفهمنا سرا من أسرار الجمود الادبي والفقر الذي اعتل به البيان العربي في أجمل عصوره ! ولولا شذوذ أفراد أدخلوا على الادب بعض الاساليب الاعجمية كابن المقفع وعبد الحميد الكاتب لقضى الادب نحبه وهو في ربوع ذويه وأحضان أهله .

ولا احدثكم عن دولة السجع الطاغية فان كتب التراجم والقصص وأسفار التاريخ لم تسلم من سماجته وآفاته ! وبلغ من كلف الناس به أن أدخلوا على الشعر منه نصيباً ! ولا أدري كيف كان مثال الادب لو لم يك سجع الكهان مذموماً في نظر سيد بلغاء العرب — فالسجع وان كان يطلب بترنماته الشعرية فالذوق يمبج الاكثار منه ولو كان كثيره مشبوها بما يرد في الكلام عفواً .

ومن غريب ما رأيته في كتاب الصناعتين قول صاحبه في ما يتعلق بالحديث الشريف (اعيذه من الهامة والسامة وكل عين لامة) والعدول

باللامة عـن الملمة (رغبـة في السجع) ! وقوله عـن حديث ((ارجعن مازورات لا ماجورات) : وانما أراد موزورات من الوزر فقال مازورات بمكان موزورات قصداً للتوازن وصحة السجع !!!

فاذا كنت لا اتجاسر عن تخطية ابي هلال العسكري في قوله هذا فاني أستنتج منه استنتاجاً عظيم الفائدة . وهو انه اذا كان من المسموح للكاتب في تفخيم كلامه ان يستبدل بلفظ ((لصحة التسجيع واقصد التوازن)) فاي مانع من استبدال لفظ بآخر اذا كان الغرض أسمى من التسجيع ودلت وضيعة اللفظ الجديد عـن الجملة على معنى اللفظ المستبدل ــ كقول جبران خليل جبران :

هـل تحممت بعطـر ام تنشفت بنور ؟

فان وضعية تحمم من البيت لا يدل على معنى غير الاستحمام .

فان لم نتواضع باساليب بلاغتنا العربية ولو الى الحد الذي وقف عنده صاحب كتاب الصناعتين من فهم حديثي السجع ونرفع شأن الضرورة الى مستواه اللائق ونعتبر اللغة كحق من حقوق بلغاء اللسان من كل جيل ــ فسلام على العربية التي ستبقى ساكنة في قرارها سكون الجماد الذي لا يتنقل . وليعلم القدماء اننا حين نشعر جميعاً بضعف قوانا وخيبة جهودنا من تحريك ذلك الساكن فان أنظارنا ستتحول عنه بفعل الاضطرار والغلبة لأن الزمان لا يهتم بعملنا طويلا !.

ب . النيهال

المصدر : الحديث ، السنة / ٣ / ١٩٢٩ ــ العدد الثاني ــ شباط .

مرامي التجديد

ما احسب حركة لقيت من غموض التفسير والتدليل على مراميها الواضحة كالحركة التجديدية التي نادى بها المفكرون الاحرار بعد الحرب الكبرى ! .. وقد كنت احسب الى عهد غير بعيد ان هذا الغموض يقفه بالفئة الرجعية بافكارها وميولها وعقائدها والتي كانت ولا تزال حجرة عثرة في سبيل نهوض ورقي الامة واذا بي ارى الشك في صلاح التجديد ينفذ الى فئة من ارقى شبابنا الذين تقف مقومات نهوض الامة وتقدمها على جهودهم الفكرية وما تخطه يراعاتهم من آراء حرة وافكار صائبة رجيحة .

فما هو موضع الغموض في الحركة التجديدية ؟ بل ما هو الجديد وما هي اغراضه ؟ وفي اي مدى يجب ان تبتدىء الدعوة اليه وعند اي مدى يجب ان تقف ؟ وبالتالي هل التجديد — كما يزعم بعض الكتاب — مطية من مطايا الاستعمار وسبباً من الاسباب المؤدية الى فقدان البلاد كيانها القومي ؟ ...

هذا ما فكرت به وانا اقرأء بين يوم وآخر بعض الفقرات التي تجود بها اقلام بعض اصدقائنا المفكرين الذين لهم في قيادة الرأي العام وفي الوصول الى ما ينبض به قلبه وتهجس به احلامه بعض النفاذ والاتصال . واذا كنت اقدر بحق اثر هذه الصيحات المنبعثة عن قلوب مخلصة وعقول مفكرة رجيحة رأيت من الواجب — والحديث تعني عناية خاصة بالدعوة التجديدية في سورية — ان نعود الى معالجة هذا الموضوع الذي يجب ان تبحثه الاقلام النزيهة باخلاص لنحدد اغراض التجديد والمدى الذي يجب ان يبدأ وينتهي عنده واثر التجديد برقي الامة ونهضتنا

الفكرية لكيلا يكون تباين الاراء واختلافها بل واضطراب بعضها من الاسباب التي تزيد في محن هذه الامة وتعرقل طرق نهوضها سيما في هذا العصر الذي تتسابق فيه الامم بعنف وجهاد لتوطيد كيانها القومي على دعائم وطيدة لا يتسرب اليها الوهن ولا تهزها الزعازع والمحن .



فما هو التجديد ؟

انا لا انظر الى « التجديد » الا انه ثمرة حية من ثمرات الاصلاح الذي ينهض بنا نهوضاً قوياً في ادابنا وحياتنا الاجتماعية ، واذا قلنا « الادب والحياة الاجتماعية » فقد عنينا عنصرين كبيرين من عناصر الرقي التي ترتكز عليهما النهضة الفكرية في بدء كل حركة ويقظة . ذلك لان من اوليات ما تعني به الحركة التجديدية هو تحرير الافكار من غشاوات الجهل وتعميم التثقيف بين طبقات الامة وفتق الاذهان لمعرفة كل ما ينير طريقها في تلمس حقوقها وواجباتها مع اقتباس ما لدى المدنيات القديمة والحديثة من نور باهر يضيء ظلمات العقول ويزيد قوى الامة قوة مع الابتعاد عن كل السفاف والقشور وحتى التقاليد العمياء التي تميت عناصرنا الخلقية وكياننا القومي وعاداتنا المتوارثة القديمة التي لا تصطدم واضطراد الرقي الذي ينشلنا مما نحن فيه من تدهور وانحطاط كل ذلك وغيره من الوسائل التثقيفية الحية التي تزيد نشاطنا وتعلو بنا الى المستوى الرفيع الذي تتبوأه اكثر الامم والتي تتمتع من ثمار خيراته ويميزها عن غيرها في ادابها وعلومها ونمط تفكيرها وطرز معيشتها وفي حياتها الادبية والخلقية والاجتماعية وما تتسع اليه اخيلتها من الصور والرؤى التي تترك اثرا حياً في تاريخ نهضتها القومية . نعم ، كل ذلك اثر من آثار التجديد بل فيض حي من اغراضه السامية ، وما احسب احدا يغار على رقي وطنه ونهوض امته ويحرص الحرص كله على مستقبل هذه الامة ذات الماضي المجيد الناصع الصفحات يجد في مثل هذه الدعوات البارة ما يتناكر وما يرمي اليه المخلصون .

وما دامت الاغراض واضحة جلية لا غموض في ثناياها وفيما تحمله من اصلاح واحياء وثورة عاتية على الخنوع الذي يزيد في تخدير العقول الواكلة والنفوس الضعيفة فما على الطبقة المفكرة الراقية الا أن تصمد للحادثات وان تقضي بقوة على الدجالين الذين يلطخون صفات النهضة بسوء ما ينفثونه من دجل وآراء هي وحي العصور المظلمة .

فاذا كنا وصلنا فيما عرضناه الى هنا بقي علينا ان نعرف أين تبتدىء الدعوة الى « التجديد » وعند اي مدى يجب أن تقف اغراضه وما من واقف على سير الحركة الفكرية الا ويعلم ان بذور التجديد بدات يوم بدء المصلحون نهضتهم قبل ربع قرن أو أكثر يوم بداء المصلحون صيحاتهم وينفخون في صميم الشرق الناعس ان ينهض وان يستقيظ قبل ان يصبح لقمة سائغة للمطامع المحدقة به من كل صوب . وأحسب لو ان الشرق لبى تلك الدعوات منذ الصيحة الاولى ولم يرتطم بخزعبلات « الحشويين » الملوق تاريخهم الاسود بابشع الصور ، لو انه فكر بجد وهزا بالحشويين وبما ينفثونه من سموم فتاكة ومشى في طريقه لما كانت اليوم هذه « المآسي المفجعة » التي تمثل على مسرحه ؟ ولقد كان « العصري » بالامس ملحداً زنديقاً . وكانت الاصوات التي يرسلها « العصريون » من صميم افئدتهم اصواتا لا تتلائم وعقيدة الامة !.. وما أحسب نغمة الامس البالية الا ذات النغمة التي يرددها بعضهم اليوم ازاء الذين يعنون بالتجديد والاصلاح الذي ينقذ الامة من ضعفه وما في اخيلتها من ضلالات وينهض بها الى ارقى ما تحلم به من تطور ورقي ولا ناتي بالامثال على ما نقول فهي قريبة ماثلة من ذهن بنت اليوم بل هي بداءت منذ بدا الشرق يستقيظ على اصوات المصلحين ، وقد تطورت مع الايام تبعاً لكل فكرة تخضع لناموس التحول ، فكانت تنهض تارة وتعثر اخرى وما زالت في سيرها حتى يومنا هذا ، وهي تمتاز اليوم في نشاطها وسيرها عن الادوار التي مرت بها ان روح التثقيف التي عمت مختلف الطبقات تدعمها دعما قويا وتمسك بها عن الانزلاق في المهاوي السحيقة التي يوسع فتحاتها الحشويون !..

دعوة التجديد في الشرق قديمة ، ووصول الشرق الى ما وصل اليه من تطور ورقي هو اثر حي لهذه الدعوات التي حاربها الجهلاء عن طيش وخبل ، وسير الروح التجديدية وغمرها الشرق من اقصاه الى اقصاه بدون ان ترتطم بزعير الجهلاء وزعيقهم من انصع الادلة على يقظة الشرق وتماسك ابنائه من ان تهز وحدتهم او تعصف بكيانهم العواصف ، وواجب المفكرين — وأريد غير واحد من رؤساء تحرير الصحف — ان لا يكونوا سببا لخمود هذه الروح المشتعلة وان لا يكونوا تكأة للرجعيين الذين كانوا في كل مواقفهم اكبر خطرا يهدد الرقي متخذين الدين وتعاليمه السامية ستاراً ينفذون من ورائه الى الاغراض السافلة التي لم تلتئم قط وروح الامة في كل ما تطمح اليه من امان وآمال ويديهي اننا لا نريد الطفرة للشرق ولا نحب ان نسبق الايام في سيرها وان لا تكون المظاهر الخلابة وحثالة ما تنفثه المدنية هدافنا بل نحب النمو التدريجي والتطور المستمر وان ناخذ من المدنية روحها ولبابها وان نخلق من ضعفنا قوة وان نسير مع الزمن بما لا يتناكر ومالنا من مجد واخلاق ومن عادات كريمة وسنن صحيحة .. وهنا عند هذه الفضائل التي تسمو بنا الى العلاء يجب ان نقف حيث « التجديد » قد اوضحت اغراضه وقد انتشلنا من هاوية العدم الى الحياة .

وما احسب بعد الذي قدمته ان مفكرا مخلصا يقول ان التجديد مطية من مطايا الاستعمار وانه سبب من الاسباب المؤدية الى ان تفقد البلاد « كيانها القومي » .

« سامي ... »

الحديث : السنة الثالثة ١٩٢٩ العددان ٦ — ٧ حزيران — تموز .

المحافظون والمجددون

التجديد يستلزم التساهل وحرية المناقشة

انسان المستقبل . كيف يكون

يقال أن الانسان مطبوع على التمسك بالقديم ، مفطور على اتخاذ خطة آبائه ومن سلفه . فهو ينبذ لاول وهلة ما هو جديد ويأبى أن يسير بموجبه(١) . اجل ، ليس التمسك بالقديم والمحافظة عليه امرا مشيناً . ولكني لا ارى انه من الحكمة ان يظل الفرد متمسكا بالقديم محافظاً عليه لمجرد انه قديم أو ينبذ الجديد لانه جديد ، دون ان يفسح مجالا للبحث والنقد والتفكير ، ليرى ما اذا كان هذا الجديد يعود عليه بنفع اجل من نفع القديم الدارس . فالفرد في هذه الحال ميت لا يستطيع التقدم بل هو كالمياه الراكدة لا تلبث ان تتجمع فيها الاقذار وتكثر فيها الجراثيم فتفسد . غير انه قد يبدر للذهن القارىء أن فئة المحافظين او المتمسكين بالقديم فئة مضرة . لا لست اقصد هذا : فكما ان الجواد الجموح يحتاج الى من يشد لجامه ليتدارك تهوره أو جموحه في السير هكذا المحافظون هم لفئة المتجددين يقفون في سبيلهم يتداركون سيرهم السريع الذي قد يؤدي الى هفوات خطرة . فكأن المحافظين على غير ارادة منهم يجعلون الآراء الجديدة تتقدم ببطء وانما بقدم ثابتة لا تزال ،

---

(١) نظن ان الانسان غير مفطور على التمسك بالقديم او بالجديد وانما هو « يقلد » (اي يحاكي) ابويه وقومه . فهو مفطور على سنة المحاكاة والاقتباس . فاذا كان الخلف يقتبس دائما من السلف يظل القديم مستمرا . هكذا قامت التقاليد . وذلك الاستمرار هو « الوراثة الاجتماعية » ــ المحرر .

اللهم ، اذا كانت هذه الآراء سديدة تثبت امام البحث والنقد ، على ان فئة المحافظين قد تاتي بضرر مبين ان هي حالت دون افساح مجال للبحث والجدال لان هذين الاخيرين مدعاة للتقدم وسمة الحياة والنمو .

لماذا نرى العلم سائرا في التقدم على قدم وساق في حين أن بعض اعتقاداتنا الدينية لا يزال اكثرها على ما كان عليه في ايام اجدادنا الاولين ، ومنها اعتقادات سخيفة تستوجب السخرية احيانا ؟ هذا لان المجال في العلم مفتوح لاستقبال ما هو جديد وطرحه على بساط البحث والنقد فيثبت ان كان صحيحا وينبذ ان كان زائفا . وما اتى به انشتين من النظريات الحديثة التي قلبت بعض نظريات نيوتن رأسا على عقب اكبر دليل على ما ذكر(١) .

وأما الحال في الامور الدينية فهي خلاف ذلك . فعند البعض الجدال محظور في الاعتقادات الدينية والمناقشة بها ، فكيف يرجى تقدم آنئذ ان لم تحتك الآراء بعضها ببعض فيقضي صحيحها على زائفها ؟ غير ان هذا التضييق اخذ يخف نوعاً في ايامنا هذه . ولقد قام كثيرون يدعون للتجدد وينزعون لتطهير الدين من شوائب السخافة . وقد يتخطى هذا التضييق في حجز الحرية الفكرية واخفاء الحقيقة الى الامور السياسية . فبعض الحكومات مثلا تحظر على صحفها ومجلاتها نشر ابحاث تتعلق بالدعوة البلشفيكية ، فعندي ان كل تضييق من هذا النوع لعين الخطأ ، بل هو جريمة ضد ناموس الطبيعة الذي يدعو الى التطور في كل ادواره ، واني ارى ان الجدال والمناقشة والنقد خير الوسائل التي تؤدي الى اظهار الحقيقة وازهاق الباطل .

---

(١) يقال ان نظريات انشطين صححت نظريات نيوتن ولم تنقضها ــ المحرر .

ملاحظة : محرر مجلة السيدات والرجال هو نقولا حداد . م. خ.

المصدر : مجلة السيدات والرجال جـ٢ س ١١ فبراير ١٩٣٠ .

الادب الجديد

يثير بعضهم في المعرض الاسبوعية ، بحث الادب القديم والجديد ، وتلخص القصة في نزعة هذا البعض الى خلق ادب جديد . يطالع الجمهور بالآراء والافكار الجديدة في ثوب من اللغة جديد وبيان واسلوب هما في طرافتهما وجدتهما غير ما تعودناه واخذنا عنه من ادب اجدادنا الاقدمين .

حسن جداً افراغك آراءك وافكارك مهما كان لونها في قالب من اللفظ متين ، وفي لغة مشرقة قوية التركيب وفي بيان واستعارات وتشابيه ما عرفها الاقدمون من ادبائنا .

ولكنا نريد ان نسأل ؟ — واحد هؤلاء الذين يثيرون الضجة يقول في تعريف نزعة الادب الجديد ما نصه :

نحن نريد ان ننفذ بكتاباتنا الى قلوب سائر الطبقات المتعلمة على تفاوت درجات علومها وتباين مقادير ذكائها (كذا !؟) ونريد ان لا نكتفي بالكتابة الخاصة (كذا) التي هي في غير حاجة الى ما نكتب — وهي شجاعة في الاعتراف بالحق — او في حاجة ضئيلة الى نتاج قرائحنا وبيان شعورنا تتفاهم واياهم على يدهما « واكفى بالله الكاتب سوء التفاهم » .

هذا ما قاله احد هؤلاء في تعريف طريقتهم ، ونعود فنتساءل ما هو هذا الادب الجديد ؟ وكيف يكون ؟ وهو فيما عرفه احدهم لا يغير من اصول اللغة واساليبها ! واذن فليس هنالك حكاية ادب جديد او قديم وانما وسيلة من وسائل التأدية والتصوير .

هذا ومهما ارادوا التزمير عن نزعتهم فهي لا تعدو التسمية والتحديد الذي حددنا به هذه المحاولة وهذا لا يمنع ان يكون في نطاق اللغة التي نتكلم وفي حدود آدابها القديمة ، ولن نستطيع مهما اوتينا من القوة ومن عبقرية الاختراع والخلق الطلوع على الناس بلغة جديدة لا يكون بيانها البيان الذي عرفنا في ادبائنا القدماء ولا يكون طريقتها واسلوبها طريقة واسلوب اهل الادب الاقدمين واذا كان صحيحا ما يدعيه اولئك من نزعتهم الى الجديد في التعبير وفي الاستعارة والتشبيه فما تراهم فاعلين لو طالبناهم بأن ياتونا بابرع وارشق من هذا التعبير .

شدو الـد من ابتداء الصين اغفائها
احلى واشهى من منى نفس وليل رجائها

اللهم لو كان بعضهم لبعض ظهيرا وراحوا يكدون اذهانهم لما استطاعوا مثله ولما وجدوا اليه سبيلا ...

الذين سموا الاشياء باسمائها وقولوا ان هناك الفاظا وافكارا ومصطلحات لا غنى عن اختراعها او تركيبها او اشتقاقها للدلالة على مقاصدها ومعانيها اخترعتها مدنية العصر هذا ولم يعرفها اجدادنا واعيذكم ان تكونوا كالقزم المقعد يطاول اسباب السماء .

اديب الصفدي

المصدر : الناقد : العدد ٧ ـ ١٩ حزيران ١٩٣٠ السنة الاولى ـ دمشق *

بين الادب الجديد والقديم

خليــل تقي الديــن

الاستاذ الصديق خليل تقي الدين من ادبائنا المعروفين ينزع في الادب العربي نزعة تصويريـة جديدة يريده معها ان يكون صورة حيـة لما يفكر ويتخيل وعلى ذلك كان من عصبة العشرة الذين يملأون صحائف العرض الاسبوعي بما يعتقدون انه وسيلتهم الى تقرير مثل هذا الادب الجديد .

وقد كنا نشرنا في العدد الماضي مقالا اوليا تساءلنا فيه عن هذا الادب الجديد وحدوده ومراميه وماذا يريد بهذه الدعوى اصحابها عصبة العشرة في العرض وهم لا يستطيعون خلق هذا الادب على غير الاساليب والصور التي عرفناها في ادبنا القديم !

وارسل الينا حضرتـه كتابا يعرب في جملته عـن حيرة هؤلاء الادباء « عصبة العشـرة » فيما يريدون وما يعتزمون فبينما الكتـاب هذا يقول بالتجديد اذا به يقول بان المذهب هذا لا يعد خروجا عن الادب القديـم ـ ذلك وحسب ـ وانما هم يريدون تصويـر ما يشعرون ومـا يفكرون ويتخيلون وهـذا اعتراف صريح بان ليس هنـاك تجديد وانما تصويـر المشاعر والخيالات الفكرية الحديثة ليس غير وهذا نص الكتاب :

بعقلين في ٢٢ حزيران ٩٣٠

اخي الاستـاذ الاديب .

سلام الله عليك ، وبعد فقد طالعني « الناقد الطريف » في هذه القرية الهادئة من قرى لبنان بمقال لك في الادب الجديد هو الرابع في موضوعه في هذه الاسـابيع الاخيرة الاربعة تسـاءلت فيه معلقا على مقال صدر اخيرا

في المعرض لاحد افراد عصبة العشرة « فؤاد حبيش » ما هو هذا الادب الجديد وكيف يكون وهو فيما عرفه احدهم « احد الذين يثيرون الضجة » لا يغير من اصول اللغة واساليبها واذن فليس هناك حكاية ادب جديد او قديم وانما وسيلة من وسائل التأدية والتصوير .

فلماذا غضضت الطرف عن التزمير ومطاولة القزم للسماء والدعوى العريضة والضجة وما الى هذه الكلمات التي نفحتنا بها ، سألتك اتجاهلا يا اديب ؟ وهل يخطر في بالك ان كاتبا عربيا له ذرة من العقل يفكر في الطلوع على الناس بلغة جديدة لا يكون بيانها البيان الذي عرفنا في ادبائنا القدماء ولا يكون طريقتها واسلوبها طريقة واسلوب اهل الادب الاقدمين » .

بحق الجاحظ وابن المقفع وابي نواس من قال لك اننا نفكر في ذلك .

نحن نعلم ان لكل لغة من لغات الارض اصولا واساليب اذا انكرها الكاتب وقع في الركاكة والرطانة ، ونعلم كذلك ان ادبنا القديم بحمد الله غني زاخر بنتاج قرائح ادبائنا العباقرة ولسنا ندعي اننا وقفنا على الادب العربي القديم كله ، وليتنا نستطيع ! ولكننا قرأنا طائفة كبيرة منه قراءة تمكننا من الظهور في الناس بلغة اذا لم تضارع لغة الزمخشري والصاحب بن عباد فهي على كل حال لغة صحيحة سهلة مفهومة .

ولقد تساءلت في شيء كثير من التواضع ما هو هذا الادب الجديد الذي ندعو اليه كانك لا تعرفه ولا تحسه وانت الاديب .

وهل التجديد غير ان يكتب الكاتب ما في نفسه لا ان ينقل ما كتبه الآخرون عن نفوسهم ؟

اليس هذا تجديدا كافيا لما نريد ؟ ثم الا توافقنا عليه انت الذي ارسل المقال تلو المقال وكلها مليء حيرة وتساؤلا وعلامات استفهام وتعجب وسخرية ؟

وليس ينحصر التجديد في عصر من العصور ففيه يستوي القدماء والمحدثون .

فابو نواس والجاحظ وابن ابي ربيعة واضرابهم مجددون على بعد الشقة بيننا وبينهم .

« وشيوخ الشعر والنثر » في الاقطار العربية اليوم — وهل لي ان احصيهم وهم من الكثرة بحيث لا يحصون — مقلدون وان كانوا عائشين بين ظهرانينا نؤاكلهم ونساكنهم ونعاشرهم والله مع الصابرين .

والفرق بين المقلدين والمجددين ان هؤلاء ينظرون الى اللغة كأداة للاعراب عما في النفس فهي ليست غاية في حد ذاتها بل هي سبيل الى غاية سامية هي التعبير عما يحسه الانسان ويجول في فكره وفي مخيلته من افكار وصور واخيلة وان اولئك — اي المقلدين — يعتقدون ان استعمال الكلام الحوشي الغريب وزخرفة العبارات الفارغة غاية ليس بعدها من غاية اذا بلغوها اطمأنوا اليها وما كانت هذه الزخرفة في نظرنا الا كزخرفة الرخام يقام على ارماس لا تحوي الا الجثث والعظام .

واذا لم يتمكن المجددون من الوصول دفعة واحدة الى الغاية التي يقصدون اليها وهي تعويد الادباء الاخلاص في العمل الادبي السامي واظهار شخصية الاديب ومحو فكرة التقليد من رؤوسهم فهم على الاقل يلجمون بعض ادعياء الادب الذين يعتقدون ان المنابر وصدور الصحف خلقت لهم اولئك الذين يقفون على كل منبر ، دعوا اليه ام لم يدعوا ويرثون كل ميت ويمدحون كل كبير وينظمون الشعر كما تأكل انت او كما يدخن النارجيلة معروف ! بربك اليس في اسكات هذه الابواق خدمة كبرى تؤديها الجرأة في النقد الى جماعة « المنكوبين » بسماع هؤلاء المقلدين وقراءتهم كل يوم .

اطلت عليك القول عن غير قصد ولكن ما حيلتك بالقلم اذا مشى .

الخوند خليل تقي الدين

المصدر : الناقد — دمشق العدد /٨/ ٢٦ حزيران ١٩٣٠ السنة الاولى .

مذهب الادب العصري

يتغنى ادباؤنا ، واذا قلت ادباءنا فاني اعني طبقة القدماء منهم ، بالادب وبنهضة الادب ونحن لو سألناهم اي ادب تعنون لما نطقوا جوابا . ولماذا ؟ ؟

لان هذا الادب وهذه النهضة ليسا بالادب كما يفهم من الادب ولا بالنهضة كما يعرف من النهضة وانما هما ذلك الاختلاج الذي يختلجه التمساح بعد سكون سنين وقعود عمر لا لكي يسير في الهواء والنور وينتقل من مكان الى مكان بل لكي يتقلب من جنب الى جنب ومن جهة الى اخرى قد ينام عليها مدة اطول من المدة الاولى وقد يموت عليها ولا رحمة عليه ولا اسف .

لكل عصر رجال حسب دولته فالان ما الرجل العبسي بالرجل
كذا لكل زمان السن نطقت بكل معنى جديدة غير مبتذل

هذا ما قاله الشاعر المجدد فرنسيس مراش منذ نصف قرن وهو يعني ان الادب لا يجب ان ينحصر بالتقليد كما كان في زمان هذا الشاعر وكما هو الآن عند هذه الطبقة التي تحتكر الادب بل يجب ان ينزع الى ناحية جديدة تتفق مع روح العصر وتوجد نواة ثقافة حديثة تكون اساس حضارة المستقبل ، فاذا بقي الادب يقلد تقليدا ويطبع طبعا في عقول الشبيبة فالمعنى ان ثقافتنا هي هي كما كانت منذ عشرة قرون وان حضارتنا منذ عشرة قرون وان حضارتنا الآتية هي هي ايضا كما كانت وكما هي الآن وان حالتنا الاجتماعية ستكون اشر مما هي عليه بنسبة ما يطرأ على العالم من التجديد وما يفوتنا من اللحاق به .

شاع في اوروبا في هذين القرنين الاخيرين عدة مذاهب في الادب خرج بها الادباء على القديم وتقليد القديم واستقروا على هذا المذهب الذي يعم اليوم القارتين اوروبا واميركا ويعرف بالمذهب الطبيعي ، هذا المذهب لا يأخذ صفة من صفات المذاهب القديمة ولا يقلد مذهبا سبقه ولكنه مستقل بذاته يدعى بحق مذهب الادب العصري واذا ما درسناه جيدا وجدناه يميل نحو المحسوس في الحياة فلا يعتني كثيرا بالخيال ولا يذهب مع الاهواء والعواطف ولا يخترع من عندياته مناح قد لا تتفق مع الحقائق وهو اقرب الى العلم منه الى التصور القصصي فالاديب الاوروبي المعاصر ليس اديبا يجيد درس الادب الذي كان شائعاً منذ قرون ودهور ويميل بنزعته الى هذا الاديب القديم المشهور او الى ذاك . لا بل هو ذلك المعلم الذي درس في مدرسة الحياة والطبيعة علمي النفس والاجتماع حسب القواعد الحديثة وجاء يطبقهما على احوال الناس وميولهم ويصور لهم منها صورا تأخذ بمجامع القلب وتسلب اللب وتريهم ذواتهم كما هم بدون تصنع ولا محاباة .

هذا النوع من الادب يوجد ثقافة جديدة وهذه الثقافة الجديدة تكون حضارة المستقبل وحضارة المستقبل مقياس رقي الامم الاوروبيةوالاميركية فلاذا ما تفاءلنا بمستقبل هذه الامم فاننا انما نتفاءل عن معرفة وادراك كما اننا اذا ما تشاءمنا من مستقبلنا فاننا انما نتشاءم عن معرفة وادراك ايضا لان ما عندنا من مذاهب الادب وما ينتج عن هذه المذاهب من الثقافة يجعلنا نجزم بالمستقبل الرديء الذي ينتظرنا .

يقف الاديب امامك في هذه البلاد يكلمك عن الادب فتظنه سيتحدث اليك عن نزعة جديدة يطمئن اليها فكرك ويسر بها قلبك ولكن سرعان ما يخيب ظنك اذ تراه لا يعرف غير القدماء وادب القدماء واذا خانك الحظ معه فتسمع منه عن الجن والسحر والعرافة ما الى هذه الخرافات الشيء الكثير .

انا لا اقول هذا عن كل الادباء لانه يوجد ، والحمد لله ، فئة لا تقلد هذا التقليد ولا تذهب هذا المذهب القديم المعقم وهذه الفئة لم تؤثر بعد

في الادب وفي مذهب الادب واذا كانت لم تؤثر بعد في الادب وفي مذهب الادب فالمعنى ان هذا البحث والنقد لا يشملها الا من ناحية ايجابية اي من ناحية تحبيذ رايي ومذهبي ، فهذه الفئة نواة الادب العربي العصري ان شاء الله وروح النهضة الفكرية التي ستعم الشرق في المستقبل .

في مصر كما في لبنان وكما في سائر البلدان العربية نزعة ادب عصري جاءت بعد ان قام الدكتور طه حسين امام المجددين في الادب وعلي عبد الرازق وبقية من يجاريهما في نهضتهما ينادون بضرورة خلق ادب جديد وثقافة جديدة وان نسيت فلا انسى الاستاذ الكبير اسماعيل بك مظهر والاستاذ كامل كيلاني والاستاذ سلامه موسى الذين جاهدوا وما زالوا احسن الجهاد في هذا السبيل ولكن مع وجود هذه النزعة فان الادب في مصر مازال مطبوعا بطابع المذهب القديم ومازلنا نقول عن مصر كما نقول عن هذه البلاد وبقية البلدان الشرقية انها لم تخرج بعد على الادب القديم ولم توجد ثقافة تكون اساس عظمة حضارة مستقبلها كما هي ثقافة الشعوب الاوربية والاميركية الحاضرة اساس عظمة حضارة مستقبل هذه الشعوب .

هذا التاخر الادبي في الشعوب العربية يرجع الى كون الاديب يهتم بنحو اللغة وصرفها ومعرفة شواذها اكثر مما يهتم بالعلوم والفلسفة وما انتجت العلوم والفلسفة من المذاهب والآراء ، واذا ما حصر الاديب اهتمامه بدرس اللغة فانه يميل بطبيعة الحال الى درس ادب القدماء واذا ما مال الى درس ادب القدماء فانه يغوص في بحر من المتناقضات لا يخرج منه الا فاقد الادراك الصحيح والتمييز التام منهد القوى لا يقدر ان ياتي عملا مفيدا . وكيف يقدر ان يعمل الحسن في الادب وهو راضخ الى هذه المناقضات والاوهام ويخاف انه اذا ما ترك واحدة منها يتدرج الى ترك الكل وبعد ذلك يرجع كانه لم يدرس ولم يتعب هنا كل المصيبة لانه يضطر الى درس جديد وتعب اجد وهذا لا يقدر عليه ؟؟

هذا هو السبب في بقائنا مطمئنين الى هذا النوع من الادب ، فالاديب الذي امضى السنين في درس القدماء وادب القدماء لا يعرف غير القدماء

وادب القدماء ولما كان خوفه من تعب جديد وتمضية سنين عديدة في الدرس والتنقيب يمنعه من رذل هذا الادب الذي استظهره عن سطح قلبه ونقشه نقشا في فكره وصار يتلوه بدون كلفة ولا تعب ، فان الادب سيبقى مطبوعا بطابعه لانه يمثل الفئة الكبيرة من الادباء .

واذن ؟ ؟ .

فاني لا اقدر ان ابقى صامتا ولابد من اثارة حمية بقية الادباء ممن ينزعون نزعة ادب عصري لتكوين بيئة تساعد في المستقبل من يسعده الحظ ولا يسير على المنهاج القديم لكي يحل شيئا فشيئا مذهب أدب عصري جديد مكان هذا المذهب القديم تبنى عليه الثقافة والحضارة والرقي والتقدم .

لا احد يجهل السيد جميل صدقي الزهاوي الشاعر العراقي الكبير واحد اقطاب الادب العصري الجديد . هذا الشاعر المحترم كان قد سئل من مجلة الهلال عن الكتب التي افادته فاجابها (سر النجاح) كتب علم الهيئة والفلك التي الفها الدكتور فانديك (كتب الصحة) كتب الكيمياء وبقية الكتب العلمية . فهو لم يقل لها كتب المبرد وابي علي القالي وابي تمام والزمخشري وسيبويه ، ولم يقل لها هذه الكتب التي تدرس اليوم في المدارس لتعليم الادب وهي ليست بكتب ادب بل قال لها سر النجاح وبقية الكتب العلمية ، والسيد الزهاوي كما يعلم الجميع شيخ جليل قد يكون الذي من امثاله قد نسي هذه الكتب التي ذكرها امام بقية ما درس من كتب القدماء ، والكن شكرا لقوة العقل التي وان طمت عليها العوامل المتناقضة فانها تثبت وتثبت حتى الموت .

عندما ابتدأت بكتابة هذه المقالة تذكرت انتقادا كانت نشرته مجلة المصور في مصر حول كتاب طبع في العراق ووزع هدية لمشتركي مجلة تصدر هناك ، وهذا الكتاب يبحث في تفسير رموز جبل قاف . ومن من أسيادنا الادباء اصحاب المذهب القديم يجهل جبل قاف ؟؟.

ولكي تدرك عظمة رموز هذا الجبل القاف واهميتها فان المؤلف استشهد بعشرات الكتب القديمة القيمة ؟. على وجوده ولم ير من غضاضة عندما صرح ان بحثه وتنقيبه اثبتا له صحة وجود هذا الجبل ولا خجل من نفسه عندما قارن بين ما ارتآه القدماء وبين ما يرتأيه هو حول حل رموزه وقد تفضل وذكر صديقا له قرّظ ذلك الكتاب الثمين؟!. ونعته باعظم النعوت وافخمها كحجة العلماء الاعلام ؟!. وواحد العصر والدهر ؟!. مما ينبو عن السمع . فهل من سخافة بعد اكبر من هذه وهل من شك بعد بعقم هذا المذهب القديم في الادب ؟!.

بيد ان الامر لا يقف عند هذا الحد بل يتعداه الى تقديس بعض الاشياء الطبيعية وتنجيس بعضها فقد ذكر ان استاذا في علم الكيمياء اخذ يشرح يوما لتلاميذه مبادىء هذا العلم واولئك التلاميذ كانوا قد درسوا الادب حسب المذهب القديم وعرفوا منه ان الاشياء الطبيعية بعضها مقدس وبعضها منجس فلم يتمهلوه حتى سألوه : امقدس هو الاوكسجين ام نجس ؟! حتى يعرفوا مقامه في لائحة مقدساتهم ومنجساتهم ؟! ويوجد مثل هذه الحادثة عشرات بل ومئات وكلها تثبت ضرر هذا المذهب القديم في الادب .

صادفت بالامس صديقا يتمسك بهذا المذهب القديم تمسكا اعمى فسألته رأيه في هذه النزعة الجديدة فاجابني — ان الله سبحانه وتعالى اراد بها تفكيك عرى الرابطة العربية واستعباد العرب لشرود بعضهم عن جادة الدين القويم ، فقلت وهل من رابطة عربية لكي نخاف على قطعها واستقلال لكي نخاف عليه فلم يرد جوابا فقلت لهثانية ان الحالة الحاضرة ليست مما يخاف عليها فاكثر من هذا التنافر لا يوجد واكثر من هذا الاستعباد لا يمكن ان يصير واذا كان هذا فلا خوف علينا ولا وجل . بمثل هذا الجواب اقنعت صديقي فذهب يضرب اخماسه باسداسه ويفتكر بسؤالي وجوابي .

فاسيادنا اصحاب المذهب القديم ينكرون كل شيء الا صوابية مذهبهم في الادب وهذا من اغرب المناقضات .

قرأت في صغري من جملة ما قرأت أشعارا تنسب الى الجن وهذه الجن قد لعبت دورا كبيرا في حياتي ثم ازل كلما اتذكره اشعر بالحزن والكدر ، وقد جربت ان اقنع البعض من اصدقائي من أصحاب المذهب القديم بعدم وجود الجن وبأن ما ينسب اليها من الاشعار منتحل فلم اوفق . وكيف اوفق الى نفي وجود الجن وكتب اسيادنا القدماء محشوة بها ؟. وكيف يمكن ان تكون هذه الكتب مضللة ؟. اما قالت الجن شعرا ترثي به عمر بن الخطاب :

ابعد قتيل بالمدينة اظلمت	له الارض تهتز العضاه باسوق
جزى الله خيرا من امام وباركت	يد الله في ذاك الاديم الممزق
فمن يسع او يركب جناحي نعامة	ليدرك ما حاولت بالامس يسبق
قضيت امورا ثم غادرت بعدها	بوائق في اكمامها لم تفتق
وما كنت اخشى ان تكون وفاته	بكفي سبنتي ازرق العين مطرق

واما قالت شعرا آخر تفتخر به بقتل سعد بن عبادة :

قد قتلنا سيد الخز	رج سعد بن عباده
ورميناه بسهمين	فلم نخطىء فؤاده

وعدا هذا يوجد مئات من الاشعار التي تنسب الى الجن وتثبت وجودها .

يريد اسيادنا اصحاب المذهب القديم ان نؤمن بوجود الجن والعفاريت وانها قالت شعرا وان العقل لا قيمة له تجاه هذا الامر الواقع المحسوس ؟!. وبعد هذا يتساءلون عن سبب ذلنا واستعبادنا .

رحم الله هربرت سبنسر ذلك الفيلسوف الكبير الذي علمنا تسلسل الاشياء من بعضها وبين لنا خطا اتكالنا على الظروف والصدف واحيانا على الله فهو في ابحاثه العميقة قد عرّف الناس ارتباط الحالات ارتباطا

تاريخيا وأظهر علة تأخر الشعوب واضمحلالها في كتابه الكبير « مبادىء علم الاجتماع » فتأخر الشعوب حسب رأيه (وهو الصحيح) يرجع الى جمود عاداتها وتقاليدها وجمود هذه العادات والتقاليد يرجع الى كونها قديمة ، فالعادات القديمة تكتسب قوة من ناحية قدميتها وهذه القوة تزيد في بقائها وقدميتها ولما كانت الهيئات الاجتماعية مرتبطة بعاداتها فان أحسنها تلك التي لا عادات قديمة جدا عندها تحول بينها وبين النمو والتقدم . على هذا المبدأ بقيت شعوب واضمحلت شعوب وتبدلت الانواع على وجه هذه البسيطة .

« اديب »

المصدر : مجلة الدهور . بيروت العدد الاول . المجلد الاول . تشرين الاول ـ ١٩٣٠ .

اتجاهات التجديد

اصدر الاستاذ سليم قبعين صاحب مجلة « الاخاء » عددا ممتازا اشترك في تحريره اكابر ادباء العرب كالدكتور طه حسين ومحمد فريد وجدي وخليل مطران وكامل كيلاني والدكتور ابو شادي وعيسى اسكندر المعلوف وغيرهم من الادباء وببحوث غاية في الجودة والمتعة ، وقد طلب الينا الزميل الكريم ان تكون لنا كلمة في هذا العدد . فنزلنا عند رغبته وهذه هي كلمتنا « اتجاهات التجديد » .

* * *

في الشرق العربي ، اليوم ، فكرتان تتصادمان : فكرة البعث والتجديد وملائمة روح العصر وميوله من جهة ، وفكرة الخنوع والاستسلام والرجوع الى الماضي والاحتفاظ بكل ما هو قديم من جهة أخرى ..

ويمثل الفكرة التجديدية جموع الشباب المثقف وزعماء الفكر الحر ومن أخذ بنصيب وافر من حضارة الغرب وادابه ، ويمثل الفكرة الاستسلامية الخانعة فئات غير قليلة تعيش في فكرتها وهواجسها في صميم القرون الخالية ، ناظرة نظرة سوداء الى كل ما تقذفه مدنية الغرب من خير وشر ، مبتعدة كل الابتعاد عن هذا « الجديد » الذي يحمل في طيات ارادته كل جراثيم أوروبا التي ستقضي على فضائل الشرق وآدابه ــ كما يزعمون ! ــ ...... ويقوي الصراع ويضعف كلما اخذ كتاب الفئتين يطرحون هذه الافكار على صفحات الجرائد والمجلات او يبسطونها فيما يخرجونه من كتب ورسائل ويبدو للقدماء الذين يتلون ما يكتبه زعماء التجديد اننا قد التصقنا بصميم الحياة الاوروبية ، كما يبدو لشباب التجديد ان الحياة التي يحياها القدماء ليست على هامش القرن العشرين بل في كنف العصور الاولى للاسلام . وكلتا الفئتين تخطىء وتصيب فيما

تتصوره أو فيما يصوره لها الكتاب اذ ليس في الفئات التجديدية من يحيى تماما ـ الا فئات قليلة ـ تلك الحياة الاوربية البحتة في جميع نزعاتها وميولها وفيما تخلقه حولها من اجواء واضواء ، وليس في الفئة الثانية ـ الفئة التي تنعم بظلال الرجعية وتابى الا أن تكون قديمة رغم مواضعات العصر ـ نقول ليس في هذه الفئة ايضا من ينكر تماما حقائق هذا العطر وما يفيضه علينا من نعيم ، وان حياة افرادها مجرد تقشف وزهد وخنوع واستلام ! ..

فالواقع ، ان حضارة هذا العصر تنشر مبادئها بشتى الوسائل وينهل جميعنا ، وبدون تفريق ، من ينبوعها العذب وعصارتها اللذيذة المذاق .. وكل ما في الامر من الفروق والتباين ان بعضنا تهضم معدته هذه العصارة فيستزيد ، واذ يستزيد تنكشف امامه ، مع الايام عوالم جديدة باسمة فيها كل ما يحقق اطماع القلب والعقل معا ... وبعضنا لا تهضم معدته هذا الغذاء المدني الدسم الا بمقدار فياخذه بتافف وينفر منه احيانا وقد تضطرب معدته فيقيء ويلفظ ما قدم له ، شانه شان المريض الجاهل او الطفل الغرير الذي ينفر من الدواء المر .. وهو في نفوره وعناده وابتعاده عن هذه الادواء الناجعة كمن يحكم على نفسه بالموت المحتم مع ان في وسعه ان يشفي نفسه مما هو فيه الى ان يقوى على السير رويدا رويدا ... واذ يقدر له السير في الطريق يمكنه ان يجاري موجبات العصر ، وبالتالي يصبح عصبا قويا في الكيان الشرقي المتوثب الى الحياة والمتطلع دائما الى ما في الآفاق البعيدة من عوالم حية غير مكشوفة ، وعندئذ يشوقه ان يعمل بنشاط وقوة لمحاولة كشف هذه العوالم والنفاذ الى ادق اسرارها وابعد خفاياها شانه شان الغربي الذي لا يفتأ ـ يعمل ليل نهار ودائما في سبيل هذه الحضارة والسهر على نمائها وبسط نفوذها في المناطق التي لم تصل اليها .. وهو في طريقه هذا لا يكل ايضا بل يوالي البحث والاستقراء ويخلق الى ان يكشف عوالم جديدة (تكون) ركائز قوية لتدعيم هناء البشرية على اسس جد قويمة .

هذه هي الفروق الحقيقية لما يسمونه « قدماء » و « مجددين » من

ناحية البعث الاجتماعي . وهي فروق يمكن ان تزول مع الزمن القريب بل يجب أن تزول وان تلتقي خصومه الفريقين عند فكرة التمسك بلباب هذه الحضارة الراهنة التي تنتشر سهلة واضحة على لسان البرق والتلفون واللاسلكي ، وعلى متن القطارات والسابحات والطيارات والتي نلمسها عيانا في أمواج الكهرباء وتنتقل الينا على لسان الراديو ونحن متكئون على ارائك وثيرة بدون ان نتعب أو نجاهد جهود الجبابرة في الحصول عليها .

ان هذه الحضارة المحببة الى كل نفس والتي تنقل الشرق من المجاهل المظلمة الى لباب العصر الخالي المشرق بكل استنباطاته العجيبة ... وهذا الفيض المدني الذي ولدته حضارة القرن العشرين والذي يعطينا وسائل قوية لنختزل المسافات والابعاد ونطوف العالم بأسابيع ونكتشف ما لم يصل اليه اباؤنا الاولون ..... وهذه المستنبطات الحديثة التي تكشف امامنا هذه التيارات المغلقة وتتركنا في أضواء خالدة كأننا في هذه العالم المسحور الذي تعدنا به الكتب المقدسة ... — ان كل ذلك مما يحتم علينا أن ننسى هذه السفاسف الجدلية التي تثار احيانا حول «القديم» و « الجديد » . إذ لا جديد ، ولا قديم .. فنحن تجاه حضارة عصرية راهنة نلتقي بها — شأنا أم أبينا — وجها لوجه ... واذا كان من مسئلة يجب أن تثار فهي : هل في الامة العربية هذه القابلية التي تمكنها من هضم حضارة الغرب والسير في نفس هذه الاتجاهات التي تتجه اليها الامم الحية ؟... انا لا اظن أن مفكرا يجيب على هذا السؤال بالنفي ؟ . . فالامة العربية ، ذات التاريخ الناصع الصفحات ، لم تكن في يوم من خاليات ايامها أمة خنوع واستسلام بل كانت مغامرة في فتوحاتها ، مجددة فيما تركته من ادب وحضارة لا تزال موضع بحث أكابر مؤرخي الغرب الذين كثيرا ما يقفون امام روائع الحضارة العربية مبهوتين مشدوهين ! . . واذا كانت أوروبا في نهضتها الاولى لم تتنكب أن تأخذ حضارتها عن العرب بعد أن استروح نسيم هذه الحضارة العطر غير واحد من أكابر مفكريها ورجالاتها — وقد كان العرب في نظرهم آنئذ كفارا مسلمين !.. — اذا كان الامر كذلك ؟ أفنتنكب نحن عن ولوج هذا الطريق ونكون جامدي الاحساس بليدي الشعور لدرجة نقف أمام

حضارة القرن العشرين وجلبين من الاقتراب من حماها بداعي أن حضارة الافرنج ـ وهذا ما يقوله بعض غلاة انصار القديم ـ لا تتلائم وروح الدين لانها هي حضارة الاثم والفجور ومدنية الكفرة الآثمين !

هـذا الهراء الذي تدعو اليه بعض الفئات الرجعية هو ما يجب مناضلته والقضاء عليه .!. ومن دواعي الفرح ان تكون المدارس المدنية هي التي تقوم بنصيبها الاوفر بتهياة جيل جديد قوي المنازع في اتجاهاته التجديدية للقضاء على مثل هـذه الفكرات الوسخة التي ترجع بنا عشرات السنين الى الوراء دون أن تمكننا من خطـوة واحـدة الى الامـام !..

ان اول ما يرمي اليه دعاة التجديد هو أن تتحرر العقول من قيود الجمود ، وهذا أول منفذ للبحث والاستقراء والوصول الى نتائج خطيرة في حياتنا العقلية .!. ومحاولتنا اخذ لباب مدنية الغرب ليس معناه القضاء على كياننا القومي ، بل بالعكس هو طريقنا القويم للاحتفاظ بكياننا القومي وبهذه الخصائص النبيلة التي تميز الامة العربية عن غيرها من الامم ويخطأ جدا من يحسب ان دعوة التجديد يجب أن تنتهي بتلاشي وذوبان هذه الخصائص في بوتقة المدنية الغربية !.!. نعم ، ان هذا خطاء فادح يجب ان يزول من الاذهان .!. فدعوة التجديد دعوة نقية الصفحات فيما تطبنه وما تظهره وواجب الامة العربية أن تنظر اليها نظرة بريئة من هذه الاوشاب التي يلصقها بها حثالة من سقط الناس قد ضاق تفكيرها عن بحث مثل هذه الامور البديهة فراحت في اباطيلها وخزعبلاتها تصور « التجديد » كويلات منقضة على اسس الدين وان الشرق اذا ما استيقظ على وهج المدنيـة الوضاء فهو من الهالكين !..



أن للشرق العربي عبرة باليابان والاتراك ..

فالامة اليابانية قد حاولت هذه التجربة الاجتماعية الخطرة منذ اكثر من نصف قرن ولا يمكن أن يقال انها لم تكن موفقة في تجربتها هذه .. كلا ! فهي في توفقها الاجتماعي والصناعي اصبحت تتلاقى وأرقى الامم الاوربوية والاميركية .. ولم يصبه دينها الوثني ولم يتحطم كيانها القومي من هضمها عصارة المدنية الغربية ، بل بالعكس فقد كان ذلك قوة حية لخصائصها التي انبعثت من جديد لتساهم بنشاط وقوة في ميدان الحضارة الواسع الرحاب وهذه توركيا أيضا قد أخذت تجرب هذه المحاولات التجديدية بقوة وعنف . وفي اعتقادنا أن مغامرتها هذه لا تعد تجربة بل نوعا من الايمان الصريح — هذا الايمان الذي يحدوها ان تعتنق هذه المذاهب الجديدة التي خلقت حضارة أوروبا ومدنيتها خلقا جديدا ... ان بعض المتشائمين يذهبون الى أن تركيا في نهجها الجديد قد انكرت خصائصها « الشرقية » وتحولت الى أمة « اوربية » في كل شيء .. والواقع ان الاتراك لم يعتنقوا الاساليب الاوروبية الا ليكونوا اندادا للاوروبيين شأنهم شأن اليابان تماما . وهم مع أخذهم مظاهر المدنية الاوروبية من لباس وعادات ، هذه المظاهر التي هي أقرب للحياة العصرية من غيرها — نعم ، ان اخذهم هذه المظاهر لم يجردهم قط من خصائصهم القومية بل قد يكون له الآن احرص على هذه الخصائص منهم قبل أن يلبسوا لباسهم الجديد ..

ولسنا نطلب من الأمة العربية الافراط بما أفرط به الاتراك ، كما لا نريد ان نقيد نهضتنا وبعثنا الجديد بسلاسل من عبودية القرون المظلمة .. كلا !... بل ان ما نريده هو تحطيم هذه السلاسل التي تقيد نهضتنا ، وتلك الصخور القاسية التي تعترض طريقنا .... نريد ان ننزع هذا الغشاء الكثيف الذي يعلو ادمغة الرجعيين وان نمزق تلك الحجب السميكة التي تريهم المعالم بلون قاتم ..

هذه هي ، اتجاهات التجديد وهي اتجاهات لا خطر منها على

القومية ولا على الدين وقد آن للشرق العربي ، وللبعض المتشائمين من أبنائه أن يتركوا ، ولو الى حين ، هذه السفاسف التي تثار باسم الدين تارة .. وباسم عنعنات السلف تارة أخرى .. وان يكون نضالنا في سبيل الحياة الجديدة .. هذه الحياة المدنية التي تحقق اطماع القلب والعقل معاً والتي نستشف من مولدها هذه السيادة العقلية بل سيادتنا القومية المزنة التي تتطلع الى صروحها المشيدة كل امم الشرق المجروحة الكرامة .

ولعلنا فاعلون .

سامي الكيالي

المصدر : الحديث ، السنة السادسة ١٩٣٢ ، العدد الثامن اب .

تقـــديم

محمد حسين هيكل

ثـورة الادب

هذا الكتاب جديد قديم . هو قديم لأن بعض فصوله نشر من قبل كما هو بعنوانه ، وبعضها نشر لم يغير منه الا عنوانه . وهو جديد من ناحيتين . الاولى وحـدة الفكرة التي تنتظم فصوله جميعا . والثانية أن بعض الفصول جديد لم يسبق نشره ، وبعضها مما سبق نشره زيد عليه أو حذف منه ما يجعله يتفق ووحدة الفكرة ، وبعضها الف من اكثر من جزء من عدة فصول نشرت ، وهذه الاجزاء جميعا تتسق من حيث الفكرة وتؤدي الى الغاية التي وضع الكتاب من أجلها . فالكتاب اذن جديد قديم . وأحسب طابع الجدة فيه أغلب لأن الفكرة التي دعت الى نشره لم تكن بارزة في أي من الفصول التي سبقت الى نشرهـا بروزها فيه .

وقد اخترت له (ثورة الادب) عنوانا بعد أن جال بخاطري قبيل طبعه أن أجعل عنوانه (نحو الادب القومي) ، لأن فصوله الاولى جميعا لا تتحدث عن الادب القومي وانما تتحدث عن هذه الثورات المتصلة التي شهدها نصف القرن الاخير في شؤون الكتابة والادب وتصف المجهود المتصل الذي قام به أصحاب المذاهب المختلفة في إقامة الادب العربي الجديد . والواقع ان هذا الادب العربي يضطرب بعوامل الثورة فيه منذ الثورة العرابية في مصر ، ومنذ بدأ هذا الشعور القومي يحـرك النفوس ويدعوها الى التوجه نحو النهوض بمجموع الامة الى مثل أعلى . من يومئذ بدأت الكتابة تخرج من الحظيرة الضيقة حظيرة الدواويـن ، ومن النطاق المحصور نطاق التعليـم ، لتتصل بالناس على اختـلاف طبقاتهم والتصور لهم من نواحي الحياة ما يريد الكاتب تصويره . وقد

كان هذا العمل وما يزال شاقا . فاية لغة يمكن أن تحقق هذه الغاية ويمكن أن تبقى مع ذلك على الزمان ؟ ليست هي اللغة الدارجة التي يتكلم الناس بها لأن لكل إقليم من الاقاليم لغة كلام تختلف عن لغة الاقليم الذي يجاوره ، وتكاد تنقطع الصلة بينها وبين الاقليم الذي يبعد بعض الشيء عنه . واختلاف لغات الاقاليم التي تتكلم العربية يجعل محالا وضع قواعد تنتظم هذه اللغات المختلفة . ولغات الاقاليم لم يدون لها أدب له من الاحترام ما يجعل بعثه موضع فخار ومجد . فلا بد اذن من أن تكون اللغة العربية الصحيحة لغة الكتابة ولغة الاتصال بالجمهور لكن هذا الجمهور لا يفهمك اذا خاطبته باللغة التي كان يتخاطب بها العرب الأولون . ولكن اللغة العربية هي كذلك لغة القرآن الكريم .. فكيف ترتفع بالجمهور الى حسن ادراك لغة القرآن ، وكيف تقرب اللغة العربية الى إدراك الجمهور ؟... من الاجابات المختلفة على هذين السؤالين نشأت ثورة الادب خلال السنوات الخمسين التي انقضت حتى يومنا الحاضر . وفي خلال هذه السنوات الخمسين اخرجت الثورة صوراً من الادب مختلفة في النثر والشعر يدرسها بعض المستشرقين اليوم ، وهي جديرة بالعناية والدرس من كل مشتغل بالادب معنى بتاريخ الكتابة العربية في العصر الاخير .

وكما ان الثورة العرابية لم تنته الى اليوم لأنها لم تحقق غاياتها ، كذلك لم تنته ثورة الادب بعد الى غاية . وكما ادت الثورة العرابية الى الاحتلال البريطاني لهذه البلاد احتلالا اتجه بالثورة السياسية الى ناحية جديدة ، وكذلك اتجه هذا الاحتلال بثورة الادب الى ناحية جديدة انتهت عندها الصورة الاولى من الثورة ، صورة لغة الكلام ولغةالكتابة ولم تبق بعدها محلا لبحث أو جدل ، ولم يبق قط قائل باتخاذ لهجات الكلام اساسا للادب، وحل محل ذلك ما سمي القديم والجديد في الادب واللغة . وقد احتدمت معركة القديم والحديث هذه منذ سنين طويلة وتنقل المحاربون فيها في ميادين مختلفة كانت هذه الميادين قبل الحرب تتناول أساليب الكتابة وتتناول الالفاظ العلمية وغير العلمية الجديدة كما كانت تمس في رفق صور الادب وما يصح أن تكون عليه . والى

يومئذ كانت الغلبة لانصار تقليد الادب القديم وكان السجع والاغراب في اختيار الالفاظ بعض ما يمتاز به كتاب العصر . وكان الادب الغربي يومئذ جديرا بأن يسمى الادب الكبير في النثر والشعر فقد كان الادب القصصي قد بلغ قمة مجده وكان كبار الشعراء قد اقاموا في لون العصر ما يقف الى جانب الالياذة والانيادة في الادب اليوناني ، والى جانب شعر فرجيل من ادب الرومان . وكان كثيرون من شبابنا الذين ذهبوا يتمون دراساتهم في اوربا يومئذ سواء منهم من اوفدتهم الجامعة ومن اوفدتهم الحكومة من بعدها ومن ذهبوا يتمون دراساتهم العالية قد فتنوا اكبر فتنة بهذا الادب الغربي الكبير . فلما آن لهم أن يعودوا وكانت الحرب الكبرى قد اعلنت او قد انتهت كان هذا الادب الغربي الكبير في أوربا قد آن له ان يستريح بسبب انصراف النفوس في الغرب عنه . ويرجع هذا الانصراف الى أن النفوس شعرت بعد الحرب بفراغ هائل فيها كما شعرت في نفس الوقت باستهتار بالحياة ادى بها الى التهالك عليها . وما تريد بالانسانية خارجة من افظع مجزرة شهدها التاريخ بعد ان ظلت خلالها أربع سنوات تباعا ترى الالوف ومئات الالوف والملايين يحصدهم الموت حصدا وهم في ريعان الفتوة وزهرة الشباب ! اية قيمة للحكمة في نظرها ولهذا القصد في الحياة ننهل منها على مهل اذا كنا نجهل كل الجهل ما سنصير اليه في غدنا ، وهل سنظل في فتوتنا وقوتنا نستمتع بالعيش ونعيمه او انا سنصبح لا شيء كما اصبح ملايين غيرنا ؟ اذن فعلى الحكمة وعلى العقل العفاء ولنترام بكلنا في احضان المسرات ننال منها في اقصر وقت اكبر حظ ما دمنا غير موقنين بأننا سناخذ حظنا منها كاملا اذا نحن تناولناه على مهل وبمقدار ما تطيقه قوانا الانسانية ... وكان من أثر هذه الحال النفسية على الادب ان اضطر كثير من الكتاب لارضائها وامتاعها بما تريد الاستمتاع به من شهوات صغيرة ولكنها مختلفة متفرقة لانها تقصد الى ارضاء شهوات النفس جميعها . وهذا النوع الصغير من الادب هو الذي تهافتت الجماهير عليه لا قدرا منها اياه ولا اعجابا منها به ، ولكن لانه يسد مطامعها ونهمها للمتاع كما تهافتت على غيره من بضاعة ربما كان فيها اضرار بها ولكنها تهافتت عليها لانها تسد حاجتها الى نسيان آلامها

وهمومها لتتمتع بسعادة مؤقتة زائفة ، ولكنها على كل حال سعادة ربما لم يتح لها ان تنـال غيرها قبل هذا الغد الذي يخبيء لها مـا لا تدري المرض او العاهة او الموت او البؤس الدائم .

عاد الشبان الذين اتموا دراساتهم في اوربا قبيل الحرب او اثناءها او في اعقابها ممتلئة صدورهم اعجابا بالادب الكبير الذي قرأوا والذي شهدوا على المسارح ، موجهة عقولهم توجيها جديدا على الطرائـق العلمية الحديثة . وعادوا فدخلوا الميدان بقوة ونشاط لم تر مصـر مثلها من زمن غير قليل الا من افراد قلائل موهوبين كان لهم أثرهم في توجيه التفكير المصري وفي مقدمتهم المرحومين الشيخ محمد عبده وقاسم امين كما كان بينهم بعض اساتذتنا ممن لا يزال اثرهم في هذه الناحية متصلا . وسبب قوة هؤلاء الذين عادوا الى الميدان ونشاطهم ان البعوث الى اوربا لاتمام الدراسات العليا كانت قد انقطعت زمناً غير قصير ولم تعد سيرتها الاولى في سنة ١٩٠٧ بفضل الجامعـة المصرية فضلا تأثرتها فيه وزارة المعارف في السنة التالية . اما قبل ذلك فقل من كان يسـافر الى اوربا للقيـام بدراسـات عليا متصلـة والشبان الذين كانوا يقصدون مختلف الجامعات في فرنسا وانكلترا كان اكثرهم ممن لم يلق نجاحا في مصر فلم يستطع متابعة دراساته في مدارسها . فلما عادت البعوث سيرتها واوفدت الجامعة من اوفدت واقتدت بها وزارة المعارف انتقلت العدوى الى بعض الافراد القادرين فذهبوا يتمون تعليمهم وعادوا بعد اتمامهم اياه فنقلوا ميدان القديـم والجديد في الادب ووجهوه وجهة اخرى غير لغة الكلام ولغة الكتابة مما كان البحث فيه قد فرغ ، وغير أساليب الكتابة بعد أن أسبغ عليها امتياز شخصيات بعض الكتاب طابعاً جديدا نقلها من مجرد المحاكاة الى بروز الذاتية هذا الميدان الجديد الذي انتقلت المعركة اليه هو صور الادب وما يجب أن تكون . لقد انقضى عصر المقامات والترسل في نظر هؤلاء المجددين فلا بد من صور جديدة هي صورُ الأدب القومي الكبير هي القصة والاقصوصة وهي الشعر الوجداني والشعر التمثيلي .

وقد اعان ثورة الادب هذه انها اقترنت بالثورة السياسية التي شبت في اثر الحرب الكبرى إذ بدأت في ٩ مارس سنة ١٩١٩ . الم يكن المصريون يطلبون في ثورتهم هذه الاعتراف باستقلالهم وسيادتهم ويطلبون حياة سياسية وصوراً من الحرية السياسية على مثال ما في الغرب سواء ؟! فلتكن مظاهر الفن والادب مصبوبة عندهم في قوالب غربية لتكون آية الناس جميعا على تقدمهم وعلى انهم يسابقون الغرب الى مختلف ميادين الحضارة وقد يسبقونه .

ولم تكن ثورة الادب هذه ليغيب عن الاذهان جلال خطرها ولا هي كانت اقل لفتاً لنظر الغربي من الحركات السياسية التي دمغها الطابع القومي والتي امتدت الى بلاد الشرق جميعاً . ومهما تكن الحوادث قد غمرت زعماء ثورة الادب في ميادين السياسة فان جهودهم ظلت تراقب ذلك بان الادب واتجاهه في اية امة من الامم هو العنوان الصحيح لحضارتها وهو القوة التي لا تستطيع قوة اخرى كبحها والقضاء عليها بالسهولة التي تقضي بها القوات المسلحة على الثورات السياسية وانما يقضي على ثورة الادب باندساس عوامل تفسد توجيهها . ويخيل الى ان مجهودا كبيرا قد انفق في هذا السبيل كما اتفق من قبل ذلك مجهود كبير للقضاء على حركة الاصلاح الديني التي بدأ المرحوم الشيخ محمد عبده والتي كانت جديرة بان تؤتي اعظم الثمرات ، ومهما يكن من أمر هذه الجهود فان ثورة التجديد في الادب قد ظفرت بالقديم وقد جرت الى ناحيتها حراس حصونه حتى كادوا يسلمون المجددين مفاتيحها . لكن ما انفق من الجهود التي هيأت الفوز فتح عيون اصحاب الجديد واسعة وجعلهم يتساءلون : ايان نذهب وماذا اليه من جديدنا نقصد ؟

وقد كان طبيعيا ان يقفوا هذه الوقفة وان يطرحوا هذا السؤال .. الحضارة الانسانية ثورة متصلة مظهرها الادب والفن . ونحن في مصر وفي الشرق كانت لنا حضارات مختلفة انطوت ثم اخضعتنا الظروف لحكم الحضارة الغربية . وقد قامت هذه الحضارة الغربية اول قيامها

على بعث فلسفة اليونان وتشريع الرومان واتجاه الادب الوجهة التي ترسمها هذه الفلسفة وهذا التشريع وما احاط بهما في عصورهما من صور الفن والادب . ثم جعلت اوربا تستقل بحضارتها رويدا رويدا لتقيمها على الاساس العلمي الذي وضعه ديكارت في القرن السابع عشر ، ثم جعل هذا الاساس يتطور من بعد ذلك الى دين الطبيعة والى فلسفة التجريد في القرن الثامن عشر ثم الى العلم الوضعي والفلسفة الواقعية والى دين الانسانية في القرن التاسع عشر ، وذلك كله من غير أن تنقطع الصلة بين هذه الحضارة وبين اليونان والرومان من ناحية ، ومن غير ان تنقطع الصلة بينها وبين المسيحية من ناحية اخرى . صحيح ان هذه الصلة كانت صلة محاربة وهدم في احيان كثيرة . لكن الحضارة الغربية لم تقطع ، ولا تستطيع أن تقطع ، صلتها بهذين العاملين اللذين انشآها . والادب الغربي المعبر عن هذه الحضارة لا يمكن ان ينسى هذه الصلة . وتستطيع أن تقرأ في الادب الانكليزي او الفرنسي أو الالماني او ايا ماشئت من آداب الامم الاوربية وانت ابدا واجد مظهر هذا الاتصال قويا واضحا . فماذا عسانا نحن نصنع والى أدب والى آية فلسفة في الماضي القريب والماضي البعيد يجب ان ننتسب اذا أردنا به أن يكون مظهرا لحضارة ما ؟ وقف المجددون هذه الوقفة وواجهتهم هذه المسالة فلم يتردد اكثرهم في الاجابة بأن ماضيهم هو الاب الطبيعي لحضارتهم ولادبهم . اما القلائل الذين قالوا بالاخذ بالحضارة الغربية في كل مظاهرها وصورها على نحو ما فعل الاتراك فلم يجدوا لاقوالهم الا صدى ضعيفاً زاده ضعفاً ما قدمنا من فتور النفس الغربية بعد الحرب عن الادب الكبير . من هنا بدأت الصلة بين انصار القديم وانصار الجديد فبدأ هؤلاء يقبلون على تراث السلف ينقبون فيه بالوسائل العلمية الحديثة ، وبدأ اولئك يقرون هذا ويعتبرون في ثمرات الجهود التي يبذلها انصار الحديث في بعث الادب الجاهلي وادب عصور الاسلام المختلفة بعثاً علمياً دقيق التحقيق خطوة موفقة في سبيل اعادة الحياة الى حضارتنا الدفينة .

ولكن !.. ما هي هذه الحضارة ؟! عربية ام اسلامية ؟! سؤال

وجه وكان المستشرقون اشد ما يكونون جذلا بتوجيهه حتى لقد رأينا أخيرا طلابا وطالبات غربيين يفدون الى مصر والى مختلف جهات الشرق العربي يحاولون فيما يقولون تحقيق هذه المسالة ، يتصلون بكل من يتوسمون فيهم انهم رجال الادب الحديث ، ويلتمسون اليهم ان يدلوهم على عقيدتهم العلمية في الامر . واشعر بأنني في حل من القول بأن هذه الطلعة الغربية متجهة الى مثل هذا البحث ربما شابتها غايات سياسية تبرر الاعتقاد بأن المسالة لم تثر للبحث العلمي وحده . وسواء صح اعتقادي هذا ام لم يصح ، وسواء أكان المقصود اثارة الخلاف بين المسلمين وغير المسلمين من الذين يتكلمون العربية . أو كان المقصود به أن لا نقرن الى الاسلام حضارة ما ، أو ان هذا ولا ذاك لم يكن المقصود وانما البحث التاريخي النزيه هو المقصود ، سواء أكان هذا او ذاك فانا نعتقد أن أية حضارة يجب لتقوم أن تتصل حتما بعنصر من الايمان . وقد خيل الى العلماء زمناً ما أن العلم سيغذي النفوس بهذا الايمان ليقيم دين الطبيعة على نحو ما حاول روسو أن يقيمه ، او دين الانسانية على ما وضعه اوجست كومت . لكن ما تم من محاولات في هذه السبيل لم ينجح في ان يقدم للجمهور الغربي ما يرضي طلعته الى رجاء او امل في الطمانينة والسعادة . ومن ثم انقلب هذا المجهود الى الناحية المادية والاقتصادية وجعل منها كل نجائه في الحياة فكان من ثمره ذلك ما تعاني الانسانية اليوم من شقوة وبؤس زادا في اغراء الجمهور بالتشبث بهذا الامن وهذا الرجاء . فالنفس بحاجة الى رخاء في غذائها الفكري والعاطفي حاجة الجسم الى شيء من النعيم في حياته المادية ولذلك اندفع فلاسفة الغرب وكتابه وأدباؤه يلتمسون هذا الغذاء النفسي في اديان الشرق وصور الايمان فيه . والادب كمظهر للحضارة لا غنى له عن تجلية جانب الايمان في النفس كما يجلو جانب العواطف المختلفة ، ولا غنى له عن أن يحلل هذا الجانب ويصف أثره في الحياة . وجانب الايمان في بلاد الشرق العربي قوي أيا كان الدين الذي يدين هؤلاء الشرقيون به . وقد كان الاسلام وما زال دين اهل الشرق العربي الا الاقلين منهم ، فلا يمكن أن يؤدي الادب رسالته اذا اهمل هذا الجانب القوي من جانب حياة الشرق العربي واذا لم يحاول ان يصل ماضي

هذا الشرق بمستقبله الصلة التي تستقيم والتفكير الحديث . وقد تناولت هذا المعنى في خاتمة هذا الكتاب عن الادب والحضارة .

لم اغل اذن حين استقر رأيي على أن اتخذ « ثورة الادب » عنوانا لهذا الكتاب . فالادب في ثورة متصلة بالفعل منذ النصف القرن الاخير ، ثورة توازي الثورة السياسية المتصلة هي الاخرى في مسيرها وتعاني من صور الركود واليقظة والتقدم والتراجع ما تعاني زميلتها . لكنني لا بد لي من التنويه بأن هذا الكتاب لا يصور جوانب تلك الثورة تصويرا كاملا . واحسب دقة تصويرها ما دام اتصالها غير ممكن . وهو بعد ليس من عمل رجل مثلي لم ينقطع له وانما الم به منه في اوقات فراغه وقد تكون الفصول التي اشتمل عليها هذا الكتاب بعض هذه الثورة في مختلف تطوراتها . ومن العسير على مشترك في عمل من الاعمال ان يقوم بتقدير آثار هذا العمل تقديراً دقيقا على نحو ما يفعل الشهيد المراقب .

وما دمت قد أشرت الى ما بين ثورة الادب وثورة سنة ١٨٨١ وثورة سنة ١٩١٩ من موازنة فلا مندوحة لي عن القول بأن عوامل السياسة التي حاولت صرف التيار السياسي في نواح معينة قد حاولت مثل هذه المحاولة في شأن الادب والكتابة . ولقد اشرت في هذا التقديم الى ما بذل لهذه الغاية من جهود عاقت سير الحركة الادبية وحاولت من غير نجاح كبير افساد اتجاهها . وليس موضع تفصيل هذه الجهود هاهنا . ويكفي ان أذكر ما كان من سعي متصل لجعل اللغة الدارجة لغة الكتابة وما كان من محاولة قطع كل نسب بين الحاضر والماضي ، ومن اظهار هذا الماضي في صورة زرية غير جديرة بالاعتداد بها او باستلهامها . وقد وصفت في الفصل الذي يلي هذا التقديم صورة ما يصيب الادب في عصور الطغيان . ولعل هذه الجهود كان يصحبها من التوفيق اكثر مما صحبها لو أن الحضارة الغربية بقي الايمان قويا كما كان ولو أن الادب الكبير عاون على بقاء هذه القوة . لكن ما اصاب الادب الغربي في اعقاب الحرب مما وصفنا مضافة اليه نهضة مصر والشرق نهضة

قوية جعل الجهود التي انفقت لا تؤاتي ما اريد منها من ثمرات وان جعلها تحول دون ثورة الادب والاستقرار الى ناحية تطمئن اليها .

واكبر اعتقادي ان هذه الثورة ستظل متصلة زمنا طويلا .. فنحن ما نزال من بعد في بدايتها . وحسن توجيهها بحاجة الى جهود شاقة جبارة والى جود الطبيعة بالموهوبين الذين يستطيعون أن يطيعوا الادب بصورة تدعو الى استقراره وهؤلاء الموهوبون . وأولئك الذين يقومون بالجهود الشاقة لما يوجد منهم في الشرق العربي كله الا عدد قليل وبناء صرح الادب على الصورة التي تدور في نفوسنا ونرجو أن تراها اعيننا بحاجة الى كثيرين من هؤلاء المجاهدين والموهوبين . والقوى التي تعمل لتحول دون نجاح هؤلاء وأولئك ضخمة جبارة هي الاخرى . فرجاء استقرار ثورة الادب في زمن قريب فيه من التفاؤل ما نرجو وان كنا نرتاب أشد الريبة فيه .

والآن اختم هذا التقديم واخلي بين القارىء وفصول الكتاب ولعله يجد من نفسه الصبر على تلاوتها من غير أن تمله او تدعوه الى التثاؤب ولعله اذا استطاع ان يتم قراءتها يرى اني لم اقم بمجهود عقيم حين فكرت في جمعها وتنسيقها ثم نفذت الفكرة واظهرت الملأ على « ثورة الادب » .

محمد حسين هيكل

المصدر : ثورة الادب المقدمة ص ٥ ــ ١٦ مطبعة السياسة . الطبعة الاولى ١٩٣٣

الابداع والاتباع

جميـل صليبـا

في سـوريا عـدد غير قليل من المتعلمين تلقوا مبـادىء الحضـارة الحديثة وتغذوا بلبان العلم وتهذبت نفوسهم بالادب وتوصلوا بعد الملاحظة والتجربة الى درجة من الثقافة والتفكير قد لا تقل عن مستوى المتعلمين من رجال البلاد الاخرى .

إلا ان ارتقاء الفكر وازدياد المعرفـة لا يقتضيان بالضرورة ارتقـاء في الادب والاخلاق لان حكم الحال كما يقول الغزالي غير حكم المنطق والمقال . فقد تنمو المدارك العلمية ويتسع الخيال والتفكير وتجهد مع ذلك العواطف وتجف الميول وتنضب ينابيع الرحمة المنسجمة من القلب فليس كل ارتقاء علمي مصحوباً بارتقاء ادبي ، وقد تعرف الشيء ولا تعمل به وتدرك الواقع ولا تفكر في اصلاحه لان العلم بما هو لا يقتضي العمل بما يجب ان يكون .

واكثر الذين ارتقت معارفهم واتسع افقهم الفكري لا يزالون في اضطراب نفسي وتشويش عملي لان المثل الاعلى الذي تصوروه اعلى من الواقع الذي غرقوا فيه ورغبوا في التخلص منه ولان الافق الذي ارتقوا اليه اوسع نطاقا من البيئة التي ضاقت باحلامهم .

بحثت مرة بين بعض الشبان من طلبة العلم عن الرجل الذي يرغبون في التشبه به وعن الصفة التي يريدون الانتساب اليها فحصلت على نتائج مختلفة تدل كلها على قلق النفس وفقدان الثقة وضعف الارادة ، فاكثـر هؤلاء التلاميذ يريدون ان يكونوا مثل غاندي او مصطفى كمال او سعد زغلول أو موسوليني أو نابليون . واحسن المهن في نظرهم « السياسة »

ـ كما يقولون ـ والصحافة والمحاماة والطب والهندسة . ولعلهم لم ينتخبوا هذه المهن الاخيرة الا حبا بالسياسة فكأن السياسة في أعينهم إله معبود او لعل خير دليل على قلقهم ترددهم في انتخاب المهنة وعدم ثقتهم بالمستقبل لأنهم لا يجدون فيه الا شبهات في شبهات وظلمات فوق ظلمات ! ففيهم من يريد ان يكون مثل نابليون ، الا ان المهنة التي ينتخبها هي الطب ، ومنهم من يريد ان يكون مثل مصطفى كمال ويريد ان يكون في الوقت نفسه شاعرا . فهناك تضاد بين الغاية والواسطة وتردد في الارادة وضعف في الايمان والثقة .

ولعل للتقليد والاتباع أعظم الاثر في تكوين هـذا القلق في نفوس الشبان لانهم يقلدون الحضارة الغربية تارة ويتبعون صور الحياة الماضية اخرى فيتشوش عليهم الانتخاب ويختلط الامر فتفقد افكارهم اتساقها وتصبح حياتهم العملية عرضة للاضطراب والتبدل السريع .

والتقليد يجعل الانسان شبيها بالآلة ، ينقل عن غيره أصول التفكير والعمل من غير أن يكون له فيها حرية الانتخاب . واذا سار المرء زمانا على طريقة الاتباع دون الابداع ونسج حياته بقواعد النقل لا بأحكام العقل اصابه ركود في الفكر وجمود في العواطف وصار كالآلة يتحرك بغيره لا بنفسه واذا صار شبيها بالآلة خسر صفقته وانحط الى أدنى درجات الحيوانية . واي حالة هي أشقى مـن حالة الركود الفكري والجمود النفسي . افلا يصبح الانسان فيها خاليا من الذكريات والافكار والرغائب ؟ كأن نفسه قد خلت من التصور وقلبه قد تجرد من العاطفة او كأن صور الطبيعة المختلفة قد انقلبت الى صورة واحدة ، فلا ابتسام على ثغر الزهر ولا نور في اشعة الشمس ولا أمل في احمرار الشفق ! كأن هذه الالوان قد تبدلت وانقلبت الى لون واحد غامض كما تتبدل الوان الاشياء اذا رسمتها اشعة الشمس . وكأن الفكر قد فقد نوره والعواطف قد أضاعت عذوبتها فانقلبت النفس من حالة الوحي الى حالة التقليد أو من الحرية الى التقيد وهي حالة ـ اعيذك منها ـ اشبه بالنوم لا بل اشبه بالموت ، لان سكونها كسكون المادة وحركتها كحركة

الآلة فلا تتخيل ولا تبدع ولا تحلل ولا تركب بل تقلد افعال غيرها كما تعيد ذرات الهواء حركات الذرات المجاورة فهي كالمادة خاضعة لقانون الأستمرار لا لقانون الابداع .

وحالة الاتباع هذه على عكس حالة الابداع ، لان النفس في الاختراع تكون مسرحا للذكريات والافكار ، فتجري الصور امام مرآة الشعور كما تجري مياه النهر ، وتتسق في تعاقبها كما تتسق النقرات الموسيقية. وتصدر المعاني العلمية والصور الفنية عن عوامل الحياة الكامنة وراء حجاب الشعور كما يفتح الزهر اكمامه بعد دبيب الحياة في الياف الشجر . يكون الانسان في هذه الحالة حديد البصر واسع الخيال ، يكشف في كل صورة من صور الوجود عن لون جديد ، ويرى في كل مادة حياة جديدة ، كأن لغته لغة الوحي والالهام لا لغة القياس والبرهان، لا يحتاج لسوى الحدس في الكشف عن الامور العلمية ، ولا يعرف غير الذوق في ادراك الامور البديعية ، يتوجه الى فضاء الفكر ويعلو في جو المعقولات ولا يحزن لتبدل الاشياء واختلافها ، فالمرئيات والمسموعات والمشمومات كلها ناطقة بما في نفسه ، والطبيعة لا تتحرك الا بما يتحرك به قلبه .

لقد وصف الفلاسفة هذه الحالة وقالوا انها حالة تتخمر فيها ميول النفس وراء حجاب الشعور فينبجس الاختراع على صورة وحي يسنده المخترع الى قوة مفارقة له مجردة عن ارادته . فالشاعر يعزو وحيه الى شياطينه والموسيقار الى الهته ، ويظن انه يكتب ما يمليه عليه غيره ، ويخيل اليه انه متبع في حين انه مخترع مبتدع . وهذا مخالف تماماً لحالة الاتباع لان المقلد قد يظن نفسه مبدعا للاحوال التي ينقلها عن غيره ، كالذي يجرفه السيل فيظن انه مخير في سيره ، وهو مسير لا مخير ، تقذفه الامواج ولا يخطر بباله ان يقف لمحة في وجهها .

على ان المخترع لا يخلو في ابداعه من اتباع المجاري القديمة التي حفرها قبله طائفة المخترعين لأن الهيئة الاجتماعية تؤثر في صور الابداع

كما يؤثر الاقليم في اشكال النبات والحيوان . وللاختراع البديعي اساس اجتماعي كما للاختراع العلمي . لان الشاعر والموسيقار والعالم والسياسي كلهم يستفيدون من الآثار التي حفظها الماضي في حوض الجماعة المشترك . وهذا ما يمكننا التعبير عنه بقولنا ان الاتباع ضروري للابداع .

ولقد قال هنري برغسون ان ابداع المادة غير ممكن وان الابداع لا يكون الا في الصورة(١) فيمكنك تخليق الاشياء كل يوم بصورة جديدة . ولكن ابداعك لا يعدو التركيب . فانت انما تركب صورة جديدة من عناصر قديمة ، ولا تتخيل شيئا الا على اساس صور المواد المحفوظة في نفسك . نعم انك قد تتخيل حصانا مجنحا ولا وجود للحصان المجنح في الطبيعة الا ان الحصان والاجنحة كلها موجودة على انفراد ولولا وجودها لما استطعت ان تتخيل صورة مؤلفة منها . فالانسان يبدع الصور الذهنية وقد يبدع المعاني والافكار ولكن هذا الابداع لا يخرج عن كونه مبنيا على التجربة . اننا بأحلامنا نضع المثل العليا في السماء ، ولكننا اذا رجعنا الى الحقيقة عرفنا ان هذه المثل العليا منسوجة بخيوط الواقع . اضف الى ذلك ان للابداع ، فنيا كان أو علميا ، انماطا معينة لا يمكن التوصل اليها الا اذا اطلع المخترع على القواعد والاصطلاحات القديمة . وهذه الاصطلاحات السابقة لا بد للانسان من اكتسابها حتى تصبح عادة أو طبيعة له ، فاذا تعودها وصارت حاضرة في ذهنه أمكنه بعد ذلك أن يضم بها شيئا جديدا الى حظيرة العلم والفن . فالمخترع لا يتقن ابداعه الا اذا استفاد من الماضي لان الاتباع ضروري للابداع كما ان العادة ضرورية للتفكير والحرية .

انظر الى الطريق الذي يسلكه العالم أو الشاعر او الروائي في ابداعهم ، انهم يتصورون بالحدس ، كما قال (هنري برغسون) (٢) ،

---

(١) هنري برغسون ، التطور المبدع Evolution créatrice ص ٢٢٣ – ٢٣٧ .

(٢) الجهد الذهني (Effort Intellectuel) مقال نشر في المجلة الفلسفية Rev. Philos سنة (١٩٠٢) .

معنى مجردا بسيطا وخيالا عاما مبهما يقلبونه بالتدريج الى شكل جسي وصورة متشخصة . فهم يدركون النهاية قبل البداية ، ثم يعودون الى المبدأ فيفكرون في الواسطة التي يمكن الانتقال بها شيئا فشيئا الى الغاية . وعند ذلك تصبح الغاية المجردة حقيقة متشخصة . فالكاتب الروائي يتصور قبل كل شيء مسألة من المسائل الاجتماعية او قضية من القضايا ، ثم يجمع الحوادث ويصور الواقعات ويصف الاشخاص وصفا يستطيع به تحقيق الغاية التي يتطلع اليها . فالواقعات التي تخيلها والحوادث التي جمعها مقتبسة من الحياة الاجتماعية ، ولولا وجود هذه العناصر لما حصل التركيب . ولله در ابن سينا حين قال ان واجب الوجود لا يهب الصورة للمادة الا عنـد استعداد المادة لها . فالابــداع يقتضي اذن تحليل المحســوسات المتشخصة الى عناصرها البسيطة ثم جمع هذه العناصر البسيطة ضمن مركبات جديدة ولذلك كان لا بد في الابداع من بقاء الآثار القديمة ضمن الصور الجديدة . وهذا ما يبعث على انتشار الاختراع وارتياح الناس اليه . والناس لا يرتاحون كما قال (ويليم جيمس) الا الى القديم ضمن الحديث ، ولذلك يقلقون امام الصور الجديدة التي لم يوآلفوها ويتألمون من الصور القديمة التي اصبحت بالية لا تتفق مع روح العصر .

والسوريون اليوم قلقون لانهم مترددون بين الماضي والمستقبل ، لا يعرفون أية صورة من صور الحياة يتبعون ولا الى اي قطب من هذين القطبين يتوجهون ، فالماضي يهزهم والحياة الجديدة تستفزهم ، الا ان الماضي المحسوس اثقل على كاهلهم من المستقبل المجرد . وهم أبوا أو ارادوا سائرون بحكم الضرورة في تيار المدنية الحديثة .

ولعل ابداع صورة صالحة لحياة الســوريين الجديدة لا يتم الا بتحليل هذا الماضي الى عناصره المقومة . نعم ان البناء في الامم التي ليس لها ماض أسهل منه في الامم القديمة ولكن هذه الاخيرة لا تستطيع التجرد من جميع عناصر حياتها السابقة . فالمهندس الذي يبني مدينة جديدة يخططها كما يريد ، ولكن المهندس الذي يصلح مدينة قديمة لا يستطيع

اصلاحها الا بالهدم والبناء معا . فهو يهدم البيوت القديمة ويستفيد من اوضاعها وانقاضها في بناء الشوارع الجديدة . يجمع الماضي الى المستقبل ويضع القديم في الحديث ، ولكن الصورة المجردة التي في نفسه هي أصل ابداعه . ولعله لم يهدم من البناء الا ما أوحى اليه به ابداعه . لان الفكرة كما قال ابن خلدون أول العمل .

ان اسباب القلق في نفوس الشبان ناشئة عن فقدان المثل الاعلى من نفوسهم وعدم وجود تفكير شخصي حر يتجردون به عن اتباع الآثار القديمة وتقليد الاوضاع الغربية تقليدا اعمى . ولو ابدعوا لانفسهم صورة جديدة لارتاحوا في الارتكاز عليها ... لولا الابداع لبقيت البشرية مظلمة كما كانت في العصر الحجري . فالابداع قد ملأ الحياة الاجتماعية بالصور الدينية والعلمية والفنية . وهي بالنسبة الى الحياة كالزهر بالنسبة الى الطبيعة . والتوازن المتحرك خير من التوازن الساكن ، لانه يدل على الحركة والتطور . ولعمري ، انني لأفضل الحركة مع القلق على السكون مع الراحة ، لان الحركة اقرب الى الحياة والحرية . والمرء في التوازن الساكن يعيش مقلدا على نمط واحد واذا تحرك كانت حركته ميكانيكية . ولكنه في التوازن المتحرك يجدد نفسه وافكاره في كل لمحة . وكما تقلب العادة الحرية الى تقيد والنفس الى مادة ، فكذلك يقلب التوازن الاجتماعي الساكن واجبات الانسان الحر الى فرائض اتباعية . فالابداع دليل على الحرية وهو بالنسبة الى العقل كالحرية بالنسبة الى الارادة واذا تكامل صار كما يقول ابن سينا في أعلى درجات التكوين ، الا ان الانسان بالرغم منه لا يستطيع التجرد من الماضي وكلما كان الماضي بعيدا كانت تقاليده ثقيلة .

جميل صليبا

المصدر : الثقافة ـ دمشق . العدد الاول ـ السنة الاولى . ٥ نيسان ١٩٣٢ .

التجديد في الدين

الاستاذ امين الخولي المدرس بكلية الاداب ١٨٩٥ — ١٩٦٦

مقال لمشروع القرش ، وحول مشروع القرش ، يحضر النفس ذكر الشباب ، والتضامن والاستقلال والحياة والقوة وتجديد مجد مصر .. ثم نحن الآن في رمضان : صوم وزهد وتدين ... فمن تداعى هذه المعاني يأتلف العنوان « التجديد في الدين ».

عنوان قد يطلع على البعض جريئا بل ربما كان مزعجا لكثير من المتدينين الذين يتعجلون الحكم على الاشياء قبل اختبارها ويبتدرونها بتلك الاحكام الغاضبة السريعة. فان يفعلوا ذلك قبل الفراغ من المقال فهذا هو الذي يفقد أحكامهم قوتها وحرمتها . وان يتريثوا حتى يقرؤا فسيرون أنهم كثيرا ما يثورون في وجه من لا يستحق منهم الا التقدير .

عنوان قد يكون نابيا قلقا عند غير المتدينين.. لانهم يرون في الشيوخ صورة المحافظة المسرفة ، بل يعتبرونهم حجر عثرة في سبيل التجدد على اختلاف الوانه . ويحملونهم تبعة الكثير مما اوقف الشرق واخره . ويرونهم جند الرجعية ومعقلها . ويصدر الكثيرون عليهم احكاما رهيبة . لكنها سرية قل من يجرؤ على مجاهرتهم بها. فاصحاب تلك الآراء والاحكام قد يعدون هذا العنوان دعابة مازحة ومفارقة فكهة . لكنهم ان يتعجلوا الحكم كذلك قبل ان يقرؤا فهذا بعض تطرفهم الذي يفقد جهادهم قوته ويعوق نجاحه . وان يطمئنوا حتى يقرؤا فسيرون ان كثيرا مما ثاروا فيه على الدين ليس من الدين في شيء وأن الدين غير المنتسبين الى الدين.

العنوان حقيقة صحيحة صريحة لا فكاهة فيه ولا مروق « ان شاء

الله » . ففي الدين فكرة واضحة عن التجديد تبين ناموسا كونيا وتنبه الى سنة اجتماعية مطردة لا تتبدل . اذ ورد في الحديث « ان الله يبعث على راس كل مائة سنة لهذه الامة من يجدد لها دينها » أو ما هذا معناه . وهو حديث صحيح نص على صحته متقدمون منهم البيهقي والحاكم ومتاخرون منهم ابن حجر والعراقي .. وراجت فكرة التجديد في الاسلام وعني العلماء ببيان مجددي كل مائة وتعيين اسمائهم ، واعمالهم والترجمة لهم .... ولا اريد هنا وفي هذه الالمامة الصحفية ، أن أعنى باستقصاء تاريخ فكرة « التجديد في الدين » بل اكتفي بان أشير في ذلك الى مجموعة تنتظم من خير التجديد والمجددين صورة كاملة من الهجرة الى اليوم ، وهي تتالف من منظومة للسيوطي في هذا الموضوع سماها « تحفة المهتدين في بيان اسماء المجددين » ومطلع هذه المنظومة :

لقد اتى في خبر مشتهر	رواه كل حافظ معتبر
بانه في راس كل مائة	يبعث ربنا لهذي الامة
منا علينا عالما يجدد	دين الهدى لانه مجتهد

وعلى هذه المنظومة شرح الشيخ محمد المراغي المالكي الجرجاوي الذي عاش في القرنين الثالث والرابع عشر الهجريين وسمى هذا الشرح « بغية المقتدين ، ومنحة المجدين ، على تحفة المهتدين .... الخ » . شرح فيه منظومة السيوطي ثم أكمل أسماء المجددين نظما الى عصره وشرح نظمه على طريقته شرحه نظم السيوطي(١) .

وفي بيان الدينيين لمعنى التجديد تراهم يقولون : انه نفع الامة ، ودفع المكاره عن الناس ، ونصرة الحق واهله ، واحياء ما اندرس من أحكام الشريعة ، وما هي من معالم السنن وما خفي من العلوم الدينية ويتحدثون عن تغير الحياة واستحداث أشياء تحتاج الى تناول جديد وحسبك من قولهم في معنى التجديد ماورد في المجموعة السابقة من

---

(١) ان هذه المجموعة مخطوطة في دار الكتب المصرية تحت رقم ١٩٨٧ تاريخ .

عبارة النظم والشـــرح ممتزجين وهي : « وانما كان مجــدداً لانــه أي المبعوث فينــا مجتهد وشأن المجتهد التجديد . . . »ولئن اكتفوا في الازمنة الاخيرة بالاجتهاد المقيد فبحسبهم ان ناطوا التجديد بالاجتهاد وفسروه به وابعدوه عن التقليد الذي هو آفة العقول وعلة الجمـــود. ونراهم حين يعدون أسماءالمجددين في كل طبقة قد يعددون المجددين ويخصون كل مجدد بفرع من فروع العلم أو العمل . فيوسعون الدائرة توسعة محمودة .

تلك فكرتهم في تجديد الدين : وانها لفكرة في التجديد متزنة رزينة مقدرة لنظـام الحيـاة وتدرجهـا معادية للجمود وقاضية عليه قاتلة لاهله . .... واذا كان الدين وهو وحي الهي والاسلام وهـو رسالة لا رسالة بعدها هو الذي يقرر لاهله أن نظام الحياة العاملة يحوجه الى التجدد ويهيىء الله له على الزمن من ينفي عنه مظاهر الجمود ، وعوامل الوقوف ؟ اذا كان هـذا حال الدين ، وذلك شأن الاسلام ، فمرافق الحياة ، وظواهر المعيشة التي لا ثبات لها ولا استقرار ، والتي هي وليدة الظروف وصنعتها ، أشد حاجة الى التجدد والتغير .... واذا كانت البعثة الدينية التجديدية منة على المتدينين ، وفضلا من الله ونعمة ، فالمنتسبون الى الدين حين يقاتلون المبعوثين لهذا التجديد ، ويجمدون على ما وجدوا عليه آباءهم ، انما ينكرون نعمة الله ، ويصدون عن سبيله ويبغونها عوجا ــ وما هم ببالغيه ــ وهم ، وبين أيديهم ذلك الاثر ، وعليهم ذلك الواجب لا يأثمون بجمودهم اثما واحدا ! بل آثاما كثيرة : اثم لانهم لا يتجددون واثم لانهم لا يجددون واثم لانهم يعوقون المتجددين في تعنت أصم لا يميز الخبيث من الطيب مهما تباينا ولا يعرف داعي الله من داعي الشيطان .

مصر والتجديـد في الديـن

وما ننسى ان الكلمة لمشروع القرش وحول مشروع القرش فلنعد الى مصر المتجددة بجهاد شبانها مصر ذات الحيوية الفياضة وصاحبة

الشخصية الخالدة والتي أسدت الى الانسانية والحضارة اطهر الأيادي واشرفها على تطاول السنين وتمادي الايام . نعود لنقول ان مصر كعادتها في ذلك قد اضطلعت من تجديد الدين بالحظ الاوفر وساهمت فيه بالنصيب الاكبر على سعة الامبراطورية الاسلامية وترامي ارجائها وانتظامها الواسع الافيح اقطار الدنيا القديمة . فانت حين تعرض اسماء اولئك المبعوثين المجددين على رؤوس المئات خلال الثلاثة عشر قرنا من تاريخ الهجرة تراهم يعدون هكذا :

في المائة الاولى عمر بن عبد العزيز
« « الثانية الشافعي
« « الثالثة ابن سريج العراقي او ابو الحسن الاشعري
« « الرابعة الباقلاني أو الاسفراييني
« « الخامسة الغزالي
« « السادسة الفخر الرازي
« « السابعة ابن دقيق العيد الشافعي
« « الثامنة البلقيني او غيره
« « التاسعة السيوطي
« « العاشرة الرملي او غيره
« « الحادية عشرة عبد الله بن سالم البصري
« « الثانية عشرة الدردير
« « الثالثة عشرة احمد الشرقاوي
« « الرابعة عشرة .... ؟

وتجيل نظرك في هذه الجريدة من الاسماء فترى ــ كما لاحظ القدماء انفسهم ــ ان الكثرة المطلقة من هؤلاء المجددين مصرية رجال انجبتهم وآوتهم وعلمتهم مصر ذات الفضل العتيد على المدنية منذ

عرفها بنو آدم ، فبين هؤلاء الثلاثة عشر مجددا ثمانية من المصريين هم : عمر بن العزيز وليد مصر الناشىء بها والشافعي الذي حمته وفيها علم وابن دقيق العيد القشيري المنفلوطي ، والبلقيني المنسوب الى بلقينة قرب المحلة والسيوطي والرملي المنسوب الى رملة قرب منية العطار تجاه مسجد الخضر والدردير العدوي والشرقاوي المجرجاوي ... وان شئت عددت لمصر منهم تسعة فمصر في القرن الرابع عشر الهجري هي قلب الشرق الخافق وعقله المفكر وقد تصدرت في شجاعة ونبل لحمل اعباء تلك القيادة منذ بدأ ذلك الشرق يمسح عن عيونه آثار النوم ويتهيأ ليقظة نشطة باهرة تمدها عزمة قاهرة تكتب له النجاة وترد له حقه في الحياة ..... ولا اريد اليوم أن أسمي مجدد هذه المائة او مجدديها من المصريين حتى لا احابي احدا ، ولا القن رأيا وانما اترك الكلمة في ذلك لشبان الشرق وشبان مصر .

يا شبان الشرق — ها انتم اولاء تطالعكم قوى التجديد من حيث تخشون عناصر الجمود ؛ وها هو ذا الاسلام الدين الحي يدفعكم دفعا الى مسايرة نواميس الكون ؛ ومجاراة نظم الجماعات الانسانية ؛ وهذا تاريخكم المجيد يغذي حاضركم الحديث فلا عذر اليوم لكم اذا لم تثبت تلك العزمات لتسمع الدهر صوتا طالما اصغى اليه ازمانا واحدا له فسار ؛ ومضى حيث صرفه واحتكم فيه .

يا شباب مصر : هاكم ماضينا مجيدا في الصدارة والزعامة ، لم يدع ميدانا الا حله وها هي ذي مصركم معلمة الدنيا قد انهت اليكم لواء هذه الزعامة وقد بايعها الشرق وعرف مكانتها وعاندها الغرب وجحد حقها . والحياة العاملة اليوم انما يكتب للامة الصناع والشعب الدؤوب فلا بد ان تتصدر مصركم ما تصدرت من سائر الميادين قديما وسيبني ثبات شبانها بمشروعهم العملي صروحا سامقة من القوة المادية تشهد أن الذين عرف اسلافهم كيف يحمون الفلسفة ويمنعون العلم ويذودون عن الاديان يعرفون هم جيدا كيف يؤصلون الصناعة على اساس أبقى على الدهر من الدهر .

● امين الخولي

المصدر : الرسالة ، العدد الثاني ، اول فبراير ١٩٣٣ .

من رسالة الى صديق

حـول التجـديـد

احمد حسن الزيات ١٨٨٥ — ١٩٦٨

... الجديد جديد في مظهره ، قديم في جوهره ، لا يصلح موضعا للدرس ولا موضوعا لحديث .

ستقول : اذن ما بال هذه القصائد الرائعة التي يجلوها الشعراء والمقالات الرائقة التي يدبجها الكتاب ؟ فاقول لك انك اذن تفهم من كلمتي القديم والجديد غير ما افهم ، وتريد من مدلولهما غير الذي اريد . كانك تريد بهما ما كان يريده الأقدمون حين كانوا يتمارون في شعر امرىء القيس وجرير وابى نواس وابى تمام والبحتري والمتنبي وابن هانىء . والأقدمون كما تعلم إنما كانوا يختلفون في شكل الشعر لا في موضوعه ، فهم يتكلمون في اللفظ الجزل والركيك . والاسلوب الرصين والمهلهل . والمعنى المسروق والمطروق ، والتشبيه المنتزع من وجوه البادية أو من صور الحضر ، والمطلع الجيد والرديء ، والتخلص الحسن والقبيح ، ويجرون في كل ذلك على اذواق تختلف باختلاف الطبقات والبيئات والصناعات والأجناس . وعذرهم في ذلك واضح . فالشعراء لاسباب فطرية واجتماعية ، لم يقدموا اليهم الا نوعا واحدا من الشعر هو ما يتعلق بالوجدان والعاطفة . فكان النقاد أمام وحدة الشعر العربي ونقصه ، مسوقين الى ان يقصروا جهودهم على لفظه : يحكون معدنه ، ويعجمون عوده ، ويسبرون غوره بالموازنة والمقارنة والتعقب . والشكل الخارجي حكمه حكم اللباس والأثاث والآنية : يتغير بتغير الزمان والمكان والحالة ، ليس لاحد في ذلك حيلة .

فهل ترى أن أبا نواس مجدد بالاضافة الى امرىء القيس ، لأنـه بدأ قصيدة بوصفه الخمر ،وتكلم في الغلمان والطرد ؟ او ان المتنبي مجدد بالاضافة الى ابي نواس ، لانه داف شيئا من فلسفة اليونان في شعره ؟ او ان مطراننا مجدد بالاضافة الى المتنبي ، لانه ذكر القطـار والكهرباء ، ولون أدبه بأدب الغرب ؟ اني لا ارى في مثل هذا التفاوت الظاهري تجديداً ، ما دام الشعر قد ظل في كل هذه العصور واحداً في موضوعه وطريقه ونوعه ووزنه .. اما تغير الشكل فذلك فعل القانون العام الذي يغير أبدا كل شيء .

وهل قصد احد من هؤلاء وأولئك الى هذا التجديد المزعوم فجاهد في سبيله اهل جيله ، كما فعل ارباب المذهب الاتباعي (Classique) والابتداعي (Romantique) والواقعي (Realisme) في فرنسا مثلا ؟؟ لم يكن شيء من ذلك ، لانهم لم يختلفـوا كما اختلف الفرنج في الموضوع والينبوع حتى تتباين الاغراض من تلك المواضيع ، وتتشعب المسالك الى هذه الينابيع . وهل سمعت أن الناس اختلفوا يوم تركوا العلبة الى الكوز والكوب والقدح والجام ؟ أم علمت انهم اختصموا كلما تغيرت موادها من الجلد الى الخشب ، ثم الى الخزف ، ثم الى الزجاج ، ثم الى المعدن ؟ كلا ! لم يسمع احد بذلك ، لأن اللبن والماء وهما القصد والغاية لم يتغيرا منذ خلقهما الله . اما حين تغير الشراب من اللبن الى الخمر فقد حدث الخلاف وتشعب الرأي وتعددت المذاهب .

الحق أن التجديد لا يحدث ، والجديد لا يكون ، الا متى وجـد القصص والتمثيل في الشـعر فيكمل ، ودخلت الاقصوصة والقصـة والرواية في النثر فيتم . اما ادعاء التجديد بالدعوة الى العامية وترجمة الأساليب الغربية فعجز يتظاهر بالقدرة ، وجهل يتستر بالتحذلق !

أ . الزيات

المصدر : الرسالة ، العدد السادس ، اول ابريل ١٩٣٣ .

التجديد في الأدب

احمد امين ١٨٧٨ – ١٩٥٤

– ١ –

موضوع ثار فيه الجدل بين الكتاب ، واحتدم فيه الخلاف بين الباحثين . هل ادبنا العربي يحتاج الى تجديد ؟ وهل سواء في ذلك شعره ونثره ؟ وتعصب قوم للقديم يذودون عنه ويحافظون عليه ، ولا يسمحون بأي تغيير فيه . وهب المحدثون ينعون على المحافظين جمودهم ، ينذرونهم بسوء العاقبة إن هم ظلوا متمسكين بالقديم معرضين عن الجديد .

ولكن اسوأ ما يسوءني في هذا الموضوع وامثاله الغموض والابهام ؛ فاذا سألت المجددين ماذا يريدون بالتجديد وما ضروبه وما مناحيه وماذا يقترحون أن يدخلوه على الأدب العربي جمجموا في القول وأتوا بكلمات غير محدودة المعنى ، ولا واضحة الدلالة . وقد يجوز اذا حددوا اغراضهم وأبانوا عن مقاصدهم ، أن يوافقهم المحافظون أو أكثرهم ، ولا يكون ثمة خلاف ، وان يكن فخلاف معروف تقام عليه حجج واضحة .

من اجل هذا كله احاول أن اعرض لوجوه التجديد التي يخيل الي انهم يريدونها ، وادلي برأيي فيها ، وادعو الكتاب أن يساهموا فيها بآرائهم ، ويستدركوا ما يفوتني من حججهم واغراضهم .

في أدب كل لغة عناصر ثابتة لا يعتريها تغير ولا ينالها تجدد ، هي

قدر مشترك من الاسلوب والتراكيب وتأليف الجمل ؛ به تمتاز اللغة من سائر لغات العالم ، وينفرد أدب الأمة عن آداب العالم — وقدر مشترك من الفن ، نتبين به الجيد من الأدب في كل عصر وكل جيل ، هو فوق البيئة وفوق العوامل السياسية والاجتماعية ، وفوق ما يطرأ عليها من كل تغيير .

وهذا وذاك هما اللذان يجعلاننا نتذوق الأدب الجاهلي ، وندرك ما فيه من جمال ، ونشعر بما فيه من نقص . ويستطيع الأديب منا أن يعرف خير ما قال امرؤ القيس ، وما قال طرفة ، وما قال زهير ؛ وهو الذي يجعلنا نتذوق ما في القرآن الكريم من جمال في الاسلوب والمعنى . وندرك ما في العصر العباسي الى عصرنا هذا من نثر وشعر ، ونزنه ونقومه . ونحكم على بعضه بالحسن والجمال والقوة ، وعلى بعضه بالضعف والقبح والغموض . ولولا هذا القدر المشترك لانقطعت الصلة بيننا وبين القديم فلا نحس له جمالا ، ولا نتذوق له طعماً .

وهذا النوع من العناصر لا يقبل تجديدا ولا تغييرا ، اذ بتغييره تضيع اللغة وتفقد مشخصاتها ، فلو قلبنا تركيب الجمل رأساً على عقب ، او لم نراع الوضع الذي تسير على نهجه اللغة ، لكان لنا من ذلك لغة جديدة ، ليس بينها وبين الأولى نسب .

وهنالك نوع آخر من العناصر في اللغة والأدب ، خاضع للتغير ، قابل للتشكل ، يتأثر بالبيئة وبدرجة الحضارة ، وبالاساليب السياسية ، وبالحياة الاجتماعية ، وبغير ذلك .

وفي هذا النوع يكون التغيير والتجديد . ومن أجل هذا التغيير كانت الفروق واضحة بين الشعر العباسي والشعر الجاهلي ، في التعبير والتشبيه والاسلوب والموضوع ونحو ذلك ومن اجل هذا امكن الاديب اذا عرض عليه نوع من الأدب ، ان يعرف عصره ولو لم يعرف قائله ، لانه يستطيع ان يتبين خصائص كل عصر ومميزاته ، ويطبق

ذلك على ما يعرض عليه من شعر او نثر . ومن اجل هذا ايضا نرى الفرق واضحا بين لغة الادباء الآن وبين لغتهم منذ عشرين عاما . وتجد الفرق واضحا بين لغة الجرائد المصرية اليوم ، وبين لغة الجرائد السورية والعراقية ، وان كانت كلها تصدر باللغة العربية ، وتشترك في العناصر الاساسية .

وهذا التغيير او التجديد في الادب وتاثره بما حوله خضع له الادب العربي وكل أدب على الرغم من المحافظين والجامدين ، فقدو رأينا في العصر العباسي مدرسة وعلى رأسها الاصمعي لا تحب الا الشعر الجاهلي ولا تحب من المحدثين الا من قلد القدماء . ورأينا من كان ينشد الشعر فيستحسنه ، فاذا قيل له انه محدث استهجنه واتهم ذوقه ، ولكن هذه المدرسة اخضعها الزمن لحكمه ، ونشا ادب عباسي جديد ، احتفظ بالعناصر الاساسية للادب العربي ولم يابه لما عداها وكان الفرق كبيرا بين الادبين كما قال الجاحظ : كم من الفرق بين قول امرىء القيس :
تقول وقد مال الغبيط بنا معا

وقول علي بن الجهم :

فبتنا جميعا لو تراق زجاجة

من الماء فيما بيننا لم تسرّبِ

وجاء المتنبي وعلى اثره المعري فجددا في الشعر من ناحية الاسلوب ومن ناحية المعاني ، فانكر عليهما ادباء عصرهما نزعتهما الجديدة ، حتى رأينا من بين العلماء من ابوا أن يعدوهما في الشعراء . ثم حكم الزمن على هؤلاء العلماء ووضع المتنبي والمعري في مكانهما اللائق بهما .

وكان هذا هو الشان في كل عصر ، حتى عصرنا الحديث ، نشا قوم تاثروا بالأدب العربي القديم وحذوا حذوه ، ولم يخرجوا قيد شعرة عنه . فلو ركبوا الطائرة قالو ركبنا الهودج والبعير ، واذا

استهلكت البنزين قالوا رعت السعدان(١) ، وسموا الجنيهات الانكليزية وعملة الورق دراهم ودنانير ، واذا لم يكن لهم من الامر شيء قالوا لا ناقة لنا ولا جمل ، وهم في الحقيقة لا ناقة لهم ولا جمل ، الى كثير من امثال ذلك .

وتأدب قوم بالادب الغربي الى ثقافتهم العربية ، فثاروا على كل ذلك واختلفوا بينهم في مقدار هذه الثورة ، فقوم يريدون ان يتحرروا من الاوزان والتزام القوافي ، وآخرون يريدون ان يتحرروا من التشبيهات البالية والمجاز العتيق ، وآخرون يعافون بعض الاساليب القديمة ، والموضوعات التي جرى عليها السابقون . وكان صراع بين الطائفتين نعرض له بعد .

على كل حال دلتنا احداث الزمان على ان عوامل البيئة في التغيير والتجديد ولا يمكن ان تقاوم ، كما دلتنا على أن ليس كل تجديد يصادفه التوفيق ويتسع له صدر الزمن ، وفي نجاح من نجح من دعاة التجديد وفشل من فشل منهم انما كان خاضعا للقوانين طبيعية ظاهرة حينا وخافية احيانا ، وان نوع التجديد ان كان صالحا وكان مما تسمح به القوانين الطبيعية للادب فمعارضة المعارضين لا يكون لها من أثر الا أن تؤخر زمن الاصلاح ، وهو واقع لا محالة يوما ما ، واذا لم تسمح بها هذه القوانين كانت دعوة التجديد صيحة في فضاء ، او في خطأ في ماء .

وبعد فاي انواع التجديد يتطلبه المجددون ؟ وهل من خير الادب العربي قبوله او رفضه ؟

ان اول انواع التجديد وابسطها تجديد الالفاظ ، لانها مادة الاديب الاولية ، وخيوطه التي ينسج منها قطعته الفنية .

وتجديد الالفاظ على ضربين :

---

(١) السعدان نبت من افضل مراعي الابل ، وفي المثل : (مرعى ولا كالسعدان) .

(١) اختيار الالفاظ التي تناسب العصر ويرضاها ذوق الجيل الحاضر لان لكل امة في كل عصر ذوقا خاصا بها تختار الفاظا تناسبها وتأنس بها ، وتمج الفاظا لا يستحسنها ولا تستسيغها ، وذوق الامة في حياة مستمرة ، فهو كذلك في عمل مستمر ازاء الالفاظ ، وادباء كل عصر لهم معجم يخالف معاجم اللغة القديمة ، فلو ان اديبا استعمل اليوم كلمة « هَبَيّخ » للجارية الحسناء لكفت في اسقاط قصيدته او مقالته . ولو استعمل كلمة بُعاق للمطر او السيل لدل على فساد ذوقه ، وسوء ادبه ؛ ومن اجل ذلك لا يستحسن في هذا العصر بعض ما كان يستحسن في عصور سابقة . فقد كان يستحسن من ابي الطيب قوله :

وترى الفضيلة لا ترد فضيلة الشمس تشرق والسحاب كنهورا

والكن كنهورا ثقيلة في اللفظ كريهة على السمع ، وهذا بديهي لا يحتاج الى اطالة — وكل من جهل هذه الحقيقة لا يفلح أن يكون اديباً ، لقد اراد الاستاذان الشنقيطي وحمزة فتح الله ان يحييا غريب الالفاظ ويستعملاه في قولهم وكتابتهم ففشلا كل الفشل ، وكان الناس يستظرفون ذلك منهما كما نستظرف فتاة حضرية لبست ثياب بدوية وفهموا ان ذلك ليس جدا من القول ، وليس طبيعيا ان تعيش بداوة القرن السابع في حضارة القرن العشرين . انما يحيا الاديب يوم يوفق لاختيار الالفاظ الرشيقة التي تتناسب ذوق عصره ، والعصر الان اميل الى السرعة والاقتصاد ، وكلاهما يتطلب الوضوح والجلاء لا الغموض والغرابة .

لذلك اصبحت في معاجم لغتنا الفاظ كثيرة ليس لها قيمة إلا انها اثرية تحفظ فيها كما تحفظ التحف في دار الآثار .

والضرب الثاني : الفاظ تخلق خلقا .. تلك الالفاظ التي تساير المدنية الحديثة بكل ما اخترعت من أدوات وصناعات ، وما ابتكرت من فن وعلم ومعاني وآراء ، واللغة العربية اليوم ، قاصرة كل القصور في هذا الباب ، فليس لدينا الفاظ لكثير مما اخترع وابتكر ، وهذه مشكلة المشاكل اليوم وقبل اليوم تجادل العالم العربي فيها طويلا ولما يستقر على حال .

وكان لقصور الالفاظ أثـر كبير في ضعف الادب . فكيف يستطيع الاديب ان يصف حجرة وكل ما فيها من اثاث ليس له ألفاظ تدل عليه ؟ وكيف يستطيع الكاتب أن يؤلف رواية ، وهو في كل خطوة يعثر بمسميات لا أسماء لها ؟ ولذلك يهرب كثير من الادباء من التعبير الخاص الى التعبير العام ، فاذا أراد ان يصف رجلا يلبس طربوشا قال إنه يلبس عمارة أو قلنسوة ، والحقيقة انه لا يلبس عمارة ولا قلنسوة ، وإنما يلبس طربوشا ، واذا اراد أن يقول إنه يضرب على البيانو قال إنه عزف على آلة موسيقية ، وهذا منتهى الفقر في التعبير .

كل هذا حقن الافكار في أدمغة الادباء ، وسبب ضعف الوصف والرواية وغيرهما في الادب العربي الحديث ، وجعل الادباء يفرون الى الموضوعات الانسانية العامة ، والافكار الميتافيزيقية ، فان نحن شئنا ان يكون الادب ظلا لحياتنا ، وحياتنا « الآن » وجب أن نحل مشكلة الالفاظ حتى يطلق الادباء من اغلالهم ، وإلا ظلوا يدورون حول انفسهم ، وظل أدبهم غـذاء ناقصا للامة ليس فيه كل العناصر التي لا بد منها للحياة .

وهنالك تجديد في مناحي أخرى غير الالفاظ نعرض لها في مقالات تالية إن شـاء الله ؟ (*)



- ٢ -

عرضت في مقالي السابق للبحث في الالفاظ وما تتطلب من جدة ؛ واليوم أعرض لضرب آخر من ضروب التجديد وهو التجديد في العبارة . وأعني بالعبارة الجملة التي يؤدى بها المعنى على اختلاف الوانها ، من حقيقية ومجاز وتشبيه واستعارة وكناية .

(*) المصدر : الرسالة العدد السادس • أول ابريل ١٩٣٣ . السنة الاولى .

ومما لا شك فيه أن البليغ يستمد تشبيهاته واستعاراته وما الى ذلك مما يحيط به من بيئة طبيعية واجتماعية . فالادب الجاهلي ــ مثلا ــ صورة صادقة لمعيشة العربي في الجاهلية ؛ اذا بكى ، فانما يبكي الاطلال والمنزل الدائر والرسم العافى . واذا رحل ، فعلى ناقة أو بعير . واذا أعجبه نبت ، فالشيخ والقيصوم ، والخزامى والعرار . واذا ذكر النسيم ، فصبا نجد . واذا حن الى مكان ، فموطنه من الرقمتين ورضوى وثبير .
كذلك كان في تشبيهاته واستعاراته وأمثاله : يستوحى ما يحيط به ، ويستلهم ما يقع حسه عليه . فقال : استنوق الجمل ، وهو اعز من الابلق العقوق ، وأبدت الرغوة عن الصريح ، وهم أكثر من الحصى ، وهو ليث غابة ، وما تحل حبوته ، وألقى حبله على غاربه ، وقصرت الاعنة ، واشتجرت الاسنة ، وزلزت الاقدام من رنين القسي ، وقزاع الرماح ، وطحنهم طحن الرحى ، ومطله مطل نعاس الكلب ، وكالباحث عن حتفه بظلفه ، وحط راحلته ، وضرب أوتاده ، وألقى عصاه ، والقافلة تسير والكلاب تنبح . الى كثير من أمثال ذلك ــ فهم في كل هذا يصفون حياتهم ، ويشتقون منها تشبيهاتهم ، ويضربون منها أمثالهم .

وتتابع ادباء العرب بعد يزيدون في التعبير ، تبعا لتغير المعيشة الاجتماعية ، وتقدمهم في الحضارة . فقالوا : صندل الشراب وعنبره ــ وكان اخلاقه سبكت من الذهب المصفى ــ ويكاد يميل الظرف من اعطافه ، ويمازج الارواح لرقته ــ قد دس له الغدر في الملق ــ وهو من صيارفة الكلام ، ويتطفل على موائد الكتاب ــ وكأن الفاظه قطع الرياض ، وكأن معانيه نسيم الآصال . وهكذا كانت العبارات المحدثة في العصر العباسي تخالف من وجوه كثيرة العبارات الجاهلية والاموية .

وقد جارى المؤلفون الادباء : يدونون ما اخترعوا ، ويقيدون ما ابدعوا . فرأينا عبد الرحمن الهمذاني يجمع في كتابه (الالفاظ الكتابية) العبارات المختارة من جاهلية واسلامية ورأينا الحصري يملأ كتابه (زهر الآداب) بفصول يعنونها « الفاظ لأهل العصر » يجمع تحتها ما اخترعه أهل عصره من تعبير رقيق وتشبيه انيق . ونهج المؤلفون بعد هذا المسلك حتى

كان خاتمتهم ابراهيم اليازجي في كتابه « نجعة الرائد وشرعة الوارد » جمع فيه احسن العبارات والالفاظ مما قال السابقون والمحدثون في عصره .

وبعد ، فلو قارنا بين الادب العربي الحديث ، والادب الغربي في هذا الباب ، اعني باب العبارة ، وجدنا في ادبنا العربي قصورا ظاهرا وضعفا بينا .

ذلك ان الادب الغربي ساير الزمن ، واعترف بكل ماحدث فيه واستمد منه ، على حين أن الادب العربي الحديث أغمض عينه عن كل ما كان ، ولم يعترف بوجوده . نظر الادب الغربي الى ماضيه وحاضره ومستقبله ، ولم ينظر الادب العربي الا الى ماضيه . وزع الادب الغربي لفتاته لينظر نظرة شاملة وثبت الادب العربي عينيه فيما وراءه ، فلم ينظر الا الى قديمه ، فكان ناقصا ، لا يسايرنا ولا يصفنا ولا يمس حياتنا وانما يمس حياة آبائنا .

اعترف الادب الغربي بالادب القديم فاخذ منه خيره ، واعترف بالدنيا الحديثة فاستمد تشبيهاته واستعاراته منها ـ رأى في دنياه مخترعات ومستكشفات لا حد لها من كهرباء ومواد كيميائية وطيارات وغواصات وغازات واضواء وراديو ومالا يحصى كثرة . كل هذه الاشياء قلبت الحياة الاجتماعية رأسا على عقب . فلماذا لا تقلب الادب ؟ فاقبل الاديب عليها يتعرفها ويستلهمها تشبيهات واستعارات عصرية طريفة ، فكان له منها ما اراد .

ورأى الاديب علم النفس ينمو ويرقى ويحلل اعمال الانسان تحليلا علميا دقيقا ، ويعرض لكل المظاهر اليومية من ابتسامة وعبوس ورضى وغضب ، فاخذ بحظ وافر منه واستعان به في ادبه وتعبيراته حتى استطاع أحد الكتاب الفرنسيين (وهو مارسل بروست (Marcel Proust) أن يحلل ابتسامة سيدة في ست صفحات ، ورأى نظمها في الحكم تقوم

واخرى تسقط وكان لها من الاثر في حياة الناس وعقليتهم ما يخيل اليك معها انهم اصبحوا بها خلقا آخر ، فجعل يتتبع هذه التغيرات ويقتبس منها ما شاء ذوقه الادبي .

كل هذا وامثاله جعل الادب الغربي يسير محاذيا لكل نظم الحياة ويشاركها في رقيها واتجاهها ، ان استضاء الناس بمصباح كهربائي فالادب يعبر عنه ويستعير منه ويشبه به ، وان كان نظام الحكم ديمقراطيا فالادب ديمقراطي ، والصور التي يصورها ديمقراطية ، ويتعمق السيكولوجي في بحثه فيتعمق الروائي في تحليل شخصيات روايته ، وهكذا كانت الاختراعات والصناعات والعلوم ونظم الحكم والسياسة والادب تسير معا ، لا يخطو عنصر منها خطوة الى الامام حتى يدرك الآخر سر تقدمه فيعمل على ان يحتذيه . اما الادب العربي فيحارب متراليوزا بقوس وسهم ، ويضيء في ادبه سراجا بزيت ، والناس اليوم قادمون على ان يغيروا المصباح الكهربائي بخير منه ، ويبكي الاطلال ولا أطلال ، ويحن الى سلع ويستطيب الخزامى والعرار ولا خزامى لدينا ولا عرار . من الحق أن نحب القديم الجميل ونحفظه ونتعلم منه ونعجب بما فيه من مظهر عاطفة حية وشعور قوي ، ولكن لا ننشئه . واذا قلناه وجب أن نقول معه ما نحياه ونعيش فيه :

اذا انت لم تحم القديم بحادث من المجد لم ينفعك ما كان من قبل

وقفت العبارة العربية حيث كانت في العصر العباسي ، ولم تتقدم الا قليلا بما اقتبس من الادب الغربي ، والذي نتطلبه من التجديد فيها ان نستمد من حياتنا الواقعية ، ومن كل ما يحيط بنا جملا حية تلائم ما في نفوسنا ، وان نخترع عبارات من المجازات والاستعارات والتشبيهات والكنايات نستمدها من الحياة التي نعيشها ، والمخترعات التي نستخدمها، وما وصلت اليه علوم النفس والاجتماع والسياسة والاقتصاد .

وقد عاق الادب العربي الحديث عن الوصول الى هذه الغاية عوائق كثيرة أهمها :

(١) ما سبقت الاشارة اليه من ان المخترعات ليس لها اسماء ، وان ائمة اللغة لم يرضوا ان يستعملوا الكلمات الاجنبية ولا وضعوا لها أسماء عربية ، وتركوا الادباء في حيرة من أمرهم، فكيف يستطيعون أن يستلهموها في جملة لتكسب المعنى قوة ، وهم يفرون من التلفظ بها ، ويخشون من علماء اللغة استعمالها، لذلك رضينا من الادب بالعدول عنها جملةوتفصيلا، حقيقة ومجازا . وبهذا سد أمام الاديب العربي باب من أوسع الابواب واغزرها فائدة .

(٢) وسبب آخر من أهم الاسباب في فقر الادب العربي في التعبير ، هو ان الادب العربي الحديث أدب ارستقراطي لا أدب شعبي ، وعني ارستقراطية العلم لا ارستقراطية المال ، ذلك أن الادب الانجليزي أو الفرنسي أو الالماني ، ادب شعب لا أدب طبقة خاصة ــ نعم قدير في الادب الانجليزي مثلا ــ فلا يفهمه الا الراقون ، ولكن بجانبه أدب انجليزي شعبي ، لا يختلف عن أدب الخاصة في الفاظه وتراكيبه وان اختلف في دقة المعنى وبساطته ــ اما الادب العربي فادب خاص لطائفة المتعلمين تعلما راقيا فحسب ، لا يشاركهم فيه العامة واشباه العامة ، وللعامة أدب بلدي خاص ،يستمتعون به في اغانيهم ونكتهم وزجلهم ومواليائهم ــ وحتى الخاصة ، لا يتذوقون الادب العربي الا في الكتب والمجلات والجرائد، أما أحاديثهم وتنادرهم وفكاهاتهم باللغة العامية ، وليست أمة من الامم الحية الآن بين لغتها اليومية ولغتها الادبية من الفروق ما بين اللغة العربية واللغة العامية .

* * *

نتج من هذه الظاهرة نقص كبير في الادب العربي الحديث ، لان استعمال الكلمات والعبارات في البيت وعلى المائدة وفي الشارع يكسبها

حياة قوية ويزيدها صقلا ومرونة ، ولو اقتصر في استعمالها على الكتب كانت حياتها ناقصة ، لا يهذبها الاستعمال ولا يرقيها الصقل اليومي . وحسبك دليلا على ذلك أن النكت والنوادر وهي من أهم أركان الادب لا تجد منها سائغا عذبا في أدبنا العربي عشر معشار ما تجده في الادب العامي ، وأن النادرة تحكي بالعامية فتضحك الى اقصى حد ، ثم تحكيها باللغة الفصحى فتخرج باردة تافهة ، وان كثيرا من الالفاظ والتعبيرات العامية قد افادها الاستعمال روحا قوية ، فاذا عبرت عنها بالعربية لم تجد لها من التعبير قوة العامية وحسن دلالتها على المعنى .

وكل أمة قد كسبت من توحيد لغتها الكلامية والكتابية مالا يقدر ، فقد أصبح الشعب كلها منتجا أدبا وتعبيرا قويا ، وأصبح الحديث على المائدة وفي حجرة الجلوس وفي التمثيل والسينما يخرج أدبا جديدا ويحيى أدبا قديما ، والامة كلها تتعاون في الانتاج الادبي ، هذا بتعبيره الرقيق ، وهذا بنكته ونوادره ، وهذا بقصته وأمثاله ، وهذا بشعره ، وهكذا .

وليس كذلك الحال في الادب العربي ، فالامثال والنوادر والحكايات باللغة العامية ، والاحاديث اليومية وقضاء كل شؤون الحياة باللغة العامية ، وليس للغة العربية الا الكتاب وما اليه — ولذلك أصبح عندنا ادبان أدب أرستقراطي هو هذا الشعر والكتب التي تؤلف ، والمجلات والجرائد التي تنشر وأدب شعبي هو الزجل والاغاني والحواديت وما اليها ، وبين الادبين فواصل كبيرة وحواجز متينة ، وفي هذا ضرر كبير على الامة والادب معا ، أما الامة فلأن شعبها لا ينتفع بنتائج المتعلمين منها ، وأما الادب فلأنه ليس أدبا صحيحا ، اذ الادب الصحيح هو ما كان ظلا لحياة الامة الاجتماعية كلها لا الحياة طبقة خاصة منها .

ولا أمل لحياة الادب العربي من هذه الناحية الا بازالة الحواجز القوية بين العامية والعربية ، على اي وجه يرضاه قادة الامة ، ويحفظ اللغة العربية مكانتها من حيث هي لغة الدين ورابطة الشعوب الشرقية . اذ ذاك تصبح اللغة حية ، والتعبيرات حية ؛ واذ ذاك تزول الحيرة التي نعيش فيها الآن ،

فانك تستعمل اللفظ العامي والعبارة العامية ، فلا تجد لهما نظيرا في العربية ، وان وجدت لهما نظيرا فنظير ميت ليس فيه حياتهما .. كنت اقرأ الآن في جريدة فوجدت فيها كلمة «بعبع» وكنت أسمع فسمعت من يقول : انه بيت « مَبْهَوْءا » ومن يقول « رزق الهبل على المجانين » . ووجدتني اذا أجهدت نفسي قد اعثر على تعبيرات عربية مرادفة لها أو قريبة منها . ولكن ليس فيها حياتها ، لان الحياة وليدة الاستعمال ، وأريد الاستعمال الشعبي . وهذا احد الاسباب في أن مقالات الاستاذ فكري اباظة ، والمجلات الهزلية ، والهزلية الجدية ، لها من الرواج في أوساط الجماهير ما ليس لغيرها ، وتتفتح لها نفوس شعبية أكثر مما تتفتح للمقالات العربية الصرفة ؛ وترن الكلمة أو العبارة في الاذن رنينا دونه رنين العربية الكلاسيكية .

(٣) وسبب ثالث هو أن الحواجز عندنا بين العلم والادب قوية متينة ، وان شئت فقل انه ليس هناك صلة بين كلية العلوم والآداب ، وأن الثقافة التي يتثقفها الاديب ينقصها ــ غالبا ــ قدر ضروري صالح من المعلومات العلمية ، تجعله يستطيع ان يلم الماما بالمخترعات والمستكشفات ، ويستغلها في ادبه . وهذا القدر يلقفه الاديب الاوربي في بيته وفيما يقع في يده من كتب ومجلات اولية ، ثم في مدرسته . وأدباء الطبقة الاولى منهم كانوا على حظ عظيم من الثقافة العلمية استغلوها في منتجاتهم ، فاصبحت هناك أنواع من الادب ، ومن التعبيرات والتشبيهات القوية التي تعتمد على الثقافات العلمية، اخذها منهم الشعب واستساغها. اما برنامج الاديب العربي فقاصر من هذه الناحية كل القصور ؛ ولذلك كان نتاجه قاصرا كل القصور .

وهناك انواع من التجديد في الاسلوب والموضوع والنثر الفني والشعر والقصة وغيرها ، نعرض لها فيما بعد . ؟

المصدر : الرسالة العدد الثالث ١٥ ابريل ١٩٣٣ .

— ٣ —

من اوضح الظواهر أن الجمهرة العظمى من المتعلمين الذين درسوا ادبا عربيا وادبا اجنبيا يعكفون على الادب الاجنبي يتذوقونه ويكثرون من مطالعته ، في جدهم ان شاءوا الجد ، وفي لهوهم ان شاءوا اللهو . وهم ان قرأوا في الادب العربي ففي القليل النادر ؛ وان فعلوا لم يطيلوا ولم يتعمقوا ، وقل أن يدرسوا كتابا دراسة جيدة ، انما اكبر همهم أن يقلبوا صفحات الكتاب ليقع نظرهم على أبيات من الشعر يستملحونها ، أو قصة طريفة يتفكهون بها . ومكتبتهم — على قلتها — تمثل ميلهم ، فالكتب الانجليزية أو الفرنسية فيها غالبة ، والكتب العربية قليلة نادرة .

ذلك ولا شك حال اغلب المثقفين ثقافة عصرية .

ويذهب بعض الباحثين في تعليل هذه الظاهرة الى أن السبب يرجع الى فساد تعليم اللغة العربية وآدابها في المدارس ، فان أساتذتها لا يحببون الى الطلاب الادب العربي ، ولا يصلون به الى نفوسهم ، وانما هي أمثلة محدودة تتكرر عاما بعد عام ، ونماذج من الشعر والنثر تعرض مرة بعد مرة ؛ ولا غرض من دراستها الا ان يذكرها الطلبة عند الامتحان فيؤدوها كما تليت عليهم ، ثم تذهب بذهاب الامتحان ، لانهم قد تجرعوها على مضض ، فهم يفرحون بنسيانها فرح المريض — وقد شفي — بالخلاص من دواء مر المذاق .

قد يكون هذا سببا صحيحا ، ولكنه فيما أري ليس بالسبب الجوهري ، فان بعض اللغات الاجنبية التي تدرس بيننا ليست دراستها باحسن حالا من دراسة اللغة العربية ، ومع هذا فالطلبة يسيغون أدبها ويتذوقون كتبها بما لا يظفر ببعضه الادب العربي .

اهم سبب عندي يرجع الى موقف الادبين الادب العربي والادب الاوربي .

ذلك ان كل أدب اوروبي له قديم وحديث ، والادب الحديث هو الذي يناسب جمهور المتعلمين وعامة الشعب ، لانه في الغالب يعرض لما يشعرون به فيعبر عنه التعبير الفني ، فالاديب المحدث يرى ظاهرة اجتماعية فيضمها في قصة ، او منظرا جميلا فيضعه في قصيدة ، او معنى اثارته في نفوس قومه أحداث سياسية أو اقتصادية فيضعه في مقالة أو كتاب ، فيقبل الجمهور على قراءة ذلك ويعجبون به ، وسبب الاعجاب أن الاديب شعر بما يشعر به الجمهور . واستطاع ان يعبر عنه التعبير الفني الذي لا يستطيعه الجمهور . أما الادب الاوربي القديم فانما يناسب خاصة المتعلمين لأنه يتطلب دراسة لغوية وادبية عميقة كما يتطلب — لتذوقه — أن يلم المتعلم بشيء كثير من المسائل التاريخية والاجتماعية التي احاطت بالاديب وبالقطعة الفنية حتى يستطيع ان يفهمها فهما صحيحا ، وليس ذلك في مكنة السواد الاعظم من الناس . فالذين يفهمون الالياذة والاوديسة وخطب ديمستين قليل بالنسبة الى الذين يقرأون الادب الحديث ويفهمونه، وكذلك الذين يفهمون الادب الانجليزي أو الفرنسي في القرون الوسطى ويتذوقونه هم الخاصة من الادباء ، وان قرأ الجمهور شيئا من الادب القديم فانما يقرأه مترجما الى اللغة الحديثة . او معروضا في شكل جديد قد ذللت فيه كل الصعوبات التي يحتمل ان يلقاها القارىء العادي . أما الادب الانجليزي او الفرنسي الحديث فيكاد يكون حظ الانجليز أو الفرنسيين جميعا .

وسبب ذلك ان الادب هو نقد الحياة في اسلوب فني ، واذا كانت كل أمة تفهم حياتها الحاضرة فهما ما — وان اختلفوا في مقدار الفهم — كان الادب الحديث اقرب الى فهمهم وايسر متناولا لجمهورهم، واذ كان الادب القديم وصفا لحياة قديمة لا يستطيع فهمها فهما صحيحا الا من عرف بيئتها وتاريخها ، كان ذلك الادب ادب الخاصة .

* * *

وبعد فالادب العربي أدب قديم لا حديث له ، وان شئت تعبيرا دقيقا فقل انه ادب قديم لم يستكمل حديثه ، لـذلك كان الادب العربي ادب الخاصة لا أدب الجمهور .

لا يستطيع القارىء أن يفهم الادب العربي القديم الا بفهم دقيق للتاريخ ، وفهم بالغ للظروف الاجتماعية التي نشأ فيها الادب ومعرفة واسعة بالجغرافيا ، وعلم تام بقوانين الصرف المعقدة كأنها قوانين اللوغارتمات ليعرف كيف يبحث في معاجم اللغة العربية عن كلمة غريبة ، وليس يصبر على ذلك كله الا المجاهدون الصابرون ، وقليل ماهم .

يريد سواد المتعلمين ان يغذوا مشاعرهم من حب يحلل تحليلا دقيقا ، أو اعجاب بمنظر طبيعي ملك عليهم نفوسهم ، فأرادوا أن يصور هذا الاعجاب في قطعة فنية ، أو تبرم باسر ورقة فهم يريدون أدبا يتغنى بالحرية ويحفز النفوس الى تحقيقها ، أو ألم من سوء حالة اجتماعية فهم يبتغون قصة تمثلها ، أو قصيدة تصفها ، أو كتابا يحللها ، أو نحو ذلك من ضروب المشاعر فلا يجدها في الادب العربي الحديث الا قليلا نادرا فيضطر الى الادب الاجنبي يقرأه ويتغنى به ويستمرئه ، وهو على الرغم من ان ذلك الادب ليس بلغته ، ولا يصف مشاعر تمثل بالدقة مشاعره ، ولا يحلل حالات اجتماعية تشبه مشابهة تامة حالاته ، على الرغم من ذلك كله مضطر ان يقرأه ، اذ ليس عنده من ادبه ما يكفي لغذائه ، وفي الادب الغربي كل صنوف الغذاء على اختلاف الانواع وعلى اختلاف الاساليب ؛ ان شاء سهلا ، وجد السهل ، أو صعبا وجد الصعب ، أو بين ذلك وجد بين ذلك ، واذا غمض عليه لفظ استطاع أن يكشف عنه في المعاجم من أول درس تعلمه ، فكيف لا يهمل بعد ذلك الادب العربي ويعكف على الادب الغربي ؟

ان شئت فوازن بين ما يدرسه الطالب في المدارس الثانوية أو العالية في الادبين ، فهو في الادب الغربي يدرس شكسبير وأمثاله فيجد موضوعا شيقا يمثل حالة من الحالات التي تتصل بنفسه ، وتمس حياته الاجتماعية بقدر ما ، قد صيغت في قالب فني رشيق ، فخرج من الدرس يحبها ويحب موضوعها ، أما في الأدب العربي فيدرس مختارات من جرير والفرزدق والاخطل ، او مختارات من مقامات البديع والحريري أو نحو ذلك ، وهذه كلها لا تمثل ناحية اجتماعية يحياها او ما يقرب منها ، ولا فكرة عميقة حللت تحليلا واسعا ، لذلك يخرج منها وهو لا يحبها ، أو على الأقل يكون على الحياد منها .

لست أنكر ان في جرير وامثاله ، والمقامات وامثالها ، وفي الادب العربي على العموم جمالا وفا وابداعا ، ولكن ذلك لا يدركه الا الخاصة الذين مرنوا طويلا على الدرس وبذلوا الجهد في تدريب اذواقهم علي تقويمه واستساغته ، وليس ذلك في استطاعة كل الطلبة ولا أكثرهم .

فان انت نظرت الى الادب العربي الحديث فماذا ترى ؟ ترى كثيرا من الادب الغربي قد ترجم الى العربية، وليس من الحق أن نعد هذا ادبا عربيا في جوهره وموضوعه ، اذ ليس له من العربية الا لغة ملتوية على النمط الغربي . وترى نتاجا مبتكرا قليلا ، وأكثر هذا القليل مقالات وفصول جمعت بعد ذلك وسميت كتبا مجازا ، لا تربطها وحدة غالبا الا بضرب من التمحل . والبقية الباقية من القليل هي التي يصح ان تسمى ادبا عربيا حديثا لم يكتمل .

ذلك في نظري أكبر سبب في انصراف جمهور المتعلمين عن الادب العربي ، فإن اريد اقبالهم عليه فلا بلا من انتاج حديث وافر يغذي كل مشاعر الحياة كما يغذي العقول ، وليس من الحق أن ندعو السواد الاعظم الى الادب العربي قبل ان نستكمله أو على الأقل نوجد فيه ما يسد رمقهم، وان أردنا الانصاف فواجب أن ندعو الدعوتين : دعوة الادباء في العربية الى ان ينتجوا ، ودعوة القراء الى أن يقرأوا .

وينجح الأدباء اذا اقتصروا على أن يحتذوا حذو القدماء شكلا وموضوعا دون ان يمسوا حياتهم الواقعية وبيئتهم الاجتماعية ومشاعرهم النفسية ؛ فالادب متغير ، خاضع لقانون النشوء والارتقاء ، فاذا تقيد أدباؤنا بالموضوعات التي عالجها القدماء وبالاشكال التي صب فيها الادب القديم ، عد ادبهم قديما لا حديثا ، ولم يصلح علاجا لما نصف من أمراض .

مثل ذلك : انا اذا وضعنا ايدينا على مختارات البارودي ،وهو كتاب ضخم في أربعة اجزاء اختار فيها لثلاثين شاعرا من شعراء العصر

العباسي ، وجدناه قد اختار نحو اربعين الف بيت ، منها اكثر من اربعة وعشرين الفا في المديح ، واذا أضفت الهجاء والرثاء الى المديح وجدت جميع ذلك يقرب من ثلاثين الفا ، والربع الباقي في الادب والصفات والزهد والنسيب !

فترى من هذا افراط الأدباء القدماء في وصف العواصف الشخصية من كرم ورثاء وهجاء ، وتقصيرهم في ابواب كثيرة أهمها وصف المناظر الطبيعية ، وتحليل الانفعالات النفسية ، وغير ذلك من ضروب الادب .

وهذا التقصير وقع في الادب الأوربي القديم كما وقع في الأدب العربي ، فلو قرأنا شعر شعر هوميروس وفرجيل ودانتي وجدنا فيه قليلا من وصف جمال الطبيعة من جبال وبحار ونجوم ، على حين ان الشعر الأوربي الحديث قد ملىء بهذا الضرب من القول وأبدع الشعراء فيه ابداعا لا حد له فأفاضوا في القول في السماء ونجومها ، والأشجار وازدهارها وذبولها ، والبحار والصحراء وغيرها ، ووجدوا في ذلك كله كنوزا استمدوا منها شعرهم ، وكان تقصير القدماء واجادة المحدثين في ذلك قانونا طبيعيا ، لأن الاعجاب بجمال الطبيعة نتيجة رقي كبير في الذوق ، فاذا قصر أدباؤنا المحدثون في هذا كما هو حادث الآن وتابعوا الاقدمين في المديح والهجاء في هذا كما هو حادث الآن وتابعوا الأقدمين في المديح والهجاء والغزل ، فقط — ظل نقص الأدب العربي على ما هو عليه .

كذلك يعيش الشرقي عيشة خاصة غير التي كان يعيشها آباؤه ، سفرت المرأة بعد حجابها ، وتغير في العشرين سنة الاخيرة كل نظم الحياة تقريبا من معيشة بيئية ونظم اجتماعية ، وحياة سياسية ، وأصبح كل باب من هذه الابواب يتطلب قصصا جديدا وشعرا جديدا وكتبا ادبية جديدة ، فان نظر أدباؤنا الى دواوين الشعراء الأقدمين ولم ينظروا الى دواوين الطبيعة وصحائف العالم الذي فيه يعيشون ، فلا امل في شعرهم ، ولا نثرهم وظل المتعلم منصرفا عنهم الى الادب العربي على الرغم منهم .

ونوع آخر من الادب يصح أن يستغله الأدباء ، وهو أن يعمدوا الى الادب القديم ، وابطال الشرق ، والاحـداث التاريخية العربيـة فيجعلوا منها موضوعا لدراستهم ثم يلقوا عليه اضواء مما وصل اليـه العلم الحديث والادب الحديث وعلم النفس الحديث ، فيترجموه الى لغـة العصر ويبرزوه في شكل يناسب ذوق الجمهـور ويحبب اليهم قديمهـم .

انهم ان فعلوا ذلك استطاع من لا يعرف لغة اجنبية ان يجد غذاءه في الادب العربي ، واستطاع أن يكون انسانا مثقفا تكيفه ثقافته ، واستطاع من يعرف لغة اجنبية ان يباهي بادب قومه كما تباهي كل امة بادبها ، وفي ذلك اعتداد بشخصيتنا العربية الشرقية لا يستهان به .

المصدر : الرسالة ، العدد العاشر ، اول يونيو ١٩٣٣ ،السنة الاولى .

التجديد في الأدب

حول مقال الاستاذ احمد امين

للدكتور عبد الوهاب عزام (١٨٩٤ ـ ١٩٥٩)

قرات المقال الثاني الذي تكلم فيه الاستاذ عن « التجديد في العبارة » فرضيت آراء وانكرت أخرى .

واول ما آخذ على المقال انه لم يحكم تحديده فالقارىء يحس أن كاتبه أراد أن يعالج التجديد في المعنى والعبارة معا .

يقول الاستاذ في مستهل مقاله : « واليوم اعرض لضرب آخر من ضروب التجديد وهو التجديد في العبارة . واعني بالعبارة الجملة التي يؤدي بها المعنى على اختلاف الوانها من حقيقة ومجاز وتشبيه واستعارة وكناية . » ولست ادري كيف يكون التجديد في التعبير الحقيقي ؟ الحقيقة لفظ مستعمل فيما وضع له . فاذا اتفق معنى لشاعر في الجاهلية فأداه بألفاظ حقيقية ثم وقع المعنى بعينه لشاعر معاصر فأراد الابانة عنه بلفظ حقيقي لم يمكن التجديد في الأداء الا بالاسهاب او الايجاز وليس هذا ما يريده الاستاذ . او بإيثار لفظ حقيقي على آخر مثله وهذا يرجع الى بحث الالفاظ الذي فرغنا منه في مناقشة المقال الاول ، اذ أراد شاعر معاصر أن يبين بالفاظ لا تجوز فيه عن قول القتال الكلابي :

ولما رايت انني قد قتلته ندمت عليه اي ساعة مندم

لم يستطع في هذا تغييراً يلائم البصر الحاضر ، ولم يواته الا أن

يضع ابصرت مكان رأيت أو اسفت موضع ندمت أو يقدم ويؤخر في الكلمات . وليس هذا هو التجديد في العبارة الذي عناه الاستاذ . أي تجديد في العبارة يستطيعه قائل بريد أن يترجم عن هذا المعنى :

يقيم الرجال الاغنياء بارضهم وترمى النوى بالمقترين المراميا

انما يمكن التغيير في المجازات والكنايات والتشبيه والتمثيل مما يمكن فيه تأدية المعنى الواحد بطرق مختلفة ، وتصوير الحقيقة الواحدة بصور شتى وألوان عدة تتجلى فيها أثر الخيال والمعايش المختلفة ، والأزمان والبلدان المتباينة . وهو موضوع لا يغنى فيه الاجمال ولا غنى به عن التفصيل :

١ ـ بعض المجازات والكنايات جرت مجرى الحقائق حتى نسي اصلها او كاد . ولا يدرك فيها التجوز أو الكناية الا بالبحث والرجوع بالكلمات الى اقدم اصولها المعروفة . وذلك مثل اسبل المطر ، وفلان زميل فلان . وارهقه العمل ، وراض نفسه على الأمر ، ودهماء الناس وأمثال هذا مما شاع استعماله حتى سلوى مجازه الحقيقة او غلب عليها فلم يبق المعنى الحقيقي شاهدا باصل الاستعمال ودالا على التجوز في غيره ، كما يعرف التجوز في قولنا زل في رايه ، وزرع المودة في قلبه ، وسمع زئير الحرب ، ببقاء هذه الالفاظ معروفة ذائعة الاستعمال في معانيها المحسوسة .

وحكم هذا المجاز حكم الحقيقة لا تجديد فيه ولا تغيير على الاسلوب الذي يريده الأستاذ احمد امين .

٢ ـ واما المجازات التي يظهر فيها التجوز ، ويبين فيها التخيل فبعضها يخترعه الكاتب البليغ الذي يحس في نفسه القدرة على تصريف الكلام وخلق العبارات . وهذا ماخوذ من عقل الكاتب ، او المكلم واحساسه وعلمه كما يسمي الجمل سفينة الصحراء ويسمى الرجل الجري اسداً وذئباً الخ وكما يسمى احدنا الغواصة مثلا نسر الماء ، ومنطاد زبلبين

حوت الهواء ، ويقول عن خبر فظيع جاءه بالتلغراف : هذه احـدى صواعق البرق ، ويشبه الرجل العليم بأخبار العالم واحواله بالراديو الخ وينبغي الا ننسى ان علم الانسان وعقله ليسا مقصورين على البيئة التي يعيش فيها بل من هذه البيئة ومما رأى او سمع عن بلاد غابرة أو حاضرة وأمم ذاهبة او قائمة . فقد يسوغ للكاتب المصري ان يستمد مثلا او تشبيها مما يعرف عن امم الاسكيمو أو مما عرف عن الامة المصرية القديمة او الامة العربية قبل الاسلام ، او من خرافات اليونان الاقدمين . فاذا قال عن راي سيء يظهر بمظاهر مختلفة انه غول متلونة او عن فكرة سخيفة في نفس باردة انها كواحد من همج الاسكيمو يقطن بيتا من الثلج لم يكن لاحد ان يقول له ، انك لم تر الغول ولا عاشرت الاسكيمو فينبغي أن يكون بيانك خاليا من التشبيه بهما . وانما شرط هذا ان يكون مصدر المجاز او التمثيل معروفا لا يقف بالقارىء عنده غموض او اغراب .

وضرب من المجازات وما اليها ينشأ هذه النشأة ثم يذيع وتتداوله الاجيال حتى يصير مظهراً لبيان الامة وخيالها لا الخيال كاتب او متكلم كالذي ورثناه في لغتنا عن بلغاء العربية في الجاهلية والاسلام .

وهذا جدير بالاستعمال ، فلكل كاتب او متكلم ان يتوسل به الى البيان وان كان مصدره غريبا غير مألوف ، بل ينبغي المحافظة عليه بما يبين عن تاريخ الامة وحياتها في طور من أطوارها .

فلا عيب ان يقول القائل : اخذه برمّته ، وترك حبله على غاربه ، وماله خف ولا حافر ، ورموا عن قوسه واحدة ، واعطي القوس باريها ، والقي عصاه ، والقافلة تسير ، والكلاب تنبح ، كالمستجير من الرمضاء بالنار ، كمهدي التمر الى هجر ، أعقد من ذنب الضب ، اعدى مـن الشنفري ، مرق مروق السهم ، اختلط الحابل بالنابل ، اهدى من القطا ، وهلم جرا .

ولغات الامم الاخرى حفظت كثيراً من عاداتها القديمة وتاريخها ولست اضرب مثلا باللغة الفارسية أو التركية أو الاردية فهي لغات شرقية

لا تصلح حجة في هذا العصر ، ولكن اضرب مثلا من اللغة الانلكيزيـة والفرنسية : يقال في الانكليزية لمن يبالغ في كلامه : « ينزع في القوس الطويلة ، ولمن يخير بين أمور عدة ، عنده اوتار لقوس واحدة »(١) وهذه العبارة الاخيرة في اللغة الفرنسية ايضا (٢) . ويقال في الانكليزية في تقدير المسافة : « على رمية سهم »(٣) كما يقال في العربية « مقدار غلوة » . ويقال في الفرنسية لمن يتوسل الى غايته بكل وسيلة : « يبرى سهاما من كل خشب »(٤) . وامثال هذا كثير . فما منع الانكليز والفرنسيين استبدالهم بالاقواس والسهام آلات الحرب الحديثة منذ مئات السنين ان يبقوا على العبارات التي حدثت في عهد الاقواس والسهام .

ـــت أقول ينبغي ان تلزم العبارات القديمة ونابى كل عبـــارة حديثة فلا احد يستطيع ان يحول بين الناس وبين الابانة عما في انفسهم بوسائل مشتقة من حياتهم ولكني اخشى ان تكون الدعوة الى الجديد دعوة الى هجر القديم ، ونحن في هذا العصر ــ عصر الفتن احوج ما نكون الى التمسك بالقديم ، والاستمساك دون التهافت في التقليد ، والضلال بين القديم والجديد . ومن ينعم النظر في صحفنا ومنشآت طلبتنا يعرف كيف تركنا كثيرا من عباراتنا الجيدة الموروثة الى عبارات غثة ضعيفة لاتكاد تبين عما وراءها .

ثم يتكلم الاستاذ عن مسايرة الادب الغربي للزمن ووقوف الادب العربي فيقول : « ذلك بأن الادب الغربي ساير الزمن واعترف بكـل ما حدث فيه واستمد منه ، على حين ان الادب العربي الحديث اغمض عينيه عن كل كل ماكان ، ولم يعترف بوجوده الخ ، ولو رددنا الامور الى نصابها وتجاوزنا ظواهر الامور الى بواطنها ما رأينا في هذا قصور الادب العربي ، ولا عجز ادباء العربية بل عرفنا فيه قصورنا في العلوم

---

(1) to draw the long how — to have two strings to onels bow.
(2) avotr plusieurs cordes a sen arc.
(3) arrow-shot.
(4) faire fléche de tout bois.

والفنون الحديثة او حداثة عهدنا بها . الادب ترجمـا الحياة العامـة فهو لا يتناول مسائل علم واصطلاحاته حتى تشيع اوليات هذا العلم بين الامة شيوعا يدخل مصطلحاته في لغة التخاطب . ولا ينبغي للاديب ان يدخل في الادب المسائل العلمية او الاسماء التي لا تزال مقصورة على العلماء المختصين بها . فاذا جاوزتهم الى جمهور الامة ودخلت في لغـة الكلام ساغ للاديب ان يتناولها . في الكيمياء ، مثلا ، مسائل عويصة لا يعرفها الا علماء الكيمياء فهذه المسائل ستبقى وقفا على العلماء مخبوءة بين اجهزة الكيمياء ، ولن تخرج الى لغة الخطاب العامة فتدخل في الادب الا ان تصير الامة او جمهورها من علماء الكيمياء .. وهناك مسـائل من اوليات هذا العلم كصفات الاحماض وتاثير بعض العناصر في بعض .

وهذه تدخل في اللغة العامة وتتهيأ للدخول في الادب حين يشيع في الامة علمها فلا يختص بها الكيميائيون ومن اجل هذا تجد طلاب الفلسفة او الطب او النحو يتفكهون بتشبيهات من هذه العلوم لا يفقهها غيرهم اذ شاع علمها بينهم وصلحت للدخول في لغة تخاطبهم . واذا رجعنا الى تاريخ الادب العربي عرفنا ان اصطلاحات الفلسفة والمنطق وغيرهما لم تدخل في الادب اول عهد المسلمين بهذه العلوم . ثم شاعت قضاياها واصطلاحاتها فساغ لابي نواس وامثاله ان ينظموها في شعرهم . كما قال ابو نواس .

تامـلُ العـينُ منهـا	**محاسـنا ليس تنفـد**
فبعضهـا « يتناهى »	**وبعضهـا « يتولد »**

فالتناهي والتولد من اصطلاحات الفلاسفة ، وكما قال البحتري :

وكان الزمان اصبح « محمولا » هـواه مـع الأخـس الأخـس

فهو فيما اظن يشير الى قول المنطقيين ان النتيجة تتبع أخس المقدمتين .

وكقول المعـري :

طـرق العـلا مجهـولة فكانهـا « صم العقائد » ما لها « اجذار »

وكقول الفارابي في اصطلاحات الهندسة :

وهل نحن الا خطوط وقعن علـى كـرة وقـع مستوفز
محيط السماوات اولى بنـا فماذا التنـازع في المركـز ؟

وقد يكفي في هذا أن تشيع القضية العلمية بين المتأدبين من الامة ولا ينتظر بها ان تشيع بين الجمهور . ولا يتسع المجال للافاضة في البيان منـا :

ومهما يكن الامر فقد غلا الاستاذ اذ قال : « أما الأدب العربي فيحارب متروليوزا بقوس ، ويضيء في أدبه سراجا بزيت والناس قادمون على أن يغيروا المصباح الكهربائي بخير منه ويبكى الاطلال ولا اطلال ، ويحن الى سلع ولا سلع ، ويستطيب الخزامي والعرار ولا خزامى لدينا ولا عرار . » هل يستطيع استاذنا ان يعرفنا بشاعر او كاتب في مصر او الشام والعراق يفعل هذا ؟

ويقول الاستاذ : « وسبب آخر من أهم الاسباب في فقر الادب العربي في التعبير هو أن الأدب العربي الحديث أدب ارستقراطي لا أدب شعبي . » وأنا لا أخالف هذا الرأي في جملته ولكن لي فيه مآخذ .

(١) ليس حقاً ان أحاديث الخاصة من متعلمينا وتنادرهم وفكاهاتهم باللغة العامية . فأحاديث الخاصة من المتعلمين أقرب الى لغة الكتابة من اللغة العامية . ومراقبة مجلس الادباء والعلماء وتشهد بما أقول .

وفي هذا نفسه بيان خير الوسائل الى ما دعا اليه من « ازالةالحواجز القوية بين العامية والعربية على أي وجه يرضاه قادة الامة . » وذلك

ان قرب احاديث الخاصة من لغة الكتابة يبين لنا الطريق التي ينبغي ان نسلكها لازالة هذه الحواجز . فليس لنا من وسيلة الا ان ترقى العامة حتى تستطيع ان تفهم عن الخاصة اذا حدثها . فكلما شاع التعليم في الامة ارتقت العامة الى مستوى أقرب الى لغة الادب ونحن اليوم سائرون في هذه السبيل وقد سمعت في السنين الاخيرة جماعة من العامة واشباه العامة يخطبون ويتكلمون بلغة لا تخالف لغة الكتابة الا قليلا . وآلاف المتعلمين من طلاب مدارسنا وآلاف القارئين الذين يستطيعون مطالعة الصحف والكتب عاملون كل يوم للتقريب بين العامية والفصحى .

(٢) ثم قد غلا الأستاذ حين قال : « وكل أمة قد كسبت من توحيد لغتها الكلامية والكتابية ما لا يقدر ، فقد اصبح الشعب كله منتجا أدبا وتعبيرا قويا . » ليس في العالم شعب ينتج كله أدباً قويا ولا يزال الخاصة من الادباء هم منتجي الادب وأئمته ، بل اتفه الادباء اقربهم الى العامة . فلا يزال عند الاوربيين فوارق بين ادب العامة وادب الخاصة وستبقى هذه الفوارق ما دام اختلاف العلماء والجهال في عقولهم ومشاعرهم وكل الذي نبغيه ان يلتقي العامة والخاصة في مقدار من الادب مشترك هو اعلى ما تسمو اليه العامة وادنى ما تنزل اليه الخاصة . ولن يزول الفارق بين الادبين ابدا .

وكيف وفق الاستاذ بين دعوته الى أن يساير الأدب العلم وتستحكم الصلة بين كلية الآداب وكلية العلوم وبين دعوته الى توحيد الأدب والمساواة فيه وبين الخاصة والعامة . أيمكن أن يكون جمهور الادب آخذا بحظه من كلية العلوم أيضا .

(٣) ثم الفكاهات الواردة يقول استاذنا الفاضل .. حسبك دليلا على ذلك ان النكت والنوادر . وهي من أهم اركان الادب . لا تجد منها شائعا في أدبنا العربي عشر معشار ما تجد في الادب العامي . ان النادرة تحكى بالعامية فتضحك الى أقصى حد ثم تحكيها باللغة الفصحى فتخرج باردة تافهة .

نظر الاستاذ الى هذه القضية من جانب واحد . والحق أن النكتة تبلغ مبلغها فيما وقعت فيه من حال وعبارة فالذين يشـــهدون الواقعة المضحكة او يسمعون الكلمة المضحكة اكثر ضحكا لها ممن رويت لهم في غير أحوالها او بغير الفاظها ، بل ينطق الرجل بالكلمة فيضحك لها الناس فاذا رواها غيره بلفظها في مثل حالها لا تبلغ من النفوس ما بلغته اول مرة لما فاتها من اثر القائل الاول . فاذا اختلفت العبارة فاخــرى ان يختلف التأثير . فاذا ترجمت الفكاهة من لغة الى اخرى ضاع اثرها كله أو بعضه واذا نقلتها من عبارة الى اخرى في لغة واحدة لم تبق على حالها الاولى . فان تكن النكت العامية تبــرد اذا نقلت الى العربية الفصحى فكم من نادرة فصيحة تموت اذا نقلت الى العامية . وكثير من فكاهات الجاحظ و « كتاب الحمقى والمغفلين » لابن الجوزي لا يمكن نقلها الى العامية ؛ كالفكاهات المتعلقة بالنحو والعروض والفقه ونحوها . وكثير منها يضعف اثره وان امكن نقله والا فكيف تترجم الى العامية هذه العبارات :

قال رجل للحسن يا ابى سعيد . فقال كسب الدوانيق شغلك عن أن تقول يا أبا سعيد . وقدم رجل من النحويين رجلا الى السلطان في دين له عليه فقال اصلح الله الامير لي عليه درهمان ، قال خصمه : لا والله أيها الامير ان هي الا ثلاثة دراهم لكنه لظهور الاعراب ترك من حقه درهما واعتبر كل ما في كتب الاب من ملح تجد اكثرها يجري هذا المجرى .

والغريب ان لغة الخاصة ولغة الكتابـــة او لســـان العامة ولســـان الخاصة كانا مقاربين في عهد الجاحظ ولم يكن بينهما ما بين الفصيحة والعامية اليوم . ولكن الفكاهات اذ ذاك كانت كما هي اليوم لا تصلح للنقل من لغة الي اخرى . قال الجاحظ :

« ومتى سمعت حفظك الله بنادرة من كلام الاعراب فاياك وان تحكيها الا مع اعرابها ومخارج الفاظها . فانك ان غيرتها بـأن تلحن في اعرابها واخرجتها مخرج كلام المولدين والبلديين خرجت من تلك الحكاية وعليك

فضل كبير . وكذلك اذا سمعت بنادرة من نوادر العوام وملحة من ملح الحشوة والطغام فاياك وان تستعمل فيها الاعراب او ان تتخير لها لفظا حسنا الخ . »

وكذلك يقول قدامة بن جعفر في كتاب نقد النثر : « واللفظ السخيف موضع آخر لا يجوز ان يستعمل فيه غيره. وهو حكاية النوادر والمضاحك والفاظ السخفاء والسفهاء فانه متى حكاها الانسان بغير ما قالوه خرجت عن معنى ما اريد بها وبردت عند مستمعها .

(٤) وبعد فلا ينبغي ان تسف لغة الآداب العالية الى مستوى العامة بل يجب ان نرقي العامة الى مستوى لغة الآداب او ما يقرب منه . على ان هذا التباعد بين ما يسميه الاستاذ « الادب الارستقراطي » وما نسميه « الادب الشعبي » مظهر واحد من مظاهر الاختلاف بين عامتنا وخاصتنا بين الفريقين تفاوت عظيم في العقل والمعرفة والازياء والمساكن وطرائق المعيشة . ولابد من تقريب المسافة بين العامة والخاصة في هذا كله قبل ان يشتركا في لغة واحدة ويستمتعا بأدب واحد فان الادب الصحيح ترجمان معيشة الامة .

عبد الوهاب عزام

المصدر : الرسالة . العدد العاشر اول يونيو ١٩٣٣ السنة الاولى .

التجديد في الادب

محمود الشرقاوي ت ـ ١٩٧١

يناقش الدكتور عبد الوهاب عزام الاستاذ احمد امين في رأيه عن التجديد في الادب ، وقد دفعتني هذه المناقشة الى ابداء رأي وذكر مناقشة ، اما الرأي فهو : ان المعاجم اللغوية التي يقول الاستاذ احمد امين ان فيها « الفاظا كثيرة ليس لها قيمة الا انها اثرية تحفظ فيها كما تحفظ التحف في دار الآثار » ، في هذه المعاجم الفاظ كثيرة لها قيمة عظيمة عند من يحسن الاداء بها في مواقعها وكثيرة منها يؤدي لنا عن معان كنا نظن ان ليس لها في الالفاظ العربية ما يدل عليها ، فالبحث عن هذه الالفاظ واستعمالها يزيد من غير شك في حيوية اللغة ونمائها ، وقد فعل الدكتور محمد شرف والدكتور احمد عيسى شيئا من ذلك في معجمهما عن الحيوان والنبات ، فكشفا في هذه القواميس عن الفاظ عربية لنباتات وحيوانات كنا نستعمل عند الدلالة عليها اسماءها العلمية اللاتينية ، وذلك لظننا خلو لغتنا من اسمائها .

واما ما ذكره الاستاذ احمد امين من الغاء هذه الالفاظ لان الذوق العام للقراء لا يسيغها الآن ، فانا اظن بأن درجة المعرفة التي يصل اليها جمهور القراء ليست كافية للاعتبار والحكم على اللغة والكاتبين ، والكاتب الناقد البصيرة له ان يقدم لهذا الجمهور القارىء ما يرى انه مفيد من معنى او احساس ، ولو كان الجمهور القارىء لا يعرف هذه الالفاظ او لا يسيغها ذوقه ، ولكن المهم ان يقتصد في ذلك على الضروري المفيد ولا يتعمد الاغراب .

هذا مع ملاحظة أن ما لا يسيغه ذوق الجمهور هو الاقلية من هذه الالفاظ المهجورة .

هذا عن رأيي ، واظنني فيه قريبا من الدكتور عزام وان كنت اخالفه في بعض الشواهد التي اوردها في مقاله وفي بعض الآراء كذلك .

واما عن المناقشة فقد جرت منذ شهور بيني وبين كاتب من كبار كتابنا المتحمسين لتبسيط اللغة ، وكان يقول ان هذه الالفاظ الموجودة في القواميس هي مثل الزوائد والبقايا الاثرية في جسم الانسان «كالزائدة الدودية وعجب الذنب مثلا» ويجب علينا طرحها لنكسب الوقت والسرعة، فقلت انا ، ان في هذه القواميس الفاظا تؤدي لنا عن معان نتحير الآن في الاداء عنها بكلمة واحدة، فنعبر عنها بجملة أو سطر، فلو اننا استعملنا هذه الالفاظ واشعناها لاكتفينا بلفظ واحد عن هذه الجملة او السطر ، فكسبنا بذلك الوقت والسرعة ولفظا جديد يزيد في لغتنا سعة ، فقال : اذكر مثلا ، قلت : اقرب مثل هو صديقك فلان الذي عرفتني به اخيرا ، فقد لاحظت ان لون عينيه مختلف فله عين زرقاء واخرى كحلاء . فلو اردت أن أذكر لك هذه الصفة فيه استعملت لها سطرا من الكلام ، ولكني وجدت في القاموس كلمة واحدة تؤدي هذا المعنى كله وهي « أخيف » وهذه الكلمة نفسها تغنينا عن جملة أخرى ، فان الابناء الذين هم من أم واحدة وآباء شتى يقال لهم « أخياف » فيمكنك في الاول ان تقول «فلان اخيف» بدل « فلان احدى عينيه زرقاء والاخرى كحلاء » وفي الثاني « هؤلاء الاخوة اخياف » بدل « هؤلاء الاخوة من أم واحدة وآباء شتى»، وقد كسبنا بذلك الوقت والسرعة ولفظة جديدة ، وهذه الكلمة لا أحد يقول « حتى الاستاذ أحمد امين » انها نافرة او ثقيلة على الجيل الحاضر ، وقد استعملها ابن زيدون في قطعة جميلة من شعره .

فقال صديقي الكاتب الكبير في صيغة التحدي والتهكم ، انك بذكر هذا اللفظ اطلت في الوقت واضعفت من السرعة لانك ستشرحها للقارىء

بهذه المعاني التي ذكرتها ، فكان خيرا لك وله لو انك اكتفيت بالشرح عن المشروح فلم تذكر اللفظ الواحد ثم تتبعه بجملة شارحة ، فقلت انا اولا لا اسلم بضرورة الشرح فان القارىء واحد من اثنين ، قارىء يقظ يقرأ ليفهم ويفتش عن كل كلمة ولا يكتفي بالفهم الاجمالي ، وهذا القارىء عندما يجد هذه الكلمة ــ اذا لم يكن يعرفها ــ سيبحث عنها في القاموس حتى يعرفها ، ومن المرجح انه بعد ذلك لن ينساها ، وهذه وحدها فائدة اخرى ، والقارىء الثاني يمر على الكلام مرا ويكتفي بالفهم الاجمالي ، فهـذا ليس يهمني اذا شـرح لـه ، ولعلـه هـو ايضاً لا يهتم بشرحي وعلى فـرض التسليم بضرورة الشرح لهـذه الكلمـة ومثلهـا ، فان الشرح لن يكون الا بمقدار ما تشيع هذه الالفاظ وتعرف لجمهور القارئين وعند ذلك تترك وحدها فيفهمها القارىء ونكسب نحن وهـو الوقت والسرعة والفاظا جديدة تزيد في لغتنا وتنميها ، ثم ذكرت له بعضا من الالفاظ والجمل استعملها هو بدءا وشرحها في أول ما استعملها واصبحت الآن مفهومة لكل قارىء وشائعة على اقلام الكاتبين والسنة الناطقين حتى كأنها تستعمل منذ مئات السنين .

ولعلنا نجد في المقالات القادمة للاستاذ احمد امين اننا فهمنا من كلامه غير ما يقصد هو ، وعندئذ فنحن على وفاق ، او في « خلاف لفظي ... » كما يقول الاصوليون .

« محمود . ع . الشرقاوي »

عالم من الازهر

المصدر : الرسالة . العدد التاسع ١٥ مايو ١٩٣٣ .

تجديد التقليد

« بهذا العنوان نشرت مجلة المغرب التي تصدر بالرباط هـذا المقال فاحببنا ان يطلع ادباؤنا عليه » .

في مصر اليوم جماعة من حاملي الاقلام بلغ بها حب التجديد الى حد انها رات التقليد الذي يرسف في اغلاله كتاب العربية وشعرائها قد بلي وقدم ، وانه في حاجة ماسة الى التجديد فراحت تسود اوراق الصحف والمجلات بالنهي عن تقليد العرب ، واسلوب العرب ، وتفكير العرب ، وكل ماهو من العرب باختصار ... لا لتضع في محله شيئا جديدا مبتكرا ، ولكن لتحاكي الغرب ، واسلوب الغرب ، وتفكير الغرب! وكل ما جاء عن الغرب وان لم تشعر بذلك ، أليس هذا تجديدا ... للتقليد ؟ او ليست هي جماعة المجددين ؟ وعدم فهمكم لها جعلكم ترمونها بعدم القدرة على التفكير بالعربية واساليبها الضادية : وكيف تكون غير قادرة على هذا وهي التي تعلمت في أوروبا وقضت شهورا واعواما في « حي مونبارناس » والحي « اللاتيني » ... وهلم جرا . لا . ليس هذا (عجزا يتظاهر بالقدرة ، وجهلا يتستر بالتحذلق) كما زعم الزيات ، بل سيل التجديد طغى حتى على التقليد وأراد تجديده .

اتدري ماذا تنكر هذه الجماعة على العربية ؟ تنكر عليها انها خالية من القصة والرواية ، ومن « التراجيديا والكوميديا والميتولوجيا » وأن ادبها ليس منقسما مثل الادب الغربي الى « كلاسيكي ورومنتيكي » وأن شعرها ليس منقسما الى « ابيك وليريك » وأن جن شعرائها لم يتأله ، ولم يتخذ « ابولو » : ذلك الاسم العالمي اسما له ، وأن

التاريخ العربي الاسلامي ليس منقسما كالتاريخ الغربي الى : « العاديات والقرون الوسطى وعصر النهضة والعصر الحديث والعصر الحاضر » .

وصفوة القول ان ذنب العربية هو عدم مجيئها على النمط الغربي ، وقد تكون جديرة بأن تقلدها جماعة المجددين المصريين لو انها احتوت على مثل تلك الاقسام ، واخشى مع هذا أن لو كان مثل ذلك للعربية دون الغرب لألفته قديما باليا ، ويكون مع ذلك الحق معها ؛ لأنها ليست جماعة المبتكرين بل جماعة المجددين ، وكل ما يهمها هو التجديد لا الابتكار . ولو كان يهمها هذا لاخرجت لنا عوض هذا التقليد المشوه والصخب الفارغ والكلام الأجوف ، انتاجا فكريا صحيحا ، ولست أنكر انها جاءتنا « بمعجزات » فنية جديدة كل ما فيها غربي الا بعض الفاظ وحروف عربية .

وهنا ضرب الكاتب المثل برسالة الاستاذ توفيق الحكيم الى الدكتور طه حسين ، ثم لخص بعض رأي الاستاذ ، وعقب عليه بقوله :

هذا رأي الكاتب ، أما رأيي انا فهو ان مصر القديمة لولا تلقحها بعناصر اجنبية لما كان لها ادب او فكر ؛ والتاريخ بالباب وهو اصدق مرشد واعظم برهان ، فلولا الاغريق لما كانت مدرسة الاسكندرية الفلسفية ، ولولا العرب لما كان لمصر ادب او فكر حديث يذكر ، ولا ذكرت مصر في تاريخ العالم الا بفنها وهندستها الدينية ؛ والحقيقة ان تلك الجماعة انما تريد ابدال المقلد : ابدال العرب بالغرب ؛ وقد بلغ تطرف صاحب مقال « الرسالة » الى حد انه رمى الكاتب الوحيد الذي ابتكر جديدا في العربية ولم يحاك احدا بالتقليد . وكتاب المويلحي « حديث عيسى بن هشام » لا يزال قريب العهد ، وما يعنيني الاسلوب اذا كان الكتاب غريبا مبتكرا ؟ ولم تنتج مصر بعده جديدا سوى « الأيام » لطه حسين .

ومنذ سنوات كانت جماعة المجددين المصريين تبرق وترعد بمحاسن المدنية الغربية وافضليتها وسوء الحضارة الشرقية . ولما اراد الله رفع الستار عن مساوىء الاولى وظهر افلاسها بعد الحرب فبرز كتاب اوربيون عظام للتنديد بها وتفضيل الحضارة الشرقية في عدة نواح وخصوصا الروحية منها ، اخذت هذه الجماعة نفسها تمجدها تقليدا لهؤلاء لا عن عقيدة ، وهذا حد التقليد !

اني لا انكر على هؤلاء الكتاب حملتهم على التقليد وانما انكر عليهم اولا سعيهم في ابدال المقلد بدون كبير فائدة . وثانيا انهم بدلا من أن يشتغلوا في ابتكار جديد والعمل على الانتاج الصحيح يضيعون وقتهم في الصخب . اما خلق ادب مصري قومي فهو « مودة » بالية قديمة بالنسبة لمن يتخذ لقب مجدد ؛ على ان الادب الجميل جميل في كل محل وتحت كل شمس وقمر و « الف ليلة وليلة » حجة لذلك .

واما ان يكون عدم وجود الرواية والقصة سبب فقر ادبنا العربي فهذا غلط ، فلربما جاء فكر عربي عند نضوجه بشيء أفضل من القصة والرواية ، شيء يلائم طباعنا وأدبنا ؛ وان كان لا بد منهما فسيجيئان في وقتهما حسبما تنضج وتختمر الفكرة في عقول أبناء العربية ، ولا يكفي قولنا لهما كونا فيكونان ، لأن النبوغ يتدفق من تلقاء نفسه ولا يستخرج ، وكذلك تقسيم الأدب العربي على النمط الغربي ؛ وله تقسيمه الذي لا يحتاج الا الى اصلاح وضبط . ويكفي مثلا لفساد تطبيق اقسام التاريخ الأوربي على التاريخ العربي الاسلامي ، أني كنت اقرأ اخيرا كتابا عن تاريخ الاسلام والعرب لكاتب مجدد جرى فيه على الاسلوب الغربي في التقسيم . جاء فيه : « .... وقد كان آباؤنا يتخبطون في بحر الجهل والتعصب طيلة القرون الوسطى .... » والكل

يعلم ان القرون الوسطى في التاريخ العربي هي أزهى عصر المدنية الاسلامية العربية .

وارجو لمصر ان تخرج من هذا المخاض بخير وعافية بفضل ما بقي صالحا سالما من ابنائها الكرام ، وأن يسفر هذا المخاض عن انتاج صحيح مبتكر ؛ والا تكتفي جماعة المجددين بابدال المقلد فحسب .

محمد حصار

المصدر : الرسالة ، القاهرة ــ العدد الرابع عشر ــ اول اغسطس ١٩٣٣ السنة الاولى .

هذه المعركة المزمنة بين أدبين !

كرم ملحم كرم

١٩٠٣ — ١٩٥٩

انها لمعركة مزمنة حقاً ، هذه المعركة بين الجديد والقديم . فهي معركة حامية لا تنطفىء لها نار ولا يخبو منها أوار . فالشباب والمشيب يتطاحنان . المتربع في القمة يصارع الواقف في ساحل الحياة ، الضاحك للمستقبل ، المتقلب في أحضان الربيع ، الناعم باخضرار العيش ، يقاتل من يحاذر الوقوع في اللجة . الهاتف بملء فيه « الغد لي !. » يغالب المتمسك باذيال الحياة لئلا يبتلعه الموت !

ومعركة القديم والجديد بدأت منذ الأزل وسوف تتصل بالأبد . فان هذا التطاحن بين ابن الأمس وابن اليوم حديث كل يوم . هذا التطاحن بين ابن الأمس الخائف على مكانته من التهشيم والتحطيم ، وابن اليوم الراغب في أن يشق لنفسه طريقاً الى الشمس ، القائل للقديم المزمن : « دعني أحتل مقعدك !. » ، هذا التنافر ابن عصور ودهور ، انبثق يوم انبثاق الكون ، وسيرافق الكون في مراحله الطوال لا يزول منه الا يوم يزول .

فالشباب يغيظه ان يطاطىء الرأس للمشيب ، ان يعترف له ابدا بالسيادة ، أن يقف حياله مكتوف اليدين ، فيصيح به : « نلت نصيبك من دنياك فلا تحرمني نصيبي !.. » فيأبى من أدركهم المشيب أن يتزحزحوا من اماكن استقروا فيها بعد جهد ومشقة . ويغضب الشباب

وفي اعصابه جمر ونار فيثور وتنشب المعركة . ولا يسلم الفريقان من شظايا القدح والنقد والتعريض . الشيخ العتيق يسخر بثمار عقول الشباب . والرائع في مقتبل العمر يهز بيده المهند الصقيل مهدداً متوعداً ، وتتساقط الضحايا في الميادين . ويقول القائلون : « المعركة بين القديم والجديد ! ... » ويخيل الى بعضهم ان الأدب القديم هو ما جاد به الطاعنون في السن . وان الأدب الجديد هو ما يتحفهم به كل ناضر العود . على حين أن بين ذوي الانياب الصفر فئة لا يبلى لها طارف ولا تليد . فالجديد ما تنفث وتكتب وتنظم ، كما ان بين الفتيان الافراخ الزغب الحواصل ، فريقاً لا يحسن الابتكار ولا التوليد ، فانه لغارق في القديم الى الاذنين ، ويأبى الا ان يحارب كل من اسن وشاب وشاخ ، وبات على قيد خطوة من يومه الاخير !

وهذه المعركة لا يصح القول عنها انها ادب قديم وادب جديد . ان هي الا بين المشيب والشباب ، بين قوم تمتعوا باطايب دهرهم وادركوا الشهرة والصيت البعيد ، وقوم يريدون قسمتهم من قرص الحلوى . فهم نهمون شرهون جائعون ، يلتمسون الأكلة الشهية يتذوقونها ، مع انهم في الخطوات الاولى من عهد انفطام .

ومثل هذا النضال ما خلا منه عهد . اما سمعنا جريراً يقول حين سئل رأيه في الاخطل : ادركته وله ناب واحد ، ولو ادركته وله نابان لاكلني !

فالأخطل اكبر من جرير سناً . وقد تحكك به جرير ليدرك المنزلة العليا فادركها ، وهناك من شاء الاقتداء بجرير في التحكك بالطاعنين في السن . نريد بشار بن برد الشاعر الفحل الضرير . فقد راش بسهامه جريراً لم يرد عليه . وكان يقول حين يبلغه طعن بشار : مالنا ولهذا الغلام الخامل الغر نرفع قدره !

فقيل لبشار : بم اساء اليك جرير ؟

قال : لم تنلني منه اساءة . على أني وددت ان يهجوني . ولو فعل لكنت اشعر شعراء العرب اجمعين !

وغاظ المعري ان يسمع : « هل غادر الشعراء من متردم ؟ » فانشد قصيدة من عالي الشعر جاء فيها :

واني وان كنت الاخير زمانه لآت بما لم تستطعه الاوائل

فالتطاحن بين القديم والجديد ليس ابن يومه . فكل يريد المقام الاول . والشجيرة يؤلمها ان تخيم عليها الشجرة فتسعى الى امتصاصها كي تذبل وتجف . هي سنة تنازع البقاء . الشاب يدفع الشيخ الى الهوة ليقوم مقامه ، والقوي ينشب اظفاره في الضعيف لتخلو له الساحة وقد يكون هذا الشيخ من أنصار التجديد . ولكن الشاب لم يطق ظله ، فحفر له الحفرة ووقف يشهد مصرعه فيها .

اذا من هم انصار الأدب القديم ؟

من هم المتمسكون به والداعون اليه ؟

لا جدال في ان الادب القديم ركن الأدب الجديد . فالأدب الجديد لم ينشا عفواً ، بل تسلق قواعده القديم وشيد عليها قواعده الخاصة يستند اليها ويحيا بها . فالأدب القديم ابوه ، على أن الابن وان يكن تغذى من ابيه فقد اظهر فيما شيد لنفسه من بنيان انه مستقل . فان حجارة هيكله تختلف في حجمها ولونها وشكلها عن حجارة هيكل المتقدمين بل هو خالفهم في البناء نفسه . فجعلوا هيكلهم مستطيلا . فابى الا ان يشيد هيكله مستديرا ، وبنوه عالي القباب فرفعه ناتئا يشك في الاجواء بدا هيكلهم في منظر خشن فتلالا هيكله لطيف الشكل ، مصقول الجدران ترتاح العين لرؤيته وينعم فيه النظر بلا ملال .

والأدب الجديد ليس وليد عصر معروف ، فكل عصر يحفل بالقديم والجديد ، كل عصر يبرز فيه هيكلان يختلفان شكلا ولونا وذوقا . كل

عصر يدين بهذين المذهبين ويقوم فيه من يناصر القديم ويظاهر الجديد . وليس نصير القديم من وقف على الاطلال فبكى واستبكى ، فان بعضهم يقف على الاطلال ويجود بالشائق والرضى . اما انشد داود عمون :

هاج اشــواقي الى الدمــن   طــائــر غنــى علــى فنــن

وداود عمون شاعر ثوي منذ سنوات قلائل في مقره الاخير . وقد جاء شعره في الدمن من ارق الشعر ، فلا هو بالخشن المبتذل ولا الجاف الغليظ ، فالعذوبة وافرة فيه ، والقوة محكمة في ديباجته العالية ..

وليس كل من تحدث عن الابل والنوق بنصير القديم . فالمنخل اليشكري لم يكن من انصار القديم حين حال :

واحبهــــا وتحبنــــي   ويحب ناقتهــا بعــيري

لا ، فان في هذا الشعر لظرفاً ، وان فيه لامعانا في التوكيد على نحو ما جاء في قول ابي نواس :

الا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمر   ولا تسقني ســراً اذا امكن الجهــر

ان فيه لرونقاً ، فهو بعيد عن التكلف في سبكه ومعناه . وكل شعر جامع للرونق خال من التكلف والغلو الفحاش يطمئن اليه كل جيل ، ويرضى عنه الأدب الجديد .

فما هو الأدب القديم اذاً ؟ ...

الأدب القديم هو الحافل بغريب الكلام ووحشي الالفاظ ، المثقل بالتقليد ، الراكد في معناه ومبناه ، فلا ابتكار ولا روعة ولا سهولة ولا ذوق ، هو المنسوج على منوال خشن ، الضخم الكلمات ، الطنان الاجوف القائم على صناعة الالفاظ ، المحشو تكلفاً وتعقيداً ، البارد لفرط ما لاكته الالسن ومضغته الافواه .

الأدب القديم هو الادب المطبوع بطابع عصر معلوم ، جاءه من يبعثه حياً في عصر لم يخلق له ، فاذا نحن رأينا في شعر امرىء القيس شيئاً جديداً فهناك ما لا يصح قوله في عصر غير عصر الشاعر الضليل ، فقد قيل في زمن يجب الا يتخطاه الى زمن آخر ، وقد تبدلت العادات وتبدل الناس ، والجديد الجديد في شعر امرىء القيس تشابيهه واستعاراته . وهذا التشابيه والاستعارات ملك الشاعر لا يجوز لاحد أن يسطو عليها والا كان سارقاً . كان اشبه بالضاحك من نفسه ليخدعها وانما يهين نفســه .

فالابتكار في الأدب أشبه بالأبتكار والاختراع في سائر الفنون . فمن ابتكر في اسلوب الانشاء مذهباً جديداً بات هذا الاسلوب معروفاً باسمه ومن جادت قريحته بتشبيه جديد لا يجوز لأي اديب بعده ان يأخذ عنه هذا التشبيه ويتبناه وهو ليس من تواليده ، والا كان سالخاً ضعيف المخيلة قاصر اليد .

والاديب العربي لا يكون اليوم مبدعاً اذا اتحف الادب زوايات اشبه بمقامات الهمذاني والحريري ، فان ذلك النسيخ من ثمار عصر مضى ، وهو مما تستحسن حياكته في ايام الانحطاط لانهاض اللغة واذاعة مفرداتها ، فتلتقطها الاذهان وتستعين بها الاقلام ، أما اليوم فان اسلوب المقامات لا يحتسيه ابناء العصر ولا يستسيغونه ، فقد تبدل أسلوب الانشاء تبدلا عظيماً ، فمات السجع ، ومات التقعر والتحذلق والانصراف الى الالفاظ دون المعاني ، واضحى الاسلوب الساري كل واضح جلـي مريب الى الذهن والفهم .

ولا فرق في هذا الواضح الجلي سواء انتقل الينا من الجاهلية او صدر الاسلام ، او عصر العباسية ، او عصر الانحطاط ، او عصر الانبعاث فان انشاء ابن المقفع لايبلى في اي عهد ، ومثله الجاحظ ، وابن الاثير والاصبهاني ، وابن عبد ربه ، وابن خلدون ، مع أن انشاء ابن خلدون أخذ يتقادم عهده وفيه من التطويل ما فيه .

واللغات كلها طافحة بأساليب الانشاء . وانها لتحوى من الاساليب الممتعة ما لا تقوى على محوه يد الدهر ، ولا تؤثر فيه سنة بقاء الانسب ، فهي صامدة للصروف لا ترث منها القوى ولا ينصل لونها وهي صافيـة نقية كزرقة السماء .

وهذه الاساليب يصح ان نطلق عليها اسم الأدب الجديد ، وهـي الخالدة ، وهي مرجع الطلاب والادباء ، كساها منشئوها المعنى الجميل في المبنى السليم ، فأضحت لا تنبو عنها الاذن ولا ينكرها اي جيل ، وهو بها قرير ضنين .

وما يقال في النثر يقال في الشعر . فالشعر الناضج بالعصير الشهي لا يفنى ، على حين ان الشعر اليابس لا تقوم له قائمة في سوى يومـه ولو انشده المتنبي ، فان شعر عمر ابن ابي ربيعة ، وجميل بثينة ، وكثير عزة ، وابن الدمينة ، وعباس بن الاحنف ، وابن زريق ، وأبـي نواس ، والشريف الرضي ، والبهاء زهير ، وابن المعتز ، وأبي فراس ، وشعراء الاندلس في معظمهم ، مما يصح أن يقال اليوم وينشد ، وتقتبس طريقته ، ويهتدى بنوره ، اللهم اذا تغاضينا عن بعض مناحي هذا الشعر اقتضاه روح العصر ، وكثيرا ما يكون هذا الروح نائياً عن حضارة العصر الذي يلـي .

فان هؤلاء الشعراء جمع منظومهم الرقة والروعة والوضوح ، وكـل شعر يرتع في هذه الميزات لا يعرف الانقراض ، خصوصا وهو مستمـد من العاطفة ، والعاطفة لا تموت ، فالقلوب تخفق ابداً بها . وكل شعر أوحت به العاطفة وعته الذاكرة ، وردده اللسان ، وابتهج بـه الخاطر ، وتناقلته الكتب والافواه من عهد الى عهد ، وهو الشعر الذي يفـرض مشيئته على الايام والسنين .

وللشعراء الهجائيين منزلة وشأن لدى الحفاظ والرواة : ويمكـن القول أن شعرهم يقوم على العاطفة ، أفلا تتبدل هذه العاطفة بمـا

يتبدل به القلب ؟ ... الا تخضع لسلطان الهوى ؟ ... وشعر الهجاء يثيره الهوى . اذاً فهو شعر عاطفي . ولهذا الشعر حظه من البقاء والخلود ان يكن جميلا فريدا ، على طراز ما اتحفنا به الحطيئة والاخطل والفرزدق وجرير وبشار ودعبل وابن الرومي والمتنبي . فان شعر الهجاء أقرب الى الحفظ وأبقى اثراً . فالنفس وهي الامارة بالسوء تميل الى الهجاء وترتاح له اكثر منها الى احراق البخور وتقبيل الأذيال .

ولسنا ندعو بالخلود لكل شعر عاطفي ، ولكننا نقول ان شعر العاطفة يملك ميزة الخلود اكثر من اي شعر آخر ، ويأتي بعده شعر الوصف ، على أن يكون بليغا رشيقا غير مسبوق اليه . ويقبل في الدرجة الثالثة شعر الحكمة اذا افرط فيه قائله تبرأ منه الشعر .

ولا يكتب الخلود لشعر الحكمة الا اذا قاله من ارغم الدهر على الاصغاء الى إنشاده واسمعت كلماته من به صمم ؛ ومع أن المتنبي يسير في طليعة من صاغ هذا الشعر فلا يستطاع الجزم بأن حكمياته تستاغ في كل عصر ، فهي من بنات عصرها . وقد ظهر خاتم ذلك العصر فيها . ومن المحال أن يحاول تقليدها اي عصر جديد . وكل من استهواه تقليدها فهو من طبقة المحافظين .

لا نكير في ان في هذا الشعر قوة ومناعة وحسن صياغة . ولكن صب الحكمة في الشعر ليس مما يشمله الأدب الجديد . فالأدب الجديد في الشعر عاطفة ووصف . وما جاوز العاطفة والوصف بليد . ويجوز أن تطفو الحكمة في بعض المواقف . الا أن الاغراق فيها يذهب برونق الشعر . ويرصف هذا الشعر فوق اكداس القديم .

ومن الواجب على الأدباء والمتادبين الاكثار من مطالعة ابي تمام والمتنبي وابي العلاء . ففي مطالعة هؤلاء الائمة ما يساعد على اقتباس العصمة والقوة والفخامة . الا أن التشبه بهم يدل على العقم والعجز عن التوليد ، يدل على الانغماس في التقليد ، على الغرق في بحيرة ملأى منذ الف عام .

فمن خاض عبابها ، لن يبلغ شاطئها الآخر .وإذا بلغ هذا الشاطىء فـأي فضل هو فضله .وقد كان تابعاً لا متبوعاً ، وقد وقف حيث وقف سواه ؟

ولماذا الاقتداء بأبي تمام والمتنبي وأبي العلاء في شعرهم الضخم الجانح الى القديم أكثر منه الى الجديد ، وهناك عمر بن أبي ربيعة في قالبه الصحيح العذب الرسيل ؟ ..... فان ابن أبي ربيعة ابن كل عصر ، على حين ان المتنبي ابن عصر أو عصرين او ثلاثة . فان شعر زعيم الغزليين يقال وينشد ويردد اليوم وغداً وبعد غد ، ويندغم فيما يقال اليوم وغداً وبعد غد كأنه منه وفيه . فلا يجفوه عصر ولا يعرض عنه أي عهد . بينما المتنبي لا يرحب بأسلوبه كل جيل ، وإن يكن ثمة من اعترف بـ سيد الشعراء .

وكيف تسمع عمر بن أبي ربيعة ينشدك ابياته :

تقـول وليـدتي لمـا رأتنـي	**طربت وكنت قد اقصرت حينا**
اراك اليوم قـد احدثت امرا	**وهـاج لـك الهوى داء دفينا**
وكنت زعمت انـك ذو عزاء	**اذا ما شـئت فارقت القرينا**
بعينك هل رأيت لهـا رسولا	**فساقك ام لقيت لهـا خدينـا**
فقلت شـكا الـيّ اخ محب	**كبعض زمـاننـا اذ تعلمينـا**
فقص علـيّ ما يلقـى بهنـد	**يذكر بعض مـا كنـا نسـينا**
وذو القلب المحب وان تعزى	**مشـوق حين يلقى العاشقينا**

كيف تسمع هذا الشعر ولا تحسبه من مواليد اليوم ، بل من موا[ليد] كل يوم ، وهو الوضاء الصافي الانيق الرقيق ؟..

وهذا ابن الدمينة هلا اصغينا اليه في قوله :

الا يـا صبا نجد متى هجت مـن نجد
فقـد زادني مسـراك وجدا علـى وجـد

إن هتفت ورقاء في رونق الضحى
على فنن غض النبات من الرند
بكيت كما يبكي الحزين صبابة
وذبت من الشوق المبرّح والصد

هلا أصغينا الى هذا الشعر البهي القشيب وهو يحدثنا بلغة اليوم وروح اليوم ؟ ...

قيل كان العباس بن الاحنف إذا سمع هذا الشعر تترنح منه الاعطاف ، وكاد لفرط اعجابه به ينطح برأسه العمود . فقد تعتقه ابن الدمينة بلا خمر .

وابو فراس اي عصر لا يفتح له صدره وقصائده من بنات كل عصر :

اراك عصي الدمع شيمتك الصبر … اما للهوى نهي عليك ولا امر

وماذا تقول في شعر المنازي يوم فزع الى الوادي الظليل هربا من الحر .

نزلنا دوحه فحنا علينا … حنوّ المرضعات على الفطيم
تروع حصاة حالية العذارى … فتلمس جانب العقد النظيم

الا يسير هذا الشعر في ركاب كل عصر ؟.

والبهاء زهير ؟... اتنسى البهاء زهيراً ؟...

انا من تسمع عنه وترى … لا تكذّب في غرامي خبرا

وماذا نطلب في الشعر إلا أن ينهج هذا النهج ، الا أن يصدر عن هذا المورد ؟. ماذا نبغي منه الا أن يبقى ابدا شهي المذاق ، اذا رددناه

في كل ثانية أطربنا ورجونا أن نستزاد منه ، فلا يتنكر له زمن من الأزمان ، ولا تشد دونه الأسماع كلما قام للأدب العربي كيان .

فالأدب الجديد اذاً هو المبتكر ، الفريد ، السائغ ، الرائع الديباجة ، الواضح الجلي ، الذي يرضى عنه كل عصر ، ويهضمه كل جيل ، فلا يؤلم السميع بغريب الألفاظ ، ولا بالنافر من المعاني ، ولا بالتكلف والتعقيد .

والأدب القديم هو المثقل بالتقليد ، المطبوع بطابع عصر خاص لا يعدوه ، المنغمس في السجع في نثره ، والمتوكىء على الالفاظ والتفلسف في شعره ، العويص ، الخشن ، الوحشي الكلمات والمعاني ، ما يحتاج الى القاموس كلما خطر لك أن تجيل الانظار .

ومثل هذا الأدب شؤم على اللغة والبيان ، إلا أن المحافظين يستمرئونه ، بينما انصار التجديد يشنون عليه الغارة ، وينادون الى استئصاله وهو أدب راكد ، والأدب الراكد لا يعيش !

وقد طال التطاحن بين أنصار الأدبين . وسيطول كلما بقي في الأدب قديم وجديد . وعندنا أن الأدب الجدير بالحياة ما استوفى شروط البيان ، وحفل بالمبتكر ، وهز النفس ؛ وأرغمك على قراءته والاصغاء اليه ، واستعادة قراءته والاصغاء إليه ، هو ما اطربك كلما رويته ووقفت على بدائعه وآياته . هو ما رمى الى أبعد مما يرمى اليه مقال في صحيفة سيارة ينشر اليوم ليطوى غدا ..!

بيروت
كرم ملحم كرم
صاحب جريدة « العاصفة »

المصدر : الرسالة ـ العدد ٦٤ ـ ٢٤ سبتمبر . ١٩٣٤ السنة الثانية .

التطـور والتقليـد

في الادبين العربي والانجليزي

فخري ابو السعود ١٩٠٩ ـ ١٩٤٠

التطور والتقليد ، او التجديد والمحافظـة ، عاملان خالدان يعملان جنباً لجنب ويتنازعان كل كائن حي من فرد أو مجتمع او نظام او نحوه . فهما يتنازعان كل ادب حي ؛ وقد كان لكل من الادبين العربي والانجليزي نصيب من كليهما ، غير أنا اذا دققنا النظر رأينا أن الأدب العربي كـان أوفر حظاً من التقليد او المحافظة أو الاتباع ، بينما كان الأدب الانجليزي أوفى نصيباً من التطور والتجديد والابتداع .

تطورت لغة الأدب الانجليزي واسلوبه : فهما اليوم يخالفان ما كانا عليه في عهد شكسبير مخالفة كبيرة ، وتطورت اغراضه عامة : فصار اليوم اشد اتصالا بالمجتمع أخذاً منه وتأثيراً فيه ، وتطورت اشكاله : فظهرت فيه على التتابع المقالة الدورية والصورة والترجمة والقصـة الطويلـة والقصـيرة .

وتتابعت مذاهبه : فخلت المدرسة الرومانسية التي ازدهرت فـي عهد اليزابث ، وكان شكسبير وسبنسر من أينع ثمراتها ؛ وكان الخيال ووقائع البطولة وحياة الملوك والأمراء والقواد وقصص الأولين وخرافاتهم سداد نظمها ونثرها ؛ وتلتها المدرسة الدينية التي اطلعت ملتون وبنيان

اللذين كانت أمور الدين واخبار البعث والحساب والخلود مدار كتاباتهما ثم كانت المدرسة الكلاسية في القرن الثامن عشر فافتتن زعماؤها في الشعر امثال درايدن وبوب ، وفي النثر امثال اديسون وستيل ، بمحاكاة الآثار الكلاسية القديمة من اغريقية ولاتينية في حسن الصياغة وإحكام الاسلوب ثم اعقبت هذه مدرسة رومانسية اخرى في مستهل القرن التاسع عشر كان من اقطابها وردزوورث وشلي وكيتس ، فنبذت الاهتمام بتنميق الاسلوب واطلقت لخيالها العنان ؛ وفي اواسط القرن قامت المدرسة الواقعية تحد من ذلك الخيال الجامح وتربطه برباط الواقع ، وكان من رجالها تنيسون ثم هاردي .

وكانت كل مدرسة من هذه المدارس الادبية مرآة للحياة في عصرها : فمدرسة شكسبير كانت مرآة عصر الاستكشاف الجغرافي وكشف كنوز الادب القديم ، والمخاطرات والمغامرات في الكشف والقتال .. ومدرسة ملتون الدينية كانت مرآة عصر التشدد الديني الذي كان زعماؤه « المطهرين » ؛ والمدرسة الكلاسية المنمقة الاسلوب كانت صدى لمجتمع القرن الثامن عشر المنمق الآداب والاقوال المتهافت على حياة المدن المزدري بمظاهر الطبيعة ؛ والمدرسة الرومانسية في مستهل القرن التاسع عشر كانت تعبيرا في عالم الادب عما عبرت عنه الثورة الفرنسية إذ ذاك في عالم السياسة : من نزعة الى التحرر من قيود المجتمع واغلال الفكر والعودة الى الطبيعة ما امكن ؛ والمدرسة الواقعية التي تلت ذلك كانت متاثرة بالاستكشافات العلمية البعيدة المدى التي شهدها القرن الماضي . وقد تتابعت هذه المدارس جيلا بعد جيل وكانت كل واحدة منها ثورة على سابقتها تحاول إصلاح معايبها وتدارك ما اهملته .

هكذا تطور الادب الانجليزي مع تطور السياسة والعلم والدين ، وكذلك تطور الادب العربي : فلغة الجاهلية الوعرة تلتها لغة صدر الاسلام الفحلة ، فلغة الصدر العباسي الجزلة ، ثم جاءت بعد ذلك لغة لينة مبالغة في اللين والاناقة ، والاسلوب المرتجل المرسل تلاه الاسلوب الفني المتصمل المرصع الذي تزايد تعمله وترصيعه شيئا فشيئا ؛ وتطورت اغراض

الادب وشملت من اسباب الحضارة ما لم تشمل قبـل : من شؤون الامارة ومظاهر الترف وآثار العلم والفلسفة ؛ وتطورت أشكاله : فظهرت كتب التراجم والاخبار والنقد والمقامات والرسائل المطولة . فالادب العربي قد تطور تطورا عاما اتجه الى ترقيق العبارة وتوسيع اغراض القـول ، وكان مرجع هـذا التطور العـام هو تحضر ابناء العربيـة واشتغالهم بالعلوم .

ولكنه تطور عام غير محسوس كتلك التطورات السالف ذكرها في مجرى الادب الانجليزي ؛ ومعظم أغراض الادب العربي وصفاته توورثت جيلا عن جيل : فاغراض الفخر والمدح والهجاء والرثاء ونحوها في الشعر ظلت ابوابا ممتازة محددة يتبارى الشعراء في تناولها ولا تتم لأحدهم البراعة حتى يطرق كلا منها ؛ وكتب الاخبار الادبية والتاريخية المختلطة ظلت على وتيرة واحدة من اول ظهورها لا يختلف بعضها عن بعض في طريقة البحث والسرد وتهذيب الابواب والفصول .

ولا غرو فقد كانت تحيط بالادب العربي ظروف كلها تدعو الى المحافظة والتقليد : فالمجتمع العربي ذاته كان مجتمعا محافظا لم يكد يطرأ عليه جديد من الافكار والانظمة بعد تشبعه بحضارة الاقدمين وعلومهم ، ولم يختلف عليه من الاحداث الاجتماعية والسياسية ما تترك صداها في الادب : فقد كانت القصة من اولها الى آخرها على وتيرة واحدة : أسر وامراء يتوارثون الحكم ويتجاذبونه ، وأمم مكفوفة عن شؤون الحكم الا ان تثور ثائرتها في الفينة بعد الفينة فتقمع وتعود الامور الى وتيرتها ، وما من نزعة جديدة أو اتجاه جديد يحول عنان الامور الى غير ما هي سائرة فيه .

والادباء انفسهم كانوا منعزلين بآدابهم عن مجتمعهم قلما يعبرون عن امانيه او يحاولون قيادته ، وكانوا اقرب مكانا الى الامراء منهم الى صف الشعب ، لانهم كانوا يعتمدون على الاولين في معاشهم .

ثم إن قيام الامبراطورية الاسلامية أدى من بادىء الامر الى نتيجتين كانت كلتاهما ذات أثر بالغ في الادب العربي ، وكانتا عاملي محافظة وتقليد فيه : وهما فساد اللغة الفصحى تدريجا ، ودخول الاعاجم في اللسان العربي .

فان فساد اللغة تدريجيا جعل الادباء يحتذون دائما حذو المتقدمين من العرب الاقحاح ، ويتخذون من كلامهم نماذج وشواهد ، وصار حسب الشاعر المتأخر ان يجاري المتقدمين في جزالة القول وإحكام النسج ليكون قد بلغ مبالغ الشاعرية ، ولا يكاد يخطر له أن يبرز على أولئك المتقدمين ويبتكر ما لم يعرفوا ، وهو وإن لم يرد الا محاكاة أسلوبهم الا أن ذلك مؤديه حتما الى محاكاة أفكارهم ، ومن ثم التقليد والمحافظة .

والاعاجم الذين دخلوا في اللسان العربي انكبوا كذلك على دراسة المتقدمين وانصرفوا الى محاكاتهم تقويما لعربيتهم وطلبا لأسرار اللغة وقواعدها ؛ ولا يخفى أن كثيرا من اقطاب الادب المتاخرين كانوا من هؤلاء الاعاجم المستعربين ، فكان تاثيرهم في الادب تاثير محافظة وتقليد ونظر الى القديم .

وقد تزايد تبجيل كل ما ورد عن المتقدمين حتى قارب منزلة التقديس وإن قام من الادباء من ينكره ويثبت الفضل للمتاخرين . وكان من آثار هذا التقديس وهذه المحاكاة الدائبة ما نرى في الادب العربي دون غيره من الآداب من ظواهر بتراء ليست من التعبير عن الواقع ولا من الابتكار في شيء : كالغزل الاستهلالي ، وذكر الابل والحداء والبيد ، ومعارضة القصائد المشهورة بمماثلاتها في الغرض والوزن والقافية .

وهناك بابان من أبواب الشعر كان مجرد بقائهما عامل تقليد ومحافظة في الأدب : هما المدح والهجاء المتكلفان طلبا لصلات الممدوح أو لهبات خصم المهجو ، فقد كان الشاعر مثلا يمدح قائد الخليفة أو وزيره ما دام مرضيا عنه ، فان نكب تقرب الشاعر الى الخليفة بذمه ؛ وقد كان اكثر

المدح والهجاء من هذا النوع المتكلف المستـَمنـَح ، وما لم يصدره الشاعر عن شعور حقيقي فسبيله فيه ان يحاكي ويأخذ ممن تقدم نقصا وزيادة وتخريجا وتوليدا ، لذلك ظلت معاني المدح والهجاء وتشبيهاتهما في مختلف العصور تحوم حول اقوال المتقدمين ، واثر هذا جلي في جمود الادب وتقيده بالقديم بدل اتجاهه الى مناح جديدة .

ثم هناك عامل كبير بين عوامل محافظة الادب العربي ، هو اعتزال ذلك الادب غيره من الآداب ، فالادب ككل كائن حي يجمد ويتضاءل اذا لم يتصل بغيره ، فتتجاوب الاحساسات والافكار ، وقد كان من اكبر عوامل رقي الادب الانجليزي وتطوره اتصاله بالآداب المعاصرة ورجوعه الى الآداب الكلاسية ، أما الادب العربي فلم يكن له مرجع عدا ماضيه ، فظل دائما ينظر الى الخلف بدل أن ينظر الى الامام ، ولو استفاد من الادب الاغريقي مثلا لكان له تاريخ غير تاريخه المعروف .

كل هذه عوامل سياسية واجتماعية وادبية ادت الى ضعف رغبة التجديد واستفحال نزعة التقليد في الادب العربي ، ومن ثم ظل طوال العصور يردد الحانا بعينها حتى بلغ ما يمكن أن يبلغه مثله من الرقي ، ثم انحدر في طور تدهوره الطويل ، وكان من اكبر عوامل هذا التدهور تغلب نزعة التقليد فيه على نزعة التطور .

فخري ابو السعود

المصدر : الرسالة ، العدد ١١٠ ، ١٢ اغسطس ١٩٣٥ ، السنة الثالثة .

آراء في الماضي والحاضر

ميشيل عفلق – ١٩١٠ –

الماضي ثقل من الاثقال . وعلى الانسان او على الشعب ان يعرف كيف يجعل هذا الثقل مفيداً . فالحجر يمكنك أن تضعه كأساس لتبني فوقه بيتاً ، او تضعه فوق صدرك فيحبس منك الانفاس . وما اخال اكثر الذين يتغنون بالماضي العربي الا سالكي الطريق الثانية ، فعظمة الاجداد تكاد تخنقهم !

الماضي ثقل ، وللثقل استعمالات شتى . فهو للرفع والدفع ، كما انه للشد والمنع . فاذا عرف الشعب كيف يستخدم ماضيه ،كان دافعاً له الى الامام .. والا كان كحجر يعترض طريقه ويعوقه في السير .

العبرة كل العبرة اذن في حاضر الشعب، لا في ماضيه لان الحاضر اذا كان قوياً يسهل عليه الانتفاع بقوة الماضي ، مثلما ينتفع الولد الذكي من علم أبيه وماله . في حين ان الحاضر الهزيل ينوء بحمل الماضي الضخم ويرزح تحت ثقله ، كما يتخاذل الولد البليد امام شهرة اب ذكي !

قد يشفع الحاضر المجيد بماض مظلم . فلا يفكر احد مثلا في ان ينكر على تركيا نهضتها الحديثة بحجة انها كانت متأخرة في القديم . ولكن ماضي العرب الزاهر لم يشفع لهم امام اوروبا القوية المكتسحة .

لا تكون النهضة القومية في ان يبعث الماضي في الحاضر ، ولكن في احياء الحاضر للماضي . لان الحاضر في الواقع هو الذي ينعش الماضي ويعطيه قدراً يكسوه جمالاً .

الحاضر مرآة الماضي . فالابطال القدماء اذا لم تنعكس صورتهم في

ابطال جدد ، تظل هذه الصورة جامدة ميتة . والحاضر اذا كان مظلما صدئا يصعب ان تتبين من خلاله وجه الماضي مهما كان رائعا مضيئا .

تذكر الماضي دليل على عجز الحاضر وفقره ، كالشيخ المقعد الذي يقضي ايام شيخوخته في تذكر عهود صباه ولكن الشاب المضطرم بالحياة قلما يعرف الذكرى لانه يعمل بدلا من أن يتذكر .

لا ينفذ صوت الماضي الى الحاضر الا من خلال العصور الصامتة الفارغة . فاذا كانت هذه فعالة ملأى بالحوادث صعب على ذلك الصوت ان يهزها ويتجاوب بين جدرها . هذه ايطاليا اليوم ، شل فيها طاغيتها الابداع وقيد حريتها وحرمها الخير ، فصارت تحلم بتماثيل روما القديمة ، كما يحلم الجائع بصحاف اللحم ، والسجين برحب الفلاة .

لو كانت الشعوب القديمة التي بنت لنفسها مجدا مخلدا تجر وراءها ماضيا عظيما ثقيلا كالذي نجر نحن اليوم ، لما خلفت لنا جزءا صغيرا من الميراث الذي نتغنى به . ولكن اجدادنا مشوا الى الرقي خفافا ، كل شيء في نظرهم ممكن ، لانهم لم يتعلقوا بصورة سابقة عن الحياة ، ولا استعبدهم تاريخ حافل .

عند الامم المجيدة الحاضر ، لا يهتم بالتاريخ الا العلماء المختصون بدرسه . اما الحاضر الحقير فيجعل كل أبنائه مؤرخين . الكل يلهجون بالقديم لا حباً به بل هربا من التفكير في حالتهم .

اكبر كتاب عن الابطال القدماء ليس تلك الصحائف الصفراء التي يجمعها المؤرخون الشيوخ ، بل هو وجود من يضارع اولئك الابطال في البطولة ويتابع سيرتهم .

الماضي ابن الحاضر ، لانه أصغر منه سناً . فعلى الأب أن يمد يده الى ذلك الابن الراقد في أعماق العصور وينتشله الى الحياة .

ميشيل عفلق

المصدر : الطليعة ، دمشق ، العدد ١١ ، ١٩٣٥ .

الميول الرجعية

عند بعض ادباء العرب المعاصرين

يوسف متى

في مصر اليوم حركة ادبية رجعية تتزعمها جماعة من فطاحل اخلاف سيبويه ، ومن الاخطاء الشائعة التي يقع فيها كتابنا هي أن يعزو هذه الرجعية « للجشع المادي وابتغاء مرضاة الاغلبية الرجعية » فحسب وأن ينعتوها « برجعية مقنعة » وراء ستار الفن والادب فحسب . هذه المزاعم لا يمكن اعتبارها كافية لادراك دواعي هذه الرجعية عند اكابر كتاب مصر . اذ الحقيقة ان هذه الرجعية كانت نتيجة مباشرة لسير الحياة العامة في اوربا ، فهي ليست مظهراً خلاباً لارضاء الاغلبية الرجعية كما كتب احد الاصدقاء ، هذا ، وسنحاول في هذا المقال ايضاح فكرة الاغلبية الرجعية التي يرددها الكتاب،ويعزون اليها خطأ القيام بحركات فعلية ضد الادباء الاحرار . لكن ، قبل الكلام عن هؤلاء الادباء الرجعيين ، سوف نبحث باختصار الحوادث الاجتماعية التي خضعت لها أوربا الغربية ، والتي نعزو رجعية كتاب مصر بدرجة كبيرة جدا الى تاثيراتها وانعكاساتها .

* * *

ان السنين التي اعقبت المجزرة الاستعمارية الكبرى كانت مطبوعة بطابع واضح المعالم ، ويمكننا ان نطلق عليه اسم « طابع الحرية الفكرية » او « الديمقراطية » ، في مختلف بلدان اوربا الغربية . وهذه الظاهرة كانت نتيجة قيام الطبقة العاملة بحركات فعالة ضد الراسمالية المسيطرة أسبغت على المجتمع الاوربي الوانا زاهية من الحريات الفكرية

والاجتماعية ، سواء في ايطاليا او فرنسا . فأخذ الكتاب ينحون مناحي جديدة في كتاباتهم اقتضتها ظروف بيئتهم وصرخات المفكرين المخلصين واحساسهم بشقاء الاغلبية الكادحة في سبيل اقلية ضئيلة مميزة . هذه الكتابات كانت تختلف سواء في الدعاية ضد الحرب وتفسير التاريخ ، او نظم الشعر الثوري وتأليف الروايات الشعبية الواقعية وهدم الاباطيل الخرافية التي تستغلها الراسمالية للسيطرة على مشاعر الناس وخداعهم .

فاذا لاحظنا الآن أن النهضة الادبية في البلاد العربية — وفي مصر خصوصاً — كانت ولا تزال تتأثر باحداث اوربا الغربية وفنونها وآدابها امكننا ان نفهم بسهولة كيف ان الحرية الفكرية انعكست على البلاد العربية ، وجزافت بعض الكتاب العرب ، كل بحسب فهمه وقابليته .

اخذت كتابات طه حسين في الشعر الجاهلي تحدث دويا في مختلف الاقطار العربية ، وكان الزهاوي يشايع الافكار الداروينية في النشوء والبوخنرية في المادية ، وبدات « المقتطف » وسواها تحمل لقراء العرب بعض الوان الحركات الفكرية في اوربا ، فتاثر بكل ذلك وامثاله قسم كبير من اهل البلدان العربية ، وبهذه المناسبة نقول ان الساخطين يومئذ على الكتاب الاحرار لم يكونوا الاغلبية مطلقا ، بل كانوا الاقلية ذات المصالح المختلفة في الرجعية ، بما فيها الطبقة الحاكمة ورؤساء الازهر يومئذ . ومن الخطا ان نرمي اغلبية الشعب بالرجعية اذ ادركنا ان الحركات التي تظهر احيانا بصورة عداء او كراهية ضد الكتاب الاحرار هي من موحيات الرجعية .

بيد أن الراسمالية في البلاد الغربية لم تكن ، في هذه الاثناء مغمضة عينها عن ملاحظة انتباه الطبقة العاملة وادراكها لحقيقة وضعها ، فكانت تشد قبضاتها الحديدية وتخلق هنا وهناك رجعية قاهرة باسم فاشستية أو نازية او غير ذلك ، ووكلت عليها ديكتاتوريين يحكمون لحفظ احتكاراتها واستثمارها بالنار والحديد ، ولا سيما انهم ذعروا اذ رأوا روسيا

القيصرية تدخل في ذمة التاريخ ، اذ قامت بثورتها الناجمة وشرعت في بناء مجتمعها الجديد ، اول مجتمع غير رأسمالي في العصر الحديث .

وعلى اثر ذلك تقدمت في ايطاليا دمية الرأسمالية موسوليني . واستوت معه في الحكم في ربوع ايطاليا افكاره الرجعية واساليبه الفاشستية في القضاء على كل جديد وخنق صوت كل مخلص وكل مفكر حر . واخذت الرأسمالية تصفق لهذا النهج الجديد بيديها الملطختين بدماء ملايين ضحاياها . فمن لم يقتل من اهل الثقافة العليا والفكر الحر واصحاب الارومة الانسانية قضى في سجون الفاشيست الفظيعة . واخذ الكتاب الرجعيون ينبشون ويفبركون كل بال عتيق من الاراء التي لا قيمة شعبية او فنية حقيقة او انسانية لها من الادب ، فيقدمونها للناس تسلية رخيصة تلهيهم عن وضعهم البائس .

نقف عند هذا الحد عن ايطاليا ، والقارىء يمكنه أن يفكر بما انتجته هذه الدعوة من الحملة العسكرية على الحبشة المسكينة التي اريقت فيها دماء الالوف من جنود ايطاليا المخدوعين ، وقتل من الاحباش اكثر من اولئك ، والهبت العالم بكل هذه الرزايا التي نلمسها الآن ، لا لشيء الا لتكون النتيجة تضخم رؤوس أموال أصحاب معامل الاسلحة الايطالية فقط واستثمار الاراضي الحبشية ان كانت تستثمر .

ثم في المانيا مدت الرأسمالية العليا يدها لتخرج دكتاتورا تمثيلي الطبع والاحساس ، فيصرخ بلسانها وهي تختبىء خلفه : « الجنس الجرماني ... نحن الجرمان ارقى الاجناس واسمى الشعوب واقوى العناصر ! .. » ثم بالتستر بهذه الدعوة يقوم يشتت كل مفكر حر ، حتى لم يعد احد يتمكن جهارا من الدعوة الى السلام والتنبيه الى ما ترتكبه البربرية في سجونها الهائلة وفي الحياة الالمانية المقهورة .

لقد خنقت النازية في المانيا كل فكرة تقدمية وقضت على مفكري المانيا الافذاذ ، سواء بزعم انهم من العنصر السامي او انهم ينشرون دعوة الحرب ويبينون للناس أهوالها وفظائعها . ولم يعد يصدر جهاراً

من الكتب والمؤلفات الا ما كان يحمل الطابع الارتجاعي لنفخ صدور الشباب والهاب حماستهم ليسهل دفعهم الى مجازر اخرى يثري من ورائها اصحاب المصالح والمعامل .

في الوقت نفسه كانت اسبانيا ترزح تحت نير دكتاتورية اخرى تعمل في سبيل الراسمالية ومشاريعها الاستثمارية ، وضرب كل حركة نضالية مجاهدة . وكان الصراع في فرنسا ايضا قائما بين الرجعية الفاشمة واحزاب اليسار ، ولم تنج حتى بريطانيا « الام » من خطر الفاشستية برغم مزاعم الاعيان والوجهاء بان تقاليد انكلترا ومحافظتها تمنعان تسرب الفاشستيه اليها !...

هكذا كان في اوربا الغربية . ولا يفهمن من هذا ان حركات الكفاح العمالية ماتت في البلاد التي ذكرناها . اذ ان حركات الاضراب الثورية المنظمة سارت دائما/بتقدم هائل وقد ظهر اثرها في اسبانيا وفرنسا . واما في المانيا وايطاليا فتشتغل بنظام خاص ليس هنا مجال ذكره .

غير اننا نريد ان نقول ان هذه الحركات والافكار الرجعية انتقل صداها الى البلاد العربية . ولا ننكر ان مصر اوثق هذه البلاد علاقة فكرية باوربا الغربية ، فكان انعكاس آثار الرجعية فيها ابين واوضح ولم يقف الامر في آدابها وفنونها ، بل تعداه الى نظام الحكم ، وهو ما كان يريده المستعمرون . ولا يذهب القارىء الى اننا نقول بحتمية هذا التاثير الرجعي . لكننا لا ننكر ان مهزلة الحكم المطلق في مصر كانت لعبة استعمارية ، قضت على دستور ١٩١٣ وسدت افواه الاحرار العاملين ضـــد الاستعمار .

* * *

لم يكن اثر الرجعية على جميع الكتاب في مصر متساويا او واحدا . ولكن اكثر من ظهرت عنده اتجاهاتها وافكارها هو الدكتور طه حسين . ولا ننسى ان نقول ان الكتاب الرجعيين حصلوا على شهرة واسعة ومكانة

ممتازة وثراء كبير ، ودابو جهدهم للمحافظة عليها . اذ لم يكد يخرج طه حسين ، مثلا ، من الجامعة المصرية ، وكان متاثرا بموجة الرجعية الغربية ، حتى اخذ يفكر بطريقة لارضاء « الاقلية المدركة » — لا الاغلبية غير المدركة كما يعتقد بعض الاخوان . فكر طه حسين كيف يرضي اعداءه الرجعيين بالامس ، فلم يكن اسهل من التزيي بزيهم والضرب على عودهم وبهذه المناسبة نقول ان كتاب الرجعية في مصر لا يكتبون لغير الاقلية « المتعلمة » فهم لذلك لا يهتمون بالاغلبية « الجاهلة » . وكل ما يكتبونه او يقولونه يجب ان يفهم انه في سبيل مرضاة هذه الاقلية ، التي اصبح طه حسين مربوطا بخيوطها المصلحية . فكان همه اعادة ما افسده الدهر من صداقتهم ، وكان ظهور كتاب « على هامش السيرة » اثر الموجة الرجعية الغربية وارضاء للطبقة الحاكمة والازهر .

الدكتور من القائلين بان الادب والفن يجب ان يكتبا لاجل الادب والفن ، ويجب ان لا يبتذل هذا الادب لتفهمه العامة !.. ان رجعيته المفضوحة تحاول ان تتستر بما يتوهمونه ادبا وفنا . ويجدر بنا ان نقرر ان الدكتور تمكن من ارضاء الطبقة الرجعية القليلة ، وهكذا اعيد الى منصبه في الجامعة ، حيث حمل فكرة مناصرة كل وضع وكل نظام عندما اتخذ سمة الواعظ بين جماهير الطلاب : ان يهدأوا ويصبروا في حركاتهم الفعالة ، وانهم المتعلمين الذين يجب عليهم ان لا ينصروا حزبا على حزب ، وانه يجب أن تتميز حركتهم عن حركات غير المتعلمين ! .. الى آخر هذه المخدرات المضحكات .

ومن الغريب ان تأخذ حمى « الفن » بخناق الدكتور حتى لتفقده بصيرته الى حد ان ينكر العلم ويحمل على العلماء .. فقد قرانا له مقالا في « مجلتي » عنوانه « بين كأسين » يتنكر فيه لصديقه الدكتور محمد عوض محمد لانه كتب مقالا في مجلة « الهلال » ذهب فيه الى ان حروب طروادة قامت على اساس فتح تجاري ، ونظمها هوميروس كما اوحت له مخيلته الشاعرة . تنكر الدكتور طه حسين لهذه « النتيجة الفجة الغليظة الحقيرة » ، كما يدعوها ، وقام بشتم هؤلاء العلماء الذين

يعزون كل حركة او حرب الى اسباب مادية وارسلها صرخة : « اللهم اني اتكر العقل ! واجحد العلم ! وارفض أن تكون حرب طروادة قد قامت لشيء غير جمال هيلانة الخالدة ! »

ندع طه حسين غارقاً في كاس « فنه » الى اذنيه يتجرع منه « التي لا يجرعها الا صفوةالاخيار . . . » راثين لهذا الفهم المعكوس ، لنقول كلمة عن الدكتور حسين هيكل الذي نرى ان موجة الرجعية كانت تجرفه وهو يناضل في سبيل الوصول الى ما يتوق اليه « كمدرك متعلم » ، فكان من اللزام عليه أن يرضي الاقلية الرجعية المحافظة التي تقرر مصير المنتمين اليها .. وهو كذلك من الذين يحصرون ويحددون الادب بانه « فن جميل يبحث عما في الوجود من خير وجمال » فقط.وهذه الفلسفة المورفينية الرجعية الفردية تقول للفلاح الكادح والعامل المتعب اللذين تؤكل جهودهما ، تقول لهما بطريق غير مباشرة : « كن جميلا تر الوجود جميلا » ليخدع كل واحد منهما نفسه ويرضى بالواقع الاليم — تقول ان هذه الفلسفة التخديرية لا يقولها هيكل للفلاح والعامل رأساً وما حولهما من الاغلبية المطلقة لانهما لا يقرآنه ، ولكنها تخلق جوا من هذه الروح وتثير جدالا مضحكا عن الخير والجمال ، فتقرر دون علمه وشعوره ، ما يريده للاغلبية . كذلك الاستاذ الزيات في « رسالته » عندما يتكلم عن القرية والفلاح ، واصفا جمال الطبيعة وخرير الماء وثغاء النعجة وتغريد البلابل ... وسعادة الفلاح (!...) وتمجيد قناعته وسكوته ، باسلوب مجلجل الكلمات ، ضخم العبارات ، رجعي النزعة .

اما رجعية الاستاذ الرافعي ، فمن الواجب ان نقرر انه تشربها طفلا وكرعها يافعا وامتزجت بدمائه كهلا بحكم مركزه وبيئته . وأن ذهب يزعم للناس انه يكتب عن الحب والفلسفة ، فان كلامه في الواقع فارغ المعنى لا يكاد ينطبق بشيء الا على ما قررته رجعيته من اهمال تعليم الشعب . وقد كان من وحي « الرسالة » ان جرفت الاستاذ توفيق الحكيم بتيارها . وهو من تلامذة طه حسين ومن اشد الكتاب صلة بالادب الغربي وتمجيداً لفردية الفن ، ومن الكارهين للمرأة . هذا الكاتب

الذكي الفنان بعد ان اخرج « عودة الروح » عاد يقرر ادبه باريستوقراطية ادبية مبتذلة . فما اخرج آخر كتبه إلا لتمجده الرجعية وتضمه الى صفوفهـا .

ان جميع من ذكرناهم يقولون بمبدأ « الفن لاجل الفن فقط » وهم يكتبون للطبقة « الراقية » فحسب ، المتعلمة تعليما عاليا ويانفون الكتابة للجمهور ويصرحون بهذا بصلف الاشراف الميزين عن الناس بطبقتهم وبما يعتقدون من فهمهم وادراكهم السامي لاصول الحياة الفنيـة والادبية . فتراهم يشنعون بكل كاتب « يبتذل حتى تفهمه العامة » ويقتتلون على لفظة لا يقرها القاموس . نقول هذا لندلل على ان هؤلاء الكتاب لا يكتبون للأغلبية الا بالرغم منهم وبسوق من غريزتهم حـين تسمو بهم عن طلب ارضاء الاقلية الرجعية التي ينطقون بلسانها ويحافظون على مصاحها . فمن الخطأ اذن القول بان هؤلاء يبتغون « ارضاء الاغلبية الرجعية » كما ذهب صديقنا عبد الوهاب الامين . ولسنا بحاجة للقول اننا لسنا ضد القديم على اطلاقه . ولكننا نسأل . او ليس من الافضل ان لا يتوارى الكتاب وراء كلمات الفن والشعر والادب ليتخلوا عن ميدان الشعب . ان المخلصين يهتمون بالادب الشعبي . وان شيئا يعوز الرجعيين هو ما يسمى « الوجدان الثوري » الذي يمتاز به المخلصون القريبون من الشعب وآلامـه .

بغداد　　　　　　　　　　　　　　　　يوسف متى

المصدر : الطليعة : دمشق العدد الثامن . تشرين الاول ١٩٣٦ السنة الثانيـة .

المتعلمون والشعب

ابراهيم المصري

ننشر فيما يلي مقالا ممتعا للاستاذ ابراهيم المصري يبحث فيه ناحية خطيرة هامة من حياة الشباب المثقف الناشيء . وهو ، وان يتحدث عن المصريين منهم ، فان اقواله تنطبق على تلك الطبقة في مجموع اقطارنا العربية ، رغم ما نلاحظه الان من بوادر نهضة مباركة بينها في بعض ربوعنا . ف « الطليعة » التي ما انفكت تدعو عنصر الشباب المتعلم الى التقرب من الشعب ودرس شؤونه وآلامه وتثقيفه والتعاون معه على تحرير هذا الوطن العربي واعلاء مجده ، تثني على الجهود التي يبذلها الاستاذ المصري وامثاله في هذا السبيل وتامل ان تكلل بالنجاح . والمقال هذا قد نشر قبلا في صحيفة مصرية ونحن لم نر غضاضة في نشره مرة ثانية لما فيه من صراحة وصدق .

* * *

تصطنع مصر الحضارة الغربية . وترسل بأبنائها الى مختلف بلاد اوربا واميركا يتلقون العلم على اهله ويتصلون بروح الحضارة في مستقرها ويقفون بأنفسهم على شتى مظاهرها الخلقية والثقافية . ثم يعودون الينا لتجديد البيئة الشرقية وحراثتها حراثة جديدة لهدم الفاسد من النظم وبناء الصالح منها ، للاندماج في طبقات الامة اندماجا عمليا ونشر مبادىء الحرية والعدل بين سواد الشعب .

هذا واجبهم فهل هم يؤدونه على خير وجه . وهل نلمس في حياتنا اليومية اثرهم الفعال . وهل نحس في أخلاق هذا البلد وعاداته ونظمه تلك الوثبة العنيفة التي يحدثها غليان الفكر والشعور في نفس الطبقة المتعلمة .

ليس من ريب في ان البلد ناهض . وان النهضة المصرية كسائر نهضات

الشعوب الناشئة تسري عليها افاعيل المد والجزر ، فتارة تتقدم واخرى تتراجع . ولكن هذا التارجح بين الارتقاء والتقهقر ، هذا الاضطراب بين القديم والجديد ، هذه الحركة المطردة نفسها هي مظهر القوة وعنوان الحياة .

واذن فالنهضة قائمة ، والشعوور بها متاجج في الصدور ، ملازم خيالات المصلحين يبرح بهم ويقض مضاجعهم ويصليهم مر العذاب ... الا ، اني اود ان اصارح نفسي والقراء بان هذه النهضة مازالت حتى الساعة منبعثة من الرؤوس للرؤوس ، صادرة من المتعلمين للمتعلمين أي لمصلحة طبقة واحدة : هي طبقة أهل المدن وأهل الريف المترفين والمسئول عن هذا هم بعض المتعلمين أصحاب الثقافة الغربية او ادعياؤها . ونظرة واحدة على حياتهم تقنع القارىء بصوواب ما ارمي اليه .

يقصد الشاب المصري منهم اوربا فيتخصص في فرع من العلوم ، ويحصل على شهادة . ثم يرجع الينا وقد فتنه من الحضارة الغربية طلاؤها الظاهري ، وزخرفها المادي وشتى وسائل النعيم التي أبصر القوم هناك يستمتعون بها ويقدم لهم منها الرقي الصناعي الوانا مختلفة كل يوم .

يرجع الينا هذا الشاب وملء نفسه الامل باستغلال علمه في سبيل ان يحيا في مصر حياة المرفهين في اوربا . في سبيل ان يصبح موظفا ناجحا يتحدث عن الدرجات ويرتقب العلاوات ويتطلع الى منصب قاض او وزير في سبيل أن يصبح رجلا « بوورجوازيا » كاملا ، مطمئنا على عيشه ، مستوفيا حاجاته المادية ، آمنا شر الفاقة ، خاضعا للنظام والعرف ، يتجنب المصارحة بآرائه الجديدة ، ويخشى الافضاء بنزعاته الحرة ، مخافة ان يصطدم بالتقاليد السائدة فيتهدد مراكزه ويتبدد النعيم المادي الذي يسبح فيه .

هذه الحياة تولد في نفس هذا الشاب ضربا من الانانية الخطرة ، والجبن الحقير والنفاق الممقوت . فهو يتعلم ليصبح موظفا . وهو يترفع ليصبح من القادة . ومتى أصبح منهم وانخرط في سلكهم واتصل بهيئة

الحكام خضع لطبقته وانضوى تحت لوائها والقى عقله واحساسه دفاعا عنها ، وانقطعت الصلة بينه وبين نفسه وبينه وبين سواد الشعب .

قد يكون هذا الشاب موسرا ، في وسعه الانصراف الى الاعمال الحرة والاحتفاظ بفكره خالصا من شوائب الكذب والرياء وخدمة بلاده خدمة نزيهة صادقة، ولكنه كثيرا ما يؤثر المنصب على العمل الحر . اذ في المنصب لذة السيادة والحكم التي يتوهم بعض المتعلمين في مصر انها هي التي تتفق مع ما للعلم من مكانة وسلطان ، وهي التي تتناسب مع ارستقراطية العلم وارستقراطية المال .

فليس المنصب في نظر اولئك المتعلمين الا وسيلة من وسائل السيادة ، وملجأ يستريحون فيه بعد عناء التحصيل . يستريحون ويستمتعون بأقل مجهود . وان من كان هذا مثله الاعلى ليس في مقدوره على الاطلاق التخلص من مؤثرات الطبقة التي تحققه له وتمنحه اياه فهو يجتهد في حمايتها برغمه . يتشبث بعاداتها ، ويروج لاخلاقها ، ويذود عن تقاليدها ، وينسلخ عن مجموع الشعب شيئا فشيئا ليزداد ارتباطا بها .

وهذا هو الواقع الآن .

فالفريق من المتعلمين الذين ذكرت ، لاسيما بعض المثقفين منهم في مختلف جامعات اوربا وامريكا ، قد انضموا بدافع المصلحة وتاثير البيئة المتحولة التي انشأتهم وانفقت على تعليمهم — الى طبقة الموظفين ، والموظفين فقط . بل هم اليوم قد الفوا طبقة ممتازة تعيش على هامش الحياة المصرية وتتمثل انانيتها الخطرة في السعي الى ما يعود عليها وحدها بالربح الوفير .

نحن في حديثنا عن هذه الطبقة لا نوجه اللوم الى الموظفين ولا نقصد اتهامهم ، ولكننا نعيب على بعض المتعلمين المثقفين منا عبوديتهم لفكرة التوظف وانصرافهم الى تاليف كتلة مستقلة لا تحفل بغير مصلحتها . كتلة قد انسلخت وتنسلخ عن ابناء الشعب تحيا من كدهم وكأنها غريبة عنهم ..

لا تعنى بهم ولا تأبه لمطالبهم ولا تحاول التعرف اليهم للوقوف على مدى القوى الهائلة التي تصطدم في نفوسهم ولدراسة حياتهم العاملة المجيدة على ضوء الثقافة الحديثة والعلم الحديث دراسة وافية شاملة أساسها الرحمة والمحبة وقوامها العدل والانصاف والحرية .. وانا اتحدى اي فرد من افراد تلك الطبقة ان يحدثنا طويلا وفي حنكة ودراية وعمق عن حياة الفلاحين المصريين والعمال المصريين ، وعن واجبه تجاه ما تتطلبه تلك الحياة من اصلاح عاجل ، وعن جهوده هو في سبيل هذا الاصلاح . بل انا اتحداه أن يجرؤ فيصارح باحساسه العميق نحوهم ونظرته اليهم ومعاملته لهم ، سواء أفي البيت أم في الديوان او في الطريق أم في المزرعة .

ولو فعل . لو كاشف ايما انسان بما يضمره لهم ، لو خلا الى نفسه وحاسبها على عواطفها من نحوهم ، لو حلل الافكار التي تنبثق في ذهنه والميول التي تحتل قلبه ساعة ان يصادف واحدا منهم ، بل لو انعم النظر في تصرفاته حيالهم وقارن بينها وبين ما يشعر به ويفعله اذ يلتقي بنفر من اهل طبقته ؛ لو اقدم على هذا وكانت فيه بقية باقية من ضمير حي لم تخنقه المصلحة ولم يخمده حب الترف ، فقد يشعر ان بينه وبين الفرد المتحضر المتعلم الصحيح كما يبين القرد والانسان او بين شعوب أوروبا الشمالية وقبائل الزولو .

ان الترفع والكبرياء والازدراء والاستخفاف والتحكم وعدم الاكتراث وسائر غرائز الاثرة الشائعة في الروح البيروقراطية الشرقية العتيقة هي التي تقابل بها تلك الطبقة العصرية المثقفة أبناء الشعب ، وهي التي تحفر الهوة السحيقة بينها وبينهم ، بل هي التي تؤخر حركات الاصلاح في الريف بالنسبة للفلاح وفي المدن بالنسبة للعامل .

وانه ليخيل الي ان تلك الطبقة من المتعلمين لا ترى في مصر غير القاهرة والاسكندرية ولا تعمل الا على نقل الحضارة الاوروبية الى القاهرة والاسكندرية حيث تنعم هي وينعم الاجانب ويتفق الفريقان على استغلال موارد البلد لاشخاصهم وذويهم دونما احتفال بالطبقات البائسة المنكوبة العاملة .

اجل لقد انقطعت الصلة بين تلك الطبقة وبين العمال والفلاحين .

ان جهل هؤلاء وفقرهم وانحطاطهم وقذارتهم وتواكلهم ، كل هذه الاعراض تنفر منهم الفرد المتعلم المنتسب الى تلك الفئة . فبدل ان يستخدم علمه في التقرب اليهم والاحساس بمطالبهم وايقاظ حاسة الكرامة فيهم ومحاولة اصلاحهم ، ينطوي على نفسه ويتشبث بطبقته ويزهو عليهم وينصب الحاجز الابدي بينه وبينهم . وهو انما ينساق الى ذلك بطبيعة حياته ونظامها . فهو يعيش في المدن ، بل في الاحياء الاوروبية وبين الاوروبيين . يرتاد مسارح التمثيل ويغشى دور السينما ويطالع الادب الغربي ويتشدق بالكلام عن كبار كتاب اوروبا وشعرائها ويجادل في المسائل السياسية بعبارات ملؤها التحفظ والحذر والجبن . فاذا ما حدثته عن المشاكل الاجتماعية وعن موقف عمالنا من حياتنا الاقتصادية وشؤون فلاحينا وآلامهم ومطالبهم اجابك لفوره : انهم سعداء بحظهم ، سعداء بجهلهم . وانهم هكذا عاشوا طوال السنين، وانه قد يكون في الرقي والتقدم شقاؤهم ... فتحس لفورك بعمق الهوة الفاصلة بينه وبينهم وتشعر انه لم يفكر قط فيهم ولم يخطرهم على باله لحظة وان حياته الضيقة الجوانب المحدودة الفسحات ، مقصورة على اعمال المنصب وملاهي المدن ومطالعة الصحف والروايات .

هذا ولو انه رجع بذاكرته الى ما يمكن ان يكون قد طالعه من كتب التاريخ الحديث ، لأدرك ان المتعلمين من شبان وبنات الروس كانوا يؤلفون قبل الحرب مختلف الجمعيات تطوف القرى الروسية وتتصل بالفلاح الروسي وتتوافر على دراسته وتتعرف الى خلقه وتستمع لشكاواه وتعمل على تعليمه وتهذيبه ورفع مستواه المادي والادبي . بل لقد كان ابن البيوتات العريقة يخرج على وسطه ويندمج في بيوت الشعب وينزح الى الريف ويحس وهو يتجول ويجاهد ويعلم ويهذب ان من واجبه احكام الصلة بين شطري الامة ، وتوثيق روابط التفاهم والتعاون والرقي المشترك بين الطبقات القائدة والطبقات العاملة .

اما عندنا فالويل كل الويل من المتعلم المسمم العقل والروح يوم ينقل مثلا في وظيفة الى الريف . انه ليستحيل اذن عنصرا جامحا من عناصر الاستبداد . يعد هذا التبدل في حياته كارثة ، فيجف طبعه ويغلظ خلقه ويعمد الى الثار لنفسه من الفلاحين التعساء فيضطهدهم وينكل بهم كانهم هم المسؤولون عن نقله وهم الذين سلبوه نعمة الحياة الناعمة في المدن . وهذا الكره لحياة الريف الناجم عن سحر الحضارة الحديثة المجلوبة الى المدن وعن افتقار فريق من المتعلمين للاحساس بما للشعب عليهم من حقوق، يؤثر ولا شك في ثروة البلد اعمق تاثير . فاصحاب الاطيان يعيشون في القاهرة أو الاسكندرية فارين من قراهم تاركين مقاليد الامور فيها لمفتشيهم ونظارهـم .

وهذا هو السر في ان كثيرا من المزارع الخصبة تهمل زراعتها أو تزرع بأساليب سيئة فيقل محصولها بينما أصحاب الاطيان من المتعلمين حملة الدبلومات الزراعية يقنعـون بايجار اطيانهم ولا يحفلـون بمستاجريها ولا يشعرون البتة بأن لأولئك المستأجرين عليهم واجبات، في تاديتها مصلحة لهم وللمجموع على السواء .

وجملة القول ان في مصر طبقة من المتعلمين في وسعها تحطيم اغلال العادات القديمة والتقاليد البالية ولكنها لفرط عنايتها بنفسها لم تعد تعني بالاحوال العامة للامة . فهل لشبابنا المتعلم ان يدرك ان لا علم مع الانانية ، وان الامة انما علمت رجالها لا لخدمة انفسهم فحسب ، بل لخدمة مجموع الامة ممثلا في تلك الطبقات الجاهلة المسكينة الخليقة بكل حب وتمجيد وتضحيـــة ؟

ابراهيم المصري

المصدر : الطليعة ـ دمشق العدد العاشر ، كانون الاول ١٩٣٦ السنة الثانية .

قطيعة الماضي

محمد امين حسونة ١٩٠٩ – ١٩٥٦

اقبل على الادب الاوربي اطالعه في حماسة وشغف ، فيتوقد ذهني وينشرح صدري ، وسرعان ما تواتيني الافكار العلمية الصحيحة ، وتنثال علي الخواطر الناضجة .

هذا الادب الاوربي الذي يلهمني تعاليم الحضارة الحديثة التي يأخذ بها العالم ، ويغرس في ذهني روح التفكير النبيل الحر ، يزيدني ثباتا وجراة ، ويوثق الصلة بيني وبين رواده ، فأحس اني عضو عامل في هذه الهيئة البشرية المتمدينة ، وانظر الى العالم كما أنظر الى أسرة واحدة ، ويدفعني هذا الاحساس العميق الى التفكير في طلب الرقي لأمتي ، واستنباط وسائل الاصلاح التي أرى ابناء وطني في أقصى حاجة اليها ، فلا يعود الفلاح عرضة للفقر والجوع والمرض ، ولا يشكو الشاب المتعلم البطالة والضعف والخمول ، ولا تعتقد المرأة في الزار والتمائم والبدع ، بل اعمل على رفعهم جميعا من حضيض الجهل الى مرتبة الانسان الحي .

فبالأدب الاوربي أحيا حياة فكرية شريفة ، وتنمو في نفسي نزعة قاهرة تدعوني للسمو ، فأوثر اللحاق بالغرب لأنعم بخيرات المدنية الحديثة ، واقف على قدم المساواة مع غيري من أبناء القرن العشرين .

واحاول ان اكره نفسي على تذوق الادب العربي القديم وتلاوة نصوصه ، فاخال اني مساق الى السأم والضجر وبلادة الفكر ، وسرعان

ما يتراءى امامي جو الرياء الذي عاش فيه ادباء تلك العصور ، جـو القصور المتعفنة التي كانوا يستمدون حياتهم منها ، فيتقدم الشاعر من المرتزقة ليمدح الخاصة ويتملق العظماء ، لا لشيء سوى جلب السرور والمتعة الى نفوسهم ، على حساب الادب الحر . ومن هنا كان حظ الشعب المسكين من التصوير الادبي حظا ضئيلا ، فلم يعترف ادباء العرب بحقوقه ولم يعنوا بالدفاع عن حقوقه ولا طلب المساواة بين افراده !.

هذا الادب وحده لا يمكن ان يصلح غذاء كافيا لابناء هذا الجيل ، فهو يؤتي في نفوسهم اسـوا الثمرات ، ويرغمهم على إنفـاق وقتهم في حل الطلاسم والأحاجي ، ويستنفد قواهم الذهنية في اصطناع اشباه تلك الاساليب الكاذبـة المقوتـة . واخيرا ينتهي بالمستنيرين منهم الى اعتباره ادبا زائفا لتجرده من عناصر الحياة الخالدة ، ووقوفه جامدا لا يعبر عن إحساساتهم الابدية بل عن الحياة الاجتماعية عند طبقة معينة من العرب في ازمنة بائدة .

بسبب الخضوع لهذا الادب ، وتلك العقائد الموروثة ، لم يتقدم الى الآن قصصي واحد فيعالج الموضوعات التي تمس حياة الجماهير وتحرك الوتر الخفي من إحساسهم .

ولم يستطع شاعر من شعراء الجيل الماضي ان يتخلص من عبودية الالفاظ والزخارف ، فيهز مشاعري بوصف جمال بلادي ، ويستوحي الطبيعة المصرية بدلا من استعارة اخيلة البدو الذين لا يزالون يتحكمون في أوضاع شعره وفنه من وراء قبورهم ..

ولم يجرا كاتب مصري من كتاب ذلك الجيل على ابتداع عمل ادبي فني للدفاع عن فكرة معينة ، او محاربة البدع والخرافات والسخافات التي تئن تحت اثقالها امتنا .

وهل تحسب واحدا منهم فكر في مصارحة المتعلمين عما اذا كان التقليد هو سبب تاخرنا الفكري او تقدمنا ، وفيما اذا كان احتذاء

أساليب الاولين يعوق نشاطنا الذهني ويقتل ملكات الابتكار في نفوس شبابنا ؟

جميعهم شغلوا بالبريق اللفظي ، وانصرفوا الى الزركشة البيانية والشعوذة اللغوية ، فكان كل ما عند انصار الفكر الحر باطلا في نظرهم يجب أن يحاربوه ، وكل ما في صحائف الاولين خير يجدر بهم أن يقتبسوه .

وفي الحقيقة ماذا يهم الشاب في مصر ان يعرف أن المتنبي ادعى النبوة او أنكرها ، وان ابا نواس كانت له علاقات شائنة مع رجال عصره ، وان ام عمرو بن العاص كانت زوجة لاربعة رجال في وقت واحد ، وان يلغي عقله ليردد فقط ما سبقه السلف الى قوله فيمدح الجاحظ ويذم خصومه ، ويتشكك في كل ما كتبه المعري بحجة انه كان كافرا زنديقا !

وهل تحسب الشبان عندنا يفيدون من مطالعة هذه المؤلفات التي توافر اصحابها على صناعة التصنيف ورص الكلمات ، وترتيل الاشعار السقيمة التي يرثي فيها الشاعر ناقته في أربعين بيتا او يهجو كلبا او يصف جارية او يتغزل في غلام بعشرات القصائد .

انما يهم الشاب المصري أن تصارحه بان عليه ان ينظر الى أدباء الصناعة كما ينظر الرجل المتمدين الى الدمى الخشبية المصنوعة في القرون الوسطى ، يهمه أن تكشف له عن المساوىء والعيوب الخلقية التي نزلت اليها امتنا ، وان تواجهه بالحقائق المرة بدلا من التستر عليها ، وأن تعالج أسلوب الفلاح في حياته التعسة قبل ان تعنى بأن يجيء اسلوبك الكتابي على نمط الجرجاني او الخوارزمي او الجاحظ .

كيف تريد الى الشعب أن يتذوق الادب ، وكيف تشكو من كساد سوق الكتب وبيع الكلمات ! ومعظم هذا الادب اجنبي عن نفسيته ، لا يصف ملامحه وعاداته وبيئته ، ولا مطالب الطبقات الدنيا وحقوقها ،

وانما هو يستوحي خيال امة غير الامة المصرية ، ويباعد بينه وبين تفهم الوسط الذي يعيش فيه ، ويتحدث اليه عن تاريخ اناس لا يمت الى عقليتهم بصلة .

وعليه يمكننا ان نقرر في صراحة أن ادبنا الحاضر لا يمثل روح العصر ولا حياة القرن العشرين ففي الوقت الذي بدأ العالم يفكر في الاستعاضة عن المصباح الكهربائي بما هو أحسن منه ، لا نزال نضيء ظلام آدابنا بالفتيل والمشعل ، ونتعلق بالماضي عوضا عن ان نتغنى بمجد المستقبل ونتمسك بأهداب التقاليد بدلا من ابراز مواهبنا في مضمار الأجتهاد ، ولا يزال تعريف الادب عندنا « هدية الادباء للادباء » . فهو الادب الارستقراطي الغريب عنا ، وهو أدب الفقاقيع الذي لا يسلك الى نفوس العامة مسلك الشعور المتمكن الباقي .

فهذه التقاليد ذات الروح الارستقراطي الزائفه هي التي جعلت الكاتب يترفع عن ان يلتصق بالحياة ، ويأبى النزول الى حاجات الناس، ويعيش بمعزل عن أمته في ظلمات الماضي السحيق .

وهذه العبودية الفكرية المتاصلة في نفوس البعض منا هي التي يجب التحرر منها كي تتوثق الصلة بين الكاتب وعصره ، وبين الكاتب والمجتمع الذي يعيش فيه ، والقراء الذين يطالعونه ويبحثون فى اعماله عن الحق والجمال والخير والحرية .

محمد امين حسونة

المصدر : الطليعة ــ دمشق ، العدد الثالث ــ آذار ١٩٢٨ السنة الرابعة .

القــديم والجــديــد

نقــد وتحليــل

محمد احمد الغمراوي

١

لعل من أسوا سيئات عصور الانتقال ظاهرة التمرد التي تغلب على الناشئين فيها ، فقد كان الناس قبل أن يبتلوا بعصر الانتقال هــذا يرجعون فيما يختلفون فيه الى أصول مقررة تستند الى ما يسلمون به جميعا من دين ، او عرف مستمد من دين ، أو الى ادب عريق تحددت أحكامه وتبينت معاييره ورسخت أصوله على طوال القرون . فلم يكن صغير يخرج على كبير في تحديد ما ينبغي ، ولم يكن ناشيء يتطاول على أستاذ فيما يعلم انه ناشيء فيه وأنه حديث العهد به . فكان الصغير اذا خالف في سلوكه راي الكبير يخالف وهو يعرف أنه مخطيء ، ولم يكن ناشيء مبتديء في الادب أو غير مبتديء يخطر بباله ـ اذا لم يقتنع براي أستاذه أو من هو في منزلة أستاذه في اللغة او في الادب أو في الدين في مسألة بدا له فيها راي خاص ـ أن يعيب أستاذه أو يثلبه أو يصغره أو يحــاول أن يعرضه لسخرية الناس . وكان الكبــار اذا اختلفوا يتحاكمون الى ما أجمعوا على التسليم به من الاحكام والاصول . فلم يكن الخلاف في المقاييس ولكن في طريقة القياس ؛ لم يكن في القواعد ولكن في التطبيق . فكانوا سرعان ما ينتهي خلافهم الى اتفاق إن كانوا ممن يبتغون الحق للحق لا للشهوة ، أما الذين تأخذهم العزة بالاثم فلا ينزلون على حكم الحق وإن وضح فأولئك في عصر هم مصدر الشقاق والفراق ، سواء أكان العصر عصر استقرار في المعايير أم كان فيها عصر اضطراب يشبه الفوضى كعصرنا الذي نعيش فيه .

كان الامر كذلك وكان الناس في راحة من اجل ذلك . كان يكفي أن يحتج احد المتناظرين لرأيه بآية كريمة أو حديث شريف او رواية في اللغة ثابتة تشهد لأحد الرأيين حتى ينزل صاحب الرأي الآخر على رأي الاول من غير ان يجد في نفسه غضاضة ، لانه في قرارة نفسه يعرف أنه نزل على حكم الآية او الحديث او الرواية الصادقة ، وهذه عنده أحكام يجب أن تطاع واصول يجب أن تتبع ، والغضاضة كانت عنده والهوان في مخالفة تلك الاحكام والاصول بعد أن وضح له وجه الحق منها ، لا في مخالفتها نزولا على حكم الهوى والشهوة . وكان الامر في ذلك كله مداره الدين وعلم المرء أن الله سائله عن الحق لمَ لمْ يتبعه وقد وقر في نفسه ، وعن الباطل كيف اتبعه وليس به الحق رغم ضميره ورغم قلبه . فكان هذا الوازع الداخلي حاملا على الحق صارفا عن الباطل حتى ضعف في الناس على الاخص بفشو هذا التجديد الذي يستمد كل قوته من جلال الغالب في نفس المغلوب .

ومسالة القديم والجديد عمرها لا يكاد يزيد على ثلاثين عاما اثارها في الناس نفرٌ تثقفوا ثقافة غربية من غير ان يكون لأكثرهم من الثقافة الاسلامية نصيب مذكور . والغرب والشرق على طرفي نقيض لا يلتقيان كما يقوله رديارد كيلنج ، وإن كان من الممكن ان يلتقيا في العلم الذي هو مفخرة الغرب والذي هو جزء من الاسلام الذي يدين به الشرق . لكن الذين اثاروا مسالة القديم والجديد لم يكونوا يعرفون ، ولعل انصارهم لا يزالون يجهلون أن العلم الذي ظهر به الغرب هو في الاسلام جزء من الدين ، وان المدنية الغربية ليس فيها ما يستحق ان يطلب ويؤخذ إلا ذلك العلم الطبيعي الذي اهتدى اليه الغرب بالعقل والتجربة ، والذي يمثل فطرة الله التي فطر عليها الاشياء . اما فطرة الله التي فطر عليها الناس فتلك يمثلها الاسلام عن يقين . فكأن الغرب والشرق قد اقتسما علم الفطرة : علمها الغرب في الماديات بالعلم والتجربة ، وعلمها الشرق في الروحانيات والاجتماعيات بالدين والوحي . فكان الشرق مخطئا حين لا ياخذ بعلم الغرب ، وكان الغرب ضالا حين يخالف الاسلام كما انزله فاطر الفطرة على محمد عليه الصلاة والسلام . وكان سبيل

الكمال لهما معا وللانسانية ان يجتمعا على العلم والدين ، علم الغرب الطبيعي ودين الشرق الاسلامي ، فيجتمع لهما بذلك علم الفطرة ونظامها في المادة والروح . وكان هذا ايضا هو سبيل التجديد الصحيح لمن يريد ان يكون مجددا مصلحا ، يجدد للشرق شبابه ومجده من غير أن يعرضه لشر ما يهدد الغرب من اخطار . وهذا هو السبيل الذي دعا اليه جمال الدين الأفغاني وسار على أثره فيه محمد عبده . لكن دعاة التجديد الذين جاءوا بعدهما ممن لم يكن لهم مثل علمهما ولا بصرهما بالاسلام ضلوا سبيل الدعوة وصدقوا الغرب في ظنه بالاسلام من انه كان سبب تأخر الشرق . ولما لم يطيقوا أن يهاجموا الاسلام مواجهة فيدعوا الناس صراحة الى نبذه ، عمدوا الى مهاجمته مداورة بدعوة الناس الى قبول كل ما عليه الغرب إن كانوا يريدون ان يكون لهم ما للغربيين من قوة وحياة . وزعموا للناس ان المدنية الغربية كل لا يتجزأ ، فإما أن تؤخذ كلها او تترك كلها ، إما أن تؤخذ باجتماعياتها وادبياتها وعلمياتها واما الا يؤخذ منها شيء . فوقع الناس بهم في مصيبة طامة وفتنة عامة لأن الناس يلمسون قوة الغرب ويريدون ان يكون لهم مثل قوته لينجوا مما هم فيه من رقه واستعباده .. فإن كان حقا ما يزعمه لهم دعاة التجديد الغربي من أن لا سبيل الى ذلك الا باخذ المدنية الغربية بحذافيرها فليس لهم فيما يبدو مفر من ذلك ولو كان في ذلك خروج على الاسلام . ونجحت حركة الالتفات التي قام بها دعاة الغرب ضد سلطان الاسلام في نفوس من اصغى اليهم من الناس حين الجأوهم الى أن يميزوا انفسهم ذلك التمييز بين الاسلام وبين القوة والحياة ، من غير ان يتعرض أولئك الدعاة في سبيل ذلك للخطر الذي كانوا يتعرضون له من غير شك لو انهم دعوا الناس مباشرة الى نبذ الاسلام . واصبح الذين اصابتهم فتنة ذلك التجديد كمن احاط به العدو لا بد له من الموت أو التسليم ، أو كمن وجد نفسه مضطرا الى الاختيار بين قتل ولده وبين الحياة . والقد كان سهلا على من وقف هذا الموقف من الناس ان يفك عن نفسه ذلك الحصار ويخرج من ذلك الاضطرار الوهمي لو أنه يعرف حقيقة دينه وتاريخه حتى صدر الخلافة الراشدة ، لكن اولياء امور المسلمين عفا

الله عنهم وتداركهم بهدايته وتسديده كانوا ولا يزالون يهملون تعريف المسلمين بدينهم ، وتنشىء أبنائهم وبناتهم في الروح الاسلامي بالتربية الاسلامية . ومن هنا كان المسلمون عوناً لعدوهم على انفسهم . ومن هنا كان كل ما اصاب اولئك « المجددون » من نجاح ، وما يهدد الاسلام في بلاده وفي نفوس اهله من خطر . ومن هنا أيضا هب لدرء هذا الخطر فريق من المجاهدين المحتسبين الذين آتاهم الله فقهاً في الدين وقوةً في الجنان وبسطة في البيان ، وفي طليعة هؤلاء كان الرافعي رحمة الله عليه .

فالمسألة بين القديم والجديد كما يسمونها ليست مسألة اختيار بين ادب وأدب وطريقة وطريقة ، ولكنها في صميمها مسألة اختيار بين دين ودين . فالذين يسمون انفسهم انصار التجديد يؤمنون بالغرب كله ويريدون ان يحملوا الناس على دينهم هذا ولو خالف الاسلام في اكثره . والذين يسميهم هؤلاء انصار القديم يؤمنون بالاسلام كله وبالقرآن كله ويأبون أن يؤمنوا ببعض ويكفروا ببعض ، او ان يدينوا للغرب مؤمنين به من دون الله . وكل الخلاف بين انصار « القديم » وانصار « الجديد » منشؤه هذا ومرده الى هذا . هؤلاء مثلا يريدون متابعة الغرب في السفور والاختلاط لينعموا بالحب ! كيفما شاءوا ، واولئك يرون السفور والاختلاط مفسدة اي مفسدة لان الله وهو اعلم بخلقه نهى عنهما في الكتاب . هؤلاء يريدون متابعة الغرب الا يتزوج متزوج الا واحدة ، واولئك يرون إباحة تعدد الزوجات لان الله اباحه في الكتاب . وأولئك يريدون التسوية بين الذكر والانثى في كل شيء ظنا منهم ان الغرب يسوي بينهما ، واولئك يرون غير ذلك فيما لم يسو الله بينهما فيه في الكتاب . هؤلاء يرون الاسلام ديناً عربياً انزل للعرب ولا يلائم الا العرب ، وأولئك يعتقدونه دين الانسانية الكامل انزل للناس كافة بما يضمن صلاح الناس غير متقيد بزمان ولا متخصص بمكان كما نص الله عليه في القرآن وكما يتجدد عليه في كل عصر البرهان . ثم انصار « الجديد » يضيقون ذرعاً بالقيود الاخلاقية التي قيد الدين بها الناس فيما يعملون وفيما يقولون ، ويريدون ان يتحللوا منها فيزعموا للناس

أن هذه الاخلاق وقيودها أن هي الا عرف وتقاليد ، وأن التقيد بالعرف والتقاليد في الفن والادب يعوق الفن ويحول دون ترقي الأدب فيجب اذن اطلاق الفن وتحرير الأدب من تلك القيود . ومن هنا نشأ خلاف آخر بين الفريقين نقل العراك بينهما من ميدان الاجتماع الى ميدان الأدب .
فانصار الجديد يدعون الى الفن العاري والادب المكشوف ويدعون للفنان والأديب حرية في القول والفعل لم يأذن الله فيها لانسان ، وانصار قديم الاسلام يدفعونهم عن هذا ويحدون حرية الفنان والاديب بما حد الله به حرية كل انسان من قيود الدين والاخلاق والا عمت البلية بالادب وصار شرا ووبالا على الناس . واتسع الخلاف وتشعب بين الفريقين . يمضي انصار الجديد الغربي في توهين السد الاسلامي الذي يجدونه قائماً في وجوههم اينما تلفتوا فيزعمون للناس من طرف خفي أن القرآن من صنع عبقري لا من صنع الله ، وانه آية فنية لكنه آية فنية انسانية لا معجزة الهية ، واذن فينبغي ان يخضع لما يخضع له كل عمل انساني من النقد والفحص والبحث العلمي فيما يزعمون ، ويهب لدرء هذا الافك العظيم كل كريم نجد من رجال الادب او غير رجال الادب من المسلمين ويقاتلونهم على اعجاز القرآن وحرمته وتقديسه ، ويدعونهم الى خطة انصاف ليس من انصاف بعده : اما ان يتركوا القرآن وشأنه لا يتعرضون له بشيء ان كانوا لا يؤمنون به ، واما أن يذكروه ويدرسوه اذا قدروا على دراسته ، ولكن بنفس روح الاحترام والاحتياط والاجلال الذي يدرس به العلماء الشمس والنجم والبحر وما اليها من الظواهر الكونية الثابتة التي لا يد في خلقها للانسان . وهي كما ترى كلمة سواء غاية في الانصاف ، لو كان لدى انصار الجديد الروح الذي يقضي بقبولها لما كانت هناك المرارة في القتال التي جلبها عدم قبولهم شطر الكلمة الاول ولا صطلح الفريقان وتحابا واجتمعا على التجديد الحق في الأب وغير الأدب لو أن أولئك قبلوا شطر الكلمة الثاني . واذن لما كان هناك انصار جديد وانصار قديم ، ولكن فئة واحدة من المجددين المصلحين الذين يعملون بالحق للحق ضمن دائرتي العلم والدين اللتين يشملهما الاسلام جميعاً .

ان من اشد ما يؤسف له ان تفترق قوة اولى القوة في الشرق هكذا فرقتين احداهما تهدم والاخرى تدفعها عن الهدم ، فيشغل الفريقان جميعا عن التجديد وعن البناء ، وعدوهما واقف بالمرصاد . لكن التمني لايجدي والواقع هو الواقع . فستستمر المعركة بين انصار جديد الغرب وانصار قديم الاسلام كاشد واحمى ما تكون حتى يقضي الله بينهما بحكمه . ومهما يكن من ذلك فالموقف بين الفريقين هو في صميمه كما صورنا . وعلى اساسه يمكن النقد في غير كبير عناء ان يضع الامر بينهما في نصابه فيما كان وفيما يجد من خلاف . وسنضرب فيما نستقبل من الكلمات مثلا لذلك بتبيين وجه الحق فيما احتدم حول ادب الرافعي رحمه الله من جدال .

محمد احمد الغمراوي

المصدر : الرسالة ـ العدد ٢٦١ ـ ٤ يوليو ١٩٣٨ ، السنة السادسة .

ملاحظة : المقال الاول من سلسلة مقالات حول الموضوع م. غ.

بين القديم والجديد

عبد الوهاب الامين

سيدي الاستاذ الكبير صاحب الرسالة :

تحية : وبعد فقد حسب الاستاذ محمد احمد الغمراوي في آخر مقال حول ادب الرافعي ((بين القديم والجديد)) ، أنه انتهى من ((تزبيف)) كلام الاستاذ سيد قطب الى المبلغ الذي كان يريد واكثر ، وانه وضع العقاد موضعه والرافعي موضعه ، وان كان هذا الموضعأن ليسا الا ان الرافعي انصع لفظاً من العقاد ، وانه رجل يهتدي بنور الدين ، والعقاد لا يهتدي باي نور !

كذلك حسب الاستاذ الغمراوي انه فصل بين الحق والباطل في هذا الامر واستراح الى نتيجة تلك . ولم اكن اود ان انفس عليه هذه الراحة لو انه شاء ان يعرض لكلمة سابقة لي في هذا المضمار ، ورأى أن يرميني بالفزع من ذكر الدين فزع ((الملسوع) بالنار فقال :

((لكن اصحابنا المجددين انصار ما يسمونه بالادب الحديث يفرقون من ذكر الدين كانما تلسعهم من اسمه النار ، كذلك فزع أحدهم بالمراق ، وكذلك يفزع هذا الآخر . . .)) .

وانا المقصود ولا ريب بالفازع الاول . والقارىء يذكر ان فزعي المزعوم هذا لم يكن من الدين ، فما فيه ما يفزع او يلسع ، وانما كنت اعترضت على اقحام الدين — بدون داع ولا مبرر ولا فائدة — في نقد

ادبي قاله الاستاذ سيد قطب حول بيت من ابيات الرافعي ، وجاء الاستاذ الطنطاوي يحوره ويتجه به نحو الدين كما يفعل الأستاذ الغمراوي الآن ، وكما فعل المرحوم الرافعي في كل نقد أدبي له ، وكما يفعل كل من يؤوده ان يكسر من شوكة هذا الذي يسمونه تجديداً أو كفراً من سادتنا الرافعيين ! فما الذي يقصده الاستاذ الغمراوي بالفزع وما شأن الدين بكل شيء يتصل بالادب الحديث الذي يسعى الى التجديد والنهوض وتوسيع افق الحياة الادبية واخراجها من عصر الاجترار والتخلف ، الى عصر التمثيل والحيوية ؟ واذا كان الأستاذ الغمراوي يقول في مقاله الآنف الذكر :

« ان الفطرة كلها ينشئها واحد هو الله سبحانه وتعالى ، والعلم والدين كلاهما قد اجتمعا على استحالة التناقض في الفطرة ، فاذا كانت هذه الفنون من روح الفطرة كما يزعم اهلها وجب الا تخالف او تناقض دين الفطرة دين الاسلام في شيء ..... » .

وهو بذلك يريد أن يحد من مفهوم الأدب ، فما نصنع اذن بالادب الذي اقره العالم كله واعترف به ادبا سامياً ولم يكن مصدره الدين الاسلامي ، والذي لم يخلفه ادباء مسلمون ولم يأتلف مع قواعد الدين الاسلامي في شيء ؟ اقول ماذا نصنع بادب طاغور ، وملتون ، ودانتي وتورجنيف ، وايبانيز ، وابسن ، وموباسان ، وغوركي ، وهاردي وجيتي ؟ ... بل ماذا نصنع بادب بودلير ، وفرلين ، ولورنس ، وجويس وهيكسلي ، ولوتي ؟ هل نرمي بهم في البحر أم نعترف بادبهم ؟ وهل يتفق أدبهم مع الفطرة ؟ وهل هو خير أم أدب الرافعي ؟

وحضرة الأستاذ يذكر أدب الايمان فهل يرى ان الشك لا أدب له وما قصده من التعريض بالايمان ، والشك ؟ والحوم حوالي الدين في كل مناسبة عرض لها في نقده وبحثه ادب العقاد والرافعي ؟ هل يريد أن نفهم من أقواله تلك أن العقاد ومن يرى رأيه ملحدون لا ايمان ولا نور لهم يهتدون به ؟ وكيف يتسنى له أن يحكم هكذا بدون تدليل ؟

سيدي الاستاذ :

ان الاستاذ الغمراوي ــ وقبله الاستاذ الطنطاوي ــ يريد ان يضع ما اسمه « الادب » على الرف ويريد أن يدخله في بوتقة الدين بوجه عام ، والدين الاسلامي بوجه خاص ، وفي هذا من الجناية على الادب مقدار ما فيه من التجني على الدين وأكثر . ولا اظن الاستاذ يخالفني في أن يتعرض له متعرض سلم من تهمة المروق ! فليفسر موقفنا كيف شاء ، وليسمه فزعاً وهلعاً ، فالحق ان الدين الاسلامي لم يدخله التأويل والخلاف من كل باب الا بعد ان أقحم في غير مجالاته ! وهو بعد مقحم اقحاماً في موضوع الجدل هذا .

وما دام الاستاذ الغمراوي يرى انه فصل ادبياً في امر العقاد ومكانه من الادب الحديث ، فلماذا يريد ان يخرجه من دينه فيقول عنه معرضاً : « ان الرافعي عنده نور يهتدي به ليس عند العقاد ؟ » .

وبعد فليكن الرافعي عند الاستاذ الغمراوي ما يشاء له ان يكون ، فان ذلك لا يمنع العقاد ان يكون هو الآخر حيث يشاء له الادب والحق أن يكون . ولسنا نعجب به لشخصه ، بل لانه يؤدي الرسالة عنا ، فما يقال فيا نحن انصاره والمعجبين به ، ولذا اود ان اكرر ما سبق ان قلته وهو ان من الواجب اعتبار الدفاع عن العقاد دفاعا عن مذهبه في الادب وفي الحياة لا دفاعا عن شخصه ، فلسنا نملك حق الدفاع عنه . عنه .

وتقبلوا تحيات المعجب بكم

« بغداد »　　　　　　عبد الوهاب الامين

المصدر : الرسالة . العدد ٢٧٠ السنة السادسة ٥ سبتمبر ١٩٣٨ .

الديــن والاخـلاق

بين الجديد القديم

لاحد اساطين الادب الحديث

الظاهر ان الاستاذ الغمراوي رجل حسن النية صادق السريرة وقلت الظاهر لاني لا اعرفه ، ولا أريد ان اتعرض لنقده ما يسميه المذهب الجديد ، ولا للنزاع الثائر بين انصار الرافعي وبين انصار العقاد . ولو كان الاستاذ قد اكتفى بالنقد الفني وقصره على ذلـك النزاع الفني لسلم من بعض الهفوات التاريخية والاجتماعية ، فقد قال ان نزعة التجديد يرجع اولها الى نحو ثلاثين سنة ، وقد ذكر فيما ذكر من التجديد اخذ الآراء الاوربية ، ولم يكتف بذكر ما اخذ منها مما هو في باب الآداب ، بل ذكر ايضا ، ما اقتبس من النظـم والمبـادىء الاجتماعية . وهذا الوصف الشامل للتجديد لا ينطبق على نزعـة بدات منذ ثلاثين سنة ، وانما ينطبق على النزعة بوجه عام منذ جاء نابليون الى مصر ، ومنذ عهد محمد علي باشا اسماعيل باشا ، ومنذ ادخلت المطابع وارسلت البعوث العلمية واقتبست القوانين المدنية ، ونظمت المحاكم الاهلية التي صارت تحكم بغير احكام الشريعة الاسلامية ، وكثر نقل الكتب الى العربية والاستاذ الغمراوي يعيب على المجددين انهم يريدون رفض بعض احكام الشريعة ، ويذكر كيف ان بعض الكتاب يحبذ منع تعدد الزوجات . ويقول الاستاذ إن للدين وحدة تامة فلا يجوز اخذ بعضه وترك بعضه . ويا حبذا لو ان الاستاذ كان قد فصل هذه الناحية من التجديد في مقال مستقل عن النزاع على التجديد في معاني الشعر والنثر ، إذ ما صلة الذين قاموا بانشاء المحاكم الاهلية واحلو احكامها

محل الشريعة الاسلامية ، وما صلة الذين يريدون منع تعدد الزوجات ومنع الطلاق ، بمعاني شكسبير والمتنبي وملتون وابي العتاهية مثلا ، ولعل اكثرهم كانوا لا يهمهم النزاع الفني والادبي مطلقا . نعم إن الدين والاخلاق لها مظاهر في الشعر والنثر فكان ينبغي للاستاذ الغمراوي وقد حكم للمذهب القديم انه قوام الدين الاخلاق ، وحكم على المذهب الجديد انه بؤرة الالحاد والمجون ، أن يثبت هذا الزعم فينفي عن شعراء المذهب القديم كل كفر وإلحاد ومجون ، وينفي عن شعراء المذهب الجديد كل تدين وايمان بالفضائل مستشهدا بأقوالهم من شعر ونثر فان هذه هي الطريقة الفنية للمفاضلة بين المذهبين من حيث الدين والاخلاق . وإن لم تخني الذاكرة فان الاستاذ قد لخص المذهب الجديد في الادب بانه نزعة تغليب دين على دين . واذا كان لهذا القول معنى فمعناه أن أدباء المذهب الجديد يريدون تغليب الديانة المسيحية على الديانة الاسلامية .

فاذا لم اكن مخطئا في هذا التفسير كان واجبا على الاستاذ أن يقيم الدليل على ان ادباء المذهب الجديد يريدون تغليب دين على دين ، وقد نسي الاستاذ أن كثيرا من مظاهر الحضارة الأوربية الحديثة لا علاقة له بالمسيحية التي هي دين أكثر الاوربيين ، أو لعل الاستاذ قد أراد أمرا آخر لم نفهمه . ولو رجع الاستاذ الى العصر الذي كانت فيه النزعة الدينية المسيحية متغلبة في أوربا وهو عصر القرون الوسطى عصر التزهد والرهبنة والتقشف لعلم ان المحافظين من رجال الدين والكتاب كانوا يخشون على الدين والاخلاق من غزل العرب ومجون شعرائهم وقصصهم ومن حرية افكارهم في المسائل الدينية والكونية ، وكانوا يرمون الادب العربي بالاباحية في الاخلاق ، وكانوا يلومون الآباء الذين كانوا يرسلون ابناءهم الى مدارس البلاد العربية كالاندلس وصقلية ؛ فلم يكن عداؤهم للكتب العربية الدينية فحسب ، بل كان عداؤهم للكتب الادبية العربية والفكرية اشد . وموقف هؤلاء المحافظين من الادب والفكر العربي كان شبيها بموقفهم من الادب والفكر الاغريقي القديم . وهذه الحقيقة ينبغي أن تنبه الاستاذ الى ان الدولة العربية الاسلامية لم تلبث على الفطرة السليمة وعلى حالها من الادب كما كانت في صدر الاسلام مثلا بل دخلها

الترف وتفشت فيهـا لذائذ الحضارة وكثر المجون في أقوال الشعراء والكتاب وبقيت أصناف المجون والالحاد مخطوطة الى عهد أن دخلت المطابع البلاد العربية الاسلامية . ولا احسب أن أهلها كانوا على فطرة يخشى عليها من تلك الكتب فان حالة الاخلاق في عهد دخولها لم تكن أرقى مما هو موصوف في تلك الكتب الا في أوساط محدودة معروفة بالنزاهة والعفة والاستقامة وصدق القول والعمل ؛ وكان يضرب بها المثل ؛ وكانت كالشامة البيضاء تنعت نفسها لوضوحها في الجلدة السوداء . ولا تنس ان البدو كانوا بطبيعتهم يكرهون الضوابط والروادع أية كانت ، فسرعان ما حثتهم الحضارة ولذائذها على التحلل من روادع الدين . وقد بدا المجون يعود الى استفحاله بعد عهد قريب من صدر الاسلام ، وبلغ أشده في الدولة العباسية ، وكان مصحوبا في كثير من الاحوال بالكفر والزندقة والالحاد ، وكان كل منهما في بعض الاحايين مستقلا عن الآخر ، فقـد كان بعض الملحـدين من أشـد الناس زهـدا ومحافظـة على الفضائل كما كان المعري مثلا .

يقول الاستاذ إن المذهب الجديد في الادب الذي يقول عنه الاستاذ إنه بدا منذ ثلاثين سنة خطر على الاخلاق والدين ، فهل يستطيع الاستاذ ان يأتي بأبيات من شعر هذا المذهب الجديد في شناعتها كأبيات ابن الرومي النونية التي يقول فيها :

صوت يد العجان في العجين　　　او صوت رجلي عامل في طين

وهي أبيات قد اختارها له السيد توفيق البكري في كتاب (صهاريج اللؤلؤ) الذي الفه كي يقرأه الناس رجـالا ونساء وفتيانا وفتيات ، والبكري كما يعلم الاستاذ الغمراوي كان شيخ السادة البكرية ورجلا من رجال الدين والفضل ومن أدباء المذهب القديم ، ولكنه لم يتحرج من اطلاع سيدة أو فتاة فاضلة على ما في كتابه هذا من المجون الشنيع . والآن يعطي الاديب من ادباء المذهب القديم اي قول قاله شعراء وأدباء المذهب الجديد لأخته او لفتاة من اقربائه لتقرأه ؛ لأصون لها ولأخلاقها

من ان يعطيها كتاب صهاريج اللؤلؤ هذا الا اذا طمس المجون قبل ان يقدم اليها الكتاب . وقد طبع الشيخ شريف جزءين من ديوان ابن الرومي في احدهما ارجوزة مطلعها : (رب غلام وجهه لا يفضحه) وفيها يصف طرق اللواط في اوضاع واشكال مختلفة . وقد عني الشيخ شريف بشرح لفظه ومعناه كما عني السيد توفيق البكري بشرح الابيات النونية .
والشيخ شريف كان مفتش اللغة العربية واديبا من ادباء المذهب القديم ، ولكنه لم يتحرج كما لم يتحرج البكري من شرح وطبع هذا المجون وايضاح معناه كي يقرأه ويفهمه الفتيان والفتيات . فاي اديب من ادباء المذهب القديم يرى ان يعطي اخته او اخاه الصغير هذا الكتاب ، او ان يطلعهما على قصيدة ابن الرومي ايضا في (بوران) . او على ديوان ابي نواس او على ما في كتاب الاغاني او كتاب يتيمة الدهر للثعالبي من مجون لا تسمح اية دولة اوروبية بنشره ، بينما ادباء المذهب القديم يشرحونه ويطبعونه ويستحلونه في مجالس انسهم ويضحكون تفكها به ، حتى اذا جاء ذكر ما يسمى بالمذهب الجديد واثر الادب الاوروبي فيه اخذتهم رعدة الغضب وادعوا ان المذهب القديم عماد الاخلاق والدين ، وان المذهب الجديد بؤرة المجون والاباحية والالحاد . ان المسألة بسيطة والامر هين . نستطيع ان نطبع على الناحية اليمنى من صفحات المجلة ما نجده من مجون واباحية شعراء المذهب القديم في العصور المختلفة حتى عصرنا هذا ، وعلى هؤلاء الادباء ان يقدموا ما يستطيعون ان يعثروا به من اقوال ادباء المذهب الجديد لتطبع في الناحية اليسرى من المجلة . لا شك ان ادباء المذهب القديم يتهربون من مثل هذه المقابلة كل التهرب . وما يقال في كتب المذهب القديم الادبية يقال ايضا في كتب التاريخ . انظر بالله الى الابيات التي زعموا ان مسيلمة الكذاب بعث بها الى سجاح المتنبئة والتي فيها (وإن شئت . . .. وان شئت) كيف يستطيع اديب من ادباء المذهب القديم ان يطلع اخته او بنته او قريبة له من الفتيات على هذا الشعر ؟

ثم انظر الى ذكر الفحش وقصصه ونظم الهجاء فيه شعرا تجد ان ادباء ما يسمى بالمذهب القديم في كل عصر حتى عصرنا هذا كانوا اكثر حظا منه . ولا اعني جميعهم ، ولكنهم حتى الافاضل منهم قد وجدوا

هذا الاسلوب من القول عادة صقلها الدهر وهون أمرها فاصبحوا لا يجدون خطرا على الاخلاق في نظم الهجاء فحشا ولا في التحدث عنه ، ولكن الخطر كل الخطر هو تأثر الادب العربي بنواحي القول كما وردت في كتب الادب الاوروبي .

وبعد فاي ادب اوروبي يعنون ؟ لقد تقلبت على الدول الاوروبية عصور اتخذ الادب في كل منها نزعة خاصة ، ولكنهم اذا تكلموا عن الادب الاوروبي خيل للقارىء انهم يعدون جميع الادب الاوروبي في عصوره المختلفة على طراز واحد وانه مأوى المجون والاباحية والزندقة . ان عصور الادب الاوروبي تختلف اختلافا يجعل بعضها اقرب الى بعض الادب العربي منها الى عصور اخرى من عصور الادب الاوروبي ، فالادب الاغريقي في سهولة معانيه وخيالاته أقرب الى الادب الجاهلي العربي منه الى الأدب الرمزي الاوروبي الحديث . والادب الاوروبي الحديث في حرية الفكر اقرب الى الادب العباسي العربي منه الى الادب الاوروبي في القرون الوسطى . فاذا كان بعض الادب الاوروبي الحديث قد دعا بعض أدباء المذهب الجديد الى إيهام الايجاز والصور المتدخلة بعضها في بعض والى غموض الرمزية فقد الف بعض ادباء المذهب القديم على هذه الطريقة في ابهام الايجاز من غير ان يطلعوا على الادب الاوروبي . انظر مثلا الى ايجاز الرافعي في كتاب (حديث القمر) والكتب الاخرى التي كتبها ، وكانه لم يكتبها الا لكي يثبت انه يستطيع ان يزيد على معاني وصور أدباء اوروبا والمذهب الجديد وانه أغنى منهم بمعانيه كما انه أغنى منهم بأساليبه اللفظية الفصيحة العربية ؛ ولكن فصاحة لغته العربية لم تخف الحقيقة الفنية ، وهي ان الرافعي صاحب (حديث القمر) و (السحاب الاحمر) أقرب الى أدباء الرمزية الأوروبيين منه الى الرافعي صاحب كتاب (إعجاز القرآن) واقرب الى ادباء العربية الاقدمين من الرافعي صاحب (حديث القمر) واعني القرب في اسلوب التخيل واسلوب عَرض الصور الفكرية وكل صورة مستقلة غير متدخلة في اختها . فاذا اراد اذا ناقد ان ينتقد المذهب الجديد او الادب الاوروبي كانت الطريقة المثلى ان ينتقد ما يعيبه فيه على طريقة النقاد الفنيين

فيبين الغث من السمين ويوضح اسباب حكمه على كل قول وكل اديب .
اما أن يقول ان الادب الاوروبي كأدب المذهب الجديد فاسد المعنى والخيال ينبو عنه الذوق العربي وتمجه الفصاحة العربية ، وانه مباءة المجون والاباحية والزندقة ، فقول من لا يريد أن ينقد ولا أن تقدر قيمة ما يقول قدراً صحيحاً ، ولا اعني الاستاذ الغمراوي فان هذه أحكام شائعة . نعم ان بعض الادب الاوروبي ولا سيما الحديث منه يحث ادباء العربية على بعض ما يخالف العرف والتقاليد الاسلامية ، ولكن اليس في قول شعراء العرب وأدبائهم في كل عصر اشياء كثيرة تخالف العرف والتقاليد والآداب والاخلاق الاسلامية كما اوضحنا بالشواهد ؟ ونعترف أن في بعض الادب الاوروبي الحديث ما يحث على الالحاد ، ولكن اليس في أقوال زنادقة الدولة العباسية وفي لزوميات رجل فاضل كالمعري ما لا تسمح الحكومة بنشره لو أن أحد شعراء المذهب الجديد كان هو قائله ؟ ولكن أقوال ادباء الدولة العباسية والمعري اقوال صقلها الدهر واعتادها الناس فلا بأس من أن يتفكه بها ادباء المذهب القديم في مجالسهم ولا بأس من نشرها وايداعها مكتبات المدارس .

وكما أن بعض الادب الاوروبي أقرب الى بعض الادب العربي منه الى عصور أخرى للادب الاوروبي فكذلك بعض ادباء المذهب الجديد أقرب الى ادباء المذهب القديم منهم الى أدباء آخرين من ادباء المذهب الجديد ، فادباء المذهب الجديد اليوم أكثر حرية في القول واكثر نصيبا من الرمزية من ادباء المذهب الجديد الذين ظهروا منذ ثلاثين سنة .

(قارىء)

الرسالة : العدد ٣٦٨ — ٢٢ اغسطس سنة ١٩٣٩ . المقال الاول في سلسلة مقالات في الرد على مقالات الغمراوي .

القديم والجديد

للأستاذ محمد احمد الغمراوي

احس ان عليّ ديناً لقراء الرسالة يجب الوفاء به ، فقد كنت وعدت اذا زال الحائل الذي كان يحول بيني وبين الكتابة أن أعود فأفصل ما أجملت في خطابي الذي نشرته الرسالة وتقيدت فيه بذلك الوعد . وما أجملت هناك وأريد الآن تفصيله ، هو أن ما فهمه الاستاذ (قارىء) من بعض كلماتي ، وانتقده في مقالاته « الدين والاخلاق بين الجديد والقديم »(1) شيء آخر غير ما أردته بما كتبته ، وأزيد الآن أنه شيء آخر غير ما تفيده تلك الكلمات .

وليس الذي يدعوني الى الكرة بعد تلك الفترة مجرد حب الوفاء ، ولا مجرد الرغبة في أن أبين أني أصبت ولم أخطىء ، فالانسان يخطىء ويصيب ، ولا غضاضة على المخطىء ما دام يخلص النية ويبتغي وجه الحق . انما أكبر ما يجعلني احرص على الرد هو الرغبة في تصفية مسألة القديم والجديد مرة أخرى — فقد صفيتها قبل ذلك في بعض فصول كتابي النقد التحليلي — ليتبين وجه الحق فيها عسى الا يعود أحد ينخدع بما بين لفظي القديم والجديد من تفاوت ، فيؤثر في المعنويات الجديد لجدته على القديم لقدمه ، كما تعود أن يؤثر في الماديات الجديد على القدم في المأكل والمسكن واللباس .

---

(1) انظر الاعداد ١١٤٣ ، ١١٨٤ ، ١٢٩٧ ، ١٢٦٧ ، ١٢٢٨ ، ١٣٤١ ، ١٤٧٧ (من الرسالة) .

والنقد الذي كتبه الاستاذ (قارىء) ، وصدر فيه عن أدب جم موجه الى كلمتين اثنتين من كلماتي : الى الكلمة الاولى التي قدمتها بين يدي ما كنت اريد من كتابة حول ادب الرافعي ، والى بعض الكلمة السابعة التي جعلتها خاتمة تلك الكلمات . ويظهر أن الاستاذ حين بدأ يكتب ، كتب عفو الساعة من غير أن يرجع الى الكلمة المنقودة والى اخواتها ان لزم ليستوثق من أن المعنى الذي في ذاكرته هو حقاً المعنى المقصود بالكلام المنقود ، فقد كان مر على الكلمة الاولى المنقودة بضعة اسابيع حين كتب الاستاذ .

ثم يظهر أن تلك الكلمة الاولى من كلماتي صورت مسألة القديم والجديد صورة غير مألوفة . فلم تقصرها على ميدان الادب ولكن عدتها الى ميدان الاجتماع ، ثم جعلت من الميدانين ميداناً واحداً ، ومن حركة النزوع الى التجديد في كل منهما حركة واحدة تشملهما جميعاً هي حركة الانصراف الى جديد الغرب ولو استلزم ذلك الانصراف عن قديم القرآن .

لكن هذا التصوير اقرب الى صميم الامر وان كان تصويراً غير مألوف . غير أن قربه من الحق لا يتبين حتى تتبين حدود تينك الحركتين الادبية والاجتماعية اللتين ركبتا معاً في حركة واحدة حين صورتا ذلك التصوير .

واول هذه الحدود وأوضحها أن تكون الحركة العلمية أو الصناعية غير داخلة في تينك الحركتين ، فإن الادب والاجتماع غير العلم والصناعة بالبداهة . واذن فلا محل للرجوع بحركة التجديد الى عهد محمد علي كما يريد الاستاذ (قارىء) لان عهد محمد علي فيما نعرف لم يأخذ عن الغرب الا علمه وصناعته ، ولم يمس النظم الاسلامية الاجتماعية في كثير ولا قليل .

واحد آخر من حدود حركة الجديد التي أردناها : أن روحها يخالف روح الاسلام في الصميم . من اجل ذلك اخرجنا منها حركة التجديد

التي قام بها الإمامان جمال الدين الافغاني ومحمد عبده كما هو صريح مقالنا الاول الذي نقده الاستاذ من الذاكرة من غير رجوع اليه . وهذا الحد الثاني كاف وحده في اخراج عهد محمد علي مرة اخرى من نطاق البحث ، واخراج كل حركة جديدة تتفق مع الدين .

وحد ثالث من حدود حركة الجديد التي ارخنا لها : انها حركة افراد لا حركة حكومات ، اللهم الا ان تكون حركة الحكومة نتيجة من نتائج انتشار حركة الافراد كما حمل اصحاب الحركة النسوية مثلا الحكومة المصرية على تحديد سن الزواج . ولم يخطر ببالنا ان ننبه بهذا الفارق حين كتبنا ما كتبنا ، لاننا اولا لم تكن بصدد التاريخ للجديد على اطلاقه ، ولكن كنا بصدد الكلام على حركة صارت بعد مذهبا اعتنقه افراد دعوا اليه وثاروا على دعوتهم حتى انتشرت وصار لها من السلطان ما لها اليوم — ثانيا — كان واضحا من سياق ما كتبنا ومن الظرف الذي دعا الى الكتابة ومن بعض عبارات فيها مثل : « ومسالة القديم والجديد عمرها لا يكاد يزيد على ثلاثين عاما اثارها في الناس نفر تثقفوا ثقافة غربية من غير ان يكون لاكثرهم من الثقافة الاسلامية نصيب مذكور .

وهذا ، وغيره لا يدع مجالا للشك في ان المقصود هو مسالة القديم والجديد التي ثارت بين الناس والتي لا تزال موجودة بيننا فهذا الحد الثالث كاف هو ايضا لان يخرج من نطاق البحث كل حركة لم يقم بها فرد او افراد ولم يعتنقها جمهور من الناس . واذن فالحركة التي قصدنا بالنقد والتي قدرنا عمرها بثلاثين عاما هي حركة قائمة بيننا الآن لا ترجع الى عهد نابليون في مصر ولا الى عهد محمد علي ولا الى عهد اسماعيل ، ولكن ترجع في راينا من الناحية الأدبية الى العهد الذي كان هيكل وامثاله يكتبون فيه في « الجريدة » ، ومن الناحية الاجتماعية الى العهد الذي كتب فيه قاسم امين واصدر فيه كتابيه « تحرير المراة » و « المراة الجديدة » .

والعهدان في الحقيقة عهد واحد يظللهما زمن واحد هو زمن اشتداد الحركة الوطنية الاولى حوالي ١٩٠٨ او قبلها بقليل . ومن هنا أمكن تقدير عمر واحد للحركتين اللتين بدأتا في الادب والاجتماع حوالي ذلك التاريخ ، واللتين جعلنا منهما حركة جديدة واحدة عمرها بالطبع عمرهما، وهو تقدير طبيعي كما ترى لا عوج ولا تكلف فيه .

والاستاذ قارىء لم يأخذ علينا مخالفة للواقع فيما يتعلق بالحركة الأدبية من تقديرنا ذلك ، فهو يوافقنا فيه وإن كان بعض ما كتب في مقاله الخامس(١) يدل على انه يميل الى جعل عمر حركة الجديد في الأدب اقل من ثلاثين . أما من الناحية الاجتماعية فان التاريخ لحركة الجديد فيها بظهور كتابي قاسم امين امر معقول . فقبل قاسم لم يدع مسلم في عصرنا الحديث في هذا الميدان ، ولم يحاول مسلم أن يدعو الناس في ميدان الاجتماع الى مخالفة ما جرى عليه العمل في زمن الرسول صلوات الله عليه في مسألة الحجاب مثلا والسفور . واذا كان هناك من المسلمين او غير المسلمين من سبق قاسماً الى مثل ما دعا اليه فانه لم يترك اثراً في الناس في مصر كما ترك قاسم ، ولم يستهو نفراً الى مذهبه كما استهوى ، ولم يبدأ حركة كبرت بعده حتى جاوزت كل ما كان يدور له في حسبان . فقاسم اولى الناس بان يبدأ بكتبه تاريخ حركة الجديد مما يخالف الاسلام في ميدان الاجتماع .

والحركة التي بدأها قاسم لم تكن لتبلغ ما بلغت وتستشرى كما استشرت لو لم تجد من الحركة الجديدة في الأدب مؤيداً وظهيراً . فانك اذا تتبعت الحركتين وجدتهما سائرتين جنباً لجنب تأخذ احداهما بيد

---

(١) نشير الى قوله « ولو انا رجعنا الى ما الف من المقالات والكتب منذ ثلاثين سنة ما وجدنا اثرا لهذا الاصطلاح : اعني اصطلاح تقسيم الادب الى جديد وقديم ، وانما كان الشعراء الذين يسمون الآن أدباء المذهب الجديد يدعون الى نبذ شعر الغزل المتكلف الخ » .

اختها تقيها العثرة وتثبتها في المعترك ، وانك لواجد أن الصحف التي ظاهرت احدى الحركتين هي نفس الصحف التي ظاهرت الاخرى ، وان أنصار الجديد في الأدب كانوا ولا يزالون هم انفسهم انصار السفور من قبل وانصار الاختلاط وما اليه اليوم . كانت الجريدة في مبدأ الحركتين لسان الدفاع عن كلتيهما والدعوة اليهما ، ثم كانت جريدة « السفور » ، ثم « السياسة » ، ثم « السياسة الاسبوعية » وغزا انصارهما الصحف الأخرى وخلالهم الجو لما غاب « المؤيد » و « اللواء » وصارت الدعوى الجديدة هي البدع و « الموضة » فمن لم يقل بها عن نية واعتقاد قال بها كيلا يوصف بالرجعية والجمود . وليس يهم الآن تعليل ذلك ، انما المهم توكيد ما كان بين الحركتين من اتصال وتلاقح وتعاون ، فالحركة الجديدة في ميدان الاجتماع اعقبت لونا جديداً من الأدب لم يكن موجوداً قبلها . يصح أن يسمى بأدب السفور ، والحركة الجديدة في ميدان الأدب مهما يكن اصل نشأتها ، قد امتزجت بعد بالحركة الاجتماعية الجديدة المتفاقمة واستوحت منه اكثر وحيها لان روح كل منهما مستمدة في صميمها من روح الغرب لا من روح الاسلام . ومن يكن في شك من هذا فليرجع مثلاً الى مجلدات « السياسة » و « السياسة الأسبوعية » قبل ظهور كتاب « حياة محمد » ، فسيتجلى له المذهب الجديد في الأدب والمذهب الجديد في الاجتماع قد اتحدا في حركة واحدة شاملة تنبض بروح الخلاف للاسلام ، لان اصحابها لجهل اكثرهم بالإسلام صدقوا ما زعمه لهم الغرب من أن الإسلام هو سبب تأخر المسلمين .

وإذا كان من رجال الحركة الجديدة في الأدب من لم يناوىء الإسلام مع الغرب ومشايعيه من أهل الحركة الجديدة في الاجتماع فلم يتخذ من وحيها وحيه في كتاباته ، ولم يجر معها الى آخر الشوط الذي جرت

وتجري اليه ، فان هؤلاء نفر جد قليل . والناظر الى صميم الأمر لا يستطيع أن يحكم على حركة الا بما يغلب عليها ، وسيجعل لذلك القليل مخرجاً ان امكنه ولو بتقسيم آخر . ونظن اننا فعلنا ذلك بالحد الثاني من الحدود التي فصلناها آنفاً ، وبما سنبينه ان شاء الله في مقال تال .

محمد احمد الغمراوي

المصدر : الرسالة ، العدد ٢٨٧ ـ ٢ يناير ١٩٣٩ ـ المقال الاول من سلسلة مقالات في الرد على سلسلة المقالات الموقعة باسم « قارىء » .

بـين القديم والجديد

(لاحد اساطين الأدب الحديث)

يجمع الأستاذ الغمراوي في نفسه من صفات الخلق العظيم ما لا يتفق الا للقيل من المهذبين الأفاضل ، فهو يغار على الفضيلة والدين ويجمع الى غيرته لطف المناظرة والإنصاف وآداب الحديث والمجادلة بالتي هي احسن ، وهذه رعاية من الله ، نرجو أن يديم الله عليه نعمته وقد ظهر عدل الأستاذ وإنصافه في اعترافه بأن في الأدب القديم أكثر مما يشكو منه مما في الأدب الحديث ، وفسر القديم بأنه ليس القدم الزمني فالقديم والحديث في اصطلاح الأستاذ صفات لا تدل على الزمن ، وضرب بشعر عمر بن أبي ربيعة وقال انه لو كان في عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه لنفاه بسبب غزله فعمر بن أبي ربيعة اذاً على قدمه الزمني ليس من المذهب القديم في الشعر على حد اصطلاح الأستاذ ، ان القديم في اصطلاح الأستاذ هو من لم يقل غزلاً يثير شجون النفس وشهواتها وتعلقها بفتنة الحسن . وليعذرني الأستاذ اذا قلت انه يصعب عليه أن يجد شاعراً واحداً يصح ان نطلق عليه اصطلاح القديم في عرفه ، فهذا الرافعي على تقواه ودينه وفضله له في الغزل نثراً وشعراً إشياء (أشهى) من شعر عمر بن أبي ربيعة . الم يقرأ الأستاذ الغمراوي للرافعي وصفه للراقصة ومحاسن جسمها وقصته معها ؟ ومع ذلك فالأستاذ الغمراوي يقول إن ادب الرافعي يمثل القديم في اصطلاحه ، مع ان الأستاذ الغمراوي لو كان خليفة وعرض عليه غزل عمر بن أبي ربيعة وبعض ما قاله الرافعي شعراً ونثراً في الغزل ووصف مفاتن الحسن ولذة التقبيل ومحاسن جسم المرأة لأمر الأستاذ بنفي الشاعرين.

ابن ابي ربيعة والرافعي معاً . واذا كان الأستاذ في شك من أن الرافعي له أشياء اشهى من اشياء عمر بن ابي ربيعة ذكرنا له طرفاً منها ورضينا بحكمه وهو اعدل الحاكمين من الناس . بل نحن نترك للأستاذ الخيار فليختر اي شاعر ونحن نورد له ما يستحق به النفي ولو وكل الأمر الى الأستاذ الغمراوي في نفي الشعراء ونورد ما يستحق به النفي ونقارنه بما استحق به عمر بن أبي ربيعة النفي ونقبل حكم الأستاذ الغمراوي في المقارنة وهو خير لحاكمين .

إننا ما اردنا ان نعذر شطط المتاخرين بشطط المتقدمين كما ذكر الأستاذ وانما اردنا ان نبين اولاً ان النفس البشرية واحدة في كل زمان ومكان مهما اختلفت الفروق الظاهرة وبالرغم من شذوذ الآحاد بالنقاوة النادرة أو النجاسة البالغة النادرة . واردنا ان نفسر اثر المتقدمين في اقوال المتاخرين وان نقول ان الشطط في وصف المفاتن وفي شرح الشكوك النفسية لم يأتنا من ناحية الافرنج وحدهم بل جاءتنا به مؤلفات العرب ولا سيما عندما أُدخِلَتْ الطباعة وطبعت المخطوطات العربية القديمة والحديثة . على ان النفس الإنسانية يا سيدي الاستاذ ينبوع يفيض بكل ذلك من غير حاجة الى كتب العرب أو كتب الأوربيين ؟ وان شاء الأستاذ فليرتد اماكن الناس الذين لم يتاثروا كثيراً بكتب العرب ولا بكتب الافرنج وليسمع هواجس نفوسهم .

على ان في ذكر الأستاذ التجاء عمر بن الخطاب الى النفي ما يدل على ان النفوس في عهد عمر رضى الله عنه لم تكن تمتنع عن التعلق بمفاتن الحسن ومحاسن الحياة ، ولعل الأستاذ قد أذكرته التجاءَ عمر الى النفي قصة سماع عمر غناء التي تغنت بهذا البيت :

هل من سبيل الى خمر فاشربها   ام من سبيل الى نصر بن حجاج

فنفى عمر رضى الله عنه نصراً هذا . ولو رجع الأستاذ الى ما قبل سيدنا عمر وتدبر حكمة الآية الكريمة التي تنهى الناس عن قرب الصلاة

وهم سكارى لرأى عبرة تسلك النفوس البشرية في كل عصر في صعيد واحد بالرغم من تفاوتها . واستحلف الاستاذ ان يحكم على تلذذ كعب بن زهير بذكره كبر عَجز حبيبته في قصيدة (بانت سعاد) عندما قال (هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة) وتلذذه بذكره كبر العَجز في قصيدة يمدح بها النبي صلى الله عليه وسلم وهي قصيدة يتبرك بها بعض الناس ، وبعضهم يتخذها حجاباً وتميمة بما فيها من التلذذ بذكر كبر العجز من غير فطنة الى ما فيها ومع ذلك قد مر النبي صلى الله عليه وسلم بغزل كعب هذا مر الكرام بما كان يدعو اليه من العقيدة السمحة وتآلف النفوس ومعرفته ضعف النفس وقصورها . فماذا كان يصنع الأستاذ الغمراوي لو أن شاعرا مدحه بقصيدة تغزل في اولها وتلذذ في غزله بذكر كِبَرَ عَجز حبيبته ؟ هل كان يتغاضى كما تغاضى النبي صلى الله عليه وسلم أم كان ينفيه كما اراد ان ينفي عمر بن ابي ربيعة ؟ وماذا كان يقول الأستاذ لو ان شاعراً انجليزيا مدح ملك انجلترة ومقام الملك دون مقام النبوة فقال الشاعر في قصيدة « ان حبيبتي يا كنج جورج لها عجز كبير » اننا يا أستاذ نضرب هذه الأمثال لنبين أن الناس ناس في كل زمان ومكان . وبان النفس البشرية واحدة فمهما تباينت واختلفت صفاتها . ولو كان الاستاذ في شك من ذلك فليراجع ديوان حسان بن ثابت فيراه في قصيدة يتهم ابا الوليد ابن المغيرة بمحبة غلام رومي جميل كان مملوكاً له ، وبانه علق صورة الغلام كي ينظر اليها اذا غاب عن نظره ، ويتهم امه بمحبة الغلام ايضا « صفحة ٣٢٩ طبعة السعادة شرح العباتي » ولو رجع الاستاذ الى كتاب (العقد الفريد لقرأ أن سائلا سأل ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم على قول المجون ينقض الوضوء ؟ فقال لا ، وانشد بيتاً فيه مجون وكانت قد حانت الصلاة فقام وصلى للدلالة على ان شعر المجون لم ينقض وضوءه . وفي حالة اخرى سمع وهو يحدو ببيت فيه مجون . ولو تقصى الأستاذ اخبار سبي الرقيق من المدن الفارسية والرومية التي فتحت عنوة واثر ورود هذا السبي الى شبه جزيرة العرب ، وما كان يرد قبله من جلب تجارة الرقيق قبل الاسلام لعلم أن الولوع بمفاتن الحسن لم يكن مقصوراً على الشعراء المتقدمين او المتاخرين

للتعبير عن النفس والحياة وعواطف النفس واحاسيسها فيهما ، فتحجر الصنعة من غير بحث في النفس قيد ، والتخلص من جمود ذلك التحجر حرية ، وهي الحرية التي اردناها في قولنا . وقد فسرنا ذلك باطالة ونحن لا نريد ان نعذر حالة الناس في عصرنا . فلعل التعلق بمفاتن الدنيا في عصرنا اضر وافسد اذ ان القوى الحيوية الخلقية العظيمة في تقوى المتقدمين كانت تستطيع موازنة ضعفه هذا التعلق وانعدام هذه القوى الخلقية الحيوية في عصرنا يزيد ضرر التعلق بمفاتن الحس وشهواته .
ونعلم ذلك ونوافق الاستاذ على ضرورة معالجة هذه المسألة ، ولكن لا يكون ذلك الا بالتربية وتطهير الكتب ولا سيما القديمة . اما اننا رجعنا الى مبدأ نهضة التجديد فالأستاذ نفسه يعترف بأن التجديد في الادب روح لا قالب ، وان هذه الروح مستمدة من نظام التعليم الحديث ، ومن الانظمة التي اقتبست من الانظمة والشرائع والسنن الاوروبية ، ومن البعثات العلمية الى اوربا واثرها في النفوس ، ومن الكتب التي ترجمت ، وما دامت المسألة مسألة روح لا قالب فلا يستطيع الأستاذ فصل التجديد في العلوم والتعليم والنظم والشرائع عن التجديد في الأدب وهو لم يحاول ان يفعل ذلك . اما اننا فسرنا قوله : (تغليب دين على دين) بغير ما اراد فعذرنا في ذلك انه كان يقارن بين الثقافة والحضارة والدين عند العرب وعند الاوروبيين فلم يخطر ببالنا انه يعني بالدين عند اطلاقه على الاوروبيين معنى الضلال والباطل وانما ظننا انه يعني دينهم ولنا العذر أو بعض العذر وأما قول الاستاذ إن حافظ ابراهيم رجع بالغزل الى طريقة الجاهلية وصدر الاسلام اي طريقة الغزل بالعاطفة كما فعل العذريون فهذا ما لا يقول به حافظ نفسه ولم يقل به اديب قبل الأستاذ والاصح وهو ما قلناه من ان البارودي وشوقي وحافظ انقذوا الاديب من طريقه ابن حجة الحموي وخليل بن أيبك الصفدي وصفي الدين الحلي واشباههم ورجعوا به الى طريقة مسلم بن الوليد وابي تمام والبحتري وحسبهم هذا فخراً . وقد جعلنا اكثر قولنا في التجديد في الشعر لأن الباعث على مقالات الأستاذ كان شعر الرافعي والعقاد ، ولم نقصر التجديد على محاولة ادخال العاطفة كشرط اساسيّ في الغزل بل قلنا انها شرط اساسي في كل شعر ، وان الصنعة لازمة ، ولكن كخادمة

وأوضحنا ان هذه الحرية ليس معناها التخلص من قيود العرف او الدين فنرجو الاستاذ ان يرجع الى ما فصلنا من الكلام عنها . وقد اعترفنا للأستاذ بما في نزعة التجديد من عيوب وحبذا لو رجع الأستاذ الى ذلك التفسير والتعليل ، وقلنا انها عيوب عارضة وليست كل شيء . اما المسائل الاجتماعية التي ذكرها الاستاذ فهي امور يختلف فيها الادباء وغير الادباء ويختلف فيها الناس في كل عصر ، ولو شاء الاستاذ لذكرنا من اقوال كتاب العرب وشعرائهم ما هو اشد من اقوال طه حسين وهيكل وقاسم امين ومن الغريب ان الأستاذ لا يرى حرجاً في الاقتباس من علوم أوربا ويرى حرجاً في الاقتباس من مذاهبهم وابواب ادبهم ، واذا كان هناك حرج فالحرج في الحالتين .

(قارىء)

المصدر : الرسالة ، العدد ٢٩٤ — ٢٠ فبراير ١٩٣٩ — والرد حلقة من سلسلة مقالات في الرد على ردود الغمراوي .

بـين جيلـين

للاستاذ محمد عبد الواحد خلاف

بين الجيل القديم الذي ذهب اكثره ولم تبق منه الا قلة آخذة في التناقص ، والجيل الحديث الذي يتكاثر عدده . وتزداد على الايام قوته ، شقة واسعة ، وتباين بعيد في النظر الى الحياة ، يجعل منهما معسكرين متنازعين ، تشتد بينهما الخصومة حينا ، وتضطرهما الظروف احيانا الى التهادن ، وفي نفس كل منهما ضيق بصاحبه ، وتبرم بأساليبه .

وقد يكون النزاع بينهما هو النزاع الأبدي بين الشباب والشيخوخة ، ولكن يزيده حدة ما يصحب ادوار الانقلاب الاجتماعي السريع عادة من هزات تزلزل اركان المجتمع وتطفر بالانتقال .

وكاتب هذا المقال واقرانه في العمر ، من البادئين في الكهولة ، تربطهم بالجيل الماضي خيوط فضية تسللت الى رؤوسهم ، وشيء من الضعف دب في اوصالهم ، وتربطهم بالجيل الحديث بقية نضرة في وجوههم ، وبعض الفتوة والنشاط في حيويتهم ، فهم يقعون في البرزخ الذي يفصل بينهما ، يتصلون باواخر جيل ، ويلحقون أوائل الجيل الآخر ، وهم بهذا يجمعون شيئا من خصائص الجيلين ، ويدركون وجهات نظر الفريقين ، ولا تغيب عنهم فضائل كل جيل ونقط الضعف فيه .

ولعلنا بهذا الوضع اقدر على ان ننصف كل فريق من صاحبه ، وان نطلع كلا على ما تخفيه حدة النزاع من حقيقة حاله ، من غير تجن او محاباة ، وقد يكون لهذه الموازنة الصريحة بينهما بعض الأثر في اعادة التفكير ، وتعديل بعض الاتجاهات لما هو خير .

... من أقوى العوامل التي باينت بين الجيلين، بعد مابين نشأتيهما ، وشدة الاختلاف بين الظروف العامة فيهما . فالجيل القديم نشأ في الثلث الأخير من القرن الماضي، والجيل الحديث نشأ وقد انفرط من القرن الحاضر عقد او عقدان ، وشتان ما بين الفترتين .

حسبك أن توازن بين وسائل النقل والحركة في العهدين والسرعة التي اصبحت تدور بها عجلة الحياة ، بعد أن كانت تسير في رفق واناة .

وحسبك أن ترى ما هياه العلم لابناء الجيل الحديث من شتى الوسائل التي يسرت لهم الحياة ، ووفرت لهم الدعة واراحتهم من كثير من المشقة والجهد ، وتقرن ذلك الى ما كان أبناء الجيل الماضي يكابدون في سبيل توفير ايسر الضروريات من نصب وعناء ، وكيف كانوا يشقون طريقهم في الحياة في مجاهل وعرة وأدغال مظلمة .

وحسبك أن تقدر ما حفلت به المدة التي انقضت من هذا القرن من احداث عالمية كبرى ، وانقلابات فكرية خطيرة ، واختراعات لم يمتد لتصورها خيال ، وما تتمخض الدنيا عنه كل يوم من تغيرات فجائية متلاحقة في عالم السياسة والاقتصاد ، وأن تتأمل ما كانت عليه الحياة في أواخر القرن الماضي من ثبات واستقرار وهدوء نسبي وبطء في التطور .

حسبك هذا او بعضه لترى أن الجيلين وقعا تحت مؤثرات متخالفة وظروف متباعدة من شأنها أن تباين بين ميولهما ونزعاتهما واخلاقهما وطرق تفكيرهما وأن تسلك بكل منهما مسلكا خاصا لا يتفق مع مسلك الآخر .

اضف الى هذا ان أبناء الجيل القديم قاموا والدنيا مدبرة والزمان متنكر لهذا البلد ، وشهدوا محنة قومية جرحت عزة الوطن واخمدت جذوة الآمال فيه ومكنت للأجنبي أن يبسط سلطانه ويفرض ارادته . وأبناء الجيل الحاضر جاءوا والدنيا مقبلة ، والآمال الوطنية تنتعش ، ويواتيها الجد فيتحقق منها الكثير ، والنفوذ الاجنبي يأخذ في التقلص ،

والشعب يسمع صوته وتتحرى رغباته ، وانظمة الحكم تتبدل وتتعدل ، ونسيم الحرية يهب رخاء يذكي خامد الامل ويحيي روح العزة والكرامة .

* * *

لا غرابة اذن في ان نجد في ابناء الجيل الماضي ميلا للسكون والهدوء ، ونفورا من الجلبة والضجيج ، وحرصا على الثبات والاستقرار . وأن نرى في ابناء الجيل الحديث روح القلق والرغبة في التغيير والنزوع الى الحركة العنيفة .

تجد مظاهر هاتين النزعتين فيهما باديتين في نواح شتى .

تجدها في طرق تفكيرهما ؛ فابناء الجيل الماضي هادئو التفكير قليلو الانفعال بطيئون مترددون في الاستماع للدعوات الجديدة والآراء المستحدثة، يستمسكون بما الفوه ، ويتشددون في التزام ما عرفوه من الأوضاع ، حتى ليصل بهم الحال الى نوع من الجمود ؛ ومع ضيق افقهم فان فيهم عمقا وميلا للتقصي . وترى ابناء الجيل الحديث اوسع افقا واضيق صدرا بالتعمق والاستقصاء واقل ترددا واكثر مرونة واسرع استجابة لكل جديد واستباقا لاعتناق كل دعوة جديدة ، ويغلون في ذلك حتى ليكادون يقطعون كل صلة بالماضي ، ويتقلبون حتى ليكادون يسيرون في عالم التفكير على ما يسيرون عليه في عالم الأزياء ، يقتبسون آخرها ويخلعون قديمها . ومن هنا يصعب أن نستبين في اكثرهم شخصية ثابتة مستقلة التفكير .

وتجد مظاهرهما في اخلاقهما ؛ ففي ابناء الجيل الماضي لين ودماثة ، وجنوح للسلم ، وضبط النفس ، وتقيد بالمواضعات ، وغلبة الاحتشام ، والحياء والتواضع ، والزهد في الظهور ، وفيهم حرص على السلامة وضعف وتردد في الاستمساك بحقوقهم يصل الى ما يشبه الجبن والاستكانة والاستسلام . وفي ابناء الجيل الحديث طموح ونزوع للمغامرة، وتحرر من كل قيد ، يصل بهم في كثير من الاحوال الى ما يشبه الاستهتار والاندفاع وراء العواطف ، من غير بصر بالعواقب ، وقد يصل ذلك احيانا

الى بعض الخروج على حدود الاحتشام والحياء ، وقلة الاحتفال بالتقاليد والاوضاع ، وينقصهم في كثير من الاحوال الجلد والصبر واحتمال خشونة العيش ، والثبات أمام عارض المحن .

وتجدها في اذواقهما الفنية ؛ فالجيل القديم يعجب بالادب المحافظ الرزين المتجمل ، ويطرب للأغاني العفة الهادئة ، ويانس للموسيقى الناعمة الحزينة ، ويهش للنكتة المحتشمة الرقيقة .

والجيل الحديث يابى الا الموسيقى الصاخبة المجلجلة ، والاغاني المعربدة السافرة ، والنكات الجارحة العارية ، ويتحلل في الادب من كل كل قيد ويتحرر من مالوف الاوضاع .

وكان من اثر الظروف التي قدمنا من قبل ، أن غلبت النزعة الفردية على الجيل الماضي . فكل منهم يعيش في شبه عزلة عمن سواه ، يعمل لحسابه الخاص ويهتم بمصالحه الذاتية ، ولا يولي الشؤون العامة الا اهتماما فاترا ، ولا يشترك في واجب عام الا اشتراكا سلبيا . كما أن الجيل الحديث تغلب عليه النزعة الاجتماعية ؛ فالحركات العامة والشؤون القومية تجد منه أكبر اهتمام ، وقد لا يولي شؤونه الخاصة بعض ما تستحقه من العناية .

وتتجلى هاتان النزعتان في تفكيرهما واخلاقهما .

ففي رجال العهد القديم انانية تجعل التعاون بينهم امرا عسيرا ، وتجعلهم يغلّبون مطامعهم الخاصة في كثير من الظروف على المصلحة العامة . وفيهم شح وضن بالمال والجهد في سبيل الخير العام . وقل أن تجد منهم من بذل الا تورطا أو ضحى الا طمعا في عوض ، وفيهم محاباة للأقرباء ومجاملة للخلان والأولياء .

وفي ابناء الجيل الحديث ميل للعمل الجماعي ؛ فهم يستجيبون للدعوات المشتركة والحركات العامة ويفكرون بعقل الجماعة ويتاثرون بروح

الكثرة ، وفيهم استعداد للتضحية ، واهتزاز للمكرمات ، وتقدير للعدالة والمساواة . ولكنهم يغلب عليهم اهمال شؤونهم الخاصة وقلة العناية بالتكمل الفردي الذي لا يتسنى بغيره القيام بالواجب العام على أكمل وجه .

وخير ما تتجلى فيه فضيلة الفردية في الجيل القديم – او على الأصح الروح الاجتماعية الضيقة – العناية الكبرى التي أحاطوا بها الأسرة وشدة اهتمامهم بتدعيم بنائها وتقوية اركانها والذب عن حياضها والتعاطف القوي بين أعضائها ، ونشأ عن ذلك أن اشتدت غيرتهم وقويت عصبيتهم .

وفي الجيل الحديث يبدو أن الأسرة قد نزلت بعض النزول عن عرشها وان روابطها قد تفككت بعض التفكك ، وان حرماتها لم يصبح لها من القدس ما كان لها في الماضي ، وان روح العصر طغت على تقاليدها وأخرجتها عن عزلتها .

* * *

ويبدو ان أهل الجيل القديم كانوا عمليين غير مثاليين ، كما يلوح أن ابناء الجيل الحديث اكثر تعلقا بالمثل وجريا وراء الخيال .

يتجلى ذلك في غلبة الاخلاق العملية التي يتطلبها النجاح الدنيوي على أهل الجيل القديم ، من تلطف في الاحتيال لما يريدون واخذ بالتقية فيما يخافون ومصانعة للأقوياء ومداراة للسفهاء . وفي أبناء الجيل الحديث صراحة قد تزيد الى ما يشبه التبجح . وفيهم سذاجة تجعلهم فريسة هينة للمخادعين . وفيهم عواطف حساسة قد يشتطون في التأثر بما يحركها لأبعد الحدود .

ولست أدري لم كان أهل الجيل القديم أكثر جدا واقل عبثا من ابناء الجيل الحديث الذين تغلب عليهم في أكثر حالاتهم روح الهزل والمجون .

هذه نظرة مجملة حاولت ان اصور بها أبرز الصفات في الجيلين . ولا يصح اعتبارها نظرة شاملة ، ولا ان يؤخذ بها كل أفرادهما ، فكم في كل جيل من يعيش في غير زمنه ويساير جيلا غير جيله .

محمد عبد الواحد خلاف

المصدر : الثقافة – القاهرة العدد /١٣/ ٢٨ مارس ١٩٣٩ – السنة الاولى .

رجعية قديمة ورجعية جديدة

... تجب مكافحتهما

وصفي البني ١٩١٢ — ١٩٨٣

لا شيء مثل القضايا الاجتماعية ، دينية كانت او وطنية ، اصبح ميدانا لتلاعب صريح مفضوح ليس له من ستار يخفي خطره غير جهل المتلاعب بمصالحهم ، وليس له من دعامة يستند عليها غير ضعف هؤلاء وقوة المتلاعبين . وان لهذه القوة وذلك الضعف لمظاهر كثيرة ومصادر مختلف لا بد من موضوع مستقل لدراستها دراسة علمية وافية .

ولقد بات طبيعيا ان نرى كثيرا من الاعمال المنافية لروح الدين تجري امام عيوننا ورغم انوفنا .. باسم الدين ! كما بات طبيعيا ايضا ان نرى كثيرا من الاتجاهات القاتلة لمصلحة الشعوب يدفع الناس او يندفعون في طريقها ، امام عيوننا ورغم انوفنا ... باسم مصلحة هذه الشعوب ! والاغرب من هذا اننا نجد هذا الكلام نفسه يردده العابثون بالاديان ومصالح الشعوب لمحاربة الاتجاهات الجديدة التي ترمي الى استئصال العبث من جذوره . فكيف السبيل للتفريق بين الباكي والمتباكي ؟ اهنالك من حكم غير العقل والمنطق ؟ ولكن العابثين جميعا يزدرون العقل والمنطق . ففريق قد أغلق « باب الاجتهاد » او حال العقل « على التقاعد » الى الابد ... وفريق « جديد » يقطب في وجهك جبين فيلسوف ويخاطبك بمنطق شاعر ، فيقول لك : العاطفة فوق العقل ، فوق المنطق ، فوق المصلحة ، فوق كل شيء ! ... اتريد أن نحصر انفسنا في نطاق الوعي المحدود ؟ ... ولعمري انها لرجعية جديدة ، وما الجديد فيها الا ثوبها « الفني » البراق الذي يخدع الاطفال ويرضي الكسالى والجبناء الذين ينفرون من ملاحقة

العقل الواعي الذي يقود الباحث الامين الجريء الى شتى مطارح الحقيقة، الحقيقة العارية ، سواء اتجلت في جنة وارفة الظلال او بين فكي التنين . انهم بتمسكهم بهذه « النظرية » الجديدة بمظهرها والعتيقة بجوهرها . انما يريدون ان يغلقوا « باب الجدل » ـ اجـل هكذا يقولون ـ وهنا يتحمسون « حماسا قوميا » فيقولون لك بوجوه متجهمة من الاسى والالم: « لا شيء يقضي على نهضتنا القومية مثل هذا « الجدل العقيم » الذي يدور هنا وهنالك حول ما يجب علينا ان نعمل ، واين هي مصلحتنا ، واي النظريات يجب ان نعتنق .. دعونا من كل هذا ! .. نحن عرب قوميون فقط .. هذه هي الحقيقة المطلقة ومصدر كل الحقائق .. كل نظرية من النظريات يجب ان تغترف من هـذه « الحقيقة الحية » مادتها الاولى .. الخ » بمثل هذه العبارات تتجلى الرجعية الجديدة التي تغترف منطقها الخلاب من مستنقعات النازية والفاشستية التي تغريهم خضرة سطحها فيسدون انوفهم كيلا يشموا روائح الدمار المقيم تحت تلك الخضرة الخادعة التي تتشقق كثيرا فيغمضون عيونهم كيلا يبصروا القيح المخزون تحت الورم الذي يحسبونه شحما ..

فنحن اذن امام رجعيتين : أولاهما ، وهي العتيقة ، قـد اتخذت الجمهور الساذج الجاهل قلعة حصار وسـلاح هجوم في آن واحد . وثانيتهما وهي « الجديدة ! » راحت تنفث سمومها في السذج من شبابنا المثقف وتحاول التسرب الى أوساط الطلبة ، فاستثمرت في اولئك وهؤلاء حماستهم البريئة ونفرتهم من مسالك التفكير العميق والدراسة الجدية المستقصية ، وايثارهم العمل السطحي في المناسبات العارضة ، حينا بعد حين ، على العمل في الاعماق والاسس بصورة متواصلة غير متقطعة .

ونحن نؤمن ان معسكر الفاشستية والنازية في وطننا العربي انما يتخذ من هاتين الرجعيتين اداة هجومية دفاعية يهدم بها كياننا القومي بشتى الدعايات الاستعمارية المطلية بطلاء « اسلامي » حينا ، و« عربي » حينا آخر فيتخلى شعبنا الساذج وشبابنا المخدوع عن التفكير ببناء مستقبل أمتهم والعمل في الميادين القومية الصحيحة ، منتظرين « منقذ العرب »

هتلر الجبار الذي « أرسله الله سيفا على اعداء العرب والاسلام لينتقم لهم من ظالميهم ويحررهم من مستعبديهم ثم يعود الى غمده في برلين بعد أن يترك عددا كبيرا من طائراته في هذه الديار لينقل الحجاج الى بيت الله الحرام ذهابا وايابا ومجانا لوجه الله تعالى ! .. »

وتقول اسطورة سمعتها في دمشق ان لهتلر – او « ابو احمد » كما يسميه الطابور الخامس – غرفة في قصره في برتشسغادن لا يدخلها احد غيره . وهو يختلي فيها كل يوم ساعات وساعات .. فدفع الفضول ذات يوم واحدا من المقربين الى « الزعيم » – ولعله غوبلز – فدخل الغرفة فاذا هي خالية الا من سجادة للصلاة لله تعالى ... ولما فرغ الفوهرر من صلاته وسئل عما هو فيه اشار بسبابته الى القرآن وقال : هذا هو الطريق !..... بهذا انتصرت !...

بمثل هذه السخافات والاضاليل يبشر الطابور الخامس بالوثنية النازية ، ومن هنا تبدو قيمة خطرة ، فهو يستند على الجهل والرجعية وشتى الوان الخيانة الوطنية والقومية ، الواعية وغير الواعية ، ان مكافحة هذا الطابور الخامس ، ان مكافحة الفاشتية والنازية في وطننا العربي ليست كما يحسب بعض « القوميين » عملا « انسانيا بعيدا عن القومية » بل هي في الواقع العمل القومي الاجل الذي يجب على من يطمح لتحرير امته حقا ان يصرف كل قواه في تاديته ، انها عمل قومي عربي في الدرجة الاولى ، وانها لعمل انساني بالدرجة الثانية لان العرب حين يتحررون من خطر الفاشتية والنازية فانما يخدمون الانسانية باضعافهم لخطر كبير يهدد حياتها بافظ وارهب شكل من اشكال الاستعمار الذي تهب الدول الفاشتية البربرية لانعاشه وهو على فراش الموت .

فما هو عملنا نحن اعداء الفاشتية والنازية العرب ؟ يقول محتكرو القومية : « انكم يا هؤلاء بمكافحتكم الفاشتية والنازية انما تخدمون استعمارا عرفتم شروره وتكافحون امة لم تجربوها بعد » . اصحيح اننا لم نعرف ايطاليا في الحبشة وطرابلس الغرب ، واليابان في الصين ، والمانيا

في اوروبا ؟ . . . لا ، لا ، اننا اجل واشرف من ان ننحدر الى هوة المفاصلة بين استعمار واستعمار .. والقضية ليست قضية مفاضلة بين نوعين من انواع الاستعمار ، فنحن اعداء كل استعمار لاننا اعداء كل ظلم واضطهاد ونحن اذ نعلن وقوفنا في وجه الفاشستية النازية المجرمة ليس معنى ذلك اننا نكافح خطرا بعيدا لم نعرف حقيقته بعد ونصالح خطرا قريبا قد خبرنا حقيقته . وليس غير الصم البكم العمي من يحسب ان خطر النازية البربرية بعيد عنا ، انه هنا بين ظهرانينا ، فوق رؤوسنا ، وتحت سمعنا وبصرنا ، وهو جاثم فوق صدورنا يكاد يخنقنا بثقله وضغطه . ان بعض الفئات المخدوعة بالاضاليل الرجعية ودعايات الخونة ، باتت ولسان حالها يقول : « عجلي ايتها الساعة التي سوف تحمل الينا فيها جيوش « المحررين » الالمان الخلاص من كل مصاعب هذه الحياة الخانقة التي لم نعد نحتمل الصبر عليها ! » ومن الذي ينكر على شعبنا ان يحس مصاعب هذه الحياة ، اجتماعية كانت أو اقتصادية ؟ بل كيف يمكن لشعب حي ان لا يتضجر من مصاعب الحياة ؟ هنا تبدو لنا حقيقة واضحة كالشمس: ان شعبنا اشبه ما يكون بتائه في صحراء قاحلة قد بلغ به الاعياء والجوع والعطش حدا فقد معه سمعه وبصره وتفكيره . . . فاذا لمست يداه شيئا حسبت هذا الشيء « منقذا من عند الله » ولو كان هذا « الشيء » رأس افعى او انياب ضبع شره الى الدم ! أتريدون أن يدرك شعبنا حقيقة ما يحسبه « منقذا من عند الله ؟ . . . شمروا سواعدكم اذن وتعالوا نكافح كل ما يؤدي الى فقدان هذا الشعب لسمعه وبصره وتفكيره . تعالوا لنعمل كل ما يجب عمله لننقذ شعبنا من التيه في الصحراء ، لننقذه من الجوع والجهل .

وهذا ما تنادينا اليه نحن اعضاء عصبة مكافحة الفاشستية في سوريا ولبنان .

وهذا هو عملنا القومي الذي كنا ندعو اليه كل راغب بتحرير قومه من كل اشكال العبوديات الى معاضدتنا فيه .

وصفي البني

المصدر : الطريق . بيروت . المجلد الاول . الجزء الاول . ٢٠ كانون الاول ١٩٤١ .

موقف العرب

من الثقافة القديمة والثقافة الحديثة

عبد المعين الملوحي – ١٩١٧ –

يسود التفكير العربي اليوم اضطراب وتردد بين ثقافتين : ثقافة قديمة وثقافة حديثة . ثقافة قديمة تحاول ان تستمر وان تفرض على عقولنا مفاهيمها ووجهة نظرها الى العالم، وتريد ان نكتفي باجترار معقولاتنا القديمة ، وآرائنا السابقة ، وبترديد الحكم الشرقية والامثال الخالية للحكم على كل مناحي الحياة الحديثة واتجاهات الحضارة البشرية ، وتود ان نقف على شاطىء كل التيارات السياسية والفكرية والاجتماعية في العالم ، قانعين بالنظر اليها نظرة جامدة بليدة ، ساخرين بهذا المعترك المتلاطم من النظريات والمبادىء ، سخرية من يرى انه ارفع من ان ينزل الى ميدانها ويناضل في تحقيق ما يرى ان عليه نصره منها ، وتبتغي ان نعيش كما تعيش الحيوانات التي حرمت غذائها على حساب ما فيها من مواد مدخرة حتى تموت وتتلاشى . او بكلمة مختصرة : ثقافة قديمة ، تظن ان لم يخلق خير منها ، وانه ليس في الامكان ابدع مما كان ، وانها ارقى الثقافات واتمها ، وانها كاملة لا سبيل الى الزيادة فيها والانقاص منها ، فلذلك ينبغي ان نعتنقها وان لا نرضى بها بديلا ، وان (نرجع) اليها ونقنع بها فلا نتطلع الى ما حولنا من ثقافات وفلسفات ، الا من عل ، واذا نحن تطلعنا فكما ينظر الطفل الذي يغلبه النعاس الى ما حوله من وجوه ومعالم .

وثقافة حديثة تغزو عالمنا العربي من كل ناحية وتتعرض لنا في اغراء وفتون ، ونتقبلها راضين احيانا ، ساخطين احيانا ، ولكننا نتقبلها في كل

حال ، وهذه الثقافة تمثل الحضارة الحديثة واتجاهاتها ، تدوي فيها صرخة الحياة ، ويضج من حوليها كل ما في الكون من عراك بين المبادىء والنظريات ، انها تنبعث من مقاعد الدرس ، ومن دور الكتب ، ومن آلات المصانع ، ومن ضجة المطابع ، ومن مخابر الكيمياء ومن كل ما على هذه الارض ، وما تحت الارض ، من اختراعات ومكتشفات . وهي ثقافة لا تحتم علينا نوعا واحدا من الآراء ، ولا تفرض على عقولنا قالبا واحدا من التفكير ، ولكنها تعرض علينا كل ما انتجته القرائح في المجتمعات الراقية لنجد فيه ما ترضاه طبيعة ماضينا وحاضرنا وهي لا تقول عن نفسها : « انها ابداع ما يمكن ان يكون » ولكنها تقول انها شيء كائن يمكن ان يكون ما هو خير منه ، وهي لا تقول انها كاملة ولكنها تقول انها تسير نحو الكمال (وتتقدم) اليه . انها تقدمية اي انها ترى مثلها الاعلى فيما سيكون ولا كما راته الثقافة القديمة فيما كان .

فما هو موقفنا نحن العرب من الثقافيين ؟ والى ايهما يجب أن نتجه ان أردنا لأمتنا الحياة ؟ وكيف يجب أن نفهم الثقافة ؟ وما هي مقوماتها ؟ وكيف نستطيع ان نكون مثقفين ؟

اول ما يجب ان نعرفه : لنتبين على ضوئه موقفنا من الثقافتين ، ولنجيب على هذه الاسئلة المختلفة ، هو أن نحدد معنى الثقافة ومفهومها :

ان للحضـارة البشرية مظهرين : مظهرا ماديا نصطلح على تسميته بالمدنية ، ومظهرا فكريا نصطلح على تسميته بالثقافة ، فالثقافة هي المظهر الفكري للحضارة ، وهي والمدنية تسيران جنبا الى جنب وتتطوران تطورا مستمـرا دائمـا .

ان اختلاف طرائق الناس في معايشهم ومكاسبهم وتبـدل وسائل الانتاج ، هما اللذان يحددان بالضرورة نوع التفكير في المجتمع ، ودرجـة ثقافتـه ، ونوعها .

وكما ان الحضارة المادية في تطور مبدع واستمرار متجدد ، كذلك كانت الثقافة في تطور مبدع واستمرار متجدد ، انهما نتيجة لسبب واحد، هو هذا الجهد الذي بذلته البشرية كلها على اختلاف أممها وعروقها من اقدم عصورها حتى اليوم ، ولا تزال تبذله ، ومن الطبيعي ان هذا الجهد مستمر في قوته وانتشاره فمظاهره من حضارة ومن ثقافة مستمرة في قوتها واتساعها ، وليس من احد يحترم نفسه اليوم يعتقد ان الحضارة المادية القديمة والحضارة المادية الحديثة متساويتان في النوع والقيمة ، فقد ارتقت الحضارة البشرية منذ اوائل القرن التاسع عشر حتى يومنا هذا ارتقاء لو شئنا ان نستعمل لبيانه الطريقة الحسابية لقلنا انه يبلغ ٩٠ بالمئة من الحضارة البشرية نفسها خلال عصوور التاريخ .

واذا نحن اتفقنا على هذا الراي الاساسي ، اي اننا اذا اتفقنا على ان الثقافة مظهر الحضارة الفكري . وانها تختلف درجاتها باختلاف درجات الحضارة ، وصلنا الى نتيجة منطقية لا شك فيها ، وهي ان مرحلة ما من مراحل الثقافة لا تصلح للحياة في كل مرحلة من مراحل المدنية ، انها ليست رداء واسعا ولا كيسا يلبسه كل جسم ، بل هي مرحلة ثقافية صالحة وممثلة لمرحلة مدنية معينة ، او هي على التاكيد مظهر لتلك المرحلة الخاصة ، وليس ممكنا ابدا ان نطبق اية مرحلة من مراحل الثقافة على اية مرحلة من مراحل المدنية ، اذا لم تكن هاتان المرحلتان حادثتين في زمان ومكان واحد ، وكانت احداهما مظهرا ومتممة للاخرى ، اي ان لكل مدنية من المدنيات ثقافة من الثقافات لا يمكن فصلها عنها ، فاذا تطورت تلك المدنية استدعت بالضرورة تطور هذه الثقافة .

ان لكل دور من ادوار التاريخ تفكيرا خاصا ، فليس يصلح للدور الرأسمالي تفكير الدور الاقطاعي ، وليس يصلح للدور الاقطاعي تفكير عهد العبودية .

وهنا نصل الى ما لا بد من الوصول اليه ، وهو اننا في مرحلة من مراحل التمدن الحديث تلازمها مرحلة من مراحل الثقافة الحديثة ،

ونحن لاننا نقبل هذه المدنية ، بل نحن لاننا نسرع الى هذه المدنية مختارين أو غير مختارين ، لا بد لنا من قبول ثقافة هذه المدنية مختارين أو غير مختارين ، بل لا بد لهذه المدنية التي نستمدها ونؤسسها من ثقافة هي ناشئة عنها ومستمدة منها .

وهكذا نرى اننا قد وصلنا الى حل هذه العقدة التي تفرض علينا وتطلب منا ان نطبق مرحلة ماضية من مراحل الثقافة القديمة على مرحلة حاضرة من مراحل المدنية الحديثة .

ان الحياة نفسها تأبى تحقيق هذا الطلب ، بل ان الحياة نفسها ترفضه لانه ليس من طبيعتها ولانه غير معقول وغير ممكن .

ان للمدنية الحديثة ثقافة حديثة ، كما كانت للمدنية القديمة ثقافة قديمة ، ونحن أمام طريقين لا ثالث لهما ، ولا اختيار فيهما هو إما أن نقبل ثقافة المدنية الحديثة ، لاننا قبلنا هذه المدنية نفسها ، وإما ان نعود القهقري خلال التاريخ ، فنرفض المدنية التي قبلناها عفوا ، ونرجع الى دور من أدوار المدنية القديمة حتى تتفق مع هذا الدور من أدوار الثقافة القديمة التي يريدنا اصحابها على التمسك بها واعتناقها ، وليس هذا أيضا ممكنا ، لاننا سرنا في طريق الحياة ، ولسنا ، وان كان ممكنا ، لنختاره نحن العرب الذين نطلب لامتنا الحياة .

اذن فنحن لا نستطيع الغاء ما اخذناه من مدنية ، ونحن لا نستطيع اعادة دور من أدوار المدنية الماضية يعتمد على نوع خاص من أنواع المعايش والمكاسب والعلاقات الاجتماعية القائمة على وسائل انتاج معينة ، قطعته البشرية منذ عصور ، ونحن في سبيل قطعه واجتيازه . ونحن لا نستطيع أيضا بطبيعة الحياة أن لا نفتح صدورنا للمدنية الحديثة ، لان الانسان — كما يقول الفلاسفة — مدني بالطبع ، واذن فلابد لنا مختارين أو كارهين وما دمنا احياء مفكرين ، من قبول ثقافة هذه المدنية لاننا قبلنا هذه المدنية نفسها ، ولست أقصد من هذا أننا يجب أن نقبل كل ما في تلك

الثقافة ، لاننا في الواقع يجب أن لا نقبل كل ما في هذه المدنية ، ونحن اذا كنا عربا واعين وجب ان ندرك الاسس الفكرية والخطوط الاولى الموجهة لهذه الثقافة ، لا ان ننحل انحلالا نهائيا في تناقضاتها ونهمل قواعدها الاساسية المتينة .

اننا ايضا لا نستطيع اعادة دور من ادوار الثقافة الماضية يعتمد على نوع خاص من انواع التفكير والذوق والشعور ، لاننا لا نستطيع بطبيعة الحياة ان لا نفتح صدورنا للثقافة الحديثة ، وعقولنا للتفكير الحديث .

ولكنا اذا وصلنا الى هذا الراي الذي لا يرفضه انسان ، وجب علينا أن لا ندفعه الى اقصاه فيصبح خطأ ، ونقع فيما لا نريد أن نقع فيه من ضيق ساحة النظر . ولقد قلت ان هذه المدنية والثقافة متصلتان غير منفصلتين ، وانهما مظهران لشيء واحد ، هو هذه الجهود البشرية المادية والفكرية ، ولكن هذه المدنيـــة التي ننعم تحت أفيائهـــا اليوم ، ليست نتاج الحاضر ، ولا هي شيء منزل ليس له مقدمات ، ولن تنتج عنه نتائج ، ولكنها حلقة من الحلقات المتصلة المتسلسلة تتصل بما سبق وتتصل بما يلي ، وكذلك كانت الثقافة الحاضرة فهي ليست إلهامـــا ولكنها حلقة من الحلقات المتصلة المتسلسلة ، تتصل بالماضي وبالمستقبل ، ولقد أصبح من مكرور القول أن جسم الانسان الحاضر ليس مخلوقا منقطعا عن الماضي غير متصل بالمستقبل ، وأن هذه المظاهر المتفرعـــة لجهود الانسان ولنشاطه ليست منقطعة عن ماضيها ومستقبلها .

ان علم الحياة يقول لنا ان الانسان الحاضر هو نتيجة التطورات البيولوجية التي حدثت لأسلافه وأجداده ، وهو أيضا مقدمة لأبنائه الذين يرثون منه هذه التطورات . وكذلك فان المدنية والثقافـــة أو الحضارة المادية والحضارة الفكرية هما نتيجة جهود آبائنا الذين وضعوا الحجر الاساسي في بنائهـــا وهي نتيجة جهودنا التي سنقدمها لأبنائنا ليزيدوا في بنائنا ويوسعوه .

وعلى هذا فليس من انقطاع بين ماضينا وحاضرنا بطبيعة الامر ، ولو انقطع حاضرنا عن ماضينا لم تبق لنا شخصية ولا هوية ــ كما يقول علماء النفس ــ وانما بقاء الانسان ببقاء شخصيته ، والثقافة التي ندعو اليها اليوم هي بطبيعة الامر ثقافة الحاضر والماضي معاً ، والواقع في المدنية الحاضرة عناصر كثيرة من المدنيات الغابرة ، كما ان في الثقافة الحاضرة عناصر كثيرة من الثقافات الغابرة ، وهذه اللغة التي نتكلم بها ، هل هي الا وراثة الماضي ؟

يقول أنصار الثقافة القديمة ، أو على الاصح يقول من لا يفهم الثقافة القديمة ، وهو عن فهم الثقافة الحديثة اعجز ، اننا نستطيع أن نعيش في هذا العصر المادي الواقعي بثقافتنا المتافيزيكية القديمة ، التي هي ممثلة للعصور الاولى والوسطى ، وهذا غير صحيح ، فنحن في عصر مادي يجب أن تكون لنا فيه ثقافة مادية أي ثقافة واقعية تعتمد على التجربة والمحاكمة ، لا على الآراء السابقة والتصورات المتوهمة ، ثقافة تفهم الكون ولا تتصور له أشكالا وقوالب ترغمه على قبولها والتبلور في اطاراتها .

اننا نقبل حضارة الغرب ، نقبل مخترعاته ، ونقبل أنظمته ، ونترجم علومه ، وذلك كله الان حاجاتنا مثل حاجاته ومثلنا العليا قريبة من مثله ، ذلك لأن عقلنا مثل عقله ، ذلك لان العالم يسير كله الى تحقيق عالم انساني عادل وشريف وسعيد ، ذلك لان هناك وحدة في العقول ووحدة في الاهداف ووحدة في المصالح كامنة وراء هذه الفوضى المتلاطمة من التعارض والاختلاف والتعصب التي نتجت من تفاوت درجات التطور في مختلف الافراد والجماعات والشعوب .

فليس من المعقول بعد ذلك كله ان نزعم قدرتنا على الاكتفاء بثقافتنا ولوك نظرياتنا وآرائنا ، بل ان الواجب والمعقول أن نزيد في ثقافتنا وان ننميها ، وان لا نكتفي باجترار ما حفظنا ، بل يجب أن ننشيء ثقافة حديثة تتفق مع مدنيتنا الحديثة . اننا لا نريد أن نكون منفعلين نتقبل

ولا نبدع ، ونأخذ و لانعطي ، ونسرق ولا ننتج . ان الذين يدعوننا الى مقاومة الثقافة الحديثة والاكتفاء بالمدنية الحديثة كمن يدعوننا الى امتطاء سيارة ليس فيها زيت ، وحافلة ليس فيها كهرباء ، انهم يقدمون الينا جثة ليس فيها روح .

وهم في الواقع يعوقوننا عن السير في طريق الحياة ، في طريق الانتاج والابداع ، في طريق الاختراع والاكتشاف ، في طريق أن نكون أهلا لهذه المدنية التي نتمتع بخيراتها ، ثم يريدون ان لا نعينها في أزمتها الحاضرة ، وان لا نساهم فيها ونقدم اليها ما نستطيع من قوة ونجدة . انهم يطلبون منا ان نكون حيوانات لا تنتفع من خيرات الارض الا بما يطعمها ويسقيها ، ثم هي غافلة عما في الارض وفي السماء ، من حياة وجمال ، وعلم وثقافة ، وفن وذوق وأدب .

ولكننا نحن العرب نرفض هذه النظرية الرجعية ونأباها ، لاننا من امة انسانية رشيدة ، ولاننا اهل لهذه الحياة الجديدة التقدمية التي تعج بالابطال من العرب ومن غير العرب ، والتي تسير بعجلة التاريخ الى الامام دائما والى الامام ، ولاننا لا نريد الموت لانفسنا ولا لامتنا .

اننا نأبى أن ننظر الى الانسان كمخلوق شرير بغريزته لا سبيل الى اصلاحه وجعله انسانا خيرا وطاهرا .

اننا نأبى أن ننظر الى الانسان كمخلوق يحمل تبعة (الخطيئة الاولى) ثم لا سبيل الى سعادته ورغده .

اننا نأبى أن ننظر الى الانسان كمخلوق عدو لاخيه الانسان يستعده ويستثمره ، ثم لا سبيل في نظره الى الغاء الاستعمار والاستثمار في جميع اشكاله .

اننا نأبى أن ننظر الى دنيانا التي فيها معاشنا كجيفة قذرة ، وليست هي الا مجالا رحبا طيب المتاع ، يمكن أن يتحول الى حديقة غناء .

اننا نأبى كل هـذا ونريد أن ندفن الى الابد تلك البقايا المتحجرة العفنة من آرائنا وأوهامنا .

يقول باسكال : « انني لا اجد الفيلسوف مونتني في كتبـه ، ولكنني اجد نفسي . » وانا ايضا لا اجد الغرب وحده في كتبه وثقافته ، بل اجد نفسي ، اجد ما يرضي عقلي ويعجب ذوقي ، اجد فيهما ما تتطلبه الامة العربية التي لم تتبين الخيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر منذ قرون ، فلما تبينته هرعت اليه ووجدت طريقها التي اضاعتها فيه ، فاهتدت اليه كما هدت الغرب من قبل اليها ، فاذا هي طريق الحق والنور والجمال .

دمشق ١٠ ــ ١ ــ ١٩٤٣

عبد المعين الملوحي

المصدر : الطريق ، بيروت : المجلد الثاني ، الجزء الثاني ــ ٢٠ شباط ١٩٤٣ .

كمقدمة

مارون عبود ١٨٨٦ – ١٩٦٢

القديم والجديد نضال الابد بل صراع الحياة . في عش العصفور الدوري كما في عرين الأسد ، بين الآباء والابناء ، الاخوة والاخوات ، والكنة وحماتها ، وهنا التنور المسجور والفرن الحامي ...

تكون الحماة ارجح عقلا واوفر علما وتراها الكنة اختاً للغوريلا وانثى الكهوف . اما الحماة فتقف بالمرصاد كعداد التكسي .. ان مشت الكنة رات خطواتها أوسع من المعتاد ، وأشارت بتعديلها لتكون على التمام ، كما رسمها السلف الصالح .. واذا تبسمت صفقت على فخذيها وصاحت بابنها : قل لبنت عمك لا تفتح بوزها على مصراعيه ثاني مرة ، هذا عيب ! واذا حكت فهي ثرثارة ، لسانها اطول من اذنيها ، وان سكتت فالمسكينة حمارة ، الدجاجة تأكل عشاءها ، وان رفعت صوتها كانت وحشة مقطوعة من الحرج ، وان خف صوتها فهي حية رقطاء تحكي في عبها ، وان قصرت ثوبها فهي من سلالة حاتم في الفتنة والاغراء ، وما هكذا تعمل بنت الاوادم ، وان عملت بوصايا الله فكل قماش بيروت لا يكفينا ، والله يساعدك يا ابني !! وان كبرت لقمتها فهي غولة ، لعنة الله على من ربوها ، وان بينت سنها فالبنت عينها شاردة .

وتروز الكنة حماتها فتراها أقل من خرقة بالية اولى لها ان تلقى في المطبخ لا أن تتقدم عليها في المحضر ، وتسود وجه البيت .. فلتنقبر ! اين عزرائيل كناس البيوت ؟ الا يرى هذا الوجه المتكرش كأنه آخر البندورة ؟ ..

والحماة تخاف على ولدها من هذا الطاعون . البيت يخرب اذا تخلت هي عنه لهذه البنت الطائشة ، واذا زارتها جارتها تسر النجوى قائلة : غضب من ربنا يا جارة ، حل علينا . يا قلة الحظ !! ثم تقرصها في جنبها قرصات لاذعة لها ألف معنى ومعنى ، بينما الكنة المسكينة تقرأ او تطرز ، او تترنم كذباب عنترة ... وتختم الحماة رسالتها هذه بصريف الاسنان مقرونا بأحر العواطف : يخرب بيتها ، لا يهمها شيء سواء عندها خرب البيت أم عمر ، فتجيب الجارة الحكيمة : السكوت إحسن يا جارة ، ما في اليد حيلة !

أجل ما في اليد حيلة ، وهذه مصيبتنا بعينها في الادب ، الادب يريد ان يمشي ، والحماة قرم عنيد واقف بالدرب ، لا تفتح الطريق الا اذا مشينا على جثتها . فلنمش !

كان من الازياء الأدبية ، منذ نصف قرن خلا ، ان يقدم الكاتب لاسمه بسجعة فيقول : ألفه الفقير الى عفو ربه الرزاق فارس بن يوسف الشدياق ، او صنفه العبد الفقير الجاني ، سعيد الخوري الشرتوني اللبناني . وقد ادركت ، تلميذا ، آخر هذه السوق ، فكتبت على دفتر لي مدرسي سيبقى بعدي وقف ذرية : المحتاج الى عفو ربه المعبود ، مارون حنا الخوري عبود . وكان هناك زي آخر أعظم خطراً وهو ان يصدر المؤلف كتابه بيتين من الشعر ، كما فعل المعلم بطرس البستاني فكتب على قاموسه الشهير :

قل لمن لا يرى الاواخر شيئاً ويرى للأوائل التقديما
ان ذاك القديم كان حديثاً وسيمسي هذا الحديث قديما

فتعظيم القديم من طبيعة الناس ولذلك عبدوا جدودهم .. فكل رجل ولو خاملا ، يستحيل يوم يموت شيئاً عظيما ، تنهال عليه الرحمات ويرون انه كان من المفارد ، لا تعصى عليه مشكلة ، مع ان المرحوم كان لا يهش ولا ينش ، ولكنه دخل الابواب الدهرية فصار ملك المجد ..

وقبالة جيل القديم يرتفع توأم آخر يساميه ويطاوله ، هو جيل الجديد ، والتوأمان لا يلتقيان . فزعيم الشعر العربي واحد لا غير هو الذي ضيع ملك ابيه ، ولكن عرش ذلك الوالد المحترم لا يساوي بيتا من قصائد ابنه . طاح تاج ابن حجر فداء راس دارة جلجل ... ونودي بامرىء القيس ملكا على الادب العربي ، واثبت عرشه مدة ستة عشر قرنا ، لا يثور عليه الا عصابات تذوب جهودها في الخنادق التي تحيط بالقديم .

وقرأ شبابنا آداب الامم فاغرتهم بالخلق فتجهم لهم المحاربون القدماء يريدون ان تظل الجبهة في البيداء فقالوا : ليس هذا من كلام العرب .

ان الشعر معمل تصنع فيه التعابير ، ولهذا يحق لنا ان نقول للشاعر كن كيف شئت ، الا اثنتين فلا تقربهما ابداً : النحو واللغة .

فتنت العرب التعابير الراقصة فصرخوا بصاحبها : انت اشعر العرب وادركوا ان الشعر موسيقى اولا فقدموا البحتري واخروا ابن الرومي . واهتز ابن الاثير « لوطن النهى » في شعر أبي تمام ، وأعجب « بقلب يطل على أفكاره »عند ابي عبادة ، كما نعجب نحن « بضيوف الله » عند شوقي لا بقريع الشهباء وكبش النطاح ..

يصلح الشباب اوتارهم فنشوشها لهم ، وبدلا من ان ننثر الزهر على الموكب العابر نرجمه بالحجارة . ما قتل الادب العربي الا توسله الى الفن بلغة « رسمية » لا يحيد عنها . ولو كان في ذلك الاسلوب « الرسمي » خير ، ما نزل القرآن الكريم بلغة الناس الفاتنة الطرية الناعمة المصقولة .

يحاول الشباب خلق الشعر المصفى فنغضب تلك الغضبة المضرية ليظل اكثر شعرنا نثراً . وكما كانوا يحتكمون في البصرة والكوفة الى وافد من البادية نحتكم نحن اليوم الى الكتب القديمة ، حتى في الفن .. ان باب القياس أوسع من الهاوية ، فدعوا السماع ، واضربوا في مناكب الارض ولا تكونوا من ذوات الهدتين .

فلندع المجترين يتبلغون بما في بطونهم ، ولنخلق طعاما جديداً . ان في الادب ازياء تتجدد . ان البساتين تحتاج ، دائما ، الى التطعيم ، والاداب بساتين الشعوب ، فلنطعم ادبنا فقد اصبح برياً . قدحان لهذه الوثنية الادبية ان تتوارى ، فالفن لا يعرف الا إلها واحداً هو الجمال . ان فلح الشباب ففلاحهم مجد لنا ولهم ، وان اخفقوا فالتبعة عليهم . ان اللواء معقود لهم وسيظل في يدهم حتى تعقده العبقرية لجيل آخر ، ان اللوية محبوبة الآ في الادب ، ففلان وفلان لا يريدون ان يتواروا ان الحماة لا تدع ثرثرتها حتى يغلق عزرائيل ذلك الفم الذهبي .

مل العرب القديم في كل عصر ففضل الاصمعي ابن بُرد على مروان ابن ابي حفصة ، وابن الاثير نادى ان باب الجديد مفتوح حتى يوم القيامة .

منذ دهور واعيننا في ظهورنا ، واكثرنا يعارض الذي عيناه في وجهه . فهذا الشعر الذي يقوله شعراء اليوم هو الشعر حقا ، ولكنه في حاجة الى خلق مستمر ، فقد كاد ان يصير ادب عصائب طير تهتدي بعصائب .

كان الاعرابي يؤثر – كالاب بريمون اليوم – شعراً موسيقياً خف معناه على شعر بلا موسيقى ، وان رجحت كفة معانيه . فلنسر على هذه الطريق نفلح . اما المتوغلون في الوثنية الادبية فلهم اقول : اذا كان يستطاع تبديل حياة النبات بتبديل الضوء ، أفلا يستطاع الشعر على ضوء مصباح اديسون بدلا من ذبال أمرىء القيس المفتل ؟!

نيسان ١٩٤٨

مارون عبود

المصدر : مجددون ومجترون – ص ٥ – ٩ المقدمة . الطبعة الاولى . بيروت ١٩٤٨ .

الجديد والقديم

الدكتور عبد الرزاق السنهوري باشا ١٨٦٥ ـ ١٩٧١

تفضل معالي الدكتور عبد الرزاق السنهوري باشا ، فقدم هذا العدد بهذه الكلمة القيمة التي تضمنت رأيا نفيسا وتوجيها رشيدا للجيل الجديد .

وزير المعارف

طلب الى « الهلال » ان اقدم بكلمة موجزة لهذا العدد الممتاز وعنوانه « الجديد » . وقد كنت احب ان اقصر عنوان هذه الكلمة على « الجديد » دون أن أضيف اليه « القديم » فاحاكي بذلك عنوان العدد الممتاز نفسه . ولو طاوعت شعوري لفعلت . ولكني فكرت قليلا ..

فكرت اولا في انني اقدم الكل ما اشتمل عليه العدد من آراء ونزعات ، وفيها انتصار للجديد وللقديم .

وفكرت ثانيا في ان الجديد لا يقوم الا بالقديم ، ولولا القديم لما كان هناك جديد . فليس من الانصاف أن اخص الجديد بالذكر دون القديم .

وفكرت اخيرا في ان جديد اليوم سيكون القديم في الغد ، وان قديم اليوم كان بالأمس هو الجديد . فلا فرق اذن بين الجديد والقديم .

إذن سأعرض للجديد وللقديم معا ، فان حنيني الى القديم لا يقل عن شغفي بالجديد .

الجديد قوي وثاب . ونحن امة في اشد الحاجة الى القوة والوثوب . قديمنا رث مهلهل ، فينبغي ان ننزعه وان نتقدم الى هذا العالم الجديد

في ثوب جديد . جربنا المشي الوئيد والعالم يجري ركضا ، فاذا بنا تخلفنا عن الركب وصرنا مسبوقين بعد ان كنا السابقين . فما بالنا نستمسك بهذا القديم البالي ؟ بل ما بالنا نطمع في ان نعيش بعقول القرون الوسطى في حضارة القرن العشرين ؟ حضارتنا قديمة ، ونظمنا قديمة ، وحياتنا الاجتماعية قديمة ، واساليبنا في العيش قديمة ، ولغتنا قديمة ، فمن أين لنا العيش في العصر الجديد ؟! اليس نسخ الجديد للقديم هو التطور ؟ ثم اليس التطور هو ناموس الحياة ؟! فما بالنا نأبى ان ننزل على ناموس الحياة ونطمع مع ذلك في ان نعيش ؟!

هذا هو لسان الجديد ينبغي ان نسمعه خاشعين واجفين . فللجديد سلطان مرهوب ، وله جلال تطأطىء له الرؤوس ، وله جمال تخفق له القلوب . وهو أبدا في صراع مع القديم ، يصاوله ويجاوله ، ويتربص به ، ويديل منه ، فلايطمئن القديم ولا يقر له قرار ما دام الجديد قائما في وجهه يطالعه في كل حين .

ولكن لمن الغلبة في هذا الصراع العنيف ؟

لا هي للقديم ، ولاهي للجديد . لان حاجتنا للقديم قائمة كحاجتنا للجديد . والقديم والجديد كلاهما نمط من انماط الحياة وناموس الحياة لا يقوم على الصراع وحده ، بل يقوم ايضا على التعاون ولننظر الى الحياة عن كثب . السنا نراها تقوم على أصلين يبدو لاول وهلة انهما متعارضان ولكنهما في الواقع من الامر متوافقان ، احدهما يكمل الآخر ؟

تقوم الحياة على التنافس . وهو هذا الذي قصد اليه كتاب الله الكريم عندما تقرأ فيه :

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض » .

ثم هي تقوم على التضامن . وهو هذا الذي قصد اليه الشاعر العربي حين يقول :

الناس للناس من بدو ومن حضر   بعض لبعض وان لم يشعروا خدم

فالتنافس والتضامن هما اذن الاصلان اللذان تقوم عليهما الحياة ، فلماذا

نعجب اذا كان الصراع والتعاون هما الاصلان اللذان تقوم عليهما العلاقة بين الجديد والقديم ؟

الجديد يصارع القديم ، فيصرعه فيما رث منه وبلي ، ويتماسك معه فيما ثبت منه وصلب . ولا يستطيع الجديد ان يستغني عن القديم ، كما لا يستطيع القديم ان يستغني عن الجديد .

القديم يمثل الثبات والاستقرار ، والجديد يمثل المرونة والتطور . وكل ذلك ضروري للحياة الانسانية وضروري للفكر البشري .

ما هي الحضارة ؟ اليست هي أصلا ثابتا من القديم يقوم عليه بنيان يتجدد على وجه الزمن ؟

ما هو العلم ؟ اليس هو المعرفة تلقيناها عن أجدادنا جيلا بعد جيل ، وكل جيل يهدم من البنيان حجرا قديما متداعيا ويضيف حجرين جديدين راسخين ، حتى اتسق البنيان وعلا شاهقا يطاول السماء ؟

اليس الفكر الجديد يصطرع مع الفكر القديم ، فيكشف عما في القديم من غث وعما فيه من سمين ؟

وهذا القول صحيح في الادب وفي الشعر وفي الاجتماع وفي العلوم المختلفة وفي القانون .

حتى لقد وجدتني كتبت في القانون منذ اثنتي عشرة سنة ، في صدد النظريات القديمة والجديدة ما يأتي : « ووقفت فيما استعرضته من النظريات القديمة والجديدة موقف المعتدل ، لا يستهويني من الجديد جدته ولا يثنيني عن القديم قدمه . حتى اذا انست في الجديد ثباتا ، واحسست منه عمقا ومطاوعة للتطور ، تركت القديم اليه ، وتعرفت فيه وجه القانون الحي المتجدد » .

والآن ايها الشباب ، ايها الجيل الجديد . هذا رجل من الجيل القديم يتحدث اليكم فاصغوا له : نحن رجال الجيل القديم شيبتنا الايام

وعركنا الزمن ، وبلونا الدهر حلوه ومره ، فاتسعت تجاربنا ، وانفسح لنا مجال المعرفة ، ولكن تصرفات الدهر وتقلبات الزمن وكر الايام كل هذا اطفأ بريقنا ، وخمد جذوتنا ، وفت في عضدنا ، وصيرنا الى العجز اقرب منا الى القدرة .

وانتم شباب الجيل الجديد : هممكم مشبوبة ، وعزائمكم متوقدة ، والهامكم صادق ، ودم الشباب يتدفق في عروقكم ، واحلام المجد والعظمة تجيش في صدوركم ، ولكن الزمن لم يعركم ، ولم تتمرسوا بالاحداث ، ولا زلتم في حاجة الى المعرفة .

نحن في حاجة الى الهامكم ، وانتم في حاجة الى معرفتنا . نحن في حاجة الى حركتكم ، وانتم في حاجة الى ثباتنا . ونحن في حاجة الى وثبتكم ، وانتم في حاجة الى تجربتنا .

فنحن جميعا اذن لا غنى لبعضنا عن بعض . يكمل جيلنا جيلكم ، ويشرق جيلكم على جيلنا ، ونبقى معا في صفين متقابلتين ، مقدر لنا ان نتصارع ، ومفروض علينا ان نتعاون .

ليت جيلكم يستطيع النهوض بالامر وحده ، اذن لاسلمنا لكم الزمام ، وتخلينا عن التبعة .

وما جيلنا بمطيق ان يقوم بهذا الامر دون أن يستوحى الهامكم ، ويستنجد بهممكم ، ويستند الى عزائمكم .

تعوزكم المعرفة ، وتعوزنا القدرة .

اواه لو عرف الشبا ب وآه لو قدر الشيب

عبد الرزاق السنهوري

المصدر : الهلال : يناير ١٩٢٩ المجلد ٥٧

محاكمة الجيل الجديد

عباس محمود العقاد وفتحي رضوان : ت ١٩٨٨

تولى مهمة الاتهام الاستاذ عباس محمود العقاد ، وتولى الدفاع الاستاذ فتحي رضوان المحامي ، اما الحكم فهم قراء الهلال ..

كلمة الاستاذ عباس محمود العقاد :

تبدا محاكمة الجيل بتقرير الحقائق المتفق عليها في شان هذا الجيل. والحقائق المتفق عليها في شانه هي :

اولا : انه اوفر من الاجيال الجديدة في العصور الماضية نصيبا من المعرفة .

ثانيا : انه اوفر منها نصيبا من حرية الرأي واستقلال التفكير .

ثالثا : ان له اعذارا كثيرة مما يعانيه في مطلع حياته من تبلبل الافكار واضطراب الشعور وقلق الضمير . لانه نشأ في زمان تهدم فيه كثير من القواعد وتزعزع فيه كثير من الاصول ، وتبدل فيه كثير من العلاقات والمألوفات .

هذه حقائق يعرفها الجيل الجديد كما يعرفها الجيل القديم .

وبقيت هنالك طائفة من الحقائق التي ينبغي أن يعلمها الجيل الجديد ليعلم ما يستطيعه ويهتدي الى الصواب في امتحان دعواه .

وأول تلك الحقائق ، انه ليس بأول جيل جديد ظهر في تواريخ الاجيال ، فما خلا العالم قط من جيل جديد ظهر فيه منذ أقدم العصور .

وان النسبة محفوظة بين كل جيل وما قبله .. فلم يكن الفرق بين القديم والجديد في عصرنا هذا أوسع أو أهم من الفرق بين القديم والجديد في القرون الماضية ، لان التقدم يأتي على التعاقب والتدريج ولا يأتي طفرة واحدة في زمن من الازمان .

واهم من هذه الحقائق جميعا ، واعجبها لأول وهلة ، واحقها بالتأمل الطويل من جيلنا الجديد ، هي ان الاجيال الجديدة في الزمن الماضي كانت — مع قلة نصيبها من العلم — أقدر على حل مشكلاتها وأعرف بظروفها من الجيل الجديد في العصر الحاضر ، لان علمها على قلته كان كافيا لمواجهة مشكلاتها . على خلاف جيلنا الجديد في عصرنا هذا ، فان مشكلاته اكبر واضخم من علمه كائنا ما كان حظه من التعليم .

فالاجيال الجديدة في العصور الماضية كانت لها مشكلات محدودة في مجتمع واحد ووطن واحد ، أو لم تكن لها مشكلات على الاطلاق ، لانها تتلقى ظروف المعيشة وتكاليف الحياة على سنة معروفة لم يطرأ عليها تغيير كثير .

اما الجيل الجديد في العصر الحاضر فمشكلاته متعددة الجوانب ، كثيرة الشعب ، متناقضة المبادىء والغايات ، وهي على هذا مشكلات عالمية انسانية ، وليست بمشكلة معيشة واحدة أو مجتمع واحد . لانها تتناول المذاهب الاجتماعية التي يتوقف فهمها على فهم أطوار التاريخ من عهد الهمجية الى اليوم ، وتتناول السياسة العالمية بما يحيط بها ويكمن فيها من الاسرار والغوامض التي تدق عن الافهام ، وتتناول اصول الروحية ، والمادية وأصول المعاملات الاقتصادية التي توسع فيها الدارسون ، حتى أصبح كل باب منها أوسع من جميع الابواب التي كان يطرقها المفكرون والدارسون في العصور الغابرة .

فاذا كان نصيب الجيل الجديد من العلم أوفر وأعظم من نصيب الاجيال السابقة ، فليس في ذلك ما يخوله أن يستولي على مقاليد الامور ،

ويستقل بالعمل في مسائل وطنه او مسائل العالم اجمع . بل هو احوج من كل جيل مضى الى التعاون بينه وبين الاجيال السابقة والاجيال اللاحقة ، لان العبء الذي يواجهه عبء انسانية كاملة ، وليس عبئا ينهض به جيل عابر في هذا الوطن او ذاك .

وقد دلت التجربة العملية على أن الجيل الناشيء في القرن العشرين ، يعجز عن الاحاطة بالمشكلات التي يدعى الى الاضطلاع بها كلما اعتمد الامر عليه دون غيره .

فزعامة هتلر — وهي أكبر زعامة في الجيل الحديث — قامت على الجيل الناشيء في البلاد الالمانية ، ولم يكلفه اقناعهم غير الهاب حماستهم ، واشباع شغفهم بالمواكب والمظاهرات ، وتزويدهم ببعض الافكار التي لا تعبر عن حقائق الاحوال في العالم . فكانت النتيجة كارثة على هتلر ، وكارثة على الجيل الناشيء ، وكارثة على البلاد الالمانية ، وكارثة على العالم بأسره .

كانت كارثة على هتلر لانه سقط وانتحر ، وكارثة على الجيل الناشيء لانه كاد يفنى في الحرب الطاحنة التي سيق اليها فاصبح فناؤه مشكلة اجتماعية لبلاده ، وكارثة لالمانيا كلها لانه اوقعها تحت اقدام اعدائها فتسلطت عليها اربع دول من الد اولئك الاعداء ، وكارثة على العالم كله لانه خلق فيه هذه القلاقل التي لا يزال يتخبط في جرائرها الى اليوم .

وهكذا حدث لايطاليا على يد موسوليني ، وهكذا يحدث لكل بلد يبطل فيه التعاون بين الاجيال ويقوم الحكم فيه على هوى جيله الجديد دون غيره من اجيال الشيوخ والكهول .

هذه الحقيقة جديرة بكل توكيد وتكرير .

وهي جديرة على الخصوص بالتأمل الطويل بين أبناء الجيل الناشيء، لانها تعصمهم من الغرور وهو الذي يضللهم عن حقائق انفسهم وحقائق غيرهم وحقائق الزعامات والدعوات .

واصعب ما يشكو منه الجيل الجديد انه مضطرب المذاهب بين شتى الزعامات ومختلف الدعوات .

ولكنه اذا سلم من ذلك الغرور أمن أن يسيطر عليه المضللون ، وتيسر له أن يميز بين الصالح والفاسد من كل دعوة تتجه اليه .

فانما يفلح المضلل في تضليله لانه يشبع غرور الجيل الناشيء فيغرر به من هذا السبيل .

يفلح المضلل اذا وجد امامه جيلا مغرورا يستمع له حين يوهمه انه اعظم الاجيال ، واذكى الاجيال ، واقدر الاجيال على ولاية الامور .

فاذا بطل هذا الغرور الذي يتقبل هذا التغرير ، فهناك فائدة محققة يجنيها الجيل الجديد من صحوه ويقظته ، وهي أن يقضي على التضليل ، ويقيم الاصلاح على أساس سليم . فان لم يتيسر تحقيقه كله ، فقد ارتفع من طريقه على الاقل كثير من العقبات .

* * *

وفي مصر هنا يوجد بين المضللين من يوهم الناشئة ان الجيل القديم لم يصنع شيئا وانهم ـ أي الناشئة ـ هم الذين يصنعون كل شيء .

وكلمة الصدق التي نقولها في دفع هذا التضليل ، ان الجيل الجديد يعد نفسه سعيدا حقا اذا استطاع ان يصنع لوطنه في ثلاثين او اربعين

سنة مثل ما صنعه الجيل السابق في مثل هذه المدة من تاريخ النهضة المصريـة .

فالجيل السابق نقل مصر في ثلاثين أو أربعين سنة من الحماية الى الحرية الوطنية والحياة النيابية ، وخلصها من الامتيازات الاجنبية التي كانت تستعبدها لجميع الدول الاوربية والامريكية .

كان في كل وزارة مستشار أعظم نفوذا من الوزير ، وكان في كل اقليم مفتش أعظم نفوذا من المدير ، فاصبح ابناء البلاد هم الحاكمين في الوزارات والاقاليم ، وهم الذين يضعون القوانين للاجانب كما يضعونها للمصريين .

وتخلصت مصر من ديونها للدول والمصارف فأصبحت دائنة لمن كانوا يدينونها ، ولم يكن لها شأن في سياستها الخارجية فاصبح لها شأن ملحوظ في مجامع الدول كافة ، ولم يكن لها جيش فاصبح لها جيش مجيد يحسب حسابه ، وتضاعفت ثروتها ، وتضاعفت مستشفياتها ، وتضاعفت مدارسها ، وتضاعف عدد المتعلمين فيها .

ويمكن أن يقال أن الناشئة اذا كانت تتمتع اليوم بنصيب عظيم من الحرية ، فهو كله من عمل الجيل السابق لا من عمل الجيل الجديد .

فاذا استطاع هذا الجيل الجديد في ثلاثين أو أربعين سنة أن يصنع لوطنه مثل هذا الصنيع فانه والله لجيل سعيد .

قد يقال أن زعماء الجيل القديم فيهم مضللون كثيرون .

فمن قال هذا فليذكر أن المضللين بالناشئة موجودون في كل امة ، وكلهم يريدون التضليل ويربحون منه اذا استطاعوه ، ولكن الفرق بين أمة وأمة هو ان المضلل لا يجد من يضلله في الامة الرشيدة ، وانه يجد في الامم الاخرى من يقبل منه التضليل ويعاونه عليه .

قيل لجمال الدين الافغاني : « ان المستعمرين ذئاب » ، فقال كلمته المشهورة : « لو لم يجدوكم نعاجا لما كانوا ذئابا » .

ويقال هنا ان بعض الزعماء الاقدمين يضللون بالناشئة . فليكن جواب هؤلاء القائلين : « نعم . ولكنهم لو لم يجدوا من يستمع اليهم لما تأتى لهم تضليل ولا تدجيل » .

وهم يجدون من يستمع اليهم لانهم يجدون من يغررون به ، ويجدون من يغررون به لان هؤلاء يحبون الغرور ، ولن يكون تغرير قط بغير غرور .

فليعصم الجيل الجديد نفسه من الغرور ، لانه ظلام يحجب حقائق الاشياء ، وليخرج من هذا الظلام الى النور مفتوح العينين ، فيرى الطريق السوي . ومن رأى الطريق السوي استطاع ان يصل وإن طالت المسافة وشق المسير .

كلمة الاستاذ فتحي رضوان المحامي

نحن نختلف ، في تقدير الجيل الجديد ، وتحديد نقائصه وسقطاته ، وبيان فضائله ومزاياه .

نختلف في المقدمات ، وفي النتائج . ولعلنا اكثر اختلافا في المقدمات . وقد يكون هذا طبيعيا ، لان النتائج انما تلدها المقدمات . فمن المقدمات التي نعترض عليها اشد الاعتراض ان هتلر وموسوليني ، قد جرا على نفسيهما كارثة ، ثم نكبا وطنيهما بمثلها ، ثم جرا على العالم الويل والشقاء : لانهما اعتمدا على الشباب وأثارا فيه حب الضجيج ، والميل الى مظاهر البطولة بالمظاهرات والمواكب .

وقارىء هذا القول يظن ان المانيا نفسها لم تنكب بمثل هزيمتها في سنة ١٩٤٥ ، في حرب عالمية اخرى انتهت في سنة ١٩١٨ ، ولم يكن قادتها اذ ذاك الا الشيوخ ، بل ان اكبر قوادها كان ضابطا متقاعدا شهد حرب السبعين ، وعمل في أيام بسمارك .

وللقارىء ان يتساءل : اذا كان هتلر وموسوليني قد منيا بالهزيمة لانهما اعتمدا على الشبان دون الشيوخ فما سر هزيمة اليابان ، وللشيوخ فيها مقام القديسين بل ومنازل الارباب ، والسياسة تجري فيها على طقوس تباركها المعابد التي يعيش في زواياها الهادئة شيوخ اثقلت عقولهم واجسامهم معا حكمة الخبرة وتجارب السنين ؟!

ولكن القارىء اذا فكر قليلا لا يلبث ان يدرك ان انجلترا هي التي وكلت اكبر شؤونها الى الشبان في عوالم السياسة والحرب والاقتصاد ، خلال المعركة العالمية الثانية ولم يكن تشرشل الا الوجه الظاهر العتيق لبناء اقيم على احدث طراز ، واثث من الداخل بآخر ما جادت به الايام . ولو اننا حسبنا اعمار بيفن ، وهوربلشيا ، وايدن ، واندادهم ممن اداروا دفة الحرب في بريطانيا ، وقارناها باعمار اضرابهم في دولة هتلر من امثال جورنج ، وفون بابن ، وربنتروب ، وروزنبرج ، لتبينا ان بريطانيا هي دولة الشباب ، او ان الشيوخ فيها ليسوا باكثر نصيبا من الشيوخ في دولة النازي !

ولقد فازت روسيا ورئيس دولتها او زعيمها المحرك لها ، في حدود الستين ، ولكن الذين حوله اكثرهم من الشبان او الكهول ، فكيف نعلل هزيمتها في سنة ١٩١٧ يوم ان كانت امورها في أيدي شيوخ تدلت لحاهم حتى البطون ؟!

ان الجيل الجديد ، انما كان جديدا ، لانه اتى بعد جيل تهيأ لاخلاء ساحة الميدان ، او لمبارحة خشبة المسرح ، ولا يستطيع الجيل الجديد ان يحل محل السابقين الا اذا امتلأت نفسه ثقة بمواهبه ، وامتلأ اقتناعا بأنه سيأتي بما لم يأت به الاوائل ، وهذه الثقة التي تغيظ الشيوخ وتضايقهم ، ليست الا قانون الطبيعة الذي لا يقاوم . فهي مظهر المزاحمة بين الجيلين ، فان لم يدفع احد الجيلين الآخر ، وقفت الحياة . وهذا الدفع لا يتم مرة واحدة ، والا فسد الامر ، وتوقف العالم . فان الجيل القديم لن يخلي المكان مرة واحدة ، والجيل الجديد لا يحتل مقاعد

الشيوخ في جولة واحدة ، انما يتم ذلك بالتلقيح وعلى سنة التدرج والتطور ، وتنظيم التعاون بين الجيلين ، ولا يمنع ذلك أن الجيل الجديد يواصل زحفه ، والجيل القديم يواصل انسحابه .

ولست أرى أن الجيل الجديد الحالي ، أعجز عن حل مشاكله من الجيل السابق ، وان زاد نصيب الاول من العلم على نصيب الثاني . ذلك لاننا لا نرى مشكلة من المشاكل قد حلها الجيل القديم في مصر . فالاحتلال البريطاني ، كان قد قنع في الحربين العالميتين السابقتين بأن تقف بلادنا موقف المساعدة داخل حدودها ، غير ان الجيل القديم يطمعه في امكان الخروج بهذه المساعدة عن الحدود ، وبغير قيود ، وفي حرب عالمية ستكون فيها الكوارث مما يبيد المدن في لحظات !

واذا كان الجيل القديم قد زحزح الاحتلال الى السويس ، فانما كان ذلك بسواعد الشباب ، ودماء الشباب ، بل كان على عكس النتيجة التي قدم لها الشيوخ بسياسة الملاينة والتسامح . ومع ذلك فان الكسب الظاهر من زحزحة الاحتلال الى السويس وبور سعيد والاسماعيلية سيبدده ما تطلبه بريطانيا من اقحامنا في حروبها مع اضخم الدول واكبرها !

وانا لنتساءل بعد ذلك : ما هي المشكلة التي حلها الجيل القديم ؟ هل حل شيوخه مشكلة الامية ؟ والى اي حد خفضوا نسبة الجاهلين بالقراءة والكتابة ، وكم رفعوا نسبة المتعلمين ، الذين يعرفون كيف يصوتون في الانتخابات ، بعيدا عن الضغط والتضليل ؟

هل زادوا شيئا في موارد الثروة ، أو اضافوا اليها جديدا عما كان في عهد محمد علي الكبير ؟

هل رفعوا مستوى المعيشة بين الفلاحين ، وهل زادوا في نصيب الفقراء من الثروة العقارية ؟

ثم ما هي الافكار الجديدة التي بشر بها شيوخ هذه الايام فلقيت رواجا ؟ ومن منهم ثبت على شيء من الافكار المتطرفة التي بدأوا بهـا حياتهم ؟! لقد كان الايمان بالبحث العلمي ، الى حد متاخمة (الالحاد ، طابع التفكير عند شيوخ ايامنا منذ سنوات ، فلما تقدم بهم العمر طووا اوراق هـذه البحوث المتطرفة المتوثبة ، واحلوا محلهـا بحوثا تتسم بالتصوف ، وتقترب من الحضارة الشرقية .

اما الجيل الجديد فقـد دعا الى اعلاء شأن اللغة العربية مثلا في شؤون التجارة والاعلان ، وفي المخاطبة بين الشركات والبنوك . وقد طورد واضطهد ، ولكنه ثبت حتى نجحت فكرته .

على اننا نسأل ايضا : أين هم التلاميذ الذين انجبهم هؤلاء الشيوخ ، واتاحوا لهم الظهور ، بحيث يستطيع كل مصري ان يقـول لنفسه : « لو خلا مكان الكاتب الكبير فلان ، لكان العوض في فلان الذي أخـذ عنه . واذا شغر مكان الفيلسوف فلان ، ملأ مكانه تلميذه الذي ينشر الآن كتبا وبحوثا مشابهة ، وان كانت تحمل طابع الجدة » ؟!

ليس يحق للشيوخ ان يمنوا على الجيل الجديد بأنهم اسبغوا عليه نعمة الحرية . فليس ثمة قيد واحد مما كان في أيامهم الا وهو موجود في أيامنا ، بل ان القوانين المقيدة للحرية ، زادت في ايامنا ، حتى اصبحت القضايا الصحفية لا تعد في هذه الايام ولا تحصى ، بينما كانت قضايا الرأي والسياسـة في الماضي ، من الحـوادث المشـهورة التي تؤرخ بها الايام !

ولكأنما احس موجـه الاتهام الى الجيل الجديد ، ان جيله متهم بالتضليل ، فلما اراد ان يدفع هذه التهمة عن جيله اكدها ! فقد اخذ على الجيل الجديد انه انطلى عليه الخداع ، وجاز عليه التضليل . ثم حمله تبعة هذه الرذيلة التي ارتكبها بعض الشيوخ في حق امتهم وابنائهم ، وفاته أن الصغير الناشيء لا يملك بحكم السن ، وظروف الطبيعة ، ان

يميز بين الخير والشر ، وانه ليس الا ضحية القدوة السيئة التي ضربها له بعض الشيوخ .

ومع ذلك ، فاي صاحب راي من الشيوخ ، يستطيع ان يقول ان انصاره اليوم هم في عدد انصاره بالامس . واي منهم يملك ان يدعي ان حرارة الحماسة التي كان يلقاها ويحس بها في تأييده عند معاركه مع خصومه في الرأي السياسي أو الادبي ، باقية جذوتها الى اليوم ؟

لقد انفض الشبان عن هذه المعسكرات القديمة كلها ، ويأبى الآن كل منهم ان يرتبط في سذاجة كما كان يفعل في الماضي .

والشباب على عكس ما يظن الظانون لا يخاف المشاكل الكبرى القومية والعالمية التي تواجهه ، ذلك لانه يحس ان هذه المشاكل واشباهها هي شغل الدنيا قاطبة ، وانه يستطيع أن ينتفع بتجارب البشر في كل بقعة من الارض . بعلمهم وفنهم يؤنس وحشته ويزداد ثقة بنفسه وطمأنينة ، واملا في الانسانية جمعاء .

المصدر : الهلال ، يناير ١٩٤٩ ، المجلد ٥٧ .

في تقليد مظاهر الحياة الغربية ، ولكنها تبقى بعيدة عن مسايرة روح العصر في طراز التفكير والعمل ، وفي سائر نواحي الحياة الاجتماعيـة والاقتصاديـة .

ومن المعلوم ان روح المحافظة في اوروبا كانت وصلت الى اوج قوتها في القرون الوسطى ، حيث كان كل شيء تقريباً استقر على شكل معين ، لم يتبدل منذ عدة اجيال ؛ حتى الاعمال الزراعية والصناعية ، كانت قد تقررت على قواعد ثابتة ، لا يسوغ لأحد أن يخالفها او أن يغير شيئاً منها ، وحتى التفكير كان اخذ يسير سيراً رتيباً ، لا مجال فيه لأدنى تغيير وتجديد . وقد احيطت الكتب القديمة بأجمعها بهالة من التمجيد والتقديس ، واعتبرت الكتب المذكورة المصدر الاصلي لكل علم ، والمرجع الاول والاخير لكل قضية ؛ وصار الدرس والبحث والتفكير لا يعني شيئاً غير فهم الكتب القديمة ، والاستنباط من الكتب القديمة ، والبحث في الكتب القديمـة ، وشرح معاني الكتب القديمة ، وتفسير عبارات الكتب القديمة .

ولكن الامور تغيرت منذ تلك العصور تغيراً كلياً ، وقد فقدت روح المحافظة قوتها شيئاً فشيئاً ، واخذت نزعة التجديد تتغلغل في النفوس، وتتصل بشتى نواحي الحيـاة تدريجيـاً ، الى أن صارت تشمل جميع مظاهر الحياة تقريباً .

والآن ، قد وصل العالم المتمدن الى دور اصبحت فيه نزعة التجديد مسيطرة على جميع مظاهر الحياة . وصارت كل الامور تتطور بصورة مستمرة وبسرعة هائلة ، لم يسجل التاريخ لها مثيلاً في حياة اية أمة من الامم ، وفي اي دور من ادوار الماضي القريب والبعيد . اصبح كل شيء يتجدد ويتطور بسرعة هائلة ، تجعل هذه الاطوار شبيهة بالانقلابات الثورية التي تجرف كل شيء فلا تترك شيئاً من الاشياء على حالته القديمـة .

واما نحن فقد بقينا محافظين على معظم احوالنا القديمة ، ولم نساير هذا التطور السريع الذي اخذ يجرف العالم جرفاً . ولا نغالي اذا قلنا اننا وقفنا امام هذه السيول الجارفة حائرين ، مترددين ومتخالفين :

ففريق منا يدعو الى الاسراع في التجديد دون قيد وشرط ، حتى انه يقول بوجوب نبذ كل ما هو قديم بدون استثناء . وفريق يعتقد بافلاس الحضارة الغربية ، ويدعو الى الاحتفاظ بتراث الشرق ، وعدم التفريط به « في سبيل هذه الحضارة المزيفة » . وفريق يقف موقفاً بين بين ، ويحاول أن يعين الامور التي يجب التجديد فيها والامور التي يجب سلوك مسلك المحافظة في شأنها .

فماذا يجب أن يكون موقفنا من هذه القضايا ؟. ماذا يجب أن يكون موقف الجيل الجديد في البلاد العربية من قضايا « القديم والجديد » ومن سياسة « المحافظة والتجديد » ؟

- ٢ -

إن اولى الحقائق التي يتوصل اليها الباحث عندما ينعم النظر في قضية « القديم والحديث » وهو : انهما عنصران هامان من عناصر الحياة . وهما متلازمان وضروريان لبقاء الحياة الجسمانية والنفسية والاجتماعية بوجه عام .

فلننظر أولا في تأثير كل من القديم والحديث في الحياة الجسمانية :

من المعلوم ان أهم الاوصاف التي تميز الأحياء عن الجمادات هي صفة « التجديد المستمر » .

فإن الخلايا التي تؤلف البدن - في جميع الكائنات الحية - تتغير وتتجدد على الدوام ، كما أن المواد التي تتركب منها كل واحدة من هذه الخلايا أيضا تتغير وتتجدد بدون انقطاع .

ولا حاجة الى القول ان مفهوم « التجديد » ، يفيد « حدوث شيء جديد » من حيث الاساس ، ولكنه يتضمن في الوقت نفسه « بقاء شيء قديم » ايضا . لأن « التجديد » يختلف عن « التغير المطلق » ، ويعني « تغير العناصر المكونة » مع بقاء الهيئة الاصلية واستمرار البناء القديم .

فنستطيع ان نقول — لذلك — ان « القديم والحديث » عنصران لا ينفصلان في « الحياة الجسمانية » .

افرضوا ان عضوية من العضويات اخذت تتغير في موادها المركبة ، دون أن تحتفظ بهيأتها الاصلية وبنائها القديم . وتصوروا ماذا سيكون مصير تلك العضوية : لا شك في ان هذا المصير ، لن يكون سوى فقدان الحياة ، والانحلال والفناء .

وافرضوا — بعكس ذلك — ان عضوية من العضويات حرمت بغتة من حركة التجدد والتغير ، وحافظت — في الوقت نفسه — على هيئتها الاصلية وبنائها القديم ، وتصوروا ماذا سيكون مآل تلك العضوية : لا شك في انها ستتحول الى مومياء فقدت الحياة ، ودخلت في عداد الجمادات والمستحاثات .

يظهر من ذلك ، ان لكل من القديم والحديث مهمة خاصة في الحياة .

ونستطيع ان نقول ، إن الحياة تقوم على نوع من التوازن بين القديم والحديث ، وهي تعني : قيام عناصر جديدة مقام العناصر القديمة ، مع بقاء الهيئة الاصلية والبناء القديم .

ومما يلفت النظر : ان النسبة بين القديم والحديث ، لا تبقى على وتيرة واحدة في جميع اعضاء البدن وفي جميع أدوار الحياة .

فإن سن الشباب ، هو الدور الذي تبلغ فيه حركة التجدد اقصى سرعتها واوج نشاطها . واما سن الشيخوخة ، فهو الدور الذي تخف

وتتضاءل فيه حركة التجديد ، وتزداد خلاله في البدن المواد القديمة التي تبقى خارجة عن نطاق هذه الحركة .

كما ان هذه الحركة تخف وتتضاءل في بعض اعضاء البدن قبل غيرها ، والمواد التي تبقى خارجة عن تيار التجديد ، تتراكم في تلك الاعضاء اكثر مما تتراكم في غيرها .

والشيخوخة إنما تتأتى من تراكم هذه الرواسب الجامدة ، وتضاؤل حركات التجديد في مختلف اعضاء البدن .

ويظهر من كل ذلك : ان الحياة الجسمانية ، تقوم على عنصر التجديد والمحافظة في وقت واحد . ولكنها تتمثل في عنصر التجديد أكثر مما تتمثل في عنصر المحافظة بوجه عام .

إن ما قلناه آنفاً عن الحياة المادية ـ الحياة الجسمانية ـ ينطبق على الحياة النفسية أيضاً :

فإن الحياة النفسية ايضاً مزيج من القديم والحديث ، لا القديم يكفي لها ، ولا الحديث يغني عن القديم فيها . بل إن كليهما ضروري للحياة النفسية ضرورة قاطعة .

افرضوا ان شخصاً من الاشخاص البشرية ، تجرد عن كل ما هو قديم ، وفقد كل ما كان له من العناصر التي تمت بصلة الى الماضي ، وتصوروا ماذا ستكون حياته النفسية في هذه الحالة . لا شك في انه سيفقد الادراك والفهم والتفكير مرة واحدة . لأن الادراك لا يتم الا بتلاحق الاحساسات الجديدة مع القديمة ، والفهم لا يتيسر الا بادخال المفهوم الجديد بين المعلومات القديمة والتفكير لا يقوم الا على اساس الانتقال من المعلوم الى المجهول ، وذلك لا يتم الا بتنظيم المعلومات السابقة على اشكال جديدة ، وتحليلها وتركيبها على انماط وصور مختلفة ، كلها حديثة . إن الحرمان من الذكريات القديمة ، لا بد من أن يؤدي الى الحرمان من كل

هذه الصفات العقلية ، ولا بد من أن يستوجب توقف وانقطاع جميع هذه الافاعيل النفسية .

وافرضوا — بعكس ذلك — أن شخصاً من الأشخاص انقطع بغتة عن كل جديد ، واصبح لا يملك في ذهنه غير ذكريات قديمة ، حتى انه فقـد قابلية تركيب هذه الذكريات باشكال جديدة ، وتصوروا ماذا ستكون حياته النفسية في هذه الحالة ، لا شك في أن هذه الحياة ستتلاشى حالا ، فلن يعمل الشخص الا ما كان تهيأ له قبلا ، مثل الكائن الأوطوماطية التي لا تعرف شيئا من الجديد أبدا ..

يظهر من ذلك : ان لكل من القديم والجديد مهمة خاصة ودورا خاصا في الحياة النفسية ، وهذه الحياة لا يمكن أن تدوم وتترعرع دون أن تستند الى كليهما في وقت واحد .

ونستطيع ان نقول بكل تاكيد : أن حوادث الماضي وافاعيله ، لو لم تترك اثراً في النفس ، لما استطاع الانسان أن يرتقي الى مرتبة « العقل العالي » التي وصل اليها ، ولبقي محروماً من قابليات الحكـم والفهم والتفكير والابداع حرمانا مطلقا ..

إن القديم هو الذي يفسح المجال لقيام الحديث ، والمكتسبات الماضية هي التي تمكن الذهن والخيال من الابداع والاختراع ، كما ان الجديد هو الذي ينفخ الحيـاة في القديم ، ويورثه القوة والفاعليـة . وروح التجديد ، هي التي تبني من « الأشياء القديمة » المبـاني الجديدة ، وتكسب تلك الاشياء الفائدة والقيمة ..

القديم وحده جمود وموت ، والحديث وحده عجز وحرمان ، وأما الحياة النفسية الواعيـة ، فما هي الا نتيجـة التمازج والتفاعـل بين القديم والحديث .

إن الحياة الاجتماعية ، لا تخلو من الشبه بالحياة النفسية بهذا الاعتبار . فإن هذه الحياة أيضاً تقوم على تمازج القديم مع الحديث وتفاعله على الدوام . لأن الروابط الاجتماعية التي تربط أفراد المجتمع بعضهم ببعض – من اللغة الى التقاليد والعادات وسائر المؤسسات المادية والمعنوية – كلها من بقايا الماضي ، ومن مواريث الاجيال القديمة .

إن كل جيل من الاجيال المتتالية ، في المجتمعات البشرية ، يرث من الاجيال التي سبقته مجموعة كبيرة من العنعنات والمعلومات والخبرات ، والمهارات ، ثم يضيف اليها ما يستطيع اضافته بجهوده الجديدة ، وفي الاخير ، يوصلها – مع هذه الاضافات – الى الجيل الذي يأتي بعده . إن الحضارة البشرية لا تقوم ولا تتقدم الا على هذا الاساس ، وعلى هذه الوتيرة . فلو لم يرث الجيل الجديد ، تلك الثروة المادية والمعنوية القديمة المتراكمة ، لما استطاع ان يعيش عيشة تختلف عن عيشة الوحوش والبهائم . ولكن لو اكتفى الجيل الجديد ، بما توارثه عن أجداده ، دون ان يكيفها حسب ما تقتضيه الظروف الجديدة ، ودون ان يضيف اليها شيئاً جديداً ، لتوقف المجتمع عن التقدم ، فجمد في مكانه ، ولأصبحت حضارته جامدة متحجرة ، لا تأخذ أي حظ من التطور المبدع ، فلا تستطيع ان تتقدم خطوة واحدة الى الامام .

هذا ما حدث وما يحدث في الاقوام البدائية ، التي تعيش على هامش الحضارة عيشة ميكانيكية ، لا تبديل فيها ولا تجديد .

ولا حاجة الى القول ان امثال هذه الاقوام تتعرض الى الفناء والاضمحلال ، عندما تصطدم بجماعات جديدة ، مسلحة بأسلحة حديثة ، عاملة بأساليب جديدة .

إن هذا الركود والجمود ، قد يأتي بعد تقدم كبير ، ناتج عن تجدد

سابق طويل . ولكن هذه المجتمعات الجامدة ايضاً لا تستطيع ان تصمد امام هجمات المجتمعات الناهضة ومنافساتها ، مهما كانت متقدمة عليها بتاريخها ، ومهما كانت متفوقة عليها بعدد أفرادها .

إن تاريخ الصين من ابلغ الشواهد على ما نقول : من المعلوم ان الصينيين كانوا قد تقدموا تقدماً كبيراً في شتى نواحي الحياة الفكرية والاجتماعية ، وكانوا قد سبقوا جميع الامم الغربية في هذا المضمار . غير انهم انقطعوا بعد ذلك عن التجدد والتقدم ، وجمدوا في مكانهم ، في المرتبة العالية التي كانوا قد وصلوا اليها قبل غيرهم . ولذلك لم يستطيعوا ان يقاوموا ــ فيما بعد ــ هجمات شرذمة صغيرة من الجماعات الأوروبية المتجددة ، فاضطروا الى الاستسلام اليها ، والرضوخ لمشيئاتها ، بالرغم من تفوقهم العددي الهائل على تلك الشراذم الصغيرة . والصين لم تتقو وتصبح قادرة على مقاومة الاحتلال الأجنبي ، الا بعد ما أقلعت عن الجمود ، وعدلت عن الاعتداد بالماضي ، فاخذت تقتبس اساليب الحضارة الحديثة ، ودخلت في تيار التجديد العالمي المعلوم .

ويظهر من ذلك بكل وضوح : ان القديم والحديث عنصران ضروريان لقيام المجتمع وتقدمه .

وهنا لا بد لي من أن اشير الى قضية هامة ، وهي قضية التوازن بين القديم والحديث :

إن هذا التوازن يختل احياناً ، من جراء توجه الأمور نحو الحديث اكثر من توجهها نحو القديم ، أو ــ بعكس ذلك ــ توجه الامور نحو القديم أكثر من توجهها نحو الحديث . فنجد احياناً أن تيار التجديد يكتسب قوة كبيرة ، ويصرف الأذهان عن القديم . وقد يصل إهمال القديم ــ بهذه الصورة ــ الى درجة تصبح معها مقومات الامة وكيانها معرضة الى خطر التضعضع والاضمحلال . فيترتب على مفكري الامة عندئذ ، ان ينبهوا الأذهان الى هذا الخطر ، ويدعوا الناس الى زيادة الاهتمام بالقديم .

وقد يحدث احيانا عكس ذلك تماماً : ان روح المحافظة تتقوى الى درجة كبيرة ، فتصرف الأذهان عن الالتفات الى حركات التجديد ، فتصبح الامة معرضة الى خطر الجمود والتاخر . فيترتب على المفكرين عندئذ ان ينبهوا الأذهان الى هذا الخطر ، وان يقوموا بدعاية قوية جداً ، لحمل الجيل الجديد على الثورة ضد القديم ، وإبعاد الناس عن مهاوي الركود والجمود ، ودفعهم نحو سبيل التقدم والتجديد .

ولست في حاجة الى القول باننا الآن ن في وضع يشبه هذا الوضع الاخير :

لقد تاخرنا كثيراً جداً عن مسير قافلة الحضارة العصرية . وجمدنا على اساليب بالية ، في معظم مناحي حياتنا الفكرية والادبية والاجتماعية . فاصبح من الواجب علينا ان نثور على هذا الركود والجمود ، وأن نسارع الى سلوك سبل التجديد ، وان نسير في هذه السبل مَسرعين ومهرولين ، لنستطيع ان نتلافى ما فاتنا ، من الزمن في هذا العصر الذي امتاز بوجه خاص ، بسرعة التطور والتجدد الخارقة .

— ٤ —

يوجد بيننا عدد غير قليل من الشبان والكهول الذين يتخوفون من الاسراع في هذا السبيل ، ويقولون بوجوب السير على « سنة التدريج » في امر التجديد . وهؤلاء كثيراً ما يتذرعون بنظرية التطور لدعم رأيهم وتبرير موقفهم من هذه القضية .

لا شك في ان نظرية التطور كانت من أهم النظريات التي أوجدت اخطر الانقلابات الفكرية في النصف الثاني من القرن الاخير ، والتي غيرت نظر الانسان الى الكون تغييراً اساسياً :

كل شيء يتطور في الكون ، في الارض وفي السماء ، وفي عالم الجماد وفي عالم الاحياء ... كل شيء يتطور بالتدريج ، بفعل عوامل طبيعية ،

قد تبدو في الوهلة الاولى ضئيلة . والتطورات التي تحدث بهذه الصورة ، قد تكون — في بادىء الامر — تافهة ، غير انها عندما تتوالى وتتلاحق تؤدي — تدريجياً — الى نتائج كبيرة وخطيرة .

وهذه النظرية التي نشأت عن ابحاث عن ابحاث داروين في « أصل الانواع » الحيوانية والنباتية ، ما كانت تهدف — في بادىء الامر — الى شيء غير تفسير وتعليل كيفية نشوء هذه الانواع . غير انها لم تلبث أن انتقلت الى ميادين الفلسفة على يد « هربرت سبنسر » ، وقد اخذت تؤثر في شتى نواحي التفكير البشري تاثيرا عميقاً . « والفلسفة التطورية » التي نشأت بهذه الصورة أخذت تتوسع وتترعرع بسرعة ، وصارت تغزو ميادين الاخلاق والتاريخ والادب واللغة والاجتماع .. وفي الأخير قد تسللت الى ميادين العمل والسياسة ايضاً .

وبعض المفكرين اخذوا من هذه النظرية فكرة « التدريج » وحدها ، وصاروا يستعملونها لتبرير نزعــة المحافظــة ، ولشجب روح الثورة والانقلاب في الحياة الاجتماعية .

إن قرب الكلمة التي تعبر عن مفهوم « التطور » في اللغات الأوروبية **Evolution** من الكلمة التي تدل علـى الثورة والانقــلاب **Révolution** في اللغات المذكورة قد ساعد كثيراً على تقوية هذا الاتجاه الفكري ، وصارت كلمتا التطور والانقلاب تذكران معاً ، للدلالة على طريقتين متعاكستين ، في أمور التجديد والاصلاح .

فلنفكر إذن ، ما هي قيمة نظرية التطور ، في تأييد وتبرير سياسة الابطاء والتدرج في الحياة الاجتماعية .

أولا يجب أن نلاحظ أن قياس الحوادث الاجتماعية على الحوادث الطبيعية على الاطلاق ، والزعم بأن ما يصح في احداها يصح في الاخرى أيضاً في كل الاحيان ، مما لا يستند على أساس علمي صحيح أبداً . فإن

عالم الاجتماع يختلف عن عالم الحياة اختلافاً كبيراً ، فالنظريات التي تستنبط من دراسة الحوادث الحياتية والطبيعية لا يجوز ان تعتبر شاملة للحياة الاجتماعية ايضاً .

وفضلا عن ذلك ، يجب ان نلاحظ في الوقت نفسه أن الابحاث والتجارب التي قام بها جماعة من علماء الحيوان والنبات انفسهم قد زعزعت فكرة التدرج التي كانت تضمنها نظرية التطور في شكلها الاول ، لانه قد ثبت ببراهين قاطعة — منذ تجارب « دوفريس » المشهورة — أن التطور في الحيوانات والنباتات قد يحدث فجاة ، وان بعض النويعات منها قد تظهر وتتولد وهلة ، دون أي تدرج كان .

ونستطيع أن نقول لذلك ، انه قد اصبح من العبث تماماً ، الاستناد الى نظريـــة « التدرج » لتجريد خطط الاصلاح والتجديد في الحيـــاة الاجتماعيـــة .

هذا ، وكثيراً ما يتذرع دعاة « التدرج في الجديد » في دعاياتهم هذه بكلمة قالها احد علماء الطبيعـــة المشهورين ، قبل مدة تزيد على قرن ونصف قرن : « الطبيعة لا تقفز **La nature ne fait pas sauts** » انهم كثيراً ما يحورون هذه الكلمة الى شكل آخر فيقولون « الطفرة محال ! » .

غير أن هذه الكلمة — حتى في شكلها الاصلي — لا تعبر عن حقيقـــة مطلقة ، فإنهـــا اذا صحت في بعض الحوادث الطبيعيـــة ، فلا تصح في بعض الاخرى .

إن ثورات البراكين وحدها تبرهن على ذلك برهنة قطعية . فضلا عن ذلك ، كثيراً ما لاحظ علماء الفلك ان بعض النجوم تتوهج بغتة ، مما يدل على حدوث تطورات خطيرة جداً في تركيبها . فلا يجوز لنا قط ان نقول ان الطبيعة لا تعرف الطفرات والانقلابات الفجائية ابداً .

ومع هذا ، ولو تساهلنا في الامر ، وسلمنا جدلا بان الطبيعة لا تطفر ابداً ، فإن ذلك لا يمنعنا من القول : بانها لا تسير سيراً وئيداً على الدوام ، بل انها كثيراً ما تهرول هرولة . .

ولهذا السبب ، كلما اسمع احدهم يقول : « الطبيعة لا تطفر ابداً » ؛ اعقب على ذلك قائلا : « ولكنها تستطيع أن تهرول كثيراً » .

ولا اراني في حاجة الى القول : إن الهرولة اهم بكثير من الطفرة في هذا الميدان ؛ لانها تتالف — في حقيقة الامر — من سلسلة قفزات وطفرات.

— ٥ —

وقبل أن أختم حديثي عن « القديم والجديد » أود أن الفت انظار القائلين بوجوب « التدرج في التجديد » الى الحقائق التالية :

إن سير الحضارة الحالية لم يعد سيراً عاديا عاديا وئيداً ، بل انه اصبح سيراً سريعاً جداً ، لا يختلف عن الهرولة كثيراً .

وإذا كانت الامم التي تتقدم القافلة اخذت تسير بهذه الصورة بسرعة هائلة ، افلا يترتب على الامم التي تاخرت عنها في هذا المضمار ، أن تسير بسرعة أعظم من ذلك ايضاً ، لتستطيع اللحاق بالقافلة التي كانت قد سبقتها كثيراً ؟

هذا ، ويجب علينا ان نعرف حق المعرفة ، اننا نعيش الآن في عصر اصبح فيه « التوقف » لا يؤدي الى « التاخر » فحسب ، بل يعرض الواقفين الى « الاضمحلال » أيضاً . لأن الحضارة العصرية اخذت تطغى وتستولي على جميع انحاء العالم ، وتسعى وراء استغلال جميع موارد الارض . فصارت مطامع الدول القوية تشمل جميع انحاء الكرة الارضية . حتى إن الصحاري القفراء الخالية والاقطار القطبية المتجمدة ، مع كل ما فوقها من الأجواء العالية ، وكل ما تحتها من الطبقات العميقة ، اخذت تدخل في نطاق نشاط تلك الدول ، بصور شتى .

فاصبح من المستحيل على أية ناحية من نواحي الكرة الارضية ان تبقى زمناً طويلا على حالتها القديمة .. وغدا من المستحيل على أية أمة من امم العالم ان تحافظ على كيانها ، دون أن تتسلح ـ مادة ومعنى ـ بأسلحة الحياة العصرية .

هذه حقيقة ، ويجب علينا ان ندركها تمام الادراك ، ونؤمن بها أصدق الايمان ، وان نضعها نصب أعيننا على الدوام ، لنعمل على هديها بدون تأخر ، وبحزم واندفاع ..

يجب علينا أن نسلك ، بدون تأخر وبحزم واندفاع ، مسالك التجديد في كل ساحة من سوح الحياة المادية والمعنوية والاجتماعية ..

التجديد في كل شيء : في اللغة والادب ، في التربية والاخلاق ، في العلم والفن ، في السياسة والثقافة ، في الزراعة والصناعة والتجارة ..

التجديد في كل مكان : في البيت والمدرسة ، في القرية والمدينة ، في الشارع والحديقة ....

التجديد في كل زمان ، وفي كل شيء ، وفي كل مكان ... يجب أن يكون شعارنا العام .

● **ساطع الحصري**

المصدر : ساطع الحصري ـ الاعمال الكاملة ـ مركز دراسات الوحدة ، مقدمة كتاب : اراء واحاديث في التاريخ والاجتماع . صدرت الطبعة الاولى من الكتاب عام ١٩٥١ .

خاتمـة وشهادتان

التجديد والتجدد والمجددون

رشيد رضـا ١٨٦٥ ـ ١٩٣٥

بسم الله الرحمن الرحيم

محاضرة القاها صاحب هذه المجلة في نادي الجمعية الجغرافية الملكية ، باقتراح جمعية الرابطة الشرقية في احدى ليالي رمضان سنة ١٣٤٨ وقد حضرها الجم الغفير من العلماء والادباء وطلبة العلم بالازهر ونجباء المدارس العالية ، وفضليات النساء . وكذا بعض فضلاء المستشرقين من الشعوب الاوربية ، وقد سئلوا بعد الفراغ منها عن رأيهم فيها ، فشهدوا لها بالاعتدال .

أيها السادة :

عهدت إلي جمعية الرابطة الشرقية بأن ألقي على حضرتكم في هذه الليلة محاضرة في موضوع التجديد والتجدد والمجددين ، كما تفضل زميلي في عضوية ادارتها الدكتور منصور فهمي ببيانه لكم باسمها ؛ فأرجو من حضرتكم الاصغاء والاغضاء عن التقصير . وأبدأ بالتمهيد للموضوع بمقدمة في بيان الحاجة الى شرحه وتمحيصه فأقول :

المقدمة التمهيدية في حاجتنا الى التجديد بأنواعه :

في هـذا العصر المضطرب بأنواع الانقـلاب الاعتقاديـة والفكريـة والسياسية والشيوعية والبلشفية ، في هـذا العصر القلـق بالفوضى الدينية والادبية والاجتماعية ، في هذا العصر المهدد بالثورة النسائية ، ونقض ميثاق الزوجيـة ، وانقطـاع سلك الاسـرة ، ووشائج الرحم

والقرابة ، في هذا العصر الذي نجمت فيه قرون الزندقة ، والاباحة المطلقة ، والهجوم على مقومات الامة من دين ولغة وأدب ، ومشخصاتها من عادات وزي وحسب ، حتى لا يبقى فيها شيء ثابت يربى عليه النشيء وتحترمه النابتة .

في هذا العصر الذي اجملت وصفه — وعندكم تفصيله — كثر اللهج بيننا بلفظ الجديد والتجديد والمجددين ، ولعمر الحق اننا لفي أشد الحاجة الى التجديد والمجددين ، فانه لم يبق عندنا شيء يحفظ شخصيتنا القومية ، ومقوماتنا الملية ، ويرتقي بنا في معارج الحياة الاجتماعية ، الا وقد سحلت مريرته ، وانفصمت عروته .

اما ما كان عندنا من حسب قديم ، ودين قويم ، وحضارة زاهية وملك عظيم ، فقد اخلقناه وابليناه ، بل هجرناه فنسيناه ، واما ما حاولنا من اقتباس طريف ، وانتحال حديث ، فانا تشبثنا باهدابه ، ولم ننسج شيئا من اثوابه ، فكل ما لدينا من القديم والجديد ، فهو من قشور التقليد ، كقشرة اللوز والجوز الخارجية الظاهرة ، التي تغشى القشرة الخشبية الباطنة ، لا غناء به في نفسه ، ولا هو حافظ لشيء من اللباب في داخله .

فان كان أزهرنا ومعاهدنا الدينية في حاجة الى الاصلاح لتجديد هداية الدين ، فمدارسنا الأميرية والاهلية أحوج الى الاصلاح لتجديد حضارتنا المدنية ، واعادة استقلالنا ، واقامة سائر مصالحنا ، فان ما ظهر من فساد التربية والتعليم فيها شامل للقسمين : الايجابي والسلبي . وأما ما نشكو من خلل المعاهد الدينية فمعظمه سلبي محض ، وسنبين ضرره بعد . ولا يزال أهل الرأي والفهم من الامة يشكون من كل منهما ، ويقترحون الاصلاح بعد الاصلاح لهما .

نحن نحتاج الى تجديد استقلالي كتجديد اليابان ترتقي به مصالحنا الاقتصادية والعسكرية والسياسية ، وننمي به ثروتنا الزراعية

والصناعية والتجارية . ونكون به امة عزيزة ودولة قوية ، مع حفظ مقومات امتنا من دين وثقافة وتشريع ولغة ، وحفظ مشخصاتها القومية من زي وعادات حسنة وأدب .

لا الى تجديد تقليدي كتجديد الدولة العثمانية الذي انتهى بتمزيق سلطنتها (امبراطوريتها) الواسعة ، ثم بزوالها من الوجود ، ومحو رسمها من مصور العالم الجغرافي — ولا كتجديد الدولة المصرية الذي بدىء به في عهد مؤسسة محمد علي الكبير استقلاليا ، ثم استحال تقليديا ، فانتهى بالاحتلال ، وفقد الاستقلال ، ولو استقام على خطته الاولى لصارت به مصر سلطنة عظيمة مؤلفة من شطر افريقية الشرقي ، وشطر آسية الغربي ، ولاعادت مجد الحضارة العربية ، ونيطت بها زعامة الامة الاسلامية ، ولا تزال مستعدة لهذا ، وما عليها الا أن تأخذ له اهبته ، وتسعى له سعيه ، ثم تطلبه في إبانه ، وتاخذه بربانه وعلى عرشها اليوم ملك يظهر من الاستعداد لهذا ما يعلمه الجميع .

نعم نحن في حاجة الى هـذا التجديد المجيد ، الجامع بين الطريف والتليد ، والى مجددين في العمران كمحمد علي الكبير ، وفي العلم والحكمة كمحمد عبده وجمال الدين ، لا الى تجديد الالحاد والاباحة ، والتهتك والخلاعة ، والدعوة الى الرذيلة باسم الادب المكشوف ، والتنفير من الفضيلة بدعوى الحرية ، وتحرير المرأة الشرقية ، وتقليد الحضـارة الغربية ، فان كل هذه المفاسد قديمة لا جديدة ، كما يعلمه المطلعون على تاريخ اثينه ورومية وغيرهما من عواصم الشعوب القديمة ، وهي التي اضعفت دولها وذهبت باستقلالها (واذا اردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً) اي أمرناهم بالطاعة والفضيلة ، ففسقوا عن أمرنا الى المعصية والرذيلة ، فآثروا شهواتهم الخاصة ، على النهوض بالمصالح العامة ، فحق عليهم قولنا (لنهلكن الظالمين) وقولنا (وما كنا مهلكي القرى الا واهلها ظالمون) وقولنا (فهل يهلك إلا القوم الفاسقون) وقولنا (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم واهلها مصلحون) أي ما كان ليهلكهم بظلم منه لهم وهم مصلحون في اعمالهم .

أيهـا السـادة :

إن اصلاح محمد علي الكبير العمراني لم يزل معروفاً ، وان اصلاح الحكيمين الديني والسياسي الاجتماعي لم يصر مجهولا ، فجلالة الملك الجالس على عرش محمد علي والامراء والنبلاء من سلالة محمد علي هم اقوى ظهير للأمة وللدولة على اعادة تجديده العمراني العسكري سيرته الاولى ، مع المحافظة على مقومات الأمة ومشخصاتها ، اذا طلبته الأمـة منهما ، فان عمامة محمد علي العجراء ، وجبته القوراء ، وازياء رجال دولته القومية ، ورجال بعثاته العلمية ، لم تكن عائقة لهم عن النهوض بذلك العمران ، والاضطلاع بتجديد العلوم وجلائل الأعمال . ولكن أمان الله خان خسر ملكه ، وسفك دماء قومه ، بما حاول من تجديده التقليدي ببرنيطته ، وتبرج امرأته ، وحلق لحى رجال دولته !!

وإن لجمال الدين ومحمد عبده سلالة علمية عقلية اصلاحية جديرة بالقيـام بسنتهما ، والمضي في اصلاحهما بقـدر ما تواتيهم به الأمـة في استعدادها . وقد رأت من نبوغ أحدهم في الزعامة السياسية(١) ما لم يكن يخطر لاحد قبل استعدادها للنهوض معه ، وعرفانها بقدره .

بيد أنه قد تصدى لزعامة التجديد واحتكار لقب المجددين أفراد هدامون غير بنائين ، يدعون الأمة الى ترك هداية الدين ، والتجرد من لبوس الفضيلة ، والتشرف بلبس البرنيطة ، وإباحة ملابسة النساء للرجال في الرقص والسباحة ، والخلوة والسياحة ، ومعاقرة الخمر ، وما يتبع ذلك من ضروب الفسق .. وينعون على المرأة أن يكون جل همها من الحياة الاستعداد للقيام بما خلقها الله لاجله حق القيام وميزها به على الرجل ؛ وهو ان تكون زوجاً صالحة محصنة ، واماً رؤوماً مربية ، ورئيسة منزل مقتصدة منظمة .. فيسمون الدار سجنها ــ وإن كانت كقصور الجنان ، ويسمون الزوج سجاناً لها ــ وإن كانت في نظره كالحور المقصورات في الخيام ، ويغرونها بالخروج عليه والتفلت منه ، وأن تدخل داره وتدخل هي دار من أحبت بدون رضاه وإذنه . ويطمعونها في مناصب الحكومة

(١) هو سعد باشا زغلول .

ومقاعد النيابة وعدم المبالاة بما يعارض ذلك من وظائف الحمل والولادة ، والرضاعة والحضانة . بل يقول بعضهم : إنها أهل للحرب والقتال ، وقيادة الجيوش البرية والبحرية ، والأساطيل المائية والهوائية ، وإن من استبداد الرجال بالنساء واهانتهن لهن ما عبر عنه بعضهم بقوله :

كتب القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جر الذيول

كذلك يغرون الشبان بالالحاد ، ويزينون لهم اتباع الشهوات، ليتخذوا منهم ومن النساء جنداً يطيع قواده منهم طاعة عمياء ، لا يقبل فيها وفيهم — بعد المروق من الدين — وعظ واعظ ، ولا يسمع مع فوضى الآداب وطاعة الهوى نصيحة ناصح ، وحسبكم من سفه النفس وأفن الرأي ، التسليم لهم بأن القديم قبيح يجب تركه واحتقاره لأنه قديم ، ويحتقر المحافظ عليه بوصفه بالرجعية ونبز صاحبه بلقب « الرجعي » .

نعم قد حاول انتحال هذا اللقب الشريف ((التجديد)) في هذا العهد زعنفة من الملاحدة في هذا البلد العظيم ، ليس لأحد منهم امتياز فيه بالعلم والحكمة ، ولا بالرشد والفضيلة ، ولا بكشف حقيقة كانت مجهولة ، ولا بسن سنة نافعة للأمة في حفظ حقيقتها ، أو تنمية ثروتها ، أو اعادة مجدها ، ((أستغفر الله إن اعادة مجد الأمة في فتوحاتها وحضارتها رجعية عندهم يحتقرون من دعا اليه)) .

وانما كل ما أوتوا أو حملوا من البضاعة في هذه السوق ثرثرة في الكلام ، وسفسطة في الجدال ، وجرأة على تلبيس الحق بالباطل ، وسفاهة في الطعن على من يخالفهم أو يرد عليهم ، ولكن بالبهتان الصريح ، لا بالبرهان الصحيح فالصدق لا حرمة له عندهم — وباطراء غلاة الترك الذين نبذوا الاسلام وراء ظهورهم ، حتى في هدم جميع أركان الحرية : حرية الدين والرأي والخطابة والكتابة والزي والعمل — هذه الحرية ، التي يقدسها من يدعون اتباعهم من أهل العلم والحضارة العصرية ، ولولا إفراط الحكومة المصرية فيها ، لما أمكن لهؤلاء الأدعياء ان يجهروا بهذه الدعاية الالحادية

لهدم دينها وآدابها وتقاليدها ، وهذا الذي يطرونه من غلو ملاحدة الترك ليس بجديد فيهم ، بل نجم في الجيل الماضي منهم وكان من ثمراته في هذا الجيل زوال السلطنة العثمانية ، التي كانت أعظم سلطنة في أوربة وآسية وافريقية ، ولم يبق منها الا امارة جمهورية صغيرة فقيرة ، هي أقل عدداً وثروة وعلماً وحضارة من المملكة المصرية ، التي كانت احدى امارات هذه السلطنة ، وهم يريدون اليوم أن تقتدي بها في إلحادها ونبذ هداية الدين فقط ، لئلا تحـل محلهـا فيما هي أجـدر به من زعامـة ٤٠٠ مليون من المسلمين .

ولما خدع أمثالهم من أدعياء التجديد أمان الله خان وحاول تقليـد الدولة التركية الحاضرة طفقوا يفرغون عليه الحلي والحلل من الثناء ، أن اكره قومـه على لبس البرنيطة وتبرج النساء ، فكانت عاقبة تجديده الالحادي إيقاد نيران الثورة في بلاده عليه وعلى حكومته ، واضطراره الى الفرار منها وخسارة ملكه ، وأما المدارس والنظام العسكري والصناعة وغيرها من التجديد الحقيقي فلم يتوجه اليه في بلادنا الأفغان ، وقد بدىء به في القرن الماضي على عهد الرحمن خان .

وكل ما يحتاج اليه الترك من التجديد الدنيوي الذي يطلبه الملاحدة وغيرهم قد شرعوا فيه في القرن الماضي ولم يكن الاسلام مانعاً لهم من شره الذي يحظره ، فضلا عن خيره الذي يوجبه ، ولكنهم لم يسلكوا فيه طريقة الاستقلال التي سلكها اليابان بالمحافظة على مقوماتهم الدينية والقومية ، بل كانوا مقلدين فاصطدموا بالمقلدين من رجال الدين ، وكان الواجب عليهم الجمع بين التجديد الديني والدنيوي كما فعلت أوربة في النهضة الاصلاحية الدينيـة .

واما مصر فقد سبقت الترك الى هذا التجديد الدنيوي ولم يعارضها رجال الدين كما انهم لم يساعدوها ، لأن التجديد كان من جانب واحد ، ولو كان من الجانبين لتم وكمل في زمن قليل ، كما سابينه بعد .

وادعياء التجديد هنا لا ينظرون الى الواقع وانما يقلدون ملاحدة اوربة في عداوة رجال الدين تقليداً ، فهذا التقليد الأعمى هو الذي يحملهم على الصد عن الدين بالتشكيك في عقائده ، والطعن في احكامه وآدابه ، والتحقير لرجاله ، ودعوى إبطال العلم والفلسفة ، واتهام علمائه بأنهم عقبة كؤود في طريق ترقي الأمة ، فيجب أن يماطوا عنه كما يماط الأذى عن الطريق الحسية . ولو كانوا يطلبون باسم التجديد إصلاحاً عملياً ويجدون أهل الدين مقاومين لهم فيه لكانوا معذورين .

تجديد الملاحدة المزعوم شقاق جديد للأمة

هذا التجديد المزعوم كاد يكون تجديداً حقيقيا لفتنة من فتن التفريق ربما كانت شراً من فتن التفرق بالعصبيات الجنسية والوطنية ، والاحزاب السياسية ، كأننا لا نستكمل جميع أنواع الشقاق الا بوجود حزب جديد يعادي الدين ويحتقر اهله ــ وهم السواد الأعظم من الأمة ــ تقليداً لملاحدة أوربة واحرارهـا فيدعو علماءه وخطباءه وكتابه الى الرد عليه ، واستصراخهم الشعب المتدين لعداوته ومقاومته ، ويضطر زعماؤه وكبراؤه الى مطالبة الحكومة بردع المجاهرين من افراده عن جهرهم بالسوء ، وهذا عين ما وقع بسوء تأثير من جهر في الجامعة المصرية بحقوق للمراة ما انزل الله بها من سلطان[1] ثم من جهر في الجامعة الأمريكية بوجوب مساواة النساء للرجال حتى في الطلاق والميراث ، في محاضرة طبعها ونشرها في الناس[2] وقد سمعت أمس خطيب الجمعة في المسجد الذي صليت فيه يندب الاسلام ويستصرخ المصلين الصائمين للدفاع عن القرآن ، إذ اهانه بعض أعدائه فرماه بظلم النساء الخ بعد أن قام بالانكار الشديد على هذه المحاضرة بعض كبار الأمراء[3] واجمعت الجرائد على انتقاد هذا الهراء .

---

(١) هو الاستاذ محمود عزمي الذي ناظرناه في الجامعة فكان لنا الفلج والظفر بتاييد الجمهور لنا وباعترافه هو ايضا .

(٢) هو الدكتور فخري فرج ميخائيل القبطي .

(٣) هو سمو الامير عمر باشا طوسن .

أيهـا السـادة :

إن مثل هذا الشقاق قد وقع في قرون أوربة الوسطى التي كانت شر القرون عليهم ، فكانت فتنه كقطع الليل المظلم ، سفكت فيها دماء غزيرة في التنازع بين حرية العلم والحكم من جهـة (؛) وتقاليد الدين وسلطان الكنيسة من الجهة المقابلة ، ووقع مثله أخيراً في بلاد الأفغان ، وأرى أن حال مصر مخالف لحال أوربة في تلك القرون وحال الأفغان في هذا العصر ، وأنه يجب علينا درء هذه الفتنة قبل انتشارها ، وتلافي هذا الشقاق قبل تفاقم خطبه ، وهذا ما أتوخاه بهذه المحاضرة ، وأرى أنه أفضل عمل اقدمه بين يدي جمعية الرابطة الشرقية لمصر العزيزة والشرق كله .

حصر موضوع المناظرة في بضع قضايا

وإنني بعد هذا الاجمال التمهيدي أحصر موضوعها في بضع مسائل أو قضايا :

(١) في معنى التجـدد والتجديد ، والمقابلة بين القديم والجديد ، والتنازع بين الطريف والتليد ، والمفاضلة بين المتقدمين والمتاخرين ، وهو بحث لا يخلـو من فكاهة وإحماض ، في أثناء هـذا الموضوع الحرِّيف الحماز(١) .

(٢) في فضل الشيء في ذاته وصفته ، ودرجة الانتفاع به ، ومزيته في قدمه أو جدته .

(٣) في الحاجة الى التجديد الديني والتجديد الدنيوي ، وحكم الاسلام فيهما ، وحثه عليهما .

---

(١) الحريف بكسر الحاء وتشديد الراء الذي يلذع اللسان بحرافته وهو هنا مجاز ويرادفه الحماز وهو مبالغة حامز فطعم الحمز قريب من طعم الحرافة .

(٤) في المجـددين في الاسلام ، والتجديد الذي سنه حكيم الشرق الافغاني والاستاذ الامام المصري .

(٥) في انواع الاصلاح الجديد وعدم التعارض فيه مع الدين .

(٦) الاحـزاب الثلاثة في المسلمين : الفقهـاء المقلدون الجامدون ، والماديون السياسيون والمصلحون المعتدلون ، وما يقابلهم في الغرب من الأحزاب والجمعيات الدينية .

(٧) في القاعدة التي ينبني عليها الاتفاق بين الذين يخدمون أمتهم ووطنهم بالاخلاص على ما يكون بينهم من اختلاف في العرف والمشرب ، أو الدين والمذهب .

المصدر : مجلة المنار ـ م / ٣١ / جـ / ١٠ (١٩٣١) ، اعيد نشر المحاضرة كاملة في « ديوان النهضة » . ادونيس ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٨٣ ، وما ننشره هنا هو القسم الاول من المحاضرة .

حديث

طـه حسين ١٨٨٩ ـ ١٩٧٣

سيداتي .. سادتي :

في تلك الايام التي جاءت بعد الحرب العالمية وبعـد الثورة المصرية ظهرت الوان من الحرية لم يكن المصريون بل لم تكن الأمة العربية تعرفها من قبل الا في تلك الأيام القديمة التي ازدهرت فيها الحياة الاسلامية ايام الامويين والعباسيين ...

وكان اسبق الناس الى اخذ حريتهم غلاباً هم الكتاب والأدباء بوجه عام . هؤلاء الكتاب والادباء لم يحتاجوا في تلك الايام الى استئذان السلطان ليتكلموا بما في نفوسهم ، ولم يحتاجوا الى استئذانه ليقولوا ما تنتجه عقولهم وقلوبهم وما كان يلائم اذواقهم ، وانما اطلقوا السنتهم بالقول واطلقوا اقلامهم في الكتابة فنشأت احاديث في الصحف لم يكن الناس يألفونها قبـل هذا العهد .. وكانت هذه الاحاديث تمس الادب وتمس أشياء أخرى غير الادب تتصل بكل ما يكون الحياة العقلية . وكان الادباء يطرقون هذه الموضوعات في حرية واسعة توشك ان تكون مطلقة ، ثم كانوا يطرقون الموضوعات السياسية لا يحسبون حساباً لشيء ولا يخافون ان يتعرضوا للمحاكمات أو التحقيقات التي كانوا ربما قدموا اليها بين حين وحين . كان الادباء اشد الناس ايماناً بحريتهم ، واسبقهم الى الانتفاع بهذه الحرية واصطناعها في احياء الشعور وفي احياء العقل وفي تنبيه الذوق وفي تزكية القلوب .

وفي تلك الايام اثيرت مسائل ادبية كان الذين سبقوا في أواخر القرن

الماضي وفي أوائل هذا القرن قد احسوها وتاثروا بها فذهبوا في إنشائهم للشعر والنثر مذهبا جديداً ، ولكنهم لم يتعرضوا لهذه المسائل بمناقشة او جدال وانما تاثرت بها عقولهم واذواقهم وكتبوا متاثرين بها دون ان يحققوا البحث في هذه المسائل .

اثيرت مسالة القديم والجديد في الادب ، وما يلائم العصر الحديث من الوان الانشاء الادبي ، وثارت حول هذه المشكلة خصومات لم تكد تنقطع ، خصومات عنيفة اشد العنف ، مع أن أنصار الجديد قد بينوا لخصومهم أن فكرة القديم والجديد في الادب ليست مبتدعة ، وليست مستحدثة ، وانما عرفها العرب القدماء ، فكان الادب الأموي تجديداً بالقياس الى الادب الجاهلي ، وكان الادب العباسي تجديداً ، وتجديداً مسرفاً ، بالقياس الى الادب الأموي وذلك لاختلاف العصور واختلاف ظروف الحياة ولأن من شأن هذا كله ان يؤثر في الادب وأن يلونه الواناً جديدة تلائم حياة الناس وتخالف حياة الذين سبقوهم فلم يعرف العرب أيام الأمويين ولا ايام الجاهلين شاعراً كبشار او كأبي نواس ، ولم يطرقوا موضوعات كالتي كان الشعراء في القرن الثاني والثالث يطرقونها ، ولم يعرفوا الكتابة على النحو الذي كان الكتاب يكتبون عليه في تلك الايام ، أيام الرشيد وأيام المهدي وأيام الخلفاء الذين جاءوا بعد هذين ، وكذلك قد كان الادب يتجدد كلما اختلفت الظروف وكلما اختلفت العصور .

وكان هؤلاء الادباء يطالبون بأن يتجدد الادب العربي في هذا العصر الحديث كما كان يتجدد في العصور القديمة ، وكانوا يقولون ان الادب العربي أدب حي ، وما دام أدباً حياً فلا ينبغي أن يجمد ولا ان يثبت على حال من الاحوال وانما يجب أن ينتقل من طور الى طور ، وأن يتبدل من حياة الى حياة ، كما تتغير الحياة نفسها وكما تتغير الظروف المحيطة بالناس في حياتهم . حدث ذلك عند اتصال المسلمين في العصور القديمة بالثقافات الاجنبية ، وجاء أوانه في هذا العصر الحديث وقد

اشتد اتصال المصريين والعرب عامة بالآداب الاجنبية الغربية التي لم تكن بينها وبين آدابنا العربية قبل القرن التاسع عشر صلة ، أي صلة .

ولكن انصار القديم كانوا يجادلون عن قديمهم جدالا شديداً ، ويزعمون ان المحدثين لا يعرفون اللغة العربية ولا يحسنون الادب العربي، وأن هذا هو الذي يدعوهم الى أن يبتكروا فكرة التجديد ، وكان المجددون يبينون إتقانهم للغة العربية وللآداب العربية في عصورها المختلفة فيكتبون في فنون من الآداب قديمة ما كان الناس يكتبون فيها قبل تلك الايام .

وكذلك اشتد الجدال بين انصار القديم وانصار الجديد في تلك الاعوام التي جاءت في إثر الثورة المصرية ، حتى انتصر الجديد آخر الأمر واصبح انصار القديم انفسهم يحاولون أن يجددوا وإن كانوا ألحوا في إلتزام اساليب بعد بها العهد ومضى عليها الزمان .

واكثر من هذا إن قراء الصحف اهتموا بهذه المسائل التي كانت تثار بين الادباء واشتد اهتمامهم بها ، وكان موضوع أحاديثهم عندما يلتقون هذه الخلافات بين انصار القديم وانصار الجديد ، وكانوا يختصمون حول الكتاب ، اي الكتاب اثبت في الفن قدماً واي الكتاب أبرع في الكتابة قلماً ، كانوا يختصمون حول هذا كله وكانوا يحرصون على قراءة ما يكتبه الكتاب في الصحف على اختلاف مذاهبهم السياسية، ونشأت من هذا حياة عقلية لم تقتصر على طبقة بعينها من الادباء ولكنها تجاوزتهم الى قراء الصحف سواء منهم من كان له حظ عظيم من الثقافة ومن كان على حظ ضئيل منها ومن لم يكن يحسن من الأمر كله إلا الكتابة والقراءة .

ونشأ في تلك الأيام شيء غريب لم يكن مألوفاً ، فظهر بعض الشبان الذين لم يكونوا قد تثقفوا وانما يحسنون أن يكتبوا الحروف وأن يقرأوها ، ويشتغلون بفنون مختلفة من الوان الحياة الخاصة ، منهم من

يشتغل في الصناعة ومنهم من يشتغل في التجارة ، هؤلاء الشبان اكثروا من قراءة الصحف فأهمتهم وأثرت في نفوسهم واذا هم يأخذون في تمرين انفسهم على الكتابة ويأخذون في القراءة والاكثار منها واذا هم يتجرأون ذات يوم فيرسلون أحاديثهم الى الصحف وترضى عنها الصحف وتنشرها ، وكذلك جعل هذا اللون من الحياة الادبية الجديدة التي احدثتها الثورة المصرية تلك ، جعل هذا اللون يؤثر حتى في جماعة كان اقصى امرهم أن يصيروا الى حياة عامية خالصة فجعلت منهم أدباء .

في تلك الايام ظهر شيء آخر يتصل بحرية الاديب وبحرية الرأي ، ظهر في بيئات ما كان ينبغي في العصور الماضية ان يظهر فيها ، وهو الاستمساك بحرية الرأي الى اقصى الحدود ، الاستمساك بحرية الرأي والبحث عن حقائق الاشياء والجهر بما لم يكن الناس يجهرون به من قبل في بعض المسائل التي تمس السياسة والتي تمس الدين .

● طه حسين

المصدر : أدبنا الحديث ما له وما عليه ص ٢٥٩ ــ ٢٦٢ الاعمال الكاملة . المجلد ١٦ ص ٢٥٩ ــ ٢٦٢ ، والنص المختار هو حلقة من حديث اذاعي القي في اذاعة القاهرة ثم نشر بعد وفاة د. طه حسين .

الفهرس

٢٠٠٠ ط١ / ٩/١٩٨٩

هذه هي الحلقة الاولى من سلسلة «قضايا النهضة العربية» وهي قراءة جديدة للنهضة في نصوصها مصنفة وفق المشكلات التي قراها اعلام النهضة في واقعهم وما تزال من صميم واقعنا الراهن . المشكلات هذه ترتد الى تعارضات ثلاثة اساسية هي :

القديم والجديد
الشرق والغرب
الاصلاح والنهضة

ويمكن ان نضيف اليها الحوار ـ الصراع حول الاجناس الادبية الجديدة قبل ان ترسخ جذورها في ارضنا وثقافتنا .

وقد تفرع عن هذه المشكلات الأم تعارضات فرعية اخرى قد نقاربها في حينها .

السلسلة الجديدة هذه باشراف الأستاذ محمد كامل الخطيب الذي اختار وقدم لثلاث حلقات منها هي الآن قيد الطبع في الوزارة .

المختارات بذاتها قراءة ، وقد تكون اعمق القراءات واصدقها تعبيرا عن واقعنا في حاضره وماضيه القريب .

وكل قراءة تستدعي اخرى ، تتابعها هو فكر الأدب وحياته .

سعر النسخة داخل القطر
١٥٠ ل.س

في الأقطار العربية مايعادل
٢٢٥ ل.س

الطبع وفرز الألوان في مطابع وزارة الثقافة
دمشق ١٩٨٩